المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية أصول الدين
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

السببية عند أهل السنة ومخالفيهم

من خلال مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في العقيدة

إعداد
توفيق بن إبراهيم المحيش

إشراف
فضيلة الشيخ عبدالعزيز الراجحي
الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين

العام الجامعي : ١٤٢٤هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المقدمة

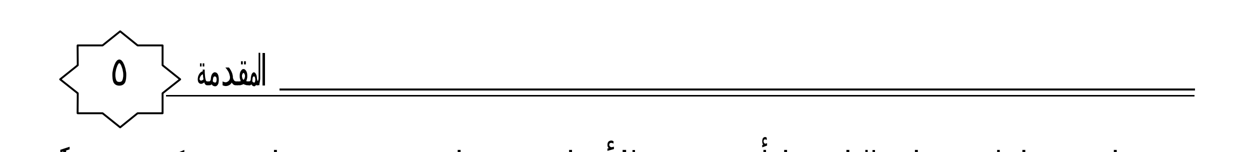
إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

أما بعد فإن موضوع السببية من المواضيع التي شغلت الناس منذ قديم الزمان ، من لدن نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام إلى نبينا محمد  إلى وقتنا الحاضر ، واشتغل بها فئات متعددة من الناس ، من المؤمنين والكافرين ، ومن العلماء والمفكرين والعامة الجاهلين .

وكان لكل عصر وفئة تصورها الخاص عن السببية سواء كان حقاً أو باطلاً ، وكان هذا التصور يبرز تارة ، ويختفي تارة أخرى ، نتيجة عوامل متعددة ليس هذا محل بسطها ، لكن يسود الاعتقاد الصحيح عند قوة نور النبوة ، وقرب العهد بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ويسود الاعتقاد الباطل عند اندراس نور النبوة ، وانتشاء زرع الجاهلية .

ولما كان أكثر الناس من المنحرفين ، وكانوا على آراء باطلة في مجملها ، يكسوها التخبط والتخليط والتناقض في تفاصيلها ، فمن نفي للأسباب بالكلية ، إلى الغلو في إثبا ا ، ومن إدخال ما ليس منها فيها ، إلى إخراج ما فيها عنها ، احتيج إلى دراسة هذا الموضوع وبسطه ، وبيان مذهب أهل السنة والجماعة فيه من خلال كتابات أبرز علماء السنة والجماعة شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني ، وهو عالم اشتهر بتأصيل المسائل وتحريرها ، وتقرير الدلائل وبسطها .

وهذا البحث يجول في كتبه ، ويحاول جمع شمل ما تفرق في هذا الموضوع عنده ، فيتناول في بابه الأول السببية وضوابطها ، ويدخل في ذلك قواعد عامة عند السلف في موضوع السببية إضافة إلى الحكمة والتعليل في أفعال الله ، وقدرة العباد وتأثيرها ، وما يرتبط بالسببية من مسائل عقدية كالمعجزات والكرامات وصفات الأفعال وطبائع الأشياء



ونحوها ، ويتناول في بابه الثاني ما أمر به من الأسباب ، وما ي عنه ، وما توهم كونه سبباً وليس كذلك ، ويتناول في بابه الثالث أقوال الفرق في السببية وما قام به شيخ الإسلام رحمه الله من جهود في رد باطلهم ودحض شبههم .

أهمية الموضوع

١- أرجو أن تسهم هذه الدراسة بشكل فعال في توضيح عميق لمذهب السلف في موضوع من أهم مواضيع علم العقيدة ، ألا وهو موضوع السببية وما يرتبط به من مسائل دقيقة لا يتصورها بوضوح كثير من الناس .

ولا شك أن شيخ الإسلام رحمه الله أبرز العلماء الذين بينوا مذهب أهل السنة والجماعة بتوسع في كثير من مسائل العقيدة ، ومن تلك المسائل مسألة السببية ، غير أن كلامه رحمه الله متفرق في كثير من كتبه ، مما يعسر الاستفادة التامة منه ، ومن هنا احتيج إلى جمع كلامه وترتيبه وتنظيمه وتبويبه في دراسة خاصة يبين فيها مذهب السلف في السببية بصورة واضحة جلية .

٢- دراسة السببية تساهم في معرفة آراء الفرق بعمق وأصالة ، ففيها تنبيه على أصول المقـالات الضالة ، وأصل انحرافها ، ذلك أن اعتقادات بعض الفرق مبنية على آرائهم في السببية .

وهذا الارتباط لا تنبه عليه كتب الفرق غالباً ، فهي تعنى بالقول دون معرفة أصوله وأسبابه ، وقد تذكر أصوله وفروعه لكنها لا تربط بينها ، الأمر الذي أدى إلى فهم ضحل لتلك المقالات .

وهذا الأمر لم تنج منه كثير من المصادر والمراجع ، فهي تعرض عرضاً سطحياً يؤدي إلى فهم ضيق ومحدود للمقالات ، فتؤخذ على أساس أ ا مجموعة من الاعتقادات غير المترابطة ويتكون منها تصور غير دقيق للمذاهب والفرق .

ويتضح ذلك جلياً عند ذكر الفرق بينها وبين مذهب السلف ، فنرى بعض الباحثين يحصر الفرق بين مذهب السلف وبعض المذاهب الأخرى في مسائل معينة ، ونقاط محددة ، وهذا في نظري خطأ علمي ، فالفرق في الحقيقة فرق بين منهجين مختلفين ، وطريقين متباينين في الأصول ، وإن اتفقا في بعض الفروع .

ولا تخفى أهمية معرفة الباطل وأصوله ، فإن من لا يعرف الباطل لا يكون في قلبه من تعظيم الإسلام مثل ما في قلب من عرف الضدين ، فالضد يظهر حسنة الضد(١) ، وبضدها تتبين الأشياء(٢)(٣).

ومعرفة الباطل سبب في وقاية النفس والمجتمع منه ، فإن الشر قد يأتي إلى الإنسان فلا يعرف أنه شر ، فإما أن يقع فيه ، وإما أن لا ينكره فيقع فيه غيره ، وبذلك ينتشر في المجتمع .

ويتدرج الأمر حتى يصير المنكر معروفاً ، ويصبح المعروف منكراً ، والبدعة سنة ، والسنة بدعة ، وتحارب السنة ، ويكّفر الرجل بمحض الإيمان ، وتجريد التوحيد ، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ، ومفارقة الأهواء والبدع ، كما قد حصل هذا في مجتمعات المسلمين والله المستعان(٤) .

---

(١) هذا عجز بيت من قصيدة تسمى باليتيمة ومطلعها : هل بالطُّلُول لسائلٍ رد أو هلْ لها بتكلمٍ عهد

ولا يعرف قائلها فيما ذكره أبو عبيدة والأصمعي والمبرد كما في البداية والنهاية لابن كثير (٢٢٠/٢)، وصدر البيت :

ضدان لما استجمعا حسنا

وقد نسب ابن جني البيت إلى المنبجي فيما نقله عنه العكبري في شرح ديوان المتنبي (٢٢/١) ، والمنبجي هذا اختلف في اسمه: فقيل: أحمد بن الحسين المنبجي الشهير بدوقلة بن العبد كما في بغية الطلب في تاريخ حلب (٦٩٨/٢) ، وقيل: الحسين بن حميد المنبجي ، وقيل: الحسن بن حميد المنبجي كما في بغية الطلب أيضاً (٢٣٤٢/٥) ، وصاحب بغية الطب يوافق على نسبة القصيدة إليه .

(٢) هذا عجز بيت من بحر الكامل وهو للمتنبي كما في شرح ديوانه للعكبري (٢٢/١) ، وصدره :

ونذِيمهم وبهم عرفنا فضله

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٥٩/٥) .

(٤) انظر فيما سبق: شرح دعوة ذي النون لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠١/١٠) ، مدارج السالكين لابن القيم (٣٧٣/١) ، مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢٩٦/١) .

٣- يكفي في أهمية هذا الموضوع إشارة القرآن العظيم ، والسنة النبوية المطهرة له في آلاف المواضع كما قال بعض أهل العلم[١] ، وهذا البحث ليس دراسة مستفيضة لتلك المواضع لكنه دراسة للموضوع المشترك بينها ، وهو موضوع السببية .

خطة البحث

أولاً : المقدمة .

ثانياً : التمهيد ، وفيه :

١- تعريف السببية .
٢- ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .
٣- دور شيخ الإسلام في بيان مذهب أهل السنة والجماعة إجمالاً .

الباب الأول

السببية عند أهل السنة والجماعة

وفيه فصول:

الفصل الأول : ضوابط السببية عند أهل السنة والجماعة .

ويشتمل على مباحث :

المبحث الأول : ثبوت الأسباب .

المبحث الثاني : الأمر باتخاذ الأسباب .

المبحث الثالث : الأمر بعدم الاعتماد على الأسباب .

المبحث الرابع : عدم استقلالية الأسباب المعينة .

---

(١) يقـول العلامـة ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل (ص ٣٨٣): '' ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع ، ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة '' .

الفصل الثاني : السببية والقدر .

ويشتمل على مباحث :

المبحث الأول : السببية في أفعال الله تعالى .

المبحث الثاني : قدرة العباد وإرادا م .

المبحث الثالث : الجزاء على الأعمال .

الفصل الثالث : السببية والنبوة .

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول : المعجزات .

المبحث الثاني : الكرامات .

الفصل الرابع : السببية والطبائع .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : صفات الأفعال .

المبحث الثاني : طبائع الأشياء .

الباب الثاني

السببية وأحكامها عند أهل السنة والجماعة

وفيه فصلان :

الفصل الأول : الأسباب المأمور ا ، وموقف ابن تيمية منها .

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول : عبودية الله تعالى .

المبحث الثاني : الصبر .

الفصل الثاني : الأسباب المنهي عنها ، وموقف ابن تيمية منها .

ويشتمل على مباحث :

المبحث الأول : الشرك .

المبحث الثاني : السحر .

المبحث الثالث : الكهانة .

المبحث الرابع : البدع .

المبحث الخامس : الأسباب الوهمية .

الباب الثالث
جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد
على الفرق الضالة في السببية

وفيه فصول :

الفصل الأول :السببية عند الفلاسفة وموقف ابن تيمية منهم .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهبهم .

المبحث الثاني : بيان شبهتهم .

المبحث الثالث : رد شيخ الإسلام عليهم .

الفصل الثاني : السببية عند الصوفية وموقف ابن تيمية منهم .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهبهم .

المبحث الثاني : بيان شبهتهم .

المبحث الثالث : رد شيخ الإسلام عليهم .

الفصل الثالث : السببية عند المعتزلة وموقف ابن تيمية منهم .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهبهم .

المبحث الثاني : بيان شبهتهم .

المبحث الثالث : رد شيخ الإسلام عليهم .

الفصل الرابع : السببية عند الأشاعرة وموقف ابن تيمية منهم .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهبهم .

المبحث الثاني : بيان شبهتهم .

المبحث الثالث : رد شيخ الإسلام عليهم .

الفصل الخامس : مقارنة بين آراء الطوائف في موضوع السببية .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أوجه الاتفاق بين الطوائف في السببية .

المبحث الثاني : أوجه الاختلاف بين الطوائف في السببية .

الخاتمة ، وفيها خلاصة البحث وأهم نتائجه .

المنهج الذي سأسير عليه خلال هذا البحث إن شاء الله تعالى :

١- سوف أراعي في عملي كله - إن شاء الله - الاحتكام إلى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، والعدل والإنصاف والتحري في نسبة الأقوال ما أمكن ، والبعد عن التعصب المذموم ، والنقل عن كل فرقة من مصادرها المعتمدة ، ولا أنقل عن غيرها إلا عند عدم تيسرها لي .

٢- عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها ، وجعل العزو في الحاشية دون الأصل .

٣- تخريج الأحاديث من مصادرها ، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فأكتفي بالعزو إلي من خرجه منهما غالباً ، وإن كان في غيرهما ، فإني أذكر موضعه فيما يتيسر لي من المصادر الحديثية ، وأتبع ذلك بذكر حكم العلماء - من المتقدمين أو المعتمد من المتأخرين - عليه بالصحة أو غيرها ، مع اتباع النهج المتعارف عليه في العزو والتخريج .

٤- تخريج الآثار من مصادرها ، وذكر حكم العلماء عليها ما أمكن .

٥- نسبة الأبيات الشعرية إلى قائليها .

٦- شرح الكلمات الغريبة والاصطلاحية .

٧- التعريف بالفرق بإيجاز في حاشية البحث عند أول ذكر لها ، ويستثنى من هذا أربع فرق : الفلاسفة والصوفية والمعتزلة والأشاعرة ، حيث سيكون التعريف بها في صلب البحث في مقدمة الفصول المخصصة لدراسة أقوالها .

٨- التعريف بالأعلام بإيجاز في الحاشية عند أول ذكر له .

٩- الكلام المنقول بنصه يكون بين علامتي تنصيص ، ويذكر المصدر أو المرجع في الحاشية .

وعندما أحذف منه شيئاً أضع نقطاً مكان الكلام المحذوف ، وعندما أضيف إليه شيئاً أو أغير بعض الكلمات منه أضع المضاف بين معكوفتين ، وأعلق عليه في الحاشية بما يوضح الزيادة والتغيير .

وأما المنقول بمعناه ، أو بتصرف فيه فلا يكون بين علامتي تنصيص ، بل يحال إلى موضعه بلفظ (انظر) ، كما يحال بهذا اللفظ إلى المصادر التي يكون فيها شيء مما ذكر في الأصل .

١٠- إذا أطلقت لقب شيخ الإسلام فأعني به تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني .

١١- ألحقت بالبحث عدة فهارس هي :

أ- فهرس الآيات القرآنية .

ب- فهرس الأحاديث النبوية .

ج- فهرس الآثار .

د- فهرس الأعلام المترجم لهم في حاشية البحث .

هـ - فهرس الفرق الواردة في البحث والمعرف بها في الحاشية .

و- فهرس الأبيات الشعرية .

ز- فهرس الكلمات الغريبة والاصطلاحية .

ح- فهرس المواضع والأماكن .

ط- فهرس المصادر والمراجع .

ي- فهرس موضوعات البحث .

وختاماً أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، فهو الذي وفقني لإتمام هذا البحث ، فإن يكن ما فيه صواباً فهو من الله عز وجل ، فله المنة والفضل ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله عز وجل ورسوله ﷺ بريئان ، فمن وقف على شيء من الخلل ، ونبهني لما فيه من الزلل فجزاه الله أفضل الجزاء ، ووفقه لصالح العمل .

كما أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة بكلية أصول الدين ، وقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة على إتاحة الفرصة لي للدراسة لديهم وتقديم هذا البحث ، وعلى ما يقدمونه من خدمة للعلم وأهله وطلابه ، فجزاهم الله خيراً .

كما أشكر فضيلة الشيخ عبدالعزيز الراجحي حفظه الله المشرف على هذا البحث لما أولاني به من رعاية ، وتفضل به من توجيهات قيمة ، وبذل من جهد في الإشراف على هذا العمل وتقويمه ، فجزاه الله خيراً ، وأجزل له المثوبة في الدارين .

وأسأل الله تعالى أن يرزقني التوفيق والسداد ، والإخلاص له في السر والعلن ، وأن يجنبني أسباب الزيغ والزلل ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التمهيد

وفيه :

١- تعريف السببية .

٢- ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية .

٣- دور شيخ الإسلام في بيان مذهب أهل السنة والجماعة إجمالاً .

تعريف السببية

وفيه فروع :

الفرع الأول : تعريف السببية .

الفرع الثاني : تعريف العلية .

الفرع الثالث : الفرق بين السببية والعلية .

الفرع الأول : تعريف السببية

قـبل البحث في السببية وتفصيل أحكامها لابد من بيان السببية ، لأنه قد تقرر عند العلماء أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، ولكي نحكم على السببية ، لابد أن نعرفها أولاً حتى يتسنى لنا الحكم عليها .

وتعريف السببية يتكون من جزأين :

أحدهما: التعريف اللغوي ، والآخر: التعريف الاصطلاحي .

التعريف اللغوي للسببية :

السببية نسبة إلى السبب ، والتاء للتأنيث .

والسبب تعددت وتنوعت استعمالات العرب له ، فقد أطلقته العرب على عدة أشياء جـاء مـنها في القـرآن الكـريم مجموعة ، وأخرى جاءت عند العرب ، ومن أبرز تلك الإطلاقات:

١- أطلق السبب على الحبل[(١)] ، ومنه قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾[(٢)(٣)] .

---

(١) انظر: العين للخليل بن أحمد (٢٠٣/٧) ، الجمهرة لابن دريد (١٠٠٠/٢) ، تهذيب اللغة للأزهري (٣١٤/١٢)، الصحاح للجوهري (١٤٥/١) ، مجمل اللغة لابن فارس (٤٥٦/١) ، الأساس للزمخشري (ص ٢٠٠) ، لسان العرب لابن منظور (٤٥٨/١) ، تاج العروس للزبيدي (٢٩٣/١) .

(٢) سورة الحج آية رقم (١٥) .

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢٦/١٧) ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٨٢/٣) .

قال ابن عباس[(١)] : '' من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ ﴾ أي: بحبل ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي: سماء بيته ﴿ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ ﴾ يقول: ثم ليختنق به ''[(٢)] .

وقال أبوعبيدة[(٣)]: '' السبب كل حبل حدرته من فوق ''[(٤)] .

وقال غيره : السبب من الحبال القوي الطويل ، ولا يدعى الحبل سبباً حتى يصعد به ، وينحدر به [(٥)] .

٢- أطلق السبب على الباب[(٦)] ، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[(٧)] .

---

(١) أبـو العباس عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي ، حبر الأمة ، والصحابي الجليل ، ولد بمكة ، ولازم الرسـول ﷺ وروى عـنه الأحاديث، شهد مع علي الجمل وصفين ، سكن الطائف وتوفي بها سنة ٦٨هـ. انظر : الإصابة لابن حجر (٣٢٢/٢) ، تهذيب التهذيب لابن حجر (٢٤٢/٥) .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٨٢/٣) .
(٣) أبـو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري ، إمام من أئمة اللغة ، له تصانيف كثيرة ، ولد سنة ١١٠ هـ وتوفي سنة ٢١٠ هـ وقيل قبلها بسنة . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٤٥/٩) ، شذرات الذهب لابن العماد (٢٤/٢) كشف الظنون لحاجي خليفة (١٥٨٦/٢) .
(٤) تهذيب اللغة للأزهري (٣١٤/١٢) ، لسان العرب لابن منظور (٤٥٩/١) .
(٥) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٣١٤/١٢) ، لسان العرب لابن منظور (٤٥٩/١) .
(٦) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٣١٤/١٢) ، لسان العرب لابن منظور (٤٥٨/١) .
(٧) سورة غافر آية رقم (٣٦ - ٣٧) .

قال قتادة[١]: '' أي أبواب السموات ''[٢] .

وقال أبو زيد[٣]: '' هي أبوابا ، واحدها سبب ''[٤] .

وقـال قتادة في تفسـير قوله تعالى: ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾[٥] : '' في أبواب السموات ''[٦] .

٣- أطلق السبب على الطريق[٧] ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[٨] .

قال مجاهد[٩]: '' طريقاً في الأرض '' . وقال أيضاً : '' م لاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب ''[١٠] .

---

(١) قـتادة بـن دعامة بن قتادة السدوسي ، أبو الخطاب البصري ، أحد علماء التابعين ، وإمام في التفسير والنسب واللغة وأيام العرب ، توفي سنة ١١٧ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٦٩/٥) ، البداية والنهاية لابن كثير (٣١٣/٩) ، شذرات الذهب لابن العماد (١٥٣/١) .
(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٦٥/٢٤) .
(٣) أبـو زيـد سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير الأنصاري إمام من أئمة اللغة والنحو ، صاحب تصانيف ، ولد سنة نيف وعشرين ومائة ، وتوفي سنة ٢١٥ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٩٦/٩) ، البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٩/١٠-٢٧٠) ، شذرات الذهب لابن العماد (٣٤/٢) .
(٤) ذيب اللغة للأزهري (٣١٤/١٢) .
(٥) سورة ص آية رقم (١٠)
(٦) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢٩/٢٣) .
(٧) انظر: التكملة والذيل والصلة للزبيدي (٢٣٧/١) .
(٨) سورة الكهف آية رقم (٨٥) .
(٩) أبـو الحجـاج مجاهد بن جبر المكي ، أحد العلماء وإمام في التفسـير ، أخذه عن ابن عباس ﷺ ، توفي سـنة ١٠٣ هـ . انظر: المنتظم لابن الجوزي (٩٤/٧) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٥٢٠) ، شذرات الذهب لابن العماد (١٢٥/١) .
(١٠) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠/١٦) .

وقال ابن زيد[١]: '' هذه الآن سبب الطرق ''[٢] .

وقال ابن جرير الطبري[٣]: '' ثم سار طرقاً ومنازل ''[٤] .

وقال ابن زيد وأبو صالح[٥] والسدي[٦] في قوله تعالى: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[٧]: '' طرق السموات ''[٨] .

وقـال ابـن زيـد في قـولـه تعـالى:﴿ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴾[٩] : '' طـرق السموات ''[١٠] .

---

(١) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولى ابن عمر ، أبوه مفسر وعنه أخذ التفسير ، ضعفوه في الحديث ، توفي سـنة ١٨٢ هـ . انظر : المجروحين لابن حبان (٥٧/٢) ، الكاشف للذهبي (١٦٤/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص٣٤٠) .

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠/١٦) .

(٣) أبـو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، الإمام المفسر المقرئ الفقيه الأصولي ، ولد سنة ٢٢٤ هـ صنف مؤلفات كثيرة توفي ببغداد سنة ٣١٠ هـ . انظر: المنتظم لابن الجوزي (٢١٥/١٣) ، وفيات الأعيان لابن خلكان (١٩١/٤) ، طبقات المفسرين للداودي (١٠٧/٢) .

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٥/١٦) .

(٥) بـاذام ويقال: باذان مولى أم هانىء بنت أبي طالب ، يروي عن ابن عباس ، وعنه الكلبي ، وهو ضعيف وعامة ما يرويه في التفسير . انظر: المجروحين لابن حبان (١٨٥/١) ، تهذيب الكمال للمزي (٦/٤) ، ميزان الاعتدال للذهبي (٢١٢/٦) .

(٦) إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة السدي الكبير ، أبو محمد الحجازي ثم الكوفي ، تابعي ، إمام مفسر ، مختلف في توثيقه وتضعيفه ، توفي سنة ١٢٧ هـ . انظر: الكامل لابن عدي (٢٧٦/١) ، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (١١٥/١) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٦٤/٥) .

(٧) سورة غافر آية رقم (٣٦ - ٣٧) .

(٨) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠/١٦) ، (٦٤/٢٤-٦٥) .

(٩) سورة ص آية رقم (١٠) .

(١٠) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢٩/٢٣) .

٤- أطلق السبب على المنازل[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[٢] .

قال ابن عباس : '' منـزل السماء ''[٣] .

وقـال قتادة في قوله تعالى: ﴿ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾[٤] : '' اتبع منازل الأرض ومعالمها '' ، وبنحو ذلك نقل عن الضحاك[٥][٦] .

وبذا المعنى جاء قول الشاعر:

لئن كنت في جبٍ ثمانين قامةً ورقيت أسباب السماء بسلمِ[٧].

فأسباب السماء: منازلها ونواحيها[٨] .

ومثله قول الآخر:

---

(١) تهـذيب اللغة للأزهري (٣١٤/١٢) ، تاج العروس للزبيدي (٢٩٣/١) ، التكملة والذيل والصلة للزبيدي (٢٣٧/١) .
(٢) سورة غافر آية رقم (٣٦ - ٣٧) .
(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٦٥/٢٤) .
(٤) سورة الكهف آية رقم (٨٥) .
(٥) الضحاك بن مزاحم البلخي الهلالي المفسر ، أبو القاسم أو أبو محمد الخرساني ، صدوق كثير الإرسال ، توفي سنة ١٠٥ وقـيل: ١٠٦ هـ . انظـر: الكامل لابن عدي (٩٥/٤) ، ميزان الاعتدال للذهبي (٣٩/٣-٤٠) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢٨٠) .
(٦) انظر فيما سبق : جامع البيان لابن جرير الطبري (١٠/١٦) .
(٧) هذا البيت للأعشى ميمون بن قيس وهو في شرح ديوانه (ص ١٨٣) .
(٨) انظر: الصحاح للجوهري (١٤٥/١) ، لسان العرب لابن منظور (٤٥٨/١) ، القاموس المحيط للفيروزآبادي (٨١/١) ، تاج العروس للزبيدي (٢٩٣/١) .

ومن هاب أسباب المنايا يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم[١]

وقـد جمع ابن جرير الطبري رحمه الله بين الأقوال المختلفة في تفسـير قوله تعالى: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[٢] فقـال: '' معناه لعلي أبلغ من أسباب السموات أسباباً أتسبب بها إلى رؤية إله موسى ، طرقاً كانت تلك الأسباب منها ، أو أبواباً أو منازل أو غير ذلك ''[٣] .

٥- أطلق على العلم ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴾[٤] .

قال ابن عباس وقتادة وابن زيد وابن جريج[٥] والضحاك : علماً[٦].

وقال ابن جرير: '' وآتيناه من كل شيء : يعني ما يتسبب إليه وهو العلم به ''[٧] .

٦- أطلق على الوصل والمودة ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴾[٨] .

قال ابن عباس: '' المودة '' .

وقال مجاهد: '' الوصال الذي كان بينهم في الدنيا '' . وقال أيضاً: '' المودة '' .

---

(١) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى وهو في شرح ديوانه (ص ٣١) .
(٢) سورة غافر آية رقم (٣٦ - ٣٧) .
(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٦٥/٢٤) .
(٤) سورة الكهف آية رقم (٨٤) .
(٥) عـبد الملـك بن عبد العزيز بن جريج الأموي المكي ، إمام أهل الحجاز ، وأحد الأعلام ، محدث حافظ ، وفقيه فاضل ، توفي سنة ١٥٠ هـ . انظر: الكاشف للذهبي (٢/٢١٠-٢١١) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٣٦٣) ، شذرات الذهب لابن العماد (٢٢٦/١) .
(٦) جامع البيان لابن جرير الطبري (٩/١٦) .
(٧) انظر فيما سبق : جامع البيان لابن جرير الطبري (٩/١٦) .
(٨) سورة البقرة آية رقم (١٦٦) .

وقال قتادة: '' هو الوصل الذي كان بينهم في الدنيا ''[١] .

٧- أطلق على الأرحام ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[٢] .

قال ابن عباس: '' الأرحام ''[٣] .

٨- أطلق على الأعمال ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[٤] على بعض الأقوال .

قال السدي : '' أما ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[٥] فالأعمال ''[٦] .

وقال ابن زيد: '' أسباب أعمالهم ، فأهل التقوى أعطوا أسباب أعمالهم وثيقة فيأخذون بها فينجون ، والآخرون أعطوا أسباب أعمالهم الخبيثة فتقطع بهم فيذهبون إلى النار ''[٧] .

ومن خلال هذا الاستعراض السريع لكلمة سبب في القرآن العظيم وبعض ما ورد عن العرب من استعمال لها ، نعلم أن كلمة السبب ذات إطلاقات متعددة وكثيرة جداً ، تختلف باختلاف سياق الكلام والمراد منه .

---

(١) انظر فيما سبق : جامع البيان لابن جرير الطبري (٧١/٢) .
(٢) سورة البقرة آية رقم (١٦٦) .
(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٧٢/٢) .
(٤) سورة البقرة آية رقم (١٦٦) .
(٥) سورة البقرة آية رقم (١٦٦) .
(٦) جامع البيان لابن جرير الطبري (٧٢/٢) .
(٧) المصدر السابق (٧٢/٢) .

التعريف الاصطلاحي للسببية :

السـببية هي العلاقة بين السبب والمُسبب[١] ، وهذه العلاقة مبنية على تأثير السبب في مسببه ، ولكي تتضح تلك العلاقة بصورة جلية ينبغي علينا أن نعرف السبب وحقيقته ، فإذا اتضح السبب اتضحت السببية .

وقد اختلف العلماء في التعريف الاصطلاحي للسبب ، فلكل طائفة تعريفها الخاص بها فلأهـل السنة تعريف ، وللفقهاء تعريف ، وللأصوليين تعريف ، وللفلاسفة تعريف ، وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف العلوم ، والآراء والأصول التي تستقي كل طائفة آراءها منها .

وسوف أستعرض فيما يلي أهم تلك التعاريف:

أولاً : تعريف أهل السنة والجماعة :

لا يبـتعد أهل السنة في تعريفهم الاصطلاحي للسبب عن التعريف الشرعي للكلمة ، فهـذه الكلمـة جـاءت في القرآن الكريم ، وتكلم عن تفسيرها الصحابة والتابعون وأئمة السـلف ، وأهل السنة والجماعة لم ينقلوا هذه الكلمة عن المعنى الشرعي الوارد في القرآن العظـيم إلى معـاني أخرى يصطلحون عليها ، بل أخذوا القدر المشترك من المعاني الشرعية وعرفوا به السبب ، ولهم عدة تعريفات تدور على هذا المعنى منها:

١- السبب : كل ما تسبب به الوصول إلى المطلوب .

---

(١) انظر: المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٦٤٩/١) .

وهذا تعريف ابن جرير الطبري، يقول رحمه الله : '' وأصل السبب عند العرب كل ما تسبب به الوصول إلى المطلوب من حبل أو وسيلة أو رحم أو قرابة أو طريق أو محجة وغير ذلك ''[(١)].

٢- السبب: كل ما تسبب به الرجل إلى طُلبته وحاجته .

٣- السبب: كل ما كان به إدراك الطُلبة .

وقـد ذكر هذين التعريفين ابن زيد ، يقول رحمه الله : '' الأسباب جمع سبب ، وهو **كل ما تسبب به الرجل إلى طلبته وحاجته ،** فيقال للحبل: سبب ؛ لأنه يتسبب بالتعلق به إلى الحاجة التي لا يوصل إليها إلا بالتعلق به ، ويقال للطريق: سبب للتسبب بركوبه إلى ما لا يدرك إلا بقطعه ، وللمصاهرة: سبب ؛ لأ ا سبب للحرمة ، وللوسيلة: سبب ؛ للوصول با إلى الحاجة ، وكذلك **كل ما كان به إدراك الطلبة ،** فهو سبب لإدراكها ''[(٢)].

٤- السبب: هو كل شيء يتوصل به إلى غيره[(٣)].

وهـذه التعريفات جميعاً ذات معاني متقاربة ، وتخلو من الشروط والتعقيدات المنطقية الـتي يشترطها المنطقيون في الحدود ، وحقيقتها هي القدر المشترك من المعاني المذكورة في كـتاب الله عز وجل ، والمنصوص عليها في كتب أهل اللغة ، وعند أئمة العربية الأوائل ، وهـي التي يذكرها بعض المحققين المتأخرين كابن القيم[(٤)] رحمه الله ، فإنه عندما تكلم عن

---

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٣٠/٢٣) .

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٧٢/٢) .

(٣) مخـتار الصحاح للرازي (ص ٢٤٧) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٣/١١ ، ١٦/١٢) ، لسان العرب (١/ ٤٥٨) .

(٤) الفقـيه الحنبلي ، بل ا تهد المطلق المفسر النحوي الأصولي المتكلم الشهير بابن قيم الجوزية ولد سنة ٦٩١ هـ وهو أشهر تلامذة الشيخ ، فقد لازمه ، وأخذ عنه كثيراً ، وسجن معه في قلعة دمشق وأطلق بعد موته ، وله مؤلفات كـثيرة مشـهورة ، توفي سنة ٧٥١ هـ . انظر : البداية والنهاية لابن كثير (٢٣٤/١٤) ، ذيل طبقات الحنابلة لابن

=

السـبب اكتفـى بمـا نقل عن السلف من معاني لغوية ، ولم يورد الاصطلاحات الكلامية للمتأخرين[١] .

وليس معنى هذا إبطالُ جميع التعريفات الاصطلاحية ، بل بعضها حق صحيح لا شك فـيه ، وبعضها باطل ، وبعضها فيه خلط للحق بالباطل وسيأتي الكلام عليها لاحقاً إن شاء الله تعالى .

أقسام الأسباب :

يقسم أهل السنة الأسباب إلى قسمين :

١- أسـباب قدرية : وهي التي جعلها الله أسباباً بأمره الكوني ، أمر الخلق والتكوين والإيجاد ، ويدخل في هذا جميع الأشياء المقدرة خلقاً وإيجاداً ، وذلك كتقدير الإحراق للنار، والقطع للسيف ، والإشباع للطعام ، ونحوها .

٢- أسـباب شـرعية : وهـي التي جعلها الله أسباباً بأمره الشرعي ، أمر الخطاب والتكلـيف ، فأمر بها العبد ، إما أمر بفعل أو أمر بترك ، ويدخل في هذا جميع المأمورات ، وجميع المنهيات ، فهي أسباب بوضع الشرع لها كذلك .

وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى هذا التقسيم في أكثر من موضع .

يقول رحمه الله عن نفاة الأسباب: " ونظير هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المقدرة في خلق الله من أبطل الأسباب المشروعة في أمر الله "[٢] .

=رجب (٤٤٧/٢) ، الدرر الكامنة لابن حجر (٤٠٠/٣) ، المقصد الأرشد لبرهان الدين ابن مفلح الحنبلي (٣٨٤/٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١٦٨/٦) ، البدر الطالع للشوكاني (١٤٣/٢) .

(١) انظر: شفاء العليل لابن القيم (ص ٣٨٤) .

(٢) أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣٨/٨) .

ففـي هذا النص يبين شيخ الإسلام رحمه الله أن الأسباب قسمان : أسباب مقدرة في الخلـق ، وأسباب مشروعة في الأمر ، وأن هناك من طوائف أهل البدع من أنكر الأسباب المقدرة ، كما أن هناك من أنكر الأسباب المشروعة[(١)].

ويقول أيضاً :'' وبين ﷺ أن الأسباب المخلوقة والمشروعة هي من القدر ، فقيل له : أرأيت رقى نسترقي بها ؟ وتقى نتقي بها ؟ وأدوية نتداوى بها ؟ هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « **هي من قدر الله** »[(٢)] ''[(٣)] .

ففي هذا النص يشير شيخ الإسلام رحمه الله إلى تقسيم الأسباب إلى أسباب مخلوقة ، وأسباب مشروعة وأنه قد جاء ذكره في الحديث ، فقد ذكر الأدوية ، وهي أسباب مخلوقة ، وذكـر الرقى وهي أسباب مشروعة ، فتضمن هذا الحديث كلا نوعي الأسـباب ، وإقرار النبي ﷺ لهما .

ثانياً : تعريف الأصوليين :

يعـرف الأصـوليون السبب في باب الخطاب الشرعي الوضعي بأنه: '' ما يلزم من وجوده الوجود ، ويلزم من عدمه العدم لذاته ''[(٤)] .

---

(١) ممن أنكر الأسباب المخلوقة الجهمية والأشاعرة ومن تبعهم من غيرهم ، وممن أنكر الأسباب الشرعية غلاة الصوفية كما سيأتي تفصيل لأقوال الطائفتين في الفصول القادمة انظر (ص٦٦٩) و(ص٧٤٩) .

(٢) رواه أحمـد (٤٢١/٣) ، والتـرمذي في الطب ، باب ما جاء في الرقى والأدوية (٣٤٩/٤) ح(٢٠٦٥) ، وابن ماجة في الطب باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (١١٣٧/٢) ح (٣٤٣٧) ، والحاكم (١٩٩/٤) ، والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٤١) ، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٧٠/٢) كلهم من حديث ابن أبي خزامة بنحوه . وقال الترمذي (٤ /٣٤٩): هذا حديث حسن صحيح ، وقال الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص٢٣١ ، ٢٤٤) : ضعيف .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٢٨/٨) .

(٤) شـرح تنقـيح الفصول للقرافي (ص ٨١) ، شرح الكوكب المنير لابن النجار الحنبلي (٤٤٥/1) ، المدخل لابن بدران (ص ١٦٠) .

فقـولهم : يلـزم من وجوده الوجود ، احتراز من الشرط[١] فإنه لا يلزم من وجوده الوجود .

وقـولهم: ويلزم من عدمه العدم ، احتراز من المانع[٢] ، فإنه لا يلزم من عدمه وجود ولا عدم .

وقولهم: لذاته ، احتراز من وجود السبب مع فقد شرط أو وجود مانع ، فإنه يلزم من عـدم الشـرط أو وجود المانع العدم لكن ليس لأجل ذات السبب ، بل لفقدان الشرط أو وجود المانع ، ومثال ذلك النصاب في المال ، فإنه سبب في وجوب الزكاة لكن بشرط تمام الحـول علـيه ، فإذا لم يتم الحول عليه لم يلزم من النصاب الزكاة ليس لذات النصاب بل لفقـدان الشـرط وهو عدم تمام الحول على المال ، فامتنعت الزكاة مع وجود السبب لفقد الشرط[٣].

وبعـض الأصـوليين من المتكلمين لهم تعاريف أخرى للسبب فيعرفونه بعدة تعاريف منها:

١- ما يحصل الشيء عنده لا به[٤] .

٢- كـل وصـف ظاهـر منضـبط دل الدليـل السمعي على كونه معرفاً لحكم شرعي[٥].

---

(١) الشـرط هـو : ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته . شرح الكوكب المنير لابن النجار (٤٥٢/١) .

(٢) المانع هو : ما يلزم من وجوده العدم ، ولا يلزم من عدمه وجود ولا عدم لذاته . انظر: شرح الكوكب المنير لابن النجار (٤٥٦/١) .

(٣) انظر فيما سبق : شرح الكوكب المنير لابن النجار الحنبلي (٤٤٥/١-٤٤٦) .

(٤) المستصفى للغزالي (٢٥٨/١) .

(٥) إحكام الأحكام للآمدي (١٢٧/١) .

٣- عبارة عما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه[١].

ولا تخفى النزعة الكلامية الأشعرية في هذا التعاريف الثلاثة الأخيرة ، فهي مبنية على أساس عدم تأثير الأسباب في المسببات ، وهذا واضح في التعريف الأول حيث وصف السبب بأنه ما يحصل الشيء عنده لا به وهذا صريح في نفي التأثير .

وفي التعريف الثاني وصف للسبب بأنه معرف للحكم ، وفيه احتراز من تأثيره ، فهو في معنى الأول .

وفي الثالث تصريح لفظي بعدم تأثير الأسباب ، وسوف يأتي مزيد من الكلام على هذه المسألة عند فصل السببية عند الأشاعرة وموقف شيخ الإسلام منهم[٢] .

تعريف الفقهاء :

يطلق السبب في اصطلاح الفقهاء على عدة أمور :

١- ما يقابل المباشر ، ويمثلون ذلك بحفر البئر مع التردية فيها ، فإذا حفر إنسان بئراً، ودفع إنسان آخر رجلاً فتردى فيها ، فهلك ، فالحافر متسبب في هلاك ذلك الرجل ، والدافع مباشر ، ويسمون الأول سبب ، والثاني علة ، ويقولون: إذا اجتمع المتسبب مع المباشر ، غلبت المباشرة ، ووجب الضمان على المباشر وانقطع حكم التسبب[٣].

---

(١) التعريفات للجرجاني (ص ١٢١) ، كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١٢٩/٣) .

(٢) انظر (ص٧٤٩) من هذا البحث .

(٣) انظر فيما سبق: المستصفى للغزالي (٢٥٩/١) ، روضة الناظر لابن قدامة (١/ ٢٤٦) ، شرح مختصر الروضة للطوفي (٤٢٦/١) ، القواعد لابن رجب الحنبلي (ص ٢٨٣) ، البحر المحيط للزركشي (١/ ٣٠٧) ، الأشباه والنظائر للسيوطي (ص ١٠٩) ، شرح الكوكب المنير لابن النجار الحنبلي (٤٤٨/١) .

٢- علة العلة ، كمن رمى إنساناً بصخرة فقتله ، فعلة موته إصابته بتلك الصخرة، وعلة إصابته بتلك الصخرة هو رميها عليه ، فالرمي علة العلة ، وقد سماه الفقهاء سبباً[(١)].

٣- العلة الشرعية بدون الشرط ، كملك نصاب بدون حولان الحول[(٢)] .

٤- العلة الشرعية الكاملة ، وهي المجموع المركب من مقتضى الحكم وشرطه ، ووجود الأهل والمحل[(٣)(٤)] .

وهو الذي ينطبق عليه قولهم: الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً ، فالحكم لا يتخلف عنه مطلقاً .

تعريف أهل العروض :

السبب عند أهل العروض من أركان هذا الفن ، لأن التفاعيل التي يوزن بها أي بحر من بحور الشعر تتركب من ثلاثة أشياء : السبب والوتد والفاصلة .

والسبب عبارة عن حرفين :

أ- فإن كانا متحركين ، فهو السبب الثقيل ، كقولك :ِلمِ،بِكَ لَكَ .

---

(١) انظر فيما سبق: المستصفى للغزالي (٢٥٩/١) ، روضة الناظر لابن قدامة (١/ ٢٤٧) ، شرح مختصر الروضة للطوفي (٤٢٧/١) ، البحر المحيط للزركشي (١/ ٣٠٧) ، شرح الكوكب المنير لابن النجار الحنبلي (٤٤٩/١) .

(٢) انظر فيما سبق: المستصفى للغزالي (٢٦٠/١) ، روضة الناظر لابن قدامة (١/ ٢٤٧) ، شرح مختصر الروضة للطوفي (٤٢٨/١) ، البحر المحيط للزركشي (١/ ٣٠٧) ، شرح الكوكب المنير لابن النجار الحنبلي (٤٤٩/١) .

(٣) مقتضى الحكم هو المعنى الطالب له ، وشرطه : ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم ، ومحله : ما تعلق به ، وأهله : هو المخاطب به ، مثال: وجوب الصلاة : حكم شرعي ، ومقتضيه: أمر الشارع بالصلاة، وشرطه : أهلية المصلي لتوجه الخطاب إليه بأن يكون عاقلاً بالغاً ، ومحله : الصلاة ، وأهله : المصلي . انظر: نزهة الخاطر العاطر لابن بدران (١٥٨/١-١٥٩) .

(٤) انظر فيما سبق: المستصفى للغزالي (٢٦٠/١) ، روضة الناظر لابن قدامة (١/ ٢٤٧) ، شرح مختصر الروضة للطوفي (٤٢٨/١) ، البحر المحيط للزركشي (١/ ٣٠٧) ، شرح الكوكب المنير لابن النجار الحنبلي (٤٤٩/١) .

ب- وإن كان الأول متحركاً والثاني ساكناً فهو السبب الخفيف ، كقولك: هب لي

والوتد عبارة عن مجموع ثلاثة أحرف إما أن يكون :

أ- اثنان متحركان وثالثهما ساكن ، كقولك: نعم عَزا

ب- أو اثنان متحركان يتوسطهما ثالث ساكن ، كقولك: مات نصر

والفاصلة: ثلاثة متحركات يليها ساكن ، كقولك: سكَنوا ، أو أربعة متحركات يليها ساكن كقولك: قَتلُهم .

والتفاعيل التي تتولد من ائتلاف الأسباب مع الأوتاد والفواصل عشرة :

فعـولُن(١)- مفَاعِـيلن - مفَاعلتن - فَاعِ لاتن - فَاعِلن - فاعِلاتن - مستفعِلُن - متفَاعِلن - مفْعلاَت - مستفْعِ لُن(٢).

رابعاً : تعريف الفلاسفة :

ويعـرف الفلاسـفة السبب بأنه : ما يحتاج إليه الشيء إما في ماهيته أو في وجوده ، وترادفه العلة .

وهو أربعة أقسام عندهم :

١- سبب مادي: ما هو داخل الشيء ومعه بالقوة ، كحجر الرخام فهو العلة المادية للتمثال .

---

(١) هذه الكلمة مركبة من وتد وهو (فعو) ، وسبب خفيف وهو (لن) وقس عليها غيرها .

(٢) انظـر فـيما سبق: الإقناع في العروض وتخريج القوافي للصاحب بن عباد (ص ٣) ، الوافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي (ص ٣٠) ، التعريفات للجرجاني (ص ١٢٢) ، كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١٢٧/٣-١٢٨) ميزان الذهب للسيد أحمد الهاشمي (ص ٥-٧) .

٢- سبب صوري: ما هو داخل الشيء ومعه بالفعل ، كشكل التمثال وما هو عليه .

٣- سبب فاعلي: ما هو مؤثر في وجود الشيء وغير داخل فيه ، فهو سبب لحصول شيء آخر .

٤- سبب غائي: ما هو مؤثر في فعلية فاعل الشيء وغير داخل فيه ، أي الذي لأجله الشيء [١] .

وقسموا السبب باعتبار تأديه إلى المُسبب إلى قسمين :

١- السبب الذاتي: وهذا إذا كان السبب يؤدي إلى المُسبب بصورة دائمة أو أكثرية .

٢- السـبب الاتفاقـي: وهذا إذا كان السبب يؤدي إلى المُسبب أحياناً على طريقة متساوية أو أقلية[٢].

---

(١) انظر فيما سبق: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١٢٨/٣) .
(٢) انظر : المصدر السابق (١٢٨/٣) .

الفرع الثاني: تعريف العلة

التعريف اللغوي للعلة :

العِلة عند العرب هي المرض[١]، يقال: عل يعِل ، واعتل ، وأعله الله ، فهو معلّ وعليل[٢].

ويطلق على كل حدث يشغل صاحبه عن وجهه[٣] ، كأن تلك العِلة صارت شغلاً ثانياً منعه شغله الأول[٤] ، ومنه: تعليل الصبي بالطعام أي: إشغاله به .

وعله يعله ويعِله إذا سقاه السقية الثانية ، والعل والعلَلَ الشربة الثانية ، وقيل: الشرب بعد الشرب تباعاً[٥] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " فإن العِلة أصلها التغيير كالمرض الذي يحيل البدن عن صحته ، والعليل ضد الصحيح "[٦] .

التعريف الاصطلاحي :

تعددت اصطلاحات الناس في العِلة ، فكل طائفة من أهل العلم لهم اصطلاح خاص في العِلة ، فالمحدثون لهم اصطلاحهم ، وكذا الفقهاء والأصوليون والفلاسفة لهم اصطلاحاتهم الخاصة بهم .

---

(١) انظر: العين للخليل بن أحمد (٨٨/١) ، جمهرة اللغة لابن دريد (١٥٦/١) ، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٤٦/١) .

(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٤٦/١) .

(٣) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٤٦/١) . وانظر: مجمل اللغة لابن فارس (٦١٠/٣) .

(٤) الصحاح للجوهري (١٧٧٣/٥) . وانظر: لسان العرب لابن منظور (٤٧١/١١) .

(٥) انظر: الصحاح للجوهري (١٧٧٣/٥) .

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣٣/٤) .

تعريف المحدثين :

يعـرف المحدثـون العِلة بأنها: سبب خفي قادح غامض طرأ على الحديث وقدح في صحته مع أن الظاهر السلامة منه[(١)] .

وتدرك بجمع الطرق والنظر في الأسانيد أو بنص فحول العلماء عليها .

ولهـم فيها تقسيمات وبحوث طويلة ودراسات مستفيضة ، وليس هذا البحث مجالاً لذكرها والتفصيل فيها ، فلتراجع في كتب أهل هذا الفن[(٢)] .

تعريف الفقهاء والأصوليين :

يطلق الفقهاء والأصوليون العِلة على أمور متعددة منها :

١- مـا يـوجب الحكم لا محالة ، وهو المجموع المكون من المقتضى و الشرط والمحل والأهل[(٣)] .

٢- المقتضي للحكم وإن تخلف الحكم عنه لفوات شرط أو وجود مانع .

وهذا المعنى هو الأكثر عند الفقهاء ، ولهذا رجحه ابن قدامة[(٤)] رحمه الله تعالى .

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١٠٣٨/٣) طبعة دار صادر بدون تاريخ .

(٢) انظر: العلل للدارقطني - مقدمة المحقق (٣٧/١) .

(٣) تقدم شرح هذه الاصطلاحات (ص ٢٩) .

(٤) عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي الدمشقي الحنبلي ، الإمام الزاهد ، موفق الدين ، ولد سنة ٥٤١ هـ وأخذ عن جمع من أهل العلم ، وصنف مصنفات عديدة ، توفي سنة ٦٢٠ هـ . انظر: الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١٣٣/٢) ، المقصد الأرشد لابن مفلح (١٥/٢) ، الأعلام للزركلي (٦٧/٤) .

٣- الحكمة ، كقولهم : المسافر يترخص لعلة المشقة[١] .

٤- المعرف للحكم[٢].

ولا يخفى ما في الأخير من نزعة كلامية أشعرية ، حيث فيها نفي تأثير العِلة ، وجعلها مجرد معرف .

تعريف الفلاسفة :

يعرف الفلاسفة العِلة بأ ا : ما يحتاج إليه الشيء في حقيقته أو وجوده [٣].

ويقسم الفلاسفة اليونان ومن تبعهم من الإسلاميين[٤] العِلة إلى أربعة أقسام :

١- علـة صورية : وهي جزء الشيء الذي يجب عند حصوله الشيء[٥] ، وهي ماهية الشيء وشكله ، ومجموع الخصائص التي يتم با كماله ، كشكل التمثال وما هو عليه[٦].

٢- علة مادية : وهي الجزء الذي لا يجب عند حصوله الشيء بل إمكان حصوله[٧] ، وهي المادة ، أو ما منه الشيء ، كحجر الرخام فهو العِلة المادية للتمثال[٨] .

(١) انظر: روضة الناظر لابن قدامة (٢٤٥/١ - ٢٤٦) .

(٢) انظر فيما سبق: البحر المحيط للزركشي (١١٠/٥) ، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص٥٢٣) .

(٣) المباحث المشرقية للفخر الرازي (٥٨٦/١) .

(٤) المقصود بالفلاسفة الإسلاميين الذين جاءوا بعد الإسلام ، وهذا الإطلاق جاء عند شيخ الإسلام رحمه الله كما في الجـواب الصحيح (٢٣/٦) ، ودرء تعارض العقل والنقل (٣٨٣/١) ، وجاء عند ابن القيم كما في بدائع الفوائد (٢/ ٤٨١) .

(٥) المباحث المشرقية للفخر الرازي (٥٨٦/١) .

(٦) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية لـ د. محمد عبدالرحمن مرحبا (ص ٢٧٥) .

(٧) المباحث المشرقية للفخر الرازي (٥٨٦/١) .

(٨) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية لـ د. محمد عبدالرحمن مرحبا (ص ٢٧٥) .

٣- علة فاعلية : وهي التي تكون سبباً لحصول شيء آخر[١] .

٤- علة غائية : وهي التي لأجلها الشيء[٢] .

وسوف يأتي مزيد كلام على مذهب الفلاسفة في السببية في الفصل الخاص بذلك[٣] .

---

(١) المباحث المشرقية للفخر الرازي (٥٨٦/١) .

(٢) المـباحث المشرقية للفخر الرازي (٥٨٦/١) . وللاستزادة انظر: معيار العلم في فن المنطق للغزالي (ص ١٨٩) ، المعجم الفلسفي لجميل صليبيا (٩٦/٢) .

(٣) انظر (ص٦١٣) .

الفرع الثالث: الفرق بين السبب والعلة :

لقـد تكلم العلماء في التفريق بين العِلة والسبب بكلام كثير ، فأكثرهم لم يفرقوا بين العِلـة والسبب ، وبعضهم فرق بينهما ، لكن تلك الفروق إما غير واضحة ، أو مبنية على آراء المتكلمين الاعتقادية ، ولتحرير المسألة فإنه يقال:

أولاً : لغـوياً فـلا شك في الفرق بين السبب والعِلة ، فكل واحد منهما له معناها الخـاص به في لغة العرب ، وقد تقدم بحث مفصل في السبب وما أطلق عليه في لغة العرب والعِلة ومعناها في لغة العرب ، فظهر بذا أنه لا ينطبق تعريف أحدهما على الآخر .

لكن ينبغي أن يلاحظ أن العرب لم تخص السبب بالمسميات المذكورة سابقاً ، بل كل ما انطبق عليه القدر المشترك للسبب دخل في دائرة السبب - وهذا يفسر لنا كثرة إطلاقات السبب - وعلى هذا فيمكن أن تدخل العِلة في دائرة السبب إذا انطبق عليها القدر المشترك للسبب، فكان بذا إدراك المطلوب .

وهـناك من النحاة من فرق بين السبب والعِلة ، فقد ذكر ابن مالك[(١)] رحمه الله باء السـببية ، وباء التعليل ، وفرق بينهما ، فجعل باء التعليل هي التي يحسن غالباً في موضعها اللام ، كقولـه تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾[(٢)] أي: لاتخاذكم ، وبـاء السببية هي الداخلة على صالح للاستغناء به عن فاعل معداها مجازاً كقولك : كتبت بالقلم ، فإنه يصح مجازاً أن تقول: كتب القلم[(٣)] .

---

(١) العلامـة جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجياني ، أبوعبدالله ، كان إماماً في النحو والمعاني والبيان والنظر ، جيد المشاركة في الفقه والأصول ، صاحب مصنفات كثيرة ، توفي سنة ٦٧٢ هـ . انظر: فوات الوفيات للكتبي (٤٠٧/٣) ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢٨/٥) ، شذرات الذهب لابن العماد (٣٩٨/٥) .

(٢) سورة البقرة آية رقم (٥٤) .

(٣) انظر : شرح التسهيل لابن مالك (١٥٠/٣) .

يقـول ابن مالك:'' والنحويون يعبرون عن هذه الباء بباء الاستعانة ، وآثرت على ذلـك التعـبير بالسببية من أجل الأفعال المنسوبة إلى الله تعالى ، فإن استعمال السببية فيها يجوز، واستعمال الاستعانة فيها لا يجوز ''[١] .

ثانـياً : اصـطلاحاً ، لا شك أن لكل علم اصطلاحاته الخاصة به التي اصطلح عليها علماؤه والمتخصصون فيه ، ومن خطأ القول خلط تلك الاصطلاحات مع بعضها دون بيان لاصـطلاح كل طائفة وما تريد به ، بل إن أحد الأسباب التي أدت بالمتكلمين إلى التفرق والاختلاف والتنازع ، هو الاصطلاحات المجملة ، ولهذا كان شيخ الإسلام رحمه الله عندما يـتكلم عن لفظ من الألفاظ الحادثة يستفصل فيه ، ويبحث عن معناه ، ولا يكتفي بالمعنى اللغـوي المجـرد ، بل يحرر البحث فيه ومراد المتكلم بالتفصيل ، ومن ثم يحكم على اللفظ والمعنى المراد به ، ولو أخذنا مثالاً على ذلك لفظ الجسم ، فإنه مع وضوحه وظهوره إلا أن لـبعض الناس اصطلاحا خاصا به ، فبالتالي شيخ الإسلام لا ينفي الجسم عن الله تعالى ولا يثبـته ، بل يستفصل عنه ، فإن أريد به معنى صحيح ، فهو صحيح ولا يضر إطلاقه - مع المـنع مـن ذلك الإطلاق لعدم وروده في الكتاب والسنة - وإن أريد به معنى باطل ، فهو باطل لفظاً ومعنى[٢] .

وهناك بعض الاصطلاحات التي قد تؤدي إلى خلاف ونزاع وردود ، وردود عكسية لكـن من يبحث بعض مسائل العلم بحثاً مفصلاً يجد قسماً من تلك الاختلافات راجعة إلى مجرد خلاف لغوي فقط .

والحاصل أن مسألة تعدد الاصطلاحات في اللفظ الواحد أدت إلى نزاعات كثيرة ، في مسائل العقيدة ضل بسببها كثير من الناس .

---

(١) شرح التسهيل لابن مالك (١٥٠/٣) .

(٢) وهذا مذهب أهل السنة والجماعة .

ومسألة العِلة والسبب هي من هذا الباب فقد رأينا كم للعلماء من تعريف اصطلاحي لكل منهما ، ومن هنا سوف أبحث عن التفريق بين العِلة والسبب في قول كل طائفة منفصلاً عما تقوله الطائفة الأخرى .

وقبل البحث في ذلك هناك أمر هام أود أن أشير إليه وهو أن القرآن والسنة لا ينبغي تفسيرهما بمعنى اصطلاحي حادث بعد القرون المفضلة ، فالكلام في الأصل يحمل على مقصود المتكلم بالدرجة الأولى ، لا على اصطلاح طائفة أو فئة من الناس ، وعلى هذا فجميع الاصطلاحات التي ذكرت ، والتي ستذكر لا تحمل على النصوص الواردة في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ إلا بدليل شرعي .

أقوال الطوائف في **التفريق** بين **العلة والسبب :**

أولاً : أهل السنة والجماعة : وهؤلاء لم أجد لديهم تفريقاً واضحاً بين السبب والعِلة ، ولعل هذا لاشتراك أهل السنة مع الفقهاء والأصوليين ، فمن كان منهم من الفقهاء فينطبق عليه ما ينطبق عليهم ، ومن كان منهم من أهل الأصول فينطبق عليه ما ينطبق عليهم .

لكن شيخ الإسلام رحمه الله له كلام في هذا الباب ، فهو عندما يتكلم عن السبب والعِلة ، أجده يذكر نوعاً من الفرق في الإطلاق وفيما يلي نصوصه المتعلقة بهذا الأمر :

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " لفظ العِلة يراد به العِلة التامة ، وهو مجموع ما يستلزم الحكم بحيث إذا وجد وجد الحكم ، ولا يتخلف عنه ، فيدخل في لفظ العِلة على هذا الاصطلاح: جبر العِلة[١] وشروطها وعدم المانع .

---

(١) لم أقف على تعريف محدد لجبر العلة فيما رجعت إليه من مصادر ، لكن من المعلوم أن العلة التامة تقابلها العلة الناقصة ، والعلة الناقصة جزء وشرط من العلة التامة ، ومن هنا نستنتج أن جبر العلة هو إتمام ما في العلة الناقصة من نقص بحيث تكتمل أجزاؤها . مثال مأخوذ من كلام الشيخ المذكور أعلاه : تعليل وجوب الزكاة في المال بمجرد تمام =

إما لكون عدم المانع يستلزم وصفا ثبوتياً على رأي ، وإما لكون العدم قد يكون جبراً من المقتضى على رأي .

وهذه العِلة متى تخصصت وانتقضت فوجد الحكم بدو ا دل على فسادها ، كما لو علل معلل قصر الصلاة بمطلق العذر قيل له: هذا باطل ؛ فإن المريض ونحوه من أهل الأعذار لا يقصـرون ، وإنما يقصر المسافر خاصة ، فالقصر دائر مع السفر وجوداً وعدماً ، ودوران الحكـم مـع الوصف وجوداً وعدماً دليل على المدار عليه للدائر ، وكما لو علل وجوب الزكاة بمجرد ملك النصاب قيل له: هذا ينتقض بالملك قبل الحول .

وقد يراد بلفظ العِلة ما يقتضي الحكم ، وإن توقف على ثبوت شروط وانتفاء موانع .

وقد يعبر عن ذلك بلفظ السبب ، فيقال: الأسباب المثبتة للإرث ثلاثة: رحم ونكاح وولاء ، وعند أبي حنيفة[١] وأحمد[٢] في إحدى الروايتين يثبت بعقد الموالاة وغيرها ، فالعِلة هنا قد يتخلف عنها الحكم [المانع][٣]: كالرق والقتل واختلاف الدين .

فإذا أريد بالعِلة هذا المعنى جاز تخصيصها لفوات شرط ووجود مانع ''[٤].

= ملك النصاب فهذه علة ناقصة وجبرها إتمام بقية العلة وهو حولان الحول عليها . انظر في العلة الناقصة : بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٣٥٨/٢) .

(١) الإمـام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، أحد الأئمة الأربعة ، ولد سنة ٨٠ هـ بالكوفة ، وأخذ العلم عن جماعـة مـن أهل العلم ، كان ورعاً ذكياً زاهداً سخياً ، ولي على القضاء فامتنع منه ، توفي سنة ١٥٠ هـ . انظر: المنتظم لابن الجوزي (١٢٨/٨) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٩٠/٦) ، البداية والنهاية لابن كثير (٩٧/١٠) .

(٢) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي ، أحد الأئمة الأربعة ، ولد سنة ١٦٤ هـ وتلقى العلم عن جماعة من العلماء ، وفي أيامه حدثت محنة القول بخلق القرآن فأوذي فيها كثيراً لكنه ثبت ونصر الله به السنة وقمع به الباطل وأهله توفي سنة ٢٤١ هـ . انظر : الحلية لأبي نعيم الأصبهاني (١٦١/٩) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ١٧٧) ، البداية والنهاية لابن كثير (٣٢٥/١٠) .

(٣) كذا في الأصل ولعل الصواب [لمانع] .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥٦/٢١-٣٥٧) .

ونستنتج من هذا أن شيخ الإسلام رحمه الله يجعل لفظ العِلة أعم من السبب ، فالعِلة تطلق على أمرين :

١- العلة التامة: وهي مجموع ما يستلزم الحكم ، وهذا لا يسمى سبباً .

٢- ما يقتضي الحكم مع توقفه على ثبوت الشروط وانتفاء الموانع ، وهذا يسمى سبباً .

لكني أجد عند شيخ الإسلام رحمه الله في بعض المواطن ذكراً للسبب التام ، ويفسره بالعلة التامة [١] ، فلعل العِلة بالتجريد والإطلاق يراد بها الأمران ، بينما السبب بالتجريد والإطلاق يراد به ما يقتضي الحكم فقط مع توقفه على ثبوت الشروط وانتفاء الموانع ، ولا يتناول السبب التام إلا بالتقييد بأنه تام .

ثانياً : الأصوليون : وهؤلاء مختلفون في التفريق بين العِلة والسبب ، فبعضهم لا يرى التفريق بينهما مطلقاً ، ونسب هذا القول للأكثرية[٢]، وآخرون يفرقون ، وهؤلاء مختلفون في وجه الفرق بين العِلة والسبب ، وأبرز ما ذكروه في ذلك فرقان :

١- السبب ما يحصل الشيء عنده ، والعِلة ما يحصل به[٣] .

وهذا الفرق يتماشى مع مذهب الأشعرية من حيث جعل الأسباب غير مؤثرة في المسببات ، وسيأتي تفصيل لهذا الأمر لاحقاً .

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥٨/٢١) .

(٢) انظر: نشر البنود شرح مراقي السعود لعبدالله بن إبراهيم الشنقيطي (٣٦/١-٣٧)

(٣) انظر: البحر المحيط لزركشي (١١٥/٥) ، المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٩٦/٢) .

٢- السبب يقتضي الحكم بواسطة أو وسائط ، ولذلك يتراخى الحكم عنه حتى توجد الشروط وتنتفي الموانع ، أما العِلة فتقتضي الحكم بلا واسطة ولا شرط ، ولا يتراخى الحكم عنها[١] .

ويظهـر هـذا الفرق أ م يخصون اسم السبب بما يتوقف على توفر الشروط وانتفاء الموانع ، ويخصون اسم العِلة بالعلة التامة التي لا تحتاج إلى توفر شروط وانتفاء موانع ، وهذا في الحقيقة يرجع إلى ما سبق ونقلته عن شيخ الإسلام رحمه الله من تفريق بينهما والله أعلم .

ثالـثاً : الفقهـاء ، وهؤلاء عندهم تداخل بين العِلة والسبب ، فيطلقون السبب على العِلة في مواضع دون أخرى .

ومـن المواضع التي يفرقون فيها عند بحث السبب والمباشر فالمباشر علة عندهم وليس سـبباً ، والضمان يتعلق بالعِلة دون السبب ، وهذا حكم قد رتب على التفريق بين السبب والعِلة ، وقد أوضحت هذا فيما سبق عند تعريف الفقهاء للسبب .

رابعاً الفلاسفة: فهؤلاء لا يفرقون بين العِلة والسبب ، بل ما يطلق عليه علة يطلق عليه سبب دون تفريق بينهما[٢] ، وهذا واضح من تعريف الفلاسفة للسبب والعِلة كما تقدم .

---

(١) انظر: البحر المحيط لزركشي (١١٥/٥) .
(٢) انظر: تلخيص كتاب البرهان لابن رشد (ص ١٥٧) ، المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٩٦/٢) .

ترجمة

شيخ الإسلام ابن تيمية

ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)]

اسمه ونسبه : هو الشيخ الإمام العالم المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث شيخ الإسلام نادرة العصر ذو التصانيف الباهرة والذكاء المفرط ، تقي الدين أبو العباس أحمد ، ابن العالم المفتي شهاب الدين عبدالحليم ، ابن الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبدالسلام ابن عبدالله بن أبي القاسم الحراني ، ابن تيمية ، وهو لقب جده الأعلى[(٢)].

ولادته : ولد في عاشر ربيع أول سنة إحدى وستين وست مائة بحران[(٣)] ، وتحول به أبوه وأقاربه إلى دمشق في سنة سبع وستين عند جور التتار ، يجرون الذرية والكتب على عجلة حتى انحازوا إلى بلاد الإسلام[(٤)].

شيوخه :

سمع شيخ الإسلام رحمه الله من أكثر من مائتي شيخ [(٥)]، منهم :

١- المحدث أحمد بن عبدالدائم بن نعمة المقدسي رحمه الله[(٦)] .

---

(١) للاستزادة انظر ترجمة شيخ الإسلام رحمه الله في : العقود الدرية لابن عبدالهادي ، الأعلام العلية للبزار ، الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون لمحمد عزيز شمس وعلي بن محمد العمران .

(٢) انظر: ذيل تاريخ الإسلام للذهبي - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٢٠٥) .

(٣) مدينة قديمة نسب إليها جماعة من الفضلاء والعلماء ، وتقع الآن في منطقة الجزيرة ما بين النهرين ، نهر دجلة والفرات ، في جنوب تركيا بالقرب من الحدود مع شمال سوريا ، على خط طول ٣٩° وخط عرض ٣٧° تقريباً . انظر: الأنساب للسمعاني (١٩٥/٢) ، معجم البلدان لياقوت الحموي (٢١٧/٢) ، المنجد في الأعلام (ص ٢١٤) ، وقسم الخرائط في المرجع السابق - خريطة سوريا (ص ٩) .

(٤) انظر: ذيل تاريخ الإسلام للذهبي - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٢٠٥) .

(٥) انظر : العقود الدرية لابن عبدالهادي (ص ٤) .

(٦) العلامة المعمر الخطيب ، ولد سنة ٥٧٥ هـ وأخذ العلم عن جماعة من العلماء ، كان فقيهاً متفنناً سريع الكتابة ، توفي سنة ٦٦٨ هـ . انظر: فوات الوفيات للكتبي (٨١/١) ، ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢٧٨/٢) ، المقصد الأرشد لابن مفلح (١٣١/١) ، شذرات الذهب لابن العماد (٣٢٥/٥) .

٢- شمس الدين أبو الفرج وأبو محمد عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي الحنبلي رحمه الله(١) .

٣- مسند الشام أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبدالله التنوخي رحمه الله(٢) .

٤- الكمـال بن عبد السيد أبو نصر عبدالعزيز بن عبدالمنعم ابن الفقيه أبي البركات الخضر بن شبل الحارثي الدمشقي رحمه الله(٣) .

٥- العلامـة أبو العباس أحمد بن أبي الخير سلامة بن إبراهيم الحداد الدمشقي الحنبلي رحمه الله(٤).

٦- الشيخ شهاب الدين أبو المحاسن وأبو أحمد عبدالحليم بن عبدالسـلام بن عبدالله ابن تيمية رحمه الله(٥) .

---

(١) العلامـة الفقيه الزاهد ، ولد سنة ٥٩٧ هـ وانتهت إليه رئاسة المذهب ، بل رئاسة العلم في عصره ، وولي قضاء الحـنابلة مدة من الزمن على كره منه ، ثم عزل نفسه ، توفي سنة ٦٨٢ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ٣٠٢) ، ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٣٠٤/٢) ، المقصد الأرشد لابن مفلح (١٠٧/٢) .

(٢) العلامـة المنشيء الكاتب تقي الدين ، ولد سنة ٥٨٩ هـ وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، له شعر جيد ، وفيه خير وبلاغة ، توفي سنة ٦٧٢ هـ . انظر: شذرات الذهب لابن العماد (٣٣٨/٥)

(٣) المسـند الـثقة ، ولد سنة ٥٨٩ هـ وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، وتوفي سنة ٦٧٢ هـ . انظر: شذرات الذهب لابن العماد (٣٣٨/٥) .

(٤) ولـد سـنة ٥٨٩ هـ وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، روى الكثير ، توفي سنة ٦٧٨ هـ . انظر: شذرات الذهب لابن العماد (٣٦٠/٥) .

(٥) والد شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولد سنة ٦٢٧ هـ وأخذ العلم عن والده وابن رواحة وغيرهما ، كان عالماً محققاً لما ينقله ، جيد المشاركة في العلوم ، له يد طولى في الفرائض والحساب والهيئة ، قال عنه الذهبي : كان من أنجم الهدى وإنما اختفى بين نور القمر وضوء الشمس ، يشير إلى أبيه وابنه ، فإن فضائله وعلومه انغمرت بين فضائلهما وعلومهما توفي سنة ٦٨٢ هـ . انظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٣١٠/٢) ، شذرات الذهب لابن العماد (٣٧٦/٥) .

٧- فخـر الـدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدالواحد البخاري المقدسي الحنبلي رحمه الله[١] .

٨- جمـال الدين ابن الصيرفي ، وهو أبو زكريا يحيى بن أبي منصور بن أبي الفتح بن رافع الحراني الحنبلي رحمه الله[٢] .

٩- الأمـين القاسم بن أبي بكر بن القاسم الإربلي[٣] ، راوي صحيح مسلم[٤] رحمه الله.

١٠- المسـند شمـس الدين أبو الغنائم المسلم بن محمد بن مسلم بن علان القيسي الدمشقي رحمه الله[٥] .

وقرأ بنفسه على جماعة وانتخب ونسخ عدة أجزاء ، ونظر في الرجال والعلل ، وصار من أئمة النقد ومن علماء الأثر .

---

(١) مسـند الدنيا محدث الإسلام ، ولد سنة ٥٩٥ هـ وأخذ العلم عن خلائق ، طال عمره ، وتفرد بالرواية العالية روى الحديث فوق ستين سنة ، كان علماً فقيهاً زاهداً عابداً توفي سنة ٦٩٠ هـ . انظر: البداية والنهاية (٣٢٤/١٣) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٣٢٤/٢) ، المقصد الأرشد لابن مفلح (٢١٠/٢) .

(٢) المفتي المعمر ، ولـد سنة ٥٨٣ هـ وأخذ عن جمع كثير ، كان من الشـيوخ والفقهاء المتعبدين ، له مصنفات عديدة ، توفي سنة ٦٧٨ هـ . انظر : الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٢٩٥/٢) ، المقصد الأرشد لابن مفلح (٨٧/٣) ، شذرات الذهب لابن العماد (٣٦٣/٥) .

(٣) رحل مع والده وله بضع عشرة سنة ، فذكر وهو صدوق أنه سمع جميع صحيح مسلم من المؤيد الطوسي ، ورواه بدمشق ، فسمعه منه الكبار ، توفي سنة ٦٨٠ هـ . انظر: شذرات الذهب لابن العماد (٣٦٧/٥) .

(٤) أبـو الحسـين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، ولد سنة ٢٠٤ هـ وروى عن جمع من العلماء ، أشهر كتـبه (الصـحيح) ، وله مصنفات غيره ، توفي سنة ٢٦١ هـ . انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (٥٨٨/٢) ، تهذيب التهذيب لابن حجر (١١٣/١٠) ، الأعلام للزركلي (٢٢١/٧) .

(٥) القاضـي الجليل ، ولد سنة ٥٩٤ هـ وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، وأجاز له الخشوعي وجماعة ، كان من سروات الناس توفي سنة ٦٨٠ هـ . انظر: شذرات الذهب لابن العماد (٣٦٩/٥) .

ثم أقـبل علـى الفقه ودقائقه وقواعده وحججه ، والإجماع والاختلاف ، حتى كان يقضى منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف ، ثم يستدل ويرجح ويجتهد .

وكـان آيـة من آيات الله في التفسير والتوسع فيه ، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين .

أما أصول الديانة ومعرفتها ومعرفة أحوال الخوارج[(١)] والروافض[(٢)] والمعتزلة ، وأنواع المبتدعة فكان لا يشق فيه غباره ، ولا يلحق شأوه[(٣)].

---

(١) فرقة من الفرق الإسلامية سموا بذلك لخروجهم على علي بن أبي طالب ﷺ يوم الحكمين ، حين كرهوا التحكيم يقولون بتكفير عثمان وعلي وأصحاب الجمل والحكمين ، وكل من رضي بالحكمين ، ويقدمون ذلك على كل طاعة ويرون تكفير أصحاب الكبائر من أمة محمد ﷺ ، ويقولون بخلودهم في النار يوم القيامة ، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقاً واجباً، وهم فرق متعددة ، وكبارهم المحكمة والأزارقة والنجدات والصفرية والبيهسية والعجاردة والثعالـبة والإباضية . انظر: التبصير في الدين للإسفرايني (ص ٤٥) ، الملل والنحل للشهرستاني (١١٥/١) ، البرهان للسكسكي (ص ١٧) .

(٢) هـم فـرقة من فرق الشيعة ، وإنما سموا رافضة لرفضهم زيد بن علي لما طلبوا منه التبرؤ من الشيخين فأبى ذلك علـيهم فرفضوه ، وقيل: لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وهم مجمعون على أن الإمامة لا تكون إلا بـنص وتوقيف ، وأن علي بن أبي طالب ﷺ أفضل الصحابة ، وأن النبي ﷺ نص على استخلافه باسمه وأظهر ذلك وأعلنه ، وأن أكثر الصحابة ارتدوا بتركهم الإقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ ، وأن الأئمة معصومون لا يجوز عليهم الغلط والسهو ، وأكثرهم يزعم أن الله لا يعلم ما يكون قبل أن يكون ، ويقول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم الحساب ، وأن الإمام يعلم كل شيء مما كان وما يكون في أمر الدين والدنيا إلى غير ذلك من المقالات الفاسدة .
انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (ص ١٦) ، البرهان للسكسكي (ص ٦٥) ، الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/١٣ - ٣٦) .

(٣) انظـر: ذيـل تاريخ الإسلام للذهبي - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٢٠٦) . والشأو : الغاية والأمد . لسان العرب لابن منظور (٤١٧/١٤) .

تلامذته:

تتلمذ على يد شيخ الإسلام رحمه الله كوكبة من العلماء والمحدثين والفقهاء ، وسوف أذكر فيما يلي بعض هؤلاء[1] ، فمنهم :

١- الشيخ إبراهيم بن أحمد الغياني رحمه الله[2].

٢- الشيخ الزاهد أحمد بن إبراهيم الواسطي رحمه الله[3].

٣- شهاب الدين أحمد بن محمد بن مري الحنبلي البعلبكي رحمه الله[4].

---

(١) للاستزادة انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٦٤٢) .

(٢) خادم شيخ الإسلام رحمه الله ، ومؤلف رسالة فيما قام به الشيخ رحمه الله ، وتفرد به عن العلماء الذين كانوا قبله وفي زمنه، من تكسير الأصنام التي كان الناس يزورونها ويتبركون بها ، ويقبلونها ، وينذرون لها النذور ، ويطلبون عندها قضاء الحاجات ، ويعتقدون أن من تعرض لها بسوء أصابته بآفة من الآفات في نفسه . انظر: رسالة في تكسير الأحجار للغياني - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٨٧) .

(٣) الإمام القدوة العارف عماد الدين أبو العباس ، المعروف بابن شيخ الحزاميين ، كان رجلاً صالحاً ، ورعاً ، كبير الشأن ، منقطعاً إلى الله ، متوفراً على العبادة والسلوك ، توفي سنة ٧١١ هـ ، وله رسالة بعثها إلى جماعة من أصحاب الشيخ ، وأوصاهم فيها بملازمة الشيخ ، والحث على إتباع طريقته ، وأثنى فيها على الشيخ ثناء عظيماً. انظر : العقود الدرية لابن عبدالهادي (ص ١٩٣) ، والرسالة موجودة ضمن العقود الدرية (ص ١٩٣-٢١٢) ، ونشرت ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٥٥-٧٧) ، وتسمى : التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار .

(٤) يقول ابن حجر في الدرر الكامنة (١/٣٠٢-٣٠٣): " كان منحرفا عن ابن تيمية ، ثم اجتمع به ، فأحبه ، وتلمذ له ، وكتب مصنفاته ... وكان قدم القاهرة فتكلم على الناس بجامع أمير حسين بن جندر ... وبجامع عمرو بن العاص ، وسلك طريق ابن تيمية في الحط على الصوفية ، ثم إنه تكلم في مسألة التوسل بالنبي ﷺ وفي مسألة الزيارة وغيرهما على طريق ابن تيمية ، فوثب به جماعة من العامة ، ومن يتعصب للصوفية ، وأرادوا قتله ، فهرب ، فرفعوا أمره إلى القاضي المالكي تقي الدين الأخنائي ، فطلبه ، وتغيب عنه ، فأرسل إليه ، وأحضره وسجنه ، ومنعه من الجلوس ، وذلك بعد أن عقد له مجلس بين يدي السلطان ، وذلك في ربيع الآخر سنة ٧٢٥ ، فأثنى عليه بدر الدين ابن جنكلي ، وبدر الدين بن جماعة وغيرهما من الأمراء ، وعارضهم الأمير أيدمر الحظيري ، فحط عليه ، وعلى شيخه وتفاوض هو وجنكلي حتى كادت تكون فتنة ، ففوض السلطان الأمر لأرغون النائب ، فأغلظ القول للفخر ناظر الجيش ، وذكر أنه يسعى للصوفية بغير علم ، وأنهم تعصبوا عليه بالباطل ، فآل الأمر إلى تمكين المالكي منه ،

=

٤- الحافظ الكبير عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي رحمه الله[١].

٥- الإمام العالم صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي الشافعي رحمه الله[٢].

=فضـربه بحضرته ضرباً مبرحاً ، حتى أدماه ثم شهره على حمار أركبه مقلوباً ، ثم نودي عليه هذا جزاء من يتكلم في حـق رسول الله ﷺ ، فكادت العامة تقتله ، ثم أعيد إلى السجن ، ثم شفع فيه ، فآل أمره إلى أن سفر من القاهرة إلى الخلـيل فرحل بأهله ، وأقام به وتردد إلى دمشق ''، وتوفي بعد سنة ٧٢٨ هـ ، وله رسالة إلى تلامذة شيخ الإسلام رحمه الله يوصيهم فيها بالاهتمام بكتب الشيخ ، وقد نشـرت ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٩٧-١٠٤) .

وقد ذكر الحافظ في نفس الترجمة قصة عجيبة تدل على أن ما جرى لابن مري كان بسبب تتلمذه على شيخ الإسلام رحمـه الله ، لا بسبب أقواله ودروسه ، قال : '' ومن الاتفاقيات أن شخصاً يقال له: ابن شاس حضر درساً ، فانجر الـبحث إلى أن صوب ما نقل عن ابن مري في مسألة التوسل ، فوثب به جماعة وحملوه إلى القاضي المالكي المذكور ، وشـهد عليه جمع كبير ، فدافع عنه القاضي فجهدوا به أن يفعل معه ما فعل بابن مري أو بعضه فلم يفعل فنسب إلى التعنت في ذلك حتى قال فيه البرهان الرشيدي:

يا حاكما شـيد أحكامه على ... تقى الإلـه وأقـوى أسـ ـاس
مقالة في ابن مـري لفقـت ... تجاوزت في الحد حد القيـ ـاس
ففي ابن شـاس قط ما أثرت ... فهل أباح الشرع كفر ابن شاس '' .

وقد فاتت هذه الترجمة فيما يبدو على مؤلفي الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ، علماً بأ ما قد نقلا عن ابن كثير إشارة مختصرة جداً لما حصل لابن مري . انظر الجامع (ص ٣٧٥) .

(١) عمـاد الـدين الشافعي المفتي المحدث البارع الفقيه المتقن المفسر ، ولد سنة ٧٠٠ هـ تقريباً ، وأخذ عن شيخ الإسـلام رحمه الله وأكثر في ذلك ، له مؤلفات كثيرة مشهورة ، توفي عام ٧٧٤ هـ وقد كف بصره . انظر: الدرر الكامـنة لابن حجر (٣٧٣/١) ، طبقات المفسرين للداودي (١١٠/١) ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٦/ ٢٣١) ، البدر الطالع للشوكاني (١٥٣/١) .

(٢) العلامـة الأديب ، ولد سنة ٦٩٦ أو ٦٩٧ هـ بصفد ، أخذ عن جماعة من أهل العلم ، حدث بدمشق وحلب وغيرهما ، وله مؤلفـات كثيرة ، توفي سنة ٧٦٤ هـ . انظر: طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (٩٤/٦) الدرر الكامنة لابن حجر (٨٧/٢) ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢٠٠/٦) .

٦- المفـتي الزاهد شرف الدين عبدالله بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي رحمه الله[(١)].

٧- زين الدين عبدالرحمن بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية رحمه الله[(٢)] .

٨- الإمـام الحافظ علم الدين أبو محمد القاسم بن البهاء محمد بن يوسف بن الحافظ زكي الدين الدمشقي البرزالي الشافعي رحمه الله[(٣)].

٩- الإمـام العلامة شمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي رحمه الله[(٤)] .

---

(١) العلامة القدوة الفقيه أخو شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولد سنة ٦٦٦ هـ ، وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، برع في فنون عديدة منها الفقه والنحو والأصول وغيرها ، وقد استدعي غير مرة وحده للمناظرة فناظر ، وأفحم الخصوم ، تـوفي سـنة ٧٢٧ هـ . انظر : الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٣٨٢/٢) ، الدرر الكامنة لابن حجر (٢/ ٢٦٦) ، المقصد الأرشد لابن مفلح (٤٢/٢) ، شذرات الذهب لابن العماد (٧٦/٦) .

(٢) أخـو شـيخ الإسلام رحمه الله ، ولد سنة ٦٦٣ هـ ، وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، كان يعمل بالتجارة ، حـبس نفسـه مع أخيه بالإسكندرية ودمشق محبة له وإيثاراً لخدمته ، ولم يزل معه حتى توفي ، كان مشهوراً بالديانة وحسن السيرة ، توفي سنة ٧٤٧ هـ . انظر: الدرر الكامنة لابن حجر (٣٢٩/٢) . .

(٣) العلامـة المحـدث مؤرخ العصر علم الدين البرزالي ، ولد سنة ٦٦٥ هـ ، وأخذ عن أكثر من ثلاثة آلاف شيخ كان عالماً بالحديث والرجال له مصنفات كثيرة ، توفي سنة ٧٣٩ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٨٥/١٤) الدرر الكامنة لابن حجر (٢٣٧/٣) ، شذرات الذهب لابن العماد (١٢٢/٦) ، البدر الطالع للشوكاني (٥١/٢) .

(٤) المحـدث الحـافظ الفقـيه البارع النحوي اللغوي ، ولد سنة ٧٠٥ هـ ، وسمع من خلائق ،كان جبلاً في العلل والطرق والرجال حسن الفهم صحيح الذهن ، له مؤلفات عديدة ، توفي سنة ٧٤٤ هـ . إنظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢١٠/١٤) ، الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٤٣٦/٢) ، الدرر الكامنة لابن حجر (٣٣١/٣) .

١٠- الإمـام الحافظ المحدث شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدمشقي رحمه الله[(١)] .

١١- شمـس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الحنبلي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية رحمه الله .

١٢- صـلاح الدين محمد بن شـاكر بن أحمـد بن عبدالرحمن بن شـاكر الكتبي رحمه الله[(٢)] .

١٣- أبـو عبـدالله محمد بن عبـدالله بن أحمـد المعروف بابن رشيق المـالـكي رحمه الله[(٣)].

١٤- الإمام الحافظ علاء الدين مغلطاي بن قليج بن عبد الله الحنفي رحمه الله[(٤)].

---

(١) مؤرخ الإسلام ، وشيخ المحدثين ، ولد سنة ٦٧٣ هـ ، وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، وله تصانيف كثيرة جداً تـوفي سنة ٧٤٨ هـ بعدما كف بصره . انظر: الدرر الكامنة لابن حجر (٣٣٦/٣) ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١٥٣/٦) ، البدر الطالع للشوكاني (١١٠/٢) .

(٢) العلامـة المـؤرخ ، ولد سنة ٦٨١ هـ وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، تفرد في صناعته ، وجمع تاريخاً، وكان يذاكـر ويفيد توفي سنة ٧٦٤ هـ . انظر: الدرر الكامنة لابن حجر (٤٥١/٣) ، شذرات الذهب لابن العماد (٦/ ٢٠٣) .

(٣) المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وهو ناسخ مؤلفات شيخ الإسلام رحمه الله ، وصاحب كتاب (مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمـية) المنسوب خطأ لابن قيم الجوزية ، وكان أعلم تلاميذ شيخ الإسلام رحمه الله بمؤلفاته على الإطلاق ، يقول ابن كـثير : '' كاتـب مصـنفات شيخنا العلامة ابن تيمية كان أبصر بخط الشيخ منه ، إذا عزب شيء منه على الشيخ اسـتخرجه أبـو عبد الله هذا ، وكان سريع الكتابة ، لا بأس به ، ديناً عابداً كثير التلاوة حسن الصلاة ... رحمه الله وغفـر له آمين ''. انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢٢٩/١٤) ، وانظر : رسالة شهاب الدين ابن مري إلى تلاميذ شيخ الإسلام - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٩٨) .

(٤) العلامـة المحـدث ، ولد سنة ٦٨٩ هـ وسمع من خلائق ، وولي تدريس الحديث بالظاهرية بعد ابن سيد الناس وغيرهـا ، ولـه مآخذ على المحدثين وأهل اللغة ، وتصانيفه أكثر من مائة ، توفي سنة ٧٦٢ هـ ، وقد ترجم لشيخ الإسلام باختصار في كتابه المسمى: الإيصال لكتاب ابن سليم وابن نقطة والإكمال - نقلت ضمن الجامع لسيرة شيخ

=

صفاته الخُلُقية

يقول ابن القيم رحمه الله : '' وعِلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط ، مع كل ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه ، وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله [عنا] ، وينقلب انشراحاً وقوةً ويقيناً وطمأنينةً ''[1] .

يقول الذهبي عنه بعدما ذكر علمه : '' هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط ، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل ، والفراغ عن ملاذ النفس من اللباس الجميل ، والمأكل الطيب ، والراحة الدنيوية''[2] .

ويقول أيضاً : ''وكان قوالاً بالحق ، و ناهٍ عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ذا سطوة وإقدام ، وعدم مداراة للأغيار''[3].

نماذج من أخلاقه :

١- عبادته وزهده : كان شيخ الإسلام رحمه الله عابداً لله تعالى زاهداً في الدنيا وما فيها .

=الإسلام ابن تيمية (ص ٢٨١) . انظر :طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٥٣٧) ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١٩٧/٦) .

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص ٩٧) .

(٢) ذيل تاريخ الإسلام للذهبي - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٢٠٦) .

(٣) المصدر السابق (ص ٢٠٧) .

يقــول ابــن القيم: '' وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي ، لو لم أتغد هذا الغداء لسقطت قوتي . أو كلاماً قريباً من هذا

وقــال لي مرة : لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي ، وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر . أو كلاماً هذا معناه ''[(١)] .

ويقول الذهبي : '' وما رأيت في العالم أكرم منه ، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم لا يذكره ، ولا أظنه يدور في ذهنه ، وفيه مروءة ، وقيام مع أصحابه ، وسعي في مصالحهم، وهو فقير لا مال له ، وملبوسه كآحاد الفقهاء ''[(٢)] .

٢- سماحته وإحسانه : أما إحسانه إلى أعدائه ، ومعاملته لهم بضد ما عاملوه ، فهذا مما اشتهر عن شيخ الإسلام رحمه الله .

يقــول الشيخ أبي إسماعيل عبدالله بن محمد الهروي[(٣)] رحمه الله : في درجات الفتوة : '' الدرجة الثانية : أن تقرب من يقْصيك ، وتكْرِم من يؤذيك ... سماحة لا كظماً ، ومودةً لا مصابرة ''[(٤)] .

يعلــق ابن القيم رحمه الله على هذا النص فيقول : '' ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي ، فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها هذه بعينها ، ولم يكن كمال هذه الدرجة

---

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص ٨٥-٨٦) .

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٣٩٥/٢) .

(٣) شــيخ الإسلام الحافظ الإمام الزاهد أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري ، ولد سنة ٣٩٦ هـ وأخذ عــن خلق من العلماء ، وكان إماماً متقناً قائماً بنصر السنة والرد على المبتدعة ، توفي سنة ٤٨١ هـ . انظر: طبقات الحــنابلة لأبي الحســين بن أبي يعلى (٢٤٧/٢) ، المنتظم لابن الجوزي (٢٧٨/١٦) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ٥٠٣) ، طبقات المفسرين للداودي (ص ٢٤٩) .

(٤) منازل السائرين للهروي (ص ٢٣) وفيه أخطاء مطبعية صححت من المدراج (٣٨٥/٢) .

لأحـد سواه ، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة ، وما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصـال من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه .

ومـا رأيته يدعو على أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم ، وجئت يوماً مبشراً له بموت أكـبر أعدائه ، وأشدهم عداوة وأذى له ، فنهرني ، وتنكر لي ، واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بـيت أهلـه ، فعزاهم ، وقال: إني لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مسـاعدة إلا وساعدتكم فيه ، ونحو هذا من الكلام ، فسروا به ، ودعوا له وعظموا هذه الحال منه ، فرحمه الله ورضى عنه ''[1] .

٣- تواضـعه : كـان شيخ الإسلام رحمه الله مع كل ما أنعم الله به عليه من علم وعـبادة وقـبول عـند الناس متواضعاً ، بل شديد التواضع ، ويصف لنا العلامة ابن القيم تواضعه فيقول : '' كان إذا أثني عليه في وجهه يقول : والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً ''[2] .

٤- صبره وشكره : قضى شيخ الإسلام رحمه الله قسماً من حياته في السجن ، ولم يعـرف عنه الجزع أو الهلع ، بل كان في أحواله تلك صابراً محتسباً ، لا بل شاكراً ذاكراً لله عز وجل ، ويعد ما يصيبه من ذلك نعمة وخيراً ، وإليك نماذج من ذلك :

١- '' كان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة ، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ، ونحو هذا''[3] .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣٥٩/٢) .
(٢) المصدر السابق (٥٦٢/١) .
(٣) نقله عنه ابن القيم في الوابل الصيب (ص ٩٦) .

٢- ولما أراد أعداؤه أن يخرجوه من حبسه في القاهرة ، إلى حبس آخر في الإسكندرية، فلما ركب على باب الحبس قال له إنسان: ''يا سيدي هذا مقام الصبر ، فقال له : بل هذا مقام الحمد والشكر ، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم ، ولو أن معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقته ما أديت عشر هذه النعمة التي أنا فيها''[1] .

٣- لما سجن شيخ الإسلام رحمه الله في آخر عمره ، كتب رسالة إلى أصحابه بالفحم قبل وفاته بشهر ونصف ، وذلك بعدما أخرجت الكتب من عنده ، يقول فيها : '' ونحن ولله الحمد والشكر في نعم عظيمة تتزايد كل يوم ، ويجدد الله تعالى من نعمه نعماً أخرى ، وخروج الكتب كان من أعظم النعم ، فإني كنت حريصاً على خروج شيء منها لتقفوا عليه ، وهم كرهوا خروج (الأخنائية) ، فاستعملهم الله تعالى في إخراج الجميع ، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه ، وبذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق ، فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس ، فإذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله ، ومن كان قصده الباطل ، قامت عليه حجة الله ، واستحق أن يذله الله ويخزيه ، وما كتبت شيئاً من هذا ليكتم عن أحد ، ولو كان مبغضاً ، والأوراق التي فيها جواباتكم غسلت ، وأنا طيب ، وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا ، ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ....

كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة ، والحكمة إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو القوي العزيز العليم الحكيم ، ولا يدخل على أحد ضرر إلا من ذنوبه ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾[2] فالعبد عليه أن يشكر الله ، ويحمده دائماً على كل حال ، ويستغفر من ذنوبه ، فالشكر يوجب المزيد من النعم

---

(١) رسالة في تكسير الأحجار للغياني - ضمن الجامع في سيرة شيخ الإسلام (ص ٩٥) .
(٢) سورة النساء آية رقم (٧٩) .

والاستغفار يدفع النقم ، ولا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له ''[١] .

٥- عفوه : لا أدل من عفو شيخ الإسلام رحمه الله من موقفه من العلماء الذين سعوا به ، وسجنوه ، بل وأصدروا فتاوى في قتله ، ومع ذلك لما قدر عليهم ، وجاءته الفرصة للانتقام منهم عفا عنهم ، وجعلهم في حل من جهته .

يقول ابن عبدالهادي رحمه الله : '' وسمعت الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله يذكر أن السلطان لما جلسا[٢] بالشباك أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله[٣] واستفتاه في قتل بعضهم ، قال: ففهمت مقصوده ، وأن عنده حنقاً شديداً عليهم لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير[٤] ، فشرعت في مدحهم ، والثناء عليهم ، وشكرهم ، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك ، أما أنا فهم في حل من حقي ، ومن جهتي ، وسكنت ما عنده عليهم .

قال فكان القاضي زين الدين ابن مخلوف قاضي المالكية[٥] يقول بعد ذلك: ما رأينا أتقى من ابن تيمية لم نبق ممكناً في السعي فيه ، ولما قدر علينا عفا عنا ''[٦] .

---

(١) العقود الدرية لابن عبدالهادي (ص ٢٤٤-٢٤٥) .

(٢) يعني شيخ الإسلام مع السلطان .

(٣) يعني في قتل شيخ الإسلام رحمه الله .

(٤) بيبرس البرجي العثماني الجاشنكير الملك ، كان من مماليك المنصور قلاوون ، واستبد بالأمر في زمن السلطان الناصر ، ثم تسلطن وتلقب بالمظفر ، بعدما أفتاه جماعة من العلماء بجواز ذلك ، قتله الملك الناصر عام ٧٠٩ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٥٥/١٤) ، الدرر الكامنة لابن حجر (٥٠٢/١) ، البدر الطالع للشوكاني (١/ ١٦٦).

(٥) علي بن مخلوف بن ناهض بن مسلم النويري المالكي ، زين الدين ، أخذ عن جماعة من العلماء ، وتولى منصب قاضي القضاة في ذلك الوقت ، كان ممن قام على شيخ الإسلام ، توفي عام ٧١٨ هـ . انظر : الدرر الكامنة لابن حجر (١٢٧/٣) .

(٦) العقود الدرية لابن عبدالهادي (ص ١٨٧) .

٦- شجاعته : عند الشدائد تبرز حقائق الرجال ، وتظهر شجاعة الأبطال ، وميدان الشجاعة لا يقتصر على الحرب والطعان ، وإن كان لشيخ الإسلام رحمه الله فيها مجال ، ولكن هناك مواطن يضعف فيها حتى الأبطال ، وقد كان لشيخ الإسلام رحمه الله في هذا المقام موقف لا ينسى ، سأنقله عمن حضره .

يقول الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن عمر البالسي[١]رحمه الله - ''وكان يوم قازان[٢] في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية، لما تكلم مع قازان ، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته ، وجرأته عليه ، وأنه قال لترجمانه: قل للقان ، أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك مؤذنون وقاضي وإمام وشيخ على ما بلغنا ، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا ؟ وأبوك وجدك هلاكو[٣] كانا كافرين ، وما غزوا بلاد الإسلام! بل عاهدوا قومنا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت ....

قال: وقرب إلى الجماعة طعاماً ، فأكلوا منه إلا ابن تيمية ، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم ، وكله مما نهبتم من أغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟

قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء ، فقال في دعائه: اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده وملكه البلاد

---

(١) العابد الناسك الورع الزاهد القدوة بقية السلف وقدوة الخلف ، ولد سنة ٦٥٠ هـ وأخذ عن جماعة من العلماء كان شيخاً جليلاً ، بشوش الوجه ، حسن السمت ، مقصداً لكل أحد ، كثير الوقار عليه سيما العبادة والخير ، توفي سنة ٧١٨ هـ .انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٨٩/١٤) ، شذرات الذهب لابن العماد (٤٩/٦) .

(٢) قازان ملك التتار ، اسمه محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولي خان بن جنكيزخان ، أسلم سنة ٦٩٤ هـ وفشا الإسلام بإسلامه في ممالك التتار ، توفي سنة ٧٠٣ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢٩/١٤) ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٢١٢/٨) ، شذرات الذهب لابن العماد (٩/٦) .

(٣) ملك التتار هولاكو بن تولي خان بن جنكيز خان ، كان ملكاً جباراً فاجراً كافراً ، قتل من المسلمين شرقاً وغرباً ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ، هلك في عام ٦٦٤ هـ ، وقيل: ٦٦٣ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢٤٨/١٣) .

والعـباد ، وإن كـان إنما قام رياءً وسمعةً وطلباً للدنيا ، ولتكون كلمته هي العليا ، وليذل الإسـلام وأهله ، فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره ، قال: وقازان يؤمن على دعائه ويرفع يديـه ، قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله ، قال: فلما خرجنا مـن عنده ، قال له قاضي القضاة نجم الدين ابن صصرى[(١)] وغيره: كدت أن تهلكنا و تهلك نفسـك ، والله لا نصحبك من هنا فقال: وأنا والله لا أصحبكم ، قال: فانطلقنا عصبة ، وتأخـر هـو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه ، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان ، فأتوه يتبركون بدعائه ، وهو سائر إلى دمشق وينظرون إليه ، قال: والله ما وصـل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه ، وكنت أنا من جملة من كان معه ، وأمـا أولـئك الـذين أبـو أن يصحبوه ، فخرج عليهم جماعة من التتر فشـلحوهم عن آخـرهم ''[(٢)].

٧- ثـباته على الحق : لما تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن غلاة الصوفية ، قام عليه أعداؤه ، وسجن بسبب ذلك ، وهو في السجن جاءه المشايخ التدامرة[(٣)] '' وقالوا له : قد اجتمعـنا بؤلاء القائمين عليك ، وقالوا: قد بلشنا به ، والناس تلعننا بسببه ، وقد قلنا : إنا أخـذناه بحكم الشرع في الظاهر ، فليبصر شيئاً لا يكون علينا ولا عليه فيه رد فيكتبه لنا، ونتفق نحن وهو عليه ، فلما قالوا له ذلك ، قال لهم : أنا منشرح الصدر ، وما عندي قلق ، وهم برا الحبس ، فلم يقلقون ؟

---

(١) أبـو العـباس أحمد بن محمد بن سالم بن صصرى الشافعي نجم الدين ، وقاضي قضاة بلاد الشـام ، ولد سـنة ٦٥٥ هـ ـ وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، كان رئيساً محترماً وقوراً جميل الأخلاق ، توفي سنة ٧٢٣ هـ .انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٠٦/١٤) ، الدرر الكامنة لابن حجر (٢٦٣/١) ، البدر الطالع للشوكاني (١٠٦/١) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٨٩/١٤) .

(٣) هما إبراهيم وأبو بكر كما في رسالة في تكسير الأحجار للغياني - ضمن الجامع في سيرة شيخ الإسلام (ص ٩٢).

وكتب: عن أبي هريرة[(١)] قال: قال رسول الله ﷺ : ((**إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم**))[(٢)] رواه مسلم .

فخرجوا من عنده على ذلك ، ثم إنهم بعد أيام جاءوا إلى عنده ، وقالوا له : قد وقفوا على الورقة ، وقالوا: هذا رجل مِحجاج خصِم ، وما له قلب يفزع من الملوك ، وقد اجتمع بغازان ملك التتر وكبار دولته وما خافهم ، ومتى اجتمع بالسلطان والدولة ، وقرأ عليهم كتاب (الفصوص)[(٣)] الذي كانت الفتنة بسببه قتلونا ، أو قطعونا من المناصب ، يقال عنا: إنه ما خرج من الحبس حتى دخلتم تحت ما شرط عليكم ، ابعثوا أنتم اشرطوا عليه ما أردتم، فإن لم يدخل تحته تكونوا قد عذرتم فيه .

فلما أخبره بذلك المشايخ التدامرة قالوا: يا سيدي قد حملونا كلاماً نقوله لك ، وحلفونا أنه ما يطلع عليه غيرنا : أن تنزل لهم عن مسألة العرش ، ومسألة القرآن ، ونأخذ خطك بذلك ، ونوقف عليه السلطان ، ونقول له : هذا الذي حبسنا ابن تيمية عليه قد رجع عنه ، ونقطع نحن الورقة .

فقال لهم : تدعونني أن أكتب بخطي أنه ليس فوق العرش إله يعبد ، ولا في المصحف قرآن ، ولا لله في الأرض كلام ؟ ودق بعمامته الأرض ، وقام واقفاً ، ورفع برأسه إلى السماء ، وقال: اللهم إني أشهدك على أنهم يدعونني أن أكفر بك وبكتبك ورسلك ، وأن

---

(١) أبو هريرة الدوسي اليماني ، حافظ الصحابة ، اختلف في اسمه واسم أبيه اختلافاً كثيراً ، فقيل: عبدالرحمن بن صخر ، وقيل عبدالله ، أسلم عام خيبر ، وروى عن رسول الله ﷺ كثيراً من الأحاديث ، توفي سنة ٥٧ هـ . انظر: تهذيب الكمال للمزي (٣٦٦/٣٤) ، الإصابة لابن حجر (٢٠٠/٤) ، تهذيب التهذيب لابن حجر (٢٨٨/١٢) .

(٢) رواه مسلم في الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات (١٣٤٠/٣) ح(١٧١٥) ، ومالك في الموطأ كتاب الكلام ، باب ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين (٩٩٠/٢) ح (٢٠) واللفظ له وأحمد (٣٢٧/٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧) .

(٣) يعني كتاب فصوص الحكم لابن عربي ، وهو كتاب في وحدة الوجود .

هذا الشيء ما أعمله ، اللهم أنزل بهم بأسك الذي لا ترده عن القوم المجرمين . نفذت فيهم سهام الله ، والله لتقلبن دولة بيبرس أسفلها أعلاها ، ويكون أعز من فيها أذل من فيها ، ولينتقمن الله من الكبير والصغير ، وكم أجد عليهم ، وما أدعو عليهم ''[١].

٨- تغييره للمنكر : تغيير المنكر له صور متعددة ، لكن مرادي به هنا ما قام به شيخ الإسلام رحمه الله من تغيير للمنكر بيده ، وأما بلسانه فحياته وسيرته كلها في هذا الأمر ، ومن نماذج تغييره للمنكر :

١- هدمه للأنصاب التي كانت بدمشق في ذلك الوقت .

يقول ابن القيم رحمه الله: '' وقد كان بدمشق كثير من الأنصاب ، فيسر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام ، وحزب الله الموحدين ، كالعمود المخلق ، والنصب الذي كان بمسجد النارنج من المصلي يعبده الجهال ، والنصب الذي كان تحت الطاحون الذي عند مقابر النصارى ، ينتابه الناس للتبرك به ، وكان صورة صنم في نهر القلوط ينذرون له ، ويتبركون به ، وقطع الله سبحانه النصب الذي كان عند الرحبة يسرج عنده ، ويتبرك به المشركون ، وكان عموداً طويلاً على رأسه حجر كالكرة ''[٢] .

وهناك رسالة مفردة للشيخ إبراهيم الغياني رحمه الله ، تشرح بالتفصيل ما قام به شيخ الإسلام رحمه الله من ذلك ، فلتراجع ؛ لأن التفصيل في هذا المقام لا يناسب هذه الترجمة الموجزة[٣] .

٢- تكسيره أواني الخمر ، وتعزير أهلها .

---

(١) رسالة في تكسير الأحجار للغياني - ضمن الجامع في سيرة شيخ الإسلام (ص ٩٢-٩٣) .
(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم (٣٣١/١) .
(٣) انظر: رسالة في تكسير الأحجار للغياني - ضمن الجامع في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٨٧-٨٥) .

يقـول ابن كثير في أحداث السابع عشر من رجب عام ٦٩٩ هـ : '' وفي بكرة يوم الجمعـة المذكـور دار الشـيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله ، وأصحابه على الخمارات والحانات ، فكسروا آنية الخمور ، وشققوا الظروف ، وأراقوا الخمور ، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش ، ففرح الناس بذلك ''[١] .

ولكن القيام بمثل هذه الأمور أثار على شيخ الإسلام رحمه الله كثيراً من الحساد .

يقـول ابن كثير في أحداث شوال من عام ٧٠١ هـ : '' وفي هذا الشهر ثار جماعة مـن الحسـدة على الشيخ تقي الدين بن تيمية ، وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزر ويحلق رؤوس الصـبيان، وتكلم هو أيضا فيمن يشـكو منه ذلك ، وبين خطأهم[٢]، ثم سكنت الأمور ''[٣] .

ومن جنس هذا ما قام به شيخ الإسلام رحمه الله في مصر عام ٧١١ هـ بعد خروجه من السجن - وبعد أن تعصب عليه جماعة وتفردوا به وضربوه - حيث خرج يطلب الجامع

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١١/١٤) ، يقول العلامة ابن فضل الله العمري (٧٤٩) في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٢٥٩) : '' ثم بعد ذلك تمكن ابن تيمية في الشام ، حتى صار يحلق الرءوس ، ويضرب الحدود ، ويأمر بالقطع والقتل '' .

(٢) لشيخ الإسلام رأي خاص فيمن يقيم الحدود ، يقول رحمه الله كما في مجموع الفتاوى (١٧٦/٣٤) : ''وقول من قـال: لا يقيم الحدود إلا السلطان ونوابه ، إذا كانوا قادرين ، فاعلين بالعدل . كما يقول الفقهاء: الأمر إلى الحاكم إنمـا هـو العادل القادر ، فإذا كان مضيعاً لأموال اليتامى ؛ أو عاجزاً عنها : لم يجب تسليمها إليه مع إمكان حفظها بدونـه ، وكـذلك الأمير إذا كان مضيعاً للحدود ، أو عاجزاً عنها لم يجب تفويضها إليه مع إمكان إقامتها بدونه ، والأصـل أن هذه الواجبات تقام على أحسن الوجوه ، فمتى أمكن إقامتها من أمير لم يحتج إلى اثنين ، ومتى لم يقم إلا بعدد ومن غير سلطان أقيمت إذا لم يكن في إقامتها فساد يزيد على إضاعتها ، فإ ا من باب الأمر بالمعروف ، والنهى عـن المنكر ، فان كان في ذلك من فساد ولاة الأمر ، أو الرعية ما يزيد على إضاعتها لم يدفع فساد بأفسد منه والله أعلم '' .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٩/١٤) .

العتـيق الذي كان أعداؤه فيه ، فمر في طريقه على جماعة يلعبون بالشطرنج فنفض الرقعة وقلبها ، فبهت الذي يلعب بها والناس من فعله ذلك[(١)].

٣- إخراجه للحافظ المزي[(٢)] من السجن ، ففي الثاني عشر من رجب عام ٧٠٥ هـ عقـد مجلس لمناقشة شيخ الإسلام رحمه الله ، والذي نوقشت فيه عقيدته الواسطية ، فتناظر الشـيخ مـع ابن الزملُكاني[(٣)(٤)]، وطال الكلام وخرجوا من هناك والأمر قد انفصل ، وقد أظهـر الله مـن قـيام الحجة ما أعز به أهل السنة ، واختلفت نقول المخالفين للمجلس ، وحـرفوه ووضعوا مقالة الشيخ على غير موضعها ، وشنع عليه بأنه قد رجع عن عقيدته، وكان الحافظ جمال الدين المزي يقرأ صحيح البخاري لأجل الاستسقاء ، فقرأ في يوم الاثنين الثاني والعشرين من رجب في أثناء ذلك فصلاً في الرد على الجهمية[(٥)] ، وأن الله تعالى فوق العرش من كتاب أفعال العباد للبخاري[(٦)] ، فغضب لذلك بعض الفقهاء الحاضرين ، وقالوا:

---

(١) انظر : العقود الدرية لابن عبدالهادي (ص ١٩١) .

(٢) جمـال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف المزي الدمشقي الحافظ الناقد الحجة ، ولد سنة ٦٥٤ هـ ، وأخذ العلم عن جمع من العلماء ، وصنف مصنفات كثيرة ، توفي سنة ٧٤٢ هـ . انظر: فوات الوفيات للكتبي (٣٥٣/٤) ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢٥١/٦) ، الدرر الكامنة لابن حجر (٤٥٧/٤) .

(٣) نسبة إلى قرية زملُكا بالقرب من دمشق . انظر : معجم البلدان للحموي (١٥٠/٣) .

(٤) محمـد بن علي بن عبدالواحد الأنصاري كمال الدين بن الزملُكاني ، شيخ الشافعية بالشام ، ولد سنة ٦٦٦ هـ وأخـذ عن جماعة من العلماء ، وله مصنفات وتعاليق ، توفي سنة ٧٢٧ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ١٣١) ، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢٩١/٢) ، البدر الطالع للشوكاني (٢١٢/٢) .

(٥) الجهمـية فـرقة ظهرت في مطلع القرن الثاني على يد جهم بن صفوان (ت ١٢٨) وكان يقول بالجبر والتعطيل المتضـمن نفي الأسماء والصفات عموماً ، ويقول إن الإيمان هو المعرفة فقط ، وضم إلى هذا بدعاً أخرى كالقول بفناء الجـنة والـنار ونفي رؤية الله في الآخرة والقـول بخلق القرآن وغير ذلك . انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (١/ ٢٧٩) ، الفرق بين الفرق للبغدادي (ص٢١١) ، الملل والنحل للشهرستاني (٨٦/١) .

(٦) الإمـام الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبوعبدالله ، صاحب الجامع الصحيح المعروف بصـحيح البخاري ، ولد سنة ١٩٤ هـ ، ورحل لطلب الحديث، وسمع من نحو ألف شيخ ، توفي سنة ٢٥٦ هـ . انظر: المنتظم لابن الجوزي (١١٣/١٢) ، تذكرة الحفاظ للذهبي (٥٥٥/٢) ، الأعلام للزركلي (٣٤/٦) .

نحن المقصودون بهذا الأمر ، ورفعوا الأمر إلى قاضي قضاة الشافعية[١] فطلبه ورسم بحبسه ، فبلغ ذلك الشيخ تقي الدين ، فتألم له ، وأخرجه من الحبس بيده ، وخرج إلى القصر إلى ملك الأمراء ، وتخاصم هو والقاضي هناك ، وأثنى على الشيخ جمال الدين ، وغضب القاضي وانزعج ، وقال: لئن لم يرد إلى حبسي عزلت نفسي ، فأرضاه ملك الأمراء بأن أعاد الشيخ جمال الدين إلى حبسه أياماً[٢] .

صفاته الخَلْقية :

يقول الذهبي : كان الشيخ أبيض ، أسود الرأس واللحية ، قليل الشيب ، شعره إلى شحمة أذنيه ، كأن عينيه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال ، بعيد ما بين المنكبين ، جهوري الصوت ، فصيحاً [٣].

كراماته :

يقول ابن القيم رحمه الله في فراسة شيخ الإسلام رحمه الله : '' ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أموراً عجيبة ، وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً ''[٤].

ولقد سرد ابن القيم رحمه الله بعض كراماته ، فمن ذلك :

١- أخبر أصحابه بدخول التتار الشام سنة تسع وتسعين وستمائة ، وأن جيوش المسلمين تكسر ، وأن دمشق لا يكون بها قتل عام ، ولا سبي عام ، وأن كَلَب الجيش وحدته في الأموال ، وهذا قبل أن يهم التتار بالحركة .

---

(١) هو ابن صصرى كما في البداية والنهاية (٣٧/١٤) .

(٢) انظر:العقود الدرية لابن تيمية (ص١٣٧- ١٣٩) .

(٣) ذيل تاريخ الإسلام للذهبي - ضمن الجامع في سيرة شيخ الإسلام (ص ٢٠٩) .

(٤) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٥١٠/٢) .

٢- أخبر الناس والأمراء سنة اثنتين وسبعمائة لما تحرك التتار وقصدوا الشام أن الدائرة والهـزيمة عليهم ، وأن الظفر والنصر للمسلمين ، وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يميناً ، فيقال له: قل إن شاء الله ، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً .

وسمعته[١] يقول ذلك ، قال: فلما أكثروا علي ، قلت: لا تكثروا ، كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ أنهم مهزومون في هذه الكرة ، وأن النصر لجيوش الإسلام .

قال: وأطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو .

٣- لمـا طلـب إلى الديار المصرية وأريد قتله بعد ما أنضجت له القدور ، وقلبت له الأمور ، اجتمع أصحابه لوداعه ، وقالوا: قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك فقـال: والله لا يصـلون إلى ذلك أبدا ، قالوا: أفتحبس ؟ قال: نعم ، ويطول حبسي ، ثم أخرج وأتكلم بالسنة على رؤوس الناس ، سمعته[٢] يقول ذلك .

٤- لما تولى عدوه الملقب بالجاشنكير الملك ، أخبروه بذلك ، وقالوا: الآن بلغ مراده منك ، فسجد لله شكراً ، وأطال ، فقيل: له ما سبب هذه السجدة ؟ فقال: هذا بداية ذله ، ومفارقة عزه من الآن ، وقرب زوال أمره ، فقيل له: متى هذا ؟ فقال: لا تربط خيول الجند على القرط[٣] حتى تغلب دولته ، فوقع الأمر مثل ما أخبر به ، سمعت ذلك منه .

---

(١) الكلام لابن القيم .

(٢) الكلام لابن القيم .

(٣) قـال في لسـان العرب (٣٧٥/٧): '' وقَرطَ فرسه اللجام مد يده بعنانه ، فجعله على قَذَاله ، وقيل: إذا وضع اللجـام وراء أذنيه ، ويقال: قَرط فرسه إذا طرح اللجام في رأسه ، وفي حديث النعمان بن مقرن : أنه أوصى أصحابه يـوم نهاونـد ، فقال: إذا هززت اللواء فلتثب الرجال إلى خيولها ، فيقرطوها أعنتها ، كأنه أمرهم بإلجامها قال ابن دريد: تقريط الفرس له موضعان: أحدهما: طرح اللجام في رأس الفرس ، والثاني: إذا مد الفارس يده حتى جعلها على قَذال فرسه ، وهي تحضِر '' .

٥- وقـال مرة: يدخل علي أصحابي ، وغيرهم فأرى في وجوههم وأعينهم أموراً لا أذكـرها لهـم ، فقلت[١] له - أو غيري - : لو أخبر م ؟ فقال: أتريدون أن أكون معرفاً كمعرف الولاة .

وقلت له يوما: لو عاملتنا بذلك لكان أدعى إلى الاستقامة والصلاح فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعة ، أو قال: شهراً .

٦- أخـبرني[٢] غير مرة بأمور باطنة تختص بي مما عزمت عليه ، ولم ينطق به لساني ، وأخـبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل ، ولم يعين أوقا ا ، وقد رأيت بعضها ، وأنا أنتظر بقيتها ، وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف ما شاهدته[٣] .

محنته وابتلاؤه :

سجن شيخ الإسلام ابن تيمية سبع مرات ، خلال أربع وثلاثين سنة من حياته ، ثلاث مرات بدمشق ، وأربع مرات بمصر بالقاهرة والإسكندرية ، ومجموعها يقارب خمس سنين ، وكلـها باسـتعداء السلطة عليه من خصومه الذين نابذ ما هم عليه في الاعتقاد والسلوك والتمذهب على أن يفتر عنهم ، وأن يقصر لسانه عما هم عليه ، لكنه لا يرجع [٤].

الأولى : كانت بدمشق عام ٦٩٣ هـ بسبب قيامه على النصراني الذي سب رسول الله ﷺ ، حيث ضرب وسجن أياماً .

الثانـية : كانـت بالقاهرة عام ٧٠٥ هـ بسبب مسألة العرش ، ومسألة الكلام ، ومسألة الـ ول ، واستمر سجنه لمدة عام وستة شهور .

---

(١) الكلام لابن القيم .

(٢) الكلام لابن القيم .

(٣) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٢/٥١٠-٥١١) .

(٤) انظر: مقدمة الشيخ بكر أبوزيد لكتاب الجامع في سيرة شيخ الإسلام رقم (م) .

الثالثة : كانت بالقاهرة عام ٧٠٧ هـ بسبب مسألة الاستغاثة والتوسل ، حيث قام عليه في ذلك بعض المتصوفة ، وسجن أياماً .

الرابعة : كانت بالقاهرة عام ٧٠٧ هـ بعدما سجن في المرة السابقة خير بين السفر إلى دمشق أو الحبس أو البقاء في الإسكندرية ، فاختار الحبس ، وألح أصحابه عليه فوافق على السفر إلى دمشق ، لكن أعداءه بعد ذلك تراجعوا ، ورفضوا السماح له بالسفر ، وسجن لمدة تزيد عن شهرين بقليل .

الخامسة : كانت بالإسكندرية عام ٧٠٩ هـ وكان منفرداً دون مرافق ، واستمر سجنه ثمانية شهور تقريباً .

السادسة : كانت بدمشق عام ٧٢٠ هـ وكانت بسبب مسألة الحلف بالطلاق ، وسجن لمدة خمسة أشهر وثمان وعشرين يوماً .

السابعة : كانت بدمشق عام ٧٢٦ هـ وكانت بسبب مسألة الزيارة ، وسجن فيها لمدة سنة وأحد عشر شهراً ، وعشرين يوماً ، وتوفي في السجن رحمه الله [(١)].

وفاته :

''توفي شيخ الإسلام رحمه الله معتقلاً بدمشق بقاعة بها ، بعد مرض جد أياماً ، في ليلة الاثنين ، العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

وصلي عليه بجامع دمشق عقيب الظهر ، وامتلأ الجامع بالمصلين كهيئة يوم الجمعة حتى طلع الناس لتشييعه من أربعة أبواب البلد ، وأقل ما قيل في عدد من شهده: خمسون

(١) انظر فيما سبق : البداية والنهاية لابن كثير (٣٣٥/١٣ ، ٣٨/١٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٩٧ ، ١٢٣) ، مقدمة الشيخ بكر أبوزيد لكتاب الجامع في سيرة شيخ الإسلام من (م - ي) .

ألفاً ، وقيل: أكثر من ذلك ، وحمل على الرؤوس إلى مقابر الصوفية ، ودفن إلى جانب أخيه الإمام شرف الدين رحمهما الله تعالى'' [١].

مصنفاته :

وقبل البدء في تعداد مؤلفات شيخ الإسلام رحمه الله أود أن أشير إلى ملاحظة صغيرة حـول مؤلفاته ، فهناك سمة تنفرد بها عن غيرها من كتب علماء التفسير والفقه والكلام ، وهـي بـروز وسيطرة النزعة الإيمانية في تلك المؤلفات ، وتظهر هذه النـزعة حتى في أثناء بحث المسائل الكلامية الجافة التي يطرقها المتكلمون ، وانظر على سبيل المثال (درء التعارض) و(الصفدية) وهما من الكتب التي خصصها الشيخ للرد على المتكلمين والفلاسفة كيف تجد تلـك النزعة بارزة فيها ، وهذا أمارة على حقيقة العبودية لله جل وعلا ، وتشرب الروح بالإيمان والتقوى ، وهما من الأمور التي يفتقر إليهما كثير ممن كتب في هذه المسائل .

أما في القدرة على الكتابة فلقد أوتي شيخ الإسلام رحمه الله قوة عظيمة على الكتابة ، فكان يكتب في اليوم من التصانيف ما يكتبه الناسخ في جمعة أو أكثر .

يقـول ابن القيم رحمه الله : '' وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في مشيه وكلامه وإقدامه وكتابته أمراً عجيباً ، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة أو أكثر ''[٢] .

لقـد كتب شيخ الإسلام رحمه الله مؤلفات كثيرة جداً قدرت بالمئات ، وهي تتراوح بـين قواعد وفتاوى تكون في بضع ورقات ، وبين مجلدات كبيره فيها مئات الأوراق ، ولا يمكن أن أستوعب في هذه الترجمة المختصرة جميع المؤلفات ، ولهذا سوف أقتصر على بعض كتبه الكبار ، مرتبة على العلوم .

---

(١) ذيل تاريخ الإسلام للذهبي - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٢٠٩-٢١٠) .
(٢) الوابل الصيب لابن القيم (ص ١٥٥) .

أولاً في التفسير :

١- قطعة كبيرة في تفسير أول سورة البقرة .

٢- تفسير قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[١] نحو مجلد .

٣- تفسير سورة المائدة وجميع معانيها ونحو ذلك . مجلد لطيف .

٤- تفسير سورة يوسف . في نحو مجلدين .

٥- تفسير قوله: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾[٢] في مجلد لطيف ، وهي دعوة ذي النون .

٦- سورة الأعلى . فسرها في مجلد لطيف .

٧- سورة العلق . فسرها في مجلد لطيف .

٨- سورة الإخلاص . فسرها في مجلد .

٩- سورة الإخلاص تكلم على كو ا تعدل ثلث القرآن ، وتفضيل القرآن بعضه على بعض . في مجلد لطيف .

١٠- قواعد في التفسير مجملة . مجلد كبير .

ثانياً : في العقيدة والرد على الفرق الضالة :

١- الإيمان في مجلد .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (٧) .
(٢) سورة الأنبياء آية رقم (٨٧) .

٢- الاستقامة في مجلدين .

٣- كتاب جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية . أربع مجلدات .

٤- كـتاب الجواب عما أورده كمال الدين الشريشي[١] على كتاب تعارض العقل والنقل .

٥- كتاب بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية . في ست مجلدات .

٦- كتاب درء تعارض العقل والنقل . أربع مجلدات .

٧- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة[٢] والقدرية[٣] . أربع مجلدات .

٨- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . في مجلدين .

٩- شرح أول المحصل . في مجلد .

---

(١) كمال الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن الشريشي الوابلي البكري الشافعي ، ولد سنة ٦٥٣ هـ وأخذ العلم عن جماعة من أهل العلم ، توفي سنة ٧١٨ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٩١/١٤) ، الدرر الكامنة لابن حجر (٢٥٢/١) ، شذرات الذهب لابن العماد (٤٧/٦) .

(٢) فـرقة خرجت بعد مقتل عثمان بن عفان ﷺ ، وهم ثلاثة أصناف صنف المؤلهة ، وهؤلاء يقولون: إن علياً هو الإلـه ، ولما عرف علي ﷺ مقالتهم هذه أحرقهم بالنار، وصنف السابة ، وهم الذين يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عـنهما ، وصـنف المفضلة: الذين يفضلون علياً ﷺ ، على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولم يكن لهم في ذلك الزمان جماعة ولا إمام ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ثم انقسموا بعد وفاة علي ﷺ إلى زيدية ، ورافضة إمامية انظر: الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية - ضمن الفتاوى (٣٣/١٣- ٣٤) ، البدء والتأريخ للمقدسي (١٢٤/٥) .

(٣) القدريـة فـرقة ظهرت في أواخر عهد الصحابة يضيفون القدر إلى أنفسهم ويسلبونه عن الله عز وجل ، فينفون القـدر بمـراتبه الأربـع ، وكان أصل بدعتهم العجز عن الجمع بين الإيمان بالقدر والإيمان بالأمر والنهي ، وقد أنكر الصـحابة قولهم إنكاراً عظيماً ، وقد انقسمت القدرية إلى طائفتين: إحداهما تنكر مراتب القدر كلها ، والأخرى تقر بـالعلم والكتابة وتنفي المشيئة والخلق . انظر: الفرقان بين الحق والباطل - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢١١/١٣) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٨/٨) .

١٠- كتاب الرد على أهل كسروان[(١)] الرافضة . في مجلدين .

١١- الهلاكونيه . وهو جواب سؤال ورد على لسان هلاكو ملك التتار . في مجلد.

١٢- كتاب الوسيلة . في مجلد .

١٣- كتاب في الرد على البكري[(٢)] في الاستغاثة . في مجلد .

١٤- شرح أول كتاب الغزنوي في أصول الدين . في مجلد لطيف .

١٥- كتاب في الرد على المنطق . في مجلد كبير .

١٦- شرح عقيدة الأصفهاني[(٣)] . في مجلد .

١٧- شرح مسائل من الأربعين للرازي[(٤)] . في مجلدين .

---

(١) كسروان في السابق كانت مقاطعة لبنانية تمتد بين نهر الكلب و نهر إبراهيم ، أما الآن فهي منطقة في محافظة جبل لبنان مركزه بلدة جونية . انظر: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية (٣٥٨/٣) .

(٢) أبو الحسن علي بن يعقوب بن جبريل البكري المصري الشافعي ، ولد سنة ٦٧٣ هـ وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، وكان من جملة من ينكر على شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكان يلام على ذلك ، توفي سنة ٧٢٤ هـ . انظر: البداية والنهاية (١١٤/١٤-١١٥) ، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢٧٤/٢) ، شذرات الذهب (٦٤/٦).

(٣) محمد بن محمود بن عباد الأصفهاني شمس الدين الأصولي المتكلم ، ولد سنة ٦١٦ هـ ، وأخذ العلم عن جماعة من أهل العلم ، صنف مصنفات كثيرة ، وتوفي سنة ٦٨٨ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٣١٥/١٣) ، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١٩٩/٢-٢٠٠) ، شذرات الذهب (٤٠٦/٥) .

(٤) أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الرازي ، الأصولي المتكلم ، ولد سنة ٥٤٣ هـ وتلقى العلم عن جماعة من أهل العلم ، وتمهر في عدة علوم ، وصنف مصنفات كثيرة توفي بهراة سنة ٦٦٦ هـ . انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (٢٦٠/٤) ، لسان الميزان لابن حجر (٤٢٦/٤) ، الأعلام للزركلي (٣١٣/٦) .

١٨- المسائل الإسكندرية . رد على ابن سبعين[١] وغيره . في مجلد .

١٩- كتاب في محنته في مصر . في مجلدين . تكلم فيه على الكلام النفسي وأبطله من نحو ثمانين وجهاً .

٢٠- الكيلانية ، وهو جواب في مسألة القرآن . في مجلد لطيف .

٢١- كتاب إبطال قول الفلاسفة بقدم العالم . في مجلد كبير .

٢٢- قاعدة في الخلة والمحبة ، وأيهما أفضل . في مجلد .

٢٣- رسالة في قرب الرب من عابديه وداعيه . مجلد لطيف .

٢٤- قاعدة في الكليات . مجلد لطيف .

٢٥- قواعد في إثبات المعاد والرد على ابن سينا[٢] في رسالته الأضحوية . نحو مجلد .

٢٦- تحريم السماع . في مجلد .

٢٧- كتاب في الشهادتين وما يتبع ذلك . في مجلد .

٢٨- قاعدة في الرضا . مجلد لطيف .

٢٩- قاعدة في محبة الله للعبد ومحبة العبد لله . مجلد لطيف .

٣٠- قاعدة في العلم المحكم . مجلد .

---

(١) أبـو محمد عبدالحق بن إبراهيم بن محمد ابن سبعين الإشبيلي المرسى ، فيلسوف صوفي من أهل وحدة الوجود ، تـوفي سـنة ٦٦٩ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢٦١/١٣) ، شذرات الذهب لابن العماد (٣٢٩/٥) ، الأعلام للزركلي (٢٨٠/٣).

(٢) الحسـين بـن عبدالله بن علي بن سينا ، أبو علي الطبيب الفيلسوف الباطني ، ولد سنة ٣٧٠ هـ وطاف البلاد واتسعت شهرته ، وصنف المصنفات ، توفي سنة ٤٢٨ هـ . انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٦٩) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٣/٣) ، الأعلام للزركلي (٢٤١/٢) .

٣١- قواعد في خلافة الصديق . مجلد .

٣٢- رسالة في مسألة ال ول. في مجلد لطيف .

٣٣- كتاب في الإيمان هل يزيد وينقص . في مجلد .

٣٤- كتاب على توحيد الفلاسفة على نظم ابن سينا . مجلد لطيف .

٣٥- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . مجلد لطيف .

٣٦- قاعدة في الرد على أهل الاتحاد . وهي جواب الطوفي(١) . في مجلد لطيف .

٣٧- اقتضاء الصراط المستقيم في الرد على أصحاب الجحيم .

٣٨- التحرير في مسألة الخضر . مجلد .

ثالثاً في **أصول الفقه :**

١- رفع الملام عن الأئمة الأعلام . مجلد لطيف .

٢- قاعدة في أن جنس المأمور به أفضل من جنس المنهي عنه . في مجلد لطيف .

٣- قاعدة في تفضيل مذهب أحمد ، وذكر محاسنه . في مجلد .

رابعاً : في **الفقه :**

١- شرح العمدة . في أربع مجلدات .

---

(١) أبو الربيع سليمان بن عبدالقوي الصرصري البغدادي الحنبلي ، الفقيه الأصولي ، ولد سنة بضع وسبعين وستمائة، وأخـذ العلم عن جماعة من أهل العلم ، وصنف مصنفات كثيرة ، وتوفي سنة ٧١٦ هـ . انظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٣٦٦/٢) ، الدرر الكامنة لابن حجر (١٥٤/٢) ، شذرات الذهب (٣٩/٦) .

٢- الصارم المسلول على شاتم الرسول .

٣- قاعدة في الكنائس وما يجوز هدمه منها . في مجلد .

هـذا مـا تيسر ذكره من كتبه ، وقد تركت منها الكثير ، وذلك لحال الطول كما أسلفت، بل قد تركت بعض الكتب التي قد تكون من كتبه الكبار ، لأنه لم يشر في ترجمته إلى حجمها ، ولم تطبع حتى أطلع عليها ، وهذه قد تكون كبيرة[١] .

بعض أقوال العلماء فيه [٢]:

١- قال عنه الشيخ أحمد بن إبراهيم الواسطي : '' واعلموا رحمكم الله ، أن هنا من سـافر إلى الأقاليم ، وعرف الناس وأذواقهم ، وأشرف على غالب أحوالهم ، فوالله ثم والله ثم والله ، لم يـر أديم تحـت السماء مثل شيخكم علماً وعملاً وحالاً وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلمـاً في حـق نفسـه ، وقياما في حق الله عند انتهاك حرماته ، أصدق الناس عقداً ، وأصـحهم علماً وعزماً ، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همةً ، وأسخاهم كفاً ، وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ﷺ ''[٣] .

٢- وقال عنه الحافظ ابن سيد الناس[٤] : '' إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته ، أو أفـتى في الفقـه فهو مدرك غايته ، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو درايته ، أو

(١) للاستزادة انظر : أسماء مؤلفات شيخ الإسلام لأبي عبدالله بن رشيق - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٢٢٠ – ٢٤٩) .

(٢) وقد تركت كثيراً من ثناء العلماء عليه إرادة للاختصار فلتراجع في كتب التراجم وبالأخص كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد جمع الكثير من ذلك .

(٣) التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار للواسطي - ضمن العقود الدرية (ص ٢٠٥) ، وباختلاف يسير ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٦٩) حيث فيه يقول : '' لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ''.

(٤) الإمـام العلامة المحدث الحافظ أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري ولد سنة ٦٧١ هـ ـ كـان إماماً في الحديث والرجال والعلل والأسانيد ، له مصنفات عديدة ، توفي سنة ٧٣٤ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٦٩/١٤) ، الدرر الكامنة لابن حجر (٢٠٨/٤) ، شذرات الذهب لابن العماد (١٠٨/٦) .

حاضر بالنحل والملل لم ير أوسع من نحلته في ذلك ، ولا أرفع من درايته ، برز في كل فن على أبناء جنسه ، ولم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت عينه[١] مثل نفسه ''[٢] .

٣- وقال عنه الحافظ أبو الحجاج المزي: '' ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولا أتبع لهما منه ''[٣] .

٤- وقال عنه الشيخ علم الدين البرزالي : '' كان إماماً لا يلحق غباره في كل شيء ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، واجتمعت فيه شروط المجتهدين ، وكان إذا ذكر التفسير أبهت الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده ، وإعطائه كل قول ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال ، وخوضه في كل علم ، كان الحاضرون يقضون منه العجب ، هذا مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة والاشتغال بالله تعالى والتجرد عن أسباب الدنيا ''[٤] .

٥- وقال عنه الحافظ الذهبي: '' فوالله ما مقلت عيني مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، كان إماماً متبحراً في علوم الديانة ، صحيح الذهن ، سريع الإدراك ، سيال الفهم ، كثير المحاسن ، موصوفاً بفرط الشجاعة والكرم ، فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع ، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه ''[٥] .

وأختم كلام العلماء فيه بكلمة جامعة قالها الذهبي رحمه الله ، يقول :'' وأنا أقل من أن ينبه على قدره كلمي ، أو أن يوضح نبأه قلمي ، فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه ،

---

(١) لو نسب الضمير إلى نفسه لكان أولى من نسبته إلى شيخ الإسلام .

(٢) أجوبة ابن سيد الناس اليعمري عن سؤلات ابن أيبك الدمياطي - انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ١٣٤).

(٣) مختصر طبقات علماء الحديث لابن عبدالهادي (٢٨٢/٤) ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ١٩٠) .

(٤) المصدر السابق (ص ١٩٣) .

(٥) المعجم المختص للذهبي (ص ٢٥) .

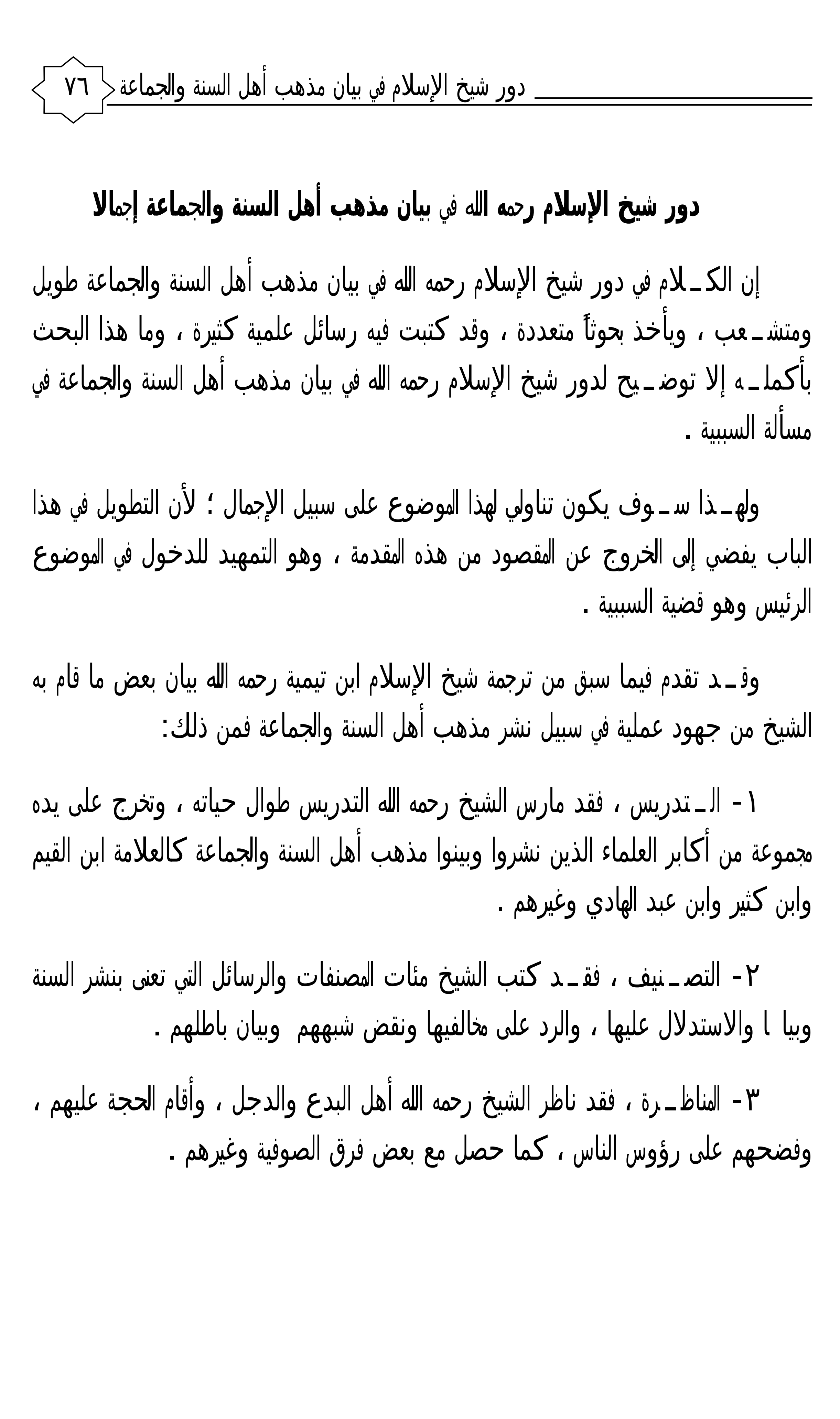
مقـرون بسـرعة فهمـه ، وأنه بحر لا ساحل له ، وكـ لا نظير له ، وأن جوده حاتمي ، وشجاعته خالدية ''[١] .

(١) ذيل تاريخ الإسلام للذهبي - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٢٠٧) .

دور شيخ الإسلام رحمه الله

في بيان

مذهب أهل السنة والجماعة إجمالا



دور شيخ الإسلام رحمه الله في بيان مذهب أهل السنة والجماعة إجمالا

إن الكـلام في دور شيخ الإسلام رحمه الله في بيان مذهب أهل السنة والجماعة طويل ومتشـعب ، ويأخذ بحوثاً متعددة ، وقد كتبت فيه رسائل علمية كثيرة ، وما هذا البحث بأكملـه إلا توضـيح لدور شيخ الإسلام رحمه الله في بيان مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة السببية .

ولهـذا سـوف يكون تناولي لهذا الموضوع على سبيل الإجمال ؛ لأن التطويل في هذا الباب يفضي إلى الخروج عن المقصود من هذه المقدمة ، وهو التمهيد للدخول في الموضوع الرئيس وهو قضية السببية .

وقـد تقدم فيما سبق من ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بيان بعض ما قام به الشيخ من جهود عملية في سبيل نشر مذهب أهل السنة والجماعة فمن ذلك:

١- الـتدريس ، فقد مارس الشيخ رحمه الله التدريس طوال حياته ، وتخرج على يده مجموعة من أكابر العلماء الذين نشروا وبينوا مذهب أهل السنة والجماعة كالعلامة ابن القيم وابن كثير وابن عبد الهادي وغيرهم .

٢- التصـنيف ، فقـد كتب الشيخ مئات المصنفات والرسائل التي تعنى بنشر السنة وبيا ا والاستدلال عليها ، والرد على مخالفيها ونقض شبههم وبيان باطلهم .

٣- المناظـرة ، فقد ناظر الشيخ رحمه الله أهل البدع والدجل ، وأقام الحجة عليهم ، وفضحهم على رؤوس الناس ، كما حصل مع بعض فرق الصوفية وغيرهم .

٤- جهاد أهل البدع بالسيف والسنان ، فقد شارك في الحملة العسكرية على الروافض أهل جبل كسروان بعد مناظرتهم واستتابتهم[(١)] .

وقد لقيت جهوده تلك عقبات كثيرة ، انتهى بعضها بدخوله السجن عدة مرات ، وضربه ، ومحاولة اغتياله ، وقد قابل تلك العقبات بالصبر والثبات ، مع قوة قلب ورباطة جأش منقطعة النظير ، وما زادته إلا إصراراً وثباتاً على الحق حتى توفي في السجن رحمه الله تعالى .

وسوف أناقش في هذا المبحث جزءاً آخر من جهود شيخ الإسلام رحمه الله في بيان مذهب أهل السنة والجماعة ، أركز فيه على الجانب العلمي في تلك الجهود ، وهو يشمل مسائل متعددة ، لكني سأقتصر على بعض المهم منها ، وسيكون الكلام في ثلاث مسائل هي :

المسألة الأولى: عناية شيخ الإسلام رحمه الله ببيان مذهب السلف .

المسألة الثانية: عناية شيخ الإسلام رحمه الله بالمسائل العلمية الدقيقة الخفية وتحرير مذهب السلف فيها .

المسألة الثالثة : عناية شيخ الإسلام رحمه الله بالرد على المخالفين لطريق السلف .

وقبل الشروع في تلك المسائل أحب أن أوضح أن كلام شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الباب جار وتابع لكلام من تقدمه من أئمة الهدى من أهل السنة والجماعة ، فليس له قول ابتدعه ، ولكنه أظهر السنة وبينها ، وذب عنها ، وبين حال مخالفيها ، وجاهد عليها ، وصبر على الأذى فيها وذلك لما انتشرت الأهواء والبدع وعمت وطمت ، والله تعالى

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٣٥/١٤) .

يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[١] ، والصبر واليقين بما تنال الإمامة في الدين ، فلما قام شيخ الإسلام رحمه الله بذلك صار متبوعاً لمن بعده كما كان تابعاً لمن قبله .

أمـا **المسـألة الأولى** : فقـد اعتنى شيخ الإسلام رحمه الله ببيان مذهب أهل السنة والجماعـة وذلك عبر التحرير والتأكيد على مجموعة من القواعد والأصول المهمة التي يبنى عليها.

وتعتـبر تلك القواعد والأصول من أهم ما يميز أهل السنة والجماعة عن غيرهم من طوائف أهل البدع والضلال .

ومن أبرز تلك القواعد ثلاث :

القاعـدة الأولى: الاعـتماد علـى الكتاب والسنة في تلقي الدين والعقيدة ، وعدم الاعتـراض عليهما ، وهذا أصل عظيم عند أهل السنة والجماعة دلت عليه نصوص كثيرة جداً فمن ذلك :

قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[٢] ، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٣] ، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

(١) سورة السجدة آية رقم (٢٤) .
(٢) سورة الأعراف آية رقم (٣) .
(٣) سورة النساء آية رقم (٥٩) .

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[1] ، وقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] ، وقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[3] .

وقـد تضمنت هذه الآيات ونحوها وجوب التلقي عن الكتاب والسنة ، والرد إليهما عـند التنازع والاختلاف ، خلافاً لما يقرره أهل البدع والضلال من الاستغناء عن الكتاب والسـنة ، والاستعاضـة عنهما بمصادر أخرى يعتمدون عليها في تلقي الدين والعقيدة ، لم تفدهم إلا حيرة وضلالاً وغياً .

وهي تختلف من فرقة إلى أخرى ، فما بين آراء الرجال وأهوائهم التي يسمو ا عقليات أو قواطع عقلية ، وما بين خيالات وظنون وأوهام ومنامات يسمو ا كشفاً أو ذوقاً .

وكـثيراً ما يكرر شيخ الإسلام رحمه الله هذه القاعدة ويؤكد عليها ، فهو يحض على اتباع الكتاب والسنة علماً وعملاً ؛ لأن أصل الانحراف سببه البعد عن الكتاب والسنة ، فلا يتلقى منهما ابتداء ، ولا يرد إليهما عند التنازع .

---

(١) سورة النساء آية رقم (٦٥) .

(٢) سورة البقرة آية رقم (٢١٣) .

(٣) سورة طه الآيات رقم (١٢٣- ١٢٦) .

يقـول رحمه الله بعدما ذكر بعض النصوص السابقة : '' فهذه النصوص و غيرها تبين أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل ، وبيان ما اختلف فيه الناس ، وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم ، ورد ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة ، وأن من لم يتبع ذلك كان منافقاً ، وأن من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالاً شقياً معذباً ''[(١)] .

ويقـول في موضـع آخـر عن السلف : '' وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصـامهم بالكـتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسـان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن ، لا برأيه ، ولا ذوقه ، ولا معقوله ، ولا قياسـه ، ولا وجده ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جـاء بالهـدى ودين الحق ، وأن القرآن يهدى للتي هي أقوم : فيه نبأ من قبلهم ، وخبر ما بعـدهم ، وحكم ما بينهم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغـى الهـدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المسـتقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، فلا يستطيع أن يزيغه إلى هواه ، ولا يحرف به لسانه ، ولا يخلق عن كثرة الترداد ، فإذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق ولم يمـل كغيره من الكلام ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا تشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومـن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدي إلى صراط مستقيم ، فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به ''[(٢)] .

---

(١) تفسير سورة الإخلاص - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠٣/١٧) .

(٢) الفرقان بين الحق والباطل - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨/١٣) . وللاستزادة انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٧٣/١) ، الفتوى الحموية الكبرى - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥/٦-٨) .

القاعدة الثانية: أن مدلول النصوص الشرعية مقصود مراد من قبل الشارع .

فالأصل في الكلام دلالته على مراد المتكلم ، والنصوص الشرعية دلت على أمور عديدة من إثبات الصفات وغيرها ، وهذه الأمور مقصودة مرادة من قبل الله عز وجل ورسوله ﷺ ؛ لأن الشارع يريد هداية الناس ، ودلالتهم على الحق ، وقد خاطبهم في الكتاب والسنة بلغة عربية فصيحة ، وقد بلغ الرسول ﷺ الدين للأمة ، وأقام عليها الحجة ، فمن المحال أن يكون مدلول خطابه غير مراد ولا يبين ذلك ، أو يكون مدلول خطابه باطل كما يزعم أهل البدع والضلال .

ودعوى أن مدلول الخطاب الشرعي غير مراد يؤدي إلى القدح في الشارع ، إما في قدرته على البيان ، فيقال: لم يستطع بيان الحق لعدم فصاحته ، وإما في قصده هداية الناس ودلالتهم على الهدى ، فيقال: لم يكن يريد إرشاد الناس إلى الهدى ، ولهذا خاطبهم بألفاظ ذات مدلولات باطلة ، وإما في إكمال رسالته ، فيقال: خاطب الأمة بما يظهر منه الباطل وتركها ولم يبين لها الحق ، وهذه لوازم فاسدة ، وفساد اللازم دال على فساد ملزومه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فكيف يجوز على الله تعالى ، ثم على رسوله ﷺ ، ثم على خير الأمة أ م يتكلمون دائماً بما هو إما نص ، وإما ظاهر فى خلاف الحق ؟

ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يبوحون به قط ، ولا يدلون عليه لا نصاً ولا ظاهراً ، حتى يجيء أنباط الفرس والروم وفروخ اليهود والنصارى و الفلاسفة يبينون للأمة العقيدة الصحيحة التي يجب على كل مكلف ، أو كل فاضل أن يعتقدها ، لئن كان ما يقوله هؤلاء المتكلمون المتكلفون هو الاعتقاد الواجب ، وهم مع ذلك أحيلوا فى معرفته على مجرد عقولهم ، وأن يدفعوا بما اقتضى قياس عقولهم ما دل عليه الكتاب والسنة نصاً أو ظاهراً ، لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدى لهم وأنفع على هذا التقدير ، بل كان وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً في أصل الدين ، فإن حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء: أنكم يا معشر العباد لا تطلبوا معرفة الله عز وجل وما يستحقه من الصفات نفياً وإثباتاً لا من الكتاب ولا من السنة ولا من طريق سلف الأمة ، ولكن انظروا أنتم فما وجدتموه مستحقاً

له من الصفات فصفوه به ، سواء كان موجوداً في الكتاب والسنة أو لم يكن ، وما لم تجدوه مستحقاً له في عقولكم فلا تصفوه به ''[١] .

وفي هذا النص يلزم شيخ الإسلام رحمه الله من ادعى أن مدلول النصوص غير مراد أو باطل ، أن يكون ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدى لهم وأنفع ، بل يكون وجودهما على هـذا التقديـر ضـرراً على الأمة في أصل الدين ، وهذا لازم فاسد ، وهو دال على فساد ملزومه.

القاعـدة الثالـثة : أنه لا تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح ، فالشرع يخبر بمحـارات العقـول لا بمحالات العقول ، فهو يخبر بما تعجز العقول عن معرفته لا بما تحيله العقول وتمنعه[٢] ، وعلى هذا فلا يمكن أن يقع تعارض بين العقل الصريح القطعي الدلالة مع النقل الصحيح القطعي الدلالة ؛ لأن الأدلة القطعية يجب ثبوت مدلولها ، ولا يمكن أن تكون دلالـتها باطلة ، وعلى هذا فيمتنع تعارضها ، وتقدير التعارض بين القطعيات محال كتقدير الجمع بين النقيضين .

وعـند حـدوث ما يعتقد أنه تعارض بين العقل والنقل ، فيقدم القطعي منهما بغض النظر عن كونه عقلاً أو نقلاً .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' إذا قيل: تعارض دليلان سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً ، فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين ، أو يكونا ظنيين ، وإما أن يكون أحدهما قطعيا ، والآخر ظنياً .

(١) الفتوى الحموية الكبرى - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام رحمه الله (١٦/٥) .

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٩٧/٥) .

فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً ، وهذا متفق عليه بين العقلاء ؛ لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ، ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة .

وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان وأحدهما يناقض مدلول الآخر ، للزم الجمع بين النقيضين ، وهو محال ، بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية فلا بد من أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي ، أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين ، فأما مع تناقض المدلولين المعلومين ، فيمتنع تعارض الدليلين .

وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعياً دون الآخر ، فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء سواء كان هو السمعي أو العقلي ، فإن الظن لا يرفع اليقين .

وأما إن كانا جميعا ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما ، فأيهما ترجح كان هو المقدم ، سواء كان سمعياً أو عقلياً ''[١] .

المسألة الثانية : عناية شيخ الإسلام رحمه الله ببيان مذهب أهل السنة والجماعة في مسائل تعد من دقيق العلم ، وربما خفي مذهب السلف فيها على بعض الناس ، وربما غلط فيها بعض من ينتسب لأهل السنة والجماعة ، كما هو حال بعض المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين ، وكذا بعض دقائق علم الكلام والفلسفة ، فلذا اهتم رحمه الله بتحرير مذهب السلف فيها ، مستنداً في ذلك على الدليل الشرعي والعقلي ، مبيناً وجه اشتباهها وخطأ من أخطأ فيها ، ومن هذه المسائل ما يلي :

١- مسائل أفعال العباد وأثر العبد فيها ، وما يرتبط بذلك من الكلام على المتولدات ، وسيأتي الكلام على ذلك لاحقاً[٢] .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٧٩/١) .

(٢) انظر: (ص١٩١) وما بعدها .

٢- مسائل التحسين والتقبيح العقليين ، وسيأتي الكلام عليها لاحقاً[(١)] .

٣- مسائل الجواهر ووجودها ، والأعراض وبقاؤها ، وما يتعلق بها من قضايا وسيأتي الكلام عليها لاحقاً[(٢)] .

المسألة الثالثة : عناية شيخ الإسلام رحمه الله بالرد على الطوائف المنحرفة عن مذهب أهل السنة والجماعة ، وهذا الأمر يعتبر متمماً لبيان مذهب السلف ، فإن طوائف أهل البدع لهـم شبه يتمسكون بها ويوردونها ، وربما تروج على قليلي العلم والخبرة بمذهب السلف ، وتكون سبباً في الوقوع في نوع انحراف أو حيرة في باب العقيدة ، فلذا اهتم الشيخ رحمه الله بالرد على هؤلاء ، وبيان شبههم ، ونقضها بطريق النقل والعقل .

وقـد تقدم فيما سبق ذكر طائفة من كتبه خصصها للرد على تلك الطوائف ونقض شبهها ، وهذه المؤلفات يمكن تقسيمها إلى ثلاث أنواع :

الـنوع الأول: مـؤلفات قصـد بها شيخ الإسلام رحمه الله بيان مذهب أهل السنة والجماعة أساساً ، لكنه يذكر خلالها بعض شبه أهل البدع وينقضها ، وأكثر كتبه على هذا المـنوال ككـتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) ، وكتاب (الرسالة التدمرية) وكتاب (الإيمان) ، وكتاب (الفرقان بين الحق والباطل) وغيرها .

الـنوع الثاني : مؤلفات قصد بها شيخ الإسلام رحمه الله الرد على شبه أهل البدع ، بغـض النظر عن الكتاب الذي وردت فيه ، بمعنى أنه لم يقصد الرد على كتاب معين ، بل قصـد نقض الشبهة ، ومما ألف على هذا المنوال كتاب (درء تعارض العقل والنقل) ، الذي اسـتعرض فـيه جميع شبه الفلاسفة على قدم العالم ، واعتراضاتهم على القائلين بحدوثه ، ونقضها ، وفيه ردود على شبه المعتزلة والأشاعرة أيضاً .

---

(١) انظر: (ص ٣٠٩) .

(٢) انظر: (ص٣٧٩) و(ص٧٧٦) وما بعدها .

ومن هذا النوع أيضاً كتاب (الصفدية) ، وهو رد على من زعم من الفلاسفة أن معجزات الأنبياء قوى نفسانية ، وفيه نقض لقولهم بقدم العالم .

ومنها: كتاب (التسعينية) ، وفيه رد على الأشاعرة في قولهم بالكلام النفسي من تسعين وجهاً .

النوع الثالث: مؤلفات قصد بها شيخ الإسلام رحمه الله الرد على كتاب معين من كتب أهل البدع ، ونقضه بالتفصيل ، جملة جملة ، ومما ألفه على هذا المنوال كتاب (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) ، وفيه استعرض كتابا من أشهر كتبهم وأشملها على شبههم واعتراضاتهم وهو (منهاج الكرامة في معرفة الإمامة)[1] ، ونقضه .

ومن هذا النوع أيضاً كتاب (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية) ، وفيه نقض كتاب (تأسيس التقديس) للفخر الرازي ، وهو كتاب حشد فيه مؤلفه جميع شبه الأشاعرة واعتراضاتها ، وقد نقضه الشيخ رحمه الله تعالى .

ومنها: كتاب (الرد على البكري في الاستغاثة) ، وفيه نقض كتاب (الاستغاثة) للبكري .

وقد أكد شيخ الإسلام رحمه الله في ردوده على الطوائف المنحرفة على مجموعة من القواعد والأصول الهامة منها :

١- أن أهل البدع لا يعتمدون على الكتاب والسنة وآثار السلف من الصحابة والتابعين ، إنما يعتمدون على العقل واللغة ، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف ، وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعها رؤوسهم .

---

(١) مؤلفه هو ابن المطهر الحلي الرافضي .

وهـذه طريقة الملاحدة أيضاً إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة ، وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون إليها[1] .

٢- أن مـن أعظـم أسباب بدع المتكلمين من الجهمية وغيرهم قصورهم في مناظرة الكفـار والمشـركين ، فإنهم يناظرونهم ، ويحاجونهم بغير الحق والعدل ؛ لينصروا الإسلام زعمـوا بذلك ، فيستطيل عليهم أولئك ؛ لما فيهم من الجهل والظلم ، ويحاجونهم بممانعات ومعارضـات ، فيحـتاجون حينئذ إلى جحد طائفة من الحق الذي جاء به الرسول ﷺ ، والظلـم والعـدوان لإخـوانهم المؤمنين بما استظهر عليهم أولئك المشركون ، فصار قولهم مشـتملاً على إيمان وكفر ، وهدى وضلال ، ورشد وغي ، وجمع بين النقيضين ، وصاروا مخالفين للكفار والمؤمنين[2] .

٣- أن ذم السلف والأئمة للكلام وأهله متناول لمن استدل بالأدلة الفاسدة أو استدل على المقالات الباطلة .

فأما من قال الحق الذي أذن الله فيه حكماً ودليلاً ، فهو من أهل العلم والإيمان ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل [3] .

٤- أنه ليس لأحد أن يلزم الناس ، أو يوجب عليهم إلا ما أوجبه الله ورسوله ﷺ ، ولا يحظـر عليهم إلا ما حظره الله ورسوله ﷺ ، ومن فعل ذلك فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله [4] .

---

(١) انظـر: الإيمان الكبير - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١٩/٧) ، طريق الوصول إلى العلم المأمول للشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله (ص ١٧) .

(٢) انظر: التسعينية لابن تيمية (٢٣٢/١-٢٣٣) ، طريق الوصول لابن سعدي (ص ٤٣-٤٤) .

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤٢/١-٤٣) ، طريق الوصول لابن سعدي (ص ٥٤) .

(٤) انظر: التسعينية لابن تيمية (١٧٥/١) ، طريق الوصول لابن سعدي (ص ٤٣) .

٥- أن مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم ليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك ، وكانـت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم ، فإن هذا جائز حسن للحاجة ، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه[١] .

٦- أن مـن كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن والإيمان مثلاً ، أو لـتعديه حدود الله بسلوك السبيل التي نهى عنها ، أو لاتباع هواه بغير هدى من الله ، فهو الظالم لنفسه ، وهو من أهل الوعيد ، بخلاف المجتهد في طاعة الله ورسوله ﷺ باطناً وظاهراً الذي يطلب الحق باجتهاده كما أمره الله ورسوله ، فهذا مغفور له خطؤه[٢] .

هـذه بعـض القواعد والأصول والفوائد التي قررها شيخ الإسلام رحمه الله في هذه المسـألة ، وبهـا يـتم الكلام على دور شيخ الإسلام رحمه الله في بيان مذهب أهل السنة والجماعة على سبيل الإجمال ، وأنتقل بعد هذا إلى الباب الأول من البحث .

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤٣/١) ، طريق الوصول لابن سعدي (ص ٥٤)
(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٥٩/١) ، طريق الوصول لابن سعدي (ص ٥٦) .

الباب الأول

السببية عند أهل السنة والجماعة

وفيه فصول :

الفصل الأول : ضوابط السببية عند أهل السنة والجماعة .

الفصل الثاني : السببية والقدر .

الفصل الثالث : السببية والنبوة .

الفصل الرابع : السببية والطبائع .

الفصل الأول

ضوابط السببية عند أهل السنة والجماعة

وفيه مباحث :

المبحث الأول : ثبوت الأسباب .

المبحث الثاني : الأمر باتخاذ الأسباب .

المبحث الثالث : الأمر بعدم الاعتماد على الأسباب .

المبحث الرابع : عدم استقلالية الأسباب المعينة .

المبحث الأول

ثبـــوت الأســـــــباب

وفيه مطالب :

المطلب الأول : دلالة القرآن العظيم على ثبوت الأسباب .

المطلب الثاني : دلالة السنة النبوية على ثبوت الأسباب .

المطلب الثالث : دلالة الإجماع على ثبوت الأسباب .

المطلب الرابع : دلالة الحس والعقل على ثبوت الأسباب .

تمهيد

كثيراً ما يتكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن إثبات الأسباب ، ولكن ذلك يأتي في سياق الكـلام علـى بعض المسائل العقدية الأخرى التي لها ارتباط بوجه ما بالسببية ثم يستطرد ويتكلم عن الأسباب ، ويسوق مجموع من الأدلة الدالة على ثبوت الأسباب .

وأكثر ما يستدل لذلك بأدلة من القرآن الكريم ، ولعل هذا راجع إلى أن القرآن مليء بالأدلة الصريحة على إثبات السببية ، كما أنه يعتبر المصدر الأول من مصادر التشريع والتلقي عند المسلمين ، فالاستدلال به لا شك أقوى من غيره ، ولكن هذا لا يعني بحال من الأحوال أن شيخ الإسلام رحمه الله يهمل بقية الأدلة ، بل إنه يذكر أدلة أخرى من السنة والإجماع والعقل والحس .

وفي هـذا المبحث سوف أتناول ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله من أدلة ، وسيكون الكلام في أربعة مطالب :

المطلب الأول : دلالة القرآن العظيم على ثبوت الأسباب .

المطلب الثاني : دلالة السنة النبوية على ثبوت الأسباب .

المطلب الثالث : دلالة الإجـماع على ثبوت الأسباب .

المطلب الرابع : دلالة الحس والعقل على ثبوت الأسباب .

المطلب الأول : دلالة القرآن العظيم على ثبوت الأسباب .

إن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، معجزةً ودليلاً وفي مضلة[1] المسالك هادياً ، وإلى سبيل النجاة حادياً ، ونوراً يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، فهو حبل الله المتين ، وصراطه المستقيم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنـزيل من عزيز حكيم ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، ومن اتبعه فاز وهدي ، ومن حاد عنه ضل وغوى ، تكفل الله لمن قرأه وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[2].

ومن هذا المنطلق كان شيخ الإسلام رحمه الله شديد الحرص على اتباعه ، والاستدلال به في كل مقام ، وفي كل صغيرة وكبيرة من مسائل العلم والكلام .

وفي سياق إثبات السببية يعمد شيخ الإسلام رحمه الله إلى نصوص كثيرة من القرآن فيستدل بها على إثبات السببية .

وما ذكره رحمه الله من أدلة يمكن ضبطها بضوابط متعددة ، ومن خلال تلك الضوابط نستطيع إدراج أدلة أخرى تماثل تلك الأدلة ، ونستغني عن التكرار فيها .

وقد أشار إلى بعض تلك الضوابط العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله[3] .

---

(١) أرض مضِلة ومضلة : أي يضل فيها ولا يهتدى فيها للطريق . انظر: لسان العرب (٣٩٤/١١) .
(٢) سورة طه الآيات رقم (١٢٣- ١٢٦) .
(٣) انظر: شفاء العليل لابن القيم (ص٣٨١-٣٨٣) .

والضوابط هي:

أولاً: كـل دليل ذكرت فيه باء السببية ، وهي الداخلة على آلة الفعل[١] ، فهو يدل على السببية .

يقـول ابـن مالـك رحمه الله : '' والنحويون يعبرون عن هذه الباء بباء الاستعانة ، وآثـرت على ذلك التعبير بالسببية ؛ من أجل الأفعال المنسوبة إلى الله تعالى ، فإن استعمال السببية فيها يجوز ، واستعمال الاستعانة فيها لا يجوز ''[٢] .

ومما أورده شيخ الإسلام رحمه الله وينطبق عليه هذا الضابط :

١- قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ ﴾[٣].

ويعلق شيخ الإسلام رحمه الله على هذه الآية فيقول: '' أخبر أنه ينـزل الماء بالسحاب ، ويخرج الثمر بالماء''[٤] .

٢- قـولـه تعـالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[٥].

٣- قولـه تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[٦] .

(١) انظر: مغني اللبيب لابن هشام - بحاشية ابن الأمير (٩٧/١) .
(٢) شرح التسهيل لابن مالك (١٥٠/٣) .
(٣) سورة الأعراف آية رقم (٥٧) .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٨/٩) .
(٥) سورة الجاثية آية رقم (٥) .
(٦) سورة التوبة آية رقم (١٤) .

ويعلـق شيخ الإسلام رحمه الله على هذه الآية فيقول: '' فبين أنه المعذب وأن أيدينا أسباب وآلات وأوساط وأدوات في وصول العذاب إليهم ''[(١)].

٤- قـولـه تعالى: ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ ﴾[(٢)] .

٥- قولـــه تعـالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[(٣)].

٦- قوله تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾[(٤)] .

٧- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[(٥)] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩٠/٨) .
(٢) سورة التوبة آية رقم (٥٢) .
(٣) سورة البقرة آية رقم (٢٦) .
(٤) سورة المائدة آية رقم (١٦) .
(٥) سورة البقرة آية رقم (١٦٤) .

وشـيخ الإسلام رحمه الله يركز بصورة مباشرة على هذا النوع من الأدلة ، ويكررها في عـدة مواضع ، فكلما تكلم عن السببية واستدل لها فإنه يستدل بأدلة من هذا النوع في الغالب[(١)]، ولعل ذلك لوضوحها وصراحتها في الدلالة على السببية .

ثانياً: كل دليل ذكرت فيه باء التعليل - وهي التي يحسن غالباً في موضعها اللام[(٢)] - فهو يدل على السببية ، حيث أن ما بعد الباء سبب لما قبلها[(٣)] .

ومما يورده شيخ الإسلام رحمه الله وينطبق عليه هذا الضابط:

١- قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[(٤)] .

٢- قوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[(٥)] .

٣- قوله تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[(٦)].

٤- قوله تعالى: ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾[(٧)].

---

(١) انظر: التـدمرية - ضمن مجموع فتـاوى شيخ الإسلام (١١٢/٣) ، أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن نفس ا موع (١٣٨/٨) ، معنى قول علي لا يرجون عبد إلا ربه - ضمن نفس ا موع (١٧٥/٨) ، مجموع الفتـاوى (٤٨٦/٨ ، ٢٨٨/٩) ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤٩/٦-٥٠) ، بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٢٦٢) ، الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٢٧٠) ، بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٥١٥/١) .

(٢) انظر: شرح التسهيل لابن مالك (١٥٠/٣) .

(٣) انظر: شفاء العليل لابن قيم الجوزية (ص ٣٨٣) .

(٤) سورة الحاقة آية رقم (٢٤)

(٥) سورة النحل آية رقم (٣٢) .

(٦) سورة الأنعام آية رقم (٦) .

(٧) سورة المائدة آية رقم (٨٥) .

٥- قوله تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[(١)] .

٦- قولـه تعـالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[(٢)] .

ثالثاً: كل دليل ذكرت فيه لام التعليل يدل على السببية ، حيث أن ما بعد اللام سبب لما قبلها .

وقد أشار شيخ الإسلام إلى هذا الضابط فقال:'' وأما دخول لام كي في الخلق والأمر فكثير جداً''[(٣)] .

ومن أمثلة هذا :

١- قـوله تعـالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾[(٤)] .

٢- قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[(٥)] .

---

(١) سورة الإنسان آية رقم (١٢) .
(٢) سورة النساء آية رقم (١٦٠- ١٦١) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٨٦/٨) .
(٤) سورة إبراهيم آية رقم (١) .
(٥) سورة الذاريات آية رقم (٥٦) .

رابعاً: كل دليل رتب فيه الحكم الشرعي أو الجزائي على الوصف ، فإنه يدل على كونه سبباً له[(١)] .

ومن أمثلة هذا :

١- قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[(٢)] .

٢- قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾[(٣)] .

٣- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾[(٤)] .

٤- قوله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾[(٥)] .

٥- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾[(٦)] .

والآيتان الأخيرتان فيهما ترتيب الحكم على الوصف ، إضافة إلى باء السببية .

خامساً: كل دليل تضمن الشرط والجزاء ، أفاد سببية الشرط للجزاء[(٧)] .

---

(١) انظر: شفاء العليل لابن قيم الجوزية (ص ٣٨٢) .
(٢) سورة النور آية رقم (٢) .
(٣) سورة المائدة آية رقم (٣٨) .
(٤) سورة الطور آية رقم (٢١) .
(٥) سورة الزمر آية رقم (٦١) .
(٦) سورة يونس آية رقم (٩) .
(٧) انظر: شفاء العليل لابن قيم الجوزية (ص٣٨٣) .

ومما يورده شيخ الإسلام رحمه الله من الأدلة وينطبق عليه هذا الضابط :

١- قوله تعالى: ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[١] .

٢- قـــولـــه تعـــــالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[٢] .

سادساً: كل دليل تضمن وصف بعض عباده بداية الدلالة ، أفاد سببية العبد للهداية .

ومما يورده شيخ الإسلام رحمه الله من الأدلة وينطبق عليه هذا الضابط :

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣] .

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[٤] .

سابعاً: كل دليل تضمن نصب الله تعالى للأدلة الكونية أو الشرعية أفاد أن الدليل سبب في الدلالة على المدلول .

---

(١) سورة الأنفال آية رقم (٢٩) .
(٢) سورة الطلاق آية رقم (٢-٣) .
(٣) سورة الشورى آية رقم (٥٢) .
(٤) سورة الرعد آية رقم (٧) .

ومما يورده شيخ الإسلام رحمه الله من أدلة وينطبق عليه هذا الضابط قولـ ـه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١) ، إضافة إلى آية سورة البقرة المذكورة سابقاً(٢)(٣) .

هـذه الأدلـة ذكر معظمها شيخ الإسلام رحمه الله في مقام الاستدلال على السببية ، وذكر غيرها في مواضع أخرى من كتبه ، لكنها لا تخرج عن معنى هذه الأدلة ، فلذا لم أرد التطويل بذكرها .

المطلب الثاني : دلالة السنة النبوية على ثبوت الأسباب .

السنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي ، وقد دلت نصوص عديدة على أهميتها ، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾(٥) ، ويقـ ـ ـول ﷺ : « **ألا إني أوتـيت القرآن ومثله معه** »(٦) إلى غيرها من النصوص الدالة على أهمية السنة في التشريع الإسلامي.

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (١٩٠) .

(٢) هي الآية رقم (١٦٤) المذكورة في (ص٩٤) .

(٣) انظر فيما سبق من الأدلة : منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٥/٣٦٣-٣٦٥) ، شفاء العليل لابن القيم (ص ٣٨١-٣٨٣) .

(٤) سورة النجم آية رقم (٣-٤) .

(٥) سورة الحشر آية رقم (٧) . .

(٦) رواه أحمد في المسند (٤/١٣١) بلفظه ، وأبو داود في السنة ، باب في لزوم السنة (٥/١٠) ح(٤٦٠٤) ، والترمذي في العلم ، باب ما ي أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ (٥/٣٧) ح(٢٦٦٤) ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، ورواه ابن ماجة في المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه (١/٦) ح(١٢) ، والدارمي في المقدمة ، باب السنة قاضية على كتاب الله (١/١١٧) ح(٥٩٢) كلهم من =

وشـيخ الإسـلام رحمه الله لا يقدم على السنة الصحيحة أي رأي مهما كان قائله ، وهـذا أدى إلى مخالفـته لبعض علماء عصره في بعض المسائل ، مما أثار سخطهم ، وقاموا بتأليب السلطة عليه ، وأدى ذلك إلى سجنه مرات ، ولم يتـزحزح عن ما اعتقده من الحق قِيد أنملة .

ومـن أبـرز المسائل التي أثيرت في ذلك مسألة الطلاق ، ومسألة شد الرحل إلى غير المساجد الثلاثة ، ونحوها من المسائل التي ليس هذا مجالاً لسردها .

المقصود أن الشيخ وقف مع السنة ، ولم يبال بما يحصل له جراء ذلك من السجن فضلاً عن التهم والتشنيعات التي يثيرها خصومه ضده .

وفي مجال إثبات الأسباب لم يقتصر الشيخ على أدلة القرآن العظيم مع كفايتها في ذلك بل ضم إليها مجموعة من أدلة السنة فمما ذكر رحمه الله :

١- عن النبي ﷺ أنه قال لسعد بن أبي وقاص[(١)] رضي الله عنه: « **وعسى أن يرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون** »[(٢)(٣)].

وهذا واضح في إثبات السببية ، حيث فيه تصريح أن بقاء سعد رضي الله عنه على قيد الحياة يكون سبباً في انتفاع أقوام وضرر آخرين ، والباء في الكلمتين صريحة في السببية .

=حديث المقدام بن معد يكرب ، ورواه الترمذي في نفس الكتاب والباب من حديث أبي رافع (٣٦/٥) ح(٢٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح .

(١) سعد بن أبي وقاص القرشي الزهري ، صحابي جليل أسلم قديماً بمكة ، وشهد المشاهد كلها ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد مجابي الدعوة المشهورين ، وأحد الستة الذين جعل فيهم عمر الشورى توفي سنة ٥٤ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (١٨/٢) ، البداية والنهاية لابن كثير (٧٢/٨) ، الإصابة لابن حجر (٣٠/٢) .

(٢) رواه البخاري في الوصايا ، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (١٠٠٦/٣-١٠٠٧) ح (٢٥٩١) واللفظ له ، ومسلم في الوصية ، باب الوصية بالثلث (١٢٥٣/٣) ح(١٦٢٨) .

(٣) انظر : منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣٦٦/٥) .

٢- وقال ﷺ : « **إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها ، وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم** »[١][٢] .

وهذا الدليل يدل على أن صلاة النبي ﷺ على الأموات سبب في تنوير القبور على أهلها ، حيث الباء صريحة في السببية .

٣- عن النبي ﷺ أنه قيل له: أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال: « **هي من قدر الله** »[٣][٤].

وفي هذا الدليل نص على إثبات تأثير نوع من الأسباب وهي الأدوية ، بل وجعل ذلك من جملة قدر الله جل جلاله .

وقد اكتفى شيخ الإسلام رحمه الله بهذه الأدلة من السنة في الاستدلال على السببية ، ولعل ذلك عائد إلى أنه قد ذكر أدلة عديدة من القرآن ، وهي كافية في الدلالة على المقصود كما أن بعض أدلة السنة يذكرها شيخ الإسلام رحمه الله في مقام الأمر باتخاذ الأسباب[٥] ، ولا شك أن الأمر بالأسباب يقتضي ثبوت الأسباب .

وقبل أن أ ي الكلام على أدلة السنة أشير إلى أن هناك أدلة كثيرة من السنة في إثبات الأسباب ، ويمكن استنباط بعضها بالاستناد إلى ما ذكر من الضوابط في أدلة القرآن العظيم ومن ذلك الآتي:

---

(١) رواه مسلم في الجنائز ، باب الصلاة على القبر (٦٥٩/٢) ح(٩٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظه .

(٢) انظر : أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع الفتاوى (١٣٨/٨) .

(٣) تقدم تخريجه (ص٢٦) .

(٤) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣٦٣/٥) .

(٥) انظر : (ص ١٢١ ، ١٢٥) .

١- قوله ﷺ لعلي[1] رضي الله عنه : « **فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم** »[2].

حيث ذكر النبي ﷺ أن الله يهدي خلقه ببعضهم ، والباء صريحة في السببية .

٢- قوله ﷺ : « **إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجره بما كسب ، وللخازن مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئاً** »[3] .

حيث ذكر النبي ﷺ أن المرأة تؤجر بسبب نفقتها ، وزوجها يؤجر بسبب كسبه المال والخازن هو الخادم يؤجر بسبب دفعه للصدقة[4] .

٣- قوله ﷺ : « **ليصيبن أقواماً سفْع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته ، يقال لهم: الجهنميون** »[5].

---

(١) علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم القرشي الهاشمي أمير المؤمنين، ولد قبل البعثة بعشر سنين ، وهو أول من أسلم من الصبيان ، وهاجر إلى المدينة ، وشهد المشاهد كلها إلا غزوة تبوك ، وهو أحد علماء الصحابة وفضلائهم وشجعا م ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، بويع بالخلافة بعد قتل عثمان ؓ سنة ٣٥ هـ وقتل سنة ٤٠ هـ .
انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٢٩/٣) ، الإصابة لابن حجر (٥٠١/٢) ، ذيب التهذيب لابن حجر (٢٩٤/٧) .

(٢) رواه البخاري في الجهاد ، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله (١٠٧٧/٣) ح(٢٧٨٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي بن أبي طالب ؓ (١٨٧٢/٤) ح(٢٤٠٦) كلاهما من حديث سهل بن سعد ؓ ، واللفظ لمسلم .

(٣) رواه البخاري في الزكاة ، باب من أمر خادمه بالصدقة ولم يناوله بنفسه (٥١٧/٢) ح(١٣٥٩) ، ومسلم في الزكاة ، باب أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت من بيت زوجها غير مفسدة بإذنه الصريح أو العرفي (٧١٠/٢) ح(١٠٢٤) كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها ، واللفظ للبخاري .

(٤) انظر : فتح الباري لابن حجر (٣٥٥/٣) .

(٥) رواه البخاري في التوحيد باب ما جاء في قوله تعالى ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ (٢٧١١/٦-٢٧١٢) ح(٧٠١٢) من حديث أنس ؓ بلفظه .
السفْع: هو أثر تغير البشرة فيبقى فيها بعض السواد كما في فتح الباري (٤٤٧/١٣) .

حيث ذكر أن بعض الناس يدخل النار بسبب اقترافه للذنوب ، ويخرجون منها بسبب فضل الله تعالى ورحمته .

٤- قوله ﷺ : « **إن نزلتم بقوم ، فأمر لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا ، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف** »[١].

حيث فيه استخدام صيغة الشرط والجزاء ، وهي من صيغ السببية ، وذلك في ناحيتين من الحديث :

الأولى : أنه رتب قبول حق الضيافة على شرط الـ ول والأمر بما ينبغي للضيف .

الثانية : أنه رتب انتـزاع حق الضيف من المضيف على امتناع المضيف عن الضيافة .

٥- قوله ﷺ : « **ما بال أناس يشترطون شروطاً ليس** في **كتاب الله ، من اشترط شرطاً ليس** في **كتاب الله فهو باطل** »[٢].

وهذا أيضاً كسابقه ، فيه استخدام صيغة من صيغ السببية ألا وهي صيغة الشرط والجزاء ، حيث رتب بطلان كل الشروط على كو ا ليست في كتاب الله .

وللعلماء بحث وتفصيل على هذا الحديث[٣] وما قبله[٤] ليس هذا محل ذكره والإفاضة فيه ، فالمقصود منه ذكر دلالة السببية من السنة ، من خلال ضابط الشرط والجزاء .

هذه بعض أدلة السنة الدالة على ثبوت الأسباب .

---

(١) رواه البخاري في المظالم ، باب قصاص المظلوم إذا وجد مال ظالمه (٨٦٨/٢) ح(٢٣٢٩) ، ومسلم في اللقطة باب الضيافة ونحوها (١٣٥٣/٣) ح(١٧٢٧) كلاهما من حديث عقبة بن عامر ﷺ ، واللفظ للبخاري .

(٢) رواه البخاري في البيوع باب البيع والشراء مع النساء (٧٥٦/٢) ح(٢٠٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظه .

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٣٧/٢٩) ، القواعد النورانية لابن تيمية (ص ٢٠٦) وما بعدها .

(٤) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٧١/٣٠) ، فتح الباري لابن حجر (١٢٩/٥-١٣٠) . .

المطلب الثالث : دلالة الإجماع على ثبوت الأسباب .

الإجماع دليل معتبر عند أهل العلم ، دل عليه القرآن العظيم والسنة النبوية ، فمن القرآن قوله تعالى:﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[1] ونحوها من الآيات .

ومن السـنة قول الرسـول ﷺ : « **لا تجتمع أمتي على ضلالة** »[2] ونحوه من الأحاديث[3] .

والإجماع هو:'' اتفاق علماء العصر من أمة محمد ﷺ على أمر من أمور الدين''[4] .

وشيخ الإسلام رحمه الله لا ينازع في حجيته ، لكن له بعض التفصيلات في الإجماع وحجيته ، وإمكانية العلم به في مسائل ال اع ، وهو يقسمه إلى قسمين :

الأول : الإجماع القطعي ، وهو الذي يجزم فيه بانتفاء المخالف ، ويمكننا أن نمثل له بالإجماع على وجوب الصلاة والزكاة والصوم ونحوها مما علم من الدين بالضرورة .

---

(١) سورة النساء آية رقم (١١٥) .

(٢) رواه الترمذي في الفتن ، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤/٤٠٥) ح(٢١٦٧) ، والحاكم في المستدرك (١/١١٥) كلاهما من حديث ابن عمر ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقال الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٧٨) : وفي ضعيف سنن الترمذي (ص ٢٤٦) ، وفي حاشية المشكاة (١/٦١) : صحيح .
ورواه ابن ماجة في الفتن باب السواد الأعظم من حديث أنس بن مالك (٢/١٣٠٣) ح(٣٩٥٠) .

(٣) انظر: العدة لأبي يعلى (٤/١٠٦٤ ، ١٠٧٣) ، المستصفى للغزالي (١/٥٠٩ ، ٥١٠) ، التمهيد لأبي الخطاب (٣/ ٢٢٨ ، ٢٣٧) ، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (١/٢٠٠ ، ٢١٩) ، روضة الناظر لابن قدامة (٢/٤٤٢ ، ٤٤٥) .

(٤) روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة المقدسي (٢/٤٣٩) . وهناك تعريفات أخرى للإجماع انظر : العدة لأبي يعلى (٤/١٠٥٧) ، المستصفى للغزالي (١/٥٠٥) ، التمهيد لأبي الخطاب (٣/٢٢٤) ، المحصول للرازي (٤/٢٠) ، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (١/١٩٦) ، البحر المحيط للزركشي (٤/٤٣٦) ، شرح المنهاج للأصفهاني (٢/ ٥٧٨) ، شرح الكوكب المنير لابن النجار الحنبلي (٢/٢١١) .

الثاني : الإجماع الظني ، وهو الإجماع الإقراري والاستقرائي : بأن يستقرئ أقوال العلماء فلا يجد في ذلك خلافاً ، أو يشتهر القول في القرآن ، ولا يعلم أحداً أنكره ، فهذا يجوز الاحتجاج به ولكن لا تدفع به النصوص المعلومة [١].

ويرى شيخ الإسلام رحمه الله أن إجماع السلف الذين هم الصحابة والتابعون ومن سار على نهجهم من أهل القرون المفضلة من العلماء والأئمة[٢] هو من الإجماع الظني الذي يمكن العلم به في مسائل النـزاع ، ويجوز الاحتجاج به .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في معرض الطعن في حكاية المتكلمين لإجماع المسلمين: " وهم إذا ذكروا إجماع المسلمين لم يكن لهم علم بهذا الإجماع ؛ فإنه لو أمكن العلم بإجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به ؛ لعدم علمهم بأقوال السلف ، فكيف إذا كان المسلمون يتعذر القطع بإجماعهم في مسائل النزاع ، بخلاف السلف فإنه يمكن العلم بإجماعهم كثيراً "[٣] .

من خلال هذا النص يتبين لنا أن شيخ الإسلام رحمه الله يفرق بين إجماع المسلمين ، وإجماع السلف ، فمسائل النـزاع يمكن فيها معرفة إجماع السلف ، دون القطع بإجماع الأمة ، ويرى أن هذا الإجماع هو الذي يمكن ضبطه في هذه المسائل ؛ لكثرة اختلاف الناس وتفرقهم في الأمصار .

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦٧/١٩ –٢٦٨) .

(٢) انظر المقصود بالسلف عند شيخ الإسلام في: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٠٦/١ ، ٢٣٧/٨) ، شرح حديث النزول - ضمن مجموع فتـاوى شيخ الإسلام (٣٤٧/٥) ، قاعدة في القرآن وكلام الله - ضمن نفس المجموع (٣٠/١٢) ، جواب أهل العلم والإيمان - ضمن نفس المجموع (٢٠٥/١٧) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤١٢/١٣) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٤٣٤/٢) .

(٣) الفرقان بين الحق والباطل - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥/١٣-٢٦) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: ''والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة ''[(١)] .

ولهذا نجد شيخ الإسلام رحمه الله يعتني كثيراً بذكر إجماع السلف واتفاقهم خاصة في مسائل العقيدة .

ولا شك أن مسألة الأسباب من مسائل النـزاع بين المسلمين ، وينطبق عليها ما قرره شيخ الإسلام رحمه الله من تعذر إجماع المسلمين ، وإمكانية إجماع السلف ، ولهذا نجده يحكى إجماع السلف على إثبات الأسباب بطرق متعددة منها :

أولاً: حكاية اتفاق السلف على إثبات الأسباب .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وكذلك من قابلهم فنفى حكمة الرب الثابتة في خلقه وأمره ، وما كتبه على نفسه من الرحمة ، وما حرمه على نفسه من الظلم ، وما جعله للمخلوقات والمشروعات من الأسباب التي شهد بها النص مع العقل والحس ، واتفق عليها سلف الأمة و أئمة الدين''[(٢)] .

ثانياً: حكاية مخالفة المتكلمين في نفيهم للأسباب لإجماع السلف .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : ''هؤلاء الذين اتبعوا جهماً[(٣)] في الجبر ، ونفوا حكمة

(١) العقيدة الواسطية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥٧/٣) .

(٢) جواب أهل العلم والإيمان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧٧/١٧) .

(٣) أبو محرز جهم بن صفوان الترمذي وقيل: السمرقندي ، مولى بني راسب ، الضال المبتدع ، أخذ مقولة التعطيل عن الجعد بن درهم ، اتخذه الحارث بن سريج كاتباً له وداعياً ، قتله سلم بن أحوز سنة ١٢٨ هـ لما خرج على الدولة مع الحارث . انظر: الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد (ص١٠٢) ، التنبيه والرد للملطي (ص ٩٩) ، المنتظم لابن الجوزي (٢٦٦/٧) ، جمهرة أنسـاب العرب لابن حزم (ص ٢١٢) ، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٥/ ١٧) ، البرهان للسكسكي (ص ٣٤) ، البداية والنهاية لابن كثير (٢٧/١٠) .

الله ورحمته والأسباب التي با يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها ، هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف مع مخالفتهم لصريح المعقول ''[١] .

ويقول أيضاً عن نفاة الأسباب: '' وخالفوا بذلك الكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة وصرائح العقول ''[٢] .

ثالثاً: حكاية إجماع السلف على مسائل معينة تقتضي ثبوت الأسباب ، كمسألة المعاصي وأ ا سبب للعقوبة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن نفاة الأسباب : '' بل قد يقولون: إن المعاصي علامة محضة على العقوبة ، لاقترا ا با ، لا أ ا سبب لها ، وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وللعقل ''[٣].

المطلب الرابع : دلالة الحس والعقل على ثبوت الأسباب .

الحواس نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى على عباده ، وهبها العباد لكي يستعملوها في ما يعود عليهم بالنفع في الدنيا والآخرة ، قال تعـالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[٤] .

ودعا عباده إلى الاستفادة من حواسهم ، فأمرهم بالنظر في أنفسهم وفيما حولهم قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[٥] ، وقال تعالى:﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[٦]،

---

(١) الحسنة والسيئة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٧١/١٤) .
(٢) الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص٢٧٠) .
(٣) الحسنة والسيئة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٢٤/١٤) .
(٤) سورة النحل آية رقم (٧٨) .
(٥) سورة الذاريات آية رقم (٢١) .
(٦) سورة الطارق آية رقم (٥) .

وقـال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾(١) .

وأخبر أنه سيسأل عباده عن هذه الحواس وما اقترفته قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾(٢) .

وشيخ الإسلام يهتم كثيراً بالحواس ، ويراها أحد طرق العلم والمعرفة التي يستفاد منها في الدين وغيره .

يقول رحمه الله : " وهذه الأنواع الثلاثة هي طرق العلم : الحس ، والخبر ، والنظر ، وكل إنسان يستدل من هذه الثلاثة في بعض الأمور ، لكن يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس في الدين وغير الدين "(٣) .

ويقرر شيخ الإسلام رحمه الله أن الحس لا يستغني عن العقل ، إذ بواسطة العقل يمكن الحكم على ما يدرك بالحواس ، والتمييز بين المدركات الحسية ، وإدراك غلط الحس وصوابه فمثلاً لا يمكن للحواس الحكم على الصوت بأنه غير اللون إلا بالعقل ، ولا يمكن للحواس التمييز بين الأشياء المختلفة إلا بالعقل ، ولهذا المجنون لا يميز بين الدينار والدرهم ، ولا بين الأيام ولا بين ثوبه وثوب غيره مع وجود حسه .

---

(١) سورة عبس رقم الآيات (٢٤-٣١) .

(٢) سورة الإسراء آية رقم (٣٦) .

(٣) الفرقان بين الحق والباطل - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٥/١٣) . وللاستزادة انظر : النبوات لابن تيمية (١٠٩٥/٢) ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٧٨/١) (٣٢٤/٧) .

والحس قد يقع في الغلط إما لعيب في الحاسة أو انخداعها ، فالأول كالحول والمرض، فإن الأحول يرى الواحد اثنين ، والمريض فإنه يجد الحلو مراً ، لكن العقل يميز سلامة الحس من فسادة ، لأنه قد استقر عنده ما يدرك بالحس السليم ، فإذا رأى من له عقل حساً يدرك به خلاف ذلك علم فساده[(١)].

والثاني كما يرى الرائي السراب ، ويرى العصا قد انكسرت في الماء ، والعقل يدرك انخداع هذا الحس ، ويعلم غلطه وإن رآه .

وشيخ الإسلام رحمه الله يستدل بالحس على إثبات الأسباب ، فالحس يرى النار وإحراقها ، والسيف وقطعه ، والشمس وإنار ا ، والإنسان وفعله ، ونحو هذه الأمور ، فمن غير المقبول حساً أن تقول له: النار لا تحرق ، والسيف لا يقطع ، والشمس لا تنير، والإنسان لا يفعل ؛ لأن هذه أمور حسية يشاهدها كل الناس ، ونفيها مكابرة ظاهرة .

يقول رحمه الله : ''والناس يعلمون بحسهم وعقلهم أن بعض الأشياء سبب لبعض كما يعلمون أن الشبع يحصل بالأكل لا بالعد ، ويحصل بأكل الطعام لا بأكل الحصى ، وأن الماء سبب لحياة النبات والحيوان كما قـال:﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[(٢)] وأن الحيوان يروى بشرب الماء لا بالمشي ، ومثل ذلك كثير ''[(٣)] .

ويثير شيخ الإسلام رحمه الله إشكالاً على هذه المدركات الحسية ، وهو أن حس الإنسان إنما يدرك أشياء معينة ، فمثلاً عندما يشرب الإنسان الماء فيروى ، أو عندما تقطع عنق فلان فيموت ، أو عندما يضرب ضرباً شديداً فيتألم ، فالحس يدرك شيئاً معيناً ، رياً معيناً ، وموتاً معيناً ، وألماً معيناً ، فكيف يمكن من خلال تلك المعينات إطلاق الحكم الكلي

(١) انظر فيما سبق : بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٢٦٨) .
(٢) سورة الأنبياء آية رقم (٣٠) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٨/٩) .

وهو أن كل من شرب الماء سيروى ، أوكل من قطعت عنقه سيموت ، أوكل من ضرب ضرباً شديداً سيتألم ؟

ويجيب عن هذا التساؤل ببيان دور العقل في الموضوع ، فالعقل هو الذي يطلق تلك الكليات ، فعندما يرى حصول الأثر المعين مع المؤثر المعين دائماً ، ويشعر بالسبب المناسب ، يضم السبب إلى الدوران[(١)] مع السبر والتقسيم[(٢)] الذي ينفي المزاحم ، فينتج القضية الكلية ، وهي أن كل من فعل به ذلك يحصل له الأثر المترتب عليها [(٣)].

وبذا يشترك الحس والعقل في إثبات الأسباب ، فالحس في المعينات ، والعقل في الكليات .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : ''وأما الاعتقاد الكلي القائم في النفس من أن هذا الجنس يحصل به اللذة ، وهذا الجنس يحصل به الألم ، فهذا من التجريبيات ؛ إذ الحسيات الظاهرة والباطنة ليس فيها شئ كلي .

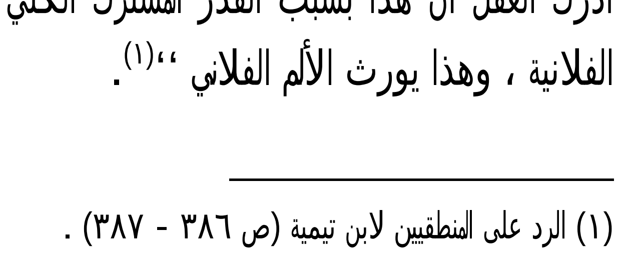
فالقضاء الكلي الذي يقوم بالقلب هو مركب من الحس والعقل وهو التجريبيات ، كما في اعتقاد حصول الشبع والري بما يعرف من المأكولات والمشروبات ، والموت والمرض بما يعرف من السموم القاتلة ، والأسباب الممرضة ، وزوال ذلك بالأسباب المعروفة ، وكل هذا من القضايا التجريبية ، فالحس به يعرف الأمور المعينة ، ثم إذا تكررت مرة بعد مرة

---

(١) الدوران لغة : الطواف حول الشيء . وفي الاصطلاح حكم عند وجود وصف ينعدم عند عدمه . انظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص ٣٤٢) .

(٢) السبر والتقسيم كلاهما واحد وهو حصر الأوصاف في الأصل المقيس عليه وإبطال ما لا يصلح ليتعين ما بقي كما يقال: علة حرمة الخمر إما الإسكار أو كونه ماء العنب ا موع ، وكونه ماء عنب لا يصح التعليل به ، فيتعين الإسكار . انظر: التعريفات للجرجاني (ص ١٣١) ، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص ٣٩٦) .

(٣) انظر فيما سبق : الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٩٢-٩٣) .



أدرك العقل أن هذا بسبب القدر المشترك الكلي ، فقضى قضاء كلياً أن هذا يورث اللذة الفلانية ، وهذا يورث الألم الفلاني ''[1] .

---

(١) الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٣٨٦ - ٣٨٧) .

المبحث الثاني

الأمر باتخاذ الأسباب

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في الأمر وأحكامه .

المطلب الثاني: الأمر باتخاذ الأسباب .

المطلب الأول : في الأمر وأحكامه .

قبل أن أتكلم عن الأمر بالأسباب ينبغي أن أعرض بشكل موجز للأمر ومعناه عند الأصوليين وكلام شيخ الإسلام عنه ، حتى يمكن فهم معنى الأمر بالأسباب ، وما يترتب عليه من أحكام .

الأصوليون يعرفون الأمر اصطلاحاً بأنه : استدعاء الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء[١] .

وعلى هذا التعريف هناك اعتراضات وردود ليس هذا البحث مجالاً لسردها[٢] ، وإنما ذكرت هذا التعريف دون غيره ؛ لأنه الذي ذكره شيخ الإسلام كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى[٣] .

وفي الأمر مسائل مهمة مرتبطة بفهم الأمر وتطبيقه ، صارت مجالاً للبحث والدراسة والجدل من قبل العلماء منها :

هل الأمر يقتضي الوجوب ؟ وهل يقتضي التكرار ؟ وهل يقتضي الفور ؟ وهل الأمر بالشيء نهي عن ضده ؟

وبخصوص المسألة الأولى فالصحيح الراجح الذي عليه جماهير الفقهاء والأصوليين أن الأمر المطلق يقتضي الوجوب .

---

(١) التمهيد لأبي الخطاب الكلوذاني (١٢٤/١) ، روضة الناظر لابن قدامة (٥٩٤/٢) ، وانظر: المحصول للرازي (٢/ ١٧) .

(٢) انظر الاعتراضات والردود في : المحصول للرازي (١٧/٢) ، والإستزادة انظر : التبصرة للشيرازي (ص ١٧) ، الورقات للجويني (ص ١٣) .

(٣) انظر (ص ١١٨) .

وذهـبت المعتـزلة ومن وافقهم إلى أنه للندب إلا بقرينة دالة على الوجوب ، واختار الأشاعرة التوقف فليس للوجوب ولا غيره إلا بدليل(١) .

أما المسألة الثانية وهي اقتضاء الأمر التكرار ، فأكثر الفقهاء على أنه لا يقتضي التكرار وقيل يقتضي ، وبعضهم فصل فقال: إن علق الأمر على شـرط فيقتضى التكرار ، وإلا فلا يقتضيه(٢) .

أمـا المسألة الثالثة وهي اقتضاء الأمر للفور ، فالأصوليون من المالكية والحنابلة وأكثر الحنفية ، وبعض الشافعية على أن الأمر يقتضي الفور ، وهو الراجح .

وذهـب أكثر الشافعية والمعتزلة إلى أنه على التراخي ، وذهب آخرون إلى التوقف في هذه المسألة(٣).

وأمـا المسـألة الرابعة وهي: الأمر بالشيء هل هو ي عن ضده أو لا ، فقد ذهب جمهور المتكلمين إلى أن الأمر بالشيء ي عن ضده ، أو عن أحد أضداده إذا لم يكن معيناً وذهبت المعتزلة إلى أنه ليس ياً عن ضده .

وبعض العلماء لهم تفصيل في المسألة ، فالأمر بالشيء ي عن ضده عن طريق اللزوم العقلي ، وهو القول الراجح إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر : التبصرة للشيرازي (ص ٢٧) ، روضة الناظر لابن قدامة (٦٠٤/٢) .

(٢) انظر : روضة الناظر لابن قدامة (٦١٦/٢-٦١٧) .

(٣) انظر: المعتمد لأبي الحسين البصري المعتزلي (١١١/١) ، البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين (١٦٨/١) ، روضة الناظر لابن قدامة (٦٢٣/٢) ، القواعد والفوائد الأصولية لابن اللحام (ص ١٧٩) ، إرشاد الفحول للشوكاني (ص ٨٨) .

وهناك من العلماء من لهم تفاصيل أخرى في المسألة فقد فرق بعضهم بين أمر الوجوب وأمـر الندب ، فجعل الأول مقتضياً للنهي عن ضده دون الثاني ، وآخرون لهم تفصيلات أخرى في المسألة ليس هذا محل الإفاضة فيها[١] .

لكـن مما ينبغي الإشارة إليه هنا أن خلاف العلماء في المسألة الأخيرة مبني على مسألة الكـلام النفسي لله تعالى ، فالمثبتون له عندهم أن الأمر بالشيء ي عن ضده ؛ لأن الكلام النفسـي واحد ، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، بينما القائلون بخلق القرآن وهم المعتزلة يمنعون من ذلك ؛ لأن الأمـ ـر ليس هو النهي ، والتحقيق ما ذكرته آنفاً[٢].

وبعد هذا العرض الموجز للأمر عند الأصوليين ، لو انتقلنا إلى شيخ الإسلام وما قرره في هـذا الـباب لوجدناه يعرض للأمر في مؤلفاته لا على سبيل الدراسة المستقلة من حيث كـونه أمراً ، بل على سبيل الاستطراد المختصر في بحث مسائل متعلقة بالأمر ؛ ولأجل هذا لم يذكر بعض الباحثين المعاصرين رأيا مستقلاً لشيخ الإسلام في مسألة الأمر[٣] .

ويعرف شيخ الإسلام رحمه الله الأمر بأنه مصدر يطلق على شيئين :

أحدهما : نفس مسمى المصدر كأمر يأمر أمراً [٤]، والآخر: المفعول المخلوق .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فالأمر يراد به نفـس مسـمى المصدر كقولـه: ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾[٥] ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾[٦] ، ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ

---

(١) انظر : البرهان لإمام الحرمين (١٧٩/١) ، المستصفى للغزالي (٢١٦/١) ، المحصول للرازي (٢/ ١٩٩) ، التقرير والتحبير لابن أمير الحاج (٣٢٠/١) ، إرشاد الفحول للشوكاني (ص ٨٩) ، مذكرة أصول الفقه للشنقيطي (ص ٢٦-٢٨) .

(٢) انظر : مذكرة أصول الفقه للشنقيطي (ص ٢٧) . والأشاعرة هم القائلون بالكلام النفسي .

(٣) انظر : ابن تيمية وأصول الفقة للدكتور صالح بن عبدالعزيز آل منصور .

(٤) انظر : أقوم ما قيل في القضاء والقدر لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٧/٨) .

(٥) سورة طه آية رقم (٩٣) .

(٦) سورة النور آية رقم (٦٣) .

﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾[(١)] ، ويـراد بــه المأمور بـه كقولـه تعـالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾[(٢)] ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾[(٣)] فالأول: هو من كلام الله وصفاتـه ، والثاني: مفعول ذلك وموجبه ومقتضاه ''[(٤)] .

ويقـول أيضـاً : '' مـن لغة العرب أن لفظ المصدر يعبر به عن المفعول كثيراً كما يقولون: درهم ضرب الأمير ، ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾[(٥)] أي مخلوقه ''[(٦)] .

ويقسم شيخ الإسلام رحمه الله أمر الله تعالى الذي هو فعله وصفته إلى قسمين :

الأول: الأمر الكوني ، وهو الذي يكون به الخلق والتكوين والإيجاد ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٧)] .

والثاني : الأمر الديني الشرعي ، الذي هو أوامره ونواهيه ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[(٨)(٩)].

---

(١) سورة الطلاق آية رقم (٥) .
(٢) سورة الأحزاب آية رقم (٣٨) .
(٣) سورة النحل آية رقم (١) .
(٤) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٦١/٧) ، وانظر: أقوم ما قيل في القضاء والقدرلابن تيمية - ضمن مجموع الفتاوى (١٢٧/٨) .
(٥) سورة لقمان آية رقم (١١) .
(٦) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٦١/٧) .
(٧) سورة يس آية رقم (٨٢) - ووقع في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع الفتاوى (١١/ ٢٦٧) خطأ في الآية ﴿إنما أمرنا لشيء﴾، والصحيح: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ﴾ سورة النحل آية رقم (٤٠) .
(٨) سورة النحل آية رقم (٩٠) .
(٩) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦٧/١١) ، مسائل في الحديث وعلومه لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣٣/١٨) .

ولعلـنا هنا نلاحظ النظرة الشمولية للأمر ، والصبغة العقدية التي يشتمل عليها كلام شـيخ الإسلام رحمه الله ، وكلاهما واضح في التعريف اللغوي ، وتقسيم الأمر ، حيث نص على ذكر المفعول ، وأشار إلى الأمر الكوني مع أن كثيراً من الأصوليين لا يذكرو ما .

ويعـرف شـيخ الإسـلام رحمه الله الأمر الديني الشرعي بأنه: الطلب والاستدعاء والاقتضاء ، ويقول إنه جنس وله نوعان:

أحدهما : طلب الفعل .

والآخر : طلب الترك .

فكلاهمـا طلـب ، وإنما خص الآخر باسم خاص وهو النهي جرياً على عادة العرب '' أن الجنس إذا كان له نوعان أحدهما يتميز بصفة كمال ، أو نقص أفردوه باسم ، وأبقوا الاسم العام على النوع الآخر ''(١) .

ولهذا فالأمر إذا أطلق من كل متكلم إذا قيل: أطع فلاناً ، أو فلان يطيع أمر فلان ، أو لا يعصي أمره ؛ فإنه يدخل فيه النهي ؛ لأن الناهي آمر بترك المنهي عنه(٢) .

'' ومنـه قولـــه: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾(٣) أي أصحاب الأمر ، ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهي ، ووجبت طاعته في هذا وهـذا ، فالنهي داخـل في الأمر ''(٤)

(١) قاعدة في أن جنس المأمور به أعظم من جنس الترك المنهي عنه - ضمن مجموع الفتاوى (١١٩/٢٠) .
(٢) انظر: الإيمان الكبير لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧٦/٧) .
(٣) سورة النساء آية رقم (٥٩) .
(٤) الإيمان الكبير لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧٥/٧) .

وطلب الفعل يعرفه شيخ الإسلام رحمه الله بأنه: " استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء "[١].

ويقرر شيخ الإسلام رحمه الله أن الأمر المطلق يقتضي الوجوب .

يقول رحمه الله : " وأمر الله ورسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب "[٢] .

ويحل النزاع الواقع بين العلماء في اقتضاء الأمر الوجوب من عدمه ، بأن النزاع ليس في الأمر الجازم بل في الأمر المطلق .

يقول رحمه الله : " الأمر الجازم من الرسول ﷺ الذي أراد به الإيجاب موجب لطاعته باتفاق أهل الإيمان ، وإنما نازع في الأمر المطلق بعض الناس ؛ لاحتمال أنه ليس بجازم أراد به الإيجاب ، وأما مع ظهور الجزم والإيجاب فلم يسترب أحد في ذلك "[٣].

ويربط شيخ الإسلام وجوب الامتثال للأمر بالاستطاعة .

يقول رحمه الله : " وقد تقرر في الشريعة أن الوجوب معلق باستطاعة العبد كقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [٤] ، وقوله ﷺ : ((**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**)) "[٥][٦] .

---

(١) قاعدة في أن جنس المأمور به أعظم من جنس الترك المنهي عنه - ضمن مجموع الفتاوى (١٢٠/٢٠) .

(٢) القواعد النورانية لابن تيمية (ص ٤٨) .

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٤١٤/٨) .

(٤) سورة التغابن آية رقم (١٦) .

(٥) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٢٦٥٨/٦) ح(٦٨٥٨) ، ومسلم في الحج باب فرض الحج مرة في العمر (٩٧٥/٢) ح(١٣٣٧) كلاهما عن أبي هريرة ، واللفظ للبخاري .

(٦) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٥٣/١) ، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣١٣/٣) .

وفي مسـألة اقتضـاء الأمـر التكرار يميل شيخ الإسلام رحمه الله إلى رأي جده أبي البركات[١] وهو أن الأمر إذا كان معلقاً بشرط يتكرر اقتضى التكرار ، وإلا فلا [٢] .

يقول رحمه الله : '' وقد تنازع الناس في الأمر المطلق هل يقتضي التكرار ؟ على ثلاثة أقـوال في مذهب أحمد وغيره ، قيـل: يقتضيه ، كقول طائفة منهم القاضي أبو يعلى[٣] وابن عقيل[٤] ، وقيل: لا يقتضيه ، كقول كثير منهم أبو الخطاب[٥] ، وقيل: إن كان معلقاً بسبب اقتضى التكرار ، وهذا هو المنصوص عن أحمد كآية الطهارة والصلاة ''[٦] .

وفي مسـألة اقتضاء الأمر الفور يميل شيخ الإسلام رحمه الله إلى القول باقتضاء الأمر الفـور ، ويذكر هذه المسألة ضمن بحث وجوب الحج ، هل هو على الفوريـة ؟ أم على التراخي ؟ ويرى أن وجوب الحج على الفور ويسوق على ذلك مجموعة من الأدلة ويناقش حجج المخالفين في هذه المسألة مناقشة مطولة ليس هذا محلاً لذكرها[٧] .

---

(١) مجد الدين أبو البركات عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم الخضر بن تيمية الحراني ، ولد في حدود سنة ٥٩٠ هـ وأخذ عن جمع من أهل العلم ، وصنف مصنفات كثيرة ، توفي سنة ٦٥٢ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٩١/٢٣) ، البداية والنهاية لابن كثير (١٨٥/١٣) ، شذرات الذهب لابن العماد (٢٥٧/٥) .

(٢) انظر : المسودة لآل تيمية (ص ١٨) .

(٣) محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء ، القاضي أبو يعلى البغدادي ، ولد سنة ٣٨٠ هـ ، وأخذ عن جماعة من أهل العلم وتولى رئاسة القضاة ، وصنف مصنفات كثيرة ، توفي سنة ٤٥٨ هـ . انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١٩٣/٢) ، المنتظم لابن الجوزي (٩٨/١٦) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٨٩/١٨) .

(٤) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة وصاحب التصانيف الحافلة ، ولد سنة ٤٣١ هـ وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، وصنف مصنفات كثيرة ، توفي ٥١٣ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٤٣/١٩) ، الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١٤٢/١) ، شذرات الذهب لابن العماد (٣٥/٤) .

(٥) محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني ، أبو الخطاب الفقيه البغدادي الحنبلي ، ولد سنة ٤٣٢ هـ وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، وصنف مصنفات كثيرة ، توفي سنة ٥١٠ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٩/١٩) ، الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١١٦/١) ، شذرات الذهب لابن العماد (٢٧/٤) .

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٨٠/٢١) .

(٧) انظر : شرح العمدة لابن تيمية (١٩٨/١) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الأمر المطلق يقتضي فعل المأمور به على الفور ، بل عند أكثر أصحابنا ليس في الشريعة إلا واجب مؤقت أو واجب على الفور ''(١) .

وفي مسـألة الأمـر بالشيء ي عن ضده ، يبحث شيخ الإسلام هذه المسألة بشكل مفصـل ، ويذكرها في عدة مواضع(٢) ، وهذا راجع إلى أن هذه المسألة اضطرب فيها وفي لـواحقها كثير من النظار ورؤوس المتكلمين ، مع ما لهذه المسألة من ارتباط عقدي بمسألة كـلام الله سبحانه وتعالى ، وكون أصول بعض الأقوال فيها مبنية على انحراف عقدي عند بعض الأصوليين من المتكلمين في كلام الله تعالى ، وتأويله بالكلام النفسي .

يحلـل شـيخ الإسلام رحمه الله هذه المسألة ويشبهها بمسألة أخرى قريبة منها ، وهي مسـألة مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ويرى أن وجود المأمور يستلزم وجود لوازمه وانـتفاء أضـداده ، ووجود اللوازم ، وانتفاء الأضداد جاء من ضرورة الوجود ، وليست مقصـودة للآمر ، فالفرق ثابت بين ما يؤمر به قصداً ، وما يلزمه في الوجود ، فما يؤمر به قصـداً يذم ، ويعاقب على تركه ، بخلاف الثاني فلا يذم ولا يعاقب عليه ، ويوضح شيخ الإسـلام رحمه الله هذه النقطة بمثال الحج ، فإن من أمر بالحج وكان مكانه بعيداً فعليه أن يسعى من المكان البعيد ومن كان قريباً يسعى من المكان القريب ، فقطع تلك المسافات من لـوازم المأمور به ومع ذلك فإذا ترك الحج لم تكن عقوبة البعيد أعظم من عقوبة القريب ، بل العكس أولى مع أن ثواب البعيد أعظم ، فلو كانت اللوازم مقصودة للآمر لكان يعاقب بتـركها ، فـتكون عقوبة البعيد أعظم ، لأنـه ترك من اللوازم أكثر من القريب ، وهذا بـاطل قطعاً (٣).

(١) شرح العمدة لابن تيمية (٢٠٤/١ - ٢٠٥) .

(٢) انظر : درء التعارض لابن تيمية (٢١١/١) ، شرح كلمات لعبدالقادر في فتوح الغيب - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٣١/١٠) ، قاعدة في أن جنس المأمور به أعظم من جنس المنهي عنه - ضمن نفس ا موع (٢٠/ ١١٨) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨١/٦ ، ١٥٩/٢٠) .

(٣) انظر : شرح كلمات لعبد القادر في فتوح الغيب - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٣١/١٠) .

ووجه شبهها بمسألة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب أن فعل الحج مثلاً لا يحصل إلا بقطع المسافة من محل الإقامة إلى مكة ، فقطع المسافة واجب ، لأن الحج لا يتم إلا به .

لكـن هناك فرق بين وجوب الحج ووجوب قطع المسافة ، فالعبد يذم ويعاقب على ترك الأول ، أما الثاني فيثاب على فعله ، والعقوبه ليست على تركه[١].

المطلب الثاني : الأمر باتخاذ الأسباب .

الأسباب التي أمر الشارع بالأخذ بها كثيرة جداً ، وبعضها أعم من بعض ، وحقيقتها هي العبادة المأمور بها شرعاً[٢] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة ''[٣].

ويقول أيضاً : '' السبب الذي أمر العبد به أمر أيجاب أو أمر استحباب هو عبادة الله وطاعته له ولرسوله ﷺ ''[٤].

وقد تعددت طرق الأمر بالأسباب في الشرع وتنوعت فمن ذلك :

١- الأمر بالإيمان وما يتضمنه من قول وعمل وتصديق مستلزم للقبول والإذعان ، كالأمر بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، والتوكل على الله ، ونحوها من أعمال القلوب ، وكالأمر بالأقوال والأعمال الصالحة من أركان الإسلام وغيرها ، كالشهادتين والصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد والتوبة ونحوها .

---

(١) انظر : المصدر السابق (٥٣٢/١٠) .

(٢) سيأتي بحث مفصل في العبادة باعتبارها أهم الأسباب المأمور بها (ص٣٨٣) وما بعدها.

(٣) العبودية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧٢/١٠) .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٢٦/٨) .

فحقيقة هذا أنه أمر باتخاذ الأسباب الموصلة لرضا الله تعالى وللسعادة الدنيوية وللفوز بالجنة في الدار الآخرة .

وقد وردت آيات كثيرة من القرآن تدل على هذا الأمر ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾(١) ، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٢) وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾(٣) ، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٤) ، وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ ﴾(٦) ، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ

---

(١) سورة التغابن آية رقم (١١) .
(٢) سورة الصف آية رقم (١٠-١١) .
(٣) سورة فاطر آية رقم (٢٩-٣٠) .
(٤) سورة التحريم آية رقم (٨) .
(٥) سورة التغابن آية رقم (١٦) .
(٦) سورة الطلاق آية رقم (٢-٣) .

ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[٢] ونحو تلك الآيات .

٢- النهي عن الأعمال السيئة من الكفر والفسوق والعصيان ، فحقيقتها أ ا تأمر باتخاذ الأسباب المبعدة عن غضب الله تعالى وعن النار وما قرب إليها من قول أو عمل .

والآيات الواردة في هذا الباب كثيرة جداً منها: قولـــه تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[٣]، وقولـه تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾[٤] ، وقولـه تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[٥] ، وقولـه تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[٦] ونحوها من الآيات .

٣- الأمر بالسعي في الأرض لطلب الرزق والمعاش ، فحقيقتها أ ا تأمر باتخاذ الأسباب لتوفير سبل الحياة الكريمة للعباد .

ومن الآيات الواردة في ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[٧] ، وقولـه تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ

---

(١) سورة النازعات آية رقم (٤٠-٤١) .
(٢) سورة البقرة آية رقم (٤٥) .
(٣) سورة المنافقون آية رقم (٩) .
(٤) سورة الجن آية رقم (١٦-١٧) .
(٥) سورة الجن آية رقم (٢٣) .
(٦) سورة النازعات آية رقم (٣٧-٣٩) .
(٧) سورة الملك آية رقم (١٥) .

ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] ، ونحوها من الآيات .

وكـلام شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه الطرق ونحوها أكثر من أن يحصر ، فجميع مـؤلفاته تـدور على هذه الطرق وأشباهها ، ومحاولة نقل كلامه عنها بالتفصيل يطيل هذا البحث ، ويجعله أضعافاً مضاعفة ، ومن هنا سوف أقتصر على بعض ما ذكره في ذلك .

وشـيخ الإسلام رحمه الله عندما ذكر بعض النصوص في هذا الباب اعتنى بنوع خاص مـن النصـوص تحتوي على أمر عام بالعمل ، والعمل يدخل فيه فعل الطاعات واجتناب المعاصي والسيئات ، وتلك النصوص لها أهمية خاصة في باب الأمر بالأسباب ؛ لأنه تم فيها طـرح شبهة ترك الأسباب (العمل) لما يظن أنه تناف بينها وبين القدر ، والرسول ﷺ بين بطـلان هـذه الشبهة ، وأجاب عنها بما يقتضي الاتفاق بين الأسباب والقدر وعدم التنافي بينهما .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : " وقد سئل النبي ﷺ عن إسقاط الأسباب نظراً إلى القدر فرد ذلك ، وألزم القيام بالأسباب "[2] .

وقد أورد شيخ الإسلام رحمه الله مجموعة من الأدلة في ذلك منها :

١- عن علي بن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد[3] فأتانا رسول الله ﷺ فقعـد ، وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة[4] ، فنكس وجعل ينكت[5] بمخصرته ثم قال: ((**ما**

---

(١) سورة الجمعة آية رقم (١٠) .

(٢) هذا النص نقله ابن القيم في مدارج السالكين (٥١٩/٣) عن شيخ الإسلام .

(٣) الغرقد: نوع من شجر العضاه وشجر الشوك ، وسميت مقبرة المدينة بذلك ؛ لأنه كان فيها هذا النبات . انظر: النهاية لابن الأثير (٣٦٢/٣) .

(٤) المخصرة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب . انظر: النهاية لابن الأثير (٢/ ٣٦) .

(٥) ينكت : أي يضرب الأرض بطرف العصا أو القضيب . انظر: النهاية لابن الأثير (١١٢/٥) .

منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » فقالوا: يارسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال: « **اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء ، فسيصير لعمل الشقاء** ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[1][2].

٢- وعن عمران بن حصين[3] قال: قال رجل: يارسول الله ، أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال: « **نعم** » قال: فلم يعمل العاملون ؟ قال: « **كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له** » و في رواية « **كل ميسر لما خلق له** »[4].

٣- حديث أبي الأسود الدئلي[5] قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ؟ أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت: بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم قال: فقال: أفلا يكون ظلماً ؟ قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً ، وقلت: كل

---

(١) سورة الليل آية رقم (٥-٧) .

(٢) رواه البخاري في الجنائز ، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله (٤٥٨/١) ح(١٢٩٦) ، ومسلم في القدر باب كيفية خلق الآمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٠٣٩/٤) ح(٢٦٤٧) كلاهما بنحوه .

(٣) عمران بن حصين بن عبيد ، أبو نجيد الخزاعي ، من علماء الصحابة ، أسلم في السنة السابعة ، وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة ، بعثه عمر إلى البصرة ليفقههم ، وولاه زياد قضاءها ، توفي بالبصرة سنة ٥٢ هـ . انظر : الإصابة لابن حجر (٢٧/٣) ، تهذيب التهذيب لابن حجر (١١١/٨) ، الأعلام للزركلي (٧٠/٥) .

(٤) رواه البخاري في القدر باب جف القلم على علم الله (٢٤٣٤/٦) ح(٦٢٢٣) بلفظه ، ومسلم في القدر باب كيفية خلق الآمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٠٤١/٤) ح(٢٦٤٩) .

(٥) ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني ، من كبار التابعين المخضرمين ، معدود من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان ، وهو واضع علم النحو ، توفي سنة ٦٩ هـ . انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان (٥٣٥/٢) ، الإصابة لابن حجر (٢٣٢/٢) ، الأعلام للزركلي (٢٣٧/٣) .

شـيء خلق الله وملك يده ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون فقال لي: يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك ، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يارسول الله أرأيـت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سـبق ؟ أو فيما يستقبلون منه مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم ؟ قال: « **لا بل شئ قضـى علـيهم ، ومضى فيهم ، وتصديق ذلك** في **كتاب** الله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[1][2] .

٤- حـديث عمـر[3] أنه سئل عن تفسير الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[4] قال عمر رضي الله عنه سمعت رسول ﷺ يقول: « **إن الله خلق آدم** ثم **مسـح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال: خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ،** ثم **مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية ، فقال: خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون** » ، فقال رجل: ففيم العمل يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « **إن الله إذا خلـق العـبد للنار استعمله بعمل أهل النار** حتى **يموت على عمل من أعمال النار ،**

---

(١) سورة الشمس الآيتان (٧-٨) . .

(٢) رواه مسلم في القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٤/ ٢٠٤١) ح(٢٦٥٠) بلفظه .

(٣) عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي أبوحفص أمير المؤمنين أحد العشرة المبشرين بالجنة ، أسلم قديماً ، وشهد بدراً والمشاهد كلها ، ولي الخلافة بعد أبي بكر ، وفتح الله له الفتوح بالشام والعراق ومصر استشهد سنة ٢٣ هـ . انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٠١/٣) ، الإصابة لابن حجر (٥١١/٢) ، تهذيب التهذيب لابن حجر (٣٨٥/٧) .

(٤) سورة الأعراف آية رقم (١٧٢) . .

فيدخل به النار ، وإذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة ، فيدخله به الجنة))[١] .

٥- حديث جابر بن عبد الله[٢] قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم[٣] فقال: يا رسول الله ، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما يستقبل ؟ قال: ((**لا ، بل فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير**)) قال: ففيم العمل ؟ فقال: ((**اعملوا فكل ميسر**)) و في لفظ: ((**كل عامل ميسر لعمله**))[٤] .

---

(١) رواه أحمد (٤٤/١-٤٥) ، وأبوداود في السنة باب في القدر (٧٩/٥-٨٠) ح(٤٧٠٣) ، والترمذي في التفسير باب ومن سورة الأعراف (٢٤٨/٥-٢٤٩) ح(٣٠٧٥) ، والنسائي في الكبرى في التفسير في قوله تعالى ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم﴾ (٣٤٧/٦) ح(١١١٩٠) بتقديم وتأخير ، والحاكم (٢٧/١) مختصراً .

قال الترمذي (٢٤٩/٥) : هذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً . وقال الحاكم (٢٧/١) : هذا حديث صحيح على شرطهما ، ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: فيه إرسال ، وقال الألباني في حاشية شرح الطحاوية (ص ٢٤٠) : صحيح لغيره إلا مسح الظهر فلم أجد له شاهداً .

(٢) جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي ، صحابي ابن صحابي ابن صحابي ، حضر مع النبي ﷺ تسع عشرة غزوة مكثر في رواية الحديث ، مات بالمدينة ٧٤ وقيل: ٧٨ هـ. انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٢٢٢/١) ، الإصابة لابن حجر (٢١٤/١) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ١٣٦) .

(٣) سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي ، أبو سفيان ، صحابي مشهور ، من مسلمة الفتح ، توفي في خلافة عثمان سنة ٢٤ هـ وقيل بعدها . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (١١٨/٢) ، الإصابة لابن حجر (١٩/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢٢٩) .

(٤) رواه مسلم في القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٠٤٠/٤-٢٠٤١) ح (٢٦٤٨) واللفظ له .

٦- عـن أبي خِزامة[(١)] عن أبيه[(٢)] قال: قلت: يارسول الله ، أرأيت رقى نسترقيها ، ودواء نتداوى به , وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال: ((**هي من قدر الله**))[(٣)(٤)].

٧- قول عمر لأبي عبيدة[(٥)] رضي الله عنهما ، وقد قال أبو عبيدة لعمر : '' أتفر من قدر الله ؟ - يعني من الطاعون - قال: أفر من قدر الله إلى قدر الله ''[(٦)(٧)] .

وعلـق شيخ الإسلام رحمه الله على هذه الأدلة وقال: '' فهذه السنن وغيرها تبين أن الله سـبحانه وإن كـان قد تقدم علمه وكتابه وكلامه بما سيكون من السعادة والشقاوة ، فممـا قدره أن يكون ذلك بالأسباب التي قدرها ، فالسعادة بالأعمال الصالحة ، والشقاوة

---

(١) تابعي مجهول مختلف في روايته هذه ، هل هي عن أبي خزامة عن أبيه أو عن ابن أبي خزامة عن أبيه ، وأكثر الحفاظ على ترجيح الأولى ، فقد صوبا الإمام أحمد كما في العلل ومعرفة الرجال (٥٧/١) ، وأبو حاتم الرازي كما في العلل لابن أبي حاتم (٣٣٨/٢) ، والترمذي في سننه (٣٥٠/٤ ، ٣٩٥) ، وابن عبدالبر كما في الاستيعاب (٥١/٤) وهي التي ذكرها شيخ الإسلام في الاستقامة (١٧٥/١) وقام محقق الكتاب بتعديلها فجعلها [ابن] أبي خزامة .

(٢) صحابي جاء في بعض المصادر أن اسمه: يعمر السعدي أحد بني الحارث بن سعد بن هذيم . انظر: العلل للدارقطني (٢/ ٢٥١) ، الإكمال لابن ماكولا (٤٣١/٧) ، الإصابة لابن حجر (٦٣١/٣) .

(٣) تقدم تخريجه (ص٢٦) .

(٤) انظر فيما سبق: الاستقامة لابن تيمية (١٧١/١-١٧٥) ، منهاج السنة النبوية (٣٦٢/٥-٣٦٣) ، التحفة العراقية - ضمن مجموع الفتاوى (٢٣/١٠-٢٤) ، حقيقة مذهب الاتحاديين - ضمن نفس ا موع (١٥٢/٢ - ١٥٣) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦٥/٨) .

(٥) عامر بن عبدالله بن الجراح القرشي ، أبوعبيدة بن الجراح أمين الأمة ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، أسلم قديماً وشهد بدراً والمشاهد كلها ، وولاه عمر الشام وفتح الله عليه اليرموك والجابية ، مات سنة ١٨ هـ . انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣١٢/٣) ، ذيب الكمال للمزي (٥٢/١٤) ، ذيب التهذيب لابن حجر (٦٣/٥) .

(٦) هذه قطعة مختصرة من حديث طويل رواه البخاري في الطب ، باب ما يذكر في الطاعون (٢١٦٣/٥-٢١٦٤) ح(٥٣٩٧) ومسلم في السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة (١٧٤٠/٤) ح(٢٢١٩) كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

(٧) هذا الدليل نقله ابن القيم في مدارج السالكين (٥١٩/٣) عن شيخ الإسلام .

بالفجور ، وكذلك الشفاء الذي يقدره للمريض يقدره بالأدوية والرقى ، وكذلك سائر ما يقدر من أمر الدنيا والآخرة ''[١] .

وقـال أيضـاً : '' فـبين صلى الله عليه وآله وسلم أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشـقي لا ينافى أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة ، وشقاوة هذا بالأعمال السيئة ؛ فإنـه سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه ، وكذلك يكتبها ، فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمـال الصـالحة ، والشقي يشقى بالأعمال السيئة ، فمن كان سعيداً ييسر للأعمال الصـالحة التي تقتضي السعادة ، ومن كان شقياً ييسر للأعمال السيئة التي تقتضي الشقاوة وكلاهما ميسر لما خلق له ''[٢] .

وقـال أيضـاً: '' فبين ﷺ أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذي يعمله ويختم له به وهذا يدخل النار بالعمل الذي يعمله و يختم له به ''[٣] .

ولكـي نفهم قول الرسول ﷺ: « **اعملوا** » فهماً دقيقاً ينبغي علينا قبل ذلك إدراك العمـوم ومعناه وتقسيمه وبعض التفاصيل الهامة فيه ، ومن خلال تلك الأمور نستطيع أن نخرج بتصور واضح لمعنى هذا الأمر .

لقـد تكلـم شيخ الإسلام رحمه الله على العموم وأقسامه وأورد فيه بعض التفاصيل والأمثلة الموضحة له ، وسوف أورد بعض ما ذكره على سبيل الإيجاز .

يقسم رحمه الله العموم إلى أقسام ثلاثة :

١- عموم الكل لأجزائه ، وهو ما لا يصدق فيه الاسم العام ولا أفراده على جزئه .

٢- عموم الجمع لأفراده ، وهو ما يصدق فيه أفراد الاسم العام على آحاده .

---

(١) الاستقامة لابن تيمية (١٧٥/١) .

(٢) التحفة العراقية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٣/١٠-٢٤) . .

(٣) أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤٠/٨) . .

٣- عمـوم الجنس لأنواعه وأعيانه ، وهو مـا يصدق فيه نفس الاسـم العام على أفراده [(١)].

ويوضح تلك الأقسام بأمثلة معينة لكل قسم .

أما القسم الأول: وهو عموم الكل لأجزائه ، فهذا يكون في الأعيان والأفعال والصفات كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾[(٢)] فإن اسم الوجه يعم الخد والجبين والجبهة ونحو ذلك ، وكل واحد من هذه الأجزاء ليس هو الوجه ، فإذا غسل بعض هذه الأجزاء لم يكن غاسلاً للوجه لانتفاء المسمى بانتفاء جزئه .

وكـذلك في الصفات والأفعال إذا قيل: صل ، فصلى ركعة وخرج بغير سلام ، أو قيل: صم ، فصام بعض يوم ، لم يكن ممتثلاً لانتفاء معنى الصلاة المطلقة والصوم المطلق .

وكـذلك إذا قـيل: أكرم هذا الرجل ، فأطعمه وضربه لم يكن ممتثلا ؛ لأن الإكرام المطلـق يقتضي فعل ما يسره وترك ما يسوؤه ،كما قال النبي ﷺ : « **من كان يؤمن بالله والـيوم الآخر فليكرم ضيفه** »[(٣)] فلو أطعمه بعض كفايته وتركه جائعاً ،لم يكن مكرماً له لانتفاء أجزاء الإكرام[(٤)] .

وأمـا القسم الثاني: وهو عموم الجمع لأفراده فهذا كالعموم في قوله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[(٥)] ، فإنه يعم كل مشرك .

---

(١) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (١٦٥/١) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٤٢/٦).
(٢) سورة المائدة آية رقم (٦) .
(٣) جزء من حديث رواه البخاري في الأدب ، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه (٢٢٧٣/٥) ح(٥٧٨٥) ومسلم في الإيمان ، باب الحث على إكرام الجار والضيف (٦٨/١) ح(٤٧) كلاهما عن أبي هريرة ﷺ بلفظه .
(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (١٦٥/١-١٦٦) .
(٥) سورة التوبة آية رقم (٥) .

وأما القسم الثالث : وهو عموم الجنس لأعيانه فهذا كالعموم في قوله ﷺ « **لا يقتل مسلم بكافر** »[١] فإنه يعم جميع أنواع القتل ، والمسلم والكافر[٢].

ولو أردنا أن نطبق ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله من قواعد على قـول النبي ﷺ : « **اعملـوا** » فمن أي أقسام العموم هي ، فإننا نخرج بنتيجة مؤداها أن هذا ليس من عموم الجـنس لأنواعه ، وليس من عموم الجمع لأفراده ، بل هو من عموم الكل لأجزائه ، وعلى هـذا التقدير لكي يكون العبد ممتثلاً لهذا الأمر فعليه الإتيان بجميع أجزاء العمل ، أي يعمل جميع الأسباب الشرعية ، وهذا هو الأمر باتخاذ الأسباب ، وعلى هذا لو أتى ببعضها لم يكن ممتـثلاً لانـتفاء معنى العمل المطلق الذي يشمل كل أنواع العمل من فعل الطاعات وترك المعاصي والسيئات .

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الديات باب لا يقتل المسلم بالكافر (٢٥٣٤/٦) ح(٦٥١٧) عن علي رضي الله عنه بلفظه .

(٢) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (١٦٧/١-١٦٨) .

المبحث الثالث

الأمر بعدم الاعتماد على الأسباب

الأمر بعدم الاعتماد على الأسباب

قبل أن أتكلم عن النهي عن الاعتماد على الأسباب ينبغي علي أن أبين معنى الاعتماد على الأسباب أولاً ، ثم أتطرق بعد ذلك إلى قضية النهي عن الاعتماد على الأسباب ومعناها وأدلتها .

الاعـتماد : أصـله مأخوذ من عمد ، وعمد الشيء يعمده عمداً: أقامه ، وعمدت الشيء فانعمد : أي أقمته بعماد يعتمد عليه ، واعتمد على الشيء: توكأ ، واعتمدت على الشيء: اتكأت عليه ، واعتمدت عليه في كذا : أي اتكلت عليه[١].

ومن خلال التعريف اللغوي لكلمة اعتمد يتضح لنا معنى الاعتماد على الأسباب ، أي التوكؤ والاتكال عليها .

والمـراد هـنا اعتماد القلب وتوكله على الأسباب بحيث لا يكون هناك التفات إلى مسببها وخالقها ، وهذا في حقيقة الأمر ناتج عن إيمان تام وثقة مطلقة بفعل السبب وتأثيره المستقل ، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا ، فإنه ليس في الوجود سبب يستقل بحكم ، بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمور أخرى تضم إليه ، وله موانع وعوائق تمنع موجبه ، وما ثم سبب مستقل بالإحداث إلا مشيئة الله وحده ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وما شاء خلقه بالأسباب التي يحدثها ، ويصرف عنه الموانع ، فلا يجوز التوكل إلا عليه سبحانه[٢]

وقد عالج هذه المسألة شيخ الإسلام رحمه الله عند بحث توحيد العبادة ، وبالتحديد عند مسألة التوكل على الله تعالى والاستعانة به ، فإن الأمر بالتوكل على الله وحده يقتضي النهي عن الاعتماد على الأسباب ؛ لأن حقيقة التوكل اعتماد القلب كلياً على الله جل

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور (٣٠٣/٣) ، مختار الصحاح للرازي (ص ٣٩٩) مادة عمد .

(٢) انظر: معنى قول علي لا يرجون عبد إلا ربه - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦٩/٨) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣٦٦/٥-٣٦٧) .

وعلا وحده مع فعل السبب ، وهذه الحقيقة تنافي مسألة اعتماد القلب على الأسباب فإذا أمر العبد بالتوكل على الله تعالى وحده لزم من هذا الأمر النهي عن الاعتماد على الأسباب فهما نقيضان إذا وجد أحدهما انتفى الآخر ضرورة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجى إلا الله ، قـال تعالى لما أنزل الملائكة: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[1] وقـال: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2] "[3].

وهـذا يقودنا إلى بحث التوكل وتأثيره ذلك أن إثباته يقتضي نفي ضده من الاعتماد على الأسباب .

أولاً : حقيقة التوكل :

الـتوكل عمل القلب ، وعبوديته اعتماداً على الله ، وثقة به ، والتجاء إليه ، وتفويضاً إلـيه ، ورضا بما يقضيه ، وحقيقته: أن يتخذ العبد ربه وكيلاً له قد فوض إليه كما يفوض المـوكل إلى وكيله العالِم بكفايته و ضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره ، وهذا لا يـتم إلا بالقيام بالسبب والتوكل على الله في نفس السبب ، بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب [4].

وهو يجمع أصلين بما تتحقق حقيقة التوكل :

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (١٢٦) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٦٠) .
(٣) شرح دعوة ذي النون - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٨/١٠) .
(٤) انظر: الروح لابن قيم الجوزية (٧٤٧/٢-٧٤٨) .

أحـدهما : علم القلب ، وهو يقينه بكفاية وكيله ، وكمال قيامه بما وكله إليه ، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك .

والآخـر : عمـل القلـب ، وهو سكونه إلى وكيله ، وطمأنينته إليه ، وتفويضه وتسليمه أمره إليه ، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه [١].

يقول ابن القيم رحمه الله : '' وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون اليها ، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله مع اعتماده على غيره وركونه اليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، وتـوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم يـنطق اللسان شيء ، فقول العبد: توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره ، مثل قوله: تبت إلى الله ، وهو مصر على معصيته مرتكب لها ''[٢].

ثانياً : أهمية التوكل :

كـثيراً ما يذكر شيخ الإسلام رحمه الله التوكل على الله تعالى والاستعانة به[٣]، وهذا راجـع إلى أهمية هذه القضية في حياة المسلم وحاجته إليها ، فلا صلاح له ، ولا فلاح إلا بالـتوكل على الله تعالى ، والاستعانة به ؛ لأن كل خير ونعمة تنال العبد فإنما هي من الله ، وكـل شر ومصيبة تندفع عنه ، أو تكشف عنه ، فإنما يمنعها الله ، وإنما يكشفها الله ، وإذا جـرى مـا جرى من أسبابا على يد خلقه فالله سبحانه هو خالق الأسباب كلها ، سواء

(١) انظر: طريق الهجرتين لابن قيم الجوزية (ص ٢٣٩) .

(٢) الفوائد لابن القيم (ص ١٦٤) .

(٣) ولشيخ الإسلام رسالة مستقلة في هذا الموضوع تسمى : قاعدة في التوكل والإخلاص في نحو أربعين ورقة ذكر ذلك ابن رشيق في مؤلفات شيخ الإسلام - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص ٢٤٢) ، وابن عبدالهادي في العقود الدرية (ص ٣٠) ولم أقف على تلك الرسالة .

كانـت الأسـباب حركة حي باختياره وقصده ، كما يحدثه تعالى بحركة الملائكة والجن والإنـس والـبهائم ، أو حركة جماد بما جعل الله فيه من الطبع ، أو بقاسر يقسره كحركة الـرياح والمـياه ونحو ذلك ، فالله خالق ذلك كله ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فالرجاء يجب أن يكون كله للرب ، والتوكل عليه ، والدعاء له ، فإنه إن شاء ذلك ويسره كان وتيسر ، ولو لم يشأ الناس ، وإن لم يشأه ولم ييسره لم يكن وإن شاءه الناس[1] .

وقد أمر العبد بالتوكل على الله وحده في القرآن أكثر مما أمر بالوضوء والطهارة من الجنابة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات كما أن الإخلاص لله واجب وحب الله ورسوله ﷺ واجب ، وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ، و ى عن التوكل على غير الله قـال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[2] ، وقـال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[4] ، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[5] ''[6].

---

(١) انظر : معنى قول علي لا يرجون عبد إلا ربه - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦٦/٨) .

(٢) سورة هود آية رقم (١٢٣) .

(٣) سورة التغابن آية رقم (١٣) .

(٤) سورة آل عمران آية رقم (١٦٠) .

(٥) سورة يونس آية رقم (٨٤) .

(٦) كتاب الإيمان الكبير لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦/٧) .

ويقول العلامة ابن القيم رحمه الله : '' التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام ....[و][(١)] منزلته منها منزلة الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن ، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل ''[(٢)] .

ثالثاً : العلاقة بين التوكل والعبادة :

لقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن العلاقة بين التوكل والعبادة ، فجعل التوكل من العبادة ، وفسر النصوص التي تقرن بينهما بأنها كالنصوص التي تقرن بين الإيمان والإسلام والعمل ، والنصوص التي تقرن بين التقوى وطاعة الرسول ﷺ ، والنصوص التي تقرن بين الفحشاء والبغي والمنكر ونحوها ، بحيث أنه إذا قرن أحدهما بالآخر كان لكل لفظ منها معنى يختص به ، وإذا أفرد لفظ منها دخل فيه الآخر ، فيكون اللفظ عند تجرده وإفراده يتناول أنواعاً ، وقد يعطف بعض تلك الأنواع عليه ، فيكون مأموراً به بخصوصه ثم قد يقال: إذا عطف لم يدخل في المعطوف عليه ، وقد يقال: بل أمر به خاصاً وعاماً كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾[(٣)(٤)].

فالتوكل يدخل في العبادة ، وقد يعطف عليها ، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله سبعة مواضع انتظم فيها ذكر العبادة والتوكل ، وهي :

١- قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[(٥)] .

---

(١) ما بين المعكوفتين إضافة إلى النص يحتاج إليها الكلام المنقول .
(٢) طريق الهجرتين لابن القيم (ص ٢٤٠) .
(٣) سورة البقرة آية رقم (٩٨) .
(٤) انظر فيما سبق: الإيمان الكبير - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦٣/٧) ، شرح دعوة ذي النون - ضمن نفس المجموع (١٠/ ٢٧٤) ، شرح كلمات لعبدالقادر في فتوح الغيب - ضمن نفس المجموع (١٠/ ٤٥٨) ، رسالة في تحقيق التوكل - ضمن جامع الرسائل (٨٩/١) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٢٧/٨) .
(٥) سورة الفاتحة آية رقم (٥) .

٢- قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[(١)] .

٣- قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[(٢)] .

٤- قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[(٣)] .

٥- قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾[(٤)] .

٦- قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[(٥)] .

٧- قولـه تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾[(٦)(٧)].

ويرجع شيخ الإسلام رحمه الله سبب هذا الاقتران لأسباب عدة منها :

١- أهمية التوكل على الله تعالى ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك آنفاً .

---

(١) سورة الشورى آية رقم (١٠) .
(٢) سورة هود آية رقم (١٢٣) .
(٣) سورة الممتحنة آية رقم (٤) .
(٤) سورة الفرقان آية رقم (٥٨) .
(٥) سورة الرعد آية رقم (٣٠) .
(٦) سورة المزمل آية رقم (٨-٩) .
(٧) انظر فيما سبق من الأدلة: قاعدة في توحيد الإلهية وإخلاص العمل والوجه لله - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٢/١) .

٢- أن التوكل والعبادة يجمعان الدين كله ، فالعبادة لا يمكن للإنسان أن يأتي بها إلا بالـتوكل على الله تعالى والاستعانة به ، وهذا ليس مختصاً بالأمور الدنيوية فقط ، بل يدخل في الأمور الأخروية ، بل هي المقصود الأعظم من التوكل .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله: '' فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا فإن المـتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته وهذا أهم الأمور إليه ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1] .... لأن هذين يجمعـان الدين كله ، ولهذا قال من قال من السلف: إن الله جمع [علم][2] الكتب المنزلة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصل ، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب ، وجمع علـم فـاتحة الكتاب في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[3] ''[4].

٣- عـدم كفاية التوكل وحده دون عبادة ، فالله تعالى لا يرضى بالتوكل بدون فعل العبادة المأمور بها شرعاً ، كما لا يرضى بفعل العبادة بدون توكل ، ولهذا يقترنان .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :'' والمقصود أن الله لم يأمر بالتوكل فقط ، بل أمر مع الـتوكل بعـبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر وترك ما حذر ، فمن ظن أنه يرضى ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به كان ضالاً ، كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضى الله عليه دون التوكل كان ضالاً ''[5] .

---

(١) سورة الفاتحة آية رقم (٥) .
(٢) ما بين المعكوفتين زيادة من موضع آخر في مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧/١٤) .
(٣) سورة الفاتحة آية رقم (٥) .
(٤) التحفة العراقية في الأعمال القلبية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٨/١٠) .
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٢٧/٨) ، وانظر: شرح كلمات لعبدالقادر في فتوح الغيب - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٩٢/١٠) .

رابعاً : تأثير التوكل:

يـناقش شيخ الإسلام رحمه الله تأثير التوكل ، ويبين أنه سبب من الأسباب ، فتأثيره كـتأثير الأسباب ، بل هو من أقوى الأسباب التي يحصل بها للعبد جلب النفع ودفع الضر ، ويـورد على هذا الأصل مجموعة من الأدلة ، ويشرح وجه دلالتها بالتفصيل ، فمما يورده رحمه الله :

١- قولـه تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾[1] .

يعلق شيخ الإسلام رحمه الله على هذه الآية فيقول: '' فبين أنه كاف من توكل عليه ، وفي الدعاء: يا حسب المتوكل ، فلا يقال: هو حسب غير المتوكل كما هو حسب المتوكل لأنـه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط ، فيمتنع في مثل ذلك أن يكون وجـود الشرط كعدمه ؛ ولأنه رتب الحكم على الوصف المناسب له ، فعلم أن توكله هو سبب كونه حسباً له ؛ ولأنه ذكر ذلك في سياق الترغيب في التوكل كما رغب في التقوى فلـو لم يحصل للمتوكل من الكفاية ما لا يحصل لغيره لم يكن ذلك مرغباً في التوكل ، كما جعل التقوى سبباً للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب ''[2] .

٢- قـولـه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾[3] .

---

(١) سورة الطلاق آية رقم (٢-٣) .
(٢) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٨٨/١-٨٩) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (١٧٣) .

يشـرح شيخ الإسلام رحمه الله دلالة هذه الآية فيقول: '' فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكـيل لما توكلوا عليه بقولهم: حسبنا الله ، أي كافينا الله : لا يستحق المدح إن لم يجلب لمن توكل عليه منفعة ويدفع عنه مضرة ، والله خير من توكل العباد عليه ، فهو نعم الوكيل يجلب لهم كل خير ويدفع عنهم كل شر ''[١] .

٣- قولـه تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلاً ﴾[٢] .

وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾[٣] .

يوضـح شـيخ الإسلام رحمه الله وجه دلالة هاتين الآيتين فيقول: '' فأمر أن يتخذ وكـيلا ، و ى أن يتخذ من دونه وكيلا ؛ لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد ، والـوكالة الجائـزة أن يـوكل الإنسان في فعل يقدر عليه ، فيحصل للموكل بذلك بعض مطلـوبه ، فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله ، وذلك الذي يوكله لا يفعل شيئا إلا بمشـيئة الله عز وجل وقدرته ، فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله ، بل يعتمد على الله في تيسير ما وكله فيه ، فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره أو يحصـل بلا توكل لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلا أنفع من اتخاذ الخالق وكيلاً وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد ''[٤] .

---

(١) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٨٩/١) .
(٢) سورة المزمل آية رقم (٨-٩) .
(٣) سورة الإسراء آية رقم (٢) .
(٤) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٨٩/١) .

٤- قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) .

يوضح شيخ الإسلام رحمه الله وجه دلالة هذه الآية فيقول: " أي الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين ، فلو كانت كفايته للمؤمنين المتبعين للرسول - سواء اتبعوه أو لم يتبعوه - لم يكن للإيمان واتباع الرسول ثم [أثر] في هذه الكفاية ، ولا كان لتخصصهم بذلك معنى ، وكان هذا نظير أن يقال: هو خالقك وخالق من اتبعك من المؤمنين ، ومعلوم أن المراد خلاف ذلك "(٢) .

٥- قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾(٣) .

يوضح شيخ الإسلام رحمه الله وجه دلالة هذه الآية فيقول: " فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب ، فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل "(٤).

٦- قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٥) .

يوضح شيخ الإسلام رحمه الله وجه دلالة هذه الآية فيقول: " وإذا كان كفى به وكيلا فهذا مختص به سبحانه ، ليس غيره من الموجودات كفى به وكيلاً ، فإن من يتخذ وكيلا من المخلوقين غايته أن يفعل بعض المأمور ، وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله له ، وهو

(١) سورة الأنفال آية رقم (٦٤) .
(٢) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٨٩/١ - ٩٠) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (١٧٣-١٧٤) .
(٤) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٩٠/١) .
(٥) سورة الأحزاب آية رقم (٣) .

عاجـز عـن أكثر المطالب ، فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلاً ، علم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج معه إلى غيره في جلب المنافع ودفع المضار ، إذ لو تبقى شر لم يكـن كفـى به وكيلا ، وهذا يقتضي بطلان ظن من ظن أن المتوكل عليه لا يحصل له بـتوكله علـيه جلب منفعة ولا دفع مضرة بل يجري عليه من القضايا ما كان يجري لو لم يتوكل عليه ''[١].

٧- قولـه تعالى: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[٢] .

يعلـق شيخ الإسلام رحمه الله على هذه الآية فيقول: '' فأمره إذا عزم أن يتوكل على الله ، فلو كان المتوكل لا يعينه على مثل ما عزم عليه لم يكن به عند العزم فائدة ''[٣] .

ويشـرح قـوله تعـالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[٤] فيقول :'' فنهى عن الـتوكل على غيره ، وأمر بالتوكل عليه ؛ ليحصل للمتوكل عليه النصر الذي لا يقدر عليه غـيره ، وإلا فالمتوكل على غيره يطلب منه النصر فإن كان ذلك المطلوب لا يحصل منه لم يكـن لذكر انفراده بالنصر معنى ، فإنه على هذا القول نصره لمن توكل عليه كنصره لمن لم يتوكل عليه ، وهذا يناقض مقصود الآية ''[٥] .

---

(١) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٩٢/١) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٥٩-١٦٠) .
(٣) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٩٤/١-٩٥) .
(٤) سورة آل عمران آية رقم (١٦٠) .
(٥) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٩٥/١) .

٩- قـولــه تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[١] إلى قــــولـه: ﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٢] .

ويوضـح شيخ الإسلام رحمه الله وجه دلالة هذه الآية فيقول: '' فبين أن الله يكفي عـبده الذي يعبده ، الذي هو من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان الذين هم من عباده المخلصين ، الذين هم من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، الذين هم من عباد الله الذين يشربون من عين يفجرو ا تفجيراً ''[٣] .

١٠- قولـه تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[٤] .

يعلق شيخ الإسلام رحمه الله على هذه الآية فيقول: '' فدعاهم إذا استعظموا ما يفعله كـارهين لـه أن يجتمعوا ثم يفعلوا به مـا يريدونه من الإهلاك ، وقال تعالى: ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾[٥] فلـولا أن تحقـيقه هذه الكلمة ، وهو توكله على الله ، يدفع ما تحداهم به ودعـاهم إليه تعجيزاً لهم من مناجزته ، لكان قد طلب منهم أن يهلكوه ، وهذا لا يجوز ، وهذا طلب تعجيز لهم ، فدل على أنه بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به ''[٦] .

---

(١) سورة الزمر آية رقم (٣٦) .
(٢) سورة الزمر آية رقم (٣٨) .
(٣) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٩٥/١) .
(٤) سورة يونس آية رقم (٧١) .
(٥) سورة يونس آية رقم (٧١) .
(٦) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٩٥/١) .

١١- قولـه تعالى عن هود لما قال قومه: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

يعلق شيخ الإسلام رحمه الله على هذه الآية فيقول: '' وكذلك هود يشهد الله وإياهم أنه بريء مما يشركونه بالله ثم يتحداهم ويعجزهم بقوله: ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[2] بـين أنـه توكل على من أخذ بنواصي الأنفس وبسائر الدواب ، فهو يدفعكم عني لأني متوكل عليه ، ولو كان وجود التوكل كعدمه في هذا لكان قد أغراهم بالإيقاع به ، ولم يكن لذكر توكله فائدة ''[3].

أثر الاعتماد على الأسباب :

وخـتاماً أود أن أشير إلى مسألة ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله في موضوع الاعتماد علـى الأسـباب ، وهي الآثار المترتبة على اعتماد العبد على الأسباب وهي كثيرة ، ومن أبرزها ما يلي:

١- وقوع العبد في الشرك .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه ، فمن رجا قـوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى

(١) سورة هود آية رقم (٥٤-٥٦) .
(٢) سورة هود آية رقم (٥٥-٥٦) .
(٣) رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٩٥/١) .

الله كـان فيه نوع توكل على ذلك السبب ، وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظـنه فـيه ؛ فإنه مشرك ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[1] "[2] .

ومـن هـنا قال بعض السلف: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد[3] ، ذلك أن الالـتفات إلى الأسباب هو اعتماد القلب عليها وخوفها ورجاؤها والاطمئنان إليها والثقة التامة فيها والاستناد عليها ، وهذا عدل لله تعالى بغيره .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض مـا يستحقه وحده ، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئاً من المخلوقـات في جميع الأمور ، فمن عبد غيره أو توكـل عليه فهو مشـرك به "[4] .

٢- من آثار الاعتماد على الأسباب خسران العبد وعدم تحقق مطلوبه ؛ لأن المخلوق " ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع ، ولا عز ولا ذل ، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه ، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره ، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه ، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله "[5] ، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[6] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ

---

(١) سورة الحج آية رقم (٣١) .
(٢) شرح دعوة ذي النون - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٧/١٠) .
(٣) انظر : المصدر السابق (٢٥٧/١٠) .
(٤) الاستقامة لابن تيمية (٣٤٤/١) .
(٥) قاعدة في توحيد الإلهية وإخلاص العمل والوجه لله - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٧/١) .
(٦) سورة فاطر آية رقم (٢) .

بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ ﴾[1] وقال: ﴿ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾[2] [3] .

٣- مـن آثـار الاعتماد على الأسباب حصول الضرر للعبد من جهة اعتماده على المخلوق ، فإنه يخذل من تلك الجهة .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' إن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضـرر من جهته ، فإنه يخذل من تلك الجهة ، وهو أيضاً معلوم بالاعتبار والاستقراء ، ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ، ولا استنصر بغير الله إلا خذل ، وقـد قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾[4]''[5].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾[6] ، وقـال تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴾[7][8].

---

(١) سورة يونس آية رقم (١٠٧) .
(٢) سورة الزمر آية رقم (٣٨) .
(٣) انظر: شرح حديث إني حرمت الظلم على نفسي - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٨/١٨٠) .
(٤) سورة مريم آية رقم (٨١-٨٢) .
(٥) قاعدة في توحيد الإلهية وإخلاص العمل والوجه لله - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩/١) .
(٦) سورة الحج آية رقم (٣١) .
(٧) سورة الإسراء آية رقم (٢٢) .
(٨) انظر: معنى قول علي لا يرجون عبد إلا ربه - مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦٥/٨) .

المبحث الرابع

عدم استقلالية الأسباب المعينة

عدم استقلالية الأسباب المعينة

إن بحث مسألة عدم استقلال الأسباب تقتضي أن نعرف معنى الاستقلال عند العرب ، والمراد به هنا ، لكي يكون إدراكنا له مفصلاً وتصورنا تاماً .

ولقـد تكلمت العرب عن كلمة الاستقلال ، وذكر لها عندهم معان متعددة ، فمن ذلك:

١- الحمل والرفع ، استقله كقله وأقله .

٢- العلو والارتفاع ، ومنه استقل الطائر في طيرانه : ض للطيران وارتفع في الهواء ، واستقل النبات: أناف ، واستقلت السماء : ارتفعت .

٣- الذهاب والارتحال ، ومنه واستقل القوم: ذهبوا واحتملوا سارين وارتحلوا .

٤- القيام ، ومنه استقل فلان غضباً إذا شخص من محله لفرط غضبه .

٥- الطاقة ، يقال: هو لا يستقل بذا أي لا يطيقه .

٦- الاسـتبداد ، يقال: هو مستقل بنفسه أي ضابط أمره مستبد به[1] ، والاستبداد الانفـراد ، يقـال: استبد بالأمر يستبد به استبداداً إذا انفرد به دون غيره ، واستبد برأيه انفرد به[2] .

والمراد باستقلال الأسباب : انفراد أحدها بالتأثير في مسبباته ، وهذا لا يحصل إلا إذا كان ذلك السبب ذا قدرة وطاقة على ذلك .

---

(١) انظر فيما سبق : لسان العرب لابن منظور (٥٦٦/١١) ، القاموس المحيط للفيروزآبادي (٤٠/٤) ، تاج العروس للزبيدي (٨٥/٨ ، ٨٧) .

(٢) انظر : لسان العرب لابن منظور (٨١/٣) .

ولقـد نـاقش شيخ الإسلام رحمه الله هذه المسألة في موضوع توحيد الربوبية ، فمن المعلـوم أن إثبات أسباب مستقلة بالتأثير فيه انحراف في توحيد الربوبية الذي من مقتضاه الإيمـان بأنه لا خالق إلا الله تعالى ، فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور ، بل ما شـاء كـان وما لم يشأ لم يكن ، وكل ما سواه إذا قدر سبباً فلا بد له من شريك معاون وضد معوق ، فليس في المخلوقات ما يستقل بإبداع شيء ، ولكن هناك أسباب متعاونة ولها فاعل هو سببها .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله: '' فتوحيد الربوبية: أنه لا خالق إلا الله ، فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور ، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما سواه إذا قـدر سـبباً فلا بد له من شريك معاون وضد معوق ، فإذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمـور ، طلـب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه ، حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا بإعانة الله له ''[1] .

أدلة هذه القاعدة:

ويورد شيخ الإسلام رحمه الله أدلة كثيرة على هذه القاعدة ، منها :

١- أدلة الربوبية ، حيث أن كل دليل في القرآن على توحيد الربوبية يعتبر دليلاً على عـدم اسـتقلال الأسـباب لما بين إثبات الربوبية واستقلال الأسباب من تناقض منطقي ، فيقتضـي إثـبات أحدهما نفياً للآخر ، وبالتالي فإثبات الربوبية لله تعالى وحده معناه عدم استقلال أي سبب من الأسباب بالتأثير في مسببه ، ووجه ذلك أن استقلال الأسباب معناه أن يكون السبب وحده كافياً في حصول مسببه ، وهذا يقتضي أن يكون ذلك السبب المعين رباً لمسببه المعين ، وهذا ما يتنافى مع ربوبية الله تعالى العامة لجميع الكائنات .

---

(١) شرح دعوة ذي النون - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٣١/١٠) .

يقـول شـيخ الإسـلام رحمه الله :'' فلا يكون شيء من المخلوقات رباً لشيء من المخلـوقات ربوبية مطلقة أصلاً ، إذ رب الشيء من يربه مطلقاً من جميع جهاته وليس هذا إلا لله رب العالمين .

ولهـذا منع في شريعتنا من إضافة الرب إلى المكلفين كما قال: ((**لا يقل أحدكم اسق ربك أطعم ربك**))[(١)] بخلاف إضافته إلى غير المكلفين كقول النبي ﷺ [لمالك ابن نضلة][(٢)] الجشمي: ((**أرب إبل أنت أم رب شاء**))[(٣)] ، وقولهم: رب الثوب والدار .

فإنه ليس في هذه الإضافة ما يقتضي عبادة هذه الأمور لغير الله ، فإن هذا لا يمكن فيها فـإن الله فطرها على أمر لا يتغير ، بخلاف المكلفين فإ م يمكن أن يعبدوا غير الله كما عبد المشركون به من الجن والإنس غيره ، فمنع من الإضافة في حقهم تحقيقاً للتوحيد الذي بعث الله بـه رسـله وأنزل به كتبه ، ولهذا لم يكن شيء يستلزم وجود المفعولات إلا مشيئة الله وحـده ، فما شـاء الله كان ، وإن لم يشأ ذلك غيره ، وما لم يشأ لا يكون ، ولو شاءه جميع الخلق .

---

(١) جزء من حديث رواه البخـاري في العتق ، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله : عبدي أو أمتي (٩٠١/٢) ح(٢٤١٤) ، ومسلم في ألفاظ من الأدب وغيرها ، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة والمولى والسيد (١٧٦٥/٤) ح(٢٢٤٩) كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ ، واللفظ لمسلم .

(٢) جاء في المطبوعة [لمالك بن عوف] بين معكوفتين تعديل من قبل المحقق ، وأكثر المصادر على تسمية الراوي مالك بن نضلة الجشمي وهو صحابي قليل الحديث ، روى عنه ابنه عوف وهو تابعي مشهور يكنى ويشتهر بأبي الأحوص . انظر في الاسم : مصنف ابن أبي شيبة (٢١/٧) ، سنن الترمذي (٣٢٠/٤) ، ذيب الكمال للمزي (٢٧/ ١٦٣) ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩٥/٢) ، وانظر في الترجمة : الإصابة لابن حجر (٣٣٥/٣) ، ذيب التهذيب لابن حجر (٢١/١٠-٢٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٥١٨) .

(٣) رواه أحمد (١٣٦/٤) ، والحميدي في مسنده (٣٩٠/٢) ح(٨٨٣) ، والنسائي في الكبرى في التفسير باب قوله تعالى ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ﴾ [المائدة :١٠٣] (٣٣٨/٦) ح(١١١٥٥) ، والطبراني في الكبير (٢٨٢/١٩ -٢٨٣) ح(٦٢٢) كلهم من حديث مالك بن نضلة بنحوه .

وإذا عـرف أنـه لـيس في المخلوقات ما هو مستقل بمفعول ولا معلول ، فليس في المخلوقات ما هو رب لغيره أصلا ، بل فعل كل مخلوق له فيه شريك ، وقد يكون له مانع ، وهذا مما يدل على إثبات الصانع تعالى ووحدانيته ''[١].

وفيما يلي بعض أدلة الربوبية :

١- قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾[٢] .

٢- قوله تعالى: ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾[٣]

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٤] .

ويدخل ضمن ربوبية الله تعالى للمخلوقات فقرها إلى الله تعالى واحتياجها إليه ، حيث أن ذلـك يوجب عدم غناها عنه ، وانتفاء استقلالها بالتأثير في غيرها ، وهذا الاحتياج أمر توجبه ذواتها ويدل عليه حدوثها .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والصواب أن الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لا لأمـر آخر جعلها مفتقرة إليه ، بل فقرها لازم لها لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه ، كما أن غناء الرب وصف لازم له لا يمكن أن يكون غير غني ، فهو غني بنفسه لا بوصف جعله غنياً ، وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها وهى معدومة وهى موجودة ، فإذا كانت معدومة فقيل عن مطر ينتظر نزوله: وهو مفتقر إلى الخالق ،كان معناه أنه لا يوجد إلا بالخالق ''[٥] .

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٤١/٩-٣٤٢) .
(٢) سورة الأنعام آية رقم (١٠٢) .
(٣) سورة فاطر آية رقم (٣) .
(٤) سورة الفاتحة آية رقم (٢) .
(٥) قاعدة في توحيد الإلهية وإخلاص الوجه والعمل لله - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٦/١) .

٢- جمـيع أدلة التوكل المتضمنة لإفراد الله تعالى بالتوكل والنهي عن التوكل على ما سواه ؛ لأ ا تستلزم أن غير الله لا يستقل بأي تأثير مطلقاً ، ولو كان له شيء من الاستقلال لمـا أمـر العبد بإفراد الله تعالى بالتوكل و ي عن التوكل على غيره وقد تقدم ذكرها[١]، ونذكـر منها هنا قولـه تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾[٢].

وقد تقدم ذكر تعليق شيخ الإسلام رحمه الله على هذا الدليل فيما سبق[٣] .

٣- ما جاء من الأدلة دالاً على وجود الند والشريك لكل مخلوق كقولـه تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٤].

ويشرح شيخ الإسلام رحمه الله وجه دلالة هذه الآية فيقول: '' والزوج يراد به النظير المماثل والضد المخالف وهو الند ، فما من مخلوق إلا له شريك وند ، والرب سبحانه وحده هو الذي لا شريك له ولا ند ، بل ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن ، ولهذا لا يستحق غيره أن يسمى خالقاً ولا رباً مطلقا ونحو ذلك ؛ لأن ذلك يقتضي الاستقلال والانفراد بالمفعول المصنوع وليس ذلك إلا لله وحده ''[٥].

٤- ما جاء من الأدلة دالاً على انتفاء ملكية المخلوق وشركته في أي شيء مع الله كقولـه تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ

(١) انظر (ص ١٣٦ - ١٤٤) .
(٢) سورة الإسراء آية رقم (٢) .
(٣) انظر (ص١٤١) .
(٤) سورة الذاريات آية رقم (٤٩) .
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/٢) .

ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ۚ ﴾[1] حيث فيها نفي ملكية المخلوق لأي شيء ، ونفي شركته في أي شيء ، ولو كانت الأسباب ذات تأثير مستقل لكان لها ملكية أو شركة في شيء .

وقد شرح شيخ الإسلام رحمه الله وجه دلالة هذه الآية فقال: '' فغير الله لا مالك لشيء ، ولا شريك في شيء ، ولا هو معاون للرب في شيء ؛ بل قد يكون له شفاعة إن كان من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ولكن لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، فلابد أن يأذن للشافع أن يشفع ، وأن يأذن للمشفوع له أن يشفَع له ، ومن دونه لا يملكون الشفاعة البتة ، فلا يصلح من سواه لأن يكون إلها معبوداً ، كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقاً ، لا إله إلا هو وحـده لا شـريك لـه ، لـه الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ''[2].

٥- ما جاء من الأدلة دالاً على انتفاء المشيئة من العبد إلا بمشيئة الله تعالى كقولـــه تعـالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾[3] ، وقولـه تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[4] ، وقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾[5] ، حيث تتضمن هذه الآيات

---

(١) سورة سبأ آية رقم (٢٢-٢٣) .
(٢) الفرقان بين الحق والباطل - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠٥/١٣) .
(٣) سورة التكوير آية رقم (٢٨-٢٩) .
(٤) سورة الإنسان آية رقم (٢٩-٣١) .
(٥) سورة المدثر آية رقم (٥٥-٥٦) .

أن العبد - وهو سبب من الأسباب - لا يمكنه أن يفعل شيئاً أو حتى يشاء إلا بمشيئة الله تعالى ، وهذا ينفي عنه الاستقلالية في الفعل والتأثير .

وقد شرح شيخ الإسلام رحمه الله وجه دلالة هذه الآيات فقال: '' فلا يستقل شيء سـواه بإحداث أمر من الأمور ، بل ما يشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما سواه إذا قـدر سبباً فلا بد له من شريك معاون ، وضد معوق ، فإذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمـور طلـب مـنه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه ، حتى ما يطلب من العبد من الأفعـال الاختيارية لا يفعلها إلا بإعانة الله له ، كأن يجعله فاعلاً لها بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمـة ، ويخلقـه له من القدرة التامة ، وعند وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المقدور .

فمشـيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وما سـواه لا تستلزم إرادته شيئاً بل ما أراده لا يكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره إن لم يعنه الرب بما لم يحصل مراده ، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى ''[(١)] .

أمثلة هذه القاعدة :

ولا يكتفـي شيخ الإسلام رحمه الله بذكر القاعدة ، بل يتبعها في أكثر الأحيان بأمثلة تطبيقية ، ذلك أن تلك الأمثلة هي النماذج الواقعية لهذه القاعدة ، وسوف أذكر هنا بعض ما أورده من أمثلة على هذه القاعدة :

١- الملائكة ، فالملائكة سبب من الأسباب وتنطبق عليها نفس القاعدة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والملائكة إنما هي سبب من الأسباب كما في خلق المسـيح مـن غير أب فجبريل إنما كان مقدوره النفخ فيها وهذا لا يوجب الخلق ، بل هو

---

(١) شرح دعوة ذي النون - ضمن مجموع الفتاوى (٣٣١/١٠) .

بمنـزلة الإنزال في حق غير المسيح .... وما يتولد عن أفعال الملائكة وغيرهم ليسوا مستقلين به ، بل لهم فيه شركة كطمس أبصار اللوطية وقلب مدينتهم ، وكذلك النصر إنما يقدرون على القتال كالإنس ، والنصر هو من عند الله ''[١] .

٢- في أفعـال البشر ، فولاة الأمر من أكثر الناس قدرة على التصرف ومع ذلك لا يستقلون بالتأثير .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وولاة الأمور المدبرون للمدائن والجيوش لا يستقل أحدهم بمفعول إن لم يكن له من يعينه عليه ، وإلا فقوله وعمله أعراض قائمة به لا تجاوزه ، وكـل مـا يصدر خارجاً عنه فمتوقف على أسـباب أخرى خارجة عن محـل قدرته وفعله ''[٢] .

٣- في الطبيعـيات ، يكثر شيخ الإسلام رحمه الله من ضرب الأمثلة في هذا الباب ، ولعـل ذلـك لأن أكثـر من نازع من الأشاعرة وغيرهم إنما كان نزاعهم في هذا الأصل بالدرجـة الأولى ، ولذا نجد شيخ الإسلام رحمه الله ينوع في ضرب الأمثلة ، فتارة يضرب المثل بالنار ، فيقول: '' فالنار لا تحرق إلا إذا كان المحل قابلاً ، فلا تحرق السمندل[٣] ، وإذا شاء الله منع أثرها كما فعل بإبراهيم عليه السلام ''[٤] .

وتـارة يضـرب المثل بالمطر وحصول النبات ، فالمطر سبب لحصول النبات وهو غير مستقل بذلك .

---

(١) النبوات لشيخ الإسلام (١٠٧٠/٢-١٠٧٢) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٤١/٩) .

(٣) السمندل : طائر بالهند لا يحترق بالنار . كذا في كتب اللغة ولم أقف على حقيقة هذا الطائر . انظر: لسان العرب لابن منظور (٣٤٨/١١) ، والقاموس المحيط (٣٩٨/١) ، تاج العروس للزبيدي (٣٨٣/٧) .

(٤) شرح حديث النزول - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٢١/٥) ، وانظر: مجموع فتـاوى شـيخ الإسلام (٣٢٣/١٨) .

يقـول رحمه الله : '' فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغـير ذلـك ، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له ، والطعام والشراب لا يغـذى إلا بمـا جعل في البدن من الأعضاء والقوى ، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف المفسدات ''[(١)] .

وتارة يضرب المثل بحصول الحمل عند المرأة ، فمجرد إنزال الماء لا يكفي في حصول الولد .

يقـول رحمـه الله : '' وكذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج بل كم من أنزل ولم يولد له ، بل لا بد من أن الله شاء خلقه ، فتحبل المرأة وتربيه في الرحم وسائر ما يتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع ''[(٢)] .

آثار هذه القاعدة :

يـرتب شيخ الإسلام رحمه الله على هذه القاعدة تطبيقات عملية هامة ، فلا يبحث هـذه المسـألة بحثاً فلسفياً تجريداً ، بل يحول هذا إلى منهج عملي تطبيقي في حياة العبد ، ويـربطها بـأهم مطلب في حياة العبد ، المطلب الذي لأجله خلق الله الخلق وأنزل الكتب وأرسـل الرسل وانقسم الناس به إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير ، وهو مطلب العبودية لله تعالى وحده .

فإنه إذا كان الله تعالى وحده هو القادر على كل شيء ، وهو وحده الذي يملك الضر والـنفع والخير والشر ، فلا ينبغي أن يعبد إلا هو ، ولا يلجأ في كشف الضر إلا إليه ، ولا يحب لذاته إلا هو .

---

(١) معنى قول علي لا يرجون عبد إلا ربه - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦٧/٨) ، وانظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٠/٨) .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٠/٨) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضي ، فليس في الوجود شيء واحد هو مقتضياً وإن سمى مقتضياً وسمي سائر ما يعينه شروطاً ، فهذا نزاع لفظي ، وحينئذ فيقال: لابد من وجود المقتضي والشروط وانتفاء الموانع ، وأما أن يكون في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل .

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله ، وعلم أنه لا يستحق لأن يدعى غيره فضلاً عن أن يعبد غيره ، ولا يتوكل على غيره ، ولا يرجى غيره ، وهذا مبرهن بالشرع والعقل ، ولا فرق في ذلك بين الأسباب العلوية والسفلية وأفعال الملائكة والأنبياء والمؤمنين وشفاعتهم وغير ذلك من الأسباب ، فإن من توكل في الشفاعة أو الدعاء على ملك أو نبي أو رجل صالح أو نحو ذلك ، قيل له: هذا أيضا سبب من الأسباب فهذا الشافع والداعي لا يفعل ذلك إلا بمشيئة الله وقدرته ، بل شفاعة أهل طاعته لا تكون إلا لمن يرضاه كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[1] ''[2].

ويقول أيضاً : '' فغير الله لا يجوز أن يكون مستعاناً به متوكلاً عليه ؛ لأنه لا يستقل بفعل شيء أصلاً ، فليس من الأسباب ما هو مستقل بوجود المسبب لكن له شريك فيه ، وما ثم علة تامة إلا مشيئة الله فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وكذلك لا يجوز أن يكون غيره معبوداً مقصوداً لذاته أصلاً ، فإن ذلك لا يصلح له ، ولهذا كان الشرك غالباً على بني آدم ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[3] فيكون أحدهم عبداً لغير الله متألهاً له ، مما يحبه ويجله ويكرهه ويخافه

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم (٢٨) .

(٢) معنى قول علي لا يرجون عبد إلا ربه - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/١٦٧-١٦٨) .

(٣) سورة يوسف آية رقم (١٠٦) .

ويرجوه ، حتى قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: ((**تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة إن أعطي رضي وإن منع سخط ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**))[١] ''[٢] .

ولا يكتفـي شيخ الإسلام رحمه الله بهذا الربط بين القضيتين ، بل يربط بهذه القاعدة مسألة أخرى لا تقل أهمية عن مسألة توحيد الإلهية المتقدم ذكرها ، وهي مسألة دفع السبب بالسـبب ، فإذا كان السبب له شروط وموانع ، فهذا يعني أنه يمكن للعبد دفعها ومنعها ، فينبغـي علـى العبد أن يدفع الأسباب بعضها ببعض ، فيدفع الجوع بالأكل ، ويدفع البرد باللـباس ، والعطش بالشرب ، والسيئات بالحسنات ونحو ذلك ، ولو كان السبب مستقلاً بالتأثير لما أمكن دفعه أو منعه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره ، وقد أمرنا الله سـبحانه أن نـزيل الشر بالخير بحسب الإمكان ، ونزيل الكفر بالإيمان والبدعة بالسنة والمعصـية بالطاعة من أنفسنا ومن عندنا ، فكل من كفر أو فسق أو عصى فعليه أن يتوب وإن كان ذلك بقدر الله ، وعليه أن يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر بحسب الإمكان ، ويجاهد في سبيل الله ، وإن كان ما يعمله من المنكر والكفر والفسوق والعصيان بقدر الله ، لـيس للإنسـان أن يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلاً على القدر ، بل يفعل ما أمر الله ورسوله ﷺ ''[٣] .

---

(١) رواه البخاري في الجهاد باب الحراسة في سبيل الله (١٠٥٧/٣) ح(٢٧٣٠) ، وابن ماجة في الزهد باب في المكثرين (١٣٨٦/٢) ح(٤١٣٦) كلاهما عن أبي هريرة ﷺ بنحوه . والخميصة: كساء رقيق مربع ، قد يكون بعلم وبغير علم ، وقد يكون أبيض معلماً ، ويكون أصفر وأحمر وأسود ، والخمائص من لباس أشراف العرب . انظر التمهيد لابن عبدالبر (١١٠/٢٠) ، وفتح الباري لابن حجر (٤٨٣/١) .

(٢) بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام (٤٥٧/٢-٤٥٨) .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٤٧/٨) .

الفصل الثاني

السببية والقدر

وفيه مباحث :

المبحث الأول : السببية في أفعال الله تعالى .

المبحث الثاني : قدرة العباد وإرادتهم .

المبحث الثالث : الجزاء على الأعمال .

المبحث الأول

السببية في أفعال الله تعالى

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: صفات الله تعالى .

المطلب الثاني : السببية في أفعال الله تعالى .

المطلب الأول: صفات الله تعالى .

الكـلام على السببية في أفعال الله يقتضي مني الكلام أولاً على صفات الله جل وعلا ومـنها أفعال الله تعالى وما فيها من تفصيل وأدلة ، ومن ثم أتطرق إلى موضوع السببية في أفعال الله تعالى .

لا شـك أن الله تعـالى لـه الأسماء الحسنى والصفات العلى كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[1]، فلـه جل وعلا الكمال المطلق التام من جميع الوجوه في أسمائـه وصفاته وأفعاله ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، فهم يثبتون ما أثبته الله تعالى لنفسـه ، أو أثبته له رسوله ﷺ ، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، أو نفاه عنه رسوله ﷺ ، مـن غـير تمثـيل ولا تكييف ولا تحريف ولا تعطيل بل على مقتضى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' القول الشامل في جميع هذا الباب : أن يوصف الله بمـا وصـف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ وبما وصفه به السابقون الأولون ، لا يتجاوز القـرآن والحديث ، قال الإمام أحمد رضى الله عنه: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث .

ومذهب السلف: أ م يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل .

ونعلـم أن مـا وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجى ، بل معناه يعـرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه ، لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول ، وأفصح الخلق في بيان العلم ، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (١٨٠) .

(٢) سورة الشورى آية رقم (١١) .

وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعالـه ، فكمـا نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة وله أفعال حقيقة ، فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

وكـل مـا أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله مـ ه عنه حقيقة ، فإنه سبحانه مستحق للكمـال الذي لا غاية فوقه ، ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه ، واستلزام الحدوث سابقة العدم ، ولافتقار المُحْدث إلي محدِث ، ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى ''[١] .

ومـا وصف الله تعالى به نفسه في كتابه أو على لسان رسول ﷺ ينقسم إلى قسمين باعتبار تعلقه بمشيئة الله تعالى وقدرته:

القسـم الأول: الصـفات الذاتية : وهي ما توصف به الذات مع عدم تعلق المشيئة والقدرة به كالحياة والعلو والوجه واليدين ونحوها من الصفات[٢].

وقد دلت النصوص الشرعية مع العقل والفطرة على إثبات هذه الصفات ، فمما ورد في ذلك :

١- قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[٣] .

٢- قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٤] .

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥/٢٦-٢٧) .
(٢) انظر: الصفدية لشيخ الإسلام (٢/٨٨) .
(٣) سورة الفرقان آية رقم (٥٨) .
(٤) سورة البقرة آية رقم (٢٥٥) .

٣- قوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[(١)] .

٤- قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[(٢)] .

القسـم الثاني : الصفات الاختيارية : وهي ما توصف به الذات مما يتعلق بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصفات ، بمعنى أنه سبحانه يفعلها إذا شاء كيف شاء متى شاء كالاستواء والإتيان والمجيء والرضى والغضب ونحوها[(٣)] .

وقد دلت النصوص الشرعية على إثبات هذه الصفات فمما ورد في ذلك :

١- قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[(٤)] .

٢- قولـه تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾[(٥)] .

٣- قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[(٦)] .

٤- قوله تعالى: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[(٧)] .

---

(١) سورة الرحمن آية رقم (٢٧) .
(٢) سورة ص آية رقم (٧٥) .
(٣) انظر: الصفدية لشيخ الإسلام (٢/٨٩) .
(٤) سورة طه آية رقم (٥) .
(٥) سورة البقرة آية رقم (٢١٠) .
(٦) سورة الفجر آية رقم (٢٢) .
(٧) سورة البينة آية رقم (٨) .

٥- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[١].

وهذه الصفات منها ما هو من باب الأفعال كالاستواء والإتيان وا يء وال ول ونحو ذالـك ، ومنها ما هو من باب الأقوال والكلمات ، ومنها ما هو من باب الأحوال كالفرح والغضـب والإرادات والرضـا والضـحك ونحو ذلك ، ومنها ما هو من بـاب العلوم والإدراكات كالسمع والبصر والعلم بالموجود بعد العلم بأنه سيوجد[٢].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' معلوم بالسمع اتصاف الله تعالى بالأفعال الاختيارية القائمـة بـه كالاستواء إلى السماء والاستواء على العرش والقبض والطي والإتيان وال ول ونحـو ذالـك ، بل والخلق والإحياء والإماتة ، فإن الله تعالى وصف نفسه بالأفعال اللازمة كالاسـتواء ، وبالأفعال المتعدية كالخلق ، والفعل المتعدي مستلزم للفعل اللازم ، فإن الفعل لا بـد لـه من فاعل سواء كان متعدياً إلى مفعول أو لم يكن ، والفاعل لا بد له من فعل سـواء كان فعله مقتصراً عليه أو متعدياً إلى غيره ، والفعل المتعدي إلى غيره لا يتعدى حتى يقوم بفاعله ، إذ كان لا بد له من الفاعل ، وهذا معلوم سمعاً وعقلاً .

أمـا السمع فإن أهل اللغة العربية التي نزل با القرآن بل وغيرها من اللغات متفقون على أن الإنسان إذا قال: قام فلان ، وقعد ، وقال: أكل فلان الطعام وشرب الشراب ، فإنه لا بـد أن يكون في الفعل المتعدي إلى المفعول به ما في الفعل اللازم وزيادة إذ كلتا الجملتين فعلية ، وكلاهما فيه فعل وفاعل ، والثانية امتازت بزيادة المفعول ، فكما أنه في الفعل اللازم معنا فعل وفاعل ، ففي الجملة المتعدية معنا أيضا فعل وفاعل وزيادة مفعول به .

---

(١) سورة النساء آية رقم (٩٣) .

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٣/٤) .

ولـو قـال قائل: الجملة الثانية ليس فيها فعل قائم بالفاعل كما في الجملة الأولى بل الفعل الذي هو أكل وشرب نصب المفعول من غير تعلق بالفاعل أولاً ، لكان كلامه معلوم الفساد ، بل يقال: هذا الفعل تعلق بالفاعل أولاً كتعلق قام وقعد ثم تعدى إلى المفعول ففيه ما في الفعل اللازم وزيادة التعدي ، وهذا واضح لا يتنازع فيه اثنان من أهل اللسان .

فقولـه تعـالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[١] ، تضمن فعلين: أولهما: متعد إلى المفعول به ، والثاني: مقتصر لا يتعدى فإذا كـان الـثاني وهو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾ فعلاً متعلقاً بالفاعل ، فقوله: ﴿ خَلَقَ ﴾ كذلك بلا نزاع بين أهل العربية ، ولو قال قائل: خلق لم يتعلق بالفاعل ، بل نصب المفعول به ابتداء ، لكان جاهلا ، بل في خلق ضمير يعود إلى الفاعل ، كما في استوى .

وأما من جهة العقل فمن جوز أن يقوم بذات الله تعالى فعل لازم له كالمجيء والاستواء ونحـو ذلك ، لم يمكنه أن يمنع قيام فعل يتعلق بالمخلوق كالخلق والبعث والإماتة والإحياء ، كمـا أن من جوز أن تقوم به صفة لا تتعلق بالغير كالحياة ، لم يمكنه أن يمنع قيام الصفات المـتعلقة بالغير كالعلم والقدرة والسمع والبصر ، ولهذا لم يقل أحد من العقلاء بإثبات أحد الضـربـين دون الآخـر ، بل قد يثبت الأفعال المتعدية القائمة به كالتخليق من ينازع في الأفعال اللازمة كالمجيء والإتيان ، وأما العكس فما علمت به قائلاً .

وإذا كـان كذلك كان حدوث ما يحدثه الله تعالى من المخلوقات تابعاً لما يفعله من أفعالـه الاختـيارية القائمـة بنفسه ، وهذه سبب الحدوث ، والله تعالى حي قيوم لم يزل موصـوفاً بأنه يتكلم بما يشاء ، فعال لما يشاء ، وهذا قد قاله العلماء الأكابر من أهل السنة

---

(١) سورة الحديد آية رقم (٤)

والحديث ونقلوه عن السلف والأئمة وهو قول طوائف كثيرة من أهل الكلام والفلسفة المتقدمين والمتأخرين بل هو قول جمهور المتقدمين من الفلاسفة ''[١] .

واعترضت بعض الفرق على إثبات الصفات الاختيارية باستلزامه حلول الحوادث بذات الله جل وعلا ، ومالا يخلو من الحوادث فهو حادث ، وما يقبل حلول الحوادث لم يخل منها ، وذلك يستلزم دوام الحوادث والتسلسل فيها ، وهو ممنوع ؛ لأنه يؤدي إلى إثبات حوادث لا أول لها ، وبالتالي يؤدي إلى القول بقدم العالم[٢] .

وهذا الاعتراض يستفصل فيه عن لفظ حلول الحوادث ، إن كان المقصود بالحوادث المخلوقات ، فلا شك أن ذات الله لا تحلها المخلوقات أبداً ، وإن كان المقصود بالحوادث الصفات الاختيارية ، فلا ريب أن الله متصف بها ، فقد وصف نفسه بذلك ووصفه رسوله ﷺ بتلك الصفات ، ولا يضرها التسمية الباطلة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهذا الاعتراض لا يرد على مذهب السلف ؛ فإنهم يفرقون بين الخلق والمخلوق ، فالخلق صفة قائمة بذات الله سبحانه وتعالى وهي من صفات الفعل ، والمخلوق هو الكائن المنفصل الحادث بعد أن كان معدوماً ، بل يرد على من لا يفرقون بين الخلق والمخلوق .

ولكن قد يقال: إن القول بدوام الفعل من الله ، بما فيه الفعل المتعدي يقتضي دوام الحوادث المخلوقة ، تبعاً لدوام الفعل المتعدي ، ويجاب عن ذلك بأنه لا محذور فيه إذا كان كل فرد من أفراد الحوادث كائناً بعد أن لم يكن ، فإن غاية ما في هذا الأمر حصول التسلسل في الحوادث ، وهذا لا يمنعه أهل السنة والحديث[٣].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/٢-٥) .

(٢) انظر: الإرشاد للجويني (ص ٤٥-٤٦) ، معالم أصول الدين للرازي (ص ٤٩) .

(٣) انظر فيما سبق : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٢١/١ ، ٣٥١ ، ٣٦٥ ، ٢١٩/٢ ، ٢٦٢ –٢٦٣) ، الصفدية لشيخ الإسلام (١٠/١ ، ١٣ ، ٦٨/٢) .

وقد أجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا الاعتراض وغيره بأجوبة مفصلة ، بسط فيها مذهب أهل السنة والجماعة ، وأجاب عن كل ما يستشكل حول ذلك وأيد كلامه بنقول عن السلف الصالح ، ورد على الفلاسفة والمتكلمين ودحض شبههم وآراءهم ، وذلك في كثير من كتبه[١]، وفيما يلي مقتطفات من رده على هذا الاعتراض .

أولاً : " قيل: مثل هذه المقدمة وأمثالها منشأ غلط كثير من الناس ، فإنها تكون لفظاً مجملاً يتناول حقاً وباطلاً ، وأحد نوعيها معلوم صادق ، والآخر ليس كذلك ، فيلتبس المعلوم منها بغير المعلوم ، كما في لفظ الحادث والممكن والمتحيز والجسم والجهة والحركة والتركيب وغير ذلك من الألفاظ المشهورة بين النظار التي كثر فيها نزاعهم ، وعامتها ألفاظ مجملة تتناول أنواعا مختلفة إما بطريق الاشتراك[٢] لاختلاف الاصطلاحات ، وإما بطريق التواطؤ[٣] مع اختلاف الأنواع ، فإذا فسر المراد وفصل المتشابه تبين الحق من الباطل والمراد من غير المراد "[٤] .

ثانياً : " وإذا قالوا: « لا تحله الحوادث » أوهموا الناس أن مرادهم أنه لا يكون محلاً للتغيرات والاستحالات ونحو ذلك من الأحداث التي تحدث للمخلوقين ، فتحيلهم وتفسدهم وهذا معنى صحيح ، ولكن مقصودهم بذلك أنه ليس له فعل اختياري يقوم بنفسه ولا له كلام ولا فعل يقوم به يتعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه لا يقدر على استواء أو

---

(١) ومن أبرز كتبه في هذا الباب كتابه المسمى درء تعارض العقل والنقل .

(٢) الاشتراك هو : الاتفاق في اللفظ والتباين في المعنى كلفظ سهيل يقال على الرجل وعلى الكوكب . انظر: الحقيقة والمجاز - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٢٧/٢٠) .

(٣) التواطؤ نوعان : الأول: الاتفاق في اللفظ والمعنى كأسماء الأجناس مثل لفظ الرسول والوالي والقاضي والرجل والمرأة والإمام ونحوها ، الثاني: الاتفاق في اللفظ وأصل المعنى مع التفاوت والتفاضل فيه ويسمى المشكك مثاله: البياض المقول على بياض الثلج القوي وبياض العاج الضعيف والسواد المقول على سواد القار القوي وسواد الحبشة . انظر: منهاج السنة لابن تيمية (٣٥/٨-٣٦) ، الحقيقة والمجاز - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٢٧/٢٠) ، الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ١٥٦) .

(٤) درء تعارض العقل والنقل (١٢٠/١-١٢١) .

نزول أو إتيان أو مجيء ، وأن المخلوقات التي خلقها لم يكن منه عند خلقها فعل أصلاً ، بل عـين المخلـوقات هي الفعل ، ليس هناك فعل ومفعول وخلق ومخلوق ، بل المخلوق عين الخلق والمفعول عين الفعل ونحو ذلك ''[١] .

ثالـثاً : حلـل شيخ الإسلام رحمه الله سبب نفيهم للصفات الاختيارية بذه الحجة فقال:'' وهذا أوجبه أصلان لهم:

أحـدهما: أن الفعـل عندهم هو المفعول والخلق هو المخلوق ، فهم يفسرون أفعاله المـتعدية مثل قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[٢] ، وأمثاله أن ذلك وجد بقدرته مـن غير أن يكون منه فعل قام بذاته ، بل حاله قبل أن يخلق وبعد ما خلق سواء ... وأكثر الناس خالفوهم في هذا الأصل وأثبتوا له تعالى فعلاً قائماً بذاته ، وخلقاً غير المخلوق...

الأصـل الثاني: نفيهم أن تقوم به أمور تتعلق بقدرته ومشيئته ، ويسمون ذلك حلول الحـوادث ، فلمـا كانـوا نفاة لهذا امتنع عندهم أن يقوم به فعل اختياري يحصل بقدرته ومشـيئته لا لازم ولا متعد لا نزول ولا مجيء ولا استواء ولا إتيان ولا خلق ولا إحياء ولا إماتة ولا غير ذلك ، فلهذا فسروا قول السلف باا ول بأنه يفعل ما يشاء ، على أن مرادهم حصـول مخلـوق منفصل ، لكن كلام السلف صريح فى أ م لم يريدوا ذلك ، وإنما أرادوا الفعل الاختياري الذي يقوم به ''[٣].

رابعاً : أن هذه '' الحجة مبنية على مقدمتين وفي كل من المقدمتين نزاع معروف بين طوائف من المسلمين .

---

(١) المصدر السابق (١٢/٢) .
(٢) سورة الحديد آية رقم (٤) .
(٣) شرح حديث اا ول - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٧٨/٥ – ٣٧٩) .

أما الأولى: وهي أن القابل للشيء لا يخلو منه ومن ضده ، فأكثر العقلاء على خلافها والنزاع فيها بين طوائف الفقهاء ، والنظار ومن الفقهاء من أتباع الأئمة الأربعة كأصحاب أحمد ومالك[1] [و][2] الشافعي[3] وأبي حنيفة وغيرهم ، ومن قال ذلك التزم أن يكون لكل جسم: طعم ولون وريح وغير ذلك من أنواع الأعراض ، ولا دليل لأصحابنا عليها ...

وأما المقدمة الثانية: وهي أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، فهذه قد نازع فيها طوائف من أهل الكلام والفلسفة والفقه والحديث والتصوف وغيرهم ، وقالوا: التسلسل الممتنع هو التسلسل في العلل ، فأما التسلسل في الآثار المتعاقبة والشروط المتعاقبة فلا دليل على بطلانه ، بل لا يمكن حدوث شيء من الحوادث لا العالم ولا شيء من أجزاء العالم إلا بناء على هذا الأصل ، فمن لم يجوز ذلك لزمه حدوث الحوادث بلا سبب حادث ، وذلك يستلزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح كما قد بسط هذا في مسألة حدوث العالم ، وبين أنه لا بد من تسلسل الحوادث أو الترجيح بلا مرجح ، وأن القائلين بالحدوث بلا سبب حادث يلزمهم الترجيح بلا مرجح ، وأن القائلين بقدم العالم يلزمهم الترجيح بلا مرجح ، ويلزمهم حدوث الحوادث بلا محدث أصلاً ، وهذا أفسد من حدوثها بلا سبب حادث ،،[4] .

---

(١) مالك بن أنس الأصبحي الحميري ، أبو عبدالله المدني الفقيه ، أحد أعلام الإسلام وإمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة وإليه تنسب المالكية ، ولد سنة ٩٤ هـ كان صلباً في دينه ، بعيداً عن الأمراء والملوك توفي سنة ١٧٩ هـ . انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي (٢٠٧/١) ، تهذيب التهذيب لابن حجر (١٠/٥) ، الأعلام للزركلي (٢٥٧/٥) .

(٢) ما بين المعكوفتين إضافة إلى النص ساقطة من الأصل .

(٣) محمد بن إدريس الشافعي الهاشمي القرشي المطلبي ، أبوعبدالله ، أحد الأئمة الأربعة ، وإليه نسبة الشافعية ، ولد سنة ١٥٠ هـ وأخذ العلم عن جمع من أهل العلم ، وصنف مصنفات كثيرة توفي سنة ٢٠٤ هـ . انظر: المنتظم لابن الجوزي (١٣٤/١٠) ، تهذيب التهذيب لابن حجر (٢٣/٩) ، الأعلام للزركلي (٢٦/٦) .

(٤) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٧٧/٢-١٧٨ ، ١٨٠) .

المطلب الثاني : السببية في أفعال الله تعالى :

ينبغي أن يعلم قبل الخوض في هذه المسألة أمر هام في الأسباب ، وهو أن ليس معنى أن لأفعـال الله تعـالى سبباً وحكمةً أنه يمكن إدراك تلك الأسباب والحكم ، أو حتى معرفتها والإحاطة بها ، بل إن ما نجهله منها أكثر مما نعلمه .

وقـد نص شيخ الإسلام على هذه القضية يقول رحمه الله : '' فالأسباب التي نعرفها مضبوطة ، وأكثر ما فعله الله ويفعله لا نعرف نحن أسبابه ''[1] .

وعلـى هذا فعند تقرير هذه المسألة لا ينبغي أن تعارض بأمثلة تفصيلية ، ويقال: أين وجه الحكمة فيها ، فإن إثبات الحكمة والسبب أمر ومعرفتها على وجه التفصيل أمر آخر .

وهذه الدراسة لا تختص بالبحث التفصيلي عن حِكَم جميع الأشياء وأسبابها ، بل عن إثـبات الحكمـة والسـببية في أفعال الله تعالى ، وما يتصل بهذه القضية من مسائل ؛ لأن الإحاطة بحكمة الله تعالى ومعرفتها على وجه التفصيل فرع عن معرفة كيفية ذاته والإحاطة بها ، وهذا غير ممكن .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فكل ما فعله علمنا أن له فيه حكمة ، وهذا يكفينا مـن حيث الجملة وإن لم نعرف التفصيل ، وعدم علمنا بتفصيل حكمته بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته ''[2] .

ومذهب أهل السنة والجماعة في هذه القضية مكون من مسألتين:

---

(١) الرد على البكري لابن تيمية (٢١٧/٢) .

(٢) الرسالة الأكملية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٨/٦) .

المسـألة الأولى : أن الله تعالى يخلق بالأسباب ، وأن المسبب لا يكون حتى يخلق الله جميع أسبابه ، فهو سبحانه يخلق بالأسباب سواء كانت تلك الأسباب ملائكة أو بشر أو غير ذلك .

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والله تعالى خلق الأسباب والمسببات ، والأسباب ليست مستقلة بالمسببات بل لابد لها من أسباب أخر تعاو ا ، ولها مع ذلك أضداد تمانعها ، والمسبب لا يكون حتى يخلق الله جميع أسبابه ويدفع عنه أضداده المعارضة له ، وهو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشيئته وقدرته كما يخلق سـائر المخلوقات ''(١)

ويستدل شيخ الإسلام رحمه الله لهذه القضية فيقول: '' والقرآن ... مملوء بأنه يخلق الأشياء بالأسباب ، لا كما يقوله أتباع جهم: أنه يفعل عندها لا بها ، كقوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾(٢) ، وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾(٣) ، وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾(٤) ، وقولـــه: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾(٥)

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٨٧/٨) ، وانظر: الصفدية لابن تيمية (١٧٥/١) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣١/٣ ، ٣٢٩) .
(٢) سورة النحل آية رقم (٦٥) .
(٣) سورة ق آية رقم (٩-١١) .
(٤) سورة الأعراف آية رقم (٥٧) .
(٥) سورة المائدة آية رقم (١٦) .

وقولـه: ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾[١] ونحو ذلك ''[٢].

وقد تقدم في الفصل الأول تفاصيل وأدلة على هذه المسألة فلتراجع[٣] .

لكـن هل جميع ما يخلقه الله ويقدره يكون بالأسباب ، أم أن بعضه بالأسباب وآخر بدون أسباب ؟

لا شـك أن جمـيع ما يخلقه الله تعالى ويقدره يكون بالأسباب ، وتلك الأسباب قد تكـون مألـوفة اعتاد الناس عليها ، كما يخلق الله سبحانه الزرع بالمطر ، وقد تكون غير مألوفة بل نادرة كما في تكثير الطعام والشراب بدعاء النبي ﷺ والرجل الصالح .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' جميع ما يخلقه الله ويقدره إنما يخلقه ويقدره بأسباب لكن من الأسباب ما يخرج عن قدرة العبد ، ومنها ما يكون مقدوراً له ، ومن الأسباب ما يفعله العبد ، ومنها مالا يفعله .

و الأسـباب: منها معتاد ، ومنها نادر ، فإنه في بعض الأعوام قد يمسك المطر ويغذي الزرع بريح يرسلها[٤] ، وكما يكثر الطعام والشراب بدعاء النبي ﷺ والرجل الصالح ، فهو أيضا سبب من الأسباب ، ولا ريب أن الرزق قد يأتي على أيدي الخلق فمن الناس من يأتيه بـرزقه جنى أو ملك أو بعض الطير والبهائم وهذا نادر ، والجمهور إنما يرزقون بواسطة بنى

---

(١) سورة التوبة آية رقم (١٤) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٨٥/٨-٤٨٦) .

(٣) انظر : (ص ٩٣) وما بعدها .

(٤) تغذية النبات بالريح يكون إذا كانت الرياح محملة ببخار الماء ، فبعض النباتات يأخذ الماء من الهواء ويغتذي به وهذا أمر معروف عند علماء النبات . انظر: فسيولوجيا النبات لـ روبرت م. ديفلين وفرانسيس هـ. ويذام (ص ١١٦) .

آدم ، مـثل أكثر الذين يعجزون عن الأسباب يرزقون على أيدي من يعطيهم: إما صدقة ، وإما هدية ، أو نذراً ، وإما غير ذلك مما يؤتيه الله على أيدي من ييسره لهم ''[١] .

المسـألة الثانية : إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى ، فهو سبحانه حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً ، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل ، بل أفعـاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل[٢] .

والأدلة على هذه المسألة كثيرة ومتنوعة في القرآن الكريم فمن ذلك:

١- ما ورد من آيات فيها تصريح بالحكمة ، كقوله تعالى: ﴿ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ ﴾[٣] ، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[٤] .

٢- إخباره جل وعلا أن صدور الأمر عن حكمته وعلمه ، فيذكر هذين الاسمين عند ذكر مصدر خلقه وشرعه تنبيهاً على أ ما إنما صدرا عن حكمة مقصودة مقارنة للعلم المحيط قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[٥] ، وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٦] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٣٤/٨) .
(٢) انظر: شفاء العليل لابن القيم (ص ٣٨٥) .
(٣) سورة القمر آية رقم (٥) .
(٤) سورة النساء آية رقم (١١٣) .
(٥) سورة النمل آية رقم (٦) .
(٦) سورة الزمر آية رقم (١) .

٣- الإتيان بكلمة « من أجل » ، وهي من صرائح التعليل ، قال تعالى ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[١] .

٤- الإتيان بكلمة « كي » الصريحة في التعليل ، قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[٣] .

٥- الإتـيان باللام الدالة على التعليل ، حيث يخبر سبحانه أنه فعل كذا لكذا ، وأمر بكذا لكذا ، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[٤] وقـال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[٥] ، وقـال تعـالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ ﴾[٦] .

---

(١) سورة المائدة آية رقم (٣٢) .
(٢) سورة الحشر آية رقم (٧) .
(٣) سورة الحديد آية رقم (٢٢-٢٣) .
(٤) سورة المائدة آية رقم (٩٧) .
(٥) سورة الطلاق آية رقم (١٢) .
(٦) سورة الأنعام آية رقم (٥٣) .

٦- الإتيان بكلمة « لعل » الدالة على التعليل ، وهي في كلام الله تعالى للتعليل مجردة عـن معـنى الترجـي ، قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

٧- إنكاره سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا حكمة ، قال تعـالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾[2] ، وقـال تعـالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[3] ، وقـال تعـالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[4][5] .

ومما جاء في السنة النبوية المطهرة من أدلة على الحكمة ما يلي :

١- عن المغيرة بن شعبة[6] رضي الله عنه قال: قال سعد بن عبادة[7] : لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف ، غير مصفح عنه ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « **أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، من أجل غيرة الله حرم الفواحش ما**

---

(١) سورة البقرة آية رقم (١٨٣) .
(٢) سورة المؤمنون آية رقم (١١٥) .
(٣) سورة القيامة آية رقم (٣٦) .
(٤) سورة الدخان آية رقم (٣٨-٣٩) .
(٥) انظر فيما سـبق من أدلة القرآن : شفاء العليل لابن القيم (ص ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨) .
(٦) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر الثقفي صحابي مشهور أسلم عام الخندق وهاجر إلى المدينة ، ولاه عمر البصرة ، ثم الكوفة وأقره عثمان ثم عزله ، واعتزل صفين ، وولاه معاوية الكوفة ، توفي سنة ٥٠ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٣٦٨/٣) ، الإصابة لابن حجر (٤٣٢/٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٥٤٣) .
(٧) سعد بن عبادة بن دليم الأنصاري الخزرجي ، صحابي جليل ، أحد النقباء وسيد الخزرج ، كان مشهوراً بالجود هو وأبوه وجده وولده ، وشهد بدراً ، وتوفي بأرض الشام عام ١٥ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٣٢/٢) ، الإصابة لابن حجر (٢٧/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢٣١) .

ظهر منها وما بطن ، ولا شخص أغير من الله ، ولا شخص أحب إليه العذر من الله ؛ من أجـل ذلك بعث المرسلين مبشرين ومنذرين ، ولا شخص أحب إليه المـدحة من الله ؛ من أجل ذلك وعد الله الجنة »[(١)].

حـيث يـدل علـى إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى من جهة تعليل تحريم الفواحش بأنه لأجل غيرة الله عز وجل ، وتعليل بعثة الرسل بأنه لأجل محبة الله تعالى للعذر وتعليل الوعد بالجنة بأنه لأجل محبة الله تعالى للمدحة .

٢- وعن عبدالله بن مسعود[(٢)] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **ليس أحد أحب إليه المدح من الله ؛ من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش** »[(٣)].

حيث يدل على إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى ، من جهة تعليل مدح الله تعـالى نفسه بأنه لأجل محبته جل وعلا للمدح ، وتعليل تحريم الفواحش بأنه لأجل غيرة الله تعالى .

٣- عـن عياض بن حمار المجاشعي[(٤)] أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : « **ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا ، كل مال نحلته عبداً حلال ،**

---

(١) رواه البخاري في التوحيد باب قول النبي ﷺ « لا شخص أغير من الله » (٢٦٩٨/٦) ح(٦٩٨٠) ، ومسلم في اللعان (١١٣٦/٢) ح(١٤٩٩) واللفظ له ، وقوله : (غير مصفح) : أي غير ضارب بصفح السيف ، وهو جانبه ، بل أضربه بحده . انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٣١/١٠) ، والنهاية لابن الأثير (٣٤/٣) .

(٢) عبدالله بن مسعود بن غافل الهذلي ، أبوعبدالرحمن ، أسلم قديما وهاجر الهجرتين ، وشهد بدراً وحنيناً والمشاهد كلها ، وكان صاحب نعل رسول الله ﷺ وأخذ من فيه سبعين سورة ، توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٣٠٨/٢) ، الإصابة لابن حجر (٣٦٠/٢) ، تهذيب التهذيب لابن حجر (٢٤/٦) .

(٣) رواه البخاري في التفسير سورة الأنعام باب قوله تعالى: ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ (١٦٩٦/٤) ح(٤٣٥٨) ، ومسلم في التوبة باب غيرة الله وتحريم الفواحش (٢١١٣/٤) ح (٢٧٦٠) واللفظ له .

(٤) عياض بن حمار التميمي المجاشعي ، صحابي سكن البصرة ، وعاش إلى حدود سنة ٥٠ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (١٢٩/٣) ، الإصابة لابن حجر (٤٨/٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٤٣٧) .

وإني **خلقـت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين** فاجتالتهم **عن دينهم وحرمت علـيهم ما أحللت** لهم **، وأمرتهم أن يشركوا** بي **ما** لم **أنزل به سلطاناً ، وإن الله نظر** إلى **أهـل الأرض ، فمقـتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال:** إنما **بعثتك لأبتليك وأبتلي بك** »[1] الحديث .

وهو يدل على الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى من جهة أنه علل بعثة النبي ﷺ بأنها لأجل الابتلاء .

ومـن الأدلة العقلية على إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى قاعدة الكمال ، وهذه القاعدة يطبقها شيخ الإسلام رحمه الله باستمرار لإثبات الصفات بطريق عقلي ، وهي تنص على أن الله تعالى له الكمال المطلق الذي لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، ومن طرق معرفة هذا الكمال: أن نقدر موجودين أحدهما: متصف بصفة ، والآخر: متصف بنقيضها ، فإنه يظهر حينئذ أيهما أكمل ، فإذا قيل: هذا أكمل من وجه وهذا أنقص من وجه لم يكن كمالاً مطلقاً[2].

وقد استدل بها شيخ الإسلام رحمه الله على إثبات الحكمة لله جل وعلا ، فقال: " إذا قدرنا من يفعل ما يريد بلا حكمة محبوبة تعود إليه ، ولا رحمة وإحسان يعود إلى غيره كان الذي يفعل لحكمة ورحمة أكمل ممن يفعل لا لحكمة ولا لرحمة "[3] .

وقد قرر شيخ الإسلام رحمه الله في باب حكمة الله جل وعلا عدة أمور منها :

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيم أهلها ، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنة من أهل النار (٢١٩٧/٤) ح(٢٨٦٥) واللفظ له ، والنسـائي في الكبرى في فضائل القرآن باب قراءة القرآن على كل الأحوال (٢٦/٥) ح(٨٠٧٠) .

(٢) انظر: الرسالة الأكملية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣٧/٦ ، ١٤٠) .

(٣) الرسالة الأكملية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٩/٦) .

١- أن لله تعالى حكمة في كل ما فعله ، وما يفعله .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' وكل ما خلقه الله فله فيه حكمة كمـا قـــال: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[١] ، وقـال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[٢] وهو سبحانه غني عن العالمين ''[٣] .

٢- أن علـم العـبد الإجمالي بحكمة الله تعالى في خلقه وأمره يكفيه في هذا الباب ، وليس عليه معرفة التفاصيل ، وكلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وإذا علم العبد من حيث الجملة أن لله فيما خلقه ومـا أمـر به حكمة عظيمة كفاه هذا ، ثم كلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله ويبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه حيث قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[٤] ''[٥] .

٣- أن الحكمـة الكلية في الأسباب الأول ، وحقائق ما الأمر صائر إليه في العواقب والتخصيصات والتمييزات الواقعة في الأشخاص والأعيان وغير ذلك من كليات القدر ليس على الناس معرفتها ، والواجب في حقهم التسليم والإيمان .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله: '' الحكمة الكلية في هذه الحوادث ، فهذه ليس على الناس معرفتها ويكفيهم التسليم لما قد علموا أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ،

---

(١) سورة النمل آية رقم (٨٨) .
(٢) سورة السجدة آية رقم (٧) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/٨) .
(٤) سورة فصلت آية رقم (٥٣) .
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩٧/٨) .

وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، ومن المعلوم ما لو علمه كثير من الناس لضرهم علمه ونعوذ بالله من علم لا ينفع ، وليس اطلاع كثير من الناس بل أكثرهم على حكم الله في كل شيء نافعاً لهم بل قد يكون ضاراً ، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[1] ''[2] .

ويقول أيضاً: '' فالحكمة الكلية التي اقتضت ما اقتضته من الأسباب الأول ، وحقائق ما الأمر صائر إليه في العواقب ، والتخصيصات والتمييزات الواقعة في الأشخاص والأعيان ، إلى غير ذلك من كليات القدر ... وتفسير جمل ذلك لا يليق بهذا الموضع ، فضلا عن بعض تفصيله ، ويكفى العاقل أن يعلم أن الله عز وجل عليم حكيم رحيم ، برت الألباب حكمته ووسعت كل شيء رحمته ، وأحاط بكل شيء علمه ، وأحصاه لوحه وقلمه ، وأن لله تعالى في قدره سراً مصوناً وعلماً مخزوناً ، احترز به دون جميع خلقه ، واستأثر به على جميع بريته وإنما يصل به أهل العلم وأرباب ولايته إلى جمل من ذلك ، وقد لا يؤذن لهم في [ذكرها][3] ، وربما كلم الناس في ذلك على قدر عقولهم ''[4] .

٤- أن عدم علم العبد بالحكمة في بعض الجزئيات لا يقدح في حكمة الله جل وعلا ، ولا في أصل علمنا بأن له حكمة ؛ لأن عدم العلم ليس علماً بالعدم ، وعدم معرفة التفاصيل لا يطعن في إثبات الأصل .

---

(١) سورة المائدة آية رقم (١٠١) .

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣٩/٣) ، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩٩/٨) .

(٣) في المطبوعة : '' في ذكرما '' والذي يظهر لي أ ا خطأ مطبعي والصواب ما أثبته .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩٨/٨-٣٩٩) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وعدم علمنا بالحكمة في بعض الجزئيات لا يقدح فيما علمناه من أصل حكمته فلا نكذب - بما علمناه من حكمته - ما لم نعلمه من تفصيلها "[١] .

٥- أنه لا يجوز الاعتراض على حكمة الله جل وعلا ، أو القدح فيها ؛ لأن حقيقة هذا الأمر جهل محض ، وتكلف للقول بلا علم .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " ونحن نعلم أن من علم حذق أهل الحساب والطب والنحو ولم يكن متصفاً بصفاتهم - التي استحقوا بها أن يكونوا من أهل الحساب والطب والنحو - لم يمكنه أن يقدح فيما قالوه ؛ لعدم علمه بتوجيهه .

والعباد أبعد عن معرفة الله وحكمته في خلقه من معرفة عوامهم بالحساب والطب والنحو ، فاعتراضهم على حكمته أعظم جهلاً وتكلفاً للقول بلا علم من العامي المحض إذا قدح في الحساب والطب والنحو بغير علم بشيء من ذلك "[٢] .

٦- أن تلك الحكمة منها ما يعود إلى الله كمحبته ورضاه وفرحه ، ومنها ما يعود إلى عباده كفرحهم بها وتلذذهم بما حصل لهم من النعمة .

ومن لا يثبت الأفعال الاختيارية لله تعالى كالمحبة والفرح ونحوها يضطرب في باب الحكمة ، فهو إما ينفيها كما نفى الصفات الاختيارية وهذا ما عليه الأشاعرة ومن نحا نحوهم ، وإما أن يقتصر على الحكمة المخلوقة التي تعود على العباد فيقع في إشكاليات كثيرة حول المعاصي والشرور وحكمتها ، ويتكلف إيجاد تعليلات لها ، وهذا حصل للمعتزلة ومن نحا نحوهم.

---

(١) الرسالة الأكملية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٨/٦) .
(٢) المصدر السابق (١٢٨/٦) .

٧- أن حكمـة الله تعـالى شـاملة للخلق والأمر ، فللمخلوقات حكمة ، كما أن للمأمـورات حكمـة ، فـالأول: كخلق العباد ، فالله تعالى قد خلقهم لعبادته ، والثاني: كالطاعـات الـتي أمر الله تعالى بها ، فإن الله يحبها ويرضاها ويفرح بتوبة التائب من عباده وعاقبتها سعادة الدنيا والآخرة ، وهذا مما يفرح به العبد المطيع .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " فالحكمة تتضمن شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إليه يحبها ويرضاها .

والثاني: إلى عباده هي نعمة عليهم ، يفرحون بها ويلتذون بها ، وهذا في المأمورات وفي المخلوقات .

أما في المأمورات ، فإن الطاعة هو يحبها ويرضاها ويفرح بتوبة التائب أعظم فرح يعرفه الناس ، فهو يفرح أعظم مما يفرح الفاقد لزاده وراحلته في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد اليأس ، كما أنه يغار أعظم من غيرة العباد وغيرته أن يأتي العبد ما حرم عليه ، فهو يغار إذا فعل العبد ما نهاه ، ويفرح إذا تاب ورجع إلى ما أمره به .

والطاعة عاقبتها سعادة الدنيا والآخرة وذلك مما يفرح به العبد المطيع ، فكان فيما أمر به من الطاعات عاقبته حميدة تعود إليه وإلى عباده ، ففيها حكمة له ورحمة لعباده ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1] .

---

(١) سورة الصف آية رقم (١٠-١٣)

ففي الجهاد عاقبة محمودة للناس في الدنيا يحبو ا وهي النصر والفتح ، وفي الآخرة الجنة وفيه النجاة من النار ، وقد قال في أول السورة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[1] فهو يحب ذلك ، ففيه حكمة عائدة إلي الله تعالى وفيه رحمة للعباد وهي ما يصل إليهم من النعمة في الدنيا والآخرة ، هكذا سائر ما أمر به وكذلك ما خلقه ، خلقه لحكمة تعود إليه يحبها ، وخلقه لرحمة بالعباد ينتفعون با ،،[2] .

وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن مسائل من تفاصيل الحكمة ، ومن أبرز تلك المسائل :

١- حكمة خلق الثقلين ، فقد ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله ودلل عليها ، وفصل أقوال الناس فيها ، وذكر أن الحكمة من خلق العباد هي عبادة الله وحده لا شريك كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[3] ، لكن هذا لا يستلزم وقوع العبادة منهم ، بل قد يعبدونه وقد لا يعبدونه ، فقد ذكر الله أنه خلقهم ؛ ليعبدوه ، فيكونوا هم الفاعلين للعبادة ويحصل لهم بفعلهم سعاد م وما يحبه ويرضاه لهم[4]، وسيأتي بحث عن العبادة في الأسباب المأمور با[5] .

٢- حكمة الشر ، وأسبابه ، وكيفية دخوله في القضاء الإلهي:

يقرر شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الباب عدة أمور :

---

(١) سورة الصف آية رقم (٤)
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/٨-٣٧) ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٤/٤) .
(٣) سورة الذاريات آية رقم (٥٦) .
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٦/٨) .
(٥) انظر : (ص٣٨٦) .

أ- أن الضـرر الـذي يحصـل به حكمة مطلوبة لا يكون شراً مطلقاً وإن كان شراً بالنسبة إلى من تضرر به .

يقـرر شـيخ الإسلام رحمه الله : '' أن ما حصل من الضرر أمر مغمور في جنب ما حصـل مـن النفع ، كالمطر الذي عم نفعه إذا خرب به بعض البيوت أو احتبس به بعض المسـافرين والمكتسـبين كالقصارين[(١)] ونحوهم ، وما كان نفعه ومصلحته عامة كان خيراً مقصـوداً ورحمة محبوبة وإن تضرر به بعض الناس ...[و][(٢)] جميع ما يحدثه في الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة ، قال الله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[(٣)] وقال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[(٤)]، والضـرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرا مطلقاً وإن كان شراً بالنسبة إلى من تضرر به ''[(٥)] .

ب- أنه لم يجئ في كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ إضافة الشر وحده إلى الله جل وعلا ، بل عندما يذكر في الكتاب والسنة ، فإنه يذكر على أحد وجوه ثلاثة:

١- أن يدخل في عموم المخلوقات .

٢- أن يضاف إلى السبب الفاعل .

٣- أن يحذف فاعله .

(١) القصارون جمع قَصار ، هو الذي ينظف ثياب الناس . انظر : الفائق للزمخشري (١٥٩/٢) ، الحلية لأبى نعيم الأصبهاني (١٢٦/٩) ، فتح الباري لابن حجر (١٤٠/٣) ، ونسب إليها أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الأصبهاني المعدل ؛ لأنه كان يغسل الموتى . انظر: الأنساب للسمعاني (٥٠٨/٤) .
(٢) ما بين المعكوفتين إضافة إلى النص يحتاج إليها الكلام المنقول .
(٣) سورة النمل آية رقم (٨٨) .
(٤) سورة السجدة آية رقم (٧) .
(٥) أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩٤/٨) ، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠٧/٨) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " لا يجيء في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ إضافة الشـر وحده إلى الله ، بل لا يذكر الشر إلا على أحد وجوه ثلاثة: إما أن يدخل في عموم المخلـوقات فإنه إذا دخل في العموم أفاد عموم القدرة والمشيئة والخلق ، وتضمن ما اشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم ، وإما أن يضاف إلى السبب الفاعل ، وإما أن يحذف فاعله .

فالأول: كقولـه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾[1] ونحو ذلك ، ومن هذا الباب أسماء الله المقترنة كالمعطي المانع والضار النافع المعز المذل الخافض الرافع فلا يفرد الاسم المانع عـن قرينه ، ولا الضار عن قرينه ؛ لأن اقترا ما يدل على العموم ، وكل ما في الوجود من رحمـة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالى ، وما في الوجود من غير ذلك فهو من عدله ، فكـل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « يمين الله **ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السـموات والأرض ، فإنه** لم **يغض ما** في يمينه **، وبيده الأخرى القسـط** يخفض **ويرفع** »[2] .

فأخبر أن يده اليمنى فيها الإحسان إلى الخلق ، ويده الأخرى فيها العدل والميزان الذي به يخفض ويرفع ، فخفضه ورفعه من عدله ، وإحسانه إلى خلقه من فضله .

---

(١) سورة الزمر آية رقم (٦٢) .

(٢) رواه البخاري في التوحيد باب وكان عرشه على الماء (٢٦٩٩/٦) ح(٧٤١١) ، ومسلم في الزكاة باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٦٩٠/٢) ح(٩٩٣) ، والترمذي في التفسير باب من سورة المائدة (٢٣٤/٥) ، ح(٣٠٤٥) ، وابن ماجة في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية (٧١/١) ، ح(١٩٧) كلهم من حديث أبي هريرة بنحوه . وسحاء : ضبطت بالتنوين على المصدر ، وبالمد على الوصف ، وصحح الأول النووي ، وهي من السح ، وهو الصب الدائم . يغيضها : أي ينقصها . انظر فيما سبق : شرح النووي على صحيح مسلم (٨٠/٧) .

وأمـا حذف الفاعل فمثل قول الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾(١) ، وقوله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾(٢) ونحو ذلك .

وإضـافته إلى السبب ، كقولـه: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾(٣) وقولـه: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾(٤) ، مع قولـه: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا ﴾(٥) وقوله تعـالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾(٦) ، وقـولـه: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا ﴾(٧) ، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾(٨) وأمثال ذلك .

ولهذا ليس من أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر ، وإنما يذكر الشر في مفعولاته كقولـه: ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾(٩) وقولـه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(١٠) ، وقولـه: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ

---

(١) سورة الجن آية رقم (١٠) .
(٢) سورة الفاتحة آية رقم (٧) .
(٣) سورة الفلق آية رقم (٢) .
(٤) سورة الكهف آية رقم (٧٩) .
(٥) سورة الكهف آية رقم (٨٢) .
(٦) سورة النساء آية رقم (٧٩) .
(٧) سورة الأعراف آية رقم (٢٣) .
(٨) سورة آل عمران آية رقم (١٦٥) .
(٩) سورة الحجر آية رقم (٤٩-٥٠) .
(١٠) سورة الأعراف آية رقم (١٦٧) .

أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(١)] ، وقوله: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾[(٢)] فبين سبحانه أن بطشه شديد وأنه هو الغفور الودود ''[(٣)] .

ج- أن سبب الشر في الحقيقة يرجع إلى العدم ، أما الوجود المحض فهذا لا يكون إلا خيراً ، والعدم ليس بشيء فلا يحتاج إلى خالق .

ويشرح شيخ الإسلام رحمه الله هذه القضية بالتفصيل ، وفيما يلي موجز لما ذكره :

ينقسم الشر إلى قسمين باعتبار الوجود والعدم :

١- الشر العدمي : وهو إما أن يكون: عدم الذات ، أو عدم صفة من صفات كمال الذات مثل: الحياة والعلم والسمع والبصر والكلام ونحوها ، أو عدم فعل من أفعال الذات ، مثل معرفة الله ومحبته وخشيته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ونحوها من الأمور المحمودة الباطنة والظاهرة من الأقوال والأفعال ، فإن هذه الأمور كلها خيرات وحسنات ، وعدمها شر وسيئات لكن هذا العدم ليس بشيء أصلاً حتى يكون له بارئ وفاعل ، إنما هو من لوازم النفس فحقيقتها قبل أن تخلق عدم مستلزمة لهذا العدم ، وبعد أن خلقت - وقد خلقت ضعيفة ناقصة - فيها النقص والضعف ونحوها من الأمور العدمية .

وهذا الشر والسيئات العدمية ليست أمراً موجوداً حتى يكون الله تعالى خالقها ، فهو تعالى خالق كل شيء .

---

(١) سورة المائدة آية رقم (٩٨) .

(٢) سورة البروج آية رقم (١٢-١٤) .

(٣) أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩٤/٨-٩٦) ، وانظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٤٧/٨ ، ٥١١) .

٢- الشر الوجودي : وهو ما يوجد من الشر في العالم من الكفر والعصيان والذنوب والسيئات والآلام ونحوها ، فهذا ينطبق عليه ما قررته آنفاً من أنه ليس شراً مطلقاً ، بل هو مقـيد خاص ، وإن كان شراً بالنسبة إلى من تضرر به ، لكن لما فيه من الخير والحكمة هو خير ، وبذا يكون له وجه آخر يصير به خيراً .

وهـذا الشر ليس من الوجود المحض ، فالوجود المحض الذي ليس فيه شوب عدم لا يكـون سبباً لعدم أصلاً ولا مسبباً عنه ولا فاعلاً له ولا مفعولاً ، أما كونه ليس مسبباً عنه ولا مفعولاً له فظاهر ، وأما كونه ليس سبباً له فإن العدم المحض لا يفتقر إلى سبب موجود .

وهـو أيضـاً ليس من العدم المحض ، فالعدم الذي ليس فيه شوب وجود لا يكون سبباً ولا مسبباً ولا فاعلاً ولا مفعولاً أصلاً .

وهذا الشر ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين(١) :

أ- شـر سببه عدم غير محض : مثل عدم شرط أو جزء سبب ، ولا يكون سببه عدم محـض ؛ لأن العدم المحض لا يكون سبباً تاماً لوجود ، لكن يكون سبب الخير قد انعقد ولا يحصل الشرط فيقع الألم ، وذلك مثل: عدم فعل الواجبات الذي هو سبب الذم والعقاب ، ومثل: عدم العلم الذي هو سبب ألم الجهل ، وعدم السمع والبصر والنطق الذي هو سبب الألم بالعمى والبكم ، وعدم الصحة والقوة الذي هو سبب الألم والمرض والضعف .

ب- شـر سببه وجود غير تام : فهذا الوجود ليس تاماً ، بل وجوداً ناقصاً ، إما في السبب ، وإما في المحل ، مثل الآلام والأفعال المحرمة من الكفر الذي هو تكذيب أو استكبار والفسـوق الذي هو فعل المحرمات ونحوها ، فإن ذلك سبب الذم والعقاب ، ومثل: تناول الأغذية الضارة ، وكذلك الحركات الشديدة المورثة للألم .

---

(١) انظر : (ص ١٩٠) .

فسبب التكذيب: عدم معرفة الحق ، والإقرار به .

وسبب عدم هذا العلم والقول : عدم أسبابه ، من النظر التام ، والاستماع التام لآيات الحق وأعلامه .

وسـبب عدم النظر والاستماع : إما عدم المقتضي ، فيكون عدماً محضاً ، وإما وجود مانع من الكبر ، والحسد في النفس .

والكبر تصور باطل، وسببه : عدم غنى النفس بالحق ، فتعتاض عنه بالخيال الباطل .

والحسد سببه عدم النعمة التي يصير بها مثل المحسود ، أو أفضل منه ، فإن ذلك يوجب كراهة الحاسد ؛ لأن المحسود يكافئه ، أو يتفضل عليه .

والفسوق ، كالقتل والزنا وسائر القبائح ، إنما سببها حاجة النفس إلى الاشتفاء بالقتل والالـتذاذ بالـزنا ، وإلا فمـن حصل غرضه بلا قتل أو نال اللذة بلا زنا لا يفعل ذلك ، والحاجة مصدرها العدم[1] .

---

(١) انظر فيما سبق من مسألة الشر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/١٨-٢٧) .

رسم تقريبي توضيحي يبين أقسام الشر الموجود باعتبار سببه

الشر الموجود سببه إما

- عدم غير محض
  - عدم شرط أو جزء سبب
    - مثاله
      - ألم العمى والصمم والبكم والجهل ، وسببه:
        - عدم السمع والبصر والنطق والعلم
          - وهذا العدم ليس بشيء أصلاً حتى يكون له بارئ وفاعل ، فليس موجوداً حتى يكون الله تعالى خالقاً له
- وجود غير تام
  - وجود ناقص: إما في السبب أو في المحل
    - مثاله
      - الأفعال المحرمة مثل:
        - فعل الزنا ، وسببه
          - سببه حاجة النفس إلى التلذذ
            - الحاجة أصلها عدم
        - الكفر بالتكذيب وسببه:
          - عدم معرفة الحق والإقرار به ، وسببه:
            - عدم النظر التام والاستماع التام
              - وهذا له سببان:
                - عدم المقتضي
                  - فيكون عدماً محضاً
                - وجود مانع
                  - الكبر وسببه عدم غنى النفس بالحق فتعتاض عنه بالخيال الباطل
                  - الحسد وسببه عدم غنى النفس وعدم النعمة كالتي عند المحسود
                    - عدم غنى النفس يعني حاجة
                      - الحاجة أصلها عدم

شكل (١-١)

المبحث الثاني

قدرة العباد وإراداتهم

وفيه مطالب :

المطلب الأول : قدرة العبد .

المطلب الثاني : إرادة العبد .

المطلب الثالث : تأثير قدرة العبد .

المطلب الرابع : التولد وحقيقته .

تمهيد

إن الـ ـبحث في مسألة قدرة البشر وإراد م وتأثير ذلك في الفعل من المسائل العويصة الـ ـتي خاض فيها الناس قديماً وحديثاً ، وفيها تعددت الآراء ، وتباينت المذاهب ، وضل من ضل من المتكلمين وأتباعهم ، وهدى الله أهل السنة والجماعة إلى الحق بإذنه ، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وهـ ـذه المسألة تنبني عليها أمور كثيرة هامة للعبد في دنياه وآخرته ، فهي تحدد مدى قدرة العبد على الفعل ، وحقيقة مسئوليته عن فعله ، وما يترتب على ذلك من آثار ، سواء كان مدحاً أو ذماً ، ثواباً أو عقاباً ، بل إن الشريعة كلها: أوامرها ونواهيها مبنية على هذه القضية ، فلو لم يكن للعبد فعل وتأثير اختياري لما أمر ولا ي ، ولم يكن هناك أي ثواب أو عقاب ، بل يكون كبقية الجمادات الموجودة في هذا العالم .

والعـ ـبد أحد الأسباب الموجودة في هذا العالم ، فهو من الأسباب التي تفعل بالاختيار ولـ ـذا ينبغـ ـي لأي باحث في السببية أن يتطرق له ، ويبين حقيقة قدرته وإرادته وتأثيره ، والكلام في هذه المسائل يشتمل على مطالب:

المطلب الأول : قدرة العبد .

المطلب الثاني : إرادة العبد .

المطلب الثالث: تأثير قدرة العبد وإرادته في الفعل .

المطلب الرابع : التولد وحقيقته .

المطلب الأول : قدرة العبد :

وقبل الشروع في هذا المطلب ينبغي أن نعرف المراد بقدرة العبد ، حتى يتسنى فهم وإدراك هذه القضية وتصورها بصورة تامة .

المراد بقدرة العبد: استطاعته ، وهي استفعال من الطوع ، وهي جملة ما يتمكن به العبد من الفعل ويوقعه بما إذا انضم إليها القصد والاختيار[1] .

وتنقسم باعتبار زمنها واستلزامها للفعل إلى نوعين:

النوع الأول: قدرة قبل الفعل ، وهي عبارة عن الصحة والوسع وسلامة الآلات والتمكن من الفعل ، وضدها العجز .

وهي المصححة لوجود الفعل ، ويمكن معها الفعل والترك ، ويتعلق بما الأمر والنهي والوعد والوعيد ، والحمد والذم ، والثواب والعقاب تعلق المشروط بشرطه ، فإذا انتفت هذه القدرة انتفى كل ما يترتب عليها من الأمور السابقة .

وهي حاصلة للمطيع والعاصي ، وتكون قبل الفعل وتبقى إلى حين الفعل[2] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والصواب الذي عليه أئمة الفقه والسنة أن القدرة نوعان: نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك وهذه هي التي يتعلق بما الأمر والنهي فهذه تحصل للمطيع والعاصي وتكون قبل الفعل وهذه تبقى إلى حين الفعل إما ببقائها عند من يقول ببقاء الأعراض ، وإما بتجدد أمثالها عند من يقول: إن الأعراض لا تبقى ، وهذه

(١) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩٠/٨) ، الكليات للكفوي (ص ١٠٧ ، ١٠٩) .
(٢) انظر فيما سبق : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٦٠/١ ، ٢٤١/٩) ، أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٩/٨) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣١٩/٣ ، ٢٩٠) .

قد تصلح للضدين ، وأمر الله لعباده مشروط بذه الطاقة فلا يكلف الله من ليست معه هذه الطاقة ، وضد هذه العجز ''[١] .

وقد دل عليها الكتاب والسنة والإجماع .

فمن الكتاب: قولـه تعـالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾[٢] ، وقـوله تعالى: ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾[٣] وقولـه تعالى في الكفارة: ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾[٤] ، وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾[٥] ، وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[٦] وغيرها .

ومـن السنة : قول النبي ﷺ لعمران بن حصين: « **صل قائما فإن لم تستطع فقاعداً فـإن لم تسـتطع فعلى جنب** »[٧][٨]، وقولـــــه ﷺ : « **من اسـتطاع أن ينفع**

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/٤٧-٤٨) ، وللاستزادة انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/٦٠) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/٢٩٠) .
(٢)سورة النساء آية رقم (٢٥) .
(٣) سورة التوبة آية رقم (٤٢) .
(٤) سورة ا ادلة آية رقم (٤) .
(٥) سورة آل عمران آية رقم (٩٧) .
(٦) سورة التغابن آية رقم (١٦) .
(٧) رواه البخاري في تقصير الصلاة باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب (١/٣٧٦) ح(١٠٦٦) بلفظه ، وأحمد (٢/٤٢٦) ، وأبو داود في الصلاة باب في صلاة القاعد (١/٥٨٥) ح(٩٥٢) ، والترمذي في الصلاة باب ما جاء أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم (٢/٢٠٨) ح(٣٧٢) .
(٨) انظر فيما سبق من الأدلة : منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/٤٨) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/٢٩٠-٢٩١) ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/٦١) .

أخـاه فلـيفعل »[1]، وقـوله ﷺ : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ،فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** »[2] .

وقـد حكى شيخ الإسلام رحمه الله الإجماع على إثبات هذا النوع من الاستطاعة ، يقـول رحمـه الله : '' واتفقوا على أن العبادات لا تجب إلا على مستطيع ، وأن المستطيع يكـون مسـتطيعاً مـع معصيته وعدم فعله ، كمن استطاع ما أمر به من الصلاة والزكاة والصـيام والحـج ، ولم يفعله ، فإنه مستطيع باتفاق سلف الأمة وأئمتها ، وهو مستحق للعقاب على ترك المأمور الذي استطاعه ولم يفعله ، لا على ترك ما لم يستطعه ''[3] .

وهـناك ملاحظـة هامة أشار لها شيخ الإسلام رحمه الله حول الاستدلال بالنصوص السـابقة علـى إثـبات الاستطاعة المذكور آنفاً ، فالاستطاعة التي في النصوص أخص من الاسـتطاعة التي يمتنع التكليف بالفعل مع عدمها ؛ لأن الاستطاعة الشرعية تزيد على تلك الاسـتطاعة باشـتراط اليسر وانتفاء المشقة والعسر ، فإذا علق الشرع أمراً على الاستطاعة فإنمـا يعلقـه على الصحة والوسع وسلامة الآلات والتمكن من الفعل مع انتفاء المشـقة والعسر .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأيضا فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاسـتطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها ، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون مما يتصور الفعل

---

(١) رواه مسلم في السلام ، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة (١٧٢٦/٤) ح(٢١٩٩) ، وأحمد (٣٠٢/٣) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ بنحوه .

(٢) رواه مسلم في الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان (٦٩/١) ح(٤٩) بلفظه ، وأحمد (٥٤/٣) ، وأبو داود في الصلاة ، باب الخطبة في يوم العيد (٦٧٧/١) ح(١١٤٠) ، والترمذي في الفتن باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب (٤٠٧/٤-٤٠٨) ح(٢١٧٢) ، والنسائي في الإيمان وشرائعه ، باب تفاضل أهل الإيمان (٩٨/٨) ، وابن ماجة في إقامة الصلاة باب ما جاء في صلاة المريض (٣٨٦/١) ، ح(١٢٧٥) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٧٩/٨-٤٨٠) .

مع عدمها وإن لم يعجز عنه ، فالشارع ييسر على عباده ويريد بم اليسر ولا يريد بم العسر وما جعل عليهم في الدين من حرج ، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة مرضه وتأخر برئه فهـذا في الشرع غير مستطيع ؛ لأجل حصول الضرر عليه ، وإن كان يسميه بعض الناس مسـتطيعاً ، فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل ، بل ينظر إلى لـوازم ذلـك ، فإذا كان الفعل ممكناً مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية ، كالذي يقدر أن يحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله ، أو يصلي قائماً مع زيادة مرضه ، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته ونحو ذلك ''[١] .

ولكن هذه الاستطاعة مع بقائها إلى حين الفعل لا تكفي في وجود الفعل ، ولو كانت كافـية لكان التارك كالفاعل ، بل لا بد للعبد من إعانة أخرى تقارن هذه الاستطاعة مثل جعـل العبد مريداً ، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة ، وهذه الإعانة هي النوع الثاني من القدرة[٢] .

الـنوع الـثاني: القدرة مع الفعل التي يكون با الفعل ، وهي القدرة الكونية القدرية المستلزمة للفعل المشروطة بالإرادة الجازمة .

وهذه القدرة والاستطاعة تثبت في حق من قام بالفعل ، وتنفى عن التارك للفعل الذي كـتب علـيه أنه لا يفعل ، وقضي عليه بذلك[٣] وهي ليست مشروطة في شيء من الأمر والنهي باتفاق المسلمين كما قرره شيخ الإسلام رحمه الله .

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٤٩/٣) ، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠٣/١٤) .

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٤٩/٣-٥٠) .

(٣) انظر فيما سبق : أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٩/٨) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩١/٨ - ٢٩٢، ٤٤١) ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٦٠/١) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٥٠/٣) .

يقـول رحمـه الله: ’’ فـإن هذه ليست مشروطة في شيء من الأمر والنهي باتفاق المسلمين ‘‘[(١)].

ومن أدلة هذه القدرة : قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴾[(٢)] ، وقوله تعالى: ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾[(٣)] ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾[(٤)(٥)].

يقـول شـيخ الإسـلام رحمه الله : ’’ فالمراد بعدم الاستطاعة مشقة ذلك عليهم ، وصـعوبته علـى نفوسهم ، فنفوسهم لا تستطيع إرادته ، وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه ، وهـذه حال من صده هواه أو رأيه الفاسد عن استماع كتب الله الم لة واتباعها ، وقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك ، وهذه الاستطاعة هي المقارنة للفعل الموجبة له ‘‘[(٦)] .

وهناك عدة مسائل تتعلق بقدرة العبد منها :

١- تعلق قدرة العبد هل هو بالأعيان أو بالأفعال ؟

(١) أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣٠/٨) .
(٢) سورة الكهف آية رقم (١٠١) .
(٣) سورة هود آية رقم (٢٠) .
(٤) سورة يس آية رقم (٨-٩) .
(٥) انظر فيما سبق : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩١/٨) ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٦١/١) .
(٦) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٦١/١) .

الصـواب أن قدرة العبد تتعلق بالأعيان المنفصلة عنه كالذوات ، كما تتعلق بالأمور المتصلة به كالأفعال ، فالعبد يقدر على الأعيان كما يقدر على الأفعال ، والأدلة على ذلك كثيرة منها :

قوله تعالى: ﴿ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴾[١] سواء قلنا : قادرين على الجنة ، أو على المساكين فكلاهما قدرة على الأعيان .

وقولـه تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا ﴾[٢] ، فقوله : ﴿ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا ﴾ يدل على أ م قدروا على الأولى وهذه قدرة على الأعيان.

وقولـه تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣]، فقوله: ﴿ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ ﴾ صريح في القدرة على الأعيان ، فلولا الجائحة لكان ظنهم صادقاً[٤] .

---

(١) سورة القلم آية رقم (٢٥) ، والحرد: العزم الشديد ، أي عازمين بشدة وغضب على حرمان المساكين . انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/٨) .

(٢) سورة الفتح آية رقم (٢٠-٢١) .

(٣) سورة يونس آية رقم (٢٤) .

(٤) انظر فيما سبق : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢/٨ ، ١٤) .

وقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾[1] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله شارحاً وجه دلالة هذه الآية : '' فهم في هذه الحال لا يقـدرون ممـا كسـبوا على شيء ؛ فدل على أ م في غير هذا يقدرون على ما كسبوا ، وكذلك غيرهم يقدر على ما كسب ''[2].

وقولـ ـه تعالى: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[3] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله في بيان وجه دلالة هذه الآية : '' فلما ذكر في المملوك أنه لا يقدر على شيء ، ومقصوده أن الآخر ليس كذلك ، بل هو قادر على مالا يقدر عليه هـذا ، وهو إثبات الرزق الحسن مقدوراً لصاحبه ، وصاحبه قادر عليه ، وبذا ينطق عامة العقـلاء يقولون: فلان يقدر على كذا وكذا ، وفلان يقدر على كذا وكذا ، ومقدرة هذا دون مقدرة هذا ''[4] .

هذه الأدلة في القدرة على الأعيان ، أما القدرة على الأفعال ، فجميع أدلة الاستطاعة التي قبل الفعل ، تدل على قدرة العبد على الفعل .

---

(١) سورة إبراهيم آية رقم (١٨) .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥/٨) .
(٣) سورة النحل آية رقم (٧٥) .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥/٨) . وللاستزادة يراجع : نفس المصدر (١٦/٨-١٨) .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : " وأما القدرة على الأعيان ففي الصحيح عن أبي مسـعود[(١)] قال: كنت أضرب غلاماً لي فرآني النبي ﷺ فقال: « **اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك على هذا** »[(٢)] .

فقوله: « **لله أقدر عليك منك على هذا** » دليل على أن القدرة تتعلق بالأعيان المنفصلة قدرة الرب وقدرة العبد ... والنصوص تدل على أن كلا القدرتين تتعلق بالمتصل والمنفصل ، فـإن الله تعالى أخبر أن العبد يقدر على أفعاله كقولـه: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾[(٣)] ، وقـوله: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلاً أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ﴾[(٤)] ، فدل على أن منـا من يستطيع ذلك ومنا من لم يستطع .

وقـال الـنبي ﷺ: « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء** »[(٥)] أخرجاه في الصحيحين ، وقولـه: « **إن استطعت**

(١) عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري ، أبو مسعود البدري ، صحابي جليل شهد العقبة واختلف في شهوده بدراً ، مات قبل الأربعين وقيل بعدها . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (١٠٥/٣) ، الإصابة لابن حجر (٤٨٣/٢-٤٨٤) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٣٩٥) .

(٢) رواه مسلم في الأيمان باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (١٢٨٠/٣) ح(١٦٥٩) ، وأحمد (١٢٠/٤ ، ٢٧٣/٥) ، وأبو داود في الأدب باب في حق المملوك (٣٦٠/٥-٣٦١) ح(٥١٥٩) ، والترمذي في البر والصـلة (٢٩٦/٤) ح(١٩٤٨) كلهم من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ .

(٣) سورة التغابن آية رقم (١٦) .

(٤) سورة النساء آية رقم (٢٥) .

(٥) رواه البخاري في النكاح باب قول النبي ﷺ من استطاع منكم الباء فليتزوج (١٩٥٠/٥) ح(٤٧٧٨) ، ومسلم في النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه واشتغال من عجز عن مؤنه بالصوم (١٠١٩/٢) ح(١٤٠٠) ، وأحمد (٣٧٨/١) ، وأبو داود في النكاح باب التحريض على النكاح (٥٣٨/٢) ح(٢٠٤٦) ، والترمذي في النكاح ، باب ما جاء في فضل التزويج والحث عليه (٣٩٢/٣) ح(١٠٨١) ، والنسائي في النكاح باب الحث على النكاح (٤٧/٦) ، وابن ماجة في النكاح ، باب ما جاء في فضل النكاح (٥٩٢/١) ح(١٨٤٥) كلهم من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ .

=

أن تعمـل بالرضـا مـع اليقين فافعل »[١] وقولـه في الحديث الذي في الصحيح « **إذا أمـرتكم بـأمر فـأتوا منه مـا استطعتم »** »[٢] ''[٣] .

٢- قدرة العبد على خلاف ما علمه الله تعالى ، هل يقدر العبد أم لا ؟

الصـواب أنه ينبغي أن يستفصل في هذا الأمر ، فإطلاق القول في ذلك دون تفصيل خطـأ وبدعة ، فيقال: إذا كان المقصود بقدرة العبد القدرة الشرعية التي تكون قبل الفعل ، وهـي النوع الأول من القدرة ، فلا شك أن العبد قادر على خلاف المعلوم ، أما إذا كان المقصود بقدرة العبد القدرة القدرية التي مع الفعل هي النوع الثاني من القدرة ، فلا شك أن العبد لا يقدر على خلاف المعلوم بذا الاعتبار[٤] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وكذا تنازعهم في العبد هل هو قادر على خلاف المعلوم ؟ فإذا أريد بالقدرة القدرة الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي كالاستطاعة المذكورة

=والباءة : قال النووي : اختلف العلماء في المراد بالباءة هنا على قولين يرجعان إلى معنى واحد أصحها: أن المراد معناها اللغوي : وهو الجماع ، فتقديره : من استطاع منكم الباءة لقدرته على مؤنه - وهي مؤن النكاح - فليتزوج . شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٣/٩) .

وجاء : أصله الغمز ، ومنه وجأه بالسيف ، إذا طعنه به ، ووجأ انثييه : غمزهما حتى رضهما . انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١٢/٩) .

(١) هذه الجملة رواها هناد بن السري في الزهد (٣٠٤/١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٣/٧) ح(١٠٠٠٠) ح(٥٣٦). وأصل الحديث عند أحمد (٢٩٣/١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧) والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٥٧٥/٤-٥٧٦) ح(٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح ، وأبونعيم في الحلية (٣١٤/١) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٩٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنه المشهور « **احفظ الله يحفظك** » الحديث .

(٢) رواه مسلم في الحج باب فرض الحج مرة في العمر (٩٧٥/٢) ح(١٣٣٧) ، وأحمد (٢٤٧/٢) ، والنسائي في مناسك الحج باب وجوب الحج (٨٣/٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٣٨/٦) ، وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢/٨) .

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٢/٨) ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٦٢/١) .

في قولـه تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾[1] فكل من أمره الله و اه ، فهو مستطيع بذا الاعتـبار ، وإن علـم أنـه لا يطيعه ، وإن أريد بالقدرة القدرية التي لا تكون إلا مقارنة للمفعول ، فمن علم أنه لا يفعل الفعل لم تكن هذه القدرة ثابتة له ''[2] .

٣- زوال قـدرة العبد وأسبابا وأحكامها ، فقدرة العبد قد تزول بأسباب مشروعة وبأخـرى ممـنوعة ، فـإن كانت الأسباب مشروعة كان صاحبها معذوراً ، وإن كانت الأسـباب ممـنوعة كـان صاحبها آثماً ملوماً ، مثال الأول: من يسمع القرآن على الوجه المشروع ، فيهيج له وجد يحبه أو مخافة أو رجاء ، فيضعف عن حمله فقد يموت أو يصعق أو يصـيح صـياحاً عظيماً أو يضطرب اضطراباً كثيراً ، فينتج عن ذلك ترك صلاة واجبة أو تعـدي علـى بعض الناس ، فإن هذا معذور في ذلك ؛ لأنه قد زال عقله وقدرته وأصبح كا نون أو المضطر الذي تصدر عنه الأفعال والأقوال بغير اختياره وإرادته .

ومـثال الثاني - وهو زوال القدرة بأسباب ممنوعة - من فرط في الحج بعد استطاعته حـتى ضـيع ماله ، فإنه يلام على ذلك ويبقى الحج في ذمته ، وأيضا: ما قد يحصل لبعض الناس من الاضطراب والاختلاط وزوال العقل والقدرة حتى يتعدى بعضهم على بعض عند سماع الغناء والأصوات المطربة فإ م يلامون على ذلك[3].

---

(١) سورة التغابن آية رقم (١٦) .

(٢) أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣٠/٨) .

(٣) انظر فيما سبق : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٤٧/١٠-٣٥٠) .

وأصــل هذا يرجع إلى القاعدة المعروفة التي تقول : إن السبب إذا كان مشروعاً كان صاحبه فيما تولد عنه معذوراً ، وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى هذه القاعدة في مواضع متفرقة من كتبه[1] .

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٩١/١١) ، الرد الأقوم على ما في فصوص الحكم - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩٧/٢) ، رسالة شيخ الإسلام إلى نصر المنبجي - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٦١/٢) ، التحفة العراقية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٠/١٠) .

المطلب الثاني : إرادة العبد :

الإرادة مـن الفعل أراد ، وهو فعل رباعي يتعدى بنفسه إلى مفعوله ، تقول: أردت كذا ، أي قصدت كذا وطلبته طلباً قلبياً .

والعبد له إرادة دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب ، فقوله تعالى: ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] ، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾[2] ، وقوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾[3] ، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ ﴾[4] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَٓخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾[5] ، وقوله تعالى: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَٓخِرَةَ ﴾[6] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ ﴾[7] ، وقوله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن

---

(١) سورة يوسف آية رقم (٢٥) .
(٢) سورة التوبة آية رقم (٤٦) .
(٣) سورة الكهف آية رقم (٧٩) .
(٤) سورة القصص آية رقم (٢٧) .
(٥) سورة آل عمران آية رقم (١٤٥) .
(٦) سورة آل عمران آية رقم (١٥٢) .
(٧) سورة البقرة آية رقم (٢٦٥) .

﴿يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[1] حيث أن معنى الابتغاء الإرادة والطلب .

وأما السنة فهناك أحاديث كثيرة منها :

قولـه ﷺ: « **من أراد أهل هذه البلدة بسوء** - يعني المدينة - **أذابه الله كما يذوب الملح** في **الماء** »[2] ، وقولـه ﷺ: « **من أراد منكم أن يهل بحج وعمرة فليفعل ، ومن أراد أن يهـل بحـج فليهل ، ومن أراد أن يهل بعمرة فليهل** »[3] ، وقوله ﷺ: « **إذا دخلت العشر وأراد أحدكم أن يضحي فلا يمس من شعره وبشره شيئاً** »[4] .

وقـد أجمع المسلمون على إثبات الإرادة للإنسان ، وأن العبد إذا أراد طاعة أو معصية إرادة جازمـة ، فإنه يكون قادراً على فعلها ، وحكى إجماعهم على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية .

يقـول رحمـه الله : " إذا أراد العبد الطاعة التي أوجبها الله عليه ، إرادة جازمة كان قـادراً عليها ، وكذلك إذا أراد ترك المعصية التي حرمت عليه إرادة جازمة كان قادراً على

---

(١) سورة النساء آية رقم (١١٤) .

(٢) رواه مسلم في الحج باب من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله (١٠٠٧/٢) ح(١٣٨٦) ، وأحمد (٣٥٧/٢) ، والنسائي في الكبرى في الحج باب من أخاف أهل المدينة أو أرادهم بسوء (٤٨٣/٢) ح(٤٢٦٨) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٣) رواه مسلم في الحج باب وجوه الإحرام (٨٧١/٢) ح(١٢١١/١١٤) عن عائشة رضي الله عنها .

(٤) رواه مسلم في الأضاحي باب ي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو مريد التضحية أن يأخذ من شعره وأظفاره شيئاً (١٥٦٥/٣) ح(١٩٧٧) ، وأحمد (٢٨٩/٦) ، والترمذي في الأضاحي باب ترك أخذ الشعر لمن أراد أن يضحي (٨٦/٤) ح(١٥٢٣) ، والنسائي في الضحايا (١٨٧/٧) ، وابن ماجة في الأضاحي باب من أراد أن يضحي فلا يأخذ في العشر من شعره وأظفاره (١٠٥٢/٢) ح(٣١٤٩) كلهم من حيث أم سلمة رضي الله عنها .

ذلـك ، وهـذا مما اتفق عليه المسلمون وسائر أهل الملل حتى أئمة الجبرية ، بل هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ''[١].

وإرادة العبد تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الإرادة الجازمة ، وهي التي يجب وقوع الفعل أو المقدور منه معها إذا كانت القدرة تامة ، وتسمى الإرادة التامة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الإرادة الجازمة هي التي يجب وقوع الفعل معها إذا كانـت القـدرة حاصلة ، فإنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل لكمال وجود المقتضي السالم عن المعارض المقاوم ''[٢] .

ومن أحكام هذه الإرادة :

١- وجوب اقترا ا بالفعل أو المقدور منه ، فمتى لم يقترن ا شيء من الفعل لم تكن إرادة جازمة ، وهذا يحصل في العزم ، فإن العبد قد يعزم على فعل في المستقبل ثم لا يفعل ، والعزم لا يكفي في وجود الفعل ، بل لا بد عند حدوث الفعل من الإرادة الجازمة المستلزمة للفعل .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأما الإرادة الجازمة فلابد أن يقترن ا مع القدرة فعل المقدور ولو بنظرة أو حركة رأس أو لفظة أو خطوة أو تحريك بدن ، وبذا يظهر معنى قـوله: « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول** في **النار** »[٣] فإن المقتول أراد قتل

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٣٧/٨) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٢٢/١٠) .

(٣) رواه البخاري في الفتن باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما (٢٥٩٤/٦-٢٥٩٥) ح(٦٦٧٢) ، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٢٢١٣/٤) ح(٢٨٨٨) ، وأبوداود في الملاحم باب في النهي عن

=

صـاحبه فعمل ما يقدر عليه من القتال ، وعجز عن حصول المراد ، وكذلك الذي قال: لو أن لي مـثل ما لفلان ، لعملت فيه مثل ما يعمل فلان ، فإنه أراد فعل ما يقدر عليه ، وهو الكلام ، ولم يقدر على ذلك ، ولهذا كان من دعا إلى ضلالة كان عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً ؛ لأنه أراد ضلالهم ففعل ما يقدر عليه من دعائهم إذ لا يقدر إلا على ذلك ''[1] .

ويقـول أيضاً : '' وهذه المسألة إنما كثر فيها ال اع ؛ لأ م قدروا إرادة جازمة للفعل لا يقترن ا شيء من الفعل وهذا لا يكون ، وإنما يكون ذلك في العزم على أن يفعل ، فقد يعـزم علـى الفعـل في المستقبل من لا يفعل منه شيئاً في الحال ، والعزم على أن يفعل في المسـتقبل لا يكفي في وجود الفعل ، بل لابد عند وجوده من حدوث تمام الإرادة المستلزمة للفعل ''[2] .

٢- أن الإرادة الجازمة تعتبر في الشرع بم لة الفعل التام ؛ ولذا يجازى عليها بالثواب إن كانت إرادة للطاعات ، أو العقاب إن كانت إرادة للمعاصي والسيئات .

وقد رتب الله تعالى في القرآن العظيم الثواب والعقاب على هذه الإرادة ، قال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[3] ، وقـال تعـالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ

=القتال في الفتنة (٤٦٢/٤) ح(٤٢٦٨) ، والنسائي في تحريم الدم باب تحريم القتل (١١٤/٧) كلهم من حديث أبي بكرة ﷺ .

(١) كتاب الإيمان الأوسط - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٢٧/٧) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٢٢/١٠) .

(٣) سورة الإسراء آية رقم (١٨-١٩) .

وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[١] ، وقـال تعـالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[٢] ونحوها .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة ، ويريد الحياة الدنيا ، ويريد حرث الدنيا ، وقال في آية هود: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ إلى أن قـال: ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فـدل علـى أنه كان لهم أعمال بطلت ، وعوقـبوا علـى أعمال أخرى عملوها ، وأن الإرادة هنا مستلزمة للعمل ، ولما ذكر إرادة الآخـرة قال: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وذلك لأن إرادة الآخرة وإن اسـتلزمت عملها فالثواب إنما هو على العمل المأمور به لا كل سعى ، ولا بد مع ذلك من الإيمان ''[٣] .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أمثلة كثيرة على هذه الإرادة ، فمنها :

قولـه تعـالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٤] .

(١) سورة هود آية رقم (١٥-١٦) .
(٢) سورة الشورى آية رقم (٢٠) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٤٥/١٠) .
(٤) سورة النساء آية رقم (٩٥-٩٦) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في بيان دلالة هذه الآية : '' فالله تعالى نفى المساواة بين ا اهـد والقاعد الذي ليس بعاجز ، ولم ينف المساواة بين ا اهد وبين القاعد العاجز ، بل يقال: دليل الخطاب[١] يقتضي مساواته إياه ، ولفظ الآية صريح استثنى أولو الضرر من نفى المسـاواة ، فالاسـتثناء هـنا هـو من النفي ، وذلك يقتضي أن أولى الضرر قد يساوون القاعـدين[٢] وإن لم يساووهم في الجميع ، ويوافقه ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في غزوة تبوك : « **إن بالمدينة رجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم** » قالوا: وهم بالمدينة ! قال: « **وهم بالمدينة حبسهم العذر** »[٣] فأخبر أن القاعد بالمدينة الذي لم يحبسه إلا العذر ، هو مثل من معهم في هذه الغزوة ، ومعلوم أن الذي معه في الغزوة يثاب كل واحد منهم ثواب غاز على قدر نيته فكذلك القاعدون الذين لم يحبسهم إلا العذر ''[٤] .

ومـنها قولـه ﷺ: « **إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم** »[٥] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فإنه إذا كان يعمل في الصحة والإقامة عملاً ، ثم لم يتركه إلا لمرض أو سفر ، ثبت أنه إنما ترك لوجود العجز والمشقة ، لا لضعف النية وفتورها

---

(١) دليل الخطاب كما يقول الآمدي في إحكام الأحكام (٦٩/٣) : '' أما مفهوم المخالفة فهو ما يكون مدلول اللفظ في محل السـكوت مخالفاً لمدلوله في محل النطق ويسمى دليل الخطاب '' ، ويقول ابن قدامة في روضة الناظر(٧٧٥/٢) ''ومعناه الاستدلال بتخصيص الشيء بالذكر على نفي الحكم عن ما عداه ، ويسمى مفهوم المخالفة '' .

(٢) كذا في الأصل [القاعدين] ، ولعل الصواب : ا اهدين .

(٣) رواه البخاري في المغازي ، باب نزول النبي ﷺ الحِجر (١٦١٠/٤) ح(٤١٦١) ، وأبو داود في الجهاد ، باب الرخصة في القعود من العذر (٢٥/٣) ح(٢٥٠٨) ، وابن ماجة في الجهاد ، باب من حبسه العذر (٩٢٣/٢) ح(٢٧٦٤) من حديث أنس ﷺ .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٣١/١٠-٧٣٢) .

(٥) رواه البخاري في الجهاد ، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (١٠٩٢/٣) ح(٢٨٣٤) واللفظ له وأبو داود في الجنائز ، باب إذا كان الرجل يعمل عملاً صالحاً فشغله عنه مرض أو سفر (٤٧٠/٣) ح(٣٠٩١) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ .

فكـان لـه من الإرادة الجازمة التي لم يتخلف عنها الفعل إلا لضعف القـدرة ما للعامل ''[١] .

ومـن الأمثلة قولـه ﷺ : « **من جهز غازياً فقد غزا ، ومن خلفه** في **أهله** بخير **فقد غزا** »[٢] وقوله: « **من فطر صائماً فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء** »[٣] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فإن الغزو يحتاج إلى جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال ، فـإذا بذل هذا بدنه وهذا ماله ، مع وجود الإرادة الجازمة في كل منهما ، كان كل منهما مجاهداً بإرادته الجازمة ومبلغ قدرته ، وكذلك لابد للغازي من خليفة في الأهل ، فإذا خلفه في أهله بخير ، فهو أيضا غاز ، وكذلك الصيام لا بد فيه من إمساك ، ولا بد فيه من العشاء الذي به يتم الصوم ، وإلا فالصائم الذي لا يستطيع العشاء ، لا يتمكن من الصوم ''[٤] .

ومنها قول النبي ﷺ : «**إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله عز وجل مالاً وعلماً ، فهـو يتقي فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم** لله **عز وجل فيه حقه ، قال: فهذا بأفضل المنازل ، قال: وعبد رزقه** الله **عز وجل علماً** ولم **يرزقه مالاً ، قال: فهو يقول: لو كان** لي **مال عملت بعمل فلان ، قال: فأجرهما سواء ، قال: وعبد رزقه** الله **مالاً** ولم **يرزقه علماً فهو** يخبط في **ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه عز وجل ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله**

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٣٢/١٠) .

(٢) رواه البخاري في الجهاد ، باب فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير (١٠٤٥/٣-١٠٤٦) ح(٢٦٨٨) ، ومسلم في الإمارة ، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره ، وخلافه في أهله بخير (١٥٠٧/٣) ح(١٨٩٥) واللفظ له وهو من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ .

(٣) رواه الترمذي في الصوم ، باب ما جاء في فضل من فطر صائماً (١٧١/٣) ح(٨٠٧) ، والنسائي في الكبرى في الصيام ، باب ثواب من فطر صائماً (٢٥٦/٢) ح(٣٣٣٠) ، وابن ماجة في الصيام ، باب في ثواب من فطر صائماً (٥٥٥/١) ح(١٧٤٦) من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ . وقال الترمذي (١٧١/٣): حديث حسن صحيح ، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٤٣/١) : صحيح .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٣٢/١٠-٧٣٣) .

فـيه حقه ، فهذا بأخبث المنازل ، قال: وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول: لو كان لي مال لعملت بعمل فلان ، قال: هي نيته فوزرهما فيه سواء))[١].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " فهذا التساوي مع الأجر والوزر هو في حكاية حال من قال ذلك وكان صادقاً فيه ، وعِلم الله منه إرادة جازمة لا يتخلف عنها الفعل إلا لفوات القدرة ، فلهذا استويا في الثواب والعقاب ، وليس هذه الحال تحصل لكل من قال: لو أن لي ما لفلان لفعلت مثل ما يفعل إلا إذا كانت إرادته جازمة يجب وجود الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة ، وإلا فكثير من الناس يقول ذلك عن عزم لو اقترنت به القدرة لانفسخت عزيمته كعامة الخلق يعاهدون وينقضون ... كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾[٢]، وكما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[٣]، وكما قال: ﴿ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾[٤]"[٥] .

القسـم الـثاني: الإرادة غير الجازمة وهي التي يتخلف عنها الفعل أو المقدور منه مع وجـود القـدرة ، وتصدق هذه الإرادة على كل فعل يريد الإنسان فعله لكنه لا يفعله مع تمكنه من ذلك .

---

(١) رواه أحمد (٢٣١/٤) واللفظ له ، والترمذي في الزهد ، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٤٨٧/٤) ح(٢٣٢٥) ، وابن ماجة في الزهد ، باب النية (١٤١٣/٢) ح(٤٢٢٨) وهو من حديث أبي كبشة الأنماري . وقال الترمذي (٤٨٧/٤) : حديث حسن صحيح ، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٧٠/٢) : صحيح .

(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٤٣) .

(٣) سورة الصف آية رقم (٢) .

(٤) سورة التوبة آية رقم (٧٥-٧٦) .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٣٣/١٠-٧٣٤) ، وللاستزادة انظر: نفس المصدر (٧٢٣/١٠-٧٣٠ ، ٧٣٤-٧٣٥) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' ومتى وجدت الإرادة والقدرة التامة ولم يقع الفعل لم تكـن الإرادة جازمـة ، وهو إرادات الخلق لما يقدرون عليه من الأفعال ولم يفعلوه ، وإن كانت هذه الإرادات متفاوتة في القوة والضعف تفاوتاً كثيراً ، لكن حيث لم يقع الفعل المراد مع وجود القدرة التامة فليست الإرادة جازمة جزماً تاماً ''(١) .

وهـذه الإرادة هي هم من لم يعمل الوارد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن الـنبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: « **إن الله كتب الحسنات والسيئات ،** ثم بين **ذلـك: فمـن هـم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم ا وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة فلم يعملها ، كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم ا فعملها كتبها الله له سيئة واحدة** »(٢).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فهذا التقسيم هو في رجل يمكنه الفعل ، ولهذا قال: «**فعملـها** » « **فلم يعملها** » ومن أمكنه الفعل فلم يفعل لم تكن إرادته جازمة ؛ فإن الإرادة الجازمة مع القدرة مستلزمة للفعل ، كما تقدم أن ذلك كاف في وجود الفعل وموجب له ، إذ لو توقف على شيء آخر لم تكن الإرادة الجازمة مع القدرة تامة كافية في وجود الفعل ، ومـن المعلوم المحسوس أن الأمر بخلاف ذلك ، ولا ريب أن الهم والعزم والإرادة ونحو ذلك قد يكون جازماً ، لا يتخلف عنه الفعل إلا للعجز ، وقد لا يكون هذا على هذا الوجه من الجزم ''(٣) .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٢٢/١٠) .

(٢) رواه البخاري في الرقاق ، باب من هم بحسنة أو بسيئة (٢٣٨٠/٦-٢٣٨١) ح(٦١٢٦) واللفظ له ، ومسلم في الإيمان ، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١١٨/١) ح(١٣١) ، وأحمد (٣٦٠/١) .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٣٦/١٠) .

ومن أحكام هذه الإرادة أنه يفرق فيها بين المريد وبين الفاعل بعكس الأولى ، فمريد السـيئات لا يعاقب على إرادته إلا إذا فعل ، ومريد الخير يثاب على إرادته وإن لم يفعل ، وهذا من فضل الله تعالى ورحمته ، كما في الحديث السابق .

وهـذه الإرادة تدخل في حديث النفس الذي يعفى عن صاحبه كما في الحديث «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما** لم **تعمل أو تتكلم** »[1] .

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: ״ فإذا عرف أن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة إلا لعجز يجرى صاحبها مجرى الفاعل التام في الثواب والعقاب ، وأما إذا تخلف عـنها ما يقدر عليها ، فذلك المتخلف لا يكون مراداً إرادة جازمة ، بل هو الهم الذي وقع العفو عنه ״[2] .

ولكـن ينبغـي أن يلاحظ هنا أن هذا الهم ليس في الأمور التي تقدح في الإيمان مثل تكذيب الرسول ﷺ أو بغضه ، أو بغض شيء مما جاء به ونحوها من أعمال القلوب ، لأن هـذا الحديث لأمة محمد ﷺ المؤمنين ، فمن وجد منه هم ينافي هذا الإيمان لم يكن من أمة محمد ﷺ في الحقيقة ، ولا يجب أن يعفى عنه عما في نفسه .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : ״ والعفو عن حديث النفس إنما وقع لأمة محمد ﷺ المؤمـنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فعلم أن هذا العفو هو فيما يكون من الأمور التي لا تقدح في الإيمان ، فأما ما نافى الإيمان فذلك لا يتناوله لفظ الحديث ؛ لأنه إذا نـافى الإيمان لم يكن صاحبه من أمة محمد في الحقيقة ، ويكون بم لة المنافقين ، فلا يجب أن يعفى عما في نفسه من كلامه أو عمله ، وهذا فرق بين يدل عليه الحديث وبه تأتلف الأدلة

(١) رواه البخاري في الطلاق ، باب الطلاق في الإغلاق والكره ، والسكران وا نون وأمرهما ، والغلط والنسيان في الطلاق والشرك وغيره (٢٠٢٠/٥) ح(٤٩٦٨) ، ومسلم في الإيمان ، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر (١١٦/١) ح(١٢٧) عن أبي هريرة ﷺ .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٦٥/١٠) .

الشرعية ، وهذا كما عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان ، كما دل عليه الكتاب والسنة فمن صح إيمانه عفي له عن الخطأ والنسيان وحديث النفس كما يخرجون من النار ، بخلاف مـن لـيس معه الإيمان ، فإن هذا لم تدل النصوص على ترك مؤاخذته بما في نفسه وخطئه ونسيانه''[1] .

لكـن قـد يوجد في قلب المؤمن إرادات متعارضة مثل حديث النفس الذي يتضمن الكفـر ، ويقارنه بغض لذلك الكفر وتعوذ منه ، كما في حديث أبي هريرة قال: جاء ناس مـن أصحاب النبي ﷺ فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ؟ قال: « **وقد وجدتموه** » قالوا: نعم ، قال: « **ذاك صريح الإيمان** »[2] ، وفي الحديث الآخر عن ابن عـباس قـال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، إن أحدنا يجد في نفسه يعرض بالشيء ، لأن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به ، فقال: « **الله أكبر الله أكبر الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة** »[3].

فهذا لا يضر المؤمن بل هو دال على إيمانه ؛ لأن الكافر والمنافق لا يوسوس له الشيطان فمعهمـا من الكفر ما يغنى الشيطان عن الوسوسة ، إضافة إلى أن الوسوسة بالمعارض المنافي للإيمان تحصل لمن وجد لديه مقتض للإيمان ، فإذا لم يكن معه ما يقتضي الإيمان لم يحتج إلى معارض يدفعه هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن كره المؤمن هي خالص ومحض الإيمان لأن المنافق والكافر لا يجد في قلبه هذا الكره والبغض ، فقد قام في قلبيهما ما هو أعظم من الوسوسة وهو الكفر فلم يبغضوه أو يكرهوه .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٦٠/١٠-٧٦١) .
(٢) رواه مسلم في الإيمان ، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (١١٩/١) ح(١٣٢) .
(٣) رواه أبوداود في الأدب ، باب في رد الوسوسة (٣٣٥/٥) ح(٥١١٠) ، وابن حبان كما في موارد الظمآن (ص ٤١) ح(٤٥) ، وقال الألباني: في صحيح سنن أبي داود (٩٦٣/٣) : صحيح ، وقوله: (حممة) أي: فحمة . انظر: قنعة الأريب في تفسير الغريب لموفق الدين ابن قدامة المقدسي (ص ٩٩) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فهنا لما اقترن بالوسواس هذا البغض وهذه الكراهة كان هو صريح الإيمان ، وهو خالصه ومحضه ؛ لأن المنافق والكافر لا يجد هذا البغض وهذه الكـراهة مع الوسوسة بذلك ، بل إن كان في الكفر البسيط - وهو الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ وترك الإيمان به ، وإن لم يعتقد تكذيبه - فهذا قد لا يوسوس له الشيطان بذلك إذ الوسوسة بالمعارض المنافي للإيمان إنما يحتاج إليها عند وجود مقتضيه ، فإذا لم يكن معه ما يقتضـي الإيمـان لم يحتج إلى معارض يدفعه ، وإن كان في الكفر المركب وهو التكذيب فالكفر فوق الوسوسة ، وليس معه إيمان يكره به ذلك ''[١] .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٦٦/١٠) .

المطلب الثالث : تأثير قدرة العبد وإرادته في الفعل .

إن مسألة تأثير قدرة العبد في الفعل من المسائل الدقيقة الغامضة التي خاض الناس فيها كثيراً قبل شيخ الإسلام رحمه الله ، وتعددت فيها الآراء وتباينت المذاهب واضطربت الأقوال وما ذاك إلا لخطورها ، حيث أنه يترتب على بحثها الكلام في التوحيد والأمر والنهي بالإثبات أو النفي هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن دقتها وغموضها كان لهما أثر كبير في اضطراب الناس فيها ، فقد كثرت آراء الناس حولها وتعددت ، بل أصحاب المذهب الواحد قد يختلفون في هذه المسألة ، كما حصل للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم ، فقد تعددت آراؤهم وتباينت ، بل إن الفرد منهم قد يكون له في هذه المسألة أكثر من رأي كما حصل لبعض محققي الأشاعرة[1].

وقد فصل شيخ الإسلام رحمه الله هذه المسألة وبينها بياناً واضحاً ، وقرر فيها ما يلي:

أولاً : أنه ينبغي الاستفصال في لفظ التأثير ، فلا يطلق القول فيه دون بيان أو توضيح للمقصود منه ، نظراً لما يحتمله هذا اللفظ من المعنى الحق والمعنى الباطل ، فلا يطلق القول فيه دون بيان أو تفصيل .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' إطلاق القول بإثبات التأثير أو نفيه دون الاستفصال وبيان معنى التأثير ، ركوب جهالات واعتقاد ضلالات ''[2] .

ثانياً : أن لفظ التأثير يحتمل ثلاث احتمالات :

١- التأثير بالخلق والإيجاد ، وهذا باطل ؛ لأنه يتضمن جعل شريك لله تعالى في خلقه .

---

(١) انظر آراء الناس في هذه المسألة : العواصم والقواصم لابن الوزير (٧/١٠-٧٥) وما بعدها ، وانظر آراء الأشاعرة في (ص٧٥٢) من هذا البحث .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩٢/٨) .

٢- التأثير في صفة الفعل أو أحد وجوهه ، وهذا باطل ؛ لأن حقيقته ترجع إلى الاحتمال الأول .

٣- التأثير السببي ، أي أن قدرة العبد وإرادته سبب في حصول الفعل ، ولكن الكل خلق الله تعالى ، السبب والمسبب ، وهذا هو الصحيح .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' التأثير اسم مشترك ، قد يراد بالتأثير الانفراد بالابتداع والتوحيد بالاختراع ، فإن أريد بتأثير قدرة العبد هذه القدرة فحاشا لله ، لم يقله سني وإنما هو المعزو إلى أهل الضلال .

و إن أريد بالتأثير نوع معاونة ، إما في صفة من صفات الفعل ، أو في وجه من وجوهه ، كما قاله كثير من متكلمي أهل الإثبات ، فهو أيضا باطل بما به بطل التأثير في ذات الفعل ؛ إذ لا فرق بين إضافة الانفراد بالتأثير إلى غير الله سبحانه في ذرة أو فيل وهل هو إلا شرك دون شرك ، وإن كان قائل هذه المقالة ما نحا إلا نحو الحق .

وإن أريد بالتأثير أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة بمعنى: أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه وتعالى الفعل بذه القدرة ، كما خلق النبات بالماء ، وكما خلق الغيث بالسحاب ، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب فهذا حق ، وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات ''[1] .

ويقول أيضاً : '' إذا أشكل عليك هذا البيان ، فخذ مثلاً من نفسك: أنت إذا كتبت بالقلم ، وضربت بالعصا ، ونجرت بالقدوم ، هل يكون القلم شريكك ؟ أو يضاف إليه شيء من نفس الفعل وصفاته ؟ أم هل يصلح أن تلغى أثره ، وتقطع خبره وتجعل وجوده كعدمه ؟ أم يقال: به فعل وبه صنع ، ولله المثل الأعلى ، فإن الأسباب بيد العبد ليست من فعله وهو محتاج إليها لا يتمكن إلا با ، والله سبحانه خلق الأسباب ومسببا ا ، وجعل خلق

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٨٩/٨-٣٩٠) .

بعضها شرطاً وسبباً في خلق غيره ، وهو مع ذلك غني عن الاشتراط والتسبب ونظم بعضها ببعض ، لكن لحكمة تتعلق بالأسباب وتعود إليها والله عزيز حكيم ''[1] .

ثالـثاً : أن التأثير السـبـبي للقدرة والإرادة في الفعل ، يختلف ويتنوع بتنوع قدرة العبد وإرادته ، فقدرة العبد نوعين كما سبق[2] ، النوع الأول شرط في التأثير السـبـبي ، وسـبب ناقص ، والنوع الثاني علة للفعل وسبب تام له ، ولا بد معها من الإرادة الجازمة لكي يحصل الفعل .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' القدرة مع مقدورها كالسبب مع المسبب ، والعِلة مـع المعلـول ، والشرط مع المشروط ، فإن أريد بالقدرة القدرة الشرعية المصححة للفعل المـتقدمة علـيه ، فتلك شرط للفعل وسبب من أسبابه وعلة ناقصة له ، وإن أريد بالقدرة القـدرة المقارنـة للفعـل المستلزمة له ، فتلك علة للفعل وسبب تام ، ومعلوم أنه ليس في المخلوقات شيء هو وحده علة تامة ، وسبب تام للحوادث بمعنى أن وجوده مستلزم لوجود الحـوادث ، بل ليس هذا إلا مشيئة الله تعالى خاصة ، فما شـاء الله كان وما لم يشـأ لم يكن ''[3] .

ومن أحكام سببية العبد في الفعل ما يلي:

١- عـدم استقلال قدرة العبد وإرادته بالتأثير في الفعل ، وهذا مبني على مسألة عدم استقلال الأسباب بالتأثير ، وقد سبق إيضاح هذه القضية فيما تقدم[4].

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' القول الوسط ... إثبات كون الرب خالقاً لكل شيء ، مع كون أفعال العباد مخلوقة له ومع كو ا أفعالا للعباد أيضا ، وأن قدرة العباد لها

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩١/٨) .

(٢) انظر (ص ١٩٣ ، ١٩٦) .

(٣) أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣٣/٨) .

(٤) انظر: (ص ١٤٩) .

تـأثير فيها كتأثير الأسباب في مسببا ا ، وأن الله خالق كل شيء بما خلقه من الأسباب ، ولـيس شيء من الأسباب مستقلاً بالفعل ، بل هو محتاج إلى أسباب أخر تعاونه وإلى دفع موانع تعارضه ، ولا تستقل إلا مشيئة الله تعالى ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فما شـاء الله كـان وإن لم يشأ العباد ، وما لم يشأ لم يكن ولو شاء العباد ، وهذا الذي عليه سلف الأمة وأئمتها وجمهورها ''[1] .

٢- أن لا يعـتمد العـبد علـى قدرته وإرادته اعتماداً تاماً ؛ لأن قدرته وإرادته غير مستقلة بالتأثير كما تقدم آنفاً ، أضف إلى ذلك أن هذا الأمر يتنافى مع التوكل المأمور بـه الـذي يقتضي اعتماد القلب على الله ، وتفويض الأمـر إليه مع القيام بالسبب المأمور به ، وقد تقدم الكلام على هذه المسألة فيما سبق[2] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ، ولا يرجى إلا الله قال تعالى لما أنزل الملائكة: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[3] ، وقـــال: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[4]''[5] .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١١٥/١٠) .
(٢) انظر: (ص ١٣٤) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (١٢٦) .
(٤) سورة آل عمران آية رقم (١٦٠) .
(٥) شرح دعوة ذي النون - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٨/١٠) .

المطلب الرابع : التولد وحقيقته :

لقد تكلمت في المطالب السابقة عن قدرة العبد وإرادته وتأثيرهما ، ولكن بقيت مسألة هي من تمام هذا المبحث ، ولها ارتباط كبير بالسببية ، وهي مسألة المتولدات وحقيقتها .

فأفعال العباد تنقسم باعتبار المباشرة وعدمها إلى قسمين :

القسـم الأول : فعل مباشر ، وهو ما يقوم بالعبد في محل قدرته من أفعال ، وينطبق علـى هذا القسم ما ذكرته في قضية تأثير العبد في فعله ، من حيث خلق الله تعالى للفعل ، وكـون العـبد سـبباً فيه ومباشراً له ، ومثال ذلك: ما يقوم بالعبد من الأفعال الاختيارية كالصـلاة والصيام والزكاة والحج ونحوها ، وقد مر الكلام على هذه المسألة في قضية تأثير قدرة العبد وإرادته .

القسـم الـثاني : أفعـال غير مباشر ، وهي ما خرج عن محل قدرة العبد ، وتسمى بالمتولدة .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' أفعال الإنسان وغيره من الحيوان على نوعين: أحدهما: المباشر ، والثاني: المتولد ، فالمباشر ما كان في محل القدرة كالقيام والقعود والأكل والشرب ، وأما المتولد فهو ما خرج عن محل القدرة ، كخروج السهم من القوس ، وقطع السكين للعنق ، والألم الحاصل من الضرب ونحو ذلك ''(١) .

وحقـيقة المـتولدات أ ا أمور تنتج عن فعل العبد ، بغير قدرته المنفردة ، بل تحصل بقدرة العبد وبالأسباب الأخرى ، فالعبد مشارك في الفعل وغير منفرد .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' هذه الأمور التي يقال لها: المتولدات حاصلة بسبب فعل العبد وبالأسباب الأخرى التي يخلقها الله ، فالشبع يحصل بأكل العبد وابتلاعه وبما جعله

---

(١) الصفدية لابن تيمية (١٥٠/١) .

الله في الإنســان وفي الغذاء من القوى المعينة على حصول الشبع ، وكذلك الزهوق حاصل بفعــل العــبد وبما جعله في المحل من قبول الانقطاع ، وهو سبحانه خالق للأثر المتولد عن هذين السببين اللذين أحدهما فعل العبد ، وهو خالق للسببين جميعاً ''[١] .

وللمتولدات أمثلة كثيرة منها :

١- حصــول الشــبع بعد الأكل ، فالإنسان أكل ، والشبع تولد عن الأكل ، ومثله الــري بعد شرب الماء ، ومثله الجُرح بعد الجَرح ، والموت بعد ضرب العنق بالسيف ونحو ذلك [٢].

٢- مــا يصيب العبد من التعب والجوع والعطش والمرض ونحوها ، فهذه تولدت عن ممارسة عمل شاق أو ما شابه ذلك [٣].

٣- والقــبول والاتباع للداعي ، سواء كان الداعي إلى هدى أو الداعي إلى ضلال ، وانــتفاع الــناس بالعلم ، ودعاء الولد الصالح لأبيه ، كلها متولدات ، فالعبد دعا فقط ، والقبول والاتباع من آثار دعوته ، وعِلِم وعلم ، وتولد عن تعليمه انتفاع الناس بعلمه ، وفي الولد إنما رباه تربية حسنة ، فتولد عن ذلك ولد صالح يدعو له [٤].

وقد ذكر الله تعالى نوعي الفعل في آيتين من القرآن العظيم ، وقرن بينهما ، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣١/٩) .

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٠/٩) ، الرد على البكري لابن تيمية (٢٢١/٢) .

(٣) انظر: أمراض القلوب وشفاؤها - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٤/١٠) .

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٢/٩) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٢٣/١٠) .

لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[١]، وقولـه تعالى بعد هذه الآية :﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[٢] .

ففـي الآية الأولى ذكر الله تعالى الأفعال المتولدة ، وهي الظمأ والتعب والجوع وغيظ الكفـار ونحـوها ، وأخبر أنه يكتب لهم ا عمل صالح ؛ لأ ا ليست عملاً لهم ، بل هم مشـاركون فيه ، بخلاف النفقة وقطع المسافات في الآية الثانية ، فهذه أفعالهم المباشرة لهذا قال: إ ا نفسها تكتب لهم .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' فذكر في الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قـدر م المنفردة ، وهو ما يصيبهم من العطش والجوع والتعب وما يحصل للكفار بم من الغـيظ ومـا ينالونه من العدو ، وقال: ﴿ كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ ، فأخبر أن هذه الأمور التي تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم ا عمل صالح .

وذكـر في الآيـة الثانية نفس أعمالهم المباشرة التي باشروها بأنفسهم ، وهى الإنفاق وقطـع المسـافة ؛ فلهـذا قال فيها: ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ ﴾ ، فإن هذه نفسها عمل صالح وإراد ـم في الموضـعين جازمة على مطلوبم الذي هو أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمـة الله هي العليا ، فما حدث مع هذه الإرادة الجازمة من الأمور التي تعين فيها قدر م بعض الإعانة هي لهم عمل صالح ''[٣] .

---

(١) سورة التوبة آية رقم (١٢٠) .

(٢) سورة التوبة آية رقم (١٢١) .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٢٣/١٠-٧٢٤) . وللاستزادة انظر: الرد على البكري لابن تيمية (٢٢١/٢-٢٢٢) ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣١/٩-٣٢) ، أمراض القلوب وشفاءها - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٤/١٠) .

ويقـول الله تعال في آية أخرى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾[١][٢] والمتولدات من آثار الأعمال .

يقول ابن القيم رحمه الله في بيان دلالة هذه الآية على التولد فهو: '' سبحانه يكتب ما عملـوه ومـا تولد من أعمالهم ، فيكون المتولد عنها كأ م عملوه في الخير والشر وهو أثر أعمالهم ، فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها ''[٣] .

ولهذه المتولدات أحكام منها :

١- أن الله تعـالى كما أنه خالق أفعال العباد ، فهو أيضاً خالق لما يتولد عنها ؛ قال تعـالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٤]، أي: خلقكـم وخلـق أصنامكم ، ومعلوم أن الأصـنام إنما امتازت عن الحجارة العادية بما فيها من النحت والتصوير ، والنحت والتصوير مـتولد عن فعل العبد ، فالله تعالى خلق العباد ، وخلق ما تولد عن أفعالهم ، وهذا يستلزم خلق الفعل المباشر ، لأن المتولد لازم للفعل المباشر وملزوم له ، وخلق أحد المتلازمين يستلزم خلق الآخر .

يقـول شـيخ الإسـلام رحمه الله : '' فمن المعلوم أن النحت الذي فيها هو أثرهم وعملـهم ... فإذا ثبت أن الله خلقها بما فيها من التصوير والنحت ، ثبت أنه خالق ما تولد عـن فعلـهم ، والمتولد لازم للفعل المباشر وملزوم له ، وخلق أحد المتلازمين يستلزم خلق

(١) سورة يس آية رقم (١٢) .
(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٢/٩) ، فقد ذكر شيخ الإسلام هذا الدليل ولم يعلق عليه.
(٣) شفاء العليل لابن القيم (ص ٨٥) .
(٤) سورة الصافات آية رقم (٩٦) .

الآخـر ، فدلت الآية أنه خالق أفعالهم القائمة بم ، وخالق ما تولد عنها ، وخالق الأعيان التي قام با المتولد ''[١] .

٢- أن التولد لا يكون إلا عن أصلين ، فلا يمكن أن يكون هناك تولد من شيء واحد مطلقاً ، فالإحراق يتولد من النار والجسم القابل للاحتراق ، والتعب يتولد من الفعل الشاق والجسـم القابل للتعب ، ودعاء الولد الصالح يتولد من الفعل الذي هو التربية الصحيحة ، إضافة إلى المحل القابل الذي هو الولد ، وفي هذه الأمور كلها لا بد من صرف الموانع ، لكي يحصل الأثر المطلوب .

يقـول شـيخ الإسـلام رحمـه الله : '' التولد لا يكون إلا من أصلين ، وليس في الموجـودات ما يكون وحده مولداً لشيء ، بل قد خلق الله تعالى من كل شيء زوجين ، وهو سبحانه الفرد الذي لا زوج له ....

وأيضـا فإنه لا يعرف في الوجود واحد صدر عنه بمجرده شيء وما يمثلون به من أن الـنار لا يصـدر عنها إلا الإحراق والتسخين ، والماء لا يصدر عنه إلا التبريد ، والشمس يصـدر عنها الشعاع ، ونحو ذلك كلها حجج عليهم ، فإن هذه الآثار لم تصدر عن مجرد هـذه الأجسام وطبائعها ، بل لا تكون السخونة والإحراق إلا عن شيئين: أحدهما: النار أو الشـعاع أو الحركة ، فإن هذه الثلاثة من أسباب السخونة والثاني: محل قابل لذلك كبدن الحيوان والنبات ونحو ذلك ، وإلا فالسمندل والياقوت وغيرهما لما لم تكن فيه قوة القبول لم تحرقه النار .

وكـذلك الشعاع لا بد له من محل يقبل الانعكاس عليه ، وإلا فـإذا لم يكن هناك جسـم قابل له لم يحدث الشعاع ....

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣٣٨/٣) .

وهـذا القدر لما كان مستقراً في فطر الناس ، كان عامة ما يسمونه تولداً ونتاجاً إنما يكون عن أصلين ، فالأمور التي تسمى متولدات كالشبع والري ونحو ذلك إنما حدثت عن أصلين: فعل العبد ، والأسباب الأخر المعاونة له .

وكذلك النظار يقولون: النتيجة لا تكون إلا عن مقدمتين ، ويشبهون حصول النتيجة عـن المقدمـتين بحصـول النتاج عن الأصلين من الحيوان ؛ لأن هذين أصلان في التوليد ، وهذين أصلان في التولد ''[١] .

٣- أن العـبد يثاب ويعاقب على ما يتولد عن فعله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وذلك لما له في حصوله من السبب والاكتساب .

فمثلاً ما يجري على المؤمنين من البلاء والمحن والاضطهاد من قبل الكفار ، فإ م يثابون عليه ؛ لأنه تولد من إيما م وتوحيدهم .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والذين يؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله ﷺ ، ويحـدث لهـم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل أو ضـرب أو شـتم أو نقـص رياسـة ومـال ، هم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم كالمهاجـرين الأولين ، فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ، ويكتب لهم به عمل صالح ، كما يـثاب ا اهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظه الكفار ، وإن كانت هذه الآثار ليست عملاً فعله يقوم به ، لكنها متسببة عن فعله الاختياري وهي التي يقال لها: متولدة ''[٢] .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٦٩/٧-٣٧٢) ، وللاستزادة انظر: تفسير سورة الإخلاص - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦٦/١٧- ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩) .

(٢) أمراض القلوب وشفاؤها - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٤/١٠) .

ومـن هذا الباب قول الرسول ﷺ : «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** »[(١)][(٢)].

يقول ابن القيم رحمه الله : '' وخص النبي ﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب إلى المـيت ؛ لأنه سبب لحصولها ، والعبد إذا باشر السبب الذي يتعلق به الأمر والنهي يترتب علـيه مسببه ، وإن كان خارجاً عن سعيه وكسبه ، فلما كان هو السبب في حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع ، جرى عليه ثوابه وأجره لتسببه فيه ، فالعبد إنما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه ''[(٣)] .

ويـدخل في هذا الباب الداعي إلى الهدى ، والداعي إلى الضلال ، فإن لهما من الجزاء كما للمستجيب ، فالداعي إلى الهدى له مثل أجر من اتبعه ، ولا ينقص ذلك من أجره شيئاً والداعـي إلى الضلال لـه مثل إثم من اتبعه ، ولا ينقص ذلك من إثمه شيئاً ، يقول ﷺ: « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومـن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً** »[(٤)].

وهذا الثواب والعقاب جاء لسببين :

---

(١) رواه مسلم في الوصية ، باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته (١٢٥٥/٣) ح(١٦٣١) ، وأحمد (٣٧٢/٣) ، وأبو داود في الوصايا ، باب ما جاء في الصدقة عن الميت (٣٠٠/٣) ح(٢٨٨٠) ، والترمذي في الأحكام ، باب في الوقف (٦٦٠/٣) ح(١٣٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٢/٩) ، فقد ذكر الشيخ هذا الدليل ولم يعلق عليه .

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١٧٥/١) .

(٤) رواه مسـلم في العـلم ، بـاب من سـن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٠٦٠/٤) ح(٢٦٧٤) ، وأحمد (٣٩٧/٢) ، وأبو داود في السنة ، باب لزوم السنة (١٥/٥-١٦) ح(٤٦٠٩)، والترمذي في العلم باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع أو إلى ضلالة (٤٢/٥) ح(٢٦٧٤) ، وابن ماجة في المقدمة ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٧٥/١) ح(٢٠٦) عن أبي هريرة ﷺ .

أحـدهما : ما للعبد من المشاركة في حصول الفعل ، فالفعل لم يحصل بقدرة الداعي وحـده ؛ لأن الداعي لا يقدر إلا على الأمر والدعاء والطلب ، وهذه لا تكفي في حصول الفعـل ، بل لا بد من المحل القابل ، وهو المأمور الممتثل لما دعي إليه ، ومن اشتراك هذين السببين يتولد الاتباع والقبول عند التابع .

قـال تعـالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ ۙ قَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[1].

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' فقوله: ﴿ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ هي الأوزار الحاصـلة لضـلال الأتباع ، وهى حاصلة من جهة الآمر ومن جهة المأمور الممتثل فالقدرتان مشتركتان في حصول ذلك الضلال ''[2] .

السـبب الآخر : الإرادة الجازمة عند الداعي ، فإ ا لما كانت جازمة كاملة في هدي الأتباع أو ضلالهم وأتى صاحبها بما يقدر عليه في ذلك ، كان صاحبها بم لة العامل الكامل فله جزاء كل من اتبعه ، للهادي مثل أجور المهتدين ، وللمضل مثل أوزار الضالين .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الداعي إلى الهدى والضلالة لما كانت إرادته جازمة كاملـة في هدى الأتباع وضلالهم ، وأتى من الإعانة على ذلك بما يقدر عليه ، كان بم لة العامـل الكامـل ، فلـه من الجزاء مثل جزاء كل من اتبعه ، للهادي مثل أجور المهتدين وللمضل مثل أوزار الضالين .

---

(١) سورة النحل آية رقم (٢٤-٢٥) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٢٦/١٠) .

وكـذلك الســان سنة حسنة وسنة سيئة ، فإن السنة هي: ما رســم للتحري ، فإن السان كامل الإرادة لكـل ما يفعل من ذلك ، وفعله بحســب قدرته ''[١] .

٤- يتـرتب على مسألة التولد مسألة حصول العلم عقب النظر في الدليل ، هل النظر مستلزم للعلم ؟ أو متضمن له ؟ أو مقترن به اقتراناً عادياً ؟

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والتحقيق أنه من جملة الأمور التي تسمى المتولدات كالشــبع والــري والــرؤية في العين والسمع في الأذن ، فهي حاصلة بفعل العبد المقدور وبأســـباب خارجــة عــن قدرتـــه ، ولهذا يثـاب عليه لما له في حصوله من السبب والاكتساب ''[٢] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٢٤/١٠) .

(٢) الرد على البكري لابن تيمية (٢٢٤/٢-٢٢٥) ، وللاستزادة انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤/ ٣٤-٣٥ ، ٥٣٠/١٧) .

المبحث الثالث

الجزاء على الأعمال

وفيه مطلبان :

١.المطلب الأول : الجزاء الدنيوي .

٢.المطلب الثاني : الجزاء الأخروي .

تمهيد

إن العبد في هذه الحياة حارث همام ، لابد له من هم وإرادة وعمل وحركة ، فهو همام متحرك بالإرادة .

وهذه الحركة لا يخلو منها إنسان بأي صورة من الصور ؛ لأ ا أمر فطري جبلي خلق الإنسان عليه ، فهي من لوازمه الذاتية .

وهـذه الحركة هي سبب للثواب أو العقاب بحسب النفع والضر ، فإن كانت نافعة فهي سبب للثواب ، وإن كانت ضارة فهي سبب للعقاب .

والـثواب والعقـاب منه ما هو في الدنيا ، ومنه ما هو في الآخرة ، ومنه ما هو في البرزخ .

ولهذا فالكلام على الجزاء يندرج في مطلبين :

المطلب الأول : الجزاء الدنيوي .

المطلب الثاني : الجزاء الأخروي .

أما الجزاء البرزخي فهو تبع للجزاء الأخروي ؛ ولذا لم أفرده بمطلب خاص.

المطلب الأول : الجزاء الدنيوي :

المقصود بالجزاء الدنيوي ما يصيب الإنسان في هذه الدنيا من النعم والمصائب ، إضافة إلى الحسـنات والسـيئات التي يعملها الإنسان في حياته ، فهي كلها تندرج ضمن الجزاء الدنيوي .

وبذا يكون الجزاء الدنيوي ثلاثة أنواع :

١- النوع الأول: النعم .

٢- النوع الثاني : المصائب والعقوبات العاجلة .

٣- النوع الثالث : المعاصي

ولكل نوع من هذه الأنواع تفاصيل ومباحث طويلة ، وليس هذا محل الإفاضة فيها ، ولهـذا سيكون كلامي في هذه الأنواع حول قضية السببية ودخولها في هذه الأمور ، إضافة إلى ما قد يرتبط بذه المسألة من مباحث.

١ ـ النوع الأول : النعم :

النعم أصناف كثيرة يتفضل الله با على عباده ، وهي متنوعة وتشمل كل ما يتنعم به العبد في هذه الحياة كالصحة والمال والولد وغيرها .

ومن أعظم تلك النعم نعمة الهداية إلى هذا الدين ، ونعمة أداء الأعمال الصالحة التي افترضها الله على عباده ، فهي من فضل الله وجوده ورحمته ، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي

(١) سورة النحل آية رقم (٥٣) .

ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ ﴾[2] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3] ، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ ﴾[4] .

وبالجملـة فـنعم الله تعالى على عباده لا تعد ولا تحصى ، والعبد يتقلب فيها في كل وقـت وحين ، آناء الليل وأطراف النهار ، قال تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[5] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[6] .

وقد قرر شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الباب ما يلي :

أولاً : أن الـنعم والخير الذي يصيب العبد في الدنيا لا تنحصر أسبابه ، لأنه من فضل الله تعالى ورحمته وإحسانه ، وما يصيب العبد منه يحصل بعمله وبدون عمله .

---

(١) سورة الجاثية آية رقم (١٣) .
(٢) سورة لقمان آية رقم (٢٠) .
(٣) سورة المائدة آية رقم (٢٠) .
(٤) سورة الأعراف آية رقم (٤٣) .
(٥) سورة إبراهيم آية رقم (٣٤) .
(٦) سورة النحل آية رقم (١٨) .

ويقـول شيخ الإسلام رحمه الله: '' وأما ما يصيبه من الخير والنعم ، فإنه لا تنحصر أسبابه ؛ لأن ذلك من فضل الله وإحسانه ، يحصل بعمله وبغير عمله ''[١] .

ثانـياً : أن عمل العبد في الطاعة هو من جملة فضل الله تعالى عليه ورحمته وإحسانه ، فلولا فضل الله ما زكى أحد أبداً ، ولا اهتدى للخير أحد ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[٢] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الذي يعمل الحسنات إذا عملها فنفس عمله الحسنات هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان كما قال أهل الجنة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[٣] .

وفى الحديث الصحيح « **يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم** ، ثم **أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** »[٤] .

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة هو من نعمته ، ونفس إرسال الرسول إليهم وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به هو من نعمته .

وإلهامهم الإيمان وهدايتهم إليه وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم با الإيمان دون الكافرين هو من نعمته كما قـال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى

(١) الحسنة والسيئة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٣٩/١٤) .
(٢) سورة النور آية رقم (٢١) .
(٣) سورة الأعراف آية رقم (٤٣) .
(٤) رواه مسلم في البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (١٩٩٤/٤) ح(٢٥٧٧) عن أبي ذر ﷺ .

قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾[١] .

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيري الدنيا والآخرة هو نعمة محضة منه ، بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً ، ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء ''[٢].

ويقـول أيضـاً عن عمل العبد: '' وعمله نفسه من إنعام الله عليه ، وهو سبحانه لا يجزي بقدر العمل ، بل يضاعفه له ، ولا يقدر العبد على ضبط أسبابا ، لكن يعلم أ ا من فضل الله وإنعامه ، فيرجع فيها إلى الله ، فلا يرجو إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه ، ويعلم أن النعم كلها من الله ، وأن كل ما خلقه فهو نعمة كما تقدم فهو يستحق الشكر المطلق العام التام الذي لا يستحقه غيره ''[٣] .

ثالثاً : أن من أسباب النعم عمل العبد بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ، فالله تعالى يجازي علـى فعـل الطاعة بطاعة أخرى ، وتكون الطاعة الثانية التي فعلها العبد من جزاء الطاعة الأولى .

والأدلة على هذا كثيرة في الكتاب والسنة فمنها: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ

(١) سورة الحجرات آية رقم (٧-٨) .
(٢) الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦٠/١٤) .
(٣) المصدر السابق (٣٣٩/١٤) .
(٤) سورة النساء آية رقم (٦٦-٦٨) .

وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[(١)]، وقولـه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[(٣)]، وغيرها من الآيات .

ويقـول الرسـول ﷺ : « **عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهـدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصـدق ، ويتحرى الصـدق حتى يكتب عند الله صديقاً** »[(٤)] إلى غيره من الأحاديث [(٥)] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: " يجزى الرجل في الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر ، ولهذا قيل: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، وقد قال: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾ إلى قولـه: ﴿ مُّسۡتَقِيمٗا ﴾[(٦)] ، وقـال: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[(٧)] ، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم (٦٩) .
(٢) سورة الأحزاب آية رقم (٧٠-٧١) .
(٣) سورة المائدة آية رقم (١٦) .
(٤) رواه البخاري الأدب ، باب قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين وما ينهى عن الكذب (٢٢٦١/٥) ح(٥٧٤٣) ، ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٤/ ٢٠١٣) ح(٢٦٠٧) ، وأحمد (٣٨٤/١) ، وأبو داود في الأدب ، باب في التشديد في الكذب (٢٦٤/٥) ح(٤٩٨٩) والترمذي في البر والصلة ، باب ما جاء في الصدق والكذب (٣٠٦/٤) ح(١٩٧١) عن عبدالله بن مسعود ﷺ .
(٥) انظر فيما سبق من الأدلة : الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤٠/١٤-٢٤١) .
(٦) سورة النساء آية رقم (٦٦-٦٨) .
(٧) سورة المائدة آية رقم (١٥-١٦) .

بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورًا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾[(١)] ، وقال: ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا ﴾[(٢)]، فسروه بالنصر والنجاة كقوله: يوم الفرقان وقد قيل: نور يفرق به بين الحق والباطل ، ومثله قولـه:﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجًا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾[(٣)]، وعد المتقين بالمخارج من الضيق وبرزق المنافع ، ومن هذا الباب قوله:﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾[(٤)] وقوله: ﴿ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدًى ﴾[(٥)] ، ومنه قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾[(٦)] ''[(٧)] .

ويقـول أيضـاً: '' اعلم أن الله تعالى خلق فعل العبد سبباً مقتضيا لآثار محمودة أو مذمومة ، والعمل الصالح مثل صلاة أقبل عليها بقلبه ووجهه وأخلص فيها وراقب وفقه ما بنيت عليه من الكلمات الطيبات والأعمال الصالحات ، يعقبه في عاجل الأمر نور في قلبه ، وانشراح في صدره ، وطمأنينة في نفسه ، ومزيد في علمه ، وتثبيت في يقينه ، وقوة في عقله إلى غـير ذلـك من قوة بدنه وبهاء وجهه وانتهائه عن الفحشاء والمنكر ، وإلقاء المحبة له في قلوب الخلق ، ودفع البلاء عنه ، وغير ذلك مما يعلمه ولا نعلمه .

---

(١) سورة الحديد آية رقم (٢٨) .
(٢) سورة الأنفال آية رقم (٢٩) .
(٣) سورة الطلاق آية رقم (٢-٣) .
(٤) سورة محمد آية رقم (١٧) .
(٥) سورة الكهف آية رقم (١٣) .
(٦) سورة الفتح آية رقم (١-٣) .
(٧) شرح حديث إني حرمت الظلم على نفسي - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٨/١٧٦-١٧٧) .

ثم هـذه الآثار التي حصلت له من النور والعلم واليقين وغير ذلك أسباب مفضية إلى آثـار أخـر من جنسها ومن غير جنسها أرفع منها وهلم جرا ، ولهذا قيل: أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ''[١] .

٢- النوع الثاني : المصائب والعقوبات العاجلة :

مـن الجزاء الدنيوي المصائب ، وهي ما يصيب العبد في هذه الدنيا من الآلام والمحن والشدائد ، سواء كانت تلك لا صنع لآدمي فيها كالمرض وموت عزيز وتلف مال ونحوها ، أو كانت من جهة آدمي كالسب والضرب والسجن والظلم ونحوها ، فكلا النوعين يصدق عليه مسمى المصائب ، ويدخل في هذا الباب عقوبات الله الدنيوية لمن كذب رسله وعصاه وكذلك ما يصيب المؤمنين من المصائب والمحن .

وقد قرر شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الباب ما يلي:

أولاً: أن مـا يصـيب الكفـار من العقوبات الدنيوية المعجلة إنما هي بذنوبهم ، وبما كسبت أيديهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[٢]، وقـال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾[٣] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' و كذلك كل ما أخبر به من قصص الأنبياء ، فإنه علم أنه أهلك قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ولوط ومدين وغيرهم بذنوبهم ، وأنه نجى الأنبياء ومن اتبعهم بإيمانهم وتقواهم كما قال: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩٦/٨) .
(٢) سورة الرعد آية رقم (٣١) .
(٣) سورة المائدة آية رقم (٤٩) .

يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾[١] ، وقال: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ ﴾[٢] الآية، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ ﴾[٣]، وقال: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾[٤] ، وقال:﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[٥]، وقال:﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[٦] "[٧] .

ثانياً : أن ما يصيب المؤمنين في هذه الدنيا من المحن والبلايا والمصائب هو بسبب ذنوبهم ، وبما كسبت أيديهم ، وفيه رحمة لهم وعدل ، قال تعالى في المؤمنين ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٨] ، وقال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾[٩] .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (١٦٥) .
(٢) سورة العنكبوت آية رقم (٤٠) .
(٣) سورة الأنعام آية رقم (١٤٦) .
(٤) سورة غافر آية رقم (٢١) .
(٥) سورة الأنعام آية رقم (٦) .
(٦) سورة النمل آية رقم (٥٢-٥٣) .
(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٧٨/٨) .
(٨) سورة آل عمران آية رقم (١٦٥-١٦٦) .
(٩) سورة النساء آية رقم (٧٩) .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله: '' وهو سبحانه لا يعذب أحداً إلا بذنبه ، بمقتضى الحكمـة والعدل ، وفي تعذيبه أنواع الحكمة والرحمة ، وهذا ظاهر فيما يبتلى به المؤمنين في الدنيا من المصائب التي هي جزاء سيئا م ، فإن في ذلك من الحكمة والرحمة والعدل ما هو بـين لمـن تأمله ، ولا يعاقب أحداً إلا بذنبه قال تعالى ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[1] ''[2] .

ويقول أيضاً : '' السيئات التي تصيب الإنسان وهي مصائب الدنيا والآخرة ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه ، فانحصرت في نفسه ''[3]

ثالـثاً : أن المصائب التي تحل بالمؤمنين فيها تمحيص وتصفية وتخليص لنفوسهم مما قد يوجد فيها من الشر ، من جنس تصفية الذهب بالنار ، فإنه يتخلص من الخبث الذي يعلق به .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال ليس هو بسبب نفس إيما م وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ؛ ليتخلصوا مما فيهم من الشر وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ليتميز طيبه من خبيثه ، والنفوس فيها شر ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه ، قال تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ

(١) سورة الشورى آية رقم (٣٠) .
(٢) رسالة في معنى كون الرب عادلاً لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (١٣٤/١) .
(٣) الحسـنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٣٩/١٤) ، وانظر : المصدر السابق (٨/ ٢٢٤) .

ﵟٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَﵞ[1] ، وقال تعالى: ﵟوَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚﵞ[2] ''[3] .

رابعـاً: أن الإيمـان بـالله تعالى وطاعة الرسول ﷺ لا تكون مطلقاً سبباً لشيء من المصائب ، بل هي لا تقتضي إلا الخير في الدنيا والآخرة .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' والمقصود أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس سبباً لشيء من المصائب ، ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول ﷺ لا تقتضـي إلا جـزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة ، ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسـوله ﷺ مصائب بسبب ذنوبهم ، لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ﷺ ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم ، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ ''[4] .

خامسـاً : أن ما يصيب العبد المؤمن من المصائب في الدنيا علاوة على كونه بسبب ذنب العبد فإن للعبد فيه أجراً ومثوبة ، فإنه عندما يصبر على ما يصيبه من ذلك ، فإنه ينال بـذلك الثواب على الصبر ، مع ما تكفره تلك المصيبة عنه من الذنوب والمعاصي ، فتكون تلك المصائب باعتبار ما يعقبها من الصبر وتكفير الذنوب من نعم الله على عباده المؤمنين .

ويقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم ، وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها ''[5] .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (١٤٠-١٤١) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٥٤) .
(٣) الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٤/١٤-٢٥٥) .
(٤) المصدر السابق (٢٥٤/١٤) .
(٥) المصدر السابق (٢٥٥/١٤) .

ويقول أيضاً : '' وما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بينة ، وإن كان يسوؤه فهـو نعمـة من جهة أنه يكفر خطاياه ، ويثاب بالصبر عليه ، ومن جهة أن فيه حكمة ، ورحمـة لا يعلمها ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1] .

وقـد قـال في الحديث: « **والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكـان خيراً له** »[2] وإذا كان هذا وهذا ، فكلاهما من نعم الله عليه .

وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أمـا نعمـة الضراء فاحتياجها إلى الصبر ظاهر ، وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر علـى الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء ، كما قال بعض السلف: ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفى الحديث: « **أعوذ بك من فتنة الفقر ، وشر فتنة الغنى** »[3] .

والفقر يصلح عليه خلق كثير ، والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم ''[4] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢١٦) .

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق ، باب المؤمن أمره كله خير (٢٢٩٥/٤) ح(٢٩٩٩) ، وأحمد (٣٣٢/٤) عن صهيب الرومي ﷺ بنحو هذا اللفظ .

(٣) رواه البخاري في الدعوات باب التعوذ من المأثم والمغرم (٢٣٤١/٥-٢٣٤٢) ح(٦٠٠٧) واللفظ له مع تقديم وتأخير فيه ، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من الفتن وغيرها (٢٠٧٨/٤) ح(٥٨٩) ، وأحمد (٥٧/٦) والنسائي في الاستعاذة ، باب الاستعاذة من شر فتنة القبر (٢٣٠/٨-٢٣١) ، والترمذي في الدعوات باب٧٧ (٤٩٠/٥-٤٩١) ح(٣٤٩٥) ، وابن ماجة في الدعـاء ، باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ (١٢٦٢/٢) ح(٣٨٣٨) كلهم عن عائشة رضي الله عنها .

(٤) الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠٤/١٤-٣٠٥) .

النوع الثالث : الذنوب والمعاصي :

تعتبر الذنوب والمعاصي من عقوبات الله سبحانه وتعالى الدنيوية ، فهي عقوبات على ذنـوب سابقة لها ، فالله تعالى يجازي على السيئة بمثلها ، فعقوبة السيئة الأولى سيئة ثانية ، والسيئة الثانية لها عقوبة سيئة ثالثة ، وهكذا .

وقد دل على هذا الأمر نصوص الكتاب والسنة ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1] ، **وقوله تعالى:** ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾[2] ، **وقوله تعـالى:** ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[3] ، إلى غيرها من الآيات .

ويقـول الرسول ﷺ : « **وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً** »[4][5].

---

(١) سورة الروم آية رقم (١٠) .

(٢) سورة التوبة آية رقم (٧٥-٧٧) .

(٣) سورة الأنعام آية رقم (١٠٩-١١٠) .

(٤) سبق تخريجه (ص ٢٣٥) .

(٥) انظر فيما سبق من الأدلة : الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/٢٤٠-٢٤٤) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة ، كمـا قال الله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾[(١)] ، وقالوا: ﴿ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ ﴾[(٢)]، وقال: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ ﴾[(٣)] ، وقـال: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ إلى قـولـه: ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ إلى قـولـه: ﴿ يَعۡمَهُونَ ﴾[(٤)] وهـذا باب واسع ، ولهذا قال من قال من السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها ''[(٥)] .

ويقـول أيضـاً :'' وكذلك العمل السيئ مثل الكذب مثلاً يعاقب صاحبه في الحال بظلمـة في القلـب وقسـوة ، وضيق في صدره ، ونفاق واضطراب ، ونسيان ما تعلمه ، وانسداد باب علم كان يطلبه ، ونقص في يقينه وعقله ، واسوداد وجهه ، وبغضه في قلوب الخلق ، واجترائه على ذنب آخر من جنسه ، أو غير جنسه ، وهلم جرا إلا أن يتداركه الله بـرحمته ، فهذه الآثار هي التي تورثها الأعمال ، هي الثواب والعقاب وإفضاء العمل إليها واقتضـاؤه إياهـا ، كإفضاء جميع الأسـباب التي جعلها الله سـبحانه وتعالى أسباباً إلى مسببا ا ''[(٦)] .

فـإن قـيل: إذا كانت المعصية الثانية سببها المعصية الأولى ، فمـا هو سبب المعصية الأولى ؟

(١) سورة الصف آية رقم (٥) .
(٢) سورة النساء آية رقم (١٥٥) .
(٣) سورة المائدة آية رقم (١٣) .
(٤) سورة الأنعام آية رقم (١٠٩-١١٠) .
(٥) شرح حديث إني حرمت الظلم على نفسي لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧٧/١٨) .
(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩٦/٨-٣٩٧) .

فالجواب أن يقال: المعصية الأولى وقعت عقوبة على عدم فعل الحسنات التي خلق الله عـباده لهـا ، وأمـرهم بها ، فهو سبحانه قد فطرهم على توحيده والإقرار لـه بالألوهية والتعظـيم والمحبة ، وجعل فيهم أسباب العلم والمعرفة ، وأرسل إليهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنزل عليهم الكتب ، فلما لم يعملوا ما خلقهم الله له ، وكان من طبيعة النفس البشرية الإرادة والعمل ، ولم تفعل ما طلب منها من الحسنات ، ولا بد لها من عمل ومراد وحصل لها من يزين الشر والفساد ، فحينئذٍ عوقبت بعمل المعاصي والسيئات .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية - و إن كانـت خلقاً لله - فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له وفطره عليه ، فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له ، ودله على الفطرة كما قال النبي ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة** »[1]، و قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

فهـو لمـا لم يفعـل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به من معرفة الله وحده ، وعـبادتـه وحـده عـوقب على ذلك ، بـأن زين له الشـيطان ما يفعله من الشرك ، والمعاصي ''[3] .

---

(١) رواه البخاري في الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين (٤٦٥/١) ح(١٣١٩) واللفظ له ، ومسلم في القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٠٤٧/٤) ح(٢٦٥٨) ، ومالك في الموطأ (٢٤١/١) ح(٥٧١) ، وأحمد (٢٣٣/٢) ، وأبو داود في السنة ، باب في ذراري المشركين (٨٦/٥) ح(٤٧١٤) ، والترمذي في القدر باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة (٣٨٩/٤) ح(٢١٣٨) كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) سورة الروم آية رقم (٣٠) .

(٣) الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٣١/١٤-٣٣٢) .

ويقـول أيضـاً : '' الله خالق أفعال العباد ، فخلقه للطاعات نعمة ورحمة ، وخلقه للسيئات له فيه حكمة ورحمة ، و هو مع هذا عدل منه ، فما ظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهـم لأنفسهم نوعان: عدم عملهم بالحسنات ، فهذا ليس مضافا إليه ، وعملهم للسـيئات خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التي خلقهم لها وأمرهم بها ، فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ''[(١)] .

وإذا تـبين للعـبد أن الذنوب والمعاصي من نفس الإنسان بذنوبه ، فعليه أن يستغفر ويتوب ويستعيذ بالله تعالى من شر نفسه ، وسيئات عمله ، ويدعو بذلك في الصباح والمساء فقـد كان النبي ﷺ يقول في خطبته : « **إن الحمد لله ، نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا** »[(٢)] .

وأمـر الـنبي ﷺ أفضل الأمة أبا بكر[(٣)] رضي الله عنه أن يقول : « **اللهم فاطر السموات والأرض ، عـالم الغيب والشهادة ، لا إله إلا أنت ، رب كل شيء ومليكه ، أعوذ بك**

(١) المصدر السابق (٣٣٤/١٤) .

(٢) رواه أحمد (٣٩٢/١) ، وأبو داود في النكاح ، باب في خطبة النكاح (٥٩١/٢) ح(٢١١٨) ، والنسائي في الجمعة ، باب كيفية الخطبة (٨٥/٣) ، والترمذي في النكاح ، باب ما جاء في خطبة النكاح (٤١٣/٣) ح(١١٠٥) واللفظ له ، وابن ماجة في النكاح ، باب خطبة النكاح (٦٠٩/١) ح(١٨٩٢) ، والدارمي في النكاح ، باب في خطبة النكاح (٦٦/٢) ح(٢٢٠٨) كلهم من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه . وقال الترمذي: حديث حسن ، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٢١/١) : صحيح .

(٣) عبد الله بن عثمان التيمي أبو بكر الصديق ، صاحب رسول الله ﷺ وخليفته من بعده ، أفضل الأمة بعد النبيين ، توفي سنة ١٣ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٢٣٥/٢) ، الإصابة لابن حجر (٣٣٣/٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٣١٣) .

من شر نفسي ، ومن شر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره إلى مسلم))[(١)][(٢)] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فإذا تدبر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضـل الله فشكر الله ، فزاده الله من فضله عملاً صالحاً ونعماً يفيضها عليه ، وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه ، استغفر وتاب ، فزال عنه سبب الشر ، فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً ، فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه ''[(٣)] .

---

(١) رواه أحمد (١٩٦/٢) بلفظه ، والترمذي في الدعوات (٥٠٦/٥) ح(٣٥٢٩) كلاهما من حديث عبدالله بن عمرو ابن العاص ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب من هذ الوجه ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٧/١) : رواه أحمد بإسناد حسن ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢/١٠) : إسناده حسن .

ورواه أحمد (٩/١ ، ١٠ ، ٢٩٧/٢-٢٩٨) ، وأبو داود في الأدب ،باب ما يقول إذا أصبح (٣١٠/٥-٣١١) ح(٥٠٦٧) ، والترمذي في الدعوات ، باب ١٥ (٤٣٦/٥) ح(٣٣٩٢) ، والنسائي في الكبرى في النعوت (٤٠١/٤) ح(٧٦٩١) ، كلهم بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه أحمد (١٤/١) عن أبي بكر ﷺ بإسناد ضعيف ؛ لأنه منقطع كما قال الحافظ ابن حجر في إطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي (٩١/٦) .

(٢) انظر : الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦٣/١٤) .

(٣) الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦١/١٤-٢٦٢)

المطلب الثاني : الجزاء الأخروي على الأعمال .

الجـزاء الأخروي ما يلقاه الإنسان في الدار الآخرة من الثواب أو العقاب ، والكلام على سببية العمل للجزاء الأخروي لابد أن يسبقه مقدمة حول خبر الله تعالى عن هذا الجزاء وما فيه من أحكام ، وهو ما يسمى عند العلماء بنصوص الوعد والوعيد ، وتتعزز أهمية هذه المقدمة بوجود السببية فيها ، فهي جزء مهم لا يمكن إهماله في مسألة الوعد والوعيد ، وعلى هذا فهذه المسألة تشتمل على فرعين :

أحدهما : الوعد والوعيد .

الآخر : الجزاء الأخروي .

الفرع الأول : الوعد والوعيد :

الـوعد هو العهد ، ويكون في الخير ، وقيل: في الخير والشر ، والوعيد هو التهدد ، ويكون في الشر[(١)].

وحقـيقة الوعد بيان أن هذا العمل سبب في هذا الثواب ، ''وحقيقة الوعيد بيان أن هذا العمل سبب في هذا العذاب''[(٢)].

وهذه القضية ترتبط بقضية الجزاء على الأعمال ، لأن نصوص الوعد والوعيد سبب لما علق عليها من الجزاء ثواباً وعقاباً ، وهذه السببية لها أحكام ، منها ما تقدم ذكره من أحكام السببية العامة ، ومنها ما سـوف أطرقه في هذا الفرع .

وقـد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن نصوص الوعد والوعيد في مواضع كثيرة من مؤلفاته ، وقرر فيما ما يلي :

أولاً : أن وعد الله لا يخلف كما قال تعالى ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[(٣)] ، وقـال تعـالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٤)] ، وقـال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[(٥)] .

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور (٤٦٣/٣) .
(٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٥/٢٠) .
(٣) سورة إبراهيم آية رقم (٤٧) .
(٤) سورة الروم آية رقم (٦) .
(٥) سورة آل عمران آية رقم (١٩٤) .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فإخلاف ميعاده تبديل لكلماته ، وهو سبحانه لا مبدل لكلماته ''(١) .

ثانـياً : أن وعيد الله تعالى كميعاده لا يخلف ، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾(٢) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فأخبر سبحانه أنه قدم إليهم بالوعيد ، وقال: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ ﴾ ، وهذا يقتضي أنه صادق في وعيده أيضاً ، وأن وعيده لا يبدل ...

[و](٣) هذه الآية تضعف جواب من يقول: إن إخلاف الوعيد جائز ، فإن قوله: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ ﴾ بعد قولـه: ﴿ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴾ دليل على أن وعيده لا يبدل ، كما لا يبدل وعده ''(٤) .

وقد اشتهر عند بعض الناس جواز إخلاف الله تعالى للوعيد(٥) ، وهذا القول نقل عن طوائـف مـن المتقدمين والمتأخرين ، وقد ذكره شيخ الإسلام رحمه الله ونقده مرة بصورة مباشرة كما تقدم أعلاه ، ومرة ذكره ورجح غيره .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/٤٩٧-٤٩٨) .

(٢) سورة ق آية رقم (٢٨-٢٩) .

(٣) ما بين المعكوفتين إضافة إلى النص يحتاج إليها الكلام المنقول .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/٤٩٨) .

(٥) انظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها لعواد بن عبدالله المعتق (ص ٢٣٣-٢٣٤) ، فقد ذكر أن هذا القول قول أهل السنة ، وممن استند إليهم في هذا القول ابن القيم رحمه الله ، وعبد الغني النابلسي ، وأما بقية من نقل عنهم فلم يصرحوا بذا القول ، أما ابن القيم فقد نقل المؤلف عن مدارج السالكين - في طبعة التي لدي (٤٢٧/١-٤٢٨) - والغريب أن ابن القيم ذكر هذا القول ، ولم يرجحه ، بل مال إلى قول شيخ الإسلام وهو عدم إخلاف الوعيد ، وهو قول الفرقة السابعة بحسب تعداد ابن القيم ، وصوب هذا القول بطريق صريح في الصواعق المرسلة (٢/٦٩١) ، وفي طريق الهجرتين (ص ١٨٣) ، ونسبه للجمهور في حادي الأرواح (ص ١٤١) ، وفي نفس حادي =

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وقال قوم آخرون: بل إخلاف الوعيد ليس بكذب وإن العرب لا تعد عاراً أو شناراً أن يوعد الرجل شراً ثم لا ينجزه ، كما تعد عاراً أو شناراً أن يعد خيراً ثم لا ينجزه ، وهذا قول طوائف من المتقدمين والمتأخرين ، وقد احتجوا بقول كعب بن زهير[١] يخاطب النبي ﷺ :

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول[٢]

قالوا: فهذا وعيد خاص وقد رجا فيه العفو ، مخاطباً للنبي ﷺ ، فعلم أن العفو عن المتوعد جائز ، وإن لم يكن من باب تخصيص العام .

والتحقيق أن يقال الكتاب والسنة مشتمل على نصوص الوعد والوعيد ، كما ذلك مشتمل على نصوص الأمر والنهي ، وكل من النصوص يفسر الآخر ويبينه ، فكما أن نصوص الوعد على الأعمال الصالحة مشروطة بعدم الكفر المحبط ؛ لأن القرآن قد دل على أن من ارتد فقد حبط عمله ، فكذلك نصوص الوعيد للكفار والفساق مشروطة بعدم التوبة "[٣] .

=الأرواح (ص ٢٧٧) ذكر القول بجواز إخلاف الوعيد عن أهل السنة ، لكنه ذكره نقلاً في سياق تعداد حجج القائلين بفناء النار ولم يجزم به .

أما عبدالغني النابلسي فصوفي محترق على طريقة ابن عربي ، وكتبه طافحة بذلك ، انظر على سبيل المثال: المعارف الغيبية في شرح العينية الجيلية (ص ١٤٧) ، وأسرار الشريعة (ص٧١ ، ٨٢) ، حقائق الإسلام وأسراره (ص٢٥ ، ١٢٤) تجد العجب العجاب .

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى ، صحابي شاعر ، كان قد هجا النبي ﷺ فأهدر دمه ، ثم ندم وأسلم وقدم على النبي ﷺ بعد انصرافه من الطائف وأنشده قصيدته المشهورة : (بانت سعاد) توفي سنة ٢٦ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٢٨٠/٣) ، الإصابة لابن حجر (٢٧٩/٣) ، الأعلام للزركلي (٢٢٦/٥) .

(٢) ديوان كعب بن زهير (ص٨٩) .

(٣) الكيلانية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٨٢/١٢-٤٨٣) .

ثالثاً : أن الوعد والوعيد كلاهما من الأسباب ، والأسباب قد يتخلف مقتضاها لفقد شـرط أو وجود مانع ، ولكي يتحقق الوعد والوعيد فلا بد من وجود الشـروط وزوال الموانع .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : ''حقيقة الوعيد بيان أن هذا العمل سبب في هذا العـذاب ، فيسـتفاد من ذلك تحريم الفعل وقبحه ، أما أن كل شخص قام به ذلك السبب يجـب وقـوع ذلك المسبب به ، فهذا باطل قطعاً لتوقف ذلك المسبب على وجود الشرط وزوال جميع الموانع ''[1] .

فإن قيل: فما هي شروط الوعد والوعيد وموانعهما ؟

فالجواب أن يقال: يشترط للوعد أمران :

أحدهما: الإخلاص في العمل لله تعالى ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .

الآخر : المتابعة والموافقة للرسول ﷺ في ذلك العمل ، فإن العمل إذا لم يكن على سنة الرسول ﷺ لم يقبل .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' وتناول نصوص الوعد للشخص مشروط بأن يكون عمله خالصاً لوجه الله موافقاً للسنة ، فإن النبي ﷺ قيل لـه: الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠/٢٥٥) .

حمـية ، ويقاتـل ليقال ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال: « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو** في **سبيل الله** »[(١)]،[(٢)].

ويمنع تحقق الوعد مانعان أيضاً :

أحدهما : الكفر والردة ، فمن كفر أو ارتد ، فقط بطل عمله وحبط ؛ لأن الكفر والردة يحبطان جميع الحسنات ، وهذا المانع يحرم دخول الجنة مطلقاً ، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[(٣)] .

الآخـر: الفسق ، فمن ارتكب فسقاً ، فإنه يكون غير مستحق للوعد بدخول الجنة، وهذا المانع إنما يمنع الدخول المطلق للجنة ، وهو الدخول بلا عذاب ، ومن أمثلته من كثرت ذنوبه وظلمه ، فيؤخذ من حسناته حتى تذهب ، ثم توضع عليه من سيئات من ظلمهم ، ثم يطرح في النار ، وأيضاً من يعقب عمله ما يبطله كالمن والأذى ، كما قال تعالى في الصدقة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾[(٤)] .

---

(١) رواه البخاري في التوحيد ، باب ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ (٢٧١٤/٦) ح(٧٠٢٠) ، ومسلم في الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٥١٣/٣) ح(١٩٠٤) ، وأحمد (٤٠١/٤) ، وأبو داود في الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٣١/٣) ح(٢٥١٧) ، والترمذي في فضائل الجهاد باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا (١٥٣/٤-١٥٤) ح(١٦٤٦) ، والنسائي في الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٢٠/٦) ، وابن ماجة في الجهاد ، باب النية في القتال (٩٣١/٢) ح(٢٧٨٣) كلهم بنحوه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) مكان رأس الحسين - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٧٤/٢٧) .

(٣) سورة المائدة آية رقم (٧٢) .

(٤) سورة البقرة آية رقم (٢٦٤) .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله: '' قد يتخلف المقتضي عن المقتضى لمانع لا يقدح في اقتضائه ، كسائر أحاديث الوعد ، فإنه لما قال: ((**من صلى البردين دخل الجنة**))[(١)] من فعل كـذا دخـل الجنة ، دل على أن ذلك العمل سبب لدخول الجنة ، وإن تخلف عنه مقتضاه لكفر أو فسق ، فمن ترك صلاة الظهر أو زنا أو سرق ونحو ذلك كان فاسقاً ، والفاسق غير مستحق للوعد بدخول الجنة كالكافر''[(٢)] .

ويقـول أيضاً : '' وكذلك نصوص الوعد مشروطة بعدم الأسباب المانعة من دخول الجنة ، وأعظمها : أن يموت كافراً .

ومـنها : أن تكثر ذنوبه وظلمه فيؤخذ من حسناته حتى تذهب ، ثم توضع عليه من سيئات من ظلمهم .

ومنها أن يعقب العمل ما يبطله كالمن والأذى ، وترك صلاة العصر ، قيل: تحبط عمل ذلـك اليوم ، وقيل: العمل كله ، وكما قال ﷺ : ((**من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**))[(٣)].

فانتفـى هـذا الدخول المطلق ، وهو دخول الجنة بلا عذاب ، فمن أتى بالكبائر لم يستحق هذا الدخول المطلق الذي لا عذاب قبله ''[(٤)] .

---

(١) رواه البخاري في مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة الفجر (٢١٠/١) ح(٥٤٨) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٤٤٠/١) ح(٦٣٥) ، وأحمد (٨٠/٤) كلهم بلفظه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٢٧/٦) .

(٣) رواه البخاري في الصوم ، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم (٦٧٣/٢) ح(١٨٠٤) ، وأحمد (٢/ ٤٥٢) ، والترمذي في الصوم ، باب ما جاء في التشديد في الغيبة للصائم (٨٧/٣) ح(٧٠٧) ، وابن ماجة في الصيام باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم (٥٣٩/١) ح(١٦٨٩) ، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه .

(٤) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية للبعلي (ص ٢٥٢) ، وانظر : الكيلانية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٨٣/١٢) .

ويشـترط لتحقق الوعيد عدم العذر الشرعي عند ارتكاب الفعل المحرم ، ولهذا العذر صور كثيرة منها : عدم العلم بالتحريم ، أو التمكن من هذا العلم .

وأيضـاً الاجتهاد الشرعي أو التأويل أو التقليد المباح ونحو هذه الأمور ، فهذه أعذار شرعية لكي يتحقق الوعيد لا بد من عدمها .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " الدخول تحت الوعيد مشروط بعدم العذر في الفعل وأما المعذور عذراً شرعياً فلا يتناوله الوعيد بحال ، وا تهد معذور بل مأجور ، فينتفي شرط الدخول في حقه فلا يكون داخلاً "[1] .

ويقول أيضاً : " لحوق الوعيد لمن فعل المحرم مشروط بعلمه بالتحريم ، أو بتمكنه من العلـم بالتحريم ، فإن من نشأ ببادية أو كان حديث عهد بالإسلام وفعل شيئا من المحرمات غـير عالم بتحريمها لم يأثم ، ولم يحد ، وإن لم يستند في استحلاله إلى دليل شرعي ، فمن لم يـبلغه الحديث المُحرم واستند في الإباحة إلى دليل شرعي أولى أن يكون معذوراً ، ولهـذا كـان هذا مأجوراً محموداً لأجـل اجتهاده ، قال الله سبحانه: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَـٰنَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعِلۡمًا ﴾[2] ، فاختص سليمان بالفهم ، وأثنى عليهما بالحكم والعلم .

وفى الصحيحين عن عمرو بن العاص[3] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « **إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر** »[4] فتبين أن ا تهد مع خطئه له

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠/٢٨٢-٢٨٣) .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم (٧٨-٧٩) .

(٣) عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي أبو عبدالله ، صحابي مشهور ، أسلم عام الحديبية ، فتح مصر وولي إمر ا مرتين ، مات با سنة ٤٣ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٢/٥٠١) ، الإصابة لابن حجر (٣/٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٤٢٣) .

(٤) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٦/٢٦٧٦) ح(٦٩١٩) ، ومسلم في الأقضية ، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٣/١٣٤٢) ح(١٧١٦) ، =

أجـر ، وذلـك لأجـل اجتهاده ، وخطؤه مغفور له ؛ لأن درك الصواب في جميع أعيان الأحكام إما متعذر أو متعسر''[١] .

ويقـول أيضاً : '' نصوص الوعيد للشخص مشروط بأن لا يكون متأولاً ولا مجتهدا مخطئاً ، فإن الله عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان ''[٢][٣] .

وموانـع لحـوق الوعيد أحد عشر مانعاً ، عد شيخ الإسلام رحمه الله عشرة منها في منهاج السنة بالتفصيل والأدلة ، وهذا موجز ما ذكره :

١- التوبة ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وهي تمحو جميع السيئات ، وليس شيء يغفر جميع الذنوب إلا التوبة .

قـال تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٤]، وهـذه في التائب .

٢- الاسـتغفار ، وهـو طلب المغفرة ، ولا يستلزمها ، بل هو سبب من الأسباب ، وهو من جنس الدعاء والسؤال .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: « **أذنب عبد ذنباً ، فقـال: اللهم اغفر** لي ذنبي ، **فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الـذنب ويأخـذ بالذنب ،** ثم **عاد فأذنب ، فقال: أي رب اغفر** لي ذنبي ، **فقال تبارك**

=والنسائي في آداب القضاة ، باب الإصابة في الحكم (١٩٧/٨) ، وابن ماجة في الأحكام ، باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق (٧٧٦/٢) ح(٢٣١٤) كلهم بنحوه .

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٢/٢٠) .

(٢) مكان رأس الحسين - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٧٤/٢٧) .

(٣) انظر في التقليد: رفع الملام عن الأئمة الأعلام - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٠/٢٠) .

(٤) سورة الزمر آية رقم (٥٣) .

وتعـالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت ، فقد غفرت لك »[١].

٣- الأعمـال الصالحة ، فالأعمال الصالحة مما يمحو الله تعالى با الخطايا ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[٢] .

٤- الدعاء للمؤمنين ، فإن صلاة المؤمنين على الميت ، ودعاءهم له من أسباب المغفرة وكذلك دعاؤهم واستغفارهم في غير صلاة الجنازة .

٥- دعاء النبي ﷺ واستغفاره في حياته ، وبعد مماته كشفاعته يوم القيامة .

٦- ما يفعل بعد الموت من عمل صالح يهدى للميت مثل الصدقة والحج ونحوها .

٧- المصائب الدنيوية التي يكفر الله با الخطايا ، كما في الحديث « **ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله ا من خطاياه** »[٣] .

٨- ما يبتلى به المؤمن في قبره من الضغطة ، وفتنة الملكين .

---

(١) رواه البخـاري في التوحيـد ، باب قول الله تعـالى:﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ (٢٧٢٥/٦) ح(٧٠٦٨) ومسلم في التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب ، وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢١١٢/٤) ح(٢٧٥٨) واللفظ له ، وأحمد (٢٩٦/٢) .

(٢) سورة هود آية رقم (١١٤) .

(٣) رواه البخاري في المرضى ، باب ما جاء في كفارة المرض (٢١٣٧/٥) ح(٥٣١٨) واللفظ له ، ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (١٩٩٢/٤) ح(٢٥٧٣) ، وأحمد (٣٠٣/٢) ، والترمذي في الجنائز باب ما جاء في ثواب المريض (٢٩٨/٣) ح(٩٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما .

٩- ما يحصل للعبد في الآخرة من كرب وأهوال يوم القيامة .

١٠- اقتصـاص المؤمنين يوم القيـامة بعضهم من بعض ، فقد جـاء في الحديث « **يخلـص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعـض ، مظـالم كانت بينهم** في **الدنيـا** ، حتى **إذا هذبوا ونقوا أذن** لهم في **دخـــول الجنة** »[١][٢].

١١- رحمـة الله تعالى بعباده ، كما في قوله ﷺ « **إن لله مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم الخلق بينهم ، وتسعة وتسعون ليوم القيامة** »[٣] ، وفي الحديث الآخر: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها** »[٤][٥].

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والذي عليه أهل السنة و الجماعة الإيمان بالوعد والوعـيد ، فكمـا أن ما توعد الله به العبد من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط بأن لا يـتوب ، فإن تاب ، تاب الله عليه ، وبأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه ، فإن الحسنات يـذهبن السيئات ، وبأن لا يشاء الله أن يغفر له ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلـك لمـن يشاء ، فهكذا الوعد لـه تفسير وبيان ، فمن قال: بلسانه لا إله إلا الله وكذب الرسول ، فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك إن جحد شيئا مما أنزل الله .

فلابد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ، ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله إن شـاء عذبه وإن شاء غفر له ، فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتداً كان في النار ، فالسيئات

(١) رواه البخاري في الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة (٢٣٩٤/٥) ح(٦١٧٠) واللفظ له ، وأحمد (١٣/٣) ، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

(٢) انظر فيما سبق : منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٠٦/٦-٢٣٨) .

(٣) رواه مسلم في التوبة باب سعة رحمة الله وأ ا سبقت غضبه (٢١٠٨/٤) ح(٢٧٥٣) عن سلمان الفارسي ﷺ .

(٤) رواه البخاري في الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٢٢٣٥/٥) ح(٥٦٥٣) ، ومسلم في التوبة ، باب سعة رحمة الله وأ ا سبقت غضبه (٢١٠٩/٤) ح(٢٧٥٤) واللفظ لهما من حديث عمر بن الخطاب ﷺ .

(٥) انظر: رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٥/٢٠) .

تحبطها التوبة والحسنات تحبطها الردة ، ومن كان له حسنات وسيئات فإن الله لا يظلمه ، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، والله تعالى قد يتفضل عليه ويحسن إليه بمغفرته ورحمته .

ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد في النار ، فالزاني والسارق لا يخلد في النار ، بل لا بد أن يدخل الجنة ، فإن النار يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ''[١] .

ويقول أيضاً : '' وموانع لحوق الوعيد متعددة منها: التوبة ، ومنها الاستغفار ، ومنها الحسنات الماحية للسيئات ، ومنها بلاء الدنيا ومصائبها ، ومنها شفاعة شفيع مطاع ، ومنها رحمة أرحم الراحمين ، فإذا عدمت هذه الأسباب كلها ، ولن تعدم إلا في حق من عتا وتمرد وشرد على الله شراد البعير على أهله فهنالك يلحق الوعيد به ''[٢] .

الفرع الثاني : الجزاء الأخروي :

لا ريب أن النصوص الشرعية قد دلت على سببية العمل للجزاء الأخروي ، سواء كان ثواباً أو عقاباً ، وهذا ظاهر بصورة جلية في آيات كثيرة من القرآن العظيم .

ومن نصوص الثواب قوله تعالى: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[٣] ، وقوله تعالى: ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴾[٤] ، وقوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٧٠/٨-٢٧١) . وللاستزادة انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٨٤/٤ ، ١٠/ ٣٧٢ ، ٣٧٥/٢٤) ، شرح دعوة ذي النون - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٣٠/١٠) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣٢٥/٤ ، ٥٧١ ، ١٢٦/٥) .
(٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٤/٢٠-٢٥٥) .
(٣) سورة الأعراف آية رقم (٤٣) .
(٤) سورة الحاقة آية رقم (٢٤) .

ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[١] ، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[٢] ، وغيرها من الآيات .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' لا ريب أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة ، والله قدر لعبده المؤمن وجوب الجنة بما ييسره له من العمل الصالح ''[٣] .

وهذه السببية ينطبق عليها ما تقرر في الأسباب من عدم استقلاليتها ، فلابد لتحققها وجود الشروط وارتفاع الموانع .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله: '' فالأسباب التي من العباد بل ومن غيرهم ليست موجبات ، لا لأمر الدنيا ، ولا لأمر الآخرة ، بل قد يكون لا بد منها ومن أمور أخرى من فضل الله ورحمته خارجة عن قدرة العبد ، وما ثم موجب إلا مشيئة الله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ''[٤] .

ومن النصوص الواردة في سببية العمل للعقاب ، قوله تعال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾[٥] ، وقولـه تعالى: ﴿ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴾[٦] ، وقوله جل وعلا : ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ

---

(١) سورة السجدة آية رقم (١٩) .
(٢) سورة السجدة آية رقم (١٧) .
(٣) رسالة في دخول الجنة لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (١٤٦/١) .
(٤) الاستقامة لابن تيمية (١٧٦/١) .
(٥) سورة فصلت آية رقم (٢٨) .
(٦) سورة الإسراء آية رقم (٩٧-٩٨)

أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[١] ، وغيرها من الآيات .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' و أما النار فلا تدخل إلا بعمل ، ولن يدخلها إلا أهل الدنيا ''[٢] .

وتفترق سببية دخول الجنة ، عن سببية دخول النار في أن الجنة تدخل بعمل وبلا عمل لأناس معينين ، فإن الله تعالى يخلق خلقاً يوم القيامة يدخلهم فضول الجنة برحمته ، أما النار فلا تدخل إلا بعمل ، إضافة إلى أن الجنة يدخلها أهل الدنيا وغيرهم ، بينما النار لا يدخلها إلا أهل الدنيا .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتداء بلا سبب مـنهم أصـلا ، فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط ، وينشئ للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة ، وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيراً ، ويدخل أطفـال المؤمنين ومجانينهم الجنـة برحمتـه بلا عمل ، وأمـا العقاب فلا يعاقب أحداً إلا بعمله ''[٣] .

ويقـول أيضـاً : '' فالعمل الصالح في الدنيا سبب للدخول والدرجة ، وإن كان الله يـدخل الجـنة بدون هذا السبب ، كما يدخل الأبناء تبعا لآبائهم ، وليس كل ما يحصل بسـبب ، لا يحصل بدونه كالموت الذي يكون بالقتل ، ويكون بدون القتل ، ومن فهم أن

---

(١) سور الأحقاف آية رقم (٢٠) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٠١/٨) .

(٣) الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦٠/١٤) .

السـبب لا يـوجب المسبب بل لا بد أن يضم الله إليه أموراً أخرى ، وأن يدفع عنه آفات كثيرة ، وأنه قد يخلق المسبب بدون السبب ، انفتح له حقيقة الأمر من هذا وغيره ''[١] .

ولا ينبغـي أن يفهم من هذا الأمر إهمال العمل ، أو التقليل من أهميته ، فهو سبب لا بـد للعبد من الإتيان به لكي يدخل الجنة ؛ لأنه من مقتضى علم الله تعالى وتقديره دخول الجـنة بالعمـل ، وقد سئل النبي ﷺ عن ترك العمل والاتكال على القدر ، فنهى عن ذلك وقال: « **اعملوا فكل ميسر لما خلق له** »[٢].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' فمن ظن أنه يدخل الجنة بلا إيمان ، كان ظنه باطلاً وإذا اعتقد أن الأعمال التي أمر الله بها لا يحتاج إليها ، ولا فرق بين أن يعملها أو لا يعملها كان كافراً ، والله قد حرم الجنة على الكافرين ، فهذا الاعتقاد يناقض الإيمان الذي لا يدخل صاحبه النار''[٣] .

وهـناك قضـية هامة أود أن ذكرها قبل الانتهاء من هذه المسألة ، وهي ما ورد في الحـديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن ينجو أحد منكم بعمله** » ، قالوا: يا رسول الله ، ولا أنـت ؟ قـال: « **ولا أنـا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل** »[٤] فقد ظن بعض الناس مناقضته لما تقدم من الآيات التي تدل على أن دخول الجنة بسبب الأعمال .

وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا الحديث ، وفصل الكلام فيه ، وقرر أنه لا تـناقض بين الحديث الشريف والآيات القرآنية ؛ لأن مورد الإثبات في الآيات يختلف عن

(١) رسالة في دخول الجنة لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (١٥٢/١)

(٢) سبق تخريجه (ص ١٢٥) .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦٦/٨) .

(٤) رواه البخاري في المرضى باب ي تمني المريض الموت (٢١٤٧/٥) ح(٥٣٤٩) ، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله (٢١٧٠/٤) ح(٢٨١٨) واللفظ له ، وأحمد (٢٦٤/٢) كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

مـورد النفـي في الحـديث فمورد الإثبات في الآيات السببية ، ومورد النفي في الحديث المعاوضـة والمقابلة ، فالباء الواردة في الحديث في قوله: « بعمله » ليست باء السببية الواردة في نصوص القرآن بل هذه باء المقابلة والمعاوضة كالتي تكون بين الناس ، فالأجير يعمل لمن استأجره ، فيعطيه أجره بقدر عمله ، فإن زاد عمله ، زاد أجره ، وإن نقص العمل ، نقص الأجر ، فنفى الرسول ﷺ أن يكون جزاء الله تعالى وثوابه على سبيل المقابلة والمعاوضة .

وقد علل شيخ الإسلام هذا التفسير بأمور منها :

١- عـدم احتياج الله تعالى إلى عباده ، فالله تعالى هو الغني المطلق من جميع الوجوه بخلاف العباد فإ م محتاجون لبعضهم بعضاً .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " الله تعالى ليس محتاجاً إلى عمل العباد ، كما يحتاج المخلـوق إلى عمل من يستأجره ، بل هو سبحانه كما قـال في الحديث الصحيح: « **إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضري فتضروني** »(١) والعباد إنما يعملون لأنفسهم ، كما قال تعالى:﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾(٢) وقـال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾(٣) ، وقـــال: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾(٤) "(٥) .

٢- أن الله تعالى هو الذي من على العامل بالعمل ، فقد خلقه وأحياه ورزقه ، وأرسل له الرسل ، وأنزل إليه الكتب ، وهداه إلى العمل ، وحببه إليه ، وكره إليه ضده .

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٣٣) .
(٢) سورة البقرة آية رقم (٢٨٦) .
(٣) سورة فصلت آية رقم (٤٦) .
(٤) سورة الزمر آية رقم (٧) .
(٥) رسالة في دخول الجنة لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (١٤٨/١) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' الله هو الذي من على العامل بأن خلقه أولا وأحياه ورزقـه ، ثم بأن أرسل إليه الرسل ، وأنزل إليه الكتب ، ثم بأن يسر له العمل ، وحبب إليه الإيمان ، وزينه في قلبه ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، والمخلوق إذا عمل لغيره لم يكن المستعمل هو الخالق لعمل أجيره ، فكيف يتصور أن يكون للعبد على الله عوض وهو خلقه وأحدثه ، وأنعم على العبد به ، وهل تكون إحدى نعمتيه عوضاً عن نعمته الأخرى ، وهو ينعم بكلتيهما ''(١) .

٣- أن أقل أجزاء الثواب بالجنة لا يمكن أن يكون ثمنه هو عمل العبد ، بل هو يتطلب من العبد أضعاف أضعاف ذلك العمل .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' عمل العبد لو بلغ ما بلغ ، ليس هو مما يكون ثواب الله مقابلاً له ، ومعادلاً حتى يكون عوضاً ، بل أقل أجزاء الثواب ، يستوجب أضعاف ذلك العمل ''(٢) .

٤- أن الله تعـالى يمن على عباده ويتفضل عليهم بالنعم في الدنيا أضعاف أضعاف ما يقابل عمل العبد الدنيوي .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله: '' العبد قد ينعم ويمتع في الدنيا بما أنعم الله به عليه مما يسـتحق بإزائه أضعاف ذلك العمـل ، إذا طلبت المعـادلة والمقابلة ''(٣) .

---

(١) المصدر السابق (١٤٩/١) .
(٢) المصدر السابق (١٤٩/١) .
(٣) المصدر السابق (١٤٩/١) .

٥- أن العـباد لا يخلون من السيئات والتقصير في حيا م ، فلولا عفو الله تعالى عنهم لما استحقوا ثواباً بل عقاباً ، كما في الحديث « **لو أن الله عذب أهل** سموا**ته وأهل أرضه ، لعذ م وهو غير ظا**لم لهم **، ولو رحمهم كانت** رحمته **خيراً** لهم **من أعمالهم** »[١].

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله: '' العباد لا بد لهم من سيئات ، ولا بد في حيا م من تقصير ، فلولا عفو الله لهم عن السيئات ، وتقبله أحسن ما عملوا ، لما استحقوا ثواباً ، ولهذا قـال ﷺ : « **من نوقش الحساب عذب** » قالت عائشة[٢]: يا رسول الله ، أليس الله يقول: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾[٣] ؟ قـ ـال: « **ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب عذب**»[٤]،[٥] .

(١) رواه أحمد (١٨٢/٥-١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٩) واللفظ له ، وأبو داود في السـنة ، بـاب في القـدر (٧٥/٥) ح(٤٦٩٩) ، وابن ماجة في المقدمة ، باب في القدر (٢٩/١-٣٠) ح(٧٧) ، وابن أبي عاصم في السنة (ص ١٠٩) ح(٢٤٥) ، وابن حبان كما في موارد الظمآن (ص ٤٥٠) ح(١٨١٧) ، كلهم من حديث أبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما ، وقال الألباني في ظلال الجنة (ص ١٠٩) : إسناده صحيح .

(٢) أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، تزوجها النبي ﷺ وهي بنت ست ودخل با وهي بنت تسع ، روت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة ، وكانت أفقه النساء مطلقاً ، وأفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة ففيهما خلاف ، توفيت سنة ٥٧ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٣٤٥/٤) ، الإصابة لابن حجر (٣٤٨/٤) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٧٥٠) .

(٣) سورة الانشقاق آية رقم (٧-٨) .

(٤) رواه البخاري في العلم ، باب من سمع شيئاً فراجع (٥١/١) ح(١٠٣) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب إثبات الحساب (٢٢٠٤/٤) ح(٢٨٧٦) ، وأحمد (٩١/٦) ، وأبو داود في الجنائز باب عيادة النساء (٤٧١/٣-٤٧٢) ح(٣٠٩٣) ، والنسائي في الكبرى في التفسير قوله ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ (٤٩٨/٦) ح(١١٦١٩) ، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ، باب٥ (٥٣٣/٤-٥٣٤) ح(٢٤٢٦) كلهم عن عائشة رضي الله عنها بنحوه .

(٥) رسالة في دخول الجنة لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (١٥٠/١) . وللاستزادة انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٤٦٩/١) ، قاعدة في التوسل والوسيلة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢١٧/١) ، الرد على البكري لابن تيمية (٢٤١/٢) .

الفصل الثالث

السببية والنبوة

وفيه مبحثان :

المبحث الأول: المعجزات .

المبحث الثاني : الكرمات .

تمهيد

إن موضـوع النبوة من الموضوعات المهمة ، فهو يمس جانباً عظيماً في عقيدة المسلم، وهـو الجانـب الذي يختص بإحدى الشهادتين التي لا تصح إحداهما إلا بالأخرى ، وهي الشهادة أن محمداً ﷺ رسول الله .

وقـد تكلـم شيخ الإسلام رحمه الله عن قضية النبوة في كثير من كتبه ، منها (شرح الأصفهانية) ، ومنها (الجواب الصحيح) ، ومنها (الصفدية) ، بل وخصص لها كتاباً مستقلاً تكلم فيه عن بعض مسائلها وما قاله المتكلمون فيها وهو كتاب (النبوات) .

وكـنت أود أن أتكلـم علـيها بصورة أكثر تفصيلاً ، ولكن التفصيل في هذا المقام سـيكون خارجاً عن موضوع البحث ، ولذا سوف أتطرق إلى ما يخص السببية منها مع ما يتطلـبه المقـام مـن مسـائل أخرى متصلة بهذا الباب تعين على إدراك المقصود من هذه الدراسة .

والكلام في النبوة يندرج في مبحثين:

المبحث الأول: المعجزات .

المبحث الثاني: الكرامات .

المبحث الأول

المعجــزات

المعجزات

عـندما نـتكلم عن المعجزات فإننا بحاجة إلى تعريفها ، ولكن قبل أن أعرفها أود أن أشـير إلى ملاحظـة ذكـرها شـيخ الإسلام رحمه الله حول اسم المعجزة ، فقد اختلفت اصطلاحات الناس فيه ، فهو عند المتقدمين يختلف عنه عند المتأخرين ، فعند المتقدمين يدخل فيه آيات الأنبياء وبراهينهم سواء حصلت على أيديهم أو على أيدي أتباعهم ، فكله داخل تحت مسمى المعجزة ، أما المتأخرون فإ م يخصون المعجزات بما يجري على يد الأنبياء فقط ، وأما ما يجري على يد الأتباع فإ م يسمونه كرامة .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : " والآيات والبراهين الدالـة على نبوة محمد ﷺ كـثيرة متـنوعة ، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ، ويسميها من يسميها من الـنظار معجزات ، وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة ، وهذه الألفاظ إذا سميت با آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكـتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان ... وأما لفظ المعجزة فإنما يدل على أنه أعجز غيره كما قال تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾[1] ، وقال: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] ... وهـذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلاً إلا إذا فُسر المراد به وذُكر شرائطه ، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمي معجزاً إلا ما كان للأنبـياء فقـط وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سماها كرامة ، والسلف كأحمد وغـيره كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء: إ ا معجزات ، إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك "[3] .

---

(١) سورة الزمر آية رقم (٥١) .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم (٢٢) .

(٣) الجواب الصحيح لابن تيمية (٤١٢/٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩) .

ولكـن هـذا الاختلاف في الاصطلاح لا يمنع من استخدام أحدها إذا أمن اللبس ، وذلـك يكون بالتوضيح والبيان ، وهذا ما سار عليه شيخ الإسلام رحمه الله في مصنفاته ، فنجده يستخدم كلاً من الاصطلاحين مع توضيح المراد ولا يجد غضاضة في ذلك .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات ، وإن كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغـيره ويسـمو ا الآيات ، لكن كثير من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما فيجعل المعجزة للنبي والكرامة للولي ''(١) .

تعريف المعجزة :

لقد توقفت كثيراً عند تعريف المعجزة ذلك أني لم أقف على من عرفها بتعريف يوافق مـذهب السلف ؛ فإن كثيراً ممن عرفها يذكر ضمن التعريف أموراً تخالف مذهب السلف كقضية التحدي وكونه شرطاً في المعجزة ، أو يجعل مجرد خرق العادة الركن الأساسي الذي تدور حوله المعجزة من غير ضابط لمسألة العادة(٢)، ولذا سوف أحاول أن اقتبس لها تعريفاً من كلام شيخ الإسلام رحمه الله يخلو قدر الإمكان من الاعتراضات التي تخل بالعقيدة .

المعجـزة هـي : الآيـة الخارقـة للعادة الخارجة عن مقدور جنس الحيوان ، وبذه الأوصاف تكون سالمة عن المعارضة ، مستلزمة لصدق دعوى النبوة (٣).

---

(١) قاعدة في المعجزات والكرامات لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣١١/١١-٣١٢) .

(٢) انظر في نقد هاتين المسألتين : النبوات لابن تيمية (١/ ٦٠١ ، ٦٠٣، ٨٢٦/٢) .

(٣) انظر النبوات لابن تيمية (١٦٣/١ ، ٢١٥ ، ١٤٤ ، ٥٠٠ ، ٢١٣) ، فكل جملة في التعريف أخذت من موضع من المواضع المشار إليها ، وهي على ترتيب التعريف .

أنواع المعجزات :

والمعجزات وما يدخل فيها من الكرامات باعتبار حقيقتها وجنسها نوعان أو ثلاثة ، وشيخ الإسلام رحمه الله تارة يجعلها قسمين ، فيدمج الثالث في الثاني ، وتارة يفصلها ويجعلها ثلاثة(١) ، وهي :

١- ما يكون من باب العلم ، وهذا يدخل تحته أنواع متعددة ، منها أن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره ، ومنها أن يرى ما لا يرى غيره يقظة ومناماً ، ومنها أن يعلم ما لا يعلمه غيره سواء كان وحياً أو إلهاماً أو إنزال علم ضروري أو فراسة صادقة .

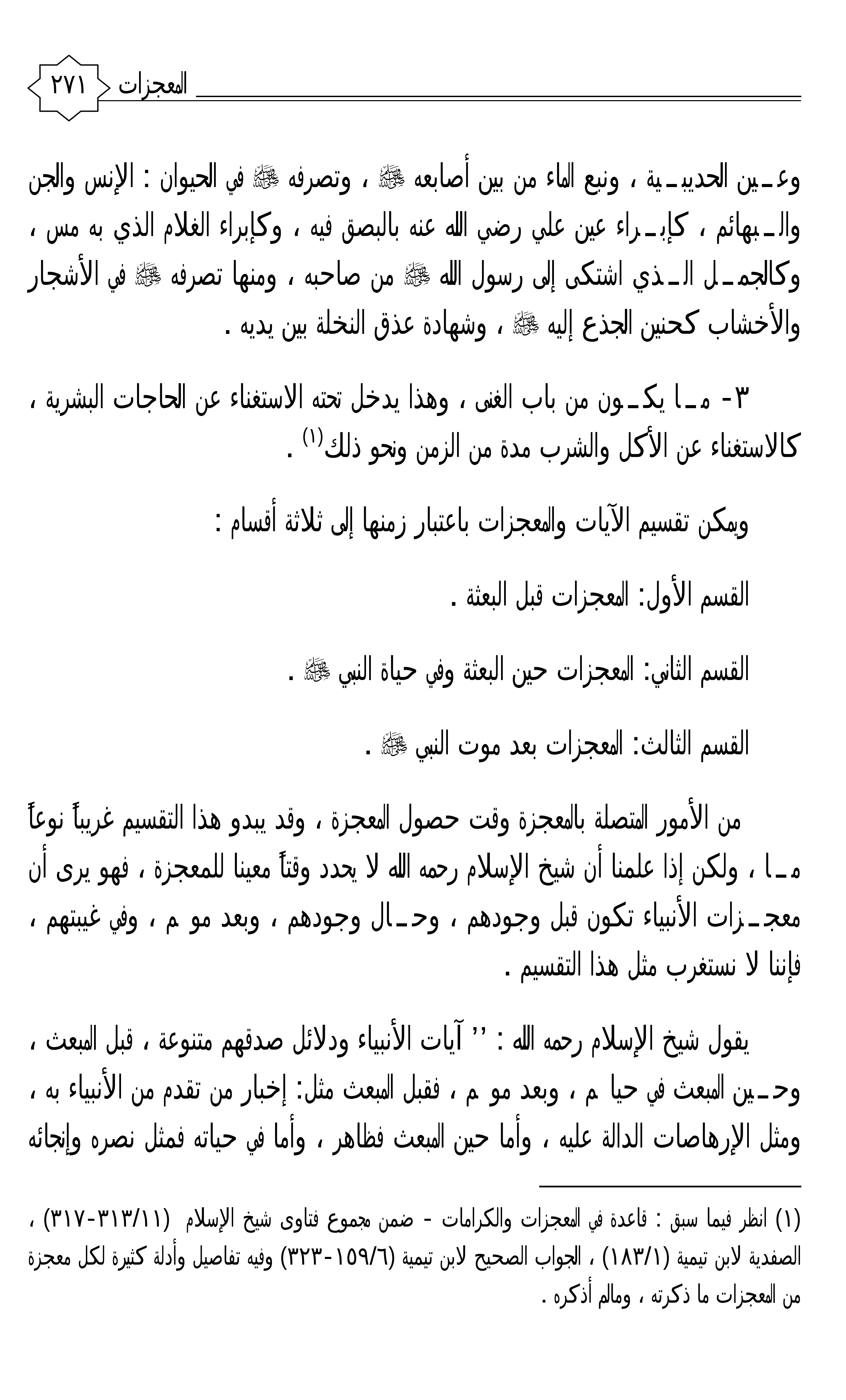
ويمثل شيخ الإسلام لهذا النوع بأمثلة عديدة من أبرزها :

أ- إخبار النبي ﷺ عن الأمور الغيبية ، مثل : أمور الربوبية والجنة والنار والملائكة ونحوها ، على نحو يوافق من قبله من الأنبياء ، من غير أن يكون تعلم منهم .

ب- إخبار النبي ﷺ عن الأمور الغائبة ، الماضية والحاضرة والمستقبلة مثل: أحوال الأمم السابقة وما جرى لها مع أنبيائها وبعض تفاصيل ذلك ، وإخبار عيسى ﷺ لبني إسرائيل ما يأكلون في بيوتهم وما يدخرون ، وإخبار النبي ﷺ عن زوال مملكة فارس والروم وقتال الترك ونحوها .

٢- ما يكون من باب القدرة ، سواء كان في العالم العلوي كانشقاق القمر والمعراج ورد الشمس ليوشع بن نون ﷺ ، أو كان في الجو كاستسقاء النبي ﷺ ، وعكسه وهو استصحاؤه ، وأيضاً إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، أو في الأرض كقلب العصا حية ، وفلق البحر ، وناقة صالح ﷺ ، وإحياء الموتى لعيسى ﷺ ، وتأييد الله تعالى للنبي محمد ﷺ بالملائكة في بدر وغيرها ، واهتزاز الجبل تحته ﷺ ، وتكثير الماء في عين تبوك

(١) انظر: النبوات لابن تيمية (١/١٥٠) ، قاعدة في المعجزات والكرامات - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٣٢٣) ، الصفدية لابن تيمية (١/١٨٣) .



وعين الحديبية ، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ ، وتصرفه ﷺ في الحيوان : الإنس والجن والبهائم ، كإبراء عين علي رضي الله عنه بالبصق فيه ، وكإبراء الغلام الذي به مس ، وكالجمل الذي اشتكى إلى رسول الله ﷺ من صاحبه ، ومنها تصرفه ﷺ في الأشجار والأخشاب كحنين الجذع إليه ﷺ ، وشهادة عذق النخلة بين يديه .

٣- ما يكون من باب الغنى ، وهذا يدخل تحته الاستغناء عن الحاجات البشرية ، كالاستغناء عن الأكل والشرب مدة من الزمن ونحو ذلك[١] .

ويمكن تقسيم الآيات والمعجزات باعتبار زمنها إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: المعجزات قبل البعثة .

القسم الثاني: المعجزات حين البعثة وفي حياة النبي ﷺ .

القسم الثالث: المعجزات بعد موت النبي ﷺ .

من الأمور المتصلة بالمعجزة وقت حصول المعجزة ، وقد يبدو هذا التقسيم غريباً نوعاً ما ، ولكن إذا علمنا أن شيخ الإسلام رحمه الله لا يحدد وقتاً معينا للمعجزة ، فهو يرى أن معجزات الأنبياء تكون قبل وجودهم ، وحال وجودهم ، وبعد موتهم ، وفي غيبتهم ، فإننا لا نستغرب مثل هذا التقسيم .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة ، قبل المبعث ، وحين المبعث في حياتهم ، وبعد موتهم ، فقبل المبعث مثل: إخبار من تقدم من الأنبياء به ، ومثل الإرهاصات الدالة عليه ، وأما حين المبعث فظاهر ، وأما في حياته فمثل نصره وإنجائه

---

(١) انظر فيما سبق : قاعدة في المعجزات والكرامات - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣١٣/١١-٣١٧) ، الصفدية لابن تيمية (١٨٣/١) ، الجواب الصحيح لابن تيمية (١٥٩/٦-٣٢٣) وفيه تفاصيل وأدلة كثيرة لكل معجزة من المعجزات ما ذكرته ، ومالم أذكره .

وإهـلاك أعدائه ، وأما بعد موته فمثل نصر أتباعه ، وإهلاك أعدائه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[1] ''[2] .

ويقـول أيضـاً رحمه الله : '' وآيات النبوة وبراهينها تكون في حياة الرسول ، وقبل مولده ، وبعد مماته ، لا تختص بحياته فضلاً عن أن تختص بحال دعوى النبوة أو حال التحدي كما ظنه بعض أهل الكلام ''[3] .

أحكام المعجزات :

لقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن المعجزات ، وفصل أحكامها ، وقرر فيها كثيراً من المسائل الهامة ، ومما ذكر رحمه الله :

أولاً : مسألة وجود المعجزة وكيفيته :

لقـد بحـث شـيخ الإسلام رحمه الله في كيفية حصول المعجزة ، وقرر أن معجزات الأنبـياء كغيرهـا من المخلوقات من حيث خلق الله تعالى لها بالأسباب ، فالله تعالى يخلق بالأسباب كما تقدم[4] ، وهي أيضاً خلقت بالأسباب .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وكل ما وجد في العالم من خوارق العادات آيات الأنبـياء وغيرهـا ،لم يأت منها شيء إلا بأسباب تقدمته ، كآيات موسى من مثل مصير العصـي حية كانت بعد أن ألقاها ، إما عند أمر الله بذلك لما ناداه من الشجرة ورأى النار الخارقة للعادة ، وإما عند مطالبة فرعون له بالآية ، وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم

---

(١) سورة غافر آية رقم (٥١) .
(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية (٤٠٨/٦-٤٠٩) .
(٣) المصدر السابق (٣٨٠/٦) .
(٤) انظر (ص١٧٢) .

وعصيهم ، وكذلك سائر آياته ، حتى إغراق فرعون كان بعد مسير الجيش وضربه البحر بالعصا وكذلك تفجر الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه واستسقاء قومه إياه وهم في برية لا ماء عندهم .

وكذلك آيات نبينا  مثل تكثير الماء كان بوضع يده فيه حتى نبع الماء من بين الأصابع ، أي تفجر الماء من بين الأصابع ، لم يخرج من نفس الأصابع ، وكذلك البئر كان ماؤها يكثر ، إما بإلقائه سهماً من كنانته فيها ، وإما بصبه الماء الذي بصق فيه فيها ، وكذلك المسيح كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه ، فيكون طيراً بإذن الله إلى أمثال ذلك ''[1] .

ولكن هذا لا يعني أنه يمكن للعبد أن يتوصل إلى تلك المعجزات بالأسباب ، فهي خارجة عن مقدور جميع العباد: الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوان ، فلا يمكن لأحد أن يتوصل إليها بالأسباب مطلقاً ، وإن كان الله تعالى يخلقها بالأسباب .

ووجود الملائكة في المعجزة كما في طمس أبصار اللوطية ، وكما في ولادة المسيح بلا أب وغيرها ، هو كوجود سائر الأسباب في مسببا ا ، والسبب لا يستقل بالتأثير .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' آيات الأنبياء لا تكون مما يقدر عليه العبد كما قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[2] والملائكة إنما هي سبب من الأسباب ، كما في خلق المسيح من غير أب ، فجبريل إنما كان مقدوره النفخ فيها وهذا لا يوجب الخلق ، بل هو بم لـة الإنزال في حق غير المسيح ، وكذلك المسيح لما خلق من الطين كهيئة الطير ، إنما مقدوره تصوير الطين ، وأما حصول الحياة فيه فبإذن الله ، فإن الله يحيي ويميت ، وهذا من

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية (٦/٤٠٣-٤٠٤) .

(٢) سورة الأنعام آية رقم (١٠٩) .

خصائصـه ولهـذا قال الخليل: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾[١] ، وفي القرآن في غير مواضـ ـ ـع ﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾[٢]، ﴿ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ﴾[٣] ، ﴿ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ ﴾[٤] ، ﴿ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ ﴾[٥] .

وما يتولد عن أفعال الملائكة وغيرهم ليسوا مستقلين به بل لهم فيه شركة ، كطمس أبصـار اللوطية وقلب مدينتهم ، وكذلك النصر إنما يقدرون على القتال كالإنس ، والنصر هو من عند الله كما قـال تعـالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[٦] .

والقرآن إنما يقدرون على النـزول به لا على إحداثه ابتداء فهم يقدرون على الإتيان بمـثله من عند الله ، وأما الجن والإنس فلا يقدرون على الإتيان بمثله ؛ لأن الله لا يكلم بمثله الجن والإنس ابتداء ، ولهذا قال: ﴿ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾[٧] ، وقال تعالى: ﴿ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾[٨]، وقـال: ﴿ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾[٩] ، وقـال: ﴿ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن

(١) سورة البقرة آية رقم (٢٥٨) .
(٢) سورة الروم آية رقم (١٩) .
(٣) سورة البقرة آية رقم (٢٨) .
(٤) سورة الروم آية رقم (١٩) .
(٥) سورة آل عمران آية رقم (١٥٦) .
(٦) سورة الأنفال آية رقم (١٠) .
(٧) سورة الإسراء آية رقم (٨٨) .
(٨) سورة البقرة آية رقم (٢٣) .
(٩) سورة هود آية رقم (١٣) .

كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾[1] ،لم يكلفهم نفس الإحداث بل طالبهم بالإتيان بمثـله ، إما إحداثـاً وإما تبليغا عن الله ، أو عن مخلوق ليظهر عجزهم من جميع الجهات .

فقـد يقال: فنفس أفعال العباد ليست من الآيات ؛ إذ كانت مقدورة ومفعولة للعبد وإن كان ذلك بإقدار الله تعالى ، ولا نفس القدرة على ذلك الفعل ، فإن المقصود من القدرة هو الفعل ، بل الآيات خارجة عن مقدور جميع العباد: الملائكة والجن والإنس .

وهـي أيضا لا تنال بالاكتساب ، فإن الإنس والجن قد يقدرون بأسـباب مباينة لهم على أمور ، كما يقدرون على قتل من يقتلونه وإمراضه ونحو ذلك ، وآيات الأنبياء لا يقدر أحد أن يتوصل إليها بسبب ''[2] .

ثانياً : مسألة دلالة المعجزة :

المقصـود بدلالة المعجزة أي كيف يحصل لنا العلم بصدق النبي من خلالها[3] ، ولقد بحـث شـيخ الإسلام رحمه الله هذه المسألة ، وقرر أن المعجزات تدل على صدق الأنبياء صـلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بطرق متعددة : ما نعلمه من حكمة الله تعالى ورحمته وعدلـه وقدرتـه وسنته في خلقه ، إضافة إلى العلم الضروري الذي لا يستطيع الإنسان أن يدفعه عن نفسه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق الرسول: طـريق الحكمـة ، وطريق القدرة ، وطريق العلم والضرورة ، وطريق سنته وعادته التي بها

(١) سورة الطور آية رقم (٣٤) .
(٢) النبوات لابن تيمية (١٠٧٠/٢-١٠٧٣) .
(٣) وقد خلط محقق كتاب النبوات (٦٨٤/٢) في تعليقه على هذه المسألة بين طرق دلالة المعجزة المذكورة أعلاه ، وطرق معرفة النبوة التي ستأتي (ص٢٨٥) وهما مختلفان كما بين شيخ الإسلام ، وكما هو مبين في هذه الدراسة .

يعـرف أيضاً ما يفعله ، وهو من جنس المواطأة ، وطريق العدل ، وطريق الرحمة ، وكلها طرق صحيحة ''[١] .

ومن تلك الطرق :

١- حكمة الله تعالى ، فالله حكيم يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها ، فلا يجوز في حكمـته أن يضـع المعجزة حيث لا يجوز وضعها ؛ لأن هذا يستلزم التسوية بين الصادقين والكاذبين ، والهدى والضلال ، والخير والشـر ، وطريق الجنة وطريق النار ، ويرتفع التمييز بـين هذه الأمور ، وهذا يوجب الفساد في الدين والدنيا والآخرة ، قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[٢] ، وقـال تعـالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾[٣] ، وقـال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[٤] .

٢- رحمة الله تعالى ، فالله رحيم بعباده بل هو أرحم بهم من أنفسهم ، فلا يجوز فيمن كان كذلك أن يضل عباده ضلالاً عاماً بأن يؤيد كذاباً بمعجزة من المعجزات ؛ لأن في ذلك شراً عاماً وإفساداً لدين الناس ودنياهم وآخرتهم ، وهذا يتنافى مع رحمته تعالى بخلقه .

٣- السنة الإلهية ، فالله تعالى له سنة يسير بمقتضاها الأمور ، وهي لا تتغير ولا تتبدل كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[٥] ، وقـال تعـالى ﴿ وَلَا تَجِدُ

(١) النبوات لابن تيمية (٢/٦٨٤) .
(٢) سورة القلم آية رقم (٣٥-٣٦) .
(٣) سورة السجدة آية رقم (١٨) .
(٤) سورة الحشر آية رقم (٢٠) .
(٥) سورة الأحزاب آية رقم (٦٢) .

﴿لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[1] ، ومن سنته جل وعلا عـدم تأييد الكاذبين بالمعجزات ، بل سنته هي قطعهم وبترهم ، فلا يمكّن لهم ، بل ينتقم منهم ؛ لافترائهم عليه ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾[2] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' لا يجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التي أيد بـا أنبـياءه الصـادقين ، فإن هذا شـر عام للناس يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخر م .

ولـيس هذا كالملك الظالم والعدو ، فإن الملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل: ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام .

وإذا قدر كثرة ظلمه فذاك ضرر في الدين ، كالمصائب تكون كفارة لذنوبم ويثابون علـيها ، ويـرجعون فيها إلى الله ويستغفرونه ويتوبون إليه ، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذّب على الله ، ويقول - أي يدعي - أنه نبي ، فلو أيده الله تأييد الصادق للزم أن يسوى بينه وبين الصادق ، فيستوي الهدى والضلال ، والخير والشر ، وطريق الجنة وطريق النار ، ويرتفع التمييز بين هذا وهذا ، وهذا مما يوجب الفساد العام للناس في دينهم ودنياهم وآخر م .

---

(١) سورة الإسراء آية رقم (٧٧) .

(٢) سورة الحاقة آية رقم (٤٤-٤٦) .

ولهـذا أمـر النبي ﷺ بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع كالخوارج ، وأمر بالصبر على جور الأئمة و ى عن قتالهم والخروج عليهم ، ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبئون الكذابون فلا يطيل تمكينهم بل لا بد أن يهلكهم ؛ لأن فسـادهم عام في الـدين والدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾[1] وقـال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[2] ، فأخبر أنـه بتقدير الافتراء لا بد أن يعاقب من افترى عليـه ''[3] .

ويقول أيضاً : '' كذلك سنته في الأنبياء الصادقين وأتباعهم من المؤمنين وفي الكذابين والمكـذبين بالحق ، إن هؤلاء ينصرهم ويبقى لهم لسان صدق في الآخرين ، وأولئك ينتقم مـنهم ويجعل عليهم اللعنة ، فبهذا وأمثاله يعلم أنه لا يؤيد كذاباً بالمعجزة لا معارض لها ؛ لأن في ذلـك مـن الفسـاد والضرر بالعباد ما تمنعه رحمته ، وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته ، وفيه من نقض سـنته المعروفة وعادته المطردة ما تعلم به مشيئته ''[4] .

٤- عـدل الله تعـالى ، فـالله تعالى حكم عدل ، ومن عدله جل وعلا أن لا يؤيد الكذاب بالمعجزة ، ولا ينصره ، ولا يساويه بالصادق ، فالعدل وضع الأشياء في مواضعها ، وتأييد الكاذب بالمعجزات نقيض العدل .

---

(١) سورة الحاقة آية رقم (٤٤-٤٦) .
(٢) سورة الشورى آية رقم (٢٤) .
(٣) الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/٢٦٨-٢٧٠) .
(٤) شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ١٦٠) . وللاستزادة انظر: نفس المصدر (ص ١٤٨) ، النبوات لابن تيمية (١/ ١٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٢/٨٩٧ ، ٩١٧) ، الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/٤٩٥-٤٩٦) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :'' فمن عدله أن يجعل الصادق عليه المبلغ لرسالته حيث يصلح من كرامته ونصره ، وأن يجعل الكاذب حيث يليق به من إهانته وذله ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾(١) ... ومن أعظم الافتراء عليه: دعوى النبوة والرسالة كذباً ''(٢) .

٥- قـدرة الله تعالى ، وهذا المسلك من المسالك التي سار عليها بعض المتكلمين في تقرير دلالة المعجزة على الصدق ، وقالوا: لو لم تدل المعجزة على صدق النبي للزم من ذلك عجـز الله تعالى عن إقامة الدليل على صدق نبيه ، والله تعالى ليس بعاجز ، فهو على كل شيء قدير .

وهذا طريق صحيح ، وإن كان طريق الحكمة أحسن منه .

وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا الطريقة في أكثر من موضع في كتبه ، ونقد المتكلمين في أثناء ذلك ولكن نقده كان منصباً على غلط عند المتكلمين في تقرير هذا الطريق لا على نفس الطريق ، وجهة الغلط عند المتكلمين في هذه القضية مكون من ثلاثة أمور :

١- نفي دلالة غير المعجزة على النبوة ، فطرق إثبات النبوة متعددة ، والمعجزات هي نوع منها ، فلا يصح إثبات نوع ونفي بقية الأنواع .

٢- نفـي طرق دلالة المعجزة غير طريق القدرة الذي سلكوه ، فطرق دلالة المعجزة متعددة كما سردت هاهنا ، ولا يصح أن ينفى شيء منها .

٣- أن المـتكلمين عـندما سـلكوا هذا المسلك كان للتخلص من مشكلة ترد على أصولهم ، وهي أ م يجوزون على الله تعالى كل فعل ممكن ، فيجوز بحسب أصولهم أن يؤيد

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (١٥٢) .
(٢) النبوات لابن تيمية (٢/٩٠٠) .

الله الكاذب بالمعجزات ، ولكي يتخلصوا من هذا المأزق في باب النبوات ، قالوا: إن الله لا يـؤيد الكاذب بالمعجزات ؛ لأنه يلزم من ذلك عجز الله تعالى عن إقامة الدليل على صدق الصـادق ، وما لزم منه نفي القدرة كان ممتنعاً ؛ ولأجل هذه الأمور الثلاثة ونحوها نقدهم شيخ الإسلام رحمه الله(١).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وكلما كان الناس إلى الشيء أحوج كان الرب به أجـود ، وكـذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج كان به أجود ، فإنه سبحانه الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، وهو الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، وهـو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فكيف لا يقدر أن يهدي عباده إلى أن يعلموا أن هـذا رسـوله ، وأن ما جاء به من الآيات أنه من الله ، وهي شـهادة من الله لـه بصدقـه "(٢) .

ويخـبر شـيخ الإسلام رحمه الله عن المتكلمين أ م يقولون : " كل الأفعال جـائزة علـيه ... وإنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل ، أو يفعل ما يفعل بالخبر ، خبر الأنبياء عنه ، و إلا فمهما قُدر جاز أن يفعله ، وجاز أن لا يفعله ، ليس في نفس الأمر سبب ولا حكمة ولا صفة تقتضي التخصيص ببعض الأفعال دون بعض ، بل ليس إلا مشيئة نسبتها إلى جميع الحوادث سواء ، ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

فقيل لهم: فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز فلا يبقى المعجز دليلاً على صدق الأنبياء ، فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق ، فيلزم مع الكفر بالأنبياء ، أن لا يعلم الفرق لا بسمع ولا بعقـل ، فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم

---

(١) انظر: النبوات لابن تيمية (٢٣٤/١ ، ٤٨٠) ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤٠/٩ ، ٥٣) ، شرح الأصفهانية (ص ١٦٣) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٩٤/٣) ، الجواب الصحيح لابن تيمية (٣٩٧/٦) .
(٢) النبوات لابن تيمية (٦٨٤/٢-٦٨٦) .

تعجيز الباري تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب ، أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع ''(١) .

٦- العلم الضروري ، وهذا المسلك أيضاً من المسالك التي سار عليها بعض المتكلمين في تقرير دلالة المعجزة ، وقالوا: إن العلم بتصديق الله تعالى لمن أظهر على يديه المعجزات علم ضروري ، ويوافقهم شيخ الإسلام رحمه الله على هذه القضية ، لكن يرى أنها تناقض أصولهم ؛ لأن مبنى هذا الاستدلال على الحكمة ، فالله تعالى خلق هذه المعجزة لتدل على صدق من أرسله ، ومن لا يقر بالحكمة فكيف له أن يستدل بهذه الطريق .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' دلالة المعجزة على الصدق دلالة ضرورية لا تحتاج إلى نظر ، فإن اقتران المعجزة بدعوى النبوة يوجب علماً ضرورياً بأن الله أظهرها لصدقه ، كما أن من قال لملك من الملوك: إن كنت أرسلتني إلى هؤلاء ، فانقض عادتك وقم واقعد ثلاث مرات ، ففعل ذلك الملك ، علم بالضرورة أنه فعل ذلك لأجل تصديقه ''(٢) .

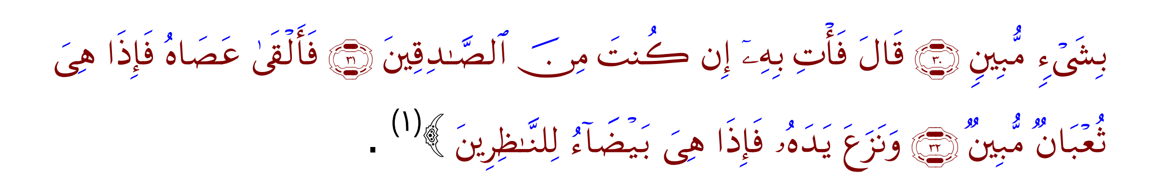
وقبل الانتقال إلى قضية أخرى في المعجزات أود أن أشير إلى أمر هام في دلالة المعجزة وهو أن المعجزات كما تدل على صدق الأنبياء ، تدل كذلك على إثبات وجود الله تعالى ، فهي إحدى الطرق الصحيحة لإثبات وجوده جلا وعلا ، وقد جاء الاستدلال بها على وجود الله في القرآن في قصة نبي الله موسى ﷺ ، ففرعون كان منكراً لوجود الله تعالى ، مستفهماً عنه ، سواء كان في الباطن مقراً به أو لم يكن ، وطلب من موسى ﷺ آية ، فأظهر له موسى ﷺ الآية ، واستدل بها على إثبات إلهية الله تعالى وإثبات نبوته(٣)، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ

---

(١) الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٧١/١٤) .

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٩٤/٣) . وللاستزادة انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٩٠/١) ، الجواب الصحيح لابن تيمية (٣٩٨/٦ ، ٤٩٥) ، النبوات لابن تيمية (٢٣٦/١ ، ٤٨٢/٢ ، ٨٨٤) ، شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ١٦٣) .

(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤٣/٩) .


بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[1] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " فهنا قد عرض عليه موسى الحجة البينة التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين ، وفى أن له إلهاً غير فرعون يتخذه ، وكذلك قال تعالى: ﴿ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾[2] .

فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة ؛ وذلك لأن المعجزة - التي هي فعل خارق للعادة - تدل بنفسها على ثبوت الصانع كسائر الحوادث ، بل هي أخص من ذلك ؛ لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة ، ولهذا يسبح الرب عندها ويمجد ويعظم ما لا يكون عند المعتاد ، ويحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد إذ هي آيات جديدة ، فتعطى حقها ، وتدل بظهورها على الرسول ، وإذا تبين أ ا تدعوا إلى الإقرار بأنه رسول الله ، فتتقرر با الربوبية والرسالة "[3] .

ثالثاً : الفرق بين المعجزات وخوارق الكهان والسحرة :

لقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن التفريق بين معجزات الأنبياء وخوارق الكهان والسحرة ، وأنكر على بعض المنتسبين إلى العلم دعوى التسوية بين النوعين في الجنس والاختلاف فقط بدعوى النبوة ، وكان هذا داعياً له إلى تقرير الفرق بين معجزات الأنبياء وخوارق الكذابين ، ومما ذكره من الفروق :

---

(١) سورة الشعراء آية رقم (٢٩-٣٣) .
(٢) سورة هود آية رقم (١٤) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٧٩/١١) .

١- أن آيـات الأنبياء وبراهينهم لا توجد إلا مع النبوة وما يتوافق معها من التوحيد والصـدق والعدل والبر والتقوى ، بخلاف السحر والكهانة ، فإنه علاوة على كون أصلها يـناقض النبوة ولا يجتمع معها إطلاقاً ، فإنه مع ذلك يقترن به من الشرك والظلم والكذب والدجل ونحوها من الأمور المناقضة للنبوة الشيء الكثير .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' فآيات الأنبياء وبراهينهم لا توجد إلا مع النبوة ، ولا توجد مع ما يناقض النبوة ، ومدعي النبوة إما صادق وإما كاذب ، والكذب يناقض النبوة ، فـلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها ... [و](١) الكفر والسحر والكهانة كل ذلك يناقض النبوة لا يجتمع هو والنبوة ''(٢) .

٢- أن آيـات الأنبـياء خارجة عن جنس مقدور الجن والإنس والحيوان ، بخلاف خـوارق السحرة والكهان ، فإ ا لا تخرج عن مقدور الجن والإنس والحيوان ، بل هي من جنسها ، ويضرب شيخ الإسلام مجموعة من الأمثلة على ذلك:

أ- مـا يقوم به الساحر من قتل أو تمريض ، فهذا كله أمر مقدور ، معروف بالسحر وغـير السـحر ، وكـذلك ركوب المكنسة حتى تطير به وطيرانه ، فإن هذا فعل مقدور للحيوان ، والجن تفعله ، وكذلك إحضار ما يحضر من نفقة أو ثياب أو غير ذلك ، فهذا إنما هـو نقل مال من مكان إلى مكان ، وهذا تفعله الإنس والجن ، لكن الجن تفعله والناس لا يبصـرون ذلك ، بخلاف معجزات الأنبياء فمثلاً كون الماء القليل يفيض حتى يصير كثيراً ، بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يزادها ، فهذا لا يقدر عليه إنس ولا جان .

ب- ما يخبر به الكهان من بعض الأمور الغائبة ، فهذا مع ما فيه من الكذب ، إلا أنه مقـدور للجـن تفعله مع كثير من الكهان ، بخلاف الإخبار بما يأكلون وما يدخرون مع تسمية الله عليه ، فهذا لا تظهر عليه الشياطين .

---

(١) ما بين المعكوفتين إضافة إلى النص يحتاج إليها الكلام المنقول .

(٢) النبوات لابن تيمية (١٤٤/١) ، وانظر : نفس المصدر (٥٥٨/١ ، ١٠٧٤/٢) .

ج- مـا يخـبر به الكهان من بعض الأمور المستقبلية مع ما فيه من الكذب ، إلا أن جنسـه معتاد يمكن أن يعلم بالمنامات وغيرها ، بخلاف ما يخبر به الرسل من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق ، كالإخبار ببعض أشراط الساعة كقوله : ((**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى**))[١] ، فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله تعالى[٢].

٣- أن معجـزات الأنبياء لا يمكن معارضتها ممن ليس بنبي ، بخلاف خوارق السحرة فإنه تمكن معارضتها بجنسها .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' يجب في آيات الأنبياء أن لا يعارضها من ليس بنبي فكل من عارضها صادراً ممن ليس من جنس الأنبياء ، فليس من آيا م ، ولهذا طلب فرعون أن يعـارض مـا جاء به موسى لما ادعى أنه ساحر ، فجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى ، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة ، وأمرهم موسى أن يأتوا أولاً بخوارقهم ، فلما أتت وابتلعـتها العصـا التي صارت حية ، علم السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم فآمنوا إيمانا جازماً ''[٣] .

٤- أن معجـزات الأنبـياء لا تـنال بالسعي والعمل والاكتساب ، بخلاف السحر والكهانة ، فإ م ينالو ا بأفعالهم وعباد م ودعائهم وشركهم .

---

(١) رواه البخاري في الفتن ، باب خروج النار (٢٦٠٥/٦) ح(٦٧٠١) ، مسلم في الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز (٢٢٢٧/٤) ح(٢٩٠٢) كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه .

بصرى : مدينة سورية قديمة توجد الآن في محافظة حوران جنوب دمشق بالقرب من الحدود مع الأردن . انظر: المنجد في الأعلام (ص ٥) وفي قسم الخرائط (ص ٩) .

(٢) انظر فيما سبق : النبوات لابن تيمية (١٤٤/١-١٥١ ، ٥٥٩ ، ١٠٨١/٢) .

(٣) المصدر السابق (١٦٩/١-١٧٠) ، وانظر : نفس المصدر (٥٥٩/١) .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : ''خوارق غير الأنبياء : الصالحين والسحرة والكهان وأهـل الشرك والبدع تنال بأفعالهم ، كعبادا م ودعائهم وشركهم وفجورهم ونحو ذلك ، وأما آيات الأنبياء فلا تحصل بشيء من ذلك ، بل الله يفعلها آية وعلامة لهم ''(١) .

رابعاً: طرق معرفة النبوة غير المعجزات :

المقصود بطرق معرفة النبوة أي الطرق التي يتم من خلالها معرفة النبي الصادق ، وتعتبر المعجزات إحدى الطرق الدالة على إثبات النبوة ، لكنها ليست الطريق الوحيد لإثبات النبوة كمـا يظن ذلك بعض الناس ، بل هناك طرق كثيرة غيرها ، فالله عز وجل لم يقصر طريق معرفة النبوة على مسلك واحد بل عددها ، وفي هذا المبحث تمت دراسة المعجزة ، وأردت أن أشير إلى الطرق الأخرى ؛ لأ ا لا تقل أهمية عن المعجزة ، ولكي لا يظن أن المعجزة هي الطريق الوحيد لإثبات النبوة .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الطرق الدالة على صدقه طرق متعددة غير طريق المعجـزات ... ومـن قال: إنه لا طريق إلا ذلك كان عليه الدليل ، فإن النافي عليه الدليل كما على المثبت الدليل ''(٢) .

ولقـد سرد شيخ الإسلام رحمه الله طرقاً متعددة غير المعجزات تدل كل واحدة منها بانفرادها على صدق الرسول ﷺ ، فكيف باجتماعها ، ومن تلك الطرق الكثيرة :

١- أنـواع الأدلة التي تميز بين الصادق والكاذب ، وهي كثيرة جداً ، فكل من ادعى دعـوى في أمـر مـن الأمور في النبوة أو غيرها ، فلا بد أن يبين صدقه أو كذبه في هذه الدعـوى ، سـواء من خلال صفاته ، أو من خلال أقواله أو أفعاله ، فالصادق يظهر عليه أمارات الصدق ، ومخايل الخير ، وسمات الفضل والعلم والبر ، وأنواع من ذلك ما لا يظهر

---

(١) النبوات لابن تيمية (١٠٨٤/٢) ، وانظر: نفس المصدر (٥٥٨/١) .

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٩٣/٣-٩٤) .

على الكاذب ، والناس يميزون بين الصنفين ليس في النبوة فقط ، بل حتى في العلوم والصناعات ، فمن ادعى معرفة علمٍ من العلوم كالنحو مثلاً أو الطب أو الفقه ، أو ادعى معرفة صناعة من الصناعات كالفلاحة والنجارة ، فإن الناس يمكنهم التفريق في ذلك بين الصادق والكاذب من وجوه كثيرة .

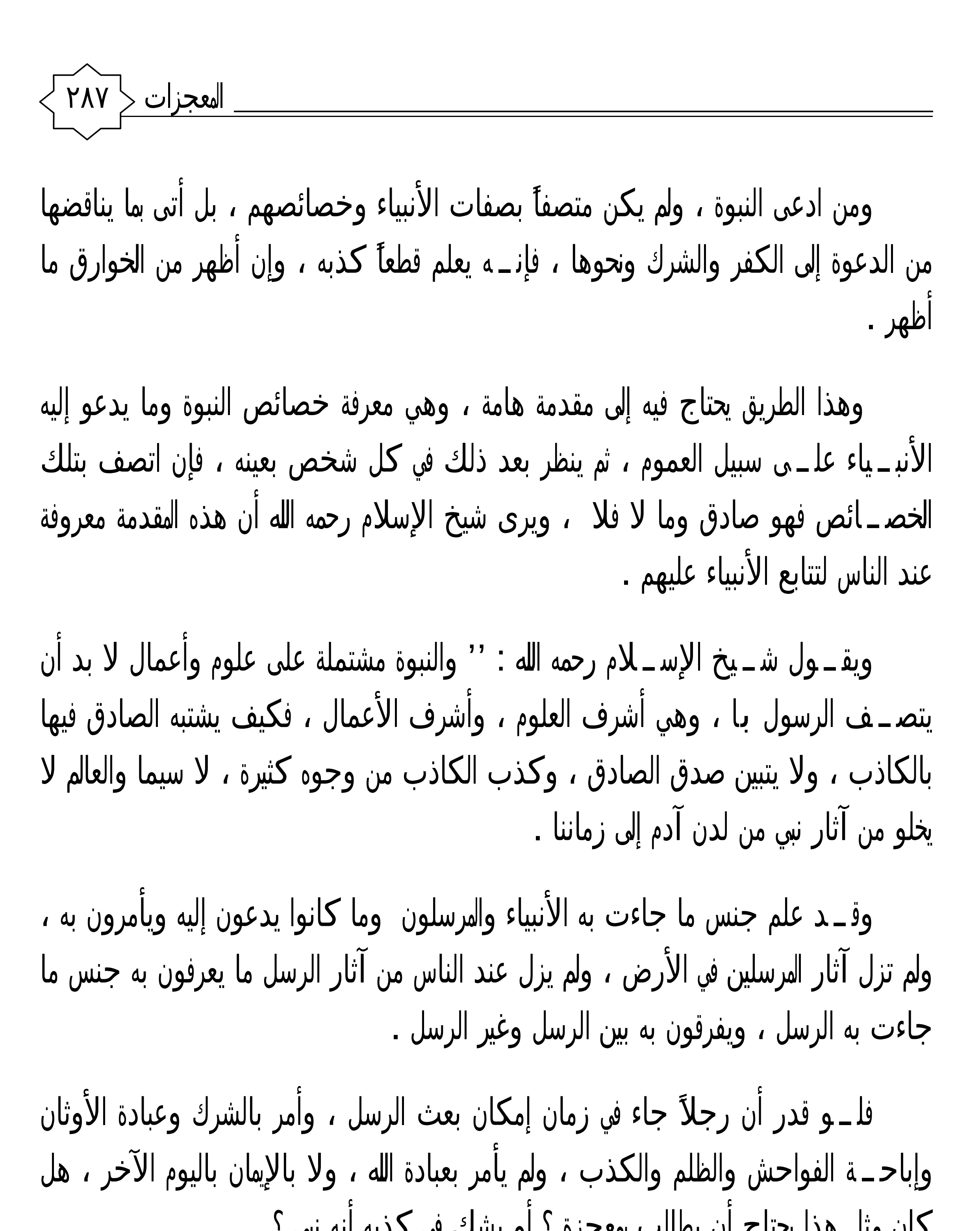
يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز .

وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له أدنى تمييز .

فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ، ويأمرهم بأمور ولا بد أن يفعل أموراً ، والكذاب يظهر في نفس ما يأمر به ، ويخبر عنه ، وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة والصادق يظهر في نفس ما يأمر به ، وما يخبر عنه ، ويفعله ما يظهر به صدقه من وجوه كثيرة ، بل كل شخصين ادعيا أمراً من الأمور ، أحدهما صادق في دعواه ، والآخر كاذب فلا بد أن يبين صدق هذا وكذب هذا من وجوه كثيرة ، إذ الصدق مستلزم للبر ، والكذب مستلزم للفجور ''[(١)] .

٢- خصائص الأنبياء وصفاتهم ، فإن النبوة تختص بسمات ، وتشتمل على صفات يمكن من خلالها التمييز بين الصادق والكاذب في دعوى النبوة ، فمثلاً من ادعى النبوة في زمن إمكان البعثة ، واتصف بخصائص الأنبياء ، ودعا إلى ما يدعون إليه ، فلا شك أنه نبي ؛ لاتصافه بتلك الصفات والخصائص .

(١) شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ٨٩-٩٠) ، وللاستزادة انظر: الجواب الصحيح (٤٨٢/٦ - ٤٩٥) .



ومن ادعى النبوة ، ولم يكن متصفاً بصفات الأنبياء وخصائصهم ، بل أتى بما يناقضها من الدعوة إلى الكفر والشرك ونحوها ، فإنه يعلم قطعاً كذبه ، وإن أظهر من الخوارق ما أظهر .

وهذا الطريق يحتاج فيه إلى مقدمة هامة ، وهي معرفة خصائص النبوة وما يدعو إليه الأنبياء على سبيل العموم ، ثم ينظر بعد ذلك في كل شخص بعينه ، فإن اتصف بتلك الخصائص فهو صادق وما لا فلا ، ويرى شيخ الإسلام رحمه الله أن هذه المقدمة معروفة عند الناس لتتابع الأنبياء عليهم .

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله : " والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها ، وهي أشرف العلوم ، وأشرف الأعمال ، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب ، ولا يتبين صدق الصادق ، وكذب الكاذب من وجوه كثيرة ، لا سيما والعالم لا يخلو من آثار نبي من لدن آدم إلى زماننا .

وقد علم جنس ما جاءت به الأنبياء والمرسلون وما كانوا يدعون إليه ويأمرون به ، ولم تزل آثار المرسلين في الأرض ، ولم يزل عند الناس من آثار الرسل ما يعرفون به جنس ما جاءت به الرسل ، ويفرقون به بين الرسل وغير الرسل .

فلو قدر أن رجلاً جاء في زمان إمكان بعث الرسل ، وأمر بالشرك وعبادة الأوثان وإباحة الفواحش والظلم والكذب ، ولم يأمر بعبادة الله ، ولا بالإيمان باليوم الآخر ، هل كان مثل هذا يحتاج أن يطالب بمعجزة ؟ أو يشك في كذبه أنه نبي ؟

ولـو قدر أنه أتى بما يظن أنه معجزة ، لعلم أنه من جنس المخاريق أو الفتن والمحنة ؛ ولهـذا لما كان الدجال يدعى الإلهية ، لم يكن ما يأتي به دالاً على صدقه ؛ للعلم بأن دعواه ممتنعة في نفسها ، وأنه كذاب ''[١] .

٣- الـتأمل والنظر فيما جاءت به الأنبياء وأخبرت به ، وما فيه من الحكمة والإتقان والهدى ، وما يشتمل عليه من أنواع الخيرات ، ومحاسن الأخلاق ، وجميل الصفات ونحوها مـن الأمور ، فإن من تأمل ذلك فإنه يخرج بنتيجة ضرورية وهي استحالة صدور مثل هذا الكلام عن الكذاب المفتري على الله تعالى أو الجاهل الضال .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' من تأمل ما جاء به الرسل عليهم السلام فيما أخـبرت بـه ، ومـا أمرت به ، علم بالضرورة أن مثل هذا لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم .

وأن مـثل هـذا يمتـنع صدوره عن كاذب متعمد للكذب مفتر على الله يخبر عنه بالكـذب الصريح ، أو مخطئ جاهل ضال يظن أن الله تعالى أرسله ولم يرسله ؛ وذلك لأن فيما أخبروا به وما أمروا به من الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدي الخلائق وبيان ما يعلمـه العقـل جملة ويعجز عن معرفته تفصيلاً ، ما يبين أ م من العلم والمعرفة والخبرة في الغاية التي باينوا با أعلم الخلق ممن سواهم .

فيمتـنع أن يصـدر مثل ذلك عن جاهل ضال ، وفيها من الرحمة والمصلحة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ، ما يبين أن ذلك صدر عن راحم بار يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق .

---

(١) شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ٩١ ، ٩٣) .

وإذا كان ذلك يدل على كمال علمهم ، وكمال حسن قصدهم ، فمن تم علمه وتم حسن قصده امتنع أن يكون كاذباً على الله ، يدعي عليه هذه الدعوى العظيمة التي لا يكون أفجر من صاحبها إذا كان كاذباً متعمداً ، ولا أجهل منه إن كان مخطئاً ''[١] .

(١) شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ١٠٥) .

المبحث الثاني

الكرامـات

الكرامـــــات

الكرامات جمع كرامة ، والكرامة من جنس المعجزة ، وربما أطلق عليها مسمى معجزة فـيقال: معجزات الأولياء ، وهذا اصطلاح جرى عليه كثير من الناس ، والمقصود منه أنها معجزات للأنبياء ، لأن سببها هو اتباع الأنبياء ، ولهذا أدخلها بعض أهل العلم ضمن آيات الأنبياء ومعجزاتهم ، وقد تقدم فيما سـبق إشارة إلى هذه القضية(١) .

ومن أصول أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء ، وما يجري على أيديهم من خوارق العادات ، خلافاً لمن أنكرها من أهل البدع .

يقـول شـيخ الإسـلام رحمه الله : "ومن أصول أهل السنة والجماعة : التصديق بكـرامات الأولـياء ومـا يجـري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشـفات ، وأنـواع القـدرة والتأثيرات كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرهـا ، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة ، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة "(٢) .

أنواع الكرامات:

والكرامات أنواع متعددة ، وهي من جنس أنواع المعجزات ، فمنها :

١- ما هو من باب القدرة والتأثير ، مثل قصة الذي عنده علم الكتاب كما في قصة نبي الله سليمان ﷺ في إحضار عرش بلقيس ، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ۝٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ

(١) انظر : (ص ٢٦٨) ، وانظر : منهاج السنة لابن تيمية (٣٦/٤) .
(٢) العقيدة الواسطية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥٦/٣) .

قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ ﴾[١] ، وقصة مريم كما في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[٢] ، وقصة أهل الكهف وهي مشهورة ونحوها .

٢- ما هو من باب العلم والمكاشفة ، مثل قول عمر في قصة سارية [٣] ، وإخبار أبي بكـر بـأن ببطن زوجته أنثى[٤] ، ومثل قول أحد تلامذة شيخ الإسلام رحمه الله عن علم الشيخ ومؤلفاته : '' ووالله إن شاء الله ليقيمن الله سبحانه لنصر هذا الكلام ونشره وتدوينه

---

(١) سورة النمل آية رقم (٣٨-٤٠) .

(٢) سورة آل عمران آية رقم (٣٧) .

(٣) سارية بن زنيم بن عبدالله الدئلي ، صحابي ، أسلم وحسن إسلامه ، ولاه عمر على جيش وسيره إلى فارس سنة ٢٣ هـ . انظر: الإكمال لابن ماكولا (٤/٢٤٦) ، الإصابة لابن حجر (٢/٢) .

وقصة عمر مع سارية يرويها عبدالله بن عمر أن عمر بن الخطاب بعث جيشاً وأمر عليهم رجلا يدعى سارية قال فبينا عمر يخطب الناس يوما قال فجعل يصيح وهو على المنبر: يا ساري الجبل ، يا ساري الجبل ، قال: فقدم رسول الجيش فسأله ، فقال: يا أمير المؤمنين ، لقينا عدونا فهزمناهم ، فإذا بصايح يصيح: ياساري الجبل ، يا ساري الجبل ، فأسندنا ظهورنا بالجبل ، فهزمهم الله ، فقيل لعمر - يعني بن الخطاب - إنك كنت تصيح بذلك . هذه القصة رواها عبدالله ابن أحمد في زياداته على كتاب الإمام أحمد فضائل الصحابة (٣٢٩/١-٣٣١) بإسناد قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية (١٣١/٧) : هذا إسناد جيد حسن ، وقال عنه ابن حجر في الإصابة (٣/٢): وهو إسناد حسن ، ورواها اللالكائي في كرامات أولياء الله عز وجل (ص ١٢٠-١٢٢) بإسناد فيه نظر كما قال ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٣١) ، وفي شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٣٣٠/٧-١٣٣١) ح(٢٥٣٨) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق كما في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٨٤/٩) ، وقد ذكر ابن كثير لهذه القصة طرقاً متعددة في البداية والنهاية ، وقال (١٣٢/٧): فهذه طرق يشد بعضها بعضاً .

(٤) عن عائشة قالت: إن أبا بكر الصديق ﷺ نحلها جذاذ عشرين وسقاً من ماله بالغابة ، فلما حضرته الوفاة ، قال: والله يا بنية ما من الناس أحب إلي غنى بعدي منك ، ولا أعز علي فقراً منك ، إني كنت نحلتك جذاذ عشرين وسقاً ، فلو كنت جذذتيه واحتزتيه كان لك ، وإنما هو اليوم مال وارث ، وإنما هما أخواك وأختاك ، فاقتسموه على كتاب الله عز وجل ، قالت عائشة :يا أبة لو كان كذا وكذا لتركته ، إنما هي أسماء فمن الأخرى ؟ فقال أبو بكر: ذو بطن بنت خارجة أراها جارية . هذه القصة رواها مالك في الموطأ (٧٥٢/٢) وعبدالرزاق في مصنفه (١٠١/٩) وابن سعد في الطبقات (١٤٥/٣) ، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٨٨/٤) ، واللالكائي في كرمات أولياء الله عز وجل (ص ١١٧) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٦٩/٦) .

وتفهمـه ، واسـتخراج مقاصـده ، واستحسان عجائبه وغرائبه ، رجالاً هم إلى الآن في أصلاب آبائهم ''[١] .

٣- مـا هو من باب الغنى ، مثل استغناء بعض الصالحين عن المال والجاه والسلطان والغنى ونحو ذلك .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من بـاب الكشف والعلـم ، فمثل قول عمر في قصة سـارية ، وإخبـار أبي بكر بـأن ببطن زوجته أنثى ، وإخـبـار عمـر بمـن يخـرج مـن ولـده فيكون عـادلاً[٢] ، وقصـة صـاحب موسـى في علمـه بحـال الغـلام[٣] . والقـدرة مثـل قصـة الذي عنـده علـم مـن الكتـاب ، وقصـة أهـل الكهف ، وقصـة مريم ، وقصـة خـالد بن الوليد[٤]

---

(١) رسالة شهاب الدين بن مري - ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٠٢) ، أقول: هذه من كرامات الشيخ شهاب الدين رحمه الله ، يقول هذا الكلام في وقت كانت تلاحق فيه مؤلفات شيخ الإسلام وتلامذته وفتاواه واختياراته ، وفي عصرنا الحاضر انظر كم دارس لتلك المؤلفات ومستخرج ومحقق وجامع ومستنبط ومخرج ، وهذا تحقيق لما قاله الشيخ رحمه الله ، وهذا البحث ما هو إلا جزء من تلك البحوث والدراسات ، سبقته أبحاث كثيرة وسيأتي بعده الكثير منها بمشيئة الله تعالى .

(٢) عن عمر ﷺ قال: ليت شعري من ذو الشين من ولدي الذي يملؤها عدلاً ، كما ملئت جوراً . هذا الأثر رواه ابن سعد في الطبقات (٢٥٤/٥) ، ونعيم بن حماد في الفتن (١٢٢/١ ، ١٣٥) ، وللاستزادة انظر: البداية والنهاية (٩/ ١٩٦) فقد أورد ابن كثير عدة روايات في هذا الموضوع .

(٣) قال تعالى:﴿ وأما الْغلاَم فَكَانَ أبواه مؤمنين فَخشِينا أن يرهِقَهما طُغياناً وكُفْراً﴾ [سورة الكهف آية ٨٠] .

(٤) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، أبو سليمان ، سيف الله ، من كبار الصحابة ، كان إسلامه بين الحديبية والفتح ، وكان أميراً على قتال أهل الردة وغيرها من الفتوح ، توفي سنة ٢١ أو ٢٢ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٤٠٥/١) ، الإصابة لابن حجر (٤١٢/١) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ١٩١) .

وقصة خالد ﷺ أنه نزل الحيرة على أمير بني المرازبة ، فقالوا له: احذر السم ، لا تسقيكه الأعاجم ، فقال: ائتوني به فأتي به فأخذه بيده ، ثم اقتحمه ، وقال: بسم الله ، فلم يضره شيئاً . وهذه القصة رواها أبو يعلى في مسنده كما في المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي (٢٣٣/٣) ، والطبراني في الكبير (١٠٥/٤-١٠٦) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥٠/٩) : رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه ، وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح ، وهو مرسل ، ورجالهما ثقات ، إلا أن أبا السفر وأبا بردة بن أبي موسى لما يسمعا من خالد .

وسفينة مولى رسول الله[(١)] ، وأبى مسلم الخولاني[(٢)] ، وأشياء يطول شـرحها ، فإن تعداد هذا مثل المطر ، وإنما الغرض التمثيل بالشيء الذي سـمعه أكثر الناس ''[(٣)] .

---

(١) سفينة مولى رسول الله ﷺ ، أبو عبدالرحمن ، مختلف في اسمه على إحدى وعشرين قولاً ، أصله من فارس اشترته أم سلمة ثم اعتقته واشترطت عليه أن يخدم النبي ﷺ ، ولقب سفينة لكونه حمل شيئاً كثيراً في السفر . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (١٢٨/٢) ، الإصابة لابن حجر (٥٧/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢٤٥) .

وقصة سفينة رضي الله عنه يرويها هو فيقول : كنت في البحر ، فانكسرت سفينتنا ، فلم نعرف الطريق ، فإذا أنا بالأسد قد عرض لنا ، فتأخر أصحابي ، فدنوت منه ، فقلت: أنا سفينة صاحب رسول الله ﷺ ، وقد أضللنا الطريق فمشى بين يدي ، حتى وقفنا على الطريق ، ثم تنحى ، ودفعني ، كأنه يوريني الطريق ، فظننت أنه يودعنا . هذه القصة رواها البزار كما في كشف الأستار (٢٧١/٣) ، والروياني في مسـنده (٤٣٦/١) ، والطبراني في الكبير (٨١/٧) ، والحاكم في المستدرك (٦٠٦/٣) ، واللالكائي في كرامات أولياء الله عز وجل (ص ١٥٩) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٩/١) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤٥/٦) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في ا مع (٣٦٦/٩-٣٦٧): رواه البزار والطبراني بنحوه ... ورجالهما وثقوا ، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٧٧/٧) : رواه أبو يعلى الموصلي بسند ضعيف ؛ لضعف أسامة بن زيد .

(٢) عبدالله بن ثوب أبو مسلم الخولاني الزاهد الشامي ، مشهور بكنيته ، وهو ثقة عابد ، رحل إلى النبي ﷺ فلم يدركه ، وعاش إلى زمن يزيد بن معاوية . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (١٩٠/٤) ، الكاشف للذهبي (٣٧٧/٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٦٧٣) .

وقصة أبي مسلم الخولاني أنه طلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة ، فقال له: أتشهد أن محمداً ﷺ رسول الله ؟ قال: نعم قال: فتشهد أني رسول الله ؟ قال: ما أسمع ، قال: فأمر بنار عظيمة ، فأججت ، وطرح فيها أبو مسلم ، فلم تضره ، فقال له أهل مملكته: إن تركت هذا في بلدك أفسدها عليك ، فأمره بالرحيل ، فقدم المدينة ، وقد قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبوبكر ، فعقل راحلته على باب المسجد وقام إلى سارية من سواري المسجد يصلي إليها فبصر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأتاه فقال: من أين الرجل ؟ قال: من اليمن ، قال: فما فعل عدو الله بصاحبنا الذي حرقه بالنار فلم تضره ؟ قال: ذاك عبدالله بن ثوب ، قال: نشدتك بالله أنت هو ؟ قال: اللهم نعم ، قال: فقبل ما بين عينيه ثم جاء به ، حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر ، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني من الدنيا حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام . هذه القصة رواها: اللالكائي في كتاب كرمات أولياء الله عز وجل (ص ١٨١-١٨٢) ، وأبو نعيم في الحلية (١٢٨/٢-١٢٩) .

(٣) قاعدة في المعجزات والكرامات - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣١٨/١١) .

ويقول أيضاً : '' الخوارق منها ما هو من جنس العلم كالمكاشفات ، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك كالتصرفات الخارقة للعادات ، ومنها ما هو من جنس الغنى عن جنس ما يعطاه الناس في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى ''[(١)] .

وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن مسألة الكرامات في كثير من مؤلفاته ، وقد قرر في هـذا الباب أحكاماً كثيرة ، سوف أذكر منها ما يتصل بالسببية مع ما يقتضيه الحال من مسائل لإكمال هذه القضية ، ومن أهم تلك المسائل :

أولاً : سـبب الكرامات ، أي سبب حصول الكرامات ، فإنه من المستقر عند أهل السـنة والجماعـة أن حصـول الكرامات لا بد لـه من سبب ، شأنه في ذلك شأن بقية المخلوقات ، والسببية تدخل في هذا الباب من ناحيتين :

الأولى : فعل الله تعالى ، وهذا له جانبان :

أحـدهما: جانـب الخلـق بالأسباب ، فالله جل وعلا يخلق بالأسباب كما تقدم ، والكـرامات ليسـت مستثناة من هذه القاعدة ، كما أن المعجزات ليست مستثناة أيضاً ، ولكـن قد لا نعلم ما تخلق به هذه الأمور ، وهذا لا يقدح في أصل قاعدة الخلق بالأسباب؛ لأن ما لا نعلمه من الأسباب التي يتم الخلق بها أكثر مما نعلمه .

والآخر: جانب السبب الغائي في الكرامة ، أي الحكمة المقصودة من الكرامة ، فإن لله تعـالى في كل أمر حكمةً بالغة لا يمكن للبشر الإحاطة بها ، ولكن قد تدرك بعض تفاصيل تلك الأمور ، ومن حِكَم الله تعالى في الكرامات :

١- تأييد الدين .
٢- تعجيل بعض ثواب المؤمنين .

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٩/١١)

٣- جلب نعمة أو دفع نقمة .
٤- زيادة إيمان من هو بحاجة إلى ذلك أو تقويته .
٥- اختبار وابتلاء من الله لبعض عباده .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله عن خرق العادات : '' وكذلك يخرقها لأوليائه تارة لتأييد دينه بذلك ، وتارة تعجيلاً لبعض ثوابهم في الدنيا ، وتارة إنعاماً عليهم بجلب نعمة أو دفع نقمة أو لغير ذلك ''[(١)] .

ويقـول أيضاً:'' ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل ، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوى إيمانه ويسد حاجته ، ويكون مـن هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك ، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لـنقص ولايته ، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة ، بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدي الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة ''[(٢)] .

ويقول أيضاً : '' خوارق العادات التي تسميها العامة كرامة ليست عند أهل التحقيق كرامة مطلقاً ، بل في الحقيقة الكرامة هي لزوم الاستقامة وهى طاعة الله ، وإنما هي مما يبتلي الله به عبده ، فإن أطاعه بها رفعه ، وإن عصاه بها خفضه ، وإن كانت من آثار طاعة أخرى كما قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾[(٣)] ''[(٤)] .

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٣٦٢/١) .
(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٣/١١) . وانظر: المصدر السابق (٢٩٨/١١-٣٠٠) .
(٣) سورة الجن آية رقم (١٦-١٧) .
(٤) قاعدة في المحبة لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (١٦٦/١) وانظر: التحفة العراقية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠/١٠) .

الناحـية الثانـية: فعل العبد ، فالكرامات لا تحصل لكل فرد من المسلمين ، بل إنما تحصل لبعض الصالحين والأخيار سواء كان من هذه الأمة أو من الأمم السابقة ، وسببها هو الإيمان والتقوى .

يقـول شـيخ الإسـلام رحمه الله :'' كرامات الأولياء لابد أن يكون سببها الإيمان والتقوى ''[1] .

ثم القـول في هذا السبب كالقول في الأسباب عامة ، فتنطبق عليه ضوابط السببية من حـيث عدم الاستقلال ، فليس كل من آمن واتقى خرقت له العادة وحصلت الكرامة ، بل حصولها يخضع لأسباب أخرى مع هذا السبب ، وقد سبق الإشارة إلى بعضها آنفاً .

وهـذا السـبب هو معيار الحكم على الكرامة ، فمن خلاله نستطيع أن نحكم على الكرامة وغيرها من الخوارق بحمد أو ذم ، فإنه ينظر في سببها ، وفيما تؤدي إليه ، فإن كان سـببها شرعياً ، وهو الإيمان والتقوى ، ونتيجتها شرعية ، فأدت إلى فعل الأوامر واجتناب النواهي فهي محمودة ، وإن كانت أسبابا غير شرعية ، فهي مذمومة ، وإن كانت الأسباب شـرعية والنتيجة مباحة فالكرامة من المباحات ، وإن كانت الأسباب شرعية والنتيجة غير شرعية كانت وبالاً على صاحبها .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وإنما الكمال في الولاية أن يستعمل خرق العادات في إقامـة الأمر والنهى الشرعيين ، مع حصولهما بفعل المأمور وترك المحظور ، فإذا حصلت بغـير الأسـباب الشرعية فهي مذمومة ، وإن حصلت بالأسباب الشرعية لكن استعملت ليتوصـل بـها إلى محرم كانت مذمومة ، وإن توصل بها إلى مباح لا يستعان به على طاعة كانـت للأبـرار دون المقربين ، وأما إن حصلت بالسبب الشرعي ، واستعين بها على فعل الأمـر الشرعي ، فهذه خوارق المقربين السابقين ، فلا بد أن ينظر في الخوارق: في أسبابها

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠٢/١١) .

وغايا ـا ، من أين حصلت ؟ وإلى ماذا أوصلت ؟ كما ينظر في الأموال: في مستخرجها ، ومصروفها ''[١] .

فإن قيل كيف يمكن أن تكون أسباب الكرامة شرعية وتؤدي إلى أمر محرم ؟

فالجواب أن يقال: هذا الإشكال قد أجاب عنه شيخ الإسلام رحمه الله ، فقد شبه هذه المسـألة بمن جاهد العدو وغنم غنيمة ، ثم أنفقها في معصية الله تعالى ، فتكون تلك الغنيمة وبالاً عليه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأكابر الأولياء إنما يستعملون هذه الكرامات بحجة للـدين أو لحاجة للمسلمين ، والمقتصدون قد يستعملو ا في المباحات ، وأما من استعان با في المعاصـي فهو ظالم لنفسه متعد حد ربه ، وإن كان سببها الإيمان والتقوى ، فمن جاهد العـدو فغنم غنيمة فأنفقها في طاعة الشيطان ، فهذا المال وإن ناله بسبب عمل صالح فإذا أنفقه في طاعة الشيطان كان وبالاً عليه ''[٢] .

وإذا ظهر أن سبب الكرامة الإيمان والتقوى ، فإن هذا الأمر لا يقتضي من العبد طلب الكـرامة أو السعي إليها ، فتكون من أكبر همه و اية سعيه ، بل الواجب عليه الاستقامة ، فهـي المطلوبة منه شرعاً ، وهي أعظم كرامة ينالها المرء في حياته ؛ لأن الكرامة بخرق العادة قد تكون ابتلاء من الله تعالى لعباده ، والعبد لا يدري أيسعد با ، أم يشقى ؟

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الكرامة لزوم الاستقامة ، وأن الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه ، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا

---

(١) شرح كلمات لعبدالقادر في فتوح الغيب - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٩٩/١٠-٥٠٠) .
(٢) قاعدة في التوسل والوسيلة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧٧/١) .

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[(١)] فإن كانوا موافقين له فيما أوجبه عليهم فهم من المقتصدين ، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه فهم من المقربين ، مع أن كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجباً .

وأما ما يبتلى الله به عبده من السراء بخرق العادة أو بغيرها أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ، ولا هوانه عليه ، بل قد يسعد بها أقوام إذا أطاعوه في ذلك ، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه في ذلك ، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ ﴾[(٢)] "[(٣)] .

ثانياً : الفرق بين كرمات الأولياء ومعجزات الأنبياء :

لقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن الفروق بين الكرامات والمعجزات ، وعدد كثيراً منها ، في مواضع متفرقة من كتبه ، ومن أبرز تلك الفروق ما يلي :

١- أن معجـزات الأنبـياء من حيث القدر والجنس نوعان: آيات كبرى ، وآيات صغرى ، فالكبرى مختصة بالأنبياء كانشقاق القمر والقرآن وقلب العصا حية وانفلاق البحر ونحوها ، أما الصغرى فقد تكون للصالحين لكن ليس بقدر المعجزات ، فتكثير الطعام وجد للنبي ﷺ ، فقد أطعم جيشاً من طعام يسير ، ووجد لبعض الصالحين لكن ليس بهذا القدر ،

وكـذلك نار الخليل ، فإن أبا مسلم الخولاني وغيره صارت النار عليهم برداً وسلاماً لكن لم تكن مثل نار إبراهيم ﷺ في عظمتها ، فأبو مسلم مشارك للخليل في جنس الآية ،

---

(١) سورة يونس آية رقم (٦٢) .

(٢) سورة الفجر آية رقم (١٥-١٧) .

(٣) التحفة العراقية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩/١٠-٣٠) ، وانظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٨/١١) .

كمـا هو مشارك في جنس الإيمان ، لكن ما امتاز به الخليل من ذلك لا يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله .

المقصود أن الأنبياء لهم اختصاص بالمعجزة: إما من حيث الجنس ، أو من حيث القدر والكيفية .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وأما كرامات الأولياء فهي أيضاً من آيات الأنبياء ، فإ ا إنما تكون لمن يشهد لهم بالرسالة ، فهي دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوة .

وأيضـاً فإن كرامات الأولياء معتادة من الصالحين ، ومعجزات الأنبياء فوق ذلك ، فانشـقاق القمـر والإتيان بالقرآن ، وانقلاب العصا حية ، وخروج الدابة من صخرة ، لم يكـن مثله للأولياء ، وكذلك خلق الطير من الطين ، ولكن آيا م صغار وكبار ، كما قال تعالى: ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴾[1] فلله تعالى آية كبيرة وصغيرة ، وقال عن نبيه محمد ﷺ ﴿ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴾[2] .

فالآيـات الكبرى مختصة بم ، وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصالحين مثل تكثير الطعـام ، فهـذا قد وجد لغير واحد من الصالحين ، لكن لم يوجد كما وجد للنبي ﷺ أنه أطعم الجيش من شيء يسير ، فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وجد لهم ، لكن لا يماثلون في قدره ، فهم مختصون ، إما بجنس الآيات فلا يكون لمثلهم كالإتيان بالقرآن وانشقاق القمر ، وقلـب العصـا حـية ، وانفلاق البحر ، وأن يخلق من الطين كهيئة الطير ، وإما بقدرها وكيفيتها ، كنار الخليل فإن أبا مسلم الخولاني وغيره صارت النار عليهم برداً وسلاماً ، لكن لم تكـن مثل نار إبراهيم في عظمتها كما وصفوها ، فهو مشارك للخليل في جنس الآية ،

(١) سورة النازعات آية رقم (٢٠) .
(٢) سورة النجم آية رقم (١٨) .

كمـا هو مشارك في جنس الإيمان محبة الله وتوحيده ، ومعلوم أن الذي امتاز به الخليل من هذا لا يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله ''[١] .

٢- الكـرامات تـنال بالأعمال الصالحة من الدعاء والعبادة ونحوها ، وإن كان هذا السـبب لـيس مستقلاً بالتأثير ، بل هو بحاجة إلى أسباب أخرى معه ، بخلاف معجزات الأنبـياء فإ ـا لا تنال بأي عمل مطلقاً ، فمهما عمل المرء واجتهد فإنه لا ينال بذلك أي معجزة .

يقـول شـيخ الإسـلام رحمه الله عن الكرامات :'' وهذه تنال بالصلاح بدعائهم وعباد م ، ومعجزات الأنبياء لا تنال بذلك ولو طلبها الناس حتى يأذن الله فيها ﴿ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ ﴾[٢] ، ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾[٣] ''[٤] .

٣- المعجزات تستلزم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في كل ما يقولونه ويبلغونه عن الله تعالى ، بينما الكرامة لا تستلزم عصمة الولي ، فقد يخطئ وقد يضل ، ولهذا لا يجب اتباعه ، بل يجب اتباع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وجود الكرامات على أيدي الصالحين لا توجب أن يكونوا معصومين كالأنبياء ، لكن يكون الرجل صالحاً ولياً لله ولـه كرامات ، ومع هذا فقد يغلط ويخطئ فيما يظنه ، أو فيما يسمعه ويرويه ، أو فيما يراه ، أو فيما يفهمه من الكتب .

---

(١) النبوات لابن تيمية (٢/٨٠١-٨٠٤) .
(٢) سورة الأنعام آية رقم (١٠٩) .
(٣) سورة الأنعام آية رقم (٣٧) .
(٤) النبوات لابن تيمية (١/٥٦٠) .

ولهذا كان كل من سوى الأنبياء يؤخذ من قولهم ويترك ، بخلاف الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، فـإنه يجب تصـديقهم في كـل مـا أخبروا به مـن الغيب ، وطاعتهم في كل ما أمروا به .

ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتوه ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتي به غيرهم قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[1] ''[2] .

٤- المعجزات كرامة للأنبياء ورفعة لهم بصورة مطلقة ، بينما كرامات الأولياء ليست كرامة مطلقة ، بل ينطبق عليها كل ما ينطبق على غيرها من النعم التي ينعمها الله على عباده فـإن اسـتعان بـها على الطاعة والخير والهدى ، كانت خيراً في حقه ورفعة له لته ، وإن اسـتعان بها على المباحات كانت من الأمور المباحة ، وإن استعان بها على المحرمات كانت وبالاً عليه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور إن استعان بـه على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله ، ازداد بذلك رفعة وقرباً إلى الله ورسوله وعلت درجته .

وإن اسـتعان بـه على ما ى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش ، استحق بذلك الذم والعقاب ، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ما حية وإلا كان كأمثاله من المذنبين ''[3] .

(١) سورة البقرة آية رقم (١٣٦) .
(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية (٣٤٤/٢) .
(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٩/١١) .

ثالثاً : الفرق بين كرامات الأولياء وخوارق السحرة والكهان :

لقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن الفروق بين كرامات الأولياء وخوارق السحرة والكهان في مواضع متفرقة من كتبه ، ذلك أن من الناس من اشتبه عليه الأمرين فخلط بينهما ، بل وجعلهما جنساً واحداً ، الأمر الذي ترتب عليه ضلال بعض الزهاد والعباد وإضلالهم لغيرهم ، ذلك أن الشياطين تتصور بصور بعض العباد ، وتعين من يستغيث بهم أو ينذر لهم أو يدعوهم ، فتحسن لهم الشرك والضلال ، والجاهل من هؤلاء يظن أن هذا من كرامات الصالحين ، وقد يوصي اتباعه بالاستغاثة به حتى بعد موته ، فيقع في الشرك هو وأتباعه من حيث لا يشعرون ، ومن هنا تأتي أهمية معرفة الفرق بين كرامات الأولياء وخوارق السحرة والدجالين وتلبيسات الشياطين .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " أعرف غير واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعبادة ، لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصى مريديه يقول: إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغث بي وليستنجدني وليستوصني ، ويقول: أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي ، وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته ؛ لتضله وتضل أتباعه ، فتحسن لهم الإشراك بالله ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله ، وأنها قد تلقي في قلبه أنا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم في حياتك ، فيظن هذا من خطاب إلهي ألقي في قلبه ، فيأمر أصحابه بذلك "[(١)] .

ومن طرق تمييز كرامات الأولياء عن خوارق الشياطين :

١- النظر في سبب ذلك الخارق ، وفيما يؤدي إليه ، فإن كان سببه اتباع الشرع بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وأدى إلى مثل ذلك ، فهو من كرامات الأولياء ، وإن

(١) تفسير سورة الإخلاص - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٥٧/١٧) .

كـان سببه مخالفة الشرع من الشرك والظلم والفسق والمعاصي ونحوها ، فهو من الخوارق الشيطانية وليس من الكرامات الرحمانية .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى ، والأحوال الشيطانية سببها ما ى الله عنه ورسوله ، وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١) .

فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرمه الله تعالى ورسوله ، فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها .

فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ، بل تحصل بما يحبه الشيطان ، وبالأمور التي فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوقات ، أو كانت مما يستعان با على ظلم الخلق ، وفعل الفواحش ، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية .

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنـزل عليه شيطانه ، حتى يحمله في الهواء ، ويخرجه من تلك الدار ، فإذا حصل رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط كما جرى هذا لغير واحد ''(٢) .

٢- ومـن طرق تمييز الكرامات عن خوارق الشياطين ذكر الله تعالى وتوحيده وقراءة القـرآن لا سـيما قوارع القرآن وآية الكرسي ، فإ ا تقوي الكرامات ، وتبطل أو تضعف الخوارق الشيطانية .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (٣٣) .

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٧/١١) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وهذه الأحوال الشيطانية تبطل أو تضعف إذا ذكر الله وتوحـيده ، وقرئت قوارع القرآن لا سيما آية الكرسي ، فإ ا تبطل عامة هذه الخوارق الشيطانية ، وأما آيات الأنبياء والأولياء فتقوى بذكر الله وتوحيده "[(١)] .

٣- ومـن طـرق تمييـز الكرامة عن الخارق الشيطاني إمكان المعارضة ، فكرامات الصالحين لا يمكن معارضتها بمثلها ، ولا بأقوى منها ؛ لأ ا كلها تسير في اتجاه واحد ، فهي تتعاضـد وتتساند مع بعضها ، بخلاف خوارق الدجالين ، فإنه قد يعارض بعضها بعضاً ، وينتج عنها إما قتل أو إمراض أو سلب حال أو نحو ذلك مما يحصل مثله بين الدجالين .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : " ما يأتي به السحرة والكهان وكل مخالف للرسل تمكن معارضته بمثله وأقوى منه ، كما هو الواقع لمن عرف هذا الباب .

وآيات الأنبياء لا يمكن أحد أن يعارضها لا بمثلها ولا بأقوى منها .

وكـذلك كـرامات الصالحين لا تعارض لا بمثلها ولا بأقوى منها ، بل قـد يكون بعضـها آيـات أكبر من بعض ... لكنها متصادقة متعاونة على مطلوب واحد وهو عبادة الله وتصـديق رسـله ، فهي آيات ودلائل وبراهين متعاضدة على مطلوب واحد ، والأدلة بعضها أدل وأقوى من بعض .

ولهـذا كان المشايخ - الذين يتحاسدون ويتعادون ويقهر بعضهم بعضاً بخوارقه: إما بقـتل وإمـراض ، وإما بسلب حاله وعزله عن مرتبته وإما غير ذلك - خوارقهم شيطانية ليست من آيات الأنبياء والأولياء "[(٢)] .

---

(١) انظر : النبوات لابن تيمية (١٠٣٠/٢) .

(٢) النبوات لابن تيمية (١٠٨٢/٢) .

الفصل الرابع

السببية والطبائع

وفيه مبحثان :

المبحث الأول: صفات الأفعال .

المبحث الثاني : طبائع الأشياء .

تمهيد

يعتـبر موضوع السببية والطبائع من الموضوعات المهمة في العقيدة ، فهو يمس جوانب خطـيرة في عقيدة أهل السنة والجماعة ، فهذا الموضوع له ارتباط وثيق بمسألة صفات الله تعالى ، وخاصة مسألة الحكمة والتعليل في أفعال الله ، إضافة إلى قضية الإرادة والمشيئة وما فـيها من مسائل ، وأيضاً مسألة المعاد وما قرره أهل السنة والجماعة فيه كما سيتبين ذلك كله خلال هذا الفصل .

ومن أبرز مسائل هذا الفصل قضية صفات الأفعال وطبائع الأشياء ، فهاتان المسألتان لهمـا ارتباط أساسي بقضية السببية ، فهما تعتبران جزءاً مهماً من السببية الموجودة في هذا العـالم ، وقد رتب الشارع الحكيم عليهما أحكاماً كثيرة ، ولهذا سوف تكون الدراسة في هذا الفصل مندرجة في مبحثين هما :

المبحث الأول: صفات الأفعال .

المبحث الثاني: طبائع الأشياء .

المبحث الأول

صفات الأفعال

صفات الأفعال

لا شك أن الأفعال متصفة بالصفات ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وتنقسم هذه الصفات باعتبار الشرع والقدر إلى قسمين:

القسم الأول: وصف الفعل لذاته وحقيقته ، وهو وصف ثابت مقتض للحكم متضمن ما يشتمل عليه الفعل من المصلحة والمفسدة ، كالصدق مثلاً فإنه وصف ثابت لذات الفعل مشتمل على المصلحة ، وضده الكذب ، وهو وصف ثابت مشتمل على المفسدة .

وذلك الوصف ناشئ عن خلق الله تعالى وتقديره للأفعال ، من جنس خلق الله تعالى للأسباب ومسبباتها ، فكما أن تناول الطعام سبب للشبع ، وشرب الماء سبب للري ، فكذلك صفات الفعل هي سبب لما يترتب عليها من المصلحة والمفسدة .

القسم الثاني: وصف الفعل بحكمه ، وهو حكم الشرع على الأفعال من الحل والحرمة ونحوها ، فإذا حكم الشارع على فعل بحل أو حرمة ، فهذه الأحكام هي صفات لتلك الأفعال .

وهذه الصفات ناشئة عن خطاب الله تعالى الشرعي ، وهذا الخطاب سببه تحليل الله أو تحريمه لهذا الفعل ، وهذا التحليل أو التحريم سببه علم الله تعالى بما في ذلك من صفات مقتضية للحل أو الحرمة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وهنا أمور أربعة:

أحدها: الوصف الثابت المقتضي للحرمة في الحال التي اقتضاها .

والثاني: علم الله سبحانه بهذا الوصف المقتضي .

والثالث: حكم الله الذي هو التحريم مثلاً ، فإنه سبحانه لما علم ما في الفعل من المصلحة والمفسدة ، حكم بمقتضى علمه ، وهذه الإضافة ترتيب ذاتي عقلي ، لا ترتيب

وجودي زماني ، كترتيب الصفة على الذات ، وترتيب العلم على الحياة ، والترتيب الحاصل في الكلام الموجود في آن واحد ، ونحو ذلك مما يشهد العقل ملازمته ، ترتيباً اقتضته الحقيقة وكنه ذلك مغيب عن علم الخلق .

والرابع: المحكوم به ، الذي هو الحرمة القائمة بالفعل ، سواء جعلت صفة عينية ، أو جعلت إضافة محضة ، أو جعلت عينية مضافة ''[١] .

وهذا النص من شيخ الإسلام رحمه الله يتضمن ما ذكرته من القسمين ، فالأول هو القسم الأول ، والرابع هو القسم الثاني ، وكلاهما قد جعل من صفات الأفعال .

وأما كون صفات الفعل هي أسباب لما يترتب عليها من المصلحة والمفسدة ، فالنص الذي وقفت عليه لشيخ الإسلام رحمه الله في هذه القضية هو عبارة عن إشارة سريعة مجملة[٢]، لكن تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله بسط المسألة ، وكان نصه أوضح في هذه القضية ولهذا سوف أنقله هنا .

يقول رحمه الله : '' كون الفعل حسناً أو قبيحاً لذاته أو لصفة ،لم يعن به أن ذلك يقوم [بحقيقته][٣] لا ينفك عنها بحال ، مثل: كونه عرضاً ، وكونه مفتقراً إلى محل يقوم به ، وكون الحركة حركة ، والسواد لوناً ، ومن هاهنا غَلِط علينا المنازعون لنا في المسألة ، وألزمونا مالا يلزمنا ، وإنما نعنى بكونه حسناً أو قبيحا لذاته أو لصفته: أنه في نفسه منشأ للمصلحة والمفسدة وترتيبهما عليه كترتيب المسببات على أسبابا المقتضية لها ، وهذا كترتيب الري على الشرب ، والشبع على الأكل ، وترتب منافع الأغذية والأدوية ومضارها عليها ، فحسن الفعل أو قبحه هو من جنس كون الدواء الفلاني حسناً نافعاً أو

---

(١) بيان الدليل على بطلان التحليل لابن تيمية (ص ٣١٤) .

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (١٧٨/٣) .

(٣) في الأصل [بحقيقة] ولعل الصواب ما أثبته .

قبيحاً ضاراً ، وكذلك الغذاء واللباس والمسكن والجماع والاستفراغ والنوم والرياضة وغيرها ، فإن ترتب آثارها عليها ترتب المعلولات والمسببات على عللها وأسبابها ''[١] .

وقد تبين مما سبق اشتمال الأفعال على المصالح والمفاسد ، والفعل المتضمن للمصلحة لا شك أنه حسن ، والفعل المتضمن للمفسدة لا شك أنه قبيح ، وبهذا فالأفعال تتصف بالحسن والقبح تبعاً لما فيها من المصلحة والمفسدة .

وقد ظن بعض الناس أن هذا يستلزم قيام العرض بالعرض ؛ لأن الفعل عرض ، وصفته أيضاً عرض ، وهذا غير صحيح ، فإن العرض عندما يتصف بالصفة يكون هو وصفته قائم بالعين الموصوفة ، فليست الصفة قامت بالصفة ، ولم يقم العرض بالعرض إطلاقاً ، فعندما نقول: سواد شديد وحركة سريعة ونحو هذا ، فالسواد والحركة من الأعراض ومع ذلك اتصفا بالشدة والسرعة ، وهذه الصفات من الأعراض أيضاً ، لكن السواد وشدته ، والحركة وسرعتها كل ذلك قائم بالعين الموصوفة ، فلم تقم الأعراض ببعضها .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن الحسن والقبح في الأفعال: '' إثبات هذا لا يحتاج إلى قيام العرض بالعرض ، كما توصف الأعراض بالصفات وجميع ذلك قائم بالعين الموصوفة ، فنقول: هذا سواد شديد ، وهذه حركة سريعة وبطيئة ''[٢] .

أدلة اتصاف الأفعال بالحسن والقبح :

ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أدلة كثيرة على اتصاف الأفعال بالحسن والقبح ، أدلة من الكتاب والسنة والعقل والحس والفطرة ، وفيما يلي بعضاً منها :

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢٨/٢) .
(٢) الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٤٣١) ، وانظر: التسعينية لابن تيمية (٩٠٩/٣) .

أولاً : أدلة الكتاب والسنة :

يعمِـد شـيخ الإسلام رحمه الله في سياق إثبات اتصاف الأفعال بالحسن والقبح إلى مجمـوعة كبيرة من النصوص الشرعية ، ويحاول أن يستخرج منها ما يدل على ذلك ، فمن ذلك :

أ- الأدلة الدالة على قبح أعمال الكفار قبل مجيء الرسل إليهم ، ولو كانت الأفعال لا تقـبح إلا بالشـرع لما قبحت تلك الأفعال إلا بعد مجيء الشرع ، وشيخ الإسلام رحمه الله يفيض في هذا القسم ويذكر نصوصاً كثيرة متنوعة ، فمن ذلك :

١- قول الله تعالى لموسى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[(١)] ، حـيث أخبر عن طغيانه قبل إرسال موسى ﷺ إليه .

٢- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[(٢)] ، فهذا خبر عن حال فرعون - قبل أن يولد موسى ﷺ ، وحين كان صغيراً قبل أن يأتيه برسالة - أنه كان طاغياً مفسداً[(٣)] .

---

(١) سورة النازعات آية رقم (١٧-١٩) .
(٢) سورة القصص آية رقم (٤-٦) .
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٦٧٨) .

٣- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ ﴾[1] فأخبر عن فرعون أنه عدو لله ، ولم يكن جاءته الرسالة بعد[2] .

٤- قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فدل على أ ا كانت فاحشة عندهم قبل أن ينهاهم بخلاف قول من يقول: ما كانت فاحشة ولا قبيحة ولا سيئة حتى اهم عنها ، ولهذا قال لهم: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ ﴾[4] ، وهذا خطاب لمن يعرفون قبح ما يفعلون ، ولكن أنذرهم بالعذاب ''[5] .

٥- قـوله تعالى عن خطاب شعيب لقومه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[6] .

وهـذا يـبين أن ما فعلوه كان بخساً للناس أشياءهم ، وأ م كانوا عاثين في الأرض مفسـدين قبل أن ينهاهم ، بخلاف قول ا برة: أن ظلمهم ما كان سيئة إلا لما اهم ، وأنه

---

(١) سورة طه آية رقم (٣٧-٣٩) .
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٧٨/١١) .
(٣) سورة الأعراف آية رقم (٨٠) .
(٤) سورة العنكبوت آية رقم (٢٩) .
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٨٠/١١) .
(٦) سورة هود آية رقم (٨٥) .

قبل النهي كان به له سائر الأفعال من الأكل والشرب وغير ذلك ، كما يقولون في سائر ما ت عنه الرسل من الشرك والظلم والفواحش[١] .

٦- قـولـه تعـالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾[٢] . فهـذا توبيخ من نبي الله إبراهيم ﷺ لأبيه على فعله قبل النهي[٣] .

٧- قـولـه تعـالى حكاية لقول الخليل ﷺ لقومه: ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٤] إلى قـوله: ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[٥] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله: '' فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه قبل النهي وقبل إنكـاره عليهم ، ولهذا استفهم استفهام منكر فقال: ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[٦] أي: وخلـق مـا تنحـتون ، فكيف يجوز أن تعبدوا ما تصنعونه بأيديكم وتدعون رب العالمين .

فلـولا أن حسن التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وقبح الشرك ثابت في نفس الأمر معلوم بالعقل ، لم يخاطبهم بهذا ؛ إذ كانوا لم يفعلوا شيئاً يذمون عليه ، بل كان

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٨١/١١) .
(٢) سورة مريم آية رقم (٤١-٤٢) .
(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٨١/١١) .
(٤) سورة الصافات آية رقم (٨٥-٨٧) .
(٥) سورة الصافات آية رقم (٩٥-٩٦) .
(٦) سورة الصافات آية رقم (٩٥-٩٦) .

فعلهم كأكلهم وشربهم ، وإنما كان قبيحاً بالنهي ، ومعنى قبحه كونه منهياً عنه ، لا لمعنى فيه كما تقوله المجبرة "[١] .

٨- ومن السنة حديث حذيفة[٢] رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت: يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال: ((**نعم**)) قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال: ((**نعم ، وفيه دخن**)) قلت: وما دخنه ؟ قال: ((**قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر**)) قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال: ((**نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**)) قلت: يا رسول الله ، صفهم لنا ، قال: ((**هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**)) قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال: ((**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**)) قلت: ((**فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام**)) قال: ((**فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**))[٣] .
فهذا بيان أن ما عليه الكفار قبل مجيء الرسل شر وقبيح[٤] .

ب- الأدلة الدالة على أمر الرسل عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين أقوامهم أن يستغفروا ويتوبوا عما فعلوه قبل مجيء الرسل إليهم ، ولو كانت الأفعال لا تقبح إلا بالشرع

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٨١/١١-٦٨٢) .
(٢) حذيفة بن اليمان العبسى حليف الأنصار ، واسم اليمان: حسيل ، صحابي جليل من السابقين هو وأبوه ، استعمله عمر رضي الله عنه على المدائن ، وتوفي رضي الله عنه في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة ٣٦ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٢٧٦/١) ، الإصابة لابن حجر (٣١٦/١) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ١٥٤) .
(٣) رواه البخاري في الفتن باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٢٥٩٥/٦-٢٥٩٦) ح(٦٦٧٣) واللفظ له ، ومسلم في الإمارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج عن الطاعة ومفارقة الجماعة (١٤٧٥/٣-١٤٧٦) ح(١٨٤٧) ، وأحمد في المسند (٤٠٦/٥) ، وابن ماجة في الفتن ، باب العزلة (١٣١٧/٢) ح(٣٩٧٩) . والدخن : مصدر دخِنت النار تدخن إذا ألقي عليها حطب رطب فكثر سوادها . انظر: النهاية لابن الأثير (١٠٩/٢) .
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٧٧/١١) .

لما أمروا بالاستغفار والتوبة منها ، ولأصبحت بمنزلة المباحة المستوية الطرفين ، ومن النصوص الواردة في ذلك :

١- قوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾[١] .

٢- قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[٢] .

٣- قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾[٣] ، وهذا يدل على أن لهم ذنوباً قبل إنذاره إياهم[٤] .

٤- قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ ﴾[٥] .

---

(١) سورة هود آية رقم (١-٣) .
(٢) سورة فصلت آية رقم (٦-٧) .
(٣) سورة نوح آية رقم (١-٤) .
(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٧٩/١١) .
(٥) سورة هود آية رقم (٥٠-٥٢) .

٥- قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[1][2].

ج- النصـوص الدالة على أن من ارتكب معصية بجهالة فعليه التوبة ، فهذه النصوص وإن كانت فيمن علم بالتحريم ، إلا أ ا أيضا تتناول من لم يسمع الخطاب ، ليس من حيث العقاب ، فلا عقوبة إلا بعد سماع الخطاب وقيام الحجة ، ولكن من حيث كونه يصدق عليه أنه عامل سوءاً فينبغي عليه التوبة ، ومن تلك النصوص :

١- قـولـه تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] .

٢- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[4] .

٣- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5][6].

---

(١) سورة هود آية رقم (٦١) .
(٢) انظر فيما سبق : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٧٩/١١-٦٨٠) .
(٣) سورة الأنعام آية رقم (٥٤) .
(٤) سورة النساء آية رقم (١٧) .
(٥) سورة النحل آية رقم (١١٩) .
(٦) انظر فيما سبق من الأدلة : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٨٣/١١) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فدل على أنه يكون عاملاً سوءاً وإن كان لم يسمع الخطاب المبين المنهي عنه ، وأنه يتوب من ذلك ، فيغفر الله له ويرحمه ، وإن كان لا يستحق العقاب إلا بعد بلوغ الخطاب وقيام الحجة ''[1] .

د- وهناك نصوص أخرى متنوعة في الدلالة على حسن الأفعال وقبحها عقلاً ومنها :

١- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2] .

ويشـرح شيخ الإسلام رحمه الله وجه دلالته فيقول: '' فدل ذلك على أن الفعل في نفسـه معروف ومنكر ، والمطعوم طيب وخبيث ، ولو كان لا صفة للأعيان والأفعال إلا بتعلق الأمر والنهي ، لكان التقدير: يأمرهم بما يأمرهم ، وينهاهم عما ينهاهم ، ويحل لهم ما يحل لهم ، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم ، والله م ه عن مثل هذا الكلام ''[3] .

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[4] .

ويوضح شيخ الإسلام رحمه الله وجه الدلالة في هذه الآية فيقول: '' علل النهي عنه بما اشـتمل عليـه مـن أنـه فـاحشـة ، وأنـه سـاء سـبيلاً ، فلو كـان

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٨٤/١١) .
(٢) سورة الأعراف آية رقم (١٥٧) .
(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (١٧٩/٣) .
(٤) سورة الإسراء آية رقم (٣٢) .

إنمـا صـار فاحشـة وسـاء سبيلاً بالنهي ، لما صح ذلك ؛ لأن العِلة تسبق المعلول لا تتبعه ''[1] .

٣- قـ ـوله تعـ ـالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[2][3].

ويوضح شيخ الإسلام رحمه الله جهة دلالة هذا الدليل فيقول: '' فيستدل به على أن في الأفعال السيئة من الصفات ما يمنع أمر الشرع بها ؛ فإنه أخبر عن نفسه في سياق الإنكار عليهم أنه لا يأمر بالفحشاء ، فدل ذلك على أنه منزه عنه ، فلو كان جائزا عليه لم يتنزه عنه فعلـم أنه لا يجوز عليه الأمر بالفحشاء ، وذلك لا يكون إلا إذا كان الفعل في نفسه سيئاً ، فعلم أن كلما كان في نفسه فاحشة ، فإن الله لا يجوز عليه الأمر به ''[4].

ثانياً : أدلة العقل والحس والفطرة :

يهـتم شـيخ الإسلام رحمه الله كثيراً بالأدلة العقلية والحسية ، ويسوق قدراً منها في الاسـتدلال علـى المسـائل المخـتلفة ، حسبما تقتضيه طبيعة المسائل ، من حيث إمكان الاستدلال فيها بالعقل .

وهـذه المسألة مما يمكن الاستدلال فيها بالعقل ، بل الدلالة العقلية فيها تعتبر إحدى الركائز التي يعتمد عليها في هذه المسألة ؛ ذلك أن نفاة الحسن والقبح في الأفعال ، إنما نفوا إمكانـية معـرفة الحسن والقبح بالعقل ، فإذا كان العقل أصلاً يدل على اتصاف الأفعال

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥/٨-٩) ، وانظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/٧) .
(٢) سورة الأعراف آية رقم (٢٨) .
(٣) انظر فيما سبق: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/١٧٩) .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥/٨) .

بالحسن والقبح كان ذلك أبلغ في تقرير المسألة من ناحية ، وأبلغ في الرد عليهم من ناحية أخرى .

وقد ساق شيخ الإسلام رحمه الله مجموعة من الأدلة العقلية والحسية والفطرية على هذه القضية ، ومن أبرز ذلك ما يلي :

أولاً : الأدلة العقلية :

١- أن معرفة الحسن والقبح عند الإنسان هي من أخص صفات العقل ، فكيف يكون الإنسان عاقلاً وهو لا يميز بين الحسن والقبيح ، بين النافع والضار ، فالتمييز بينهما عند كل عاقل ، فهو يعلم ما ينفعه ويفعله ، ويعلم ما يضره ويتركه ، بل إن تفاوت وتفاضل عقول الناس هو بمعرفة هذه الأمور والعمل بمقتضاها .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فأخص صفات العقل عند الإنسان أن يعلم الإنسان ما ينفعه ويفعله ، ويعلم ما يضره ويتركه ، والمراد بالحسن هو النافع ، والمراد بالقبيح هو الضار ، فكيف يقال: إن عقل الإنسان لا يميز بين الحسن وبين القبيح ، وهل [عظم][1] تفاضل العقلاء إلا بمعرفة هذا من هذا ؟ بل وجنس الناس يميل إلى من يتصف بالصفات الجميلة ، وينفر عمن يتصف بالقبائح ، فذاك يميل جنس الإنسان إلى سمع كلامه ورؤيته ، وهذا ينفر عن رؤيته وسمع كلامه ''[2] .

٢- أن اتفاق الناس على معرفة الحسن والقبح بعقولهم أعظم من اتفاقهم على ما يذكره الفلاسفة من الأمور الكلية العقلية مثل : عدم اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما ، فقد يعيش الناس زمناً طويلاً ، ولا تخطر لهم هذه القضايا الكلية العقلية ، بخلاف مسألة الحسن

---

(١) في الأصل [أعظم] ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٤٢٩-٤٣٠) .

والقبح ، فإنه لا توجد طائفة من الناس إلا وهي تحسن العدل والصدق والعلم ، وتقبح ضد ذلك .

يقـول شـيخ الإسـلام رحمه الله : '' وإذا تصور معنى الحسن والقبح علم أن هذه المشـهورات مـن أعظم اليقينيات ، فإ ا مما اتفقت عليها الأمم ، لما علموه بالحس والعقل والتجربة ، بل اتفاق الناس على هذه أعظم من اتفاقهم على عامة ما يذكرونه .

وقـد يعيش طوائف من الناس زماناً ولا تخطر لهم القضايا الكلية العقلية التي جعلوها مبادئ العلم ، كقول القائل: ' النفي والإثبات لا يجتمعان ' ، وإن كان يعلم أن هذا الشيء المعـين إذا كان موجوداً لم يكن معدوماً ، لكن قد لا تخطر لهم القضية الكلية ، بل وقد لا يخطـر لهم تقدير اجتماع وجوده وعدمه ، فإن هذا التقدير ممتنع ، فلا يخطر لأكثر الناس ، ولا توجد طائفة إلا وهي تحسن العدل والصدق والعلم والإحسان وتقبح ضد ذلك ''[(١)].

٣- أن الحكمة عند الناس هي العلم والعمل ، وهي مبنية على قضايا الحسن والقبح ، كحسن العدل وقبح الظلم ، فإذا لم تكن هذه القضايا معلومة بالعقل لم تكن الحكمة - وما تتضمنه من العلم والعمل والأخلاق المحمودة والمذمومة - معلومة ، وهذه مكابرة ظاهرة .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والمقصود أن الحكمة العملية كلها مبنية على هذه القضـايا ، والنفس لها قوتان: العلمية والعملية ، والعمل لا بد أن يكون بعلم ، فإن لم تكن هـذه القضـايا معلـومة ، لم يكن شئ من الحكمة العملية معلوماً ، ولا شئ من الأعمال والأخـلاق المحمودة والمذمومة معلوماً ، وهذا مع ما فيه من المناقضة لما يقولونه هم وغيرهم من العقلاء ، فهو مكابرة ظاهرة ''[(٢)] .

(١) المصدر السابق (ص ٤٢٤) .
(٢) المصدر السابق (ص ٤٢٦) .

٤- أن أحكـام الأفعال التي هي الحل والحرمة ، وهي من صفات الفعل تتبع صفات ذات الفعـل ، فإنه من غير المعقول أن يجيء الشرع إلى الأفعال المتساوية في ذوا ا ، فيجعل في أحـدها الحل ، وفي الآخر الحرمة ، من غير سبب تختص به تلك الأفعال ، وهل هذا إلا محض التحكم ، والترجيح دون مرجح ، الذي لا يفعله حيوان أصلا لا عاقل ولا مجنون .

ثم إن اعـتقاد العـبد تسـاوي الأفعال بحيث لا تتميز فيما بينها بحسن ولا سوء ولا مصـلحة ولا مفسدة ، مع اعتقاده أن هذا واجب يذم تاركه ، وهذا حرام يعاقب فاعله ، تـناقض في العقـل وسفسطة[١] ؛ لأن اعتقاد الوجوب والتحريم يتضمن اعتقاد الرجحان والتفضيل ، واعتقاد التساوي والتماثل ينافي اعتقاد الرجحان والتفضيل ، فكيف يجمع العاقل بين الاعتقادين المتناقضين .

ثم إن شـأن الأدلـة الدلالة على المطلوب وليس إيجاد المطلوب ، فإذا لم يكن للدليل مدلول - لأن الأفعال متساوية - كان المطلوب وجود المدلول ، وهذا ليس شأن الأدلة ، بل شـأن الأسـباب والعلل التي توجد المسببات ، وفرق بين الدليل المقتضي للعلم والاعتقاد الذهني ، وبين الدليل المقتضي للوجود الخارجي .

وقبل أن أورد نص كلام شيخ الإسلام رحمه الله في هذه القضية هناك ملاحظة مهمة هـنا ، وهـي أن هذا النص في الأصل إنما هو على من جعل الأحكام تتبع الاعتقاد ، فقد ناقشهم شيخ الإسلام رحمه الله ورد عليهم ، ولهذا يوجد في كلامه ما لا يتناسب مع القضية موضوع البحث ، وقد استخلصت منه الدليل العقلي السابق ذكره .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : " فإن المؤمن الطالب لحكم الله إذا علم أن تلك الأفعال عند الله سواء ، لم يميز بعضها عن بعض بأمر ولا ي ، وهي في أنفسها سواء لم يميز

---

(١) السفسـطة عـند الفلاسفة: الحكمة المموهة ، وعند المنطقيين: قياس مركب من الوهميات ، والغرض منه تغليط الخصـم وإسـكاته ، وقيل: قياس ظاهره الحق وباطنه الباطل يقصد به خداع الآخرين . انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١٧٣/٣) ، المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٦٥٨/١) ، المعجم الفلسفي مع اللغة (ص ٩٧) .

بعضها عن بعض بحسن ولا سوء ولا مصلحة ولا مفسدة ، فإن هذا الاعتقاد منه موجب لاستوائها وتماثلها ، فاعتقاده بعد هذا أن هذا واجب يذم تاركه ، وهذا حرام يعاقب فاعله تناقض في العقل وسفسطة ، وكفر في الدين وزندقة[١] .

أما الأول: فلأن اعتقاد التساوي والتماثل ينافي اعتقاد الرجحان والتفضيل ، فضلا عن وجوب هذا وتحريم هذا ، فكيف يجمع العاقل بين الاعتقادين المتناقضين ، إلا أن يكون أخرق كافراً ، فيقول: أنا أوجب هذا وأحرم هذا ، بلا أمر من الله ، ولا مرجح لأحدهما من جهة العقل ، فإذا فعل هذا كان شارعاً من الدين لما لم يأذن به الله .

وهو مع هذا دين معلوم الفساد بالعقل ، حيث جعل الأفعال المستوية بعضها واجب وبعضها محرم ، بلا سبب يوجب التخصيص ، إلا محض التحكم الذي لا يفعله حيوان أصلاً لا عاقل ولا مجنون ، إذ لو فرض اختصاص أحد الفعلين لشهوة أو لذة أمكن أن يقال: تلك جهة توجب الترجيح ، وهى جهة حسن عند من يقول بالتحسين العقلي فيجب لذلك ، والغرض انتفاء ذلك جميعه ، وإذا انتفى ذلك كله ، علم أن اعتقاد حسن الفعل وقبحه ووجوبه وتحريمه ، يتبع أمراً ثابتاً في نفسه يكون مطابقاً له أو غير مطابق ، وإذا كان كذلك فالاعتقاد المطابق صواب ، والاعتقاد المخالف ليس بصواب ، لا أن الحكم يتبع الاعتقاد من كل وجه .

الثاني: أن الطالب المستدل بالدليل ليستبين له الأحكام ، هو يطلب العلم بمدلول الدليل ، فإن لم يكن للدليل مدلول - وإنما مدلول الدليل يحصل عقب التأمل - لم يكن مطلوبه العلم بالمدلول ، وإنما مطلوبه وجود المدلول ، وليس هذا شأن الأدلة التي تبين المدلولات ، وإنما هو شأن الأسباب والعلل توجد المسببات ، وفرق كثير بين الدليل المقتضي

(١) الكفر والزندقة هنا تنطبق على من جعل الأحكام تتبع الاعتقاد ، فالإنسان إن شاء أوجب ، وإن شاء حرم باعتقاده ، وهذا يؤدي إلى رفع الأمر والنهي .

للعلم القائم بالقلب ، وبين العلم المقتضى للوجود القائم في الخارج ، فإن مقتضى الأول الاعتقاد الذهني ، ومقتضى الثاني الوجود الخارجي ، وأحد النوعين مباين للآخر ''[١] .

ثانياً : دليل الحس :

أننا نجد في أنفسنا من لذة العدل والصدق والعلم ، ما لا نجده من الظلم والكذب والجهل ، كما نجد في أنفسنا محبة المتصف بتلك الصفات الحسنة ، والثناء عليه ، والدعاء له ما لا نجده فيمن اتصف بضدها ، وهذا أمر حسي لا يمكننا أن ندفعه عن أنفسنا ، وهو من جنس إحساسنا للذة بالأكل والشرب ، والألم بالجوع والعطش .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فالإنسان من نفسه يجد من لذة العدل والصدق والعلم والإحسان والسرور بذلك ، ما لا يجده من الظلم والكذب والجهل ، والناس الذين وصل إليهم ذلك ، والذين لم يصل إليهم ذلك ، يجدون في أنفسهم من اللذة والفرح والسرور بعدل العادل ، وبصدق الصادق ، وعلم العالم ، وإحسان المحسن ما لا يجدونه في الظلم والكذب والجهل والإساءة ، ولهذا يجدون في أنفسهم محبة لمن فعل ذلك ، وثناء عليه ، ودعاء له ، وهم مفطورون على محبة ذلك ، واللذة به ، لا يمكنهم دفع ذلك عن أنفسهم ، كما فطروا على وجود اللذة بالأكل والشرب ، والألم بالجوع والعطش ''[٢] .

ثالثاً: دليل الفطرة :

أن الله تعالى فطر الناس على حب الملائم النافع ، وبغض المنافر الضار ، والحسن هو الملائم النافع ، والقبيح هو المنافر الضار ، فالله إذن فطر الناس على معرفة الحسن والقبيح، هذا من جهة .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩/١٤٧-١٤٨) .
(٢) الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٤٢٣) .

ومـن جهـة أخرى لو لم تكن قضايا الحسن والقبح فطرية لما اشتهرت عند الناس ، واشـتركت فـيها جميع الأمم ؛ لأن اشتراك الناس فيها يدل على أنها من موجب الفطرة المشتركة بين الناس.

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' إن مبادئ هذه القضايا أمر ضروري في النفوس، فإنهـا مفطـورة على حب ما يلائمها ، وبغض ما يضرها ، والمراد بالحسن: ما يلائمها ، وبالقبـيح: مـا يضرها ، وإذا كانت مفطورة على حب هذا وبغض هذا ، فالمراد بقولنا: ''حسـن '' أنـه ملائم نافع ، والمراد بقولنا: '' قبيح '' أنه ضار مؤذ ، وهذا أمر فطري ، فعلم أن الناس بفطرتهم يعلمون هذه القضايا المشهورة بينهم '' .

ويقـول أيضـاً : '' لو لم يكن لهذه القضايا مبدأ في قوى الإنسان لم تشتهر في جميع الأمم ، فإن المشهور في جميع الأمم لا بد أن يكون له موجب في الفطرة المشتركة بين جميع الأمم ، فعلم أن الموجب لاعتقاد هذه القضايا أمر اشتركت فيه الأمم ، وذلك لا يكون إلا من لوازم الإنسانية ، فإن الأمم لم تشترك كلها في غير لوازم الإنسانية ''[1] .

وبعد أن انتهيت من تقرير المسألة وأدلتها أنتقل إلى جانب آخر في هذه المسألة ، وهو أقسام صفات الأفعال وما قرره شيخ الإسلام رحمه الله فيها .

أقسام صفات الأفعال باعتبار منشأ الحسن والقبح فيها :

وتنقسم الأفعال باعتبار منشأ الحسن والقبح فيها إلى أقسام ، فحسنها وقبحها إما أن يكون من ذات الفعل ، أو من الشرع ، أو من مجموع الأمرين .

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٣٠) .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا التقسيم: ''حسن الفعل وقبحه: إما أن ينشأ من نفس الفعل ، والأمر والنهي كاشفان ، أو ينشأ من نفس تعلق الأمر والنهي به ، أو من ا موع ''[(١)] .

ويقول أيضاً : '' فالخطاب مظهر تارة ، ومؤثر تارة ، وجامع بين الأمرين تارة ''[(٢)] .

فالأقسام إذن ثلاثة :

القسم الأول: أن تكون صفة الفعل ناشئة من الفعل نفسه ، وهذا كالصدق والعدل ، والبر والتوحيد ، فإن هذه الأفعال كلها حسنة مشتملة على الخير والمصلحة ، وكذلك الظلم والبغـي والكذب والشرك ونحوها ، فإن هذه الأفعال كلها قبيحة ، فهي مشتملة على الشر والفساد ، وكل هذا قبل مجيء الشرع .

فإن قيل : فما هو موقف الشرع من صفات هذه الأفعال ؟

فالجواب: أن الشرع جاء كاشفاً عن صفات هذه الأفعال مظهراً لها ، لكنه لم يثبت لها صفة لم تكن لها قبل مجيئه ، فحسنها أو قبحها معلوم بالعقل قبل مجيء الشرع ، وعندما جاء الشرع أيد ما كان معلوماً بالعقل من صفات الفعل حسناً وقبحاً ، وبذلك أصبح للفعل حسن من جهتين: إحداهما من جهة نفسه ، والأخرى: من جهة أمر الشرع به[(٣)].

ولكن لا يترتب على هذا الحسن والقبح العقلي أي ثواب أو عقاب ؛ لأن الثواب والعقاب مشروط بالحجة الرسالية كمـا قـال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[(٤)] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ

(١) شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ٢٠٤) .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٧/١٩) .
(٣) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤٤/١٤) .
(٤) سورة الإسراء آية رقم (١٥) .

عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[1] ، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط ، خلافاً للمعتزلة الذين يوجبون الثواب والعقاب بالعقل ، فيجعلون من خالف موجب العقل معاقباً في الآخرة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا القسم : ''أحدها[2]: أن يكون الفعل مشتملاً على مصلحة أو مفسدة ولو لم يرد الشرع بذلك .

كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم ، والظلم يشتمل على فسادهم ، فهذا النوع هو حسن وقبيح ، وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك ، لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن .

ولكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقباً في الآخرة إذا لم يرد شرع بذلك .

وهذا مما غلط فيه غلاة القائلين بالتحسين والتقبيح ، فإ م قالوا: إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة ولو لم يبعث إليهم رسول ، وهذا خلاف النص ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾[4] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[5] ، وقال تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ

(١) سورة القصص آية رقم (٥٩) .
(٢) أي أحد أنواع الأفعال باعتبار منشأ الحسن والقبح فيها .
(٣) سورة الإسراء آية رقم (١٥) .
(٤) سورة النساء آية رقم (١٦٥) .
(٥) سورة القصص آية رقم (٥٩) .

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((**ما أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين**))[2].

والنصوص الدالة على أن الله لا يعذب إلا بعد الرسالة كثيرة ترد على من قال من أهل التحسين والتقبيح: أن الخلق يعذبون في الأرض بدون رسول أرسل إليهم ''[3] .

وهنا مسألة تحتاج إلى توضيح قبل الانتقال إلى القسم الثاني ، وهي هل يمكن أن يجيء الشرع بضد ما ثبت لذات الفعل من حسن وقبح ؟ بمعنى: هل يجوز عقلاً أن يأتي في شرع الله تعالى ودينه أمر بالشرك والكفر والكذب والظلم والفواحش ، و ي عن التوحيد والإيمان والصدق والعدل والعفاف ؟

لا شـك أن هـذا الأمر جائز عند نفاة التحسين والتقبيح العقليين ؛ لأن الأفعال لا تتصـف بصفات ، فهي متساوية في الحقيقة ، والشرع أمر ببعضها و ى عن بعض دون أن يكون هناك فرق حقيقي في نفس الفعل .

ولكن الصحيح عند أهل السنة والجماعة أن ذلك غير جائز لا عقلاً ولا شرعاً .

أما عقلاً فإن الله تعالى موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال ، فيتنـزه عن هذه الأمور لكمال علمه وحكمته وعدله ورحمته .

فكيف يجوز في علم الله أن يتساوى الخير والشر ، الظلم والعدل ، الحق والباطل ؟

---

(١) سورة الملك آية رقم (٨-١٠) .
(٢) تقدم تخريجه (ص ١٧٧) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/٤٣٤-٤٣٥) .

أم كـيف يمكن أن تجوز ذلك حكمته ؟ وهو أحكم الحاكمين الذي أتقن ما صنع ، وأحسن ما شرع ، فجاءت شريعته على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأفضلها .

أم كـيف يجـوز ذلك في عدله ؟ وهو الملك الحق العدل المبين الذي يضع الأشياء في مواضعها ، وينـزلها في منازلها اللائقة بها .

أم كيف يجوز في رحمته أن يثيب العصاة والكفار ، ويعاقب المؤمنين المتقين الأخيار ؟ كما يزعم نفاة الحسن والقبح .

ولا ريـب أن مـن اتصف بتلك الصفات يمتنع عقلاً أن يأمر بالشرك والكفر والشر والفسـاد والفواحش ويثيب أهلها ، وينهى عن التوحيد والإيمان والخير والصلاح والعفاف ويعاقب أهله .

أما شرعاً فقد أخبر الله تعالى في كتابه العظيم بعدة أخبار تدل جميعها على تنـزيه الله تعـالى عـن الأمر بالشر ومدح أهله وثوابهم ، وتنـزيـهه عن النهي عن الخير وذم أهله وعقابهم ، وهذه الأمور كلها جائزة عند النفاة ، ومما جاء في ذلك :

١- أخبر تعالى أنه يتنـزه عن الأمر بالفحشاء ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا الدليل : " فذكر براءته من هذا على وجه المدح له بذلك وتنـزيهه عن ذلك ، فدل على أن من الأمور ما لا يجوز أن يضاف إلى الله

(١) سورة الأعراف آية رقم (٢٨) .

الأمر به ، ليست الأشياء كلها مستوية في أنفسها ولا عنده ، وأنه لا يخصص المأمور على المحظور بمجرد التحكم ، بل يخصص المأمور بالأمر والمحظور بالحظر لما اقتضته حكمته ''[1] .

٢- أخبر تعالى أنه لا يستوي عنده الخبيث والطيب قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] .

٣- أخبر تعالى أنه لا يستوي عنده المؤمن والفاسق ، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾[3] ، كما لا يستوي في حكمه المسلمين المؤمنين الصالحين المتقين مع المجرمين المفسدين الفجار ، قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[4] ، وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[5] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عمن أجاز الأمر بالباطل والنهي عن الحق وجعلهم متساويين: '' فهذا القول ولوازمه هو أيضاً قول ضعيف مخالف للكتاب والسنة ولإجماع السلف والفقهاء ، مع مخالفته أيضاً للمعقول الصريح ، فإن الله نزه نفسه عن الفحشاء ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ ﴾[6]، كما نزه نفسه عن التسوية بين الخير والشر ، فقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) جواب أهل العلم والإيمان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٨١/١٧) .
(٢) سورة المائدة آية رقم (١٠٠) .
(٣) سورة السجدة آية رقم (١٨) .
(٤) سورة القلم آية رقم (٣٥-٣٦) .
(٥) سورة ص آية رقم (٢٨) .
(٦) سورة الأعراف آية رقم (٢٨) .

ﭐلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾[١]، وقال: ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴾[٢].

وعلى قول النفاة: لا فرق في التسوية بين هؤلاء وهؤلاء ، وبين تفضيل بعضهم على بعض ، ليس تنـزيهه عن أحدهما بأولى من تنـزيهه عن الآخر وهذا خلاف المنصوص والمعقول ''[٣] .

وفي هـذا المقام أشير إلى مسألة هامة وهي مسألة الحسن والقبح في أفعال الله تعالى ، فقد تبين مما سبق تنـزه الله تعالى عن القبيح ، والذي عليه أهل السنة والجماعة أن أفعال الله كلـها حسـنة ، ويمكنه أن يفعل القبيح ، لكنه تنـزه عنه مع قدرته عليه ، لكمال علمه وعدلـه ورحمته ، كالظلم مثلاً فإنه تعالى حرمه على نفسه مع قدرته عليه كما في الحديث القدسي ((**يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**))[٤] .

ولكـن لـيس معيار الحسن والقبح عند الله تعالى كمعياره عند الخلق ، فليس كل ما حسـن مـن الخلق حسن من الله تعالى ، أو قبح من الخلق قبح منه جل وعلا ؛ لأن الفعل يحسن في حق العبد لأمور منها: جلب منفعة أو دفع مضرة أو فعل أمر أو ترك ي ، و يقبح بضد ذلك .

وهذه الأمور كلها منتفية في حق الله تعالى ، بل إن بعض الأفعال قد تقبح من العبد ، وتحسن من الله تعالى ؛ وذلك لما له فيها من الحكم العظيمة التي يخلو منها العبد ، والتي يعجز البشر عن الإحاطة با .

---

(١) سورة الجاثية آية رقم (٢١) .
(٢) سورة ص آية رقم (٢٨) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٣٢/٨-٤٣٣) .
(٤) تقدم تخريجه (ص٢٣٣) .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' ليس ما حسن منه حسن منا ، وليس ما قبح منه يقـبح منا ، فإن المعتزلة شبهت الله بخلقه ، وذلك أن الفعل يحسن منا لجلبه المنفعة ، ويقبح لجلبه المضرة ، ويحسن لأنا أمرنا به ، ويقبح لأنا ينا عنه ، وهذان الوجهان منتفيان في حق الله تعالى قطعاً ، ولو كان الفعل يحسن باعتبار آخر ، كما قال بعض الشيوخ:

ويقبح من سواك الفعل عندي   وتفعله فيحسن منك ذاك[1] ''[2] .

القسـم الثاني من أقسام صفات الأفعال باعتبار منشأ الحسن والقبح : أن تكون صفة الفعـل ناشئةً من الفعل والشرع معاً ، بمعنى أن الشرع هو المؤثر الذي يعطي الفعل الصفة حسناً أو قبحاً ، ويوافقه العقل على ذلك ويؤيده .

ولـيس معنى تأييد العقل مجرد الموافقة العامة ؛ أي لأن الشرع جاء به فيكون حسناً ، ولأن الشـرع ى عنه فيكون قبيحاً ، بل إذا تأمل العقل ما جاء به الشرع وجده لا يخرج عن موجب العقل ومقتضاه ، فهو في غاية الحكمة والحسن والإتقان .

وفي هذا الباب تدخل تفاصيل كثيرة من أمور الشريعة ، فالعقول لا تستقل بمعرفتها، وجاء الشرع بحسنها وقبحها ، ووافقه العقل على ذلك .

وهذا عكس القسم السابق ، ففي هذا عرف بالشرع حسن الأفعال وقبحها ، وجاء العقل وأيد الشرع ، بخلاف السابق الذي فيه عرف العقل حسن الأفعال وقبحها قبل الشرع وجاء الشرع فوافقه وأيده .

---

(١) هـذا البـيت نسب إلى المتنبي في محاضرات الأدباء (٥٤/٢) ، ولا يوجد في ديوانه ، لكن وجدت في ديوان أبي نـواس ما يقارب هذا البيت ضمن قصيدة بنفس الوزن والقافية والأشبه أن البيت له ، ونص البيت في ديوان أبي نواس (ص ٣٨٣) : ويسمج من سواك الشيء عندي   فتفعله فيحسن منك ذاكا .

(٢) قاعدة في المعجزات والكرامات - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥٣/١١) .

والله عز وجل إذا أحب عبداً ووالاه وأعطاه من الصفات الحسنة ما يتميز بها على من أبغضه وعاداه ، وكذلك المكان والزمان والأفعال فإذا أحب الله منها شيئاً أعطاه من الصفات الحسنة ما يمتاز به على من أبغضه وعاداه ، كما هو الحال بالنسبة إلى الكعبة وشهر رمضان والعبادات المتنوعة التي لم تعلم إلا بالشرع ، فالله تعالى يعطيها من الحسن ما يميزها عن غيرها .

ولهذا القسم أمثلة متعددة منها الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحوها من الشريعة، ولكني سأذكر مثالين يتضح فيهما بصورة جلية تأثير الشرع في التحسين والتقبيح :

الأول : الصلاة إلى الصخرة في أول الإسلام ، وهذا مما يتضح فيه تأثير الشرع في التحسين والتقبيح ، لاجتماع الحسن والقبح في فعل واحد مع اختلاف الزمن ، فالصلاة إلى الصخرة كانت حسنة في أول الإسلام ، وقبيحة بعدما نسخت وأُمر بالتوجه إلى الكعبة ، فالشرع هو الذي أكسبها الحسن في البداية ، وهو الذي أكسبها القبح في النهاية .

ويوضح ابن القيم رحمه الله وجه الحسن والقبح في التوجه إلى بيت المقدس فيقول : '' وتأمل الحكمة الباهرة في شرع الصلاة أولاً إلى بيت المقدس ؛ إذ كانت قبلة الأنبياء ، فبعث بما بعث به الرسل ، وبما يعرفه أهل الكتاب ، وكان استقبال بيت المقدس مقرراً لنبوته ، وأنه بعث بما بعث به الأنبياء قبله ، وأن دعوته هي دعوة الرسل بعينها ، وليس بدعاً من الرسل ، ولا مخالفاً لهم ، بل مصدقاً لهم مؤمناً بهم .

فلما استقرت أعلام نبوته في القلوب ، وقامت شواهد صدقه من كل جهة ، وشهدت القلوب له بأنه رسول الله حقاً ، وإن أنكروا رسالته عناداً وحسداً وبغياً ، وعلم سبحانه أن المصلحة له ولأمته أن يستقبلوا الكعبة البيت الحرام ، أفضل بقاع الأرض وأحبها إلى الله وأعظم البيوت وأشرفها وأقدمها ''[1] .

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/٣٠) .

الثاني: شرب الخمر ، وهذا مثال واضح على مراعاة الشرع للحسن والقبح في الأحكام الشرعية من حيث المصلحة والمفسدة ، فالخمر كانت معروفة في الجاهلية ، وجاء الإسلام ولم يقبح شربا في أوله ؛ لأن النفوس قد اعتادت على شرب الخمر عادة شديدة ، ولم يكن عندها من قوة الإيمان ما يمكنها من قبول تحريم شرب الخمر ، إضافة إلى أن دين الناس لم يكن تاماً حتى لا يوجد نقص إلا ما يحصل بشرب الخمر ، ولهذا ترك الشارع تحريمها في أول الإسلام ؛ لأن المفسدة الناشئة عن تحريمها أرجح من المصلحة المترتبة على منعها ، وعندما حرمها لم يحرمها بصورة مباشرة فورية ، بل وقع التدرج في التحريم ، لكي يتفادى ما قد يترتب على التحريم من المفسدة .

فأنزل الله تعالى أولاً ذمها كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾[1] .

ثم ى عن قرب الصلاة حال شرب الخمر كما في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[2] .

ثم أنزل التحريم كما في قولـه تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢١٩) .
(٢) سورة النساء آية رقم (٤٣) .
(٣) سورة المائدة آية رقم (٩٠-٩١) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا القسم : '' والنوع الثاني[١]: أن ما أمر به و ى عنه صار متصفاً بحسن اكتسبه من الأمر ، وقبح اكتسبه من النهي ، كالخمر التي كانت لم تحرم ثم حرمت فصارت خبيثة ، والصلاة إلى الصخرة التي كانت حسنة ، فلما ى عنها صارت قبيحة .

فإن ما أمر به يحبه ويرضاه ، وما ى عنه يبغضه ويسخطه ، وهو إذا أحب عبداً ووالاه أعطاه من الصفات الحسنة ما يمتاز با على من أبغضه وعاداه .

وكذلك المكان والزمان الذي يحبه ويعظمه - كالكعبة وشهر رمضان - يخصه بصفات يميزه با على ما سواه ، بحيث يحصل في ذلك الزمان والمكان من رحمته وإحسانه ونعمته ما لا يحصل في غيره.

فإن قيل: الخمر قبل التحريم وبعده سواء ، فتخصيصها بالخبث بعد التحريم ترجيح بلا مرجح ؟

قيل: ليس كذلك ، بل إنما حرمها في الوقت الذي كانت الحكمة تقتضي تحريمها .

وليس معنى كون الشيء حسناً وسيئاً مثل كونه أسود وأبيض ، بل هو من جنس كونه نافعاً وضاراً وملائماً ومنافراً وصديقاً وعدواً ونحو هذا من الصفات القائمة بالموصوف التي تتغير بتغير الأحوال ، فقد يكون الشيء نافعاً في وقت ضاراً في وقت ، والشيء الضار قد يترك تحريمه إذا كانت مفسدة التحريم أرجح ، كما لو حرمت الخمر في أول الإسلام ، فإن النفوس كانت قد اعتاد ا عادة شديدة ، ولم يكن حصل عندهم من قوة الإيمان ما يقبلون ذلك التحريم ، ولا كان إيما م ودينهم تاماً حتى لم يبق فيه نقص إلا ما يحصل بشرب الخمر من صدها عن ذكر الله وعن الصلاة ، فلهذا وقع التدريج في تحريمها ،

---

(١) أي من أنواع الأفعال باعتبار منشأ الحسن والقبح فيها .

فـ ـأنزل الله أولاً فيها : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾[١] .

ثم أنزل فيها لما شربا طائفة وصلوا فغلط الإمام في القراءة ، آية النهي عن الصلاة سكارى ، ثم أنزل الله آية التحريم ''[٢] .

وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله في هذا النص إلى ما قد يظنه بعضهم من تعارض بين أحكـام الأفعـال التي هي صفات الفعل الشرعية ، وبين حسن الفعل وقبحه الذاتي ، إذ لو كان في الأفعال حسن وقبح ذاتي لما جاز تبدل الأحكام فيها !

وهـذه المسألة أشكلت على بعض نفاة الحسن والقبح ، فظنوا أن تبدل أحكام الفعل مع كون جنس الفعل واحد ينقض القول بالحسن والقبح الذاتي .

وقـد بين شيخ الإسلام رحمه الله عدم تعارض هذين الأمرين ؛ لأن الحسن والقبح في هـذا القسم وإن كان ذاتياً إلا أنه مما يتغير بتغير الأحوال ، فليس معنى كونه ذاتياً أن يكون كالسواد والبياض والحركة والسكون ، بل هو من جنس كون الشيء نافعاً وضاراً ، والنفع والضرر قد تختلف في الفعل بحسب أحواله ، فقد يكون الفعل ضاراً في زمن ، نافعاً في آخر بحسب المصلحة والمفسدة .

وهـذا كمـا يحصل من الطبيب لمريضه ، فإنه يأمره بالدواء والحمية في الوقت الذي يكـون فيه نفع ومصلحة للمريض ، وينهاه عنهما في الوقت الذي يكون فيه ضرر ومفسدة عليه .

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢١٩) .

(٢) جواب أهل العلم والإيمان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠١/١٧-٢٠٢) .

وهـذا لا يعـنى أن الدواء غير متصف بصفة ذاتية بل يدل على أن آثار الشيء قد تـتخلف عـنه زماناً ومكاناً وحالاً ، بحسب القبول والاستعداد فيكون نافعاً في زمن دون زمن ، وفي حال دون حال ، ولا يخرج بذلك عن كونه مقتضياً لآثاره بقواه وصفاته[١] .

وهذا أيضاً من جنس أكل الميتة ، فإنه يكون قبيحاً تارة ، وحسناً تارة أخرى ، مع أن الذات واحدة في كلا الحالين[٢] .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' وتحقيق الأمر: أن الأحكام للأفعال ليست من الصفات اللازمة ، بل هي من العارضة للأفعال بحسب ملاءمتها ومنافر ا .

فالحسـن والقبح بمعنى كون الشيء محبوباً ومكروهاً ونافعاً وضاراً وملائماً ومنافراً ، وهذه صفة ثبوتية للموصوف ، لكنها تتنوع بتنوع أحواله فليست لازمة له .

ومن قال: إن الأفعال ليس فيها صفات تقتضي الحسن والقبح ، فهو بم لة قوله: ليس في الأجسـام صفات تقتضي التسخين والتبريد والإشباع والإرواء ، فسلب صفات الأعيان المقتضية للآثار ، كسلب صفات الأفعال المقتضية للآثار .

وأمـا جمهـور المسلمين الذين يثبتون طبائع الأعيان وصفا ا ، فهكذا يثبتون ما في الأفعال من حسن وقبح باعتبار ملاءمتها ومنافر ا ''[٣] .

القسم الثالث من أقسام صفات الأفعال باعتبار منشأ الحسن والقبح : أن تكون صفة الفعـل ناشـئة من الشرع فقط ، فيكون مرجع الحسن والقبح إلى الأمر والنهي ، بمعنى أن الحكمة ناشئة من الأمر بالفعل لا من المأمور به .

---

(١) انظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢٨/٢) .

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٩/٣) .

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (١٧٨/٣) .

فهنا الحسن والقبح لا ينظر فيه إلى الفعل مطلقاً ، بل ينظر إلى الأمر ، وما يشتمل عليه مـن الحكمة والخير والمصلحة من حيث كونه أمراً ، بقطع النظر عن المأمور به ، فقد يكون المأمـور به ليس فيه خير ولا مصلحة ، وأمر به الشارع من باب الاختبار والابتلاء ، وهذا كمـا حصـل لنبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حيث أمر بذبح ابنه ، فلما عزم على الفعل وأراد ذبح ابنه حصل المقصود من الأمر ، وهو العزم والإرادة على تنفيذ الأمر ، فعند ذلك نسخ الأمر بالذبح وفداه الله تعالى بذبح عظيم .

ومثله أيضاً أصحاب طالوت لما ابتلوا بالامتناع عن الشرب ليحصل من إيما م وطاعتهم ما تحصل به الموافقة ، وهذا الابتلاء كـان بنهي لا بأمر ، قـال تعـالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1][2].

ومثل هذا أيضاً ما ورد في الحديث أن « **ثلاثة** في بني **إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال: لـون حسن ، وجلد حسن ، قد قذرني الناس ، قال: فمسحه فذهب عنه ، فأعطي لوناً حسـناً ، وجلداً حسناً ، فقال: أي المال أحب إليك ؟ قال: الإبل ، أو قال: البقر** - هو شـك في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل ، وقال الآخر: البقر- **فأعطي ناقة عشراء ، فقال: يبارك لك فيها ، وأتى الأقرع ، فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال: شعر**

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢٤٩) .

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/١٤٥) .

حسن ، ويذهب عني **هذا قد قذرني الناس ، قال: فمسحه فذهب ، وأعطي شعراً حسنا قال: فأي المال أحب إليك ؟ قال: البقر ، قال: فأعطاه بقرة حاملاً ، وقال: يبارك لك فيها ، وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال: يرد الله** إلي **بصري فأبصر به الناس ، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال: فأي المال أحب إليك ؟ قال: الغنم ، فأعطاه شاة والداً ، فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من إبل ، ولهذا واد من بقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم إنه أتى الأبرص** في **صورته وهيئته ، فقال: رجل مسكين ، تقطعت** بي **الحبال** في **سفري ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه** في **سفري فقال له: إن الحقوق كثيرة فقال: له كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقْذَرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر ، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأقرع** في **صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأعمى** في **صورته ، فقال: رجل مسكين وابن سبيل ، وتقطعت** بي **الحبال** في **سفري ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها** في **سفري ، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري وفقيراً فقد أغناني ، فخذ ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله ، فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك**))(١) .

فهنا لم يكن مقصود الملك بطلبه أخذ الصدقة والانتفاع بها ، بل مقصوده اختبار هؤلاء الثلاثة وابتلاؤهم ، ولهذا لما عزم الأعمى على الفعل قال له الملك : ((**أمسك عليك مالك ، إنما ابتليتم ، فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك**)) .

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (١٢٧٦/٣) ح(٣٢٧٧) واللفظ له ، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٢٧٥/٤) ح(٢٩٦٤) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وهـذا القسـم هو الذي يدخل فيه النسخ قبل التمكن من الفعل ، فيجوز أن ينسخ الفعـل ، قـبل تمكن العبد من أدائه ؛ لأن مقصوده حصول العزم والإرادة على الفعل دون حقيقة الفعل ، ومثل هذا نسخ الصلاة ليلة المعراج من خمسين إلى خمس[(١)] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا القسم : '' والنوع الثالث[(٢)] أن تكون الحكمة ناشئة من نفس الأمر ، وليس في الفعل البتة مصلحة ، لكن المقصود ابتلاء العبد ، هل يطيع أو يعصي ؟ فإذا اعتقد الوجوب وعزم على الفعل ، حصل المقصود بالأمر ، فينسخ حينئذ ، كما جرى للخليل في قصة الذبح ، فإنه لم يكن الذبح مصلحة ، ولا كان هو مطلوب الرب في نفس الأمر ، بل كان مراد الرب ابتلاء إبراهيم ، ليقدم طاعة ربه ومحبته على محبة الولد ، ولا يبقى في قلبه التفات إلى غير الله ، فإنه كان يحب الولد محبة شديدة ، وكان قد سأل الله أن يهبه إياه وهو خليل الله ، فأراد تعالى تكميل خلته لله ، بأن لا يبقى في قلبه ما يزاحم به محبة ربه ، ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾[(٣)] .

ومثل هذا الحديث الذي في صحيح البخاري: حديث أبرص وأقرع وأعمى كان المقصود ابتلاءهم لا نفس الفعل .

وهذا الوجه والذي قبله مما خفي على المعتزلة ، فلم يعرفوا وجه الحكمة الناشئة من الأمر ولا من المأمور لتعلق الأمر به ، بل لم يعرفوا إلا الأول .

---

(١) انظر شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ٢٠٤) .
(٢) أي من أنواع الأفعال باعتبار منشأ الحسن والقبح فيها .
(٣) سورة الصافات آية رقم (١٠٣-١٠٦) .

والذين أنكروا الحكمة عندهم الجميع سواء لا يعتبرون حكمة ، ولا تخصيص فعل بأمر ولا غير ذلك كما قد عرف من أصلهم ''[١] .

ويقول أيضاً : '' والنوع الثالث: أن يأمر الشارع بشيء ، ليمتحن العبد ، هل يطيعه أم يعصـيه ؟ ولا يكون المراد فعل المأمور به ، كما أمر إبراهيم بذبح ابنه ، فلما أسلما وتله للجبين حصل المقصود ، ففداه بالذبح .

وكـذلك حـديث أبرص وأقرع وأعمى لما بعث الله إليهم من سألهم الصدقة ، فلما أجـاب الأعمى ، قال الملَك: ((**أمسك عليك مالك ، فإنما ابتليتم فرضي عنك وسخط على صاحبيك**)) .

فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به .

وهذا النوع والذي قبله لم يفهمه **المعتزلة** ، وزعمت: أن الحسن والقبح لا يكون إلا لما هو متصف بذلك بدون أمر الشارع .

و**الأشعرية** ادعوا أن جميع الشريعة من قسم الامتحان ، وأن الأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع ولا بالشرع .

وأما الحكماء والجمهور فأثبتوا الأقسام الثلاثة وهو الصواب ''[٢] .

وقبل أن أنتهي من كلامي على أقسام صفات الفعل باعتبار منشأ الحسن والقبح فيها أود أن أشـير إلى أن العلامة ابن القيم رحمه الله له تقسيم مختلف عن شيخ الإسلام رحمه الله في هذه القضية ، فهو يقسمها إلى أربعة أقسام :

---

(١) جواب أهل العلم والإيمان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠٣/١٧) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٣٦/٨) .

١- مـا كانـت المصـلحة تنشأ فيه من الفعل المأمور به ، كالصدقة والعفة والعدل والإحسان ، وهذا يوافق القسم الأول الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله .

٢- مـا كانت المصلحة تنشأ من الأمرين الفعل والأمر به ، وذلك كالصوم والصلاة والحج وإقامة الحدود وأكثر الأحكام الشرعية ، فالفعل يتضمن مصلحة ، والأمر بما يتضمن مصلحة ، وهذا يوافق القسم الثاني عند شيخ الإسلام رحمه الله .

٣- مـا كانـت المصلحة تنشأ فيه من الأمر به ، وذلك كالتجرد للإحرام والتطهر بالتراب والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار .

٤- مـا كانت المصلحة فيه تنشأ من العزم المجرد عليه ، وذلك كأمر الله تعالى خليله إبراهيم ﷺ بذبح ولده[1] .

ونقطـة الخـلاف بينهما في تفسير المصلحة الناشئة من الأمر ، فبينما يفسرها شيخ الإسـلام رحمه الله بما المصلحة فيه حاصلة بالعزم عليه فقط كأمر الخليل ﷺ بذبح ابنه ، أما العلامـة ابـن القيم رحمه الله فإنه يجعل المصلحة الناشئة من العزم قسماً مستقلاً ، ويفسر المصـلحة الناشـئة من الأمر ببعض الأمور التي يرى أنها لا تعقل حكمتها كالسعي ورمي الجمار .

ولم يـرتض شيخ الإسلام رحمه الله هذا التفسير ، ورأى أنه غير صحيح ؛ وعلل ذلك بأن هذه الأفعال في أنفسها مقصودة ، لما تضمنته من ذكر الله تعالى .

يقـول رحمه الله : '' و أما رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة ، فالفعل في نفسه مقصود لما تضمنه من ذكر الله ، وقد بين النبي ﷺ هذا بقوله في الحديث الذي في السـنن:

---

(١) انظر فيما سبق : مفتاح دار السعادة لابن القيم (٦٠/٢) .

((**إنما جعل السعي بين الصفا و المروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**))[١] ... فبين النبي ﷺ أن هذا له حكمة ، فكيف يقال: لا حكمة بل هو تعبد وابتلاء محض ؟

وأما فعل مأمور في الشرع ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا حكمة إلا مجرد الطاعة والمؤمنون يفعلونه ، فهذا لا أعرفه ، بل ما كان من هذا القبيل نسخ بعد العزم كما نسخ إيجاب الخمسين صلاة إلى خمس ''[٢] .

السببية في قضايا الحسن والقبح :

المراد من قضايا السببية في الحسن والقبح هو بيان سببية الحسن في المدح والثواب ، وسببية القبح في الذم والعقاب ، ومدى إمكانية إدراك تلك السببية عقلاً ، والكلام على هذه القضايا يندرج في مسائل :

الأولى: سببية الحسن والقبح العقليين في المدح والذم .

الثانية : سببية الحسن والقبح في الثواب والعقاب .

الثالثة: إدراك تلك السببية عقلا ؟

الرابعة: سببية الفعل الواحد لأمرين متنافيين .

---

(١) رواه أحمد (٦٤/٦ ، ٧٥ ، ١٣٨) ، وأبو داود في المناسك ، باب في الرمل (٤٤٧/٢) ح(١٨٨٨) ، والترمذي في الحج ، باب ما جاء كيف ترمى الجمار (٢٤٦/٣) ح(٩٠٢) واللفظ له مع تقديم وتأخير فيه وقال: حديث حسن صحيح ، والدارمي في مناسك الحج ، باب الذكر في الطواف والسعي بين الصفا والمروة (٢٧٨/١) ح(١٨٦٠ ، ١٨٦١) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٩٩/٣) ح(١٥٣٣٣ ، ١٥٣٣٤) ، وابن خزيمة في صحيحه (٢٧٩/٤) ح(٢٨٨٢) ، والحاكم (٤٥٩/١) وصححه ، ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (١٤٥/٥) ، كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها. وقال الألباني في حاشية مشكاة المصابيح (٨٠٦/٢) : إسناده ضعيف .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤٥/١٤-١٤٦) .

المسألة الأولى: سببية الحسن والقبح في المدح والثواب .

هـذه المسـألة مترتبة على ما سبق من أن الفعل يتصف بالحسن وبالقبح ، كما تقدم أقسام ذلك ، وبناء عليه هل يكون ذلك الحسن والقبح - خاصة ما كان منشأه ذات الفعل - سبباً في المدح والذم أم لا ؟

هـذه المسـألة اخـتلفت فيها الطوائف ، وهي إحدى مسائل ال اع بينهم في قضايا التحسين والتقبيح العقليين .

ومـذهب أهل السنة والجماعة أن حسن الفعل وقبحه يكون سـبباً في المدح والذم ، فقد دلت النصوص الشرعية على هذا الأمر بطرق متنوعة منها :

١- أن الله تعـالى سمـى الكفار قبل إرسال الرسول بأسماء الذم ، فقد سماهم ظالمين وطـاغين ومفسـدين ، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[(١)] ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾[(٢)] ، وقـوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[(٣)] ، وهـذا يدل على أن أعمالهم مذمومة حتى قبل إرسال الرسول .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : " فأخبر أنه ظالماً وطاغياً ومفسداً هو وقومه ، وهذه أسـاء ذم الأفعال ، والذم إنما يكون في الأفعال السيئة القبيحة ، فدل ذلك على أن الأفعال

---

(١) سورة النازعات آية رقم (١٧) .
(٢) سورة الشعراء آية رقم (١٠-١١) .
(٣) سور القصص آية رقم (٤) .

تكون قبيحة مذمومة قبل مجيء الرسول إليهم ، لا يستحقون العذاب إلا بعد إتيان الرسول إليهم لقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[١] .

وكـذلك أخبر عن هود أنه قال لقومه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾[٢] ، فجعلهم مفترين قبل أن يحكم بحكم يخالفونه ؛ لكونهم جعلوا مع الله إلها آخر ''[٣] .

وقـد تقـدم فـيما سبق عند مسألة الحسن والقبح الذاتي للأفعال أدلة متنوعة يمكن الاستدلال بها على هذا الأمر .

٢- إخباره تعالى عن نفسه أنه مقت أعمال الجاهلية ، والمقت هو أشد البغض ، كما في الحـديث: ((**إني خلقـت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن ديـنهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**))[٤].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا ، والمقت هو البغض بل أشد البغض ، ومع هذا فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا ، فقال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٥] ، وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ

---

(١) سورة الإسراء آية رقم (١٥) .
(٢) سورة هود آية رقم (٥٠) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠/٣٧-٣٨) .
(٤) تقدم تخريجه (ص ١٧٨) .
(٥) سورة الإسراء آية رقم (١٥) .

وَنَخْزَىٰ ﴾[١] ، فدل ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم ، ولكن شرط العذاب هو بلوغ الرسالة ''[٢] .

المسألة الثانية : سببية الحسن والقبح في الثواب والعقاب .

لا شك أن الأعمال وما تتصف به من صفات تكون سبباً في الثواب والعقاب ؛ لأن الله تعالى قد أخبرنا عن الكفار أنهم اكتسبوا الأعمال التي توجب العذاب قبل إرسال الرسول إليهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣] ، وقال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[٤] .

فهذا يدل على أنهم مستحقون للعذاب قبل إرسال الرسول ، وإن كان الله تعالى لا يعذبهم إلا بعد الرسالة ، فالاستحقاق موجود ، وشرطه - وهو الرسالة - مفقود ، ولهذا لم يحصل .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه الآيات : '' فهذا يبين أنه لم يكن ليعذب الكفار حتى يبعث إليهم رسولاً ، وبين أنهم قبل الرسول كانوا قد اكتسبوا الأعمال التي توجب المقت والذم وهي سبب للعذاب ، ولكن شرط العذاب قيام الحجة عليهم بالرسالة ''[٥] .

---

(١) سورة طه آية رقم (١٣٤) .
(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية (٣٠٦/٢) .
(٣) سورة القصص آية رقم (٤٧) .
(٤) سورة طه آية رقم (١٣٤) .
(٥) الجواب الصحيح لابن تيمية (٣١٤/٢) .

وقبل أن انتقل إلى المسألة الثالثة أود أن أشير إلى أن كلاً من المسألتين السابقتين تعتبر مـن ثمار وفوائد ومعاني مسألة الحسن والقبح في الأفعال عقلاً ، فالكفار قبل مجيء الرسول مثلاً وإن كانوا لا يعذبون إلا بعد الرسل ، لكنهم مذمومون ، لا يستحقون ما يستحقه من سلم من تلك الأعمال القبيحة ، وبهذا يحصل لهم نوع عقوبة ، وهي حرما م من الخير .

وهذا الحرمان وإن كان يحصل لتارك المستحبات ، إلا أن هناك فرقاً بين من يفوته ما لم يحصل عليه كما هو شأن تارك المستحبات ، وبين من ينقص ما عنده كما هو الحال لمن يفعل القبائح قبل الشرع .

هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن كون تلك الأعمال سبباً في العقاب يعنى أن مـن ارتكـب تلك القبائح قريب من الهلاك والسقوط ، وهناك فرق بين القريب من ذلك والبعيد ، فالقريب يوشك على السقوط بخلاف البعيد .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " فإن قيل: إذا لم يكن معاقباً عليها فلا معنى لقبحها ، قيل: بل فيه معنيان:

أحدهما: أنه سبب للعقاب ، لكن هو متوقف على الشرط وهو الحجة ، قال تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾(١) ، فلولا إنقاذه لسقطوا ، ومن كان واقفاً على شفير فهلك ، فهلاكه موقوف على سقوطه ، بخلاف ما إذا بان وبعد عن ذلك ، فقد بعد عن الهلاك ، فأصحابا كانوا قريبين إلى الهلاك والعذاب .

الثاني: أ م مذمومون منقوصون معيبون ، فدرجتهم منخفضة بذلك ولابد ، ولو قدر أ ـ م لم يعذبـوا لا يستحقون ما يستحقه السليم من ذلك من كرامته أيضا وثوابه ، فهذه عقـوبة بحـرمان خـير ، وهي أحد نوعى العقوبة ، وهذا وإن كان حاصلاً لكل من ترك

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (١٠٣) .

مستحباً فإنه يفوته خيره ، ففرق بين ما يفوته ما لم يحصل له ، وبين ما ينقص ما عنده ، وهذا كلام عام فيما لم يعاقب عليه من الذنوب ''[١] .

المسألة الثالثة: وهي الإدراك العقلي لسببية الحسن والقبح في المدح والذم والثواب والعقاب ، بمعنى هل يمكن للعقل أن يدرك أن الحسن سبب في المدح والثواب ، والقبح سبب في الذم والعقاب ؟

وهذه القضية هي أيضاً إحدى مسائل ال اع في قضايا الحسن والقبح ، ولها جانبان:

أحدهما: متفق عليه ، والآخر: مختلف فيه .

أولاً : الجانب المتفق عليه ، ويتضمن أمران:

أحدهما : أن الحسن والقبح إذا فسر بالملائم والموافق للطبع ، والمنافي والمنافر له ، فإن ذلك أمر يمكن إدراكه عقلاً ، فالملائمة تتضمن حصول المحبوب المطلوب ، والمنافرة تتضمن حصول المكروه المحذور المتأذى به .

الأمر الآخر: أن الحسن والقبح إذا فسر بالكمال والنقص ، فإنه يمكن إدراك ذلك بالعقل أيضاً ، فإن العقل يدرك مثلاً أن العالم أكمل من الجاهل ، والصادق أكمل من الكاذب .

فهذان الأمران اتفقت عليهما الطوائف المتنازعة في مسائل الحسن والقبح ؛ لأن إدراكهما يعتبر من الضرورات العقلية الفطرية التي لا يستطيع العبد أن يدفعها عن نفسه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' واعلم أنه لا يمكن العاقل أن يدفع عن نفسه أنه قد يميز بعقله بين الحق والباطل والصدق والكذب ، وبين النافع والضار والمصلحة والمفسدة .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٦٨٦) .

ولا يمكن المؤمن أن يدفع عن إيمانه أن الشريعة جاءت بما هو الحق والصدق في المعتقدات ، وجاءت بما هو النافع والمصلحة في الأعمال التي تدخل فيها الاعتقادات .

ولهذا لم يختلف الناس أن الحسن أو القبيح إذا فسر بالنافع والضار والملائم للإنسان والمنافي له واللذيذ والأليم فإنه قد يعلم بالعقل ، وهذا في الأفعال .

وكذلك إذا فسر حسنه بأنه موجود أو كمال الموجود يوصف بالحسن ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[1] وقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[2] .

كما نعلم أن الحي أكمل من الميت في وجوده ، وأن العالم أكمل من الجاهل ، وأن الصادق أكمل من الكاذب ، فهذا أيضا قد يعلم بالعقل ''[3] .

ثانياً : الجانب المختلف فيه ، وهو إدراك كون الحسن سبباً للمدح والثواب ، والقبح سبباً في الذم والعقاب .

ويرى شيخ الإسلام أن هذا القسم لا يخرج عن القسمين السابقين ، بل هذا القسم تبع لهما ومكمل ؛ لأن المدح والثواب من باب الملائم الموافق ، والذم والعقاب من باب المنافر المنافي ، فحقيقته لا تخرج عن القسم الأول .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والعقلاء متفقون على أن كون بعض الأفعال ملائماً للإنسان ، وبعضها منافياً له .

(١) سورة الأعراف آية رقم (١٨٠) .
(٢) سورة السجدة آية رقم (٧) .
(٣) قاعدة في المعجزات والكرامات لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٤٧/١١) ، وانظر : التدمرية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١٥/٣) ، أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩٠/٨) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٨/٣) .

إذا قيل: هذا حسن وهذا قبيح ، فهذا الحسن والقبح مما يعلم بالعقل باتفاق العقلاء .

وتنازعوا في الحسن والقبح بمعنى كون الفعل سبباً للذم والعقاب ، هل يعلم بالعقل ؟ أم لا يعلم إلا بالشرع ؟

وكان من أسباب النزاع أنهم ظنوا أن هذا القسم مغاير للأول ، وليس هذا خارجاً عنه فليس في الوجود حسن إلا بمعنى الملائم ولا قبيح إلا بمعنى المنافي .

والمدح والثواب ملائم ، والذم والعقاب مناف فهذا نوع من الملائم والمنافي ''[1] .

ويقول أيضاً عن الطوائف المتنازعة في الحسن والقبح : '' اتفقوا على أن الحسن والقبح باعتبار الملائمة والمنافرة قد يعلم بالعقل .

والملائمة تتضمن حصول المحبوب المطلوب المفروح به ، والمنافرة تتضمن حصول المكروه المحذور المتأذى به .

وهذا الذي اتفقوا عليه حق ، لكن توهموا بعد هذا أن الحسن والقبح الشرعي خارج عن ذلك ، وليس الأمر كذلك ، بل هو في الحقيقة يعود إلى ذلك ''[2] .

المسألة الرابعة: وهي قضية سببية الفعل الواحد لأمرين متنافيين ، بمعنى إمكان أن يكون الفعل الواحد سبباً في الحمد والذم والثواب والعقاب .

وقبل أن أتناول هذه المسألة هاهنا أمر يجب التنبه إليه ، وهو أن كون الفعل الواحد سبباً لأمرين متنافيين مبني على إمكانية اجتماع الحسن والقبح في الفعل الواحد ، فإذا قدر

---

(١) الاحتجاج بالقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠٩/٨) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٢/٨) .

اجتماعهما ، فإنه يبحث بعد ذلك في مسألة كون الفعل الواحد سبباً لأمرين متنافيين ، إذن هاهنا مسألتان :

الأولى: اجتماع الحسن والقبح في الفعل الواحد .

الثانـية : اجـتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد ، الذي يؤدي إلى أن يكون الفعل الواحد سبباً في الحمد والذم والثواب والعقاب .

أما المسألة الأولى: وهي اجتماع الحسن والقبح في الفعل الواحد ، فهذا أمر جائز عقلاً فـنحن نعقل في الفعل الواحد من الشخص الواحد أو من غيره ما فيه جلب منفعة ومضرة معاً .

كالرجل يكون له عدوان يقتل أحدهما صاحبه فيسر من حيث عدم عدو ، ويساء من حيث غلب عدو ، ويكون له صديقان يعزل أحدهما صاحبه فيساء من حيث انعزال الصديق ويسر من حيث تولى صديق ، بل إن أكثر أمور الدنيا من هذا الباب ، فإن المصلحة المحضة نـادرة فأكثـر الحـوادث فيها ما يسوء ويسر ، فيشتمل الفعل على ما ينفع ويحب ويراد ويطلب ، وعلى ما يضر ويبغض ويكره ويدفع ، وبذا يجتمع في الفعل حسن وقبح ، وهذا الأمر ينطبق على كل ما اجتمعت فيه مصلحة ومفسدة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " فنحن نعقل ونجد أن الفعل الواحد من الشخص أو مـن غيره يجلب له منفعة ومضرة معا ، والرجل يكون له عدوان ، يقتل أحدهما صاحبه ، فيسر من حيث عدم عدو ، ويساء من حيث غلب عدو ، ويكون له صديقان يعزل أحدهما صاحبه ، فيساء من حيث انعزال الصديق ، ويسر من حيث تولى صديق .

وأكثر أمور الدنيا من هذا فإن المصلحة المحضة نادرة ، فأكثر الحوادث فيها ما يسوء ويسـر ، فيشتمل الفعل على ما ينفع ويحب ويراد ويطلب ، وعلى ما يضر ويبغض ويكره ويدفع ''[١] .

فإن قيل: هل يمكن اجتماع المحبة والبغض والإرادة والكراهة والطلب والدفع في الفعل الواحد ؟

فالجـواب أن ذلك أمر ممكن ، فالعبد قد يعمل بعض الأعمال التي يكرهها من حيث كونها مفروضة عليه ، ويحبها من حيث ما فيها من المنفعة له ، وبهذا اجتمع فيه محبة وبغض لعمل واحد .

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وجود الشيء قد يكون مرادا ، ويكون عدمه مراداً أيضاً ، إذا كان في كل منهما منفعة للمريد .

ويكون أيضاً وجوده أو عدمه مراداً مكروهاً ، بحيث يلتذ العبد ويتألم بوجوده وبعدمه كما قيل:

الشيب كره وكره أن نفارقه ... فاعجب لشيء على البغضاء محبوب[٢]

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩/٢٩٧-٢٩٨) .

(٢) هذا البيت من بحر البسيط ، وجدته منسوباً لشاعرين الأول : صريع الغواني مسلم بن الوليد والبيت في ذيل ديوانه انظـر: شـرح الديوان (ص ٣١١) ، والثاني: أبو العتاهية والبيت في ديوانه المسمى أبو العتاهية أشعاره وأخباره لابن عبدالبر (ص ٥٣٠) ولفظ البيت عندهما:

الشيب كره وكره أن يفارقني ... أعجب بشيء على البغضاء مودود

فهـو يكره الشيب ويبغضه ؛ لما فيه من زوال الشباب النافع ووجود المشيب الضار ، وهـو يحبه أيضاً ويكره عدمه ؛ لما فيه من وجود الحياة وفى عدمه من الفناء ، وهذه حال ما اجتمع فيه مصلحة ومفسدة من جميع الأمور ''[١] .

المسـألة الثانية : وهي اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد ، فيكون العمل الواحد مأموراً به من وجه ، منهياً عنه من وجه ، سبباً في الحمد والثواب من جهة ، وسبباً في الذم والعقاب من جهة أخرى ، والكلام على هذه المسألة في مقامين :

الأول : مقام الإمكان العقلي ، فيقال: لا شك بأن ذلك جائز عقلاً ، وهو مبني على القضـية السابقة ، وهي اجتماع الحسن والقبح في الفعل الواحد ، وهذه القضية ممكنة كما تقدم بيان ذلك وإيضاحه .

الثاني: مقام الوقوع الشرعي ، بمعنى هل جاء في الشرع أمر للعبد بفعل معين ، و ي له عن ذلك الفعل في آن واحد ؟

لا شـك أن الشرع لم يأتِ بذلك ، فالفعل المعين لا يؤمر به بعينه وينهى عنه بعينه ؛ لأن ذلك تكليف ما لا يطاق ، وهو جمع بين النقيضين ، ولكن قد يؤمر العبد بفعل بصورة مطلقـة ، وينهى عن فعل آخر بصورة مطلقة ، ولكنهما يجتمعان في المعين ، ومثال ذلك: الصلاة في الأرض المغصوبة ، فالصلاة قد أمر با بصورة مطلقة ، والبقاء في الأرض المغصوبة ي عنه بصورة مطلقة ، فكان مورد الأمر غير مورد النهي ، لكن تلازما واجتمعا في العبد المعين ، وهو الذي جمع بينهما ، أما الشرع فلم يأمر بالجمع بينهما .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' التحقيق أن الفعل المعين كالصلاة في الدار المعينة ، لا يؤمـر بعينها ، وينهى عن عينها ؛ لأنه تكليف مالا يطاق ، فإنه تكليف للفاعل أن يجمع بين وجود الفعل المعين وعدمه .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٨/١٩-٢٩٩) .

وإنما يؤمر بها من حيث هي مطلقة ، وينهى عن الكون في البقعة ، فيكون مورد الأمر غير مورد النهي ، ولكن تلازما في المعين .

والعبد هو الذي جمع بين المأمور به ، والمنهي عنه لا أن الشارع أمره بالجمع بينهما ، فأمره بصلاة مطلقة ، و اه عن كون مطلق .

وأما المعين فالشارع لا يأمر به ولا ينهى عنه كما في سائر المعينات "[1] .

وقـبل أن أخـتم الكلام في مسألة صفات الأفعال أحب أن أشير بصورة موجزة إلى بعض المسائل العقدية الهامة [2] التي ترتبط بقضية التحسين والتقبيح العقليين وهي :

١- مسـألة الحكمـة والتعليل في أفعال الله تعالى ، وقضايا الشر ودخوله في القضاء الإلهي .

تعتبر مسألة الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى من أصول مسائل الحسن والقبح ، وقد تقـدم فـيما سبق بحثها مفصلاً ، ولكني هنا أشير إلى قضية ارتباط مسألة الحكمة بقضايا الحسن والقبح العقليين .

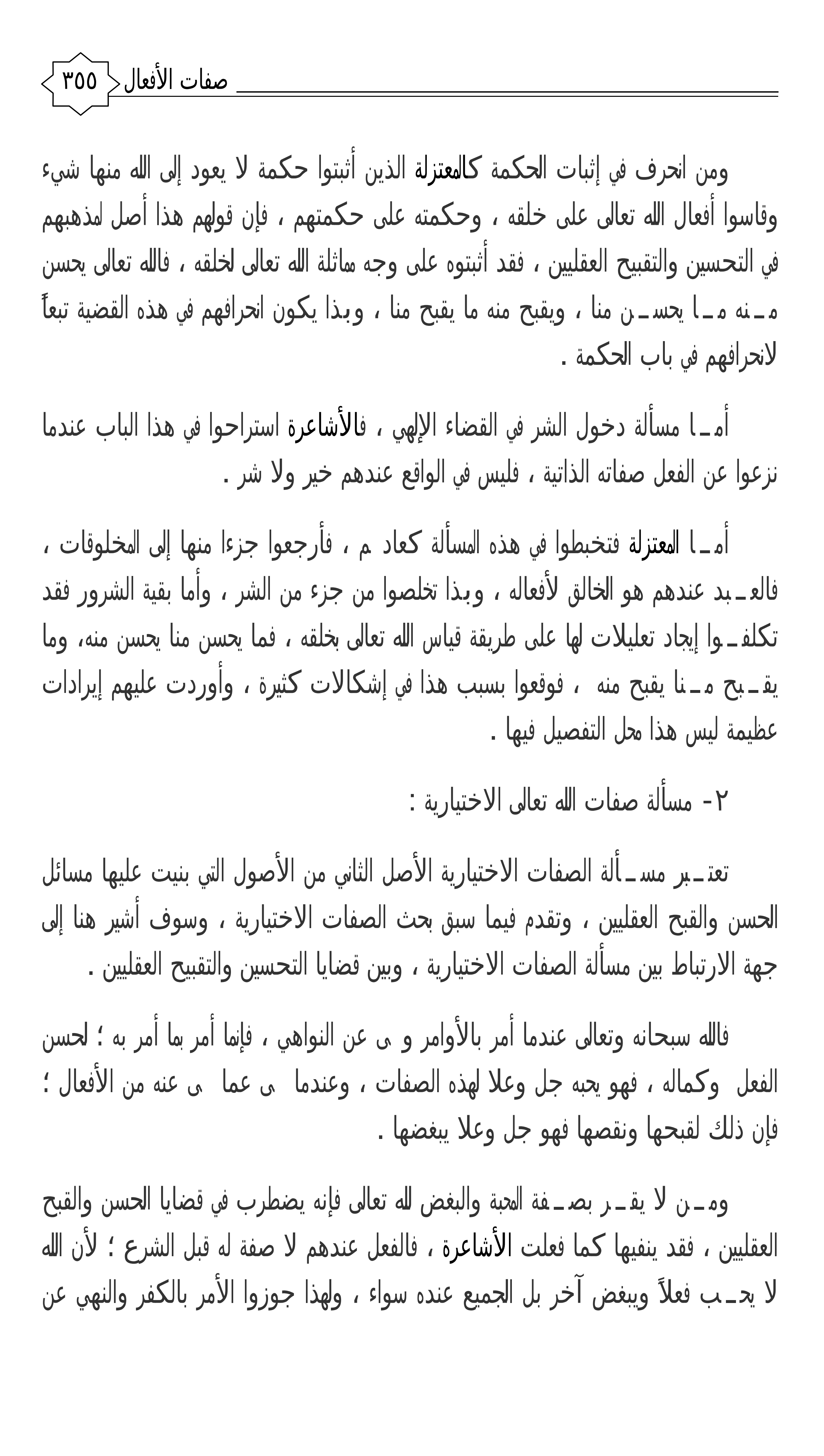
فالحكمـة تقتضـي التمييز بين الأفعال ، واختيار الحسن وترك القبيح ، وهذا أبسط مقتضيات الحكمة ، ومن لا يثبت حكمة كيف يثبت حسناً أو قبحاً ؟

ولهـذا الأشاعرة الذين لا يقرون بالحكمة ، لا يقرون بالحسن والقبح تبعاً لذلك ، فلا تمييز عندهم بين الأفعال .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٩/١٩) .

(٢) هناك بعض المسائل المرتبطة بهذه القضية انظرها في : المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين لـ د. محمد العروسي عبدالقادر (ص ٣٨ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٣٨ ، ١٩٤، ٢٩٠) .



ومن انحرف في إثبات الحكمة كالمعتزلة الذين أثبتوا حكمة لا يعود إلى الله منها شيء وقاسوا أفعال الله تعالى على خلقه ، وحكمته على حكمتهم ، فإن قولهم هذا أصل لمذهبهم في التحسين والتقبيح العقليين ، فقد أثبتوه على وجه مماثلة الله تعالى لخلقه ، فالله تعالى يحسن مـنه مـا يحسـن منا ، ويقبح منه ما يقبح منا ، وبهذا يكون انحرافهم في هذه القضية تبعاً لانحرافهم في باب الحكمة .

أمـا مسألة دخول الشر في القضاء الإلهي ، فالأشاعرة استراحوا في هذا الباب عندما نزعوا عن الفعل صفاته الذاتية ، فليس في الواقع عندهم خير ولا شر .

أمـا المعتزلة فتخبطوا في هذه المسألة كعاد م ، فأرجعوا جزءا منها إلى المخلوقات ، فالعـبد عندهم هو الخالق لأفعاله ، وبهذا تخلصوا من جزء من الشر ، وأما بقية الشرور فقد تكلفـوا إيجاد تعليلات لها على طريقة قياس الله تعالى بخلقه ، فما يحسن منا يحسن منه، وما يقـبح مـنا يقبح منه ، فوقعوا بسبب هذا في إشكالات كثيرة ، وأوردت عليهم إيرادات عظيمة ليس هذا محل التفصيل فيها .

٢- مسألة صفات الله تعالى الاختيارية :

تعتـبر مسـألة الصفات الاختيارية الأصل الثاني من الأصول التي بنيت عليها مسائل الحسن والقبح العقليين ، وتقدم فيما سبق بحث الصفات الاختيارية ، وسوف أشير هنا إلى جهة الارتباط بين مسألة الصفات الاختيارية ، وبين قضايا التحسين والتقبيح العقليين .

فالله سبحانه وتعالى عندما أمر بالأوامر و ى عن النواهي ، فإنما أمر بما أمر به ؛ لحسن الفعل وكماله ، فهو يحبه جل وعلا لهذه الصفات ، وعندما ى عما ى عنه من الأفعال ؛ فإن ذلك لقبحها ونقصها فهو جل وعلا يبغضها .

ومـن لا يقـر بصـفة المحبة والبغض لله تعالى فإنه يضطرب في قضايا الحسن والقبح العقليين ، فقد ينفيها كما فعلت الأشاعرة ، فالفعل عندهم لا صفة له قبل الشرع ؛ لأن الله لا يحـب فعلاً ويبغض آخر بل الجميع عنده سواء ، ولهذا جوزوا الأمر بالكفر والنهي عن

الإيمان ، وبذا وقعوا في محاذير كبيرة ، هذا فضلاً عما في قولهم من مكابرة للعقول وجحد للضرورات العقلية والحسية ، وهذا كان نتيجة لإنكار الصفات الاختيارية .

وقابلتهم المعتزلة ، فإنهم نفوا الأفعال الاختيارية عن الله تعالى ، ولكنهم أثبتوا الحسن والقبح في الأفعال ، فوقعوا بهذا في اضطراب عظيم في هذا الباب حيث قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال خلقه ، وجعلوا ما يحسن منا يحسن منه ، وما يقبح منا يقبح منه ، وحكّموا عقولهم المحدودة على أفعال الله جل وعلا ، وصيروا له شريعة بعقولهم ، وضعوا فيها ما يفعله وما لا يفعله قياساً على أفعال العباد حسنها وقبيحها ، ولم يرجعوا ذلك إلى ما يحبه من الأفعال وما يبغضه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في سياق ذكر محبة الله تعالى للتوبة: '' وهذا يبين من محبة الله للتوبة المتضمنة للإيمان والعمل الصالح ، ومن كراهته لخلاف ذلك ما يرد على منكري الفَرق من الجهمية والقدرية ؛ فإن الطائفتين تجعل جميع الأشياء بالنسبة إليه سواء ، ثم القدرية يقولون: هو يقصد نفع العبد ، لكون ذلك حسناً ، ولا يقصد الظلم ؛ لكونه قبيحاً .

والجهمية يقولون: إذا كان لا فرق بالنسبة إليه بين هذا وهذا ، امتنع أن يكون عنده شيء حسن وشيء قبيح ، وإنما يرجع ذلك إلى أمور إضافية للعباد ، فالحسن بالنسبة إلى العبد ما يلائمه ، وما ترتب عليه ثواب يلائمه ، والقبيح بالعكس .

ومن هنا جعلوا المحبة والإرادة سواء . فلو أثبتوا أنه سبحانه يحب ويفرح بحصول محبوبه - كما أخبر به الرسول ﷺ - تبين لهم حكمته ، وتبين أيضا أنه يفعل الأفعال لحكمة .

فإن الجهمية قالوا: إذا كانت الأشياء بالنسبة إليه سواء ، امتنع أن يفعل لحكمة . والمعتزلة قالوا: يفعل لحكمة تعود إلى العباد .

فقالت لهم الجهمية: تلك الحكمة يعود إليه منها حكم أو لا يعود ؟

فالأول: خلاف الأصل الذي أصلتموه ، والثاني: ممتنع ، فيمتنع أن أحداً يختار الحسن علـى القبيح ، إن لم يكن له من فعل الحسن معنى يعود إليه ، فيكون فعل الحسن يناسبه ، بخلاف القبيح فإذا قدر نفي ذلك امتنع أن يفعل لحكمة ''[1] .

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٥/٣٢٤-٣٢٥) . ويقول العلامة ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٢-٤٣) : ''وإذ قـد انتهينا في هذه المسألة إلى هذا الموضع ، وهو بحرها ومعظمها ، فلنذكر سرها وغايتها وأصولها الـتي أثبتت عليها ، فبذلك تتم الفائدة ، فإن كثيراً من الأصوليين ذكروها مجردة ، ولم يتعرضوا لسرها وأصلها الذي أثبتت عليه ، وللمسألة ثلاثة أصول هي أساسها :

الأصـل الأول: هل أفعال الرب تعالى وأوامره معللة بالحكم والغايات ؟ وهذه من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر [و]بالشرع والقدر .

الأصل الثاني: أن تلك الحكم المقصودة فعل يقوم به سبحانه وتعالى قيام الصفة به فيرجع إليه حكمها ، ويشتق له اسمها أم يرجع إلى المخلوق فقط من غير أن يعود إلى الرب منها حكم ، أو يشتق له منها اسم .

الأصـل الثالث: هل تعلق إرادة الرب تعالى بجميع الأفعال تعلق واحد ؟ فما وجد منها مراد له محبوب مرضى ، طاعة كـان ، أو معصية ، وما لم يوجد منها ، فهو مكروه له مبغوض غير مراد ، طاعة كان أو معصية ، فهو يحب الأفعال الحسـنة التي هي منشأ المصالح وإن لم يشأ تكوينها وإيجادها ؛ لأن في مشيئته لإيجادها فوات حكمة أخرى هي أحب إلـيه مـنها ، ويـبغض الأفعال القبيحة التي هي منشأ المفاسد ويمنعها ، ويمقت أهلها وإن شاء تكوينها وإيجادها ؛ لما تستلزمه من حكمه ومصلحة هي أحب إليه منها ، ولا بد من توسط هذه الأفعال في وجودها ، فهذه الأصول الثلاثة علـيها مـدار هذه المسألة ومسائل القدر والشرع .... أما أصحاب القول الوسط وهم أهل التحقيق من الأصوليين والفقهاء والمتكلمين فيثبتون الأصول الثلاثة ، فيثبتون الحكمة المقصودة بالفعل في أفعاله تعالى وأوامره ، ويجعلو ا عائدة إليه حكماً ومشتقاً له اسمها ، فالمعاصي كلها ممقوتة مكروهة ، وإن وقعت بمشيئته وخلقه ، والطاعات كلها محبوبة له مرضية ، وإن لم يشأها ممن لم يطعه ، ومن وجدت منه فقد تعلق با المشيئة والحب ، فما لم يوجد من أنواع المعاصي فلـم تتعلق به مشيئته ولا محبته ، وما وجد منها تعلقت به مشيئته دون محبته ، وما لم يوجد من الطاعات المقدرة تعلق با محبته دون مشيئته ، وما وجد منها تعلق به محبته ومشيئته ، ومن لم يحكم هذه الأصول الثلاثة لم يستقر له في مسائل الحكم والتعليل والتحسين والتقبيح قدم بل لا بد من تناقضه ، ويتسلط عليه خصومه من جهة نفيه لواحد منها '' .

المبحث الثاني

طبائع الأشياء

طبائع الأشياء

إن الكلام على مسألة طبائع الأشياء من القضايا الغامضة ، وذلك لدقتها وقلة ما كتب فيها على مذهب أهل السنة والجماعة ، وقبل البحث فيها ينبغي معرفة الطبائع وحقيقتها ، ومن ثم أتطرق إلى ما قرره شيخ الإسلام رحمه الله فيها .

تعريف الطبائع :

الطـبائع جمع طبيعة ، والطبيعة والخَلِيقة والقَرِيحة والسجِية والنحِيتة والسلِيقة والنحِيزة والتوس والسوس والغرِيزة والنحاس والخِيم بمعنى واحد .

وأصل الطبع ابتداء صنعة الشيء ، تقول: طبعت اللبن طبعاً ، وطَبع الدرهم والسيف وغيرهما يطْبعه طَبعاً : صاغه .

والطـباع: الذي يأخذ الحديدة المستطيلة فيطبع منها سيفاً أو سكيناً أو سناناً أو نحو ذلك ، وصنعته الطباعة ، وطَبعت من الطين جرة : عملت ، والطباع الذي يعملها .

وتطلق الطبيعة على الفطرة يقال: طبعه الله على الأمر يطبعه طبعاً أي: فطره .

وتطلـق ويراد بها ملء الشيء ، يقال: طَبع الإناء والسقاء يطْبعه طَبعاً ، وطَبعه تطْبيعاً فتطَبع : ملأه ، وطِبعه: ملؤه ، والطبع ملْؤك السقاء حتى لا مزيد فيه من شدة ملئه .

ويطلق الطبع ويراد به المثال ، يقال: اضربه على طبع هذا وعلى غراره .

ويأتي بمعنى الختم ، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن يدخله شيء .

وطبيعة الإنسان : الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان .

وطـبع الإنسـان : هـو ما طبع عليه من طباع في مأكله ومشربه وسهولة أخلاقه وحزونتها وعسرها ويسرها وشدته ورخاوته وبخله وسخائه[١].

والطبـيعة هي نقش النفس بصورة ما ، إما من حيث الخلقة ، وإما من حيث العادة ، وهو فيما ينقش به من حيث الخلقة أغلب ، ولهذا قيل:

وتأبى الطباع على الناقل[٢] .

وطبيعة النار وطبيعة الدواء: ما سخره الله له من مزاجه[٣].

وشيء طبيعي أي ذاتي منفعل عن تدبير الجبلة في البدن بصنع باريها ذلك تقدير العزيز العليم [٤].

والمقصـود بالطبائع هنا : صفات وقوى في الأجسام تقتضي آثاراً معينة كالإشباع في الطعام ، والإرواء في الماء ، والقطع في السيف ، والإبصار في العين ، والاستماع في الأذن ، ونحو ذلك ، وتختلف هذه الآثار باختلاف الأشياء وأنواعها[٥] .

---

(١) انظر فيما سبق : لسان العرب لابن منظور (٥٤٩/١ ، ٩٨/٢ ، ٣١٥/٥ ، ٣٨٧ ، ٤١٥ ، ٣٣/٦ ، ٢٢٧ ، ٨/ ٢٣٢– ٢٣٣) .

(٢) هذا عجز بيت من بحر المتقارب ، وهو للمتنبي كما في ديوانه بشرح العكبري (٢٢/٣) وصدره :

يراد من القلب نسيانكم .

(٣) انظر فيما سبق : المفرادت للراغب (ص ٥١٥) ، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص ٤٧٩) .

(٤) انظر : المصباح المنير للفيومي (ص ٣٥) مادة : جبل .

(٥) وهـنا نـص من منهاج السنة النبوية لابن تيمية (١٧٨/٣) سياقه منفي لكن المقصود منه الإثبات وإليك النص بتمامه يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' ومن قال إن الأفعال ليس فيها صفات تقتضي الحسن والقبح فهو بمنزلة قوله ليس في الأجسام صفات تقتضي التسخين والتبريد والإشباع والإرواء ، فسلب صفات الأعيان المقتضية للآثار كسلب صـفات الأفعـال المقتضية للآثار ، وأما جمهور المسلمين الذين يثبتون طبائع الأعيان وصفاتها ، فهكذا يثبتون ما في الأفعال من حسن وقبح باعتبار ملاءمتها ومنافرتها '' .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فإنا نعلم أن في العين قوة فارقت بها قوة اليد حتى كان هذه يرى بها وهذا لا يرى بها ، ونعلم أن في العاقل قوة فارق بها المجنون حتى كان هذا يعقل ، وهذا لا يعقل ''[١] .

الأدلة على إثبات الطبائع :

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله مجموعة من الأدلة على إثبات طبائع الأشياء ، منها مـا يـرجع إلى أدلة إثبات الأسباب المتنوعة والتي سبق ذكرها ، فإن تلك الأدلة تدل على إثبات الطبائع ، ومنها ما يدل على إثبات الطبائع بخصوصها ، وفيما يلي بعض تلك الأدلة :

١- الأدلـة الدالة على سلب طبيعة بعض الجمادات في حالات معينة ، فإن ذلك دال علـى اتصافها بتلك القوى والطبائع فيما هو دون تلك الحالات ، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[٢] .

ولـو كانت النار لا طبيعة لها ولا تحرق كما يزعم نفاة الطبائع لما كانت هناك حاجة إلى سـلب طبيعـتها عنها ، ولما قيل لها: كوني برداً وسلاماً بل يكون هذا كخطاب الماء والتـراب والشجر والحجر وغيرها أن يكون برداً وسلاماً ، وهذا لا يقوله عاقل يتصور ما يقول .

٢- الأدلة التي فيها إضافة الأفعال إلى الجمادات ، فإن الجمادات تفعل ما أضيف إليها بطبعها بما أودعه الله تعالى فيها من القوى ، والأدلة في ذلك كثيرة فمنها :

قولـه تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ

(١) بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٢٦٨) .
(٢) سورة الأنبياء آية رقم (٦٩) .

كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[١] ، وقال تعالى: ﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرًا ﴾[٢] ، حيث جعل الرياح تقل السحاب أي تحمله ، فجعل الجماد فاعلاً بطبعه ، خلافاً لنفاة الطبائع الذين لا يجعلون له أي فعل مطلقاً .

وقولـه تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٍ ﴾[٣]حيث أن الأرض عند نزول المطر عليها تتحرك بالنبات وترتفع وتنبت[٤]، والشاهد في هذه الآية هو نسبته هذه الأفعال إلى الجماد ، وهذا يدل على أ ا فاعلة بطبعها .

وقولـه تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴾[٥]، حيث أضاف الطغيان إلى الماء .

وقولـه تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا ﴾[٦] ، حيث أضاف التدمير إلى الريح .

وقـولـه تعـالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارًا ﴾[٧] ، حيث أضاف التزين إلى الأرض[٨].

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (٥٧) .
(٢) سورة الذاريات آية رقم (٢) .
(٣) سورة الحج آية رقم (٥) .
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٨١/٣) .
(٥) سورة الحاقة آية رقم (١١) .
(٦) سورة الأحقاف آية رقم (٢٥) .
(٧) سورة يونس آية رقم (٢٤) .
(٨) انظر فيما سبق من الأدلة : منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٤١/٣-٢٤٤) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن القول بنفي الطبائع : " ونصوص الكتاب والسنة في إبطـال هذا كثيرة جداً كقوله: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[(١)]، فسلب الـنار طبيعـتها ، وقولـه: ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾[(٢)] ، وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾[(٣)] ، فأخبر أن الرياح تقل السحاب ، أي: تحمله ، فجعل هذا الجماد فاعلاً بطبعه ، وقال: ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ ﴾[(٤)] ، فجعلها فاعلة بطبعها ، وقوله: ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[(٥)] وهو الكثير المنفعة ، والزوج الصنف"[(٦)] .

٣- الأدلة الدالة على أن الجمادات قانتة لله تعـالى أسلمت له وسجدت تسبح بحمده وتخشاه .

فإن الله تعالى قد أضاف هذه الأفعال إلى هذه الجمادات ، وهي تفعل هذه الأمور بما أودعه الله تعالى فيها من قوى وطبائع ، وإن كنا نجهل كيفية ذلك .

وقد أفرد شيخ الإسلام رحمه الله لهذا الموضوع قاعدة مستقلة ذكر فيها الأدلة والأقوال والراجح في هذه المسألة[(٧)] ، ومما ذكر رحمه الله من الأدلة في ذلك :

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم (٦٩) .
(٢) سورة النبأ آية رقم (١٥) .
(٣) سورة الأعراف آية رقم (٥٧) .
(٤) سورة الحج آية رقم (٥) .
(٥) سورة لقمان آية رقم (١٠) .
(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩٢/٤) .
(٧) انظر: رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى - ضمن جامع الرسائل (٣/١-٤٥) .

١- آيات القنوت ، ومنها : قولـه تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾(١) ، وقولـه تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾(٢) .

٢- آيات الإسلام ، ومنها: قولـه تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾(٣) .

٣- آيات السجود ، ومنها : قولـه تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾(٤) ، وقولـه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(٥) ، وقولـه تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾(٦) .

٤- آيات التسـبيح ، ومنهـا قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا

---

(١) سورة البقرة آية رقم (١١٦) .
(٢) سورة الروم آية رقم (٢٦) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (٨٣) .
(٤) سورة الرعد آية رقم (١٥) .
(٥) سورة النحل آية رقم (٤٨-٤٩) .
(٦) سورة الحج آية رقم (١٨) .

غَفُورًا ﴾[١] ، و قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[٢] ، قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾[٣] ، قوله ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٤] ، قولـه تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٥] في سورتين من القرآن ، وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٦] ، وقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٧] .

٥- آيات الخشوع والخشية ، ومنها: قولـه تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٨] ، وقولـه تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ

---

(١) سورة الإسراء آية رقم (٤٤) .
(٢) سورة النور آية رقم (٤١) .
(٣) سورة ص آية رقم (١٨) .
(٤) سورة الحديد آية رقم (١) .
(٥) سورة الحشر آية رقم (١) ، وسورة الصف آية رقم (١) .
(٦) سورة الجمعة آية رقم (١) .
(٧) سورة التغابن آية رقم (١) .
(٨) سورة الحشر آية رقم (٢١) .

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[(١)][(٢)].

ويـرى شيخ الإسلام رحمه الله أن ما ذكر في هذه الآيات حق على حقيقته وظاهره، فالقـنوت والإسـلام والسجود والتسبيح والخشوع والخشية أفعال لهذه المخلوقات تليق بها وتناسبها ، وإن لم نعلم كيفية ذلك ، واستدل لذلك بعدة أدلة منها :

١- بعض الأحاديث النبوية التي فيها شيء من هذه الأمور كحديث سجود الشمس ، فقـد قـال الـنبي ﷺ لأبي ذر[(٣)] حين غربت الشمس: « **تدري أين تذهب** » ؟ قال: الله ورسوله أعلم ، قال: « **فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد ، فلا يقبل منها وتستأذن ، فلا يؤذن لها ، يقال لها: ارجعي من حيث جئت ، فـتطلع مـن مغربها ، فذلك قولـه تعالى** ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[(٤)] »[(٥)].

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : " فهي لا تزال تسبح في الفلك ، وهي تسجد لله وتستأذن كل ليلة كما أخبر النبي ﷺ ، فهي تسجد سجوداً يناسبها ، وتخضع لـه وتخشع كما يخضع ويخشع كل ساجد من الملائكة والجن والإنس "[(٦)] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٧٤) .

(٢) انظر فيما سبق من الأدلة : رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى - ضمن جامع الرسائل (٣/١-٤٥) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/٣٤٤-٣٤٥) .

(٣) جـندب بن جنادة ، أبو ذر الغفاري ، صحابي مشهور بكنيته مختلف في اسمه واسم أبيه ، أسلم قديماً ، وتأخرت هجـرته فلم يشهد بدراً ، مناقبه كثيرة ، توفي سنة ٣٢ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٤/٦٢) ، الإصابة لابن حجر (٤/٦٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص٦٨٣) .

(٤) سور يس آية رقم (٣٨) .

(٥) رواه البخاري في بدء الخلق ، باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٣/١١٧٠) ح (٣٠٢٧) واللفظ لـه ، ومسلم في الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١/١٣٩) ح (١٥٩) ، وأحمد (٥/١٥٢ ، ١٧٧) .

(٦) رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (١/٣٧) .

وحـديث تسليم الحجر على النبي ﷺ ، يقول ﷺ: ((**إني لأعرف حجراً** بمكة **كان يسـلم علي قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن**))(١).

وحديث حنين الجذع للنبي ﷺ ، فقد ((**كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليـه ، فحن الجذع ، فـأتـاه فمسـح يده عليه**))(٢).

٢- ما جاء عن بعض السلف من تفسير لبعض هذه الآيات ، فقد قال مجاهد: في قول الله جل ثناؤه ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٣) قال: كل حجر يتفجر منه الماء ، أو يتشقق عن ماء ، أو يتردى من رأس جبل فهو من خشية الله عز وجل ، نزل بذلك القرآن(٤) .

وبنحو هذا قال قتادة وابن جريج ، واختاره ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية(٥) .

---

(١) رواه مسـلم في الفضـائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (١٧٨٢/٤) ح(٢٢٧٧) واللفظ له ، وأحمد (٩٥/٥) كلاهما من حديث جابر بن سمرة ﷺ .

(٢) رواه الـبخاري في المـناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام (١٣١٣/٣) ح(٣٣٩٠) من حديث ابن عمر ﷺ بلفظه .

(٣) سورة البقرة آية رقم (٧٤) .

(٤) رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٣٦٤/١) .

(٥) انظر فيمـا سبق : جامع البيان لابن جرير الطبري (٣٦٤/١-٣٦٥ ، ٥٣/٢٨) ، وللاستزادة انظر: معالم التنزيل للبغوي (١٠٥/١) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١٥/١) ، تفسـير القرآن العظيم لابن كثير (١٠٢/١) .

وقال أبو العالية[(١)] : ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ســـاجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه[(٢)] .

٣- ســياق بعــض الآيات يمنع أن يكون المقصود مجرد خضوع المخلوقات لله تعالى ونفــوذ حكمــه ومشيئته فيها كما ذكر ذلك بعض المفسرين ؛ لأن هذا الأمر لازم لها لا يكــون في وقت دون آخر ، ولا يكون من مخلوقات دون غيرها ، فهو من جنس فقرها إلى الله تعــالى وحاجــتها إلــيه ، وهذا من باب الربوبية ، بينما المذكور في الآيــات التعبد والألوهية .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وأما تفسير سجودها وتسبيحها بنفوذ مشيئة الرب وقدرتــه فيهما ودلالتها على الصانع فقط فالاقتصار على هذا باطل ، فإن هذا وصف لازم دائــم لها لا يكون في وقت دون وقت ، وهو مثل كونها مخلوقة محتاجة فقيرة إلى الله تعالى ، وعلــى هذا فالمخلوقات كلها لا تزال ساجدة مسبحة ، وليس المراد هذا فإنه قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾[(٣)] ، وقال: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[(٤)] ، وقال: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ ﴾[(٥)] ، فقد أخبر سبحانه وتعالى عنه أنه يعلم ذلك ، ودلالتها على الرب يعلمه عموم الناس .

---

(١) رفَــيع بن مِهران البصري ، أبو العالية الرياحي ، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ ، ثقة كثير الإرسال ، تــوفي سنة ٩٠ هـ . انظر: الكاشف للذهبي (٣١٢/١) ، تهذيب التهذيب لابن حجر (٢٤٦/٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢١٠) .

(٢) رواه ابــن جرير في جامع البيان (١٣٠/١٧) ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣٨١/٤) إلى عبد بن حميد وابن المنذر .

(٣) سورة ص آية رقم (١٨) .

(٤) سورة ص آية رقم (١٩) .

(٥) سورة النور آية رقم (٤١) .

وأيضاً فقد أخبر الله تعالى في القرآن من كلام الهدهد والنمل وأن سليمان علم منطق الطير بما يدل على الاختصاص ، وهذا في الحيوان .

وأيضاً فإنه جعل الجميع يسجد ، ثم قال: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾[(١)]، وهذا المعنى يشترك فيه جميع المخلوقات دائماً ، وهو وصف لازم لكل مخلوق لا يزال مفتقرا إلى الخالق ، ولا يزال دالاً عليه ، ولا يزال منقاداً لما يشاء الرب .

وأيضاً فإنه قسم السجود إلى طوع وكره ، وانفعالها لمشيئة الرب وقدرته لا ينقسم إلى طوع وكره ، ولا يوصف ذلك بطوع منها ولا كره ، فإن دليل فعل الرب فيها ليس هو فعل منها البتة .

والقرآن يدل على أن السجود والتسبيح أفعال لهذه المخلوقات ، وكون الرب خالقاً لها إنما هو كونها مخلوقة للرب ليس فيه نسبة أمر إليها ... وهو سبحانه تارة يجعلها آيات له ، وتارة يجعلها ساجدة مسبحة ، وهذا نوع غير هذا ... كما يفرق بين كون الإنسان مخلوقاً وبين كونه عابدا لله ، فهذا غير هذا ، هذا يتعلق بربوبية الرب له ، وهذا يتعلق بتألهه وعبادته للرب ''[(٢)] .

٤- ومن الأدلة على إثبات الطبائع ما نقل عن السلف من أقوال في إثباتها ، ويتضح هذا بصورة جلية عند كلامهم على العقل وحقيقته ، فقد نقل عن جماعة من السلف في تفسيرهم العقل بأنه غريزة وآلة للتمييز ، وهذا فيه إثبات لطبيعة العقل .

---

(١) سورة الحج آية رقم (١٨) .

(٢) رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٤٣/١-٤٤) .

وقـد بحـث شيخ الإسلام رحمه الله مسألة العقل وحقيقته وفصلها عند نقده لكلام الفلاسفة في العقل[١] ، وذكر في أثناء ذلك أقوال السلف فيه ، وربط بين أقوالهم وبين إثبات الأسباب والطبائع ، ومما ذكر رحمه الله في حقيقة العقل أ ا تتناول أموراً متعددة :

١- العلوم الضرورية التي يفرق با بين العاقل وا نون .

٢- العلوم المكتسبة التي تدعو الإنسان إلى فعل ما ينفعه وترك ما يضره .

٣- العمل بالعلم .

٤- الغريزة التي يحصل با العقل .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' فهنا أمور :

أحـدها: علوم ضرورية يفرق با بين ا نون الذي رفع القلم عنه ، وبين العاقل الذي جرى عليه القلم ، فهذا مناط التكليف .

والثاني: علوم مكتسبة تدعو الإنسان إلى فعل ما ينفعه وترك ما يضره ، فهذا أيضا لا نزاع في وجوده ، وهو داخل فيما يحمد با عند الله من العقل ، ومن عدم هذا ذم وإن كان من الأول ، وما في القرآن من مدح من يعقل وذم من لا يعقل يدخل فيه هذا النوع ، وقد عدمـه من قال: ﴿ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٢] .

الثالث: العمل بالعلم ، يدخل في مسمى العقل أيضاً ، بل هو من أخص ما يدخل في اسـم العقل الممدوح وهذان النوعان لم ينازع الأولون في وجودهما ، ولا في أ ما يسميان عقـلاً ، ولكن قالوا: كلامنا في العقل الذي هو مناط التكليف للفرق بين العاقل وا نون ، وهذان لا يدخلان في ذلك ، فال اع فيهما لفظي .

(١) انظر : بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٢٥٠ – ٢٧٤) .

(٢) سورة الملك آية رقم (١٠) .

الأمر الرابع: الغريزة التي بها يعقل الإنسان ''[١] .

وبعـدما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله الأمر الرابع ذكر النزاع بين الناس فيه ، وأقوال الأشـاعرة في ذلك ثم قـال: '' فهذه مما تنوزع في وجودها ، فأنكر كثير من الأولين أن يكـون في الإنسـان قـوة يعلم بها غير العلم ، أو قوة يبصر بها غير البصر ، أو قوة يسمع بها غير السمع ، وجعلوا إثبات ذلك من جنس قول الفلاسفة والطبائعية[٢] الذين يجعلون في الإنسان قوى يفعل بها ، وقد بالغ في ذلك طوائف منهم ''[٣] .

ثم حكـى إجماع السلف على إثبات هذه القوى فقال: '' والسلف والأئمة متفقون علـى إثـبات هذه القوى ، فالقوى التي بها يعقل كالقوى التي بها يبصر ، والله تعالى خالق ذلك كله ، كما أن العبد يفعل ذلك بقدرته بلا نزاع منهم ، والله تعالى خالقه وخالق قدرته فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ''[٤] .

---

(١) بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٢٦٠) ، وللاستزادة في موضوع العقل انظر: درء تعـارض العقل والنقل لابن تيمية (٥٠/٦) ، الاستقامة لابن تيمية (١٦١/٢) ، الصفدية لابن تيمية (٣٣١/٢) ، الجواب الصحيح لابن تيمية (٤٣/٥) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٧/٩) ، الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٧٦) .

(٢) الطبائعية : هم قوم من الفلاسفة ، زعموا أن أصل العالم الطبائع الأربع ، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وأنها قديمة مؤثرة في العالم بطبعها لا باختيارها ، وأنها لم تزل متنافرة ، ثم امتزجت فاقتضى امتزاجها العالم ، فالحرارة طبع النار ، والبرودة طبع الماء ، والرطوبة طبع الهواء ، واليبوسة طبع الأرض ، وهذه هي العناصر الأربعة ، ومنهم من زاد علـى هذه المقولة فقال: إن الأفلاك والكواكب قديمة أيضاً ، ومنهم من زاد طبيعة أخرى خامسة . انظر: أصول الإيمـان للبغدادي (ص ٢٥٣) ، الفصل لابن حزم (٩٠/١-٩١) ، التبصير في الدين للإسفراييني (ص ١٥٠) ، الداعي إلى الإسلام لابن الأنباري (ص ٢٣٧-٢٣٨) .

(٣) بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٢٦٠-٢٦١) .

(٤) المصدر السابق (ص ٢٦٣) .

ونقل ما ذكر عن الإمام أحمد والحارث المحاسبي[١] في ذلك فقال : " ولهذا نص أحمد ابن حنبل والحارث المحاسبي وغيرهما: أن العقل غريزة في الإنسان "[٢] .

وذكـر أنه قد نقل بعض الأشاعرة النص في ذلك عن الإمام الشافعي وأبي عبدالله بن مجاهـد[٣] - وإن كانـوا قد تأولوا كلامهم - حيث نقل عنهما قولهـما : إن العقل آلة التمييز ، وقال أبو العباس القلانسي[٤] : العقل قوة التمييز[٥] .

وقد وقع في كلام أحد أئمة الأشاعرة وهو أبو المعالي الجويني[٦] تسمية العقل قوة فقد ذكر ذلك في أصول الفقه ، بل ونقد قول الأشاعرة بأنه العلم[٧] .

والمقصود من هذا أن الطبائع دل على إثبا ا اتفاق السلف الصالح كما نقل عن بعض السلف أقوال في العقل تدل على إثبا ا ، كما أنه نقل عن بعض المتكلمين إثبا ا أيضاً .

---

(١) الحـارث بـن أسد المحاسبي ، أبو عبدالله ، أحد العباد الزهاد المشهورين ، أنكر عليه الإمام أحمد خوضه في علم الكـلام وهجـره ، توفي سنة ٢٤٣ هـ . انظر: الحلية لأبي نعيم (٧٣/١٠) ، المنتظم لابن الجوزي (٣٠٨/١١) ، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٥٩/١) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٥٠/٦) .

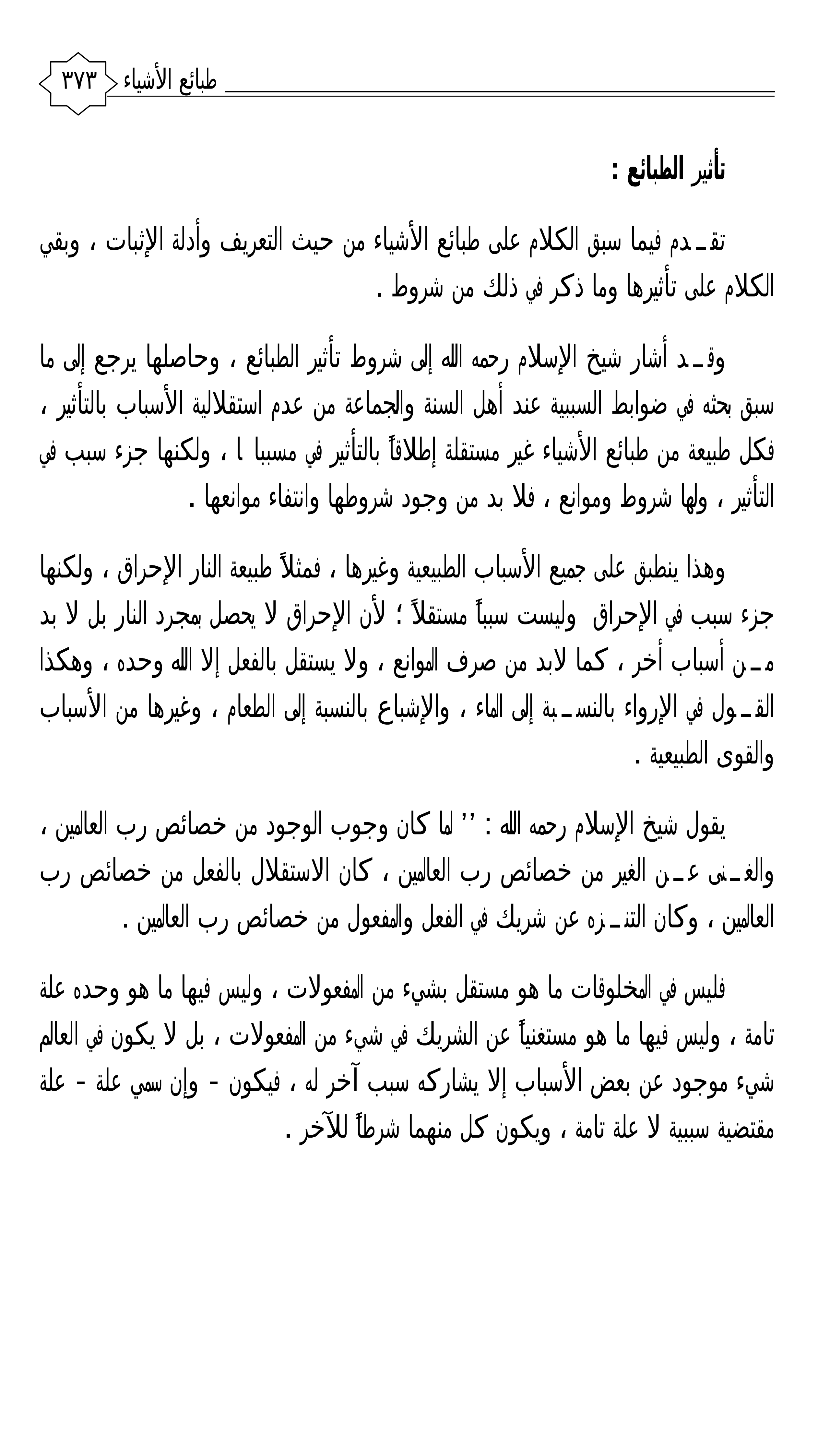
(٣) محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي البصري المتكلم أبو عبدالله ، صاحب أبي الحسن الأشعري ، ، قدم بغداد واشتغل بالتصـنيف والـتدريس ، وهو شيخ أبي بكر بن الباقلاني توفي بعد سنة ٣٦٠ هـ . انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص١٧٧) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٠٥/١٦) ، شذرات الذهب لابن العماد (٧٤/٣) .

(٤) أحمـد بن عبدالرحمن بن خالد القلانسي الرازي ، أبو العباس ، متكلم من معاصري أبي الحسن الأشعري . انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص ٣٩٨) .

(٥) انظر: بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٢٦٤-٢٦٥) .

(٦) عبدالملك بن عبدالله الجويني الأشعري الشافعي ، أبو المعالي ، الملقب بإمام الحرمين ، ولد بجوين سنة ٤١٩ هـ ، وأخذ العلم عن جماعة من أهل العلم ، وصنف مصنفات كثيرة توفي سنة ٤٧٨هـ . انظر: المنتظم لابن الجوزي (١٦/ ٢٤٤) ، تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص٢٧٨) ، الأعلام للزركلي (١٦٠/٤) .

(٧) انظر : بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٢٦٣) ، وانظر كلام الجويني في كتابه البرهان في أصول الفقه (٩٥/١-٩٦) .



تأثير الطبائع :

تقدم فيما سبق الكلام على طبائع الأشياء من حيث التعريف وأدلة الإثبات ، وبقي الكلام على تأثيرها وما ذكر في ذلك من شروط .

وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى شروط تأثير الطبائع ، وحاصلها يرجع إلى ما سبق بحثه في ضوابط السببية عند أهل السنة والجماعة من عدم استقلالية الأسباب بالتأثير ، فكل طبيعة من طبائع الأشياء غير مستقلة إطلاقاً بالتأثير في مسببا ا ، ولكنها جزء سبب في التأثير ، ولها شروط وموانع ، فلا بد من وجود شروطها وانتفاء موانعها .

وهذا ينطبق على جميع الأسباب الطبيعية وغيرها ، فمثلاً طبيعة النار الإحراق ، ولكنها جزء سبب في الإحراق وليست سبباً مستقلاً ؛ لأن الإحراق لا يحصل بمجرد النار بل لا بد من أسباب أخر ، كما لابد من صرف الموانع ، ولا يستقل بالفعل إلا الله وحده ، وهكذا القول في الإرواء بالنسبة إلى الماء ، والإشباع بالنسبة إلى الطعام ، وغيرها من الأسباب والقوى الطبيعية .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' لما كان وجوب الوجود من خصائص رب العالمين ، والغنى عن الغير من خصائص رب العالمين ، كان الاستقلال بالفعل من خصائص رب العالمين ، وكان التنزه عن شريك في الفعل والمفعول من خصائص رب العالمين .

فليس في المخلوقات ما هو مستقل بشيء من المفعولات ، وليس فيها ما هو وحده علة تامة ، وليس فيها ما هو مستغنياً عن الشريك في شيء من المفعولات ، بل لا يكون في العالم شيء موجود عن بعض الأسباب إلا يشاركه سبب آخر له ، فيكون - وإن سمي علة - علة مقتضية سببية لا علة تامة ، ويكون كل منهما شرطاً للآخر .

كمـا أنـه ليس في العالم سبب إلا وله مانع يمنعه في الفعل ، فكل ما في المخلوق مما يسمى علة أو سبباً أو قادراً أو فاعلاً أو مؤثراً ، فله شريك هو له كالشرط ، وله معارض هو له مانع وضد ، وقد قال سبحانه ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[(١)] .

والـزوج يراد به النظير المماثل ، والضد المخالف ، وهذا كثير ، فما من مخلوق إلا له شـريك وند ، والرب سبحانه وحده هو الذي لا شريك له ، ولا ند ، ولا مثل له ، بل ما شـاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا لا يستحق غيره أن يسمى خالقاً ولا رباً مطلقا ونحو ذلـك ؛ لأن ذلـك يقتضي الاسـتقلال والانفراد بالمفعول المصنوع وليـس ذلك إلا لله وحده ''[(٢)] .

ثم مع ذلك فالأشياء وطبائعها خاضعة لله جل وعلا يتصرف فيها بمشيئته وحكمته إن شاء أبقى على سببيتها وطبيعتها ، وإن شاء سلب ذلك عنها ، كما سلب النار قوة إحراقها عن الخليل ﷺ ، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[(٣)] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وما من سبب من الأسباب إلا دائر موقوف على أسـباب أخـرى ولـه معارضات ، فالنار لا تحرق إلا إذا كان المحل قابلاً ، فلا تحرق السمندل ، وإذا شاء الله منع أثرها كما فعل بإبراهيم عليه السلام ''[(٤)] .

والجديـر بالذكـر أن طبيعة بعض الأشياء تزول بانقلاب حقيقتها ، وهو ما يسمى بالاسـتحالة ، وهـي تحول الأشياء ذات الخصائص والطبائع المعينة إلى أشياء أخرى ذات خصائص وطبائع مختلفة عن الأولى .

---

(١) سورة الذاريات آية رقم (٤٩) .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٨١/٢٠-١٨٢) .
(٣) سورة الأنبياء آية رقم (٦٩) .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٢٧/١١) .

وهـذا الزوال تغير تام في حقيقة الشيء ، بحيث ينقلب من شيء ذي طبيعة معينة إلى شيء آخر مختلف ذي طبيعة أخرى مختلفة .

وقـد تطرق الفقهاء لمسألة الاستحالة عند دراستهم لبعض مسائل الطهارة ، كمسألة النجاسات عندما تستحيل إلى أشياء أخرى ، كالميتة أو الدم أو الخنزير إذا استحال إلى رماد أو تراب أو نحو ذلك هل يطهر بذلك ، أو لا ؟ وللعلماء في هذه المسألة قولان :

أحـدهما : تطهـر بذلك ، وهو المنقول عن أصحاب أبي حنيفة وأهل الظاهر وأحد القولين في مذهب مالك وأحمد بن حنبل رحم الله الجميع .

الآخـر : أنها لا تطهر بذلك ، وهو مذهب الشافعي وأحد القولين في مذهب مالك وأحمد رحم الله الجميع [1].

ويـرى شيخ الإسلام رحمه الله أن القول بطهارة النجاسة بالاستحالة أصح من القول الآخـر ، ويعلـل ذلـك بـأن النجاسة إذا صارت ملحاً أو رماداً فقد تبدلت حقيقتها ، والنصوص إنما تتناول تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولكنها لا تتناول مطلقاً الملح والرماد والتـراب ، لا في لفظها ولا في معناها ، أما في اللفظ فواضح ، وأما في المعنى فلأن حقيقة الأعيان الخبيثة صارت معدومة ، وعلى هذا فلا وجه للقول بنجاستها عند استحالتها ، هذا من جهة النص .

ومـن جهة القياس فلا يرى شيخ الإسلام رحمه الله أي فرق بين القول بطهارة الخمر بالاسـتحالة إلى الخـل ، وبين طهارة البول والعذرة بالاستحالة إلى رماد أو تراب فالجميع سواء .

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤٤٥/٣) ، الجواب الصحيح (٤٠٣/١) .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' وقول القائل: إ ا تطهر بالاستحالة أصح ، فإن النجاسة إذا صارت ملحاً أو رماداً ، فقد تبدلت الحقيقة ، وتبدل الاسم والصفة .

فالنصوص المتناولة لتحريم الميتة والدم ولحم الخ ير لا تتناول الملح والرماد والتراب لا لفظاً ولا معنى ، والمعنى الذي لأجله كانت تلك الأعيان خبيثة معدوم في هذه الأعيان ، فلا وجه للقول: بأ ا خبيثة نجسة .

والـذين فـرقوا بـين ذلـك وبين الخمر قالوا: الخمر نجست بالاستحالة ، فطهرت بالاسـتحالة . فيقال لهم: وكذلك البول والدم والعذرة إنما نجست بالاستحالة ، فينبغي أن تطهر بالاستحالة ''[1] .

ويذكـر شيخ الإسلام رحمه الله من طرق الاستحالة تقسيم الأشياء إلى أجزاء صغيرة جداً ، فيرى أنه عندما تتصاغر الأجزاء فإ ا تصل إلى مرحلة لا تكون فيها الأشياء ذات قوة تحتمل معه الانقسام الفعلي ، بل لو حصل لها تقسيم فإنه تستحيل ، وتتحول إلى شيء آخر ويضـرب شيخ الإسلام رحمه الله مثالاً على ذلك بالماء ، فإن أجزاء الماء إذا تصاغرت تصل إلى درجة لا تقبل القسمة الفعلية ، ولو قسمت فإ ا تصير هواء ، وهذا ما يحصل للماء .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' كل موجود فلا بد أن يتميز منه شيء عن شيء فلا يتصـور وجود جوهر لا يتميز منه شيء عن شيء ، لكن إذا تصغرت الأجزاء استحالت ، وقد لا تقبل القسمة الفعلية بل إذا قسمت استحالت ، كما في أجزاء الماء إذا تصغرت فإ ا تصـير هـواء فهي ، وإن كان يتميز منها شيء عن شيء لكن ليس لها من القوة ما يحتمل الانقسام الفعلي بل تستحيل ''[2] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٢٢/٢٠) ، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أدلة وتفاصيل أخرى في المسألة ليس هذا محل ذكرها . انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٢١/٢١ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٥٠٢ ، ٥١٧ ، ٦٠١) .
(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٨٦/٤) .

وقد استفاد شيخ الإسلام رحمه الله من قضية الاستحالة في تقرير مسألة الخلق والإعادة والرد على المتكلمين في قولهم بالجوهر الفرد[(١)] .

أما قضية الخلق ، فإن خلق الإنسان يتم عن طريق الاستحالة ، فالمني يستحيل وينقلب إلى علقـة ، والعلقـة إلى مضغة ، والمضغة إلى عظام وهكذا ، ومثل هذا يقال في الأشجار ونحوها من المخلوقات .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " القول في خلق الله للأجسام التي يشاهد حدوثها أنه يقلبها ويحيلها من جسم إلى جسم ، هو الذي عليه السلف والفقهاء قاطبة والجمهور .

ولهذا يقول الفقهاء في النجاسة هل تطهر بالاستحالة أم لا ؟ كما تستحيل العذرة رماداً ، والخنزير وغيره ملحاً ونحو ذلك ، والمنى الذي في الرحم يقلبه الله علقة ثم مضغة ، وكذلك الثمر يخلق بقلب المادة التي يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء ، والماء الذي نزل عليها وغير ذلك من المواد التي يقلبها ثمرة بمشيئته وقدرته ، وكذلك الحبة يفلقها وتنقلب المواد التي يخلقها منها سنبلة وشجرة وغير ذلك ، وهكذا خلقه لما يخلقه سبحانه وتعالى ، كما خلق آدم من الطين ، فقلب حقيقة الطين فجعلها عظماً ولحماً ، وغير ذلك من أجزاء البدن ، وكذلك المضغة يقلبها عظاماً وغير عظام ، قـال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[(٢)] "[(٣)].

---

(١) الجوهر الفرد هو الجزء الذي لا يتجزأ من الأجسام ، والأجسام مكونة من الجواهر الفردة عند المتكلمين ، وسيأتي شرح هذه النظرية ونقدها بالتفصيل (ص ٧٦٧ ، ٧٧٦) .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم (١٢-١٦) .

(٣) تفسير سورة الإخلاص - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤٨/١٧) .

أما قضية الإعادة ، فإنه قرر أنه عند موت الإنسان ، فإن جسمه يبلى ويستحيل إلى تراب ، ولا يبقى منه إلا عجب الذنب فقط ، وقد يدفن في القبر الواحد أكثر من ألف ميت وكلهم يستحيل ويصير تراباً كما كانوا قبل خلقهم ، ثم الله تعالى يعيدهم مرة أخرى كما خلقهم أول مرة ، ولكن بأجسام باقية دائمة ، من غير حاجة إلى أن ينقلوا من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، وكذا من غير حاجة إلى تغذية ودم ونحوها مما يحصل في النشأة الأولى ، بل كإحياء الأرض بعد مو ا كما أخبر الله تعالى بذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[1] ، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2] .

وبذا يخرج من الإشكاليات التي ترد على القائلين بتركب الأجسام من الجواهر الفردة حـيث أورد علـيهم الإنسان الذي يأكله حيوان ، وذلك الحيوان أكله إنسان آخر ، فإن أعيدت إلى الإنسان الأول لم تعد إلى الثاني والعكس ، فالجميع يستحيل ويتحول إلى تراب ، ثم ينشأ الإنسان النشأة الآخرة خلقاً جديداً .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : " وكما أنه سبحانه خلق الإنسان ولم يكن شيئاً كـذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئاً ، وعلى هذا فالإنسان الذي صار تراباً ونبت من ذلك التـراب نبات آخر أكله إنسان آخر و هلم جرا ، والإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان ، وأكل ذلك الحيوان إنسان آخر ، ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان وهذا الإنسان ، وصار كل منهما تراباً ، كما كان قبل أن يخلق ، ثم يعاد هذا ، ويعاد هذا من التراب ، وإنما يبقى عجب الذنب منه خلق ومنه يركب .

---

(١) سورة فاطر آية رقم (٩) .

(٢) سورة الأعراف آية رقم (٥٧) .

وأمـا سائره فعدم ، فيعاد من المادة التي استحال إليها ، فإذا استحال في القبر الواحد ألـف مـيت ، وصاروا كلهم تراباً ، فإنهم يعادون ويقومون من ذلك القبر ، وينشئهم الله تعـالى بعد أن كانوا عدماً محضاً ، كما أنشأهم أولاً بعد أن كانوا عدماً محضاً ، وإذا صار ألـف إنسـان تـراباً في قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر ، من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التي خلقهم منها من نطفة ثم من علقـة ثم من مضغـة "[1] .

وأمـا الرد على المتكلمين في قولهم بالجوهر الفرد ، فإن المتكلمين يقولون : إن الشيء إذا كـان ينقسم ويتجزأ إلى أجزاء متعددة ، فلا يخلو الأمر ، إما أن يتجزأ إلى ما لا نهاية ، وهذا باطل عقلاً ، وذلك لوجود مالا يتناهى من الأجزاء في الجسم المتناهي ، وإما أن يصل إلى جزء لا يمكن تجزئته ، وهو الجوهر الفرد المطلوب إثباته[2] .

لكـن شيخ الإسلام رحمه الله عندما قرر أن الأجزاء عندما تتصاغر فإنها تستحيل إلى مادة أخرى ، فإنه يكون قد نقض الحجة التي يستند إليها مثبتو الجوهر الفرد من المتكلمين.

وعلماء الكيمياء في الوقت الحاضر يوافقون على ما ذكر في مسألة الاستحالة في المواد الطبيعية ، بل إن علم الكيمياء الحديث يقوم على تحويل بعض المركبات المعينة ذات الصفات الخاصة إلى مركبات أخرى ذات خصائص وصفات مختلفة عن الأولى ، ولهم في ذلك طرقهم الخاصة [3][4].

---

(١) تفسير سورة الإخلاص - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٦/١٧) .

(٢) انظر : المحصل للرازي (ص ٢٣١ ، ٢٦٨-٢٧٢) .

(٣) وهـناك أمثلة كثيرة لما يعمله أهل الكيمياء الحديثة ، فمثلا : تكوين الصابون ومعظم سوائل التنظيف يكون عن طريق تفاعل كيميائي ، وهو عند الفقهاء يسمى استحالة ، وكذا تكوين العقاقير الطبية ومواد البناء كالإسمنت ونحوه يتم بهذا الطريق ، لكنه يتم بدقة كبيرة ، وعناية تامة .

(٤) انظـر : معجـم أكاديميا للمصطلحات العلمية والتقنية (ص ١١٧) ، الصناعات الكيميائية لـ د. أحمد مدحت إسلام (٧/١) وما بعدها .

الباب الثاني

السببية وأحكامها

عند أهل السنة والجماعة

وفيه فصلان:

الفصل الأول: الأسباب المأمور بها وموقف ابن تيمية منها .

الفصل الثاني: الأسباب المنهي عنها وموقف ابن تيمية منها .

تمهيد

بعد الكلام على السببية وضوابطها عند أهل السنة والجماعة ، فلا بد من الكلام على أحكام السببية ؛ لأن في ذلك بياناً لموقف الشريعة من الأسباب المتعددة .

والأسـباب منها ما هو مأمور به ، ومنها ما هو منهي عنه ، ولهذا سوف أقسم هذا الباب إلى فصلين:

الفصل الأول : الأسباب المأمور بها وموقف ابن تيمية منها .

الفصل الثاني : الأسباب المنهي عنها وموقف ابن تيمية منها .

وسوف أترك الأسباب المباحة ؛ لأن بابها واسع جداً ولا يمكن حصرها في أمور معينة كما أنه لا يتسنى تفضيل بعضها على بعض ؛ لأنها متساوية من حيث الإباحة .

الفصل الأول

الأسباب المأمور بها

وموقف ابن تيمية منها

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : عبودية الله تعالى .

المبحث الثاني : الصبر .

تمهيد

المقصـود بالأسباب المأمور بها: ما أمر الشارع به من الأسباب المعينة ، وجعله سبباً وطريقاً للوصول إلى المطلوب .

وهـذا ينطبق على كل أوامر الشرع سواء كان أمراً جازماً وهي الواجبات ، أو غير جازم وهي المستحبات .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : ‘‘ فما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة ‘‘[1] .

وهذا موضوع طويل جداً ، والإفاضة فيه تخرج البحث عن مقصوده وهي دراسة السببية ، ولهذا سوف أكتفي منه بموضوعين يعتبران من أهم مواضيعه :

الموضوع الأول عبودية الله تعالى ، ذلك أ ا سبب خلق العباد ، فالله تعالى خلق الجن والإنس ، وأرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، لعبادته وحده لا شريك له ، فهي سبب وجود الثقلين وبسببها انقسم الناس إلى فريقين: فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، ومن هنا تتجلى أهمية دراستها فهي أهم الأسباب المأمور با على الإطلاق .

الموضوع الثاني: الصبر ، وهو من أهم الأسباب المأمور با ولا يقل أهمية عن العبادة وهو وإن كان داخلاً ضمنها ، لكن أفردته بالذكر لأهميته ، ولمزيد العناية به ، إذ بدونه لا تنفع العبادة[2] .

---

(١) العبودية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧٢/١٠) .

(٢) وقـد قرن الله تعالى بين الصبر وبين العبادة المتمثلة بأركان الإسلام ومقامات الإيمان في مواضع كثيرة في القرآن ، وسـيأتي التنبـيه علـى هذا الأمر في (ص٤٢٦) عند الكلام على أهمية الصبر ، يقول شيخ الإسلام رحمه الله كما في مجموع الفتاوى (٦٧٦/١٠) : ‘‘ وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصاً فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٩] وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله =

فلا بد للعبد من هذين الأمرين ، عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، والصبر على ذلك ، قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[1] ، ومن هنا فقد قسمت موضوع الأسباب المأمور بها وموقف ابن تيمية منها إلى مبحثين :

المبحث الأول : عبودية الله تعالى .

المبحث الثاني : الصبر .

=وطاعة لأمره '' . والحاصل أن تخصيص الصبر بالذكر مع العبادة مع كونه داخلاً فيها وليس قسيماً لها أسلوب قرآني معـروف ، فقد جاء في القرآن عطف الشيء على لازمه ، وعطف الشيء على بعضه ، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله على ذلك أمثلة كثيرة فلتراجع في كتابه (الإيمان الكبير) - الموجود ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦٢/٧-١٧٧) .

(١) سورة العصر الآيات (١-٣) .

المبحث الأول

عبودية الله تعالى

عبودية الله تعالى

تعتبر العبودية الغاية المحبوبة لله عز وجل المرضية له ، فهي التي لأجلها خلق الله تعالى الخلق قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[١] .

وبها أرسل الله تعالى جميع الرسـل قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[٣] .

وكل رسول يقول لقومه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[٤] ، بل أمر بها أفضل رسله محمد ﷺ وجعلها لازمة له حتى الموت قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[٥] .

ووصف بها ملائكته قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[٦] .

ووصف بها أنبياءه قال تعالى عن المسيح الذي ادعيت فيه الإلهية : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلاً لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[٧] ، وقال تعالى عن نبينا محمد ﷺ وهو في أكمل أحواله حال الإسـراء : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ

(١) سورة الذاريات آية رقم (٥٦) .
(٢) سورة النحل آية رقم (٣٦) .
(٣) سورة الأنبياء آية رقم (٢٥) .
(٤) سورة الأعراف آية رقم (٥٩) .
(٥) سورة الحجر آية رقم (٩٩) .
(٦) سورة الأنبياء آية رقم (١٩-٢٠) .
(٧) سورة الزخرف آية رقم (٥٩) .

ﭐلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[1] ، وقال عنه في حال الإيحاء إليـه: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾[2] ، وقال عنه في حال دعوته إلى الله عز وجل: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴾[3] .

ونعت بها صفوة خلقه المؤمنين في أكمل أحوالهم قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾[4] ، وقـال تعـالى: ﴿ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴾[5] .

وذم المستكبرين عنها وتوعدهم بالعذاب الشديد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[6] .

وبالجملة فالدين هو العبادة ، والعبادة هي الدين[7] .

تعريف العبادة :

العبادة في اللغة : هي الطاعة ، وأصلها: الخضوع والذل ، يقال: طريق معبد أي مذلل بكثرة الوطء . والعبد: هو الإنسان حراً كان أو رقيقاً[8].

---

(١) سورة الإسراء آية رقم (١) .
(٢) سورة النجم آية رقم (١٠) .
(٣) سورة الجن آية رقم (١٩) .
(٤) سورة الفرقان آية رقم (٦٣) .
(٥) سورة الإنسان آية رقم (٦) .
(٦) سورة غافر آية رقم (٦٠) .
(٧) انظر فيما سبق: العبودية لابن تيمية (ص ٣٩-٤٣) .
(٨) انظر: لسان العرب لابن منظور (٢٧٠/٣-٢٧٣) .

والعبادة في الشرع لها تعريفان[١]:

أحدهما : باعتبار الفعل وهو التعبد ، وهي بذا الاعتبار : اسـ ـم يجمع كمال الحب وكمـ ـال الـ ـذل[٢] .

ويشـ ـرح شيخ الإسلام رحمه الله هذا التعريف فيقول : '' فلا بد أن يكون العابد محباً للإلـ ـه المعبود كمال الحب ، ولا بد أن يكون ذليلاً لـ ـه كمال الذل ، فمن أحب شيئاً ولم يذل لـ ـه لم يعبده ، ومن خضع لـ ـه ولم يحبه لم يعبده .

وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو ، وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة ''[٣].

ويقول أيضاً : '' ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ، ولهذا لا يكفى أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شئ ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شئ ، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله .

وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً ، قـ ـال الله تعـ ـ ـالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم

---

(١) انظر في فكرة التقسيم : القول المفيد لابن عثيمين رحمه الله (١٠/١) .
(٢) انظـ ـر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٦٢/٦) ، الصفدية لابن تيمية (٢٣٤/٢) ، أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع الفتاوى (١٤١/٨) ، التدمرية لابن تيمية (ص ١٦٦) ، الاحتجاج بالقدر لابن تيمية - ضمن مجمـ ـوع الفتاوى (٣٥٢/٨) ، التحفة العراقية لابن تيمية - ضمن مجموع الفتاوى (٥٦/١٠) ، شرح دعوة ذي النون - ضـ ـمن مجموع الفتاوى (٢٥١/١٠) ، شرح كلمات عبدالقادر - ضمن مجموع الفتاوى (٤٨٨/١٠) ، قاعدة في المحبة لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (٢٨٤/٢) .
(٣) الجواب الصحيح لابن تيمية (٣١/٦) .

مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1]''[2].

والتعـريف الآخر باعتبار المفعول وهو المتعبد به ، وقد عرفها شيخ الإسلام رحمه الله بـهذا الاعتـبار فقال: ''العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ''[3].

وقـد شـرح العلامة ابن القيم رحمه الله جزءاً من تعريف شيخ الإسلام رحمه الله للعبادة فقـال: '' فقـول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذب عنه ، وتبيين بطلان البدع المخالفة له ، والقيام بذكره ، وتبليغ أوامره .

وعمـل القلب: كالمحبة له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه ، والرجاء له وإخـلاص الـدين له ، والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره ، والرضى به وعنه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع ، والإخبات إليه والطمأنينة به ، وغير ذلك مـن أعمـال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها ، وعمل الجوارح بدو ا إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة .

وأعمـال الجوارح: كالصلاة والجهاد ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك ''[4] .

---

(١) سورة التوبة آية رقم (٢٤) .

(٢) العبودية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/١٥٣-١٥٤) .

(٣) العبودية لابن تيمية (ص ٣٨) .

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (١/١١٣-١١٤) .

ونلاحظ هنا أن شيخ الإسلام رحمه الله في هذا التعريف يؤكد على ثلاث قضايا هامة تقوم عليها العبادة :

القضـية الأولى: أن عبادة الله تعالى ذات مفهوم واسع تشمل جميع الأقوال والأعمال الظاهـرة كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين وصـلة الأرحـام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفار والمـنافقين ، والإحسـان إلى الجـار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة .

كمـا أ ـا تشمل أيضاً جميع الأعمال الباطنة ، التي هي أعمال القلوب ، كحب الله ورسـوله ﷺ ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله سبحانه وتعالى[١].

القضية الثانية: أن محبة الله تعالى للأعمال والأقوال تعتبر أساس العبادة ، وهذه القضية تتضمن أمرين :

أحدهما: الإخلاص في عبادة الله ، فالله تعالى لا يحب الأعمال التي عملت لغيره ، كما لا يحـب الأعمال التي فيها شركة بينه وبين غيره ، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[٢] ، فالله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له[٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ

(١) انظر: العبودية لابن تيمية (ص ٣٨) .
(٢) سورة الزمر آية رقم (٢) .
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٢/٣)

﴿حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[١] ، وقال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: ((**أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**))[٢].

الأمر الآخر : المتابعة لرسول الله ﷺ ، فمحبوبات الله عز وجل لا يمكن معرفتها إلا من خلال ما جاءت به رسله ، فالرسل هم الذين يبينون لنا ما يحبه الله ويرضاه ، وما يبغضه ويسخطه ، فما شرعه الله تعالى فهو من محبوباته ، ويمكننا أن نتعبد به ، وما لم يشرعه فلا يمكن لنا ، بل ولا يصح أن نزعم أنه يحبه ، فقد دلت النصوص على بغضه له قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[٣] ، وقال تعالى منكراً على من تعبده بغير ما شرعه : ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾[٤] ، وقال تعالى منكراً على من حلل وحرم بغير أمره : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾[٥] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد ولها أصلان:

أحدهما: ألا يعبد إلا الله .

---

(١) سورة البينة آية رقم (٥) .
(٢) رواه مسـلم في الزهد والرقائق ، باب من أشرك في عمله غير الله ، وفي نسخة باب تحريم الرياء (٤/٢٢٨٩) ح(٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) سورة الأنعام آية رقم (١٥٣) .
(٤) سورة الشورى آية رقم (٢١) .
(٥) سورة يونس آية رقم (٥٩) .

والـثاني: أن لا يعـبده إلا بما أمر وشرع ، لا يعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع ، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾[(١)] ، وقـال تعـالى: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[(٢)] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾[(٣)] .

فالعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات ، والحسنات هي ما أحبه الله ورسوله وهو ما أمر به: أمر إيجاب أو استحباب .

فمـا كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب ولا في صحيح السنة ، فإ ا وإن قالهـا من قالها ، وعمل با من عمل ، ليست مشروعة ، فإن الله لا يحبها ولا رسوله ، فلا تكون من الحسنات ، ولا من العمل الصالح كما أن من يعمل مالا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ، ولا من العمل الصالح .

وأما قولـه: ﴿ وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾[(٤)] ، وقوله: ﴿ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾[(٥)] فهو إخلاص الدين لله وحده ، وكان عمر بن الخطاب يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً[(٦)].

(١) سورة الكهف آية رقم (١١٠) .
(٢) سورة البقرة آية رقم (١١٢) .
(٣) سورة النساء آية رقم (١٢٥) .
(٤) سورة الكهف آية رقم (١١٠) .
(٥) سورة البقرة آية رقم (١١٢) .
(٦) رواه الإمام أحمد في الزهد (ص ١١٨) ، طبقات المحدثين بأصبهان للأنصاري (٣٧٤/٤) .

وقال الفضيل بن عياض[(١)] في قوله: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[(٢)] ، قال: أخلصه وأصوبه ، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً والخالص: أن يكون لله ، والصواب: أن يكون على السنة[(٣)] ''[(٤)] .

القضية الثالثة: الارتباط الوثيق بين العمل الظاهر والباطن ، أو بعبارة أخرى أن العبادة هي مجموع مركب من العمل الظاهر والباطن ولا يمكن فصل أحدهما من الآخر ، فالعمل الباطن يلزمه العمل الظاهر بالضرورة لكي تحصل العبادة الشرعية والإيمان المطلوب من العبد والعمل الظاهر لا بد له من عمل باطن يصححه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فأصل الإيمان في القلب ، وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد ، وما كان في القلب فلابد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح ، وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه ، ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه ، وهي تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له ، وهي شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له ، لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح ''[(٥)] .

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي ، أبو علي ، الزاهد المشهور ، أصله من خراسان ، سكن مكة ، وهو ثقة عابد إمام ، توفي سنة ١٨٧ هـ . انظر: الكاشف للذهبي (٣٨٦/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٤٤٨) ، شذرات الذهب لابن العماد (٣١٧/١) .

(٢) سورة الملك آية رقم (٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٩٥/٨) .

(٤) العبودية لابن تيمية (ص ٧٤-٧٦) ، وللاستزادة انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٥٣/٥) ، الاستقامة لابن تيمية (٣٠٨/٢) ، اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٨٣٠/٢-٨٣٤) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥/ ٣١٧) ، منسك شيخ الإسلام - ضمن مجموع الفتاوى (١٥١/٢٦) .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٤٤/٧) ، وللاستزادة انظر: الإيمان الكبير لابن تيمية - ضمن مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٧) .

ويشرح العلامة ابن القيم هذه القضية فيقول : " وههنا أصل آخر: وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل .

والقول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد ، وقول اللسان : وهو التكلم بكلمة الإسلام .

والعمل قسمان: عمل القلب وهو نيته وإخلاصه ، وعمل الجوارح ، فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله ، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء ؛ فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة ، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق ، فهذا موضع المعركة بين المرجئة[1] وأهل السنة .

فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده ، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول ، بل ويقرون به سراً وجهراً ويقولون: ليس بكاذب ، ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به ، وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب ، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح ، ولا سيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم ، كما تقدم تقريره ، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح ، إذ لو أطاع القلب وانقاد أطاعت الجوارح وانقادت ، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة ، وهو حقيقة الإيمان ، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق كما تقدم بيانه ، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد ، وهكذا الهدى ليس هو مجرد

---

(١) المرجئة: فرقة من الفرق الإسلامية ، سموا بذلك لأنهم يؤخرون العمل عن النية والقصد ، فيخرجون العمل عن مسمى الإيمان ، ولأنهم يعطون الرجا بمعنى أنهم يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وهم فرق ، فعلماؤهم وأئمتهم يقولون: الإيمان تصديق القلب وقول اللسان وهؤلاء هم مرجئة الفقهاء ، وقالت الأشاعرة ومن اتبعهم : الإيمان هو التصديق بالقلب فقط ، وقالت الجهمية : الإيمان هو المعرفة بالقلب ، وقالت الكرامية: الإيمان قول باللسان فقط . انظر: الفصل لابن حزم (٧٣/٥) ، الملل والنحل للشهرستاني (١٣٩/١) ، البرهان للسكسكي (ص ٣٤) ، الفرقان بين الحق والباطل - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٦/١٣) .

معرفة الحق وتبينه ، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه ، وإن سمي الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء ، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمي تصديقاً فليس هو التصديق المستلزم للإيمان ''[١] .

وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن قضية العبادة في مواضع كثيرة من كتبه ، بل إنه أفردها برسالة خاصة ناقش فيها بعض مسائلها ، وقد ذكر في هذا الباب عدة مسائل منها :

المسألة الأولى: أن عبودية الناس لله تعالى تنقسم إلى قسمين :

القسـم الأول : العبودية العامة وهي عبودية القهر والملك ، فالناس بذا المعنى كلهم عـباد لله طوعاً أو كرهاً ، تجري عليهم أحكام الله تعالى القدرية ، ويصرف أمورهم ، ولا يستطيعون الخروج عما قدره وقضاه لهم .

وهذا وصف لازم لجميع العباد مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم لا يمكن لأحدهم أن ينفك عن ذلك ، فكلهم خاضعون له أذلاء لأمره ، منقادون لحكمه القدري فيهم .

فهو تعالى رب العالمين خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ، لا رب لهم سواه ، ولا خالق إلا هو سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه ، وسواء علموا بذلك أو جهلوه قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[٢] .

وعامة السلف يفسرون استسلام العباد لله تعالى بخضوعهم وذلهم له ، لا مجرد تصريف الرب تعالى لهم ، وذل المؤمن وخضوعه لله عز وجل يكون طوعاً ، وأما ذل الكافر لله تعالى وخضوعه فإنه يكون في حال الرغبة أو الرهبة ، فإذا زال عنه ذلك الحال فإنه يعرض عن ربه

(١) كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم (ص ٥٤) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (٨٣) .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾[١] ، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[٢] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وتحرير ذلك أن العبد يراد به المُعبد الذي عبده الله فذلّلـه ودبره وصرفه ، وبهذا الاعتبار المخلوقون كلهم عباد الله من الأبرار والفجار والمؤمنين والكفار وأهل الجنة وأهل النار ، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ؛ فما شاء كان وإن لم يشاءوا وما شاءوا إن لم يشأه لم يكن ، كما قال تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعًا وَكَرۡهًا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾[٣] .

فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمـورهم ، لا رب لهم غيره ، ولا مالك لهم سواه ، ولا خالق إلا هو ، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه ، وسواء علموا ذلك أو جهلوه ، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به بخلاف من كان جاهلاً بذلك أو جاحداً له مستكبرا على ربه لا يقر ولا يخضع له مع علمه بأن الله ربه وخالقه "[٤] .

---

(١) سورة الروم آية رقم (٣٣) .
(٢) سورة الزمر آية رقم (٨) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (٨٣) .
(٤) العبودية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/١٥٤-١٥٥) .

القسم الثاني : العبودية الخاصة وهي عبودية الطاعة والمحبة ، وهذه يختص الله بها بعض خلقـه ، فهي تحصل من المؤمنين بالله المصدقين بما جاءت به رسل الله تعالى فهم يعبدونه ، ويستعينون به طوعاً ، بخلاف الكافرين فإن عبوديتهم لله تعالى كرها .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' واسم العبد يتناول معنيين:

أحـدهما: بمعنى العابد كرها ، كما قال: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴾[١] ، وقـال: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[٢] ، وقـال: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾[٣] ، وقـال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[٤] .

و الثاني: بمعنى العابد طوعاً ، وهو الذي يعبده ويستعينه ، وهذا هو المذكور في قولـه ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾[٥] ، وقـوله: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾[٦] ، وقـوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾[٧] ، وقوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[٨] ، وقوله: ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ

---

(١) سورة مريم آية رقم (٩٣) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (٨٣) .
(٣) سورة الروم آية رقم (٢٦) .
(٤) سورة الرعد آية رقم (١٥) .
(٥) سورة الفرقان آية رقم (٦٣) .
(٦) سورة الإنسان آية رقم (٦) .
(٧) سورة الحجر آية رقم (٤٢) .
(٨) سورة الحجر آية رقم (٤٠) .

أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[١] ، وقـوله: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾[٢] ، وقوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[٣] ، وقـوله: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[٤] ، وقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾[٥] ، وقوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾[٦] .

وهذه العبودية قد يخلو الإنسان منها تارة ، وأما الأولى فوصف لازم إذا أريد بها جريان القدر عليه و تصريف الخالق لـه ، قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[٧] .

وعامة السلف على أن المراد بالاستسلام: استسلامهم له بالخضوع والذل لا مجرد تصريف الرب لهم كمـا في قولـه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[٨] .

وهذا الخضوع والذل هو أيضا لازم لكل عبد لابد لـه من ذلك ، و إن كان قد يعرض لـه أحياناً الإعراض عن ربه والاستكبار ، فلابد لـه عند التحقيق من الخضوع والذل لـه ، لكن المؤمن يسلم لـه طوعاً فيحبه ويطيع أمره ، والكافر إنما يخضع لـه عند رغبة ورهبة فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه ، كمـا قـال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ

(١) سورة الزخرف آية رقم (٦٨) .
(٢) سورة ص آية رقم (٤٥) .
(٣) سورة النجم آية رقم (١٠) .
(٤) سورة ص آية رقم (٣٠) .
(٥) سورة الإسراء آية رقم (١) .
(٦) سورة الجن آية رقم (١٩) .
(٧) سورة آل عمران آية رقم (٨٣) .
(٨) سورة الرعد آية رقم (١٥) .

ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ ﴾[1] ، وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾[2] "[3] .

المسألة الثانية : أن من لم يعبد الله تعالى فلا بد أن يعبد غيره :

وهذه المسألة مبنية على مقدمات قبلها هي :

١- أن كل إنسان حساس .

٢- أن كل حساس همام .

٣- أن كل همام حارث .

٤- أن كل حارث عابد .

والنتـيجة هي أن كل إنسان عابد ، فإما أن يكون عبداً لله عز وجل ، وإما أن يكون عبداً لغير الله تعالى ، وليس هناك طريق آخر بينهما ، فمن لم يعبد الله تعالى كان عابداً لغيره ضرورة .

وإيضـاح ذلك أن الإنسان في حياته لا بد لـه من الإرادة والقصد ، والهم هو مبدأ الإرادة ، والإرادة والحب والطلب مسبوقة بالإدراك والحس والشعور بالمراد ، والحي مفطور على حب ما يلائمه وينفعه ، وبغض ما ينافره ويضره .

---

(١) سورة يونس آية رقم (١٢) .

(٢) سورة الإسراء آية رقم (٦٧) .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/٢٩-٣١) ، وانظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/١١٨) .

وقد يتصور في الشيء أنه ملائم نافع فيحبه ويريده ويعمله أو يعمل ما يقدر عليه منه وقد يتصور فيه أنه منافر ضار فيبغضه ويتركه ، بغض النظر عن مدى صدق هذا الشعور أو كذبه ، فقد يشعر بأن شيئاً ما حسن نافع ، ويكون في حقيقة الأمر قبيحاً ضاراً ، والعكس ولهذا قد يكون تصوره ذلك علماً حقيقياً ، وقد يكون ظناً وخرصاً .

والمقصـود أن إرادة العـبد للشيء مبنية على إدراكه وحسه وشعوره بالملائم والمنافر والنافع والضار ، وعمله مبني على إرادته .

والعبد لا بد لـه في كل حال من شعور وإدراك وهو لا يخلو منهما ، وبعد ذلك يأتي الهـم والإرادة ، وبعـد ذلك العمل ، فالعبد حارث همام ، لا يخلو من الهم والعمل ، قال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[1] ، أي: يا أيها الإنسان إنـك عامـل إلى ربك عملاً فملاقيه به: خيرا كان عملُك ذلك أو شرا ، فلا بد للعبد من العمل .

قال قتادة : عامل له عملاً[2] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴾[3] ، أي: يكابد الأمور ويعالجها[4] ، فالعبد لا يخلو عن ذلك أيضاً .

وجـاء في الحديث عن النبي ﷺ : في الأسماء أن « **أصدقها حارث وهمام** »[5] وهذا مبني على وصف حالة العبد التي لا ينفك عنها .

(١) سورة الإنشقاق آية رقم (٦) .
(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (١١٥/٣٠) .
(٣) سورة البلد آية رقم (٤) .
(٤) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٩٨/٣٠) .
(٥) رواه أحمـد (٣٤٥/٤) بلفظه ، والبخاري في الأدب المفرد كما في فضل الله الصمد (٢٧٧/٢) ح(٨١٤) ، وأبو داود في الأدب بـاب في تغيير الأسماء (٢٣٧/٥) ح(٤٩٥٠) ، والطبراني في الكبير (٣٨٠/٢٢) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٠٦/٩) من حديث أبي وهب الجشمي ﷺ.

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الإنسان حي حساس متحرك بالإرادة ، ولهذا قال الـنبي ﷺ: ((**أصدق الأسماء الحارث وهمام**)) ، فالحارث الكاسب العامل ، والهمام الكثير الهم والهم مبدأ الإرادة والقصد ، فكل إنسان حارث همام وهو المتحرك بالإرادة ، وذلك لا يكـون إلا بعد الحس والشعور ، فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد ، فلا يتصور إرادة ولا حـب ولا شـوق ولا اختيار ولا طلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه كالحس والعلم والسـمع والبصـر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور ، فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب .

والحـي مفطور على حب ما يلائمه وينفعه ، وبغض ما يكرهه ويضره ، فإذا تصور الشـيء الملائم النافع أراده وأحبه ، وإذا تصور الشيء الضار أبغضه ونفر عنه ، لكن ذلك التصور قد يكون علماً ، وقد يكون ظناً وخرصاً ، فإذا كان عالماً بأن مراده هو النافع وهو المصلحة وهو الذي يلائمه كان على الهدى والحق ، وإذا لم يكن معه علم بذلك كان متبعا للظن وما وى نفسه ''(١) .

وإذا ثـبت أن العـبد لا بد له من العمل والحرث ، فلا بد أن يكون لهذا العمل غاية وهـدف ، فإن كانت غايته لله تعالى فهو عبادة لله جل وعلا ، وإن كانت غايته لغيره فهو الشرك لا شيء سواه قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾(٢) .

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٦٣/٣-٦٤) .
(٢) سورة الشورى آية رقم (٢٠) .

ويقول ﷺ : ((**إنما الأعمال بالنية وإنما لإمرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسـوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه**))[١] .

وعلى كلا التقديرين فالعبد إما أن يكون عمله لله فيكون عابداً لله عز وجل ، وإما أن يكـون لغير الله تعالى فيكون عابداً لغيره ، ولا يمكن أن تجتمعا ، ففي الحديث القدسي قال الله تبارك وتعالى: ((**أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**))[٢].

ولا يمكـن للعبد أن ينفك عن العبادة ، فهي إما التوحيد الخالص المتمثل في عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وإما الشرك المتمثل في عبادة غير الله من الأصنام والأوثان والمال والجاه والصور وغيرها .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غيره ، فـإن الإنسـان حسـاس يتحرك بالإرادة ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((**أصدق الأسماء حارث وهمام**))[٣] فالحارث الكاسب الفاعل ، والهمام فعال من الهم والهم أول الإرادة ، فالإنسـان له إرادة دائما ، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه ، فلا بد لكـل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته ، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادتـه بل استكبر عن ذلك فلا بد أن يكون لـه مراد محبوب يستعبده غير الله ، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب ، إما المال وإما الجاه وإما الصور ، وإما ما يتخذه إلها من دون الله

---

(١) رواه البخاري في الأيمان والنذور ، باب النية في الأيمان (٢٤٦١/٦-٢٤٦٢) ح(٦٣١١) ، ومسلم في الإمارة ، بـاب قوله ﷺ : ((إنما الأعمال بالنية)) وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال (١٥١٥/٣) ح(١٩٠٧) كلاهما من حديث عمر ﷺ بلفظه .
(٢) تقدم تخريجه (ص ٣٩١) .
(٣) تقدم تخريجه (ص ٤٠٠) .

كالشـمس والقمـر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أرباباً أو غير ذلك مما عبد من دون الله .

وإذا كان عبداً لغير الله يكون مشركاً ، وكل مستكبر فهو مشرك ، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله وكان مشركاً ''[١] .

المسألة الثالثة : أن حقيقة العبودية عبودية القلب .

هذه المسألة مبنية على التي قبلها ، فقد ذكرت فيما سبق النية ، وأشرت إلى أثرها في التوحيد والشرك ، وأن الإنسان لا يخلو منها ، وفي هذه المسألة أفصل ما سبق إجماله هناك .

فحقيقة العبودية في الأصل تعلق القلب بالله تعالى محبة وخوفاً ورجاء وتوكلاً ، وهذا كالأساس لأعمال الجوارح ، وكلما كان التعلق بالله تعالى أكثر كان أعبد لله عز وجل ، وإذا ضعفت هذه الأمور في قلب العبد فإنه ينقص من عبوديته لله عز وجل ، وتكون فيه عبودية لغير الله تعالى بقدر ما نقص من هذه الأمور في قلبه ؛ فمن لم يعبد الله تعالى فلا بد أن يعبد غيره ، قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[٢] .

---

(١) العبودية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/١٩٦-١٩٧) .
(٢) سورة هود آية رقم (١٥-١٦) .

قال قتادة: " من كانت الدنيا همه وسدمه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفْضِي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازي بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة "[(١)] .

وقال رسول الله ﷺ: ((**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس وإذا شِيك فلا انتقش**))[(٢)] .

ولتوضيح هذه المسألة أكثر فإنني أضرب على ذلك بعض الأمثلة التي ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله :

١- الرجاء وهو عمل من أعمال القلوب ، ويعتبر من ركائز عبودية القلب ، فكلما كان رجاء العبد لله أكثر كلما ازدادت عبوديته له والعكس ، فإذا تعلق قلبه بالرجاء لمخلوق في قضاء حاجة أو دفع ضرورة فإن ذلك يوجب عبوديته لذلك المخلوق ، وإعراض قلبه عن الله عز وجل ، ويكون في قلبه من العبودية والذل لمن رجاه بقدر ما تعلق به قلبه ، وتنقص عبوديته لله بقدر ذلك .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته لقضاء حاجته ودفع ضرورته ، قويت عبوديته له وحريته مما سواه ، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له ، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه ، كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره ، وأفضل على من شئت تكن أميره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، فكذلك

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (١٢/١٢) . والسدم : الولوع بالشيء واللهج به . انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٨٤) .

(٢) رواه البخاري في الجهاد ، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (١٠٥٧/٣) ح(٢٧٣٠) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظه . مفردات الحديث: تعس : سقط على وجهه أو شقي وهلك ، الخميصة: كساء أسود مربع له خطوط ، انتكس: انقلب على رأسه ، وهذا دعاء عليه بالخيبة والخسران ، شيك : أصابته شوكة ، انتقش: قدر على إخراج الشوكة بالمنقاش . في شرح مفردات هذا الحديث انظر : فتح الباري لابن حجر (٩٧/٦) (٢٥٩/١١) .

طمع العبد في ربه ورجاؤه لـه يوجب عبوديته له ، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء لـه يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله ، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق ، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه ، وإما على أهله وأصدقائه ، وإما على أمواله وذخائره ، وإما على ساداته وكبرائه كمالكه ومِلكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت ، قال تعـالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾[1] .

وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه ، خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك ، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لأمورهم متصرفا بم ، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر ''[2] .

٢- الحـب وهو من أعمال القلوب بل من أهمها ، وفيه تتضح عبودية القلب بصورة جلية ، فمن تعلق قلبه بالحب لغير الله عز وجل ، فإنه تكون فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك وكلما أخلص قلبه لله عز وجل كلما كان أعبد لله عز وجل .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه القضية : '' فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة - ولو كانـت مـباحة لـه - يبقى قلبه أسيراً لها تحكم فيه ، وتتصرف بما تريد ، وهو في الظاهر سـيدها لأنـه زوجها أو مالكها ، ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها ، ولا سيما إذا علمـت بفقره إليها وعشقه لها ، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها ، فإ ا حينئذ تتحكم فيه تحكم السـيد القاهـر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم ، فإن أسر القلـب أعظم من أسر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن ، فإن من استعبد بدنـه واسترق وأسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص .

---

(١) سورة الفرقان آية رقم (٥٨) .

(٢) العبودية لابن تيمية (ص ٩٤-٩٦) .

وأمـا إذا كان القلب - الذي هو ملك الجسم - رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله ، فهذا هو الذل والأسر المحض ، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب .

وعـبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب ، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك ، إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات ، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فلـه أجران ، ولو أكره على التكلم بالكفر فـتكلم بـه وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك . وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ذلك ، ولو كان في الظاهر ملك الناس .

فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس ، قال النبي ﷺ : ((**ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس**))[1].

وهـذا لعمرو الله إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة . فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبى ، فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب .

وهـؤلاء عشاق الصور من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً ، فإن العاشق لصورة إذا بقـى قلبه متعلقاً بها مستعبداً لها اجتمع لـه من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العـباد ، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى ، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه ''[2] .

٣- الخـوف وهو من أعمال القلوب ، وأحد ركائز عبودية القلب ، فمن تعلق قلبه بالخـوف من غير الله عز وجل ، فإنه يصير عبداً له حتى وإن كان في الظاهر سيداً مطاعاً ، ومن جعل خوفه من الله تعالى وحده كان أعبد لله جل وعلا .

---

(١) رواه الـبخاري في الرقاق ، باب الغنى غنى النفس (٢٣٦٨/٥) ح(٦٠٨١) ، ومسلم في الزكاة ، باب ليس الغنى عن كثرة العرض (٧٢٦/٢) ح(١٠٥١) كلاهما من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظه .

(٢) العبودية لابن تيمية (ص ٩٦-٩٨) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم ، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ، ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينوه ، فهو في الظاهر رئيس مطاع وفى الحقيقة عبد مطيع لهم .

والتحقيق: أن كلاهما فيه عبودية للآخر ، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله ، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق ، فكل واحد من الشخصين - لهواه الذي استعبده واسترقه - مستعبد للآخر"[1] .

ويشخص شيخ الإسلام رحمه الله سبب هذه البلية بأنه تعلق القلب بغير الله عز وجل وخلو القلب عن حلاوة الإيمان ، فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ : ((**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا** يحبه **إلا** لله **، ومن يكره أن يعود** في **الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى** في **النار**))[2] .

وعند فقد العبد لهذه الحلاوة أو عدم إحساسه بها واستشعاره لها فإنه تغلبه نفسه على اتباع هواها ، ويعتاض عن حلاوة الإيمان بما يجده من لذة الهوى الذي يتمثل في صور عديدة قد تكون مجتمعة ، وقد تكون متفرقة ، من عشق النساء والمال والجاه والرئاسة والشهرة وغيرها .

ويصف شيخ الإسلام رحمه الله الدواء من هذه البلية بأنه إقبال القلب على الله عز وجل ، ومحاولة استشعار طعم الإيمان ، وحلاوة الإخلاص لله عز وجل ، مع تمام الخوف من الله جل وعلا .

---

(١) المصدر السابق (ص ١٠١) .

(٢) رواه البخاري في الإيمان ، باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار (١٦/١) ح(٢١) واللفظ له ، ومسلم في الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٦٦/١) ح(٤٣) كلاهما من حديث أنس رضي الله عنه .

ويعلـل ذلك أن العبد لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه أو خوفاً مـن مكـروه ، فالحب الفاسد ينصرف عن العبد إذا جاء الحب الصالح ، أو بالخوف من الضرر الذي قد يلحقه من جراء ذلك .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله ، والإخلاص له ، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب . والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحب إلـيه منه ، أو خوفاً من مكروه ، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح أو بالخوف من الضرر .

قـال تعـالى في حق يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾[1] . فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصورة والتعلق بـها ، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله ، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص لـه ، بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوى في قلبه انقهر لـه هواه بلا علاج .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾[2]
فـإن الصلاة فيها دفع مكروه وهو الفحشاء والمنكر ، وفيها تحصيل محبوب وهو ذكر الله ، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه ، فإن ذكر الله عبادة لله ، وعبادة القلب لله مقصودة لذا ا ، وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع . والقلب خلق يحـب الحق ويريده ويطلبه ، فلما عرضت لـه إرادة الشر ، طلب دفع ذلك ؛ فإ ا تفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل .

---

(١) سورة يوسف آية رقم (٢٤) .
(٢) سورة العنكبوت آية رقم (٤٥) .

ولهذا قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[(٢)] ، وقال: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ ﴾[(٣)] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[(٤)] ، فجعل سبحانه غض البصر ، وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس ، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس ، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك ''[(٥)] .

وقبل أن أنتهي من هذه النقطة أريد أن أنبه على قضية مهمة في هذا الباب ، وهي مسألة الحب في الله ، والحب مع الله .

فالأولى من حقيقة العبادة والإيمان والتوحيد والإخلاص ، كما جاء عن الرسول ﷺ : ((**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر ، كما يكره أن يقذف في النار**))[(٦)] .

---

(١) سورة الشمس آية رقم (٩-١٠) .
(٢) سورة الأعلى آية رقم (١٤-١٥) .
(٣) سورة النور آية رقم (٣٠) .
(٤) سورة النور آية رقم (٢١) .
(٥) العبودية لابن تيمية (ص ٩٨-١٠١) .
(٦) تقدم تخريجه (ص٤٠٧) .

والثانية من الشرك ، فقد أخبر الله عن المشركين أ م يحبون أندادهم كما يحبون الله ، قـال تعـالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾(١) .

يقـول العلامة ابن القيم رحمه الله : '' فأصل العبادة محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه كما يحب أنبياءه ورسله وملائكـته وأولياءه ، فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبو م كحبه ''(٢) .

وفي مجال المقارنة بين حب الله تعالى وحب الأهل والمال ونحوها فقد توعد الله سبحانه من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله ﷺ وجهاد في سبيله بوعيد شديد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٣) .

كما نفى الإيمان عمن أحب من حاد الله ورسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ

(١) سورة البقرة آية رقم (١٦٥) .
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/١١١-١١٢) .
(٣) سورة التوبة آية رقم (٢٤) .

وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

فالمؤمن يقدم محبة الله على جميع المحاب ، كما أنه يحب ما يحبه الله ورسوله ﷺ ويبغض ما يبغضه الله ورسوله ﷺ ، وليس هذا بالأمر الهين ، بل كما قال العلامة ابن القيم: '' ما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان ''[2] .

وفي نفس السياق يقول العلامة ابن القيم رحمه الله : '' وما أكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى ، فهذا لم تتقدم محبة الله تعـالى في قلبه جميع المحاب ، ولا كانت هي المِلكة المُؤمرة عليها ، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه ، وينغصها عليه ، ولا ينال شيئاً منها إلا بنكد وتنغيص جزاء لـه على إيثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى .

وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد ولا يدفع أن من أحب شيئا سواه عذب به ولا بد ، وأن من خاف غيره سلط عليه ، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤماً عليه ، ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه ، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد ''[3] .

فـإن قيل: فما الذي يجب على العبد في زينة الحياة الدنيا التي أباحها الله تعالى له من حيث تعلق القلب بها ؟

وقد أجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه المسألة فقال: '' وهذه الأمور نوعان:

---

(١) سورة المجادلة آية رقم (٢٢) .
(٢) الوابل الصيب لابن القيم (ص ١٢) .
(٣) المصدر السابق (ص ١٢) .

منها ما يحتاج العبد إليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك ، هذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه ، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه ، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضى فيه حاجته ، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً .

ومنها ما لا يحتاج العبد إليه ، فهذه لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها ، فإذا علق قلبه بها صار مستعبداً لها ، وربما صار معتمداً على غير الله ، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ، ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ : ((**تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة**))(١)، وهذا هو عبد هذه الأمور فلو طلبها من الله ، فإن الله إذا أعطاه إياها رضي ، وإذا منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ويسخطه ما يسخط الله ، ويحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ، ويوالي أولياء الله ويعادى أعداء الله تعالى ''(٢) .

إذا كانت العبودية الحقيقية عبودية القلب ، فما الذي يحرك هذه العبودية ويثيرها ويبعثها في النفس ؟

وقد أجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه المسألة ، وقرر أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة :

١- الرجاء .
٢- الحب .
٣- الخوف .

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٠٤) .
(٢) العبودية لابن تيمية (ص ١٠١-١٠٣) .

وتعتبر هذه الأمور الثلاثة محركات للقلوب إلى الله عز وجل ، أو كما عبر العلامة ابن القـيم: بأ ـا قطب رحى العبودية ، وعليها دارت رحى الأعمال[1] ، فلا يمكن أن تحصل العـبودية لأي عـبد بدون هذه الأمور الثلاثة ، فالرجاء يقوده إلى الله عز وجل ، والحب يحركه على الطريق ، وعلى قدر حبه لله عز وجل يكون سيره إلى الله تعالى ، والخوف يمنعه مـن الخـروج عن طريق ربه عز وجل ، ولكل واحد من هذه الثلاثة محرك وباعث ومثير يحركه ، فالحب له ما يحركه ، وكذلك الرجاء والخوف .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في هذه القضية : " اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء ، وأقواها المحبة ، وهى مقصودة تراد لذا ا ؛ لأ ا تراد في الدنـيا والآخرة ، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة ، قال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[2] ، والخـوف المقصـود مـنه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق ، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه ، وعلى قدر ضعفها وقو ا يكون سـيره إليه ، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب ، والرجاء يقوده ، فهذا أصل عظيم يجـب على كل عبد أن يتنبه لـه ، فإنه لا تحصل لـه العبودية بدونه ، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره .

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأي شيء يحرك القلوب ؟

قلنا يحركها شيئان:

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١٣٩/٣) .

(٢) سورة يونس آية رقم (٦٢) .

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب ؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ، ولهذا أمر الله عز وجـل بالذكر الكثير فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلاً ﴾[(١)] الآية .

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه ، قـال الله تعـــالى: ﴿ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[(٢)] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[(٣)] ، وقال تعالى: ﴿ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾[(٥)] فـإذا ذكـر العـبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان ، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره ، فلابد أن يثير ذلك عنده باعثاً وكـذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه ، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو ''[(٦)] .

المسألة الربعة : أنه لا سعادة للمرء ولا لذة إلا بعبادة الله وحده .

السعادة واللذة ونحوها من الأمور فطرت النفس البشرية على إراد ا ، فالعبد مفطور علـى حب وطلب ما ينفعه ويسعده ويلتذ به ، كما فطر على بغض وترك ما يضره ويزيل السـعادة واللذة عنه ، إذن فالعبد في هذه الحياة يطلب السعادة واللذة ، وينفر ويبتعد عن الشقاء والألم .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم (٤١-٤٢) .
(٢) سورة الأعراف آية رقم (٦٩) .
(٣) سورة النحل آية رقم (٥٣) .
(٤) سورة لقمان آية رقم (٢٠) .
(٥) سورة إبراهيم آية رقم (٣٤) .
(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/٩٥-٩٦) .

ولكن كيف يمكن للعبد أن يحقق السعادة واللذة ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل ينبغي لنا أن ندرك أين توجد السعادة واللذة لكي نطلبها ، وعـندما نتأمل النصوص الشرعية من الكتاب والسنة فإننا نجدها تدلنا على طريق السعادة بوضوح ، فالقرآن من أوله إلى آخره دال على طريق الهدى والحق ، وكذلك سنة النبي ﷺ وسيرته ، وأخص من ذلك ما جاء من النصوص في مدح المؤمنين ووصفهم بالفوز والفلاح والسعادة ونحوها فهذا دال على طريق هذه الأمور ، وهذه النصوص كثيرة جداً فمنها:

قـوله تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾[1] ، وقوله تعالى: ﴿ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[3] .

فالسـعادة واللـذة الحقيقية هي في عبادة الله تعالى وحده ، وكل لذة غيرها فباطلة ، ولهـذا عندما ننظر في سيرة النبي ﷺ ، والسلف الصالح الذين يعتبرون الواقع التطبيقي لتلك النصـوص فإنـنا نجد العجب العجاب ، قوم لا يعبدون الله فقط بل يتلذذون بعبادة الله عز وجل ، فهي مصدر الراحة لهم والطمأنينة والسعادة ، وقد « **كان النبي ﷺ يقوم من الليل حـتى تتفطر قدماه** »[4] ، مع أن القيام الطويل فيه مشقة وألم ، لكن فيه من السعادة واللذة مـا يفـوق بأضعاف مضاعفة ذلك الألم وتلك المشقة ، بل فيه ما يقلب الأمور رأساً على

---

(١) سورة الحج آية رقم (٧٧) .

(٢) سورة التوبة آية رقم (٨٨) .

(٣) سورة النور آية رقم (٥٢) .

(٤) رواه الـبخاري في التفسير ، باب قوله: ﴿ لِّيغفِرَ لَكَ اللَّه ما تقدّم مِن ذَنبِك وما تأخر ويتم نعمته علَيك ويهدِيك صِراطاً مستقِيماً ﴾ [الفتح : ٢] (٤/١٨٣٠) ح(٤٥٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظه .

عقب ، فيتحول الألم والمشقة إلى لذة وراحة وطمأنينة ، وهذه حقيقة العبادة التي تؤدي إلى قمة السعادة واللذة الحقيقية .

وجـاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: ((**لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاه الله هذا الكـتاب فقـام به آناء الليل ، وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فتصدق به آناء الليل وآناء النهار**))[1] .

فجعل قراءة القرآن والقيام به والصدقة وهي من عبادة الله عز وجل مجالاً للغبطة ، وما ذاك إلا لما فيها من الخير والسعادة واللذة ، ولهذا نجد الصحابة رضي الله عنهم يتسابقون إلى عـبادة الله عز وجل ، فهي جنتهم في هذه الدنيا كما قـال شيخ الإسلام رحمه الله: '' إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة ''[2] .

حـتى في الجهاد الذي هو بذل للنفس والنفيس في سبيل الله ، بل إنهم يتسابقون على الشـهادة ، ويتبايعون على الموت ، بل إن الشهيد في سبيل الله عز وجل ليتمنى العودة إلى الدنـيا لكـي يستشهد مرة أخرى وما ذاك إلا لما يجده من الكرامة والنعيم واللذة ، يقول النبي ﷺ : ((**ما من عبد يموت لـه عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن لـه الدنيا ومـا فيها إلا الشهيد ؛ لما يرى من فضل الشهادة ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى**))[3] .

---

(١) رواه الـبخاري في فضـائل القـرآن ، باب اغتباط صاحب القرآن (١٩١٩/٤) ح(٤٧٣٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها (٥٥٩/١) ح(٨١٥) واللفظ له ، كلاهما من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) الوابل الصيب لابن القيم (ص ٩٦) .

(٣) رواه الـبخاري في الجهاد ، باب الحور العين (١٠٢٩/٣) ح(٢٦٤٢) واللفظ له ، ومسلم في الإمارة باب فضل الشهادة في سبيل الله (١٤٩٨/٣) ح(١٨٧٧) كلاهما من حديث أنس رضي الله عنه .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' إن الله عز وجل خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص لـه ، فبذكره تطمئن قلوبم ، وبرؤيته في الآخرة تقر عيو م ولا شـيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه ، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به وحاجتهم إليه - في عباد م إياه وتألههم إياه - كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم وبذلك يصيرون عاملين متحركين ، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال ، بل من أعرض عن ذكر ربه ، فإن لـه معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى ....

فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه ومـن عبد غير الله - وإن أحبه - وحصل لـه به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو أعظـم مـن التذاذ أكل الطعام المسموم مفسدة ، ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[(١)] ....

واعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ليس لها نظير فتقاس به ، لكن يشـبه مـن بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب ، وبينهما فروق كبيرة ، فإن حقيقة العبد: قلبه وروحه ، وهى لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو ، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره ، وهى كادحة إليه كدحاً فملاقيته ، ولابد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بلقائه ، ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نـوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بذا في وقت وفى بعض الأحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذي تنعم به والتذ غير منعم له ولا مِلذّ ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك ، وأما إلهه فلابد له منه في كل حال وكل وقت وأينما كان فهو معه ''[(٢)] .

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم (٢٢) .

(٢) كتاب التوحيد وإخلاص العمل والوجه لله عز وجل لابن تيمية (ص ٧٤-٧٦) ، قاعدة في توحيد الإلهية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٣/١-٢٥) .

وفي نفس السياق ينتقد شيخ الإسلام رحمه الله الفقهاء والمتكلمين الذين يطلقون على العبادة مسمى التكليف ، فكيف يستساغ وصفها بذلك مع أ ا جنة الدنيا ، وفيها من النعيم واللذة والسعادة التي لا سعادة بعدها .

يقـول رحمه الله : '' ولهذا لم يجيء في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح: أنه تكليف ، كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة ، وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي كقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾[(١)] ، ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾[(٢)] ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾[(٣)] أي: وإن وقع في الأمر تكلـيف فلا يكلف إلا قدر الوسع ، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً ، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب ولذات الأرواح وكمال النعيم ، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه وذكره وتوجه الوجه إليه ، فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب ولا يقوم غيره مقامه في ذلك أبدا قال الله تعالى ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[(٤)] ''[(٥)] .

وخـتاماً أقـول إذا تأملنا ما جاء في هذا المبحث من حقائق حول قضية العبودية فإنه يتضـح لنا بشكل جلي لم كانت العبادة سبب خلق الخلق ، وسبب إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وانقسام الناس إلى فريقين ، فريق في الجنة وفريق في السعير .

ويتضـح لنا كذلك سبب التضحيات الضخمة التي قدمها الأنبياء في سبيل الله ، ومن سار على سبيلهم من الدعاة ، وسبب تركيزهم على قضية التوحيد .

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢٨٦) .
(٢) سورة النساء آية رقم (٨٤) .
(٣) سورة الطلاق آية رقم (٧) .
(٤) سورة مريم آية رقم (٦٥) .
(٥) قاعدة في توحيد الإلهية لابن تيمية - ضمن مجموع الفتاوى (١/٢٥-٢٦) .

ويتضـح لـنا كذلك لم كانت هذه المسألة من الأمور التي لا يمكن التساهل فيها أو التنازل عنها مهما كانت الأسباب والمبررات والنتائج التي قد تترتب على هذا التنازل ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾[1] .

فالعـبودية هي أهم الأسباب المأمور بها على الإطلاق ، فهي الدين ، وهي أول الأمر وآخره ، وهي سبب الفوز والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة .

(١) سورة الكافرون آية رقم (١-٢) .

المبحث الثاني

الصبر

الصـــبر

عـندما نتكلم عن السببية في الصبر وما قرره شيخ الإسلام رحمه الله فيه ، فإنه لا بد قـبل ذلك من مقدمة يسيرة تشتمل على تعريف الصبر وأهميته وأقسامه ، ومن ثم بعد ذلك يتم الشروع في المقصود .

تعريف الصبر :

الصبر في اللغة يدور على ثلاثة معاني :-

الأول: الحـبس يقـال: صـبرت نفسي على ذلك الأمر أي: حبستها[(١)] ، ومنه قول الشـاعر :

فصبرت عارِفةً لذلك حرةً ترسو إذا نفس الجبان تطَلّع [(١)]

والـثاني : الشدة والقوة ، ومنه الصبر للدواء المعروف ، لشدة مرارته وكراهته ، ومنه الصبر - بضم الصاد - للأرض ذات الحصباء لشد ا وصلابتها ، ومنه سميت الحَرة : أم صبار ومنه قيل لما اشتد من الحجارة وغَلُظ: صِبار[(٢)] .

الثالث : الجمع والضم ، ومنه صبرة الطعام[(٣)] .

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٢٩/٣) ، عدة الصابرين لابن القيم (ص ١٣) .
(١) قائل هذا البيت عنترة وهو في ديوانه (ص ٤٩) .
(٢) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٣٠/٣) ، عدة الصابرين لابن القيم (ص ١٣) .
(٣) انظر : عدة الصابرين (ص ١٣) .

أهمية الصبر :

يعتبر الصـبر نصف الدين ، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: '' الصـ ـبر نصـف الإيمان ''[١] ؛ لأن الدين علم بالحق وعمل به ، والعمل به لا بد فيه من الصبر ، بل والعلـم أيضاً يحتاج إلى الصبر ؛ لأنه لا يأتي هكذا ، بل يحتاج إلى طلب ، وطلبه نوع من الجهاد ، والجهاد لابد فيه من الصبر .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الدين كله علم بالحق ، وعمل به ، والعمل به لا بد فيه من الصبر ، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر ، كما قال معاذ بن جبل[٢] رضى الله عنه: علـيكم بالعلم ، فإن طلبه لله عبادة ، ومعرفته خشية ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، ومذاكرته تسبيح ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يمجد الله ويوحد يرفع الله بالعلم أقواما يجعلهم للناس قادة ، وأئمة يهتدون بم وينتهون إلى رأيهم[٣] .

فجعـل البحث عن العلم من الجهاد ، ولا بد في الجهاد من الصبر ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ

---

(١) رواه عبدالله بن أحمد في السنة (٣٧٤/١) ، والطبراني في الكبير (١٠٤/٩) والحاكم (٤٤٦/٢) وقال هذا حديث صـحيح الإسـناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٢٢/٢) : وهذا موقوف صحيح . وقد ذكر ابن القيم رحمه الله عدة اعتبارات لهذا التقسيم ، فلتراجع في كتابه عدة الصابرين (ص ١١٠) .

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي ، أبو عبدالرحمن ، من أعيان الصحابة ، شهد بدراً وما بعدها ، كان إليه المنتهى في العلم بالأحكام والقرآن ، توفي سنة ١٨ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٣٣٥/٣) ، الإصابة لابن حجر (٤٠٦/٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٥٣٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٣٩/١) ، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (ص ٥٤-٥٥) مرفوعاً وموقوفاً مع اخـتلاف في ألفاظـه ، وقال: هكذا حدثنيه أبوعبدالله عبيد بن محمد رحمه الله مرفوعاً بالإسناد المذكور وهو حديث حسن جداً ، ولكن ليس له إسناد قوي ، ورويناه من طرق شـتى موقوفاً ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٩٥/١) : ورفعـه غـريب جداً . وقول ابن عبدالبر : حديث حسن جداً ، ولكن ليس له إسناد قوي . يريد رحمه الله بالحسن حسن اللفظ ، وهو الحسن اللغوي وليس الاصطلاحي ؛ لأنه يوجد في إسناده عبدالرحيم العمي وهو متروك . انظر : تدريب الراوي للسيوطي (ص ٢٠٠-٢٠١) .

وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾[١] ، وقـــال تعـــالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَـٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَـٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَـٰرِ ﴾[٢] ، فـالعلم النافع هو أصل الهدى ، والعمل بالحق هو الرشاد ، وضد الأول الضـلال ، وضد الثاني الغي ، فالضلال العمل بغير علم ، والغي اتباع الهوى ، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴾[٣] فلا ينال الهدى إلا بالعلم ولا ينال الرشاد إلا بالصبر ، ولهذا قال علي: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا انقطع الرأس بان الجسد ، ثم رفع صوته فقـال: ألا لا إيمان لمن لا صبر لـه[٤] ''[٥].

والصبر واجب من الواجبات سواء كان صبراً على أداء الواجبات ، أو صبراً عن فعل المحرمات ، أو صبراً على أقدار الله عز وجل .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الإنسان إذا ابتلي فعليه أن يصبر ويثبت ولا ينكل ، حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ، ولا بد في جميع ذلك من الصبر ، ولهذا كـان الصبر واجباً باتفاق المسلمين : على أداء الواجبات ، وترك المحظورات ، ويدخل في ذلـك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها ، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنـه ''[٦] .

ومن هنا فقد تكرر ذكر الصبر في القرآن العظيم في مواضع كثيرة جداً ، قدرها بعض السلف بأكثر من تسعين موضعاً ، ومن ذلك :

---

(١) سورة العصر آية (١-٣) .

(٢) سورة ص آية رقم (٤٥) .

(٣) سورة النجم آية رقم (١-٢) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الإيمان (ص٤٧- ٤٨) ، والعدني في الإيمان (ص ٨٥) والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٤/٧) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٨٤٢/٤) ، كلهم مع اختلاف في ألفاظه .

(٥) التحفة العراقية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩/١٠-٤٠) .

(٦) المصدر السابق (٣٨/١٠-٣٩) .

١- النصـوص التي تأمر به وتحث عليه وهي كثيرة منها قولـه تعـالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[١] ، وقولـه تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٌ ﴾[٢] .

٢- النصوص التي تمدح أهله وتثني عليهم بأمور متعددة منها :

أ- محبة الله تعالى لهم كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٣] .

ب- معية الله لهم كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٥] ، وقـال تعـالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٦] .

يقول ابن القيم رحمه الله : ’’ هي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ليست معية عامة وهي معية العلم والإحاطة ‘‘[٧] .

---

(١) سورة الطور آية رقم (٤٨) .
(٢) سورة القلم آية رقم (٤٨) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (١٤٦) .
(٤) سورة البقرة آية رقم (١٥٣) .
(٥) سورة الأنفال آية رقم (٤٦) .
(٦) سورة البقرة آية رقم (٢٤٩) ، وسورة الأنفال آية رقم (٦٦) .
(٧) مدارج السالكين لابن القيم (١٥٩/٢) .

ج- صلاة الله ورحمته وهدايته لهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[1] .

د- نصر الله لهم ، ووقايتهم من كيد أعدائهم كما قال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[3] .

هـ- مضاعفة أجرهم كما قـال تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾[4] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[5]

و- أ م المنتفعون بآياته المتعظون با كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[6] ، وقال تعـالى عن قوم سبأ: ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ

---

(١) سورة البقرة الآيات (١٥٥-١٥٧) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٢٥) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (١٢٠) .
(٤) سورة القصص آية رقم (٥٤) .
(٥) سورة الزمر آية رقم (١٠) .
(٦) سورة إبراهيم آية رقم (٥) .

شَكُورٍ ﴾[١] ، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[٢] .

ز- أ ـم يلقون خصال الخير من الأعمال الصالحة والحظوظ العظيمة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[٣] .

٣- أن الله حكم بالخسران العام على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر قـال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[٤] .

٤- أن الله تعالى قرن بين الصبر وبين أركان الإسلام ومقامات الإيمان ، فقد قرنه الله تعالى بالصلاة في أكثر من خمسين موضعاً كما يقول ذلك شيخ الإسلام رحمه الله [٥]، منها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾[٦] ، وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٧] ، وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ

---

(١) سورة سبأ آية رقم (١٩) .
(٢) سورة الشورى آية رقم (٣٢-٣٣) .
(٣) سورة فصلت آية رقم (٣٥) .
(٤) سورة العصر آية (١-٣) .
(٥) رسالة في تفسير قوله ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ - ضمن جامع الرسائل (٨١/١)
(٦) سورة البقرة آية رقم (١٥٣) .
(٧) سورة هود أية رقم (١١٤-١١٥) .

﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾(١) ، وقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾(٢) .

وقـرنه بالأعمـال الصـالحة عمـوماً كقولـه تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(٣) ، وقرنه بالتقوى كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(٤) ، وقرنه بالشـكر كقولـه تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾(٥) ، وقـرنه بالحـق ، كقـوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾(٦) ، وقرنه بالرحمة كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾(٧) ، وقرنه باليقين كقـ ـولـه تعـالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾(٨)(٩) .

---

(١) سورة طه آية رقم (١٣٠) .
(٢) سورة غافر آية رقم (٥٥) .
(٣) سورة هود آية رقم (١١) .
(٤) سورة يوسف آية رقم (٩٠) .
(٥) سورة لقمان آية رقم (٣١) .
(٦) سورة العصر آية (٣) .
(٧) سورة البلد آية رقم (١٧) .
(٨) سورة السجدة آية رقم (٢٤) .
(٩) انظـر فـيما سبق من نصوص الصبر في القرآن العظيم : الاستقامة لابن تيمية (٢٦٢/٢) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٧٧/١٠ ، ٣٤/١١-٣٦) ، التحفة العراقية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩/١٠) السياسة الشرعية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨/ ٣٦١) ، عدة الصابرين لابن القيم (ص٧٤-٧٩) ، ومدارج السالكين له أيضاً (١٥٩/٢-١٦١ ، ١٧٠) .

أقسام الصبر :

ينقسم الصبر إلى قسمين ، باعتبار أحوال العبد ؛ لأن كل ما يلقاه العبد في هذه الدنيا لا يخلو من أمرين : إما أن يكون موافقا لغرضه وهو السراء ، وإما أن يكون مخالفاً لغرضه وهواه وهو الضراء .

أما **القسم الأول** : وهو السراء كالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة ونحـوها ، فهذا القسم يغفل عن الصبر عليه كثير من الناس ، وقد أشار إليه القرآن الكريم كمـا سيأتي ، وهو أشد على النفس من الصبر على الضراء ؛ لأنه مقرون بالقدرة ، فالجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره .

والصبر على السراء يكون من وجوه :

١- أن لا يـركن إليها ، ولا يغتر بها ، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله .

٢- أن لا ينهمك في نيلها ، ويبالغ في استقصائها ، فإنها تنقلب إلى أضدادها .

٣- أن يصبر على أداء حق الله فيها ، ولا يضيعه فيسلبها .

٤- أن يصـبر عـن صرفها في الحرام ، فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها ، فإنها تـوقعه في الحـرام ، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه ، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون[1] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وأما نعمة السراء: فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء ، كما قال بعض السلف: " ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر " .

---

(١) انظر فيما سبق : عدة الصابرين لابن القيم (ص ٦٤-٦٦) .

وفي الحديث ((**أعوذ بك من فتنة الفقر وشر فتنة الغنى**))[(١)] .

والفقر يصلح عليه خلق كثير ، والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين ؛ لأن فتنة الفقر أهون ، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر ، لكن لما كان في السراء اللذة ، وفي الضراء الألم ، اشتهر ذكر الشكر في السراء ، والصبر في الضراء ، قـ ـال تعـ ـالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[(٢)] ؛ ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء أحوج إلى الصبر ، فإن صبر هذا وشكر هذا واجب ، إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السـراء: فقد يكون مستحباً إذا كان عن فضول الشـهوات ، وقد يكون واجبا ، ولكن لإتيانه بالشـكر - الذي هو حسنات - يغفر لـه ما يغفر من سيئاته ''[(٣)] .

القسـم الثاني : الأمر المخالف للهوى ، وهو نوعان باعتبار دخوله تحت اختيار العبد أو ضده :

الـنوع الأول: وهو ما يرتبط باختيار العبد وإرادته ، وهو جميع أفعاله التي توصف بكو ا طاعة أو معصية ، وهذا ينقسم أيضاً إلى قسمين :

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٤١) .

(٢) سورة هود آية رقم (٩-١١) .

(٣) الحسـنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠٥/١٤-٣٠٦) ، وانظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠٩/٨) .

أحدهما : الصبر على الطاعة : وهو حبس النفس عليها وأداء حق الله تعالى فيها .

والعبد محتاج إلى الصبر على الطاعة ؛ لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية ، فتنفــر عــن الصلاة مثلا لما في طبعها من الكسل وإيثار الراحة ، لا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة ، فلا يكاد العبد مع هذه الأمــور وغيرها أن يفعلها ، وإن فعلها مع ذلك كان متكلفاً غائب القلب ذاهلاً عنها طالباً لفراقها كالجالس إلى الجيفة ، نسأل الله السلامة .

والصبر على الطاعة يكون في ثلاث حالات :

أ- قــبل فعل الطاعة ، فقبل أن يشرع العبد بالعمل عليه تصحيح النية والإخلاص ، وتجنب دواعي الرياء والسمعة ، وعقد العزم على توفية المأمور به حقه .

ب- في أثناء فعل الطاعة : ففي حال شروع العبد في الطاعة عليه أن يصبر عن دواعي التقصير فيها والتفريط ، فيوفيها حقها بالقيام بأدائها تامة بأركا ا وواجبا ا وسننها ، ويصبر علــى ملازمة استصحاب ذكر النية ، وعلى حضور القلب بين يدي المعبود ، وأن لا ينساه أثــناء تأديــة أمره ، فلا يعطله حضوره مع الله تعالى بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته ، ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه وتعالى .

ج- بعد فعل الطاعة ، ويكون الصبر بعد الطاعة من وجوه :

١- أن يصــبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله ، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾[1] ، فلــيس الشــأن الإتــيان بالطاعة ، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها .

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢٦٤) .

٢- أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها ، والتكبر والتعظم بها ، فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة .

٣- أن يصـبر عـن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية ، فإن العبد يعمل العمل سـراً بيـنه وبين الله سبحانه ، فيكتب في ديوان السـر ، فإن تحدث به نقل إلى ديوان العلانية[١] .

القسم الآخر : الصبر عن المعصية : وهو منع النفس منها طوعاً واختياراً والتذاذاً [٢]، وأعظـم ما يعين عليه قطع المألوفات ، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة ، وقطع العـوائد ، فإن العادة طبيعة خاصة ، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان ، فلا يقوى باعث الدين على قهرهما[٣] .

وهذا الصبر أعظم وأكمل من الصبر على المصائب ، فلا يصبر عن المعاصي إلا صديق بخـلاف الصبر على المصائب فإن العبد ليس له في ذلك اختيار ، فمن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو[٤] البهائم .

ولا بـد أن يكون صبر العبد عن المعصية والشهوة لأجل الله تعالى ، لا رجاءً لمخلوق ولا خـوفاً مـنه ، وتزداد صعوبة هذا الصبر عند كثرة الدواعي إليه ، وتيسر أسبابه ، فإنه حينـئذٍ لا يصـبر إلا صديق كما صبر يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ ﴾[٥] ، ولا يوجـد لهذا نظير إلا في خيار أولياء الله

---

(١) انظر فيما سبق : عدة الصابرين لابن القيم (ص ٦٦-٦٧) ، ومدارج السالكين (١٧١/٢) .
(٢) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١٧١/٢) .
(٣) عدة الصابرين لابن القيم (ص ٦٧) .
(٤) سلا يسلو سلوانا: نسي وغفل . انظر: تاج العروس للزبيدي (١٨١/١٠) .
(٥) سورة يوسف آية رقم (٣٣) .

تعـالى المتقين كمـا قـال تعـالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾(١)(٢).

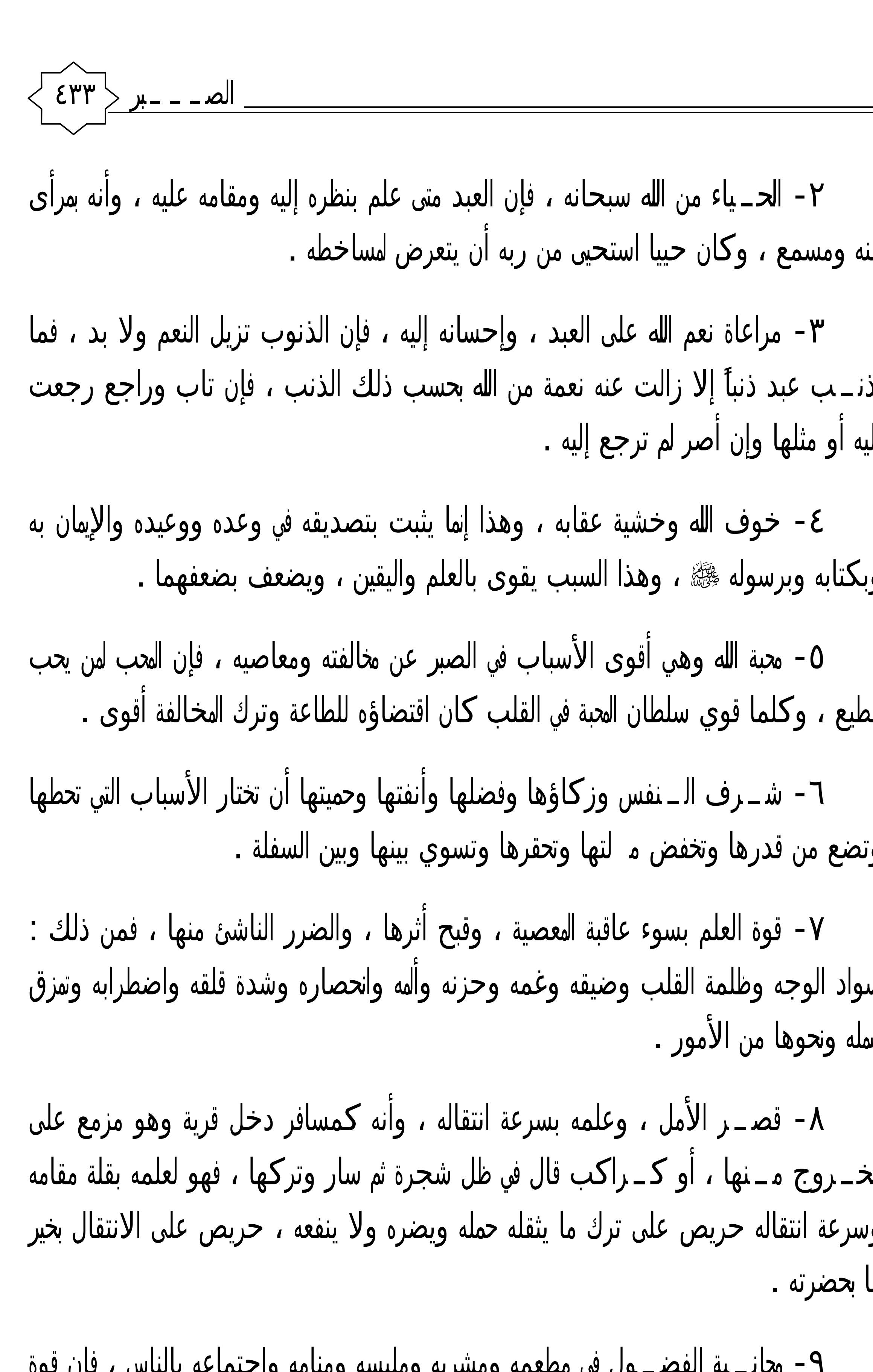
يقـول ابن القيم رحمه الله : " وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقـول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب لـه فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضى ، ومحاربة للنفس ، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة ، فإنه كان شاباً وداعية الشباب إليها قوية ، وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته ، وغريباً والغريب لا يسـتحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله ، ومملوكاً والمملوك أيضـا لـيس وازعه كوازع الحر ، والمرأة جميلة وذات منصب ، وهي سيدته ، وقد غاب الـرقيب ، وهـي الداعـية له إلى نفسها ، والحريصة على ذلك أشد الحرص ، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار ، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله ، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه "(٣) .

ومن أسباب حصول الصبر عن المعصية ما يلي :

١- علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها ، وأن الله إنما حرمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل ، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره ، وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب .

---

(١) سورة يوسف آية رقم (٢٤) .
(٢) انظر: تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤/١٧) .
(٣) مدارج السالكين لابن القيم (١٦٣/٢) .



٢- الحـياء من الله سبحانه ، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه ، وأنه بمرأى منه ومسمع ، وكان حييا استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه .

٣- مراعاة نعم الله على العبد ، وإحسانه إليه ، فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد ، فما أذنـب عبد ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب ، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها وإن أصر لم ترجع إليه .

٤- خوف الله وخشية عقابه ، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده والإيمان به وبكتابه وبرسوله ﷺ ، وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين ، ويضعف بضعفهما .

٥- محبة الله وهي أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه ، فإن المحب لمن يحب مطيع ، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى .

٦- شـرف الـنفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع من قدرها وتخفض منزلتها وتحقرها وتسوي بينها وبين السفلة .

٧- قوة العلم بسوء عاقبة المعصية ، وقبح أثرها ، والضرر الناشئ منها ، فمن ذلك : سواد الوجه وظلمة القلب وضيقه وغمه وحزنه وألمه وانحصاره وشدة قلقه واضطرابه وتمزق شمله ونحوها من الأمور .

٨- قصـر الأمل ، وعلمه بسرعة انتقاله ، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع على الخـروج مـنها ، أو كـراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها ، فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقله حمله ويضره ولا ينفعه ، حريص على الانتقال بخير ما بحضرته .

٩- مجانـبة الفضـول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس ، فإن قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات ، فإذا تطلب لها مصرفاً فيضيق عليها المباح

فتتعداه إلى الحرام ، ومن أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطَّالته وفراغه ، فإن النفس لا تقعد فارغة بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد .

١٠- ثـبات شـجرة الإيمان في القلب ، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه ، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم ، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر ، وهذا هو الجامع لهذه الأسباب كلها ، فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته لـه وتحريمه لما حـرم علـيه وبغضه لـه ومقته لفاعله ، وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار امتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم[١] .

وهـنا مسألة وهي أيهما أفضل الصبر على فعل الطاعة أو الصبر على ترك المعصية ، وهـذه المسـألة مما اختلف فيها رأي الشيخين الجليلين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وتلمـيذه العلامة ابن القيم رحمه الله ، فيرى شيخ الإسلام أن الصبر على أداء الطاعة أفضل وأكمل .

يقـول ابن القيم في نقل قول شيخه : ''وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات أكمل مـن الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ؛ فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصـلحة ترك المعصية ، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية ، ولـه رحمه الله في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهاً ''[٢] .

بيـنما العلامـة ابن القيم رحمه الله لـه رأيان في هذه المسألة أحدهما: يوافق شيخ الإسـلام رحمه الله[٣] ، والآخر: يخالفه ، فيفصل المسألة بطريقة أخرى فيرى أن الصبر على الطاعـة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة ، والصبر عن المعصية الكبيرة ، أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة .

---

(١) انظر فيما سبق : طريق الهجرتين لابن القيم (ص ٢٥٢-٢٥٦) .
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١٦٣/٢) .
(٣) المصدر السابق (١٧٣/٢) .

يقـول رحمه الله بعدما ذكر الأقوال المختلفة ومنها قول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وفصـل الـ اع في ذلـك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية ، فالصبر على الطاعة المعظمـة الكـبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية ، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة ، وصبر العبد على الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر ، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الصبح وصوم يوم تطوعاً ونحوه ''[(١)] .

النوع الثاني : ما لا يدخل تحت **اختيار العبد وإرادته** ، وهي المصائب التي ليس للعبد حيلة في دفعها ، والصبر عليها يكون بحبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن المعصية[(٢)] .

المصائب تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول: ما لا صنع للعبد الآدمي فيه كموت من يعز عليه ومرضه ونحو ذلك .

القسم الثاني: ما يصيب العبد من جهة آدمي مثله كالسب والضرب ونحوها .

وقـد وردت نصـوص شرعية تحث على الصبر على المصائب ، ويدخل في هذا كلا نوعـي المصائب المذكورة آنفاً ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[(٣)] ، وقـوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[(٤)] .

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (ص ٢٥٧) .
(٢) انظر: الوابل الصيب لابن القيم (ص ٦) .
(٣) سورة الطور آية رقم (٤٨) .
(٤) سورة القلم آية رقم (٤٨) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' و ذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق ، وعلى المصائب السماوية ، والصبر على الأول أشد ''[(١)] .

ويقول في موضع آخر تعليقاً على هذه الآيات : '' وقد قيل في معناه: اصبر لما يحكم به عليك ، وقيل: اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آت ، والأول أصح ، وحكم الله نـوعان: خلـق وأمر ، فالأول: ما يقدره من المصائب ، والثاني: ما يأمر به وينهى عنه ، والعبد مأمور بالصبر على هذا وعلى هذا ، فعليه أن يصبر لما أمر به ، ولما ي عنه ، فيفعل المأمور ، ويترك المحظور ، وعليه أن يصـبر لما قدره الله عليه ''[(٢)] .

ويقول تعـالى : ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[(٣)] .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' فأمر سبحانه بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى ، وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض متأولين كانوا أو غير متأولين ''[(٤)] .

ويقـول تعـالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[(٥)] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧٠/١٦) .
(٢) الاحتجاج بالقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٢٥/٨) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (١٨٦) .
(٤) الاستقامة لابن تيمية (٣٨/١) .
(٥) سورة النحل آية رقم (١٢٦-١٢٧) .

يقول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' فأخبر أن صبره بالله ، فالله هو الذي يعينه عليه ، فـــإن الصـبر على المكاره بترك الانتقـام من الظالم ثقيل على الأنفس لكن صبره بالله ''[١] .

وصبر العبد على ما يصيبه من جهة آدمي مثله نوعان :

الأول: اضـطراري : وهو صبر العبد على ما يصيبه بدون تقدم سبب يستوجب ما حصـل لـه ، وهذا من جنس المصائب التي لا صنع لآدمي فيها ، كما حصل لنبي الله يوسف ﷺ من أخوته بسبب الحسد حيث أبغضوه بغضاً أوجب أن يصـير ملقى في الجب ثم أسـيراً ثم مملوكاً ، فأخرجوه من الحرية إلى رق العبودية ، وكل هذا بغير اختياره ، وبغير سبب منه يستوجب ذلك .

الـثاني: اختـياري : وهو صبر العبد على ما يصيبه مع تقدم سبب منه يستوجب ما يحصـل لـه عند من ظلمه وتعدى عليه ، وهذا كما حصل لنبي الله يوسف ﷺ من جهة زوجـة العزيـز حيث دعته إلى الفاحشة ، وراودته عليها ، واستعانت عليه بمن يعينها على ذلـك ، وقد أبى واستعصم واختار السجن على الفاحشة وآثر عذاب الدنيا على سخط الله عز وجل .

ومثل هذا المؤمن إذا أوذي على إيمانه ، فطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان ، فإن لم يفعل أوذي وعوقب ، فاختار الأذى والعقوبة على فراق دينه .

وهـذا كمـا حصل لنبينا محمد ﷺ وأصحابه ، فقد كان يؤذى بأنواع الأذى فيصبر علـيها صبراً اختيارياً ، وهذا أعظم من صبر نبي الله يوسف ﷺ ؛ لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشـة وعـوقب إذا لم يفعل بالحبس ، والنبي ﷺ وأصحابه طلب منهم الكفر ، وإذا لم

---

(١) الاحتجاج بالقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٢٩/٨) .

يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل ، فالطلب أشد والعقوبة أشد ، وأهون ما عوقب به النبي ﷺ وأصحابه الحبس فإن المشركين ، حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة[1] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله ﷺ ، لم يكن من المصائب السماوية التي تجرى بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف ، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه ، وهذا أشرف النوعين ، وأهلها أعظم درجة - وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه ، وتكفر عنه الذنوب بمصائبه - فإن هذا أصيب وأوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ، ويكتب لـه بها عمل صالح قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله ، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها ، لا على نفس ما يحدث من المصيبة ، لكن المصيبة يكفر بها خطاياه ، فإن الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما يتولد عنها .

والذين يؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله ﷺ ، ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال هم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم كالمهاجرين الأولين ، فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ، ويكتب لهم به عمل صالح كما يثاب ا اهد على ما يصيبه من الجوع والعطش

---

(١) انظر فيما سبق : أمراض القلوب وشفـاءها - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/١٢١-١٢٣) .
(٢) سورة التوبة آية رقم (١٢٠) .

والتعب وعلى غيظه الكفار ، وإن كانت هذه الآثار ليست عملاً فعله يقوم به ، لكنها متسببة عن فعله الاختياري وهي التي يقال لها: متولدة ''[١] .

ومن الأسباب المعينة على الصبر على المصائب ما يلي :

١- شهود جزائها وثوابا .

٢- شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها .

٣- شـهود القدر السابق الجاري با وأ ا مقدرة في أم الكتاب قبل أن يخلق فلا بد منها فجزعه لا يزيده إلا بلاء .

٤- شهوده حق الله عليه في تلك البلوى وواجبه فيها الصبر .

٥- شهود ترتبها عليه بذنبه .

٦- أن يعلـم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه .

٧- أن يعلم أن هذه المصيبة هي داوء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلاً .

٨- أن يعلـم أن في عقـبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم مالا تحصل بدونه .

٩- أن يعلـم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا .

---

(١) أمراض القلوب وشفاؤها - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/١٢٣-١٢٤) .

١٠ ـ أن يعلم أن الله يربي عبده على السـراء والضراء والنعمة والبلاء فيستخرج من عبوديـته في جمـيع الأحوال ، فـإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال(١).

السببية في الصبر :

وقـد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن الصبر في مواضع متعددة من كتبه ، وقرر أن الصبر سبب من الأسباب الشرعية في أمور كثيرة منها :

١- الإمامة في الدين ، فالصبر واليقين سبب لنيل الإمامة في الدين كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(٢) ، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

وأهل اليقين والصبر هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين ، فقد أقسم جل وعلا بالعصر الذي هو زمن الخاسـرين والرابحين على أن من عداهم فهو من الخاسـرين قـال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾(٣) ، فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصي بعضهم بعضاً ، ويرشده إليه ، ويحثه عليه ، فالتواصي بالحق يدفع الشبهات والتواصي بالصبر يدفع الشهوات(٤) .

---

(١) انظر فيما سبق : طريق الهجرتين لابن القيم (ص ٢٥٧-٢٥٨) .
(٢) سورة السجدة آية رقم (٢٤) .
(٣) سورة العصر آية (١-٣) .
(٤) انظر فيما سبق : اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (١٠٤/١) ، زاد المعاد لابن القيم (١٠/٣) ، وإغاثة اللهفان له أيضاً (٢٤١/٢) ، الجواب الكافي له أيضاً (ص ١٤٧) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله معلقاً على هذه السورة : " فإن الله تعالى أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً ، ومع غيره موصياً بالحق موصياً بالصبر .

وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سبباً لعلو الدرجة وعظيم الأجر ، كما سـئل النبي ﷺ : أي الناس أشد بلاء ؟ قال: « **الأنبياء** ثم **الصالحون** ثم **الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان** في **دينه صلابة زيد** في **بلائه وإن كان** في **دينه رقة خفف عنـه ، ولا يـزال البلاء بالمؤمن حتى** يمشي **على وجـه الأرض وليس عليه خطيـئة** »[1] وحينئذ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج إليه غيره ، وذلك هو سبب الإمامة في الدين كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[2] .

فلابـد من الصبر على فعل الحسن المأمور به وترك السيئ المحظور ، ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال ، والصبر على ما يصيبه من المكاره ، والصبر عن البطر عند النعم وغير ذلك من أنواع الصبر .

ولا يمكـن العـبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويغتذي به ، وهو الـيقين كمـــا في الحديث الذي رواه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه

---

(١) رواه ابـن أبي شيبة في مصنفه (٤٤٣/٢) ، وأبو داود الطيالسي في مسنده (ص ٢٩-٣٠) والترمذي في الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٥٢٠/٤) ح(٢٣٩٨) ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح ، وابن ماجة في الفتن باب الصبر على البلاء (١٣٣٤/٢) ح(٤٠٢٣) والدارمي في الرقاق باب في أشد الناس بلاء (٢٢٨/٢) ح(٢٧٨٦) ، وابن حبان كما في الموارد (ص ١٨٠) ح(٦٩٨) كلهم عن سعد بن أبي وقاص ﷺ باختلاف في ألفاظه .

(٢) سورة السجدة آية رقم (٢٤) .

قـ ـال: ((**يـا أيهـا النـاس ، سـلوا الله اليقين والعافيـة ، فـإنـه** لم **يعط أحـد بعـد اليقين خيراً من العافيـة فسـلوهما الله**))[١]،[٢] .

٢- أن الصبر والتقوى سبب في النصر على الأعداء ، والوقاية من كيدهم ومكرهم ، قـال تعـالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[٣] ، وقـد جعـل الله تعالى الصبر والتقوى شرطاً في انتفاء الضرر عن المؤمنين قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[٤] ، وأخبر تعالى أن نصره للمؤمنين على أعدائهم كان بسبب صبرهم قال تعـالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ ﴾[٥] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعاً في غير موضع من كتابه ، وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ، ولصاحبه تكون العاقبة ، قـال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[٦]،

---

(١) رواه الإمـام أحمد (٣/١ ، ٨) ، والترمذي في الدعوات (٥٢١/٥) ح(٣٥٥٨) ، والنسائي في الكبرى في عمل الـيوم الليلة (٢٢٠/٦-٢٢٢) بعدة طرق ح(١٠٧١٥-١٠٧٢١) ، وأبو يعلى في مسنده (٨٢/١ ، ٩٢ ، ٩٣) ، وابن حبان كما في الموارد (ص ٦٠٠) ح(٢٤٢٠) والحاكم (٥٢٩/١) كلهم عن أبي بكر ﷺ مع اختلاف في بعض ألفاظه ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقـه الذهبي ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٢/٤) : رواه النسائي من رواية عبدالله بن محمد بن عقيل وقال: حديث حسن غريب ، ورواه النسائي من طرق ، وعن جماعة من الصحابة ، وأحد أسانيده صحيح .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥٢/٢٨-١٥٣) .

(٣) سورة آل عمران آية رقم (١٢٥) .

(٤) سورة آل عمران آية رقم (١٢٠) .

(٥) سورة الأعراف آية رقم (١٣٧) .

(٦) سورة آل عمران آية رقم (١٢٥) .

وقال الله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[1] ، وقـــال تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[2] ، وقال أخوة يوسف له: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3] ''[4] .

ويقول في موضع آخر تعليقاً على بعض الآيات السابقة : '' فأخبرهم أن أعداءهم من المشـركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم ، وأخبر أ م إن يصبروا ويتقوا ، فإن ذلـك مـن عزم الأمور ، فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة المؤذين بألسنتهم والمؤذين بأيديهم ، وشر العدو المبطن للعداوة وهم المنافقون ''[5] .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (١٨٦) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (١١٨-١٢٠) .
(٣) سورة يوسف آية رقم (٩٠) .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/٦٧٥-٦٧٦ ، ١١/٣٤-٣٥) .
(٥) شرح كلمات لعبدالقادر في فتوح الغيب - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/٥٠٨) .

٣- أن الصبر سبب يستعان به على نيل كل مطلوب من خيري الدنيا والآخرة ، قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[(٢)] .

ويوضح شيخ الإسلام رحمه الله هذه القضية بأن الصلاة والصبر ونحوها تعتبر من الأسماء الجامعة التي يدخل فيها معاني كثيرة ، ولهذا كانت سبباً يستعان به على نيل المطالب فالصلاة يدخل فيها ذكر الله تعالى ودعاؤه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، والصبر يدخل فيه احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر ونحوها ، قـال تعـ ـالى: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾[(٣)] وقـال تعـ ـالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾[(٤)(٥)].

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأما قوله : ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[(٦)] ، فالمسـتعان به فعل يفعله العبد ، والمعنى : اصبروا وصلوا فإن ذلك يعينكم على المطلوب ،

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٤٥) .
(٢) سورة البقرة آية رقم (١٥٣) .
(٣) سورة هود آية رقم (٩-١١) .
(٤) سورة فصلت آية رقم (٣٤-٣٥) .
(٥) انظـر: رسالة في قوله ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ - ضمن جامع الرسائل (٨٤/١) ، السياسة الشرعية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٦٣/٢٨) .
(٦) سورة البقرة آية رقم (٤٥) .

والأعمـال الصـالحة بيـنها تصادق وتلازم كما قال النبي ﷺ : « **عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً** »[١] وكذلك الأعمال السيئة بينها تصادق وتلازم كما قال في نفـس هذا الحديث: « **وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً** » أخـرجاه في الصـحيحين عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، وهداية الصدق مثل إعانة الصبر والصلاة ''[٢] .

ويقـول ابن القيم رحمه الله عن الصبر : '' وهو أكبر العون على نيل كل مطلوب من خـير الدنـيا والآخرة ، قال تعـالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[٣] ''[٤] .

٤- أن الصبر سبب في دخول الجنان ، والسلامة من النيران ، والسلام من ملائكة الله الواحد الديان ، قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[٥] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[٦] ، وقال تعالى: ﴿

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٣٥) .
(٢) الرد على البكري لابن تيمية (٢/٢٢٦) .
(٣) سورة البقرة آية رقم (٤٥) .
(٤) مدارج السالكين لابن القيم (٢/٣٣٠) .
(٥) سورة الرعد آية (٢٣-٢٤) .
(٦) سورة المؤمنون الآيات رقم (١٠٩-١١١) .

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[1] .

يقـول ابن القيم رحمه الله : '' وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضـوع والـذل والاستكانة لله ، الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم ، فبدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم ''[2].

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[3] .

يقـول ابن القيم رحمه الله : '' فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة ''[4] .

وختاماً فالصبر من أجل الأسباب الشرعية وأعظمها ، ولو لم يكن من ذلك إلا كونه سبباً في دخول الجنة والنجاة من النار لكفاه بذلك فضلاً وشرفاً ، فكيف إذا انضم إلى ذلك بقية مسبباته من الإمامة في الدين ، والنصر على الأعداء وغيرها من مسبباته ، فإنه الفضل الذي ما بعده فضل ، والشرف الذي لا يدانيه شرف .

---

(١) سورة الفرقان آية رقم (٧٤-٧٦) .
(٢) حادي الأرواح لابن القيم (ص ١٠٢) .
(٣) سورة الإنسان آية رقم (١٢) ، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذه الآية ضمن الآيات التي فيها إثبات السببية . انظر: منهاج السنة النبوية (٣٦٥/٥) .
(٤) روضة المحبين لابن القيم (ص ٤٧٧) .

الفصل الثاني

الأسباب المنهي عنها وموقف ابن تيمية منها

وفيه مباحث :

المبحث الأول : الشرك .

المبحث الثاني : السحر .

المبحث الثالث : الكهانة .

المبحث الرابع : البدع .

المبحث الخامس : الأسباب الوهمية .

تمهيد

بعد الحديث عن الأسباب المشروعة وموقف شيخ الإسلام رحمه الله منها ، أنتقل بعد ذلك إلى الكلام في الأسباب الممنوعة حقيقتها وسببيتها ، وموقف شيخ الإسلام منها .

وقبل البحث في هذه القضايا ينبغي أن يعلم أنه ليس كل ما كان سبباً كونياً يجوز تعاطيه ، فهناك كثير من الأسباب الكونية المحرمة التي لا يجوز فعلها ، فإن السرقة وهي محرمة قد تكون سبباً في رزق يحصل للسارق ، وكذا الكفر بدين الإسلام والدخول في دين النصارى قد يكون سبباً لمال يعطونه إياه ، وكذلك الشرك قد يكون سبباً في إعانة الشياطين للمشرك والسحر قد يكون سبباً لقتل بعض الناس ، وأخذ أموال أناس آخرين ، وكذا الكهانة والتنجيم ونحوها .

ويلحق تبعاً بالأسباب الممنوعة الأسباب الوهمية ، وهي ما قد يظنه بعض الناس في أشياء معينة أنها سبب وليست كذلك كالنذر فبعض الناس يظن أن النذر سبب يحصل به بعض الأمور المطلوبة للعبد ، وإن كان في الواقع ليس سبباً ، وقضية السبب الوهمي إنما اندرجت في الأسباب الممنوعة لأن المنع توجه فيها ليس إلى ذات الفعل ، بل إلى العلاقة بين ما يظن أنه سبب ومسببه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " ليس كل ما كان سبباً كونياً يجوز تعاطيه ، فإن قتل المسافر قد يكون سبباً لأخذ ماله وكلاهما محرم ، والدخول في دين النصارى قد يكون سبباً لمال يعطونه ، و[هو][1] محرم ، وشهادة الزور قد تكون سبباً لمال يؤخذ من المشهود له وهو حرام ، وكثير من الفواحش والظلم قد يكون سبباً لنيل مطالب وهو محرم ، والسحر والكهانة سبب في بعض المطالب وهو محرم .

---

(١) ما بين المعكوفتين إضافة إلى النص يحتاج إليها الكلام المنقول .

وكذلك الشرك في مثل دعوة الكواكب والشياطين وعبادة البشر قد يكون سبباً لبعض المطالب وهو محرم ، فإن الله تعالى حرم من الأسباب ما كانت مفسدته راجحة على مصلحته ، وإن كان يحصل به بعض الأغراض أحياناً ''[1] .

والبحث في هذه القضايا يطول جداً ولذا سوف أقتصر على بعض تلك الأسباب ، وسيكون الكلام في هذه المسائل مندرجاً في خمسة مباحث :

المبحث الأول : الشرك .

المبحث الثاني : السحر .

المبحث الثالث : الكهانة .

المبحث الرابع : البدع .

المبحث الخامس : الأسباب الوهمية .

---

(١) الرد على البكري لابن تيمية (٢/٢٣٠) .

المبحث الأول

الشـــرك

الشـرك

يعتـبر الشـرك أخطر ما يمكن أن يقع فيه المسلم على الإطلاق ، وذلك نظراً للآثار الخطـيرة المترتبة عليه ، ولو لم يكن من نتائجه إلا عدم مغفرة الله عز وجل لصاحبه لكفى بـذلك ضـرراً ، يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾[1] ، ويقـول أيضاً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[2] .

وقبل الشروع في الشرك وسببيته وما قرره شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الباب ، فلا بد من تعريف الشرك وبيان أنواعه وأحكامه .

الشرك في اللغة : جاء في معجم مقاييس اللغة : الشين والراء والكاف أصلان :

أحدهما : يدل على مقارنة وخلاف انفراد ، وهو الشركة ، وهو أن يكون الشيء بين اثـنين لا ينفـرد بـه أحـدهما ، يقال: شاركت فلاناً في الشيء ، إذا صرت شريكاً له ، وأشـركت فلاناً ، إذا جعلته شريكاً لك ، قال الله جل ثناؤه في قصة موسى:﴿ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾[3] ، ويقال في الدعاء : اللهم أشركنا في دعاء المؤمنين ، أي: اجعلنا لهم شركاء في ذلك ، وشرِكت الرجلَ في الأمر أشرِكه .

---

(١) سورة النساء آية رقم (٤٨) .
(٢) سورة النساء آية رقم (١١٦) .
(٣) سورة طه آية رقم (٣٢) .

والأصـل الآخر : يدل على امتداد واستقامة ، فالشرك : لَقَم الطريق ، وهو شِراكة أيضاً ، وشراك النعل مشبه بذا ، ومنه شرك الصائد ، سمي بذلك لامتداده[1] .

ومن هذا يتبين أن الشرك ضد التوحيد والانفراد ، فهو يطلق على ما فيه مشاركة بين اثنين لا يستقل به أحدهما .

أما في الاصطلاح : فينقسم الشرك إلى قسمين : شرك أكبر ، وشرك أصغر .

أولاً : الشرك الأكبر : وهو تسوية غير الله تعالى بالله في شيء من خصائصه .

فكل من سوى بالله تعالى غيره في ربوبيته ، أو شيء منها ، أو ألوهيته ، أو شيء منها أو في صفاته وأفعاله ، أو شيء منها ، فقد وقع في الشرك المخرج من الملة الموجب لمن مات ولم يـتب منه الخلود في النار ، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2] ، وقـولـه تعالـى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾[3] .

يعلق ابن القيم رحمه الله على هاتين الآيتين فيقول: '' ومن المعلوم أ م إنما سووهم به سـبحانه في الحـب والتأله والعبادة ، وإلا فلم يقل أحد قط أن الصنم أو غيره من الأنداد مسـاوٍ لرب العالمين في صفاته وفي أفعاله ، وفي خلق السماوات والأرض ، وفي خلق عباده أيضا ، وإنما كانت التسوية في المحبة والعبادة .

وأضـل من هؤلاء وأسوأ حالاً من سوى كل شيء بالله سبحانه في الوجود ، وجعله وجود كل موجود كامل أو ناقص ، فإذا كان الله قد حكم بالضلال والشقاء لمن سوى بينه

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٢٦٥) .
(٢) سورة الشعراء آية رقم (٩٧-٩٨) .
(٣) سورة البقرة آية رقم (١٦٥) .

وبـين الأصـنام في الحب مع اعتقادهم تفاوت ما بين الله وبين خلقه في الذات والصفات والأفعـال ، فكيف بمن سوى الله بالموجودات في جميع ذلك ، وزعم أنه ما عبد غير الله في كل معبود ''[(١)] .

ومما تقدم يتبين لنا أن المشركين الأوائل إنما سووا أصنامهم بالله تعالى في الحب والعبادة لا في الـربوبية والصـفات والأفعال ، ولكن هذا لا يعني أن الشرك لا يكون إلا في تلك الصورة فقط ، بل كل من سوى الله تعالى بغيره سواء في الألوهية - كما هو حال المشركين الأوائل - أو في الربوبية أو في الصفات والأفعال ، فإنه يكون مشركاً الشرك الأكبر الذي لا يغفر .

وهناك تعريفات أخرى للشرك وكلها تؤدي نفس المضمون ، فمنها:

١- مـا أشار إليه شيخ الإسلام رحمه الله بقوله: '' وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلـوقاته في بعض ما يستحقه وحده ، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئا من المخلوقات في جميع الأمور ، فمن عبد غيره ، أو توكل عليه فهو مشرك به ''[(٢)] .

وهذا التعريف هو بمعنى التعريف السابق تقريباً ، والاختلاف بينهما في نقطتين:

الأولى: تم التعبير بكلمة تسوية في التعريف السابق ، وهنا استعمل كلمة عدل وكلاهما مأخوذ من القرآن ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾[(٣)] .

الثانـية: في التعـريف السابق تم استعمال كلمة '' غير الله '' ، وهي كلمة أعم من كلمة: '' مخلوقاته '' ، فهي تشمل كل ما سوى الله عز وجل من الموجودات والمعدومات والممتـنعات فكـل من سوى بالله تعالى غيره في أي من هذه الأمور فقد وقع في الشرك ،

(١) جلاء الأفهام لابن القيم (ص ٢٤٩) .
(٢) الاستقامة لابن تيمية (٣٤٤/١) .
(٣) سورة الأنعام آية رقم (١) .

بخـلاف التقيـيد بكلمـة مخلوقاته فإنه لا يدخل في التعريف من عدل بالله المعدومـات والممتنعات ؛ لأ ا ليست مخلوقات ، وعلى هذا فيخرج شرك التعطيل من هذا التعريف فلا يكون التعريف جامعاً .

وقـد أشـار شـيخ الإسلام رحمه الله إلى أن الشرك يدخل فيه العدل بالمعدومات والممتـنعات ، يقـول رحمه الله : '' فلا يوجد أحد من أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشـبهة إلا وفـيه نوع من الشرك العملي ؛ إذ أصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقـه ، أو بيـنه وبين المعدومات ، كما يسوى المعطلة بينه وبين المعدومات في الصفات السلبية التي لا تستلزم مدحاً ولا ثبوت كمال ، أو يسوون بينه وبين الناقص من الموجودات في صـفات الـنقص ، وكمـا يسـوون إذا أثبتوا هم ومن ضاهاهم من الممثلة بينه وبين المخلـوقات في حقائقهـا حتى قد يعبدو ا فيعدلون بربهم ، ويجعلون له أنداداً ، ويسوون المخلوقات برب العالمين ''[1] .

٢- مـا ذكره ابن القيم رحمه الله بقوله: '' وهو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله ، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين ''[2] .

وهذا التعريف لا يدخل فيه جميع أنواع الشرك الأكبر ، فهو يقتصر على بعض أنواعه فقط ، وهو الشرك في الألوهية ، كما سيأتي في أنواع الشرك الأكبر .

٣- عرف أيضاً بأنه : '' أن تجعل لله نداً ''[3] .

وهـذا التعريف مأخوذ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، أنه قـال للنبي ﷺ: أي الذنب أعظم ؟ قال: ((**أن** تجعل لله **نداً وهو خلقك**))[1] .

---

(١) التحفة العراقية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٥/١٠) .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣٦٨/١) .

(٣) وهذا تعريف الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن رحمه الله كما في الدرر السنية (١٥٣/٢) .

وهـــذا التعريف غير مـانع ، فـإنه يدخل فيـه الشـرك الأصغر ، فقـد قـال الـنبي ﷺ لمن قـال لـه مـا شـاء الله وشـئت : ((**أجعلتني لله نـداً ؟ قـل: مـا شـــاء الله وحده**))[٢] فجعل قائل هذه العبارة بمثابة من جعل لله نداً ، ومعلوم أن من قال مثل هذه العبارة لا يكون مشركاً بالله تعالى الشرك الأكبر ، بل هو شرك أصغر .

أنواع الشرك الأكبر :

وينقسم الشرك الأكبر إلى ثلاثة أنواع باعتبار أنواع التوحيد الثلاثة ، فهناك شرك في الربوبية ، وشرك في الأسماء والصفات ، وشرك في الألوهية.

أولاً: الشـرك في **الربوبية** : وهو تسوية غير الله تعالى بالله في ربوبيته أو شيء منها ، وهو نوعان :

١- شرك التعطيل .

٢- شرك جعل بعض المخلوقات مستقلة بالفعل والإحداث .

أمـا الأول: وهو شرك التعطيل ، فهو نفي وجود الله سبحانه وتعالى ، أو ما يستلزم ذلك ، وهذا ينقسم إلى قسمين :

---

(١) رواه البخاري في المحاربين ، باب إثم الزناة (٢٤٩٧/٦-٢٤٩٨) ح(٦٤٢٦) ، ومسلم في الإيمان باب بيان كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٩٠/١) ح(٨٦) كلاهما عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظه .

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢٦٦٩١) ، وأحمد (٢١٤/١ ، ٢٢٤ ، ٢٨٣ ، ٣٤٧) ، والبخاري في الأدب المفرد كما في فضـل الله الصمد (٢٥٣/١) ح(٧٨٣) ، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان (٢٤٥/٦) ح(١٠٨٢٥) ، وابن ماجة في الكفارات باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت (٦٨٤/١) ح(٢١١٧) ، وقال البوصيري في زوائد ابن ماجة - ضمن السنن (٦٨٤/١) : في إسناده الأجلح بن عبدالله مختلف فيه ، ضـعفه الإمام أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبوداود وابن سعد ، ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان والعجلي ، وباقي رجال الإسناد ثقات ، وقال الألباني في الصحيحة (١٠٩٣) : هذا إسناد حسن .

أحدهما: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، كفرعـون عندما نفى الصانع إذ قال: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(١)] ، وقـال تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾[(٢)] .

وهـذا مرض خاص لا يكاد يقع عند بعض الناس إلا عن عناد ومكابرة ؛ لأن الله عز وجـل فطر الخلق كلهم على الإقرار به ومحبته ، وفطرهم على ذلك أعظم من فطرهم على الإقرار بغيره مـن المخلوقات ، كمـا قـال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[(٣)] .

وفرعون كان مستيقناً بوجود الله في باطنه ، وإن كان في الظاهر يجحده ، كما قال له موسـى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾[(٤)] ، وقال تعالى عنه وعن قومه :﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[(٥)][(٦)] .

ومـن هذا شرك ملاحدة الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته ، وأنه لم يكن معدوماً أصـلاً ، بـل لم يزل ولا يزال ، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسـائط اقتضت إيجادها يسمو ا العقول والنفوس .

(١) سورة الشعراء آية رقم (٢٣) .
(٢) سورة غافر آية رقم (٣٦-٣٧) .
(٣) سورة إبراهيم آية رقم (١٠) .
(٤) سورة الإسراء آية رقم (١٠٢) .
(٥) سورة النمل آية رقم (١٤) .
(٦) انظر فيما سبق : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٩/٨ ، ٤٤٠ ، ١٢٢/٩ ، ٢٧٢/١٠) ، الصفدية لابن تيمية (٢٤٢/١) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٧٠/٢) .

ومنه أيضاً شرك طائفة من أهل وحدة الوجود[١] الذين يقولون: ما ثم خالق ومخلوق ، ويقولون: ما هنا شيئان ، بل الحق المنـزه هو عين الخلق المشبه ، فحقيقة قولهم نفي وجود الله عز وجل[٢] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " قول هؤلاء الاتحادية[٣] المنتسبة إلى الإسلام هـو قول فرعون . وكنت أبين أنه مذهبهم ، وأبين أنه حقيقة مذهب فرعون حتى حدثني الثقة عن بعض طواغيتهم أنه قال: نحن على قول فرعون ، ولهذا يعظمون فرعون في كتبهم تعظيماً كثيراً .

فـإنهم لم يجعلـوا ثم صانعاً للعالم خلق العالم ، ولا أثبتوا رباً مدبراً للمخلوقات وإنما جعلوا نفس الطبيعة هي الصانع ، ولهذا جوزوا عبادة كل شيء ، وقالوا: من عبده فقد عبد الله ، ولا يتصـور عـندهم أن يعـبد غـير الله ، فما من شيء يعبد إلا وهو الله ، وهذه الكائنـات عندهم أجزاؤه أو صفـاته كـأجزاء الإنسان أو صفاته "[٤] .

---

(١) وحـدة الوجـود: مذهب إلحادي ينص على أن الله تعالى والعالم شيء واحد ، فكل شيء هو الله تعالى ، وهو مذهب قديم قالت به البراهمانية والرواقية والأفلاطونية الجديدة ، وقال به في الإسلام غلاة الصوفية ، ومن أشهر رجالهم ابـن عـربي الطائـي الأندلسي وعمر بن الفارض والصدر القونوي وعبد الكريم الجيلي . انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسـلام (٩٨/٢) ، الكافـية الشافية لابن القيم (ص ١٦) ، الكليات للكفوي (ص ٣٧ ، ٩٣١) ، المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٥٦٩/٢) ، المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية (ص ٢١٢) .

(٢) انظر فيما سبق: الجواب الكافي لابن القيم (ص ١٩٣) .

(٣) الاتحـاد عـند الصـوفية هو شهود وجود واحد مطلق من حيث أن جميع الأشياء موجودة بوجود ذلك الواحد معدومـة في أنفسـها . انظر: المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٣٥/١) . وفي كلام شيخ الإسلام رحمه الله المنقول آنفاً شرح موجز لهذا المذهب .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٣١/٧-٦٣٢) .

القسم الآخر من أنواع شرك التعطيل : تعطيل الصانع عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصـفاته ممـا يستلزم نفي ذاته ، وهذا كما فعل غلاة الجهمية والقرامطة[١] ونحوهم الذين ينفون أسماء الله وصفاته أو ينفون عنه النفي والإثبات[٢] .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' وأصل الشرك: إما التعطيل مثل تعطيل فرعون موسى ، والذي حاج إبراهيم في ربه خصم إبراهيم ، والدجال مسيح الضلال خصم مسيح الهـدى عيسـى بن مريم ﷺ ، وإما الإشراك وهو كثير في الأمم أكثر من التعطيل ، وأهله خصوم جمهور الأنبياء .

وفي خصوم إبراهيم ﷺ ومحمد ﷺ معطلة ومشركة ، لكن التعطيل المحض للذات قليل وأمـا الكثير فهو تعطيل صفات الكمال وهو مستلزم لتعطيل الذات ، فإنهم يصفون واجب الوجود بما يوجب أن يكون ممتنع الوجود ''[٣] .

فـإن قيل: كيف يكون التعطيل من الشرك مع أن التعطيل نفي وجود الخالق أو نفي أسمائه وصفاته ؟

فالجواب أن في التعطيل تسوية بين الله تعالى وبين المعدومات والممتنعات ، ومن هاهنا كان التعطيل والشرك متلازمان ، فكل معطل مشرك ، وكل مشرك معطل ، لكن لا يستلزم الشرك أصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وتعالى وبصفاته لكن عطل حق التوحيد[٤].

---

(١) هـم أتباع حمدان القرمطي ، كان داعية إلى مذهب الباطنية ، وضل بسببه خلق كثير ، وظهر هو وأتباعه عـام ٢٨١ هـ في خلافة المعتصم ، واستولوا على بعض البلاد ، ودخلوا مكة عام ٣١٧ هـ ، فقتلوا المسلمين في الحرم ، واقتلعوا الحجر الأسود وأخذوه ، ولم يعاد إلا سنة ٣٣٩ هـ . انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص ١٠١) ، البداية والنهاية لابن كثير (١١/١٦٠-١٦٢ ، ٢٢٣) ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي (ص ٧٩) .

(٢) انظر فيما سبق : الجواب الكافي لابن القيم (ص ١٩٣) .

(٣) منهاج السنة النبوية (٣/٢٩٢) ، وانظر: درء التعارض (١٠/٢٨٩) .

(٤) انظـر فـيما سـبق : التحفة العراقية في الأعمال القلبية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/٥٥) ، درء التعارض لابن تيمية (١٠/٢٨٩) ، الجواب الكافي لابن القيم (ص ١٩٢-١٩٣) .

والنوع الثاني من أنواع الشـرك في الربوبية : إثبات فاعل مستقل غير الله عز وجل ، وذلـك كشـرك أهل التنجيم الذين يجعلون الأفلاك مستقلة بإحداث الحوادث ، وكشرك الطبائعـية الذين يجعلون الطبائع مؤثرة بذا ا على جهة الاستقلال ، وكشرك المعتزلة الذين يجعلون العبد خالقاً لأفعاله .

وهـذا النوع يرتبط بموضوع الأسباب بصورة جذرية ، فكل من نسب إلى الأسباب تـأثيراً معيـناً علـى وجـه الاستقلال فقد وقع في هذا الشرك ، لأنه لا فاعل على سبيل الاسـتقلال من غير احتياج إلى غيره إلا الله عز وجل ، فهو سبحانه الغني بذاته ، وما سواه فقـير إليه بذاته ، قال تعالى:﴿ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ ﴾(١) ، فمن جعل غير الله مستقلاً بالفعل والتأثير فقد جعله مساوياً لله عز وجل في شيء من ربوبيته .

يقـول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الشرك في الربوبية هو : " إثبات فاعل مستقل غير الله ، كمن يجعل الحيوان مستقلاً بإحداث فعله ، ويجعل الكواكب أو الأجسام الطبيعية أو العقول أو النفوس أو الملائكة أو غير ذلك مستقلاً بشيء من الأحداث ، فهؤلاء حقيقة قولهم تعطيل الحوادث عن الفاعل ، فإن كل ما يذكرونه من فعل هذه الفاعلات أمر حـادث يفتقـر إلى محدث يتم به إحداثه ، وأمر ممكن لا بد له من واجب يتم به وجوده ، وكـل مـا سوى الخالق القديم الواجب الوجود بنفسه مفتقر إلى غيره ، فلا يتم به حدوث حادث ولا وجود ممكن ، وجمهور العرب لم يكن شركها من هذا الوجه ، بل كانت مقرة بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه "(٢).

ويقـول ابن القيم رحمه الله : " النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهاً آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته ، كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة فجعلوا المسيح إلهاً وأمه إلهاً .

---

(١) سورة محمد آية رقم (٣٨)

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣٩٠/٧ - ٣٩١) ، وانظر: منهاج السنة النبوية (٢٧٧/٣-٢٨٢) .

ومـن هذا شرك المجوس(1) القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة .

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه ، وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته ، ولهذا كانوا من أشباه المجوس ...

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم كما هو مذهب مشركي الصابئة(2) وغيرهم .

ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم .

ومـن هـؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة ، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة ، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع

---

(1) اختلف المصنفون في الفرق في شأنهم فقيل: إنهم من القائلين بالأصلين النور والظلمة ، والنور أزلي والظلمة محدثة وهـذا هو الفرق بينهم وبين الثنوية ، ولهم اختلاف في سبب حدوثها أمن النور حدثت أمن شيء آخر ؟ وهم فرق: فمـنهم الكيومرثية والزروانية والزردشتية ، وقيل: إنهم كانوا في الأصل من الثنوية أصحاب النور والظلمة فانتقلوا إلى القول بيزادن وأهرمن ، وأقروا بحدوث أهرمن ، ودانوا بعبادة النار دعاهم إليها زرادشت في أيام كشتاسب وإسفنديار لكـنهم علـى كل تقدير يعظمون الأنوار والنيران والماء والأرض ، ولهم شرائع يصيرون إليها . انظر: أصول الإيمان للبغدادي (ص ٢٥٧) ، الفصل لابن حزم (٨٦/١) ، البدء والتأريخ للمقدسي (٨٨/١) ، الملل والنحل للشهرستاني (٢٣٣/١-٢٣٦) ، إغاثة اللهفان لابن القيم (٣٥٧/٢) .

(2) الصـابئة : أمة كبيرة من الأمم الكبار ، يقرون أن للعالم صانعاً فاطراً حكيماً مقدساً عن العيوب والنقائص ، ثم منهم من يقر بالنبوات جملة ويتوقف في التفصيل ، ومنهم من يقر بها جملة وتفصيلاً ، ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلاً وهم فرق ، فمنهم صابئة حنفاء ، فهؤلاء شاركوا أهل الإسلام في الحنيفية ، ومنهم صابئة مشركون ، فهؤلاء يعظمون الكـواكب السبعة والبروج الإثني عشر ، ويصورونها في هياكلهم ، ويتخذون لها أصناماً تخصها ، ولها عندهم عبادات مخصوصـة ودعـوات مخصوصة، وزعموا أنه لا سبيل إلى الوصول إلى الله إلا بالوسائط الروحانية القريبة منه ، ومنهم الفلاسـفة الذين لا دين لهم ، بل يأخذون من كل دين محاسن ما دلت عليه عقولهم ، ويخرجون من قبيح ما هم عليه قـولاً وعمـلاً ، فلا يتقيدون بملة ولا نحلة . انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٢٣٠/١-٢٣١ ، ٦/٢-٨) ، البرهان للسكسكي (ص ٩٣) ، إغاثة اللهفان لابن القيم (٣٥٩/٢-٣٦٢) .

إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى المعبود الذي هو فوقه والفـوقاني يقـربه إلى مـن هو فوقه ، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه ، فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل ''[1] .

ويقـول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عد الوهاب[2] رحمه الله تعليقاً على كلام ابن القيم السابق:'' قلت: ويلتحق به من وجه شرك غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت ، فيقضون الحاجات ، ويفرجون الكربات ، وينصرون مـن دعـاهم ، ويحفظون من التجأ إليهم ، ولاذ بحماهم ، فـإن هـذه من خصـائص الربوبية ''[3] .

ثانياً الشرك في **الأسماء والصفات** : وهو تسوية غير الله تعالى بالله في صفاته أو أفعاله أو شيء منها ، وهذا ينقسم إلى قسمين :

القسـم الأول: تشـبيه الخالق بالمخلوق ، كمن يقول: يد كيدي ، وسمع كسمعي ، وبصـر كبصري ، واستواء كاستوائي ، وهو شرك المشبهة ، فقد سووا بين الله تعالى وبين خلقه في صفاته وأفعاله .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' فمن قال: إن علم الله كعلمي ، أو قدرته كقدرتي ، أو كلامه مثل كلامي ، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي وغضبي

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم (ص ١٩٣-١٩٤) .

(٢) عـالم وإمام من أئمة الدعوة السلفية الإصلاحية ، ولد بالدرعية سنة ١٢٠٠ هـ أخذ العلم عن جماعة ، صنف بعض المصنفات منها تيسير العزيز الحميد ، توفي سنة ١٢٣٣ هـ . انظر: عنوان المجد لابن بشر (٢١٢/١) ، الأعلام للزركلي (١٢٩/٣) .

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبدالله (ص ٤٤) .

أو اسـتواؤه على العرش كاستوائي ، أو نزوله كـ ولي ، أو إتيانه كإتياني ، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه ، تعالى الله عما يقولون ، وهو ضال خبيث مبطل بل كافر ''[١] .

القسم الثاني: تسمية الصنم إلهاً ، واشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الله عز وجل ، كاشتقاق العزى من العزيز ، واللات من الإله على أحد القولين ، فسموا أصنـامهم بـا ، وأسـ ـماء الله تعالى الحسنى مختصة به كمـا قـال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[٣] ، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾[٤][٥]، فمـن سمى غيره بأسمائـه على الوجه الذي يختص به فقد جعل ذلك المسمى مساوياً لله عز وجل ، ووقع في شرك الأسماء والصفات .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن أصنام المشركين : '' وهذه جعلوها شركاء له تعبد من دونه ، وسموها بأسمائه مع التأنيث ، كما قيل: إن اللات من الإله ، والعزى من العزيز ، ومـناة مـن منى يمنى إذا قدر ، وكانوا يسمو ا الربة ، وهم سموها بذه الأسماء التي فيها وصفها لها[٦] بالإلهية والعزة والتقدير والربوبية ، وهي أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٨٢/١١) .
(٢) سورة الأعراف آية رقم (١٨٠) .
(٣) سورة طه آية رقم (٨) .
(٤) سورة الإسراء آية رقم (١١٠) .
(٥) انظـر فيما سبق: مدارج السالكين لابن القيم (٣٨/١-٣٩) ، بدائع الفوائد لابن القيم (١٦٩/١) ، تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالله (ص ٤٤) ، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد للشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/ ٢٥٣) ، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (ص ١٧) .
(٦) كذا بالأصل ولعل الصواب حذف كلمة : لها .

بها من سلطان - أي من كتاب وحجة - فإن الله تعالى لم يأمر أحدا بأن يعبد أحداً غيره ، ولم يجعل لغيره شركاء في إلهيته ''[١] .

ومـن هـذا الـنص يتبين لنا أن وقوعهم في الشرك ليس لأجل التسمية فقط بل لما تتضـمنه - مع ذلك - تلك الأسماء من أوصاف يختص بها الله عز وجل ، ولا ريب أن من فعل ذلك فإنه يكون مشركاً الشرك الأكبر .

ثالثاً الشرك في **الألوهية** : وهو تسوية غير الله تعالى بالله في العبادة ، أو شيء منها ، وبعـبارة أخرى هو صرف أي عبادة لغير الله عز وجل[٢] ، فإن هذا يتضمن تسوية لغير الله عز وجل به فيما يجب له وحده من أنواع العبادة[٣] .

وهـذا الشرك هو الذي وقعت فيه أكثر الأمم السابقة من قوم نوح ﷺ ، وهم الذين ابتدعوه ، إلى قوم نبي الله إبراهيم ﷺ ، إلى مشركي العرب في الجاهلية الذين بعث فيهم نبينا محمد ﷺ ، وهو الشرك الذي وقع فيه كثير من الناس قبل زمن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وبعده ، كما هو حاصل في زماننا هذا من عباد القبور .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فأما الشرك في الإلهية فهو أن يجعل لله نداً ، أي مثلاً في عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه أو إنابته ، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾[٤] ، وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب ؛ لأ م أشركوا في الإلهية ، قال الله تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٦٦/٧) .
(٢) انظر: القول السديد لابن سعدي (ص ٥٧) .
(٣) انظر: تسع رسائل في التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب - ضمن مجموعة التوحيد (ص ٢٦٦) ، القول السديد لابن سعدي (ص ٢٩) ، الحق الواضح المبين لابن سعدي (ص ١١٥) .
(٤) سورة الأنفال آية رقم (٣٨) .

﴿ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[١] الآيــة ، وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[٢] الآية ، وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[٣] ، وقال تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[٤] ، إلى قوله ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾[٥] .

وقال النبي ﷺ لحصين[٦]: « **كم تعبد ؟** » قال: ستة في الأرض ، وواحداً في السماء ، قال: « **فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك ؟** » قال: الذي في السماء ، قال: « **ألا تسلم فأعلمك كلمات** » ، فأسلم ، فقال النبي قل: « **اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي** »[٧] .

وأما الربوبية فكانوا مقرين بما قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٨] ، وقال: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾[٩] إلى قوله: ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[١٠] ، وما اعتقد أحد منهم قط أن

---

(١) سورة البقرة آية رقم (١٦٥) .
(٢) سورة الزمر آية رقم (٣) .
(٣) سورة ص آية رقم (٥) .
(٤) سورة ق آية رقم (٢٤) .
(٥) سورة ق آية رقم (٢٦) .
(٦) حصـين بن عبيد الخزاعي ، والد عمران بن حصين ، روى عنه ابنه حديثاً في إسلامه وفي الدعاء . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٣٣٢/١) ، الإصابة لابن حجر (٣٣٦/١) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ١٧٠) .
(٧) رواه أحمد (٤٤٤/٤) ، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٢٤٦/٦-٢٤٧) (١٠٨٣٠-١٠٨٣٢) كلاهما مع اخـتلاف في ألفاظه بدون الأسئلة في أوله ، والترمذي في الدعوات باب جامع الدعوات ، (٤٨٥/٥) ح(٣٤٨٣) بنحوه والطـبراني في الكـبير (١٧٤/١٨) بنحوه كلهم عن عمران بن حصين ﷺ . وقال الترمذي: هذا حديث غريب ، وقال الحـافظ ابـن حجر في الإصابة (٣٣٦/١) عن رواية أحمد والنسائي : إسناده صحيح . وقال عن رواية النسائي : وسنده صحيح من الطريقين .
(٨) سورة الزمر آية رقم (٣٨) .
(٩) سورة المؤمنون آية رقم (٨٤-٨٥) .
(١٠) سورة المؤمنون آية رقم (٨٩) .

الأصنام هي التي تنـزل الغيث وترزق العالم وتدبره ، وإنما كان شركهم كما ذكرنا اتخذوا من دون الله أنداداً يحبو م كحب الله ، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله تعالى فقد أشرك ، وهذا كقوله: ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1] وكذا من خاف أحداً كما يخاف الله أو رجاه كما يرجو الله وما أشبه ذلك ''[2] .

والشرك في الألوهية ثلاثة أنواع : شرك في العبادة والتأله ، شرك في الطاعة والانقياد ، شرك في الإيمان والقبول .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذه الأنواع فقال: '' الإشراك في هذه الأمة أخفى مـن دبيب النمل ، دع جليله وهو: شرك في العبادة والتأله ، وشرك في الطاعة والانقياد ، وشرك في الإيمان والقبول ''[3] .

الـنوع الأول : شـرك العبادة والتأله : وهو أنواع كثيرة جداً يتنوع بحسب أنواع العبادات ، فكل من صرف شيئاً منها لغير الله تعالى فقد وقع في هذا الشرك ، فمن ذلك:

الـتوكل علـى غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[4] .

ومـنه الخوف ، وهو أن يخاف العبد غير الله أن يصيبه بمكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[5] .

---

(١) سورة الشعراء آية رقم (٩٦-٩٨) .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩١/١-٩٢) .
(٣) المصدر السابق (٩٧/١) .
(٤) سورة آل عمران آية رقم (١٢٢) .
(٥) سورة آل عمران آية رقم (١٧٥) .

ومنه الصلاة والركوع والسجود ، قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾[(١)] .

ومنه النذر ، قال تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾[(٢)] .

ومنـه الذبح ، قـال تعـالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[(٣)] .

ومـنـه الـتوبـة ، قـال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[(٤)] .

ومـنـه الطـواف ، قـال تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾[(٥)(٦)].

ولكن أبرز أنواع الشرك في العبادة والتأله ثلاثة :

النوع الأول شرك المحبة : وهو أن يحب غير الله كما يحب الله عز وجل ، فمن فعل ذلـك فقـد جعل محبوبه نداً لله تعالى ، ويستوي في هذا الأمر جميع المحبوبات من الأصنام والأوثان والطواغيت والنساء والأولاد والمال والجاه وغيرها ، على تفصيل سيأتي بعد قليل .

(١) سورة الكوثر آية رقم (٢) .
(٢) سورة الإنسان آية رقم (٧) .
(٣) سورة الأنعام آية رقم (١٦٢) .
(٤) سورة النور آية رقم (٣١) .
(٥) سورة الحج آية رقم (٢٩) .
(٦) انظر فيما سبق : تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب (ص ٤٠-٤١) .

فمن أحب شيئاً منها كما يحب الله عز وجل ، فقد صرف لها شيئاً من العبودية التي لا يجوز أن تصرف إلا لله ، وجعلهـا بذلك نداً لله عز وجل ، قال تعـالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾[1] .

وحقيقة العبودية هي كمال الحب مع كمال الذل كما تقدم ذلك في المبحث السابق ، ولهذا من صرف هذا الحب لغير الله عز وجل ، فقد صار مشركاً عابداً لذلك المحبوب .

وكل شرك في هذا العالم فأوله ومبدؤه من المحبة ، ولهذا يعتبر شرك المحبة الأصل الذي قامـت علـيه عبادة المشركين ، وهو أصل لما سواه من أنواع الشرك الأخرى ، فإنه لولا محبتهم للأصنام والأوثان والطواغيت ونحوها ما عبدوها من دون الله عز وجل .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " فمن أحب مخلوقاً مثل ما يحب الخالق فهو مشرك ، ويجـب الفرق بين الحب في الله ، والحب مع الله ، فالأول من تمام محبة الله تعالى وتوحيده ، والثاني شرك .

فالأول: يكون لله تعالى ، هو المحبوب لـه بذاته ، ويحب ما يحبه الرب تعالى تبعاً لمحبته فـيحب رسوله ﷺ وكتابه وعباده المؤمنين كما في الصحيحين عن أنس[2] رضي الله تعالى عـنه عـن النبي ﷺ أنه قال: « **ثلاث من كن فيه وجد ن حلاوة الإيمان من كان الله و رسـوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه كما يكره أن يلقى في النار** »[3].

---

(١) سورة البقرة آية رقم (١٦٥) .

(٢) أنـس بـن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي ، أبو حمزة ، خادم رسول الله ﷺ ، خدمه عشر سنين ، دعا له بكثرة المال والولد ، اختلف في تاريخ وفاته فقيل: سنة ٩١ وقيل:٩٢ ، وقيل: ٩٣ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٤٤/١) ، الإصابة لابن حجر (٨٤/١) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ١١٥) .

(٣) تقدم تخريجه (ص٤٠٧) .

وأمـا الحـب مع الله تعالى فهو الذي يحب محبوباً في قلبه لذاته ، لا لأجل الله تعالى كحب المشركين أندادهم ''[١] .

فإن قيل: إن الله جبل عباده على حب الشهوات من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[٢] فهل يدخل في هذا شيء من الشرك ؟

فالجـواب فيه تفصيل ، فقد تكون هذه المحبة شركية ، وقد تكون قربة وطاعة ، وقد تكـون من المباحات ، وقد تكون من المحرمات وليست شركاً أكبر بحسب ما قام في قلب العبد من التعظيم والخوف والرجاء ونحوها تجاه هذه الأمور .

ويفصـل العلامة ابن القيم رحمه الله هذه القضية فيقول: '' الحب مع الله ... نوعان: نـوع يقدح في أصل التوحيد وهو شرك ، ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام .

فالأول: كمحبة المشركين لأوثا م وأندادهم قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾[٣] وهؤلاء المشركون يحـبون أوثا م وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله ، فهذه محبة تأله وموالاة ، يتبعها الخـوف والرجاء والعبادة والدعاء ، وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله ، ولا يـتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد ، وشدة بغضها ، وبغض أهلها ، ومعادا م ومحاربتهم ،

---

(١) الرد على البكري لابن تيمية (٣٤٧/٢) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٤) .
(٣) سورة البقرة آية رقم (١٦٥) .

وبـذلك أرسل الله جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه ، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية ، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته ، فكل من عبد شيئا من لدن عرشه إلى قرار أرضه ، فقد اتخذ من دون الله إلهاً ووليا وأشرك به كائنا ذلك المعبود ما كان ، ولا بد أن تتبرأ منه أحوج ما كان إليه .

والنوع الثاني: محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيحبها محبة شهوة ، كمحبة الجائع للطعام ، والظمآن للماء ، فهذه المحبة ثلاثة أنواع:

[١] فإن أحبها لله توصلاً بها إليه ، واستعانة على مرضاته وطاعته ، أثيب عليها ، وكانت من قسم الحب لله ، فيثاب عليها ، ويلتذ بالتمتع بها ، وهذا حاله أكمل الخلق الذي حبب إليه من الدنيا النساء والطيب ، وكانت محبته لهما عونا له على محبة الله ، وتبليغ رسالته والقيام بأمره .

[٢] وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإرادته ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه ، بل نالها بحكم الميل الطبيعي ، كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك ، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه .

[٣] وإن كانت هي مقصوده ومراده وسعيه في تحصيلها والظفر بها ، وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه ، كان ظالما لنفسه متبعا لهواه .

فالأولى محبة السابقين ، والثانية محبة المقتصدين ، والثالثة محبة الظالمين"[١] .

---

(١) الروح لابن القيم (٧٤٥/٢-٧٤٦) .

من صور الشرك بالله تعالى في المحبة :

صور الشرك بالله تعالى في المحبة كثيرة ، أكتفي منها بمثالين فقط ، توضح وتبين صورة وحقيقة محبة المشركين لأندادهم ، وإن زعموا أ م يحبون الله تعالى أكثر مما يحبون غيره .

المـثال الأول: محبة العاشق لمعشوقه ، بعض صور هذه المحبة توصل العبد إلى الشرك الأكبر نسأل الله تعالى السلامة .

ويصـف ابـن القـيم هذا العشق وتلك المحبة الشركية فيقول: " فأصحاب العشق الشـيطاني لهم من تولي الشيطان والإشراك به بقدر ذلك ؛ لما فيهم من الإشراك بالله ، ولما فـا م مـن الإخلاص لـه ، ففيهم نصيب من اتخاذ الأنداد ، ولهذا ترى كثيرا منهم عبداً لذلك المعشوق ، متيماً فيه ، يصرخ في حضوره ومغيبه : أنه عبده ، فهو أعظم ذكراً له من ربـه ، وحـبه في قلبه أعظم من حب الله فيه ، وكفى به شاهداً بذلك على نفسه ، ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[1] ، فلـو خير بين رضاه ورضا الله لاخـتار رضا معشوقه على رضا ربه ، ولقاء معشوقه أحب إليه من لقاء ربه ، وتمنيه لقربه أعظـم تمنيه لقرب ربه ، وهربه من سخطه عليه أشد من هربه من سخط ربه ، يسخط ربه بمرضاة معشوقه ، ويقدم مصالح معشوقه وحوائجه على طاعة ربه ، فإن فضل من وقته فضلة وكان عنده قليل من الإيمان ، صرف تلك الفضلة في طاعة ربه ، وإن استغرق الزمان حوائج معشوقه ومصالحه صرف زمانه كله فيها ، وأهمل أمر الله تعالى ، يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس ، ويجعل لربه من ماله - إن جعل لـه - كل رذيلة وخسيس ، فلمعشوقه لبه وقلبه وهمه ووقته وخالص ماله ، وربه على الفضلة ، قد اتخذه وراءه ظهريا ، وصار لذكره نسياً ، إن قـام في خدمـته في الصلاة فلسانه يناجيه وقلبه يناجي معشوقه ، ووجه بدنه إلى القبلة ووجـه قلـبه إلى المعشوق ، ينفر من خدمة ربه حتى كأنه واقف في الصلاة على الجمر من

---

(١) سورة القيامة آية رقم (١٤-١٥) .

ثقلها عليه ، وتكلفه لفعلها ، فإذا جاءت خدمة المعشوق أقبل عليها بقلبه وبدنه ، فرحا بها ناصحا لـه فيها ، خفيفة على قلبه لا يستثقلها ولا يستطيلها .

ولا ريب أن هؤلاء من الذين اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله .

وعشـقهم يجمع المحرمات الأربع: من الفواحش الظاهرة والباطنة والإثم ، والبغي بغير الحـق والشرك بالله ما لم ينـزل به سلطانا ، والقول على الله ما لا يعلمون ، فإن هذا من لـوازم الشـرك فكل مشرك يقول على الله ما لا يعلم ، فكثيراً ما يوجد في هذا العشق من الشـرك الأكـبر ، والأصغر ، ومن قتل النفوس تغايراً على المعشوق ، وأخذ أموال الناس بالباطل ليصرفها في رضا المعشوق ، ومن الفاحشة والكذب والظلم ما لا خفاء به ''[(١)] .

وقـد نقلـت هـذا النص مع طوله لكي أوضح صورة العشق الشركي ، وأنبه على خطورته ، وما الذي يمكن أن يصل إليه صاحبه ، خصوصاً أنه يمكن أن يقع فيه العبد بدون أن يعلم ، وبالتالي يقع في الإشراك بالله عز وجل .

المثال الثاني : محبة عباد القبور للأولياء والقبور وغلوهم في ذلك ، حتى جعلوها أنداداً يعبدونها من دون الله ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم يحبون الله تعالى أكثر ، ولكن العبرة ليست بالدعوى بل بالحقيقة والعمل ، فكم من عمل يكذب قول صاحبه .

يقول ابن القيم رحمه الله : '' وترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله ، فإنه يقول : لا نحـبهم كحـب الله ، ولا نسـويهم بالله ، ثم يغضب لهم ولحرماتهم إذا انتهكت أعظم مما يغضـب لله ، ويستبشر بذكرهم ويتبشبش به ، سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم من إغاثة اللهفات وكشف الكربات وقضاء الحاجات ، وأنهم الباب بين الله وبين عباده ، فإنك ترى المشـرك يفرح ويسر ، ويحن قلبه ، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة ، وإذا

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/٢١٦) .

ذكـرت لـ ـه الله وحده ، وجردت توحيده ، لحقته وحشة وضيق وحرج ورماك بنقص الإلهـية التي لـه ، وربما عاداك ، رأينا والله منهم هذا عيانا ، ورمونا بعداو م ، وبغوا لنا الغوائل ، والله مخزيهم في الدنيا والآخرة ''[١] .

النوع الثاني من شرك العبادة والتأله: شرك الدعوة: وهو أن يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، سواء كان الطلب من ميت كأن يطلب منه حاجة أو يستغيث به أو يطلب منه الشفاعة أو نحو ذلك كما يفعله عباد القبور ، أو كان الطلب من غائب كأن يطلب منه إغاثته أو نصرته أو تفريج كربته أو نحو ذلك ، أو كان الطلب من حاضر لكن ما يطلب منه ليس في مقدور الخلق كأن يطلب منه شفاء الأمراض أو دخول الجنة أو النجاة من النار ونحو ذلك ، فإن هذه الأمور كلها من جنس عبادة الأصنام التي ذكرها الله عز وجل في كتابه عن المشركين ، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٣] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله تعليقاً على هذه الآية : '' فإذا جعل من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً كافراً ، فكيف من اتخذ من دو م من المشايخ وغيرهم أربابا ؟! ''[٤] .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣٧١/١) .
(٢) سورة العنكبوت آية رقم (٦٥) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (٧٩-٨٠) .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٧/٢٧) .

وقد أبطل الله عز وجل دعاء المخلوقات في كتابه ؛ لأن هذه المدعوة من دون الله ضعيفة ، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، فكيف تستطيع أن تجلب لمن دعاها نفعاً ، أو تدفع عنه ضراً ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢) ، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ ﴾(٤) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعليقاً على هذه الآية : '' فبين سبحانه أن من دعي من دون الله من جميع المخلوقات - من الملائكة والبشر وغيرهم - أ م لا يملكون مثقال ذرة في ملكـه ، وأنه ليس له شريك في ملكه ، بل هو سبحانه له الملك وله الحمد وهو على كل شـيء قدير ، وأنه ليس له عون يعاونه ، كما يكون للملك أعوان وظهراء ، وأن الشفعاء عنده لا يشفعون إلا لمن ارتضى ، فنفى بذلك وجوه الشرك .

وذلك أن من يدعون من دونه ، إما أن يكون مالكاً ، وإما أن لا يكون مالكاً ، وإذا لم يكـن مالكاً ، فأما أن يكون شريكاً ، وإما أن لا يكون شريكاً ، وإذا لم يكن شريكاً ،

(١) سورة الأعراف آية رقم (١٩٤) .
(٢) سورة يونس آية رقم (١٠٦) .
(٣) سورة الحج آية رقم (٧٣) .
(٤) سورة سبأ آية رقم (٢٢-٢٣) .

فأمـا يكـون معاونـاً ، وإما أن يكون سائلاً طالباً ، فالأقسام الأول الثلاثة ، وهي الملك والشركة والمعاونة منتفية ، وأما الرابع فلا يكون إلا من بعد إذنه ، كما قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾[١] ''[٢] .

ويقـول ابن القيم رحمه الله تعليقاً على هذه الآية أيضاً : '' فتأمل كيف أخذت هذه الآيـة على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك ، وسد ا عليهم أحكم سد وأبلغه ، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه ، وإلا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق قلـبه به ، وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكاً للأسباب التي ينفع با عابده ، أو شريكاً لمالكهـا ، أو ظهيراً أو وزيراً ومعاوناً له أو وجيها ذا حرمة وقدر يشفع عنده ، فإذا انتفت هـذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت ، انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده ، فنفى سـبحانه عـن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض ، فقد يقول المشرك: هي شـريكة لمالك الحق ، فنفى شركتها له ، فيقول المشرك: قد تكون ظهيراً ووزيراً ومعاوناً ، فقال:﴿ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾[٣] ، فلم يبق إلا الشفاعة ، فنفاها عن آلهتهم ، وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فهو الذي يأذن للشافع ، فإن لم يأذن لـه لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين ، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ، ومعاونته له ، فيقبل شفاعته ، وإن لم يأذن له فيها .

وأمـا هـو فكل ما سواه فقير إليه بذاته ، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه ، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه ''[٤] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢٥٥) .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٧/٦٦) .
(٣) سورة سبأ آية رقم (٢٢) .
(٤) الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/٤٦١) .

ولكـن ينبغي التنبه هنا إلى أن دعاء غير الله عز وجل فيه ما هو شرك محرم ، وفيه ما هـو محـرم ليس بشرك ، وفيه ما هو مباح ، وسأقتصر هنا على الشرك المحرم ، وله ثلاث صور:

١- الطلـب من المخلوق ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ، سواء كان هذا المخلوق حياً أو ميتاً ، حاضراً أو غائباً ، كهداية قلب ، وإطالة عمر ، وغفران ذنب ونحوها ، فهذه لا تطلب إلا من الله ، وطلبها من غيره شرك أكبر .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " مطلوب العبد إن كان من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، مثل أن يطلب شفاء مريضه من الآدميين والبهائم ، أو وفاء دينه من غير جهة معينة ، أو عافية أهله ، وما به من بلاء الدنيا والآخرة ، وانتصاره على عدوه ، وهداية قلبه وغفران ذنبه ، أو دخوله الجنة ، أو نجاته من النار ، أو أن يتعلم العلم والقرآن ، أو أن يصلح قلبه ، ويحسن خلقه ، ويزكى نفسه ، وأمثال ذلك فهذه الأمور كلها لا يجوز أن تطلب إلا من الله تعالى ، ولا يجوز أن يقول لملك ولا نبي ولا شيخ - سواء كان حيا أو ميتا - اغفر ذنبي ، ولا انصرني على عدوى ، ولا اشف مريضي ، ولا عافني أو عاف أهلي أو دابتي وما أشبه ذلك ، ومن سأل ذلك مخلوقاً كائنا من كان ، فهو مشرك بربه ، من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل التي يصورو ا على صورهم ، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه ، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ ﴾[1] الآية ، وقال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2] "[3] .

(١) سورة المائدة آية رقم (١١٦) .
(٢) سورة التوبة آية رقم (٣١) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٧/٦٧-٦٨) .

٢- الطلب من الميت ، فالميت لا يقدر على شيء ، وما يطلب وإن كان منه قادراً عليه في حياته ، لكنه بعد مماته أصبح لا يقدر على شيء ، فهو لا يقدر أن ينفع نفسه ، فكيف ينفع غيره أو يضره ، ومثال هذا طلب الدعاء من الأموات ، وكذا طلب النصرة والمال ونحوها ، فمن طلب من ميت شيئاً من ذلك فقد وقع في شرك الدعوة .

٣- الطلب من الحي الغائب ، فالغائب لا يعلم شيئاً ، ولا يقدر على نفع غيره أو ضره بدون مباشرة الأسباب ، فمن ظن أن الغائب يستطيع ذلك فقد وقع في الشرك الأكبر .

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' سؤال الميت والغائب نبياً كان أو غيره من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين ، لم يأمر الله به ، ولا رسوله ﷺ ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين .

وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين أن أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترة أو عرضت له حاجة لميت : يا سيدي فلان أنا في حسبك ، أو اقض حاجتي كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعو م من الموتى والغائبين ، ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي ﷺ بعد موته ، ولا بغيره من الأنبياء ، لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها ، وقد كانوا يقفون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال ، ويشتد البأس بم ، ويظنون الظنون ، ومع هذا لم يستغث أحد منهم بنبي ولا غيره من المخلوقين ''[(١)] .

ويقول أيضاً إجابة عن سؤال في هذه القضية : '' ومن أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب كما ذكره السائل ، ويستغيث به عند المصائب يقول: يا سيدي فلان كأنه يطلب منه إزالة ضره ، أو جلب نفعه ، وهذا حال النصارى في المسيح وأمه وأحبارهم

---

(١) الرد على البكري لابن تيمية (٢٣١/٢) .

ورهـبا م ، ومعلوم أن خير الخلق وأكرمهم على الله نبينا محمد ﷺ ، وأعلم الناس بقدره وحقه أصحابه ولم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك لا في مغيبه ولا بعد مماته ''[1] .

النوع الثالث من شرك العبادة والتأله: شرك القصد والإرادة: وهو أن يقصد بأعماله كلها غير الله تعالى ، كأن يعمل لأجل الدنيا فقط ولا ينظر إلى الآخرة ، وكأن يريد الرياء في جميع أعماله فيكون من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

وهذا شرك أكبر بين الله تعالى حكمه في كتابه ، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2][3] .

وهذه الآية مما أشكل فهمها على كثير من الناس ، حيث فهموا منها أن من كانت له إرادة في الدنيا فله هذا الوعيد .

والتحقيق بخلاف ذلك ، فالناس بحسب إراد م وأعمالهم ثلاثة أقسام :

القسـم الأول: الذين يريد الحياة الدنيا بجميع أعمالهم ، وهؤلاء الذين نصت عليهم هذه الآية ، وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين وإن زعموا ذلك ، فالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ولقائـه لا يجتمع في قلب عبد لا يريد بجميع أعماله إلا الدنيا ، وإن ظن بعض الناس أنه قد يجتمع ؛ لأن الإيمان يتنافى بصورة جذرية مع من يريد بأعماله الصالحة الدنيا فقط .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٧/٨١-٨٢) .
(٢) سورة هود آية رقم (١٥-١٦) .
(٣) انظـر فيما سبق: رسالة في أنواع التوحيد وأنواع الشرك للشيخ عبد الرحمن بن حسن - ضمن مجموعة التوحيد (ص ٣٤٧-٣٤٨) .

ولكـن قد يجتمع في القلب إقرار بالله تعالى مع إرادة الدنيا ، ولكن الإيمان ليس مجرد الإقـرار والمعرفة فقط ، كما يظنه بعض الطوائف المنحرفة ، فهو قول وعمل ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح ، ولهذا يستلزم الإيمان إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعمالـه ، فـإذا انـتفت هذه الإرادة انتفى ملزومها ، ولذلك لا يتصور وجود إيمان عند شخص يعمل الصالحات لأجل الدنيا فقط .

ومن أجل ذلك فإن من يعمل لأجل الدنيا فإنه يكون كافراً وإن زعم أنه مؤمن أو مسلم كما دلت عليه هذه الآية ونظيرها قوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾(١) ، وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾(٢) .

يقول ابن القيم رحمه الله : '' هنا أمر يجب التنبيه لـه ، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ﷺ ولقائه أبداً ، فإن الإيمان بالله والـدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله ، فحيث كان مراده با الدنيا ، فهذا لا يجامع الإيمان أبداً ''(٣) .

القسـم الثاني: الذين يريدون بأعمالهم الدار الآخرة ، وهؤلاء لا تتناولهم هذه الآية ، فلا إشكال فيهم ، فهم من المؤمنين المتقين والآيات واضحة في شأ م .

(١) سورة الإسراء آية رقم (١٨-١٩) .
(٢) سورة الشورى آية رقم (٢٠) .
(٣) عدة الصابرين لابن القيم (ص ١٦٨) .

القسـم الـثالث: الـذين يريدون بأعمالهم الدنيا والآخرة ، وهؤلاء اجتمعت فيهم الإرادتـان ، إرادة الدنـيا وإرادة الآخرة ، وحكم اجتماعهما هو كحكم اجتماع البر والفجور والطاعة والمعصية ، والإيمان والشرك في العبد .

والشـرك المقصود هنا ليس الشرك الأكبر ، بل هو الأصغر ، وصاحب هذا القسم ، يعاقـب علـى معاصيه ، ويثاب على طاعته كحكم مرتكب الكبيرة على تفصيل عند أهل العلم في جواز مغفرة الله تعالى لصاحب الشرك الأصغر [(١)].

يقـول ابـن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية '' والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار ، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه ، فإذا أحبط ما ينجو به وبطـل لم يـبق معه ما ينجيه ، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها ، بل أراد الله به والدار الآخرة ،لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل ، وأنجاه إيمانه من الخلود في الـنار ، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة ، والإيمان إيمانـان: إيمان يمنع من دخول النار ، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغى با وجهه وثوابه ، وإيمان يمـنع الخلـود في النار ، وإن كان مع المرائي شئ منه وإلا كان من أهل الخلود ، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد والله الموفق ''[(٢)] .

النوع الثاني من الشرك في **الألوهية : شرك الطاعة والانقياد** : هو أن يطيع غير الله في تحليل الحرام أو تحريم الحلال ، على تفصيل سيأتي ذكره .

---

(١) انظر فيما سبق : عدة الصابرين لابن القيم (ص ١٦٦-١٦٨) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٦٧) .

والأصل فيــه قولــه تعــالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

جاء في الحديث عن عدي بن حاتم[2] رضي الله عنه قال: قال أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ، فقـال: « **يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك** » قال: فطرحته ، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سـورة براءة فقرأ هـذه الآيـة ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[3] قال: قلت: يا رسول الله ، إنا لسنا نعبدهم ! فقال: « **أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه** » قال: قلت: بلى ، قال: « **فتلك عبادتهم** »[4].

قـال أبـو البختري[5] في تفسير هذه الآية : انطلقوا إلى حلال الله فجعلوه حراماً ، وانطلقـوا إلى حرام الله فجعلوه حلالاً ، فأطاعوهم في ذلك ، فجعل الله طاعتهم عبادتهم ، ولو قالوا لهم: اعبدونا لم يفعلوا[6].

---

(١) سورة التوبة آية رقم (٣١) .

(٢) عـدي بـن حاتم الطائي ، أبو طَريف ، صحابي مشهور أسلم سنة سبع أو تسع وثبت في الردة ، حضر فتوح العـراق وحروب علي ، مات سنة ٦٨ هـ . انظر: الكاشف للذهبي (٢٥٩/٢) ، الإصابة لابن حجر (٤٦٠/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٣٨٨) .

(٣) سورة التوبة آية رقم (٣١) .

(٤) رواه البخاري في التاريخ الكبير (١٠٦/٧) ، والترمذي في التفسير باب ومن سورة التوبة (٢٥٩/٥-٢٦٠) ح(٣٠٩٥) ، وابـن جريـر الطبري في تفسيره واللفظ له (١١٤/١٠) ، والطبراني في الكبير (٩٢/١٧) ، والبيهقي في الكبرى (١١٦/١٠) . وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث , وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (٥٦/٣) : حسن .

(٥) سعيد بن فيروز بن أبي عمران الطائي ، أبو البختري ، كوفي فقيه عالم ، ثقة ثبت ، توفي سنة ٨٣ هـ . انظر: تهذيب الكمال للمزي (٣٢/١١) ، الكاشف للذهبي (٣٧٠/١) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢٤٠) .

(٦) رواه ابن جرير في تفسيره (١١٥/١٠) .

وقـال الـربيع بن أنس(١): قلت لأبي العالية: كيف كانت الربوبية التي كانت في بني إسرائيل ؟

قال: قالوا: ما أمرونا به ائتمرنا ، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم ، وهم يجدون في كتاب الله ما أمروا به وما نهوا عنه ، فـاستنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم(٢) .

والذين يقعون في هذا الشرك من الناس أصناف متعددة نسأل الله السلامة ذكر بعضهم شيخ الإسلام ، يقول رحمه الله : " وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك وأتباع القضاة والعامة المتـبعة لهـؤلاء يشركون شرك الطاعة ، وقد قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم لما قرأ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾(٣) فقال: يا رسول الله مـا عبدوهم ؟ فقال: ((**ما عبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم**))(٤) .

فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه ، والحرام ما حرمه ، والحلال ما حلـه ، والدين ما شرعه ، إما ديناً وإما دنيا ، وإما دنيا ودينا ، ثم يخوف من امتنع من هذا الشـرك وهـو لا يخاف أنـه أشرك به شيئاً في طاعته بغير سلطان من الله "(٥) .

ويقـول رحمـه الله في موضـع آخر: " فالرسول ﷺ وجبت طاعته ؛ لأنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، ومن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة لله

---

(١) الربيع بن أنس البكري أو الحنفي ، بصري نزل خراسان ، صدوق له أوهام ، رمي بالتشيع ، توفي سنة ١٣٩ هـ. انظر: تهذيب الكمال للمزي (٦٠/٩)، الكاشف للذهبي (٣٠٣/١)، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢٠٥) .

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١١٥/١٠) .

(٣) سورة التوبة آية رقم (٣١)

(٤) تقدم تخريجه (ص ٤٨٠)

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩٨/١) .

وهم إذا أمر الله ورسوله ﷺ بطاعتهم ، فطاعتهم داخلة في طاعة الرسول ﷺ ، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾(١) .

فلم يقل وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولى الأمر منكم ، بل جعل طاعة أولى الأمر داخلة في طاعـة الرسول ﷺ ، وطاعة الرسول ﷺ طاعة لله ، وأعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعـة أولى الأمر ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، فليس لأحد إذا أمره الرسول ﷺ بأمر أن ينظر هل أمر الله به أم لا ؟

بخلاف أولى الأمر ، فإ م قد يأمرون بمعصية الله ، فليس كل من أطاعهم مطيعا لله ، بـل لابـد فيما يأمرون به أن يعلم أنه ليس معصية لله ، وينظر هل أمر الله به أم لا ؟ سواء كـان أولى الأمر من العلماء أو الأمراء ، ويدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة أمراء السرايا وغـير ذلك ، وبذا يكون الدين كله لله ، قال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾(٢) .

وقال النبي ﷺ لما قيل له: يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال: « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو** في **سبيل الله** »(٣).

ثم إن كثيرا من الناس يحب خليفة أو عالماً أو شيخاً أو أميراً فيجعله ندا لله ، وان كان قد يقول: إنه يحبه لله .

(١) سورة النساء آية رقم (٥٩) .
(٢) سورة الأنفال آية رقم (٣٩) .
(٣) رواه البخاري في الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (١٠٣٤/٣-١٠٣٥) ح(٢٦٥٥) ، ومسلم في بـاب مـن قاتـل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٥١٣/٣) ح(١٩٠٤) كلاهما عن أبي موسى رضي الله عنه واللفظ لمسلم .

فمن جعل غير الرسول ﷺ تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه وإن خالف أمر الله ورسـوله ﷺ فقـد جعله نداً ، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح ، ويدعوه ويسـتغيث به ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه مع إيجابه طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحللـه ويحرمه ، ويقيمه مقام الله ورسوله ﷺ ، فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه في قـوله تعـالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾[1]"[2].

ولكـن ينبغي أن يعلم أن طاعة غير الله تعالى في معصيته يتفاوت الحكم فيها بحسب حال الفاعل ، فتارة تكون شركاً أكبر ، وتارة لا تكون .

وقد فصل شيخ الإسلام هذه القضية يقول رحمه الله :" وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهـبا م أربابـاً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

أحـدهما: أن يعلموا أ م بدلوا دين الله ، فيتبعو م على التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حـرم الله ، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أ م خالفوا دين الرسل ، فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم ، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله ﷺ مشركاً مثل هؤلاء .

---

(١) سورة البقرة آية رقم (١٦٥) .

(٢) شرح دعوة ذي النون - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/٢٦٦-٢٦٧) .

والثاني: أن يكـون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً[١] ، لكنهم أطاعـوهم في معصـية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص ، فهـؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((**إنما الطاعة** في **المعروف**))[٢] وقال: ((**على المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما** لم **يؤمـر** ب**معصية**))[٣]، وقال: ((**لا طاعة** ل**مخلوق** في **معصية الخالق**))[٤]، وقال: ((**من أمركم** ب**معصية الله فلا تطيعوه**))[٥] .

ثم ذلـك المحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول ﷺ لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر ، وقد اتقى الله ما استطاع ، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه ، ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ﷺ

---

(١) هذا محمول على أن المراد أن اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابت ، أي: ثابت عندهم أنه كفر لا يجوز ، لكن أطاعوهم في المعاصي ؛ لأن هذا ما تدل عليه النصوص وهو مراد الشيخ رحمه الله في هذا الموضع وفي غيره من كتبه كما قرره ووضحه . أفاده شيخنا الشيخ عبدالعزيز الراجحي حفظه الله .

(٢) رواه الـبخاري في الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (٢٦١٢/٦-٢٦١٣) ح(٦٧٢٦) ، ومسلم في الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٤٦٩/٢) ح(١٨٤٠) كلاهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلفظه .

(٣) رواه البخاري في الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (٢٦١٢/٦) ح(٦٧٢٥) ، ومسلم في الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٤٦٩/٣) ح(١٨٣٩) كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنه مع اختلاف يسير في ألفاظه .

(٤) رواه ابـن أبي شـيبة (٥٤٥/٦) ح(٣٣٧١٧) بلفظه عن الحسن مرسلاً ، ورواه أبو داود الطيالسي (ص ١١٥) وأحمـد (٦٦/٥) ، والطـبراني في الكبير (١٦٥/١٨) بلفظ ((الله)) كلهم من حديث عمران بن حصين والحكم بن عمر رضي الله عنهما ، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢٢/١٠) من حديث أنس رضي الله عنه بلفظه . وقال الهيثمي في المجمع (٢٢٦/٥) : ورجال أحمد رجال الصحيح ، وقال الألباني عن رواية أحمد في حاشية شرح السنة للبغوي (٤٤/١٠) : إسناده صحيح .

(٥) رواه ابـن أبي شيبة (٥٤٣/٦-٥٤٤) ، ح(٣٣٧٠٨) ، وأحمد (٦٧/٣) ، وابن ماجة في الجهاد ، باب لا طاعة في معصـية الله (٩٥٥/٢) ح(٢٨٦٣) ، وابن حبان كما في الموارد (ص٣٧٣- ٣٧٤) ح(١٥٥٢) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مع اختلاف يسير فيه ، وقال البوصيري في زوائد ابن ماجة كما في السنن : إسناده صحيح .

ثم اتبعه على خطئه ، وعدل عن قول الرسول ، فهذا لـه نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله ، لا سـيما إن اتبع في ذلك هواه ، ونصره باللسان واليد مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه ''[1] .

النوع الثالث من الشرك في **الألوهية : شرك الإيمان والقبول** : وهو أن يسوي غير الله بـالله في التصـديق والقـبول والتلقي ، وهذا ما يقع فيه الغلاة في الأشخاص ، حيث يصـدقون ويقبلون أقوال متبوعيهم مطلقاً بغير برهان من الله عز وجل ، فهذا يعتبر تسوية لغير الله تعالى بالله ، حيث صرف لهذا الشخص ما يجب أن يصرف لله عز وجل .

ولا يـدخل في هـذا مـن يخبر عن الله عز وجل ممن شرع الله تصديقه من المرسلين والعلماء المبلغين ؛ لأن المرسلين قد شرع الله لنا تصديقهم ، قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾[2] .

والعلمـاء الصادقون إنما يستندون في كلامهم على ما جاء في الكتاب والسنة فهم في الحقيقة متبعون للأنبياء لا يتكلمون إلا بسلطان من الله جل وعلا .

ويقع في هذا الشرك كثير من أتباع المتكلمين والمتفلسفين بل وبعض المتفقهة والمتصوفة وبعض أتباع الملوك والقضاة ، فإ م يقبلون أقوال متبوعيهم ويصدقو م في كل ما يخبرون به في الاعـتقادات ، مـن حيث التصحيح والإفساد ، أو من حيث مدح أصحابا أو ذمهم ، وكل ذلك بغير برهان من الله عز وجل .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا الشرك : '' وأما الشرك الثالث فكثير من أتباع المـتكلمة والمتفلسفة ، بل وبعض المتفقهة والمتصوفة ، بل وبعض أتباع الملوك والقضاة يقبل

(١) كتاب الإيمان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧/٧٠-٧١) .
(٢) سورة النساء آية رقم (٨٠) .

قـول متـبوعه فيما يخبر به من الاعتقادات الخبرية ، ومن تصحيح بعض المقالات وإفساد بعضـها ، ومـدح بعضها وبعض القائلين ، وذم بعض ، بلا سلطان من الله ، ويخاف ما أشـركه في الإيمان والقبول ، ولا يخاف إشراكه بالله شخصاً في الإيمان به وقبول قوله بغير سـلطان من الله ، وبذا يخرج من شرع الله تصديقه من المرسلين والعلماء المبلغين والشهداء الصـادقين وغـير ذلـك ، فباب الطاعة والتصديق ينقسم إلى مشروع في حق البشر وغير مشروع ''[١] .

وبـذا ينتهـي الكـلام على الشرك الأكبر وأنواعه ، وأنتقل بعد ذلك إلى الشـرك الأصغر .

ثانـياً الشـرك الأصغر : وقد عرف بأنه كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة[٢] .

ومـن خلال هذا التعريف يتبين لنا أن الشرك الأصغر يعتبر من وسائل وذرائع الشرك الأكبر ، فعند وقوع العبد فيه يخشى عليه أن يصل إلى الشرك الأكبر الذي لا يغفر .

وهـذا الشرك يدخل في باب الإرادات كمن يحب مع الله تعالى غيره كمحبة العاشق لمعشـوقة التي لم تصل إلى درجة الشرك الأكبر التي مثل لها سابقاً ، وكمن أراد بعمله غير وجه الله ، ونوى شيئاً غير التقرب إليه سواء كانت نيته مدح الناس وثناءهم ، أو رجاء لمال أو رئاسة أو غيرها .

ويدخل هذا الشرك في الأقوال والألفاظ كقول : ما شاء الله وشئت ، وكالحلف بغير الله تعالى ، وقول القائل : لولا الله وفلان ونحوها من العبارات .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩٨/١) .

(٢) القول السديد لابن سعدي (ص٥٣) .

ويدخل هذا الشرك في باب الأعمال كلبس الحلقة والخيط ونحوها لرفع البلاء أو دفعه مـع اعتقاد أ ا سبب في ذلك ، وكذا لبس التمائم مع اعتقاد أ ا سبب في اتقاء العين ونحو هذه الأمور .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأما الشرك الخفي فهو الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه ، مثل أن يحب مع الله غيره .

فـإن كانت محبته لله مثل حب النبيين والصالحين والأعمال الصالحة فليست من هذا الـباب ؛ لأن هـذه تدل على حقيقة المحبة ؛ لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه ، ويكره ما يكرهه ، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته ؛ لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة ، ويـدل على نقص المحبة قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾(١) الآية ، فليس الكلام في هذا .

إنمـا الكلام في محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى ، فهذا لا شك أنه نقص في توحيد المحبة لله ، وهو دليل على نقص محبة الله تعالى ، إذ لو كملت محبته لم يحب سواه ....

وكـذا الخوف والرجاء وما أشبه ذلك ، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئا سـواه ، قـال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ ﴾(٢) ، وإذا نقـص خوفه خاف من المخلوق ، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف ، كما ذكرنا في المحبة ، وكذا الرجاء وغيره ، فهذا هو الشرك الخفي الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه إلا من عصمه الله تعالى ''(٣) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (٣١) .
(٢) سورة الأحزاب آية رقم (٣٩) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/٩٣-٩٤) .

وقـد أشار شيخ الإسلام رحمه الله في هذا النص إلى نوع من الشرك الأصغر ، وهو الشـرك الخفي ، ومثل لـه بالمحبة مع الله والخوف والرجاء ، فإذا تعلق قلب العبد بالمحبة أو الخوف أو الرجاء بغير الله تعالى ، فإنه ينقص من محبته لله تعالى وخوفه ورجائه بقدر تعلقه ، ويكون فيه من الشرك الخفي بقدر ما فيه من التعلق .

ويقـول العلامة ابن القيم رحمه الله : '' وأما الشرك الأصغر فكيسـير الرياء والتصنع للخلـق والحلـف بغـير الله ، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((**من حلف بغير الله فقد أشـرك**))[١]، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، ومالي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا ، وقـد يكون هذا شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده ، وصح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال لـه: ما شاء الله وشئت : ((**أجعلتني لله نداً ؟ قل: ما شاء الله وحده**))[٢]، وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ ''[٣] .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كلامه قضية مهمة ، وهي أن الشرك الأصغر قد يصير شركاً أكبر بحسب قصد صاحبه ، فإن اعتقد مثلاً تساوي مشيئة العبد مع مشيئة الله تعالى ، أو تـوكل على العبد كما يتوكل على الله تعالى أو نحو هذا فقد عدل بالله تعالى غيره ووقع في الشرك الأكبر .

وقـبل الانتقال إلى قضية السببية في الشرك أشير إلى مسألة في هذا الباب وهي مغفرة الشرك الأصغر ، بمعنى هل يغفر الله عز وجل لصاحب الشرك الأصغر أو لا ؟

---

(١) رواه أبـو داود الطيالسي (ص ٢٥٧) ، وأحمد (٦٩/٢ ، ٨٦ ، ١٢٥) ، وأبو داود في الأيمان والنذور ، باب في كراهية الحلف بالآباء (٥٧٠/٣) ح(٣٢٥١) ، والترمذي في النذور والأيمان ، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (٩٣/٤-٩٤) ، ح(١٥٣٥) ، وابـن حبان كما في الموارد (ص ٢٨٦) ح(١١٧٧) كلهم من حديث ابن عمر رضي الله عنه بلفظه ، وقـال الترمذي : هذا حديث حسن ، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٦٢٧/٢) : صحيح .

(٢) تقدم تخريجه (ص ٤٥٥) .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣٧٣/١) .

في هذه المسألة قولان: الأول: أنه لا يغفر ، وصاحبه يتقرر مصيره بحسب الموازنة بين الحسـنات والسيئات ، فإن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، وإلا عذب عليه وإن أدخل الجنة بعد ذلك .

ومأخـذ هـذا القول النصوص الواردة في عدم مغفرة الشرك ، وهي نصوص عامة فيدخل فيها الأكبر والأصغر .

والقول الثاني : أنه يغفر ، وأن حكمه كحكم كبائر الذنوب وإن كان أكبر منها إلا أنـه تحت مشيئة الله تعالى إن شاء غفر لصاحبه وإن شاء عذبه ، ثم يدخل بعد ذلك إلى الجنة .

والذي ظهر لي من كلام شيخ الإسلام رحمه الله فيما وقفت عليه من مؤلفاته أنه ينصر القول الأول .

يقـول رحمـه الله: ‘‘ وقـد يقال: الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر على مقتضـى عمـوم القرآن ، وإن كان صاحب الشرك الأصغر يموت مسلماً ، لكن شركه لا يغفر له بل يعاقب عليه ، وإن دخل بعد ذلك الجنة ’’[١] .

أمـا العلامـة ابن القيم رحمه الله ، فما وقفت عليه من كلامه أن يدل على أنه ينصر القول الثاني .

يقـول رحمه الله عن أهل الشرك : ‘‘ وشركهم قسمان: شرك خفي ، وشرك جلي ، فالخفي قد يغفر ، وأما الجلي فلا يغفره الله تعالى إلا بالتوبة منه ’’[٢] .

---

(١) الرد على البكري لابن تيمية (١٤٧/١) .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣٠٨/١) .

السببية في الشرك :

إن بحث السببية في الشرك باعتباره من الأسباب الممنوعة يندرج فيه قضيتان:

إحداهما: سبب حصول الشرك في الأرض ، والأخرى: سببية الشرك المعينة .

أما **القضية الأولى** : وهي سبب حصول الشرك في الأرض ، فمعلوم أن الناس كانوا على التوحيد من لدن نبي الله آدم عليه الصلاة والسلام ، واستمروا على ذلك مدة طويلة قدرها بعض السلف بعشرة قرون كما قال تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[2] فقد كان الناس أمة واحدة على ملة واحدة ودين واحد ثم اختلفوا فبعث الله النبيين .

قال ابن عباس رضي الله عنه: '' كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ''[3] .

وإذا تقرر هذا فكيف حدث الشرك ، وما هي أسباب حدوثه ؟

قـبل الـبدء في ذكر أسباب حدوث الشرك ينبغي أن أنبه إلى قضية مهمة في أسباب الشرك ، وهي أنه لم يكن حدوث الشرك ناتجاً عن سبب واحد فقط ، بل هو نتاج مجموعة مـن الأسـباب تضافرت فيما بينها وتشابكت وأدت إلى حدوث الشرك ، وفيما يلي أبرز أسباب الشرك :

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢١٣) .

(٢) سورة يونس آية رقم (١٩) .

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبري (٣٣٤/٢) .

١- الغلـو في المخلوق : يعتبر هذا السبب من أبرز أسباب الشرك ، وهو متقدم على غيره من الأسباب ، وملازم للشرك ملازمة تامة ، فإنك لا تجد طائفة ولا جماعة مشركة إلا وتجد عندهم تعظيماً وغلواً فيمن يشركون به ، ولولا الغلو في الصالحين لما صوروهم ، ولما عبدوهم من دون الله عز وجل .

وشـرك قـوم نوح ، وهو أول شرك حدث في هذه الأرض ، كانت بدايته الغلو في الصـالحين ، فقـد كان في ذلك الوقت رجال صالحون ، وهم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسـر ، كما ذكر الله تعالى أسماءهم في القرآن قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[1]، فلما ماتوا غلا فيهم أصحابهم ، وزين لهم الشيطان تصويرهم ، فلما تقادم العهد ، وتطاول الزمن بهم عبدوهم من دون الله .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية : "صارت الأوثان التي كانت في قـوم نـوح في العرب بعد ، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل[2] ، وأما سواع كانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجوف[3] عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت "[4] .

وبذلك كان الغلو مع التصوير سبب حصول الشرك بالله تعالى عند الناس .

---

(١) سورة نوح آية رقم (٢٣) .

(٢) دومة الجندل : حصن وقرى بين المدينة المنورة وبلاد الشام وهي الآن في السعودية تسمى مدينة الجوف . انظر: معجم البلدان للحموي (٤٨٧/٢) ، المنجد في الأعلام (ص ٢٠٧) .

(٣) الجوف : مدينة في اليمن ، مركز قضاء بمحافظة صنعاء . انظر: المنجد في الأعلام (ص ٢٠٧) .

(٤) رواه البخاري في التفسير باب ولا تذرن ودا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق (١٨٧٣/٤) ح(٤٦٣٦) .

وبسبب الغلو كان شرك النصارى ، فإ م يعبدون المسيح من دون الله تعالى غلوا فيه ورفعاً له فوق م لته .

وبسـبب الغلـو كـان شـرك طائفة من هذه الأمة الذين يعبدون رسول الله ﷺ ، ويصـرفون لـه من أنواع العبادة ما لا يجوز صرفه إلا لله عز وجل ، يقول النبي ﷺ : ((**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا: عبدالله ورسوله**))[1] .

وبسـبب الغلو كان شرك عباد القبور الذين غلوا في الصالحين ورفعوهم فوق م لتهم وصرفوا لهم من العبودية ما لم يصرفوه لله سبحانه وتعالى .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في ذكر أسباب المروق من الإسلام والسنة : '' المنتسب إلى الإسلام أو السنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام والسنة ، حتى يدعي السنة من ليس من أهلها بل قد مرق منها ، وذلك بأسباب: منها الغلو الذي ذمه الله تعالى في كتابـه حيث قـال: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ ﴾ إلى قولـه: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[3] ،

---

(١) رواه الـبخاري في الأنبياء باب ﴿ واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مريم إِذِ انتبذَت مِن أهلِها﴾ (١٢٧١/٣) ح(٣٢٦١) عن عمر رضي الله عنه بلفظه .

(٢) سورة النساء آية رقم (١٧١) .

(٣) سورة المائدة آية رقم (٧٧) .

وقال النبي ﷺ : ((**إياكم والغلو** في **الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو** في **الدين**))[(١)] وهو حديث صحيح ''[(٢)] .

ويقول في موضع آخر تعليقاً على هذا الحديث: '' وقوله: ((**إياكم والغلو** في **الدين**)) عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال ، والغلو هو مجاوزة الحد بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك ''[(٣)] .

ويقـول ابن القيم رحمه الله : '' من أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق وإعطاؤه فـوق م لته حتى جعل فيه حظ من الإلهية ، وشبهوه بالله سبحانه ، وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم الذي أبطله الله سبحانه وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله ''[(٤)] .

ويقـول في موضع آخر عن المشـركين : '' وغرهم الشيطان فقال: بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين ، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً وأشد فيهم غلوا كنتم بقربهم أسعد ومن أعدائهم أبعد .

ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ونسر ، ومنه دخل على عـباد الأصـنام مـنذ كانوا إلى يوم القيامة ، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طـريقتهم ، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم ، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبوديـة ، وسـلب خصائص الإلهية عنهم ، وهـذا غاية تعظيمهم وطاعتهم ''[(٥)] .

---

(١) رواه النسـائي في الكبرى في الحج باب التقاط الحصى (٤٣٥/٢) ح(٤٠٦٣) ، وفي ا تبى في مناسك الحج (٥/ ٢١٨) ، وابـن ماجة في المناسك باب قدر حصى الرمي (١٠٠٨/٢) ح(٣٠٢٩) ، وابن حبان كما في الموارد (ص ٢٤٩) ح(١٠١١) ، والطبراني في الكبير (١٥٦/١٢) ، كلهم عن ابن عباس رضي الله عنه بلفظه .

(٢) الوصية الكبرى لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٨٣/٣) .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٢٨٩/١) .

(٤) إغاثة اللهفان لابن القيم (٣٢٢/٢) .

(٥) المصدر السابق (٢٩٧/١) .

٢- العكـوف علـى القبور ، واتخاذها مساجد ، وهذا السبب يعتبر جزء سبب من أسباب عبادة الأصنام ، فإن قوم نوح لما غلوا في الصالحين عكفوا على قبورهم ، ولم يكونوا يعـبدو م في البداية ، بل كانوا يعبدون الله تعالى عندها ، ثم بعد ذلك عبدت من دون الله عز وجل .

وبسبب العكوف على القبور وبناء المساجد عليها كان شرك اليهود والنصارى ، فإ م كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً .

وشابهم في هذا طوائف من المنتسبين إلى الإسلام ، كما هو حاصل في زماننا هذا في العالم الإسلامي فإن الرجل إذا مات يوصي أن يبنى على قبره مسجداً ، أو يدفن في مسجد قد بناه في حياته .

وهـذا كلـه من أسباب الشرك التي من أجلها ى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد يقول ﷺ : ((**قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**))[(١)] ، وقال ﷺ في مرضه الذي مات فيه: ((**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**))[(٢)] وقال أيضاً : ((**ألا وإن مـن كـان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أناكم عن ذلك**))[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في المساجد ، باب الصلاة في البيعة (١٦٨/١) ح(٤٢٦) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، بـاب النهـي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٣٧٦/١) ح(٥٣٠) كلاهما عن أبي هريرة ﷺ بلفظه .

(٢) رواه البخاري في المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (١٦١٥/٤) ح(٤١٧٩) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصـلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٣٧٦/١)ح(٥٢٩) كلاهما عن ابن عباس ﷺ ، واللفظ للبخاري .

(٣) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٣٧٧/١-٣٧٨) ح(٥٣٢) من حديث جندب ﷺ بلفظه .

٣- التصـوير ، وهذا السبب يعتبر مكملاً للأسباب السابقة ، فإنه بعد غلو الناس في المخلـوق ، وعكـوفهم علـى القبور ، جاءهم الشيطان وزين تصويرهم ، ونصب تلك التصـاوير في مجالسـهم ؛ لكـي يروهم ويكون ذلك داعياً لهم إلى تذكرهم والاقتداء بهم والاجتهاد في العبادة ، ففعلوا ذلك ، وبذا انتقلوا إلى مرحلة التعظيم بالتصوير ، ثم لما طال العهد وقل العلم عبدت تلك التصاوير والأصنام من دون الله .

وهذا كان سبب شرك قوم نوح ، فإنهم نصبوا الأصنام لكي تذكرهم بالصالحين ، ثم بعد ذلك عبدت تلك الأصنام من دون الله عز وجل ، وهذا أيضاً سبب شرك النصارى كما في الحـديث عـن النبي ﷺ : ((أن أم سلمة[1] ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشـة يقال لها: مارية فذكرت لـه ما رأت فيها من الصور ، فقال رسول الله ﷺ : ((**أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله**))[2].

ومن أجل هذا وسداً لذريعة الشرك نهى النبي ﷺ عن التصوير وحذر منه في أحاديث كثيرة ، فعن أبي الهياج الأسدي[3] قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ((**أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته**))[4].

---

(١) هـند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية ، أم سلمة ، أم المؤمنين ، تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة ، سنة أربع أو ثـلاث ، وعاشت بعد ذلك ستين سنة ، توفيت سنة ٦٢ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٤٠٥/٤) ، الإصابة لابن حجر (٤٠٧/٤) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٤٥٤) .

(٢) رواه البخاري في المساجد ، باب الصلاة في البيعة (١٦٧/١) ح(٤٢٤) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، بـاب النهـي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٣٧٥/١) ح(٥٢٨) كلاهما عن عائشة رضي الله عنها ، واللفظ للبخاري .

(٣) حـيان بن حصين ، أبو الهياج الأسدي الكوفي ، ثقة روى عن عمر وعلي . انظر: الكاشف للذهبي (٢٦٢/١) ، تهذيب التهذيب لابن حجر (٥٩/٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ١٨٤) .

(٤) رواه مسلم في الجنائز ، باب الأمر بتسوية القبر (٦٦٦/٢) ح(٩٦٩) بلفظه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وأصل الشرك في بنى آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين ، فإ م لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

فهذا أول شرك كان في بني آدم ، وكان في قوم نوح ، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ ﴾[(١)]، وهذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح ، فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ، ثم ذهبت هذه الأصنام لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره ، إن لم تكن أعيا ا وإلا فهي نظائرها "[(٢)(٣)].

ويقـول ابـن القيم رحمه الله : " وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسـباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم ، فطائفة دعاهم إلى عباد ا من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم ، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ولهـذا لعن النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، و ى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد ، و ى أمته أن يتخذوا قبره عيـداً ، وقـال: ((**اشـتد غضـب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**))[(٤)]، وأمر بتسوية القبور ،

(١) سورة نوح آية رقم (٢٣-٢٤) .

(٢) الحسنة والسيئة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٦٣/١٤) .

(٣) وللاسـتزادة انظـر: الـرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٢٨٥) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٤٧٦/١) ، الجواب الصحيح لابن تيمية (٧٤/٥) .

(٤) رواه مالك في الموطأ (١٧٢/١) ح(٤١٤) ، وابن أبي شيبة (١٥٠/٢ ، ٣٠/٣) ح(٧٥٤٤) ح(١١٨١٩) كلهم مرسـلاً بلفظه ، ورواه ابن عبدالبر في التمهيد (٤٢/٥-٤٣) مسنداً من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ، وقال: فهذا الحـديث صـحيح عند من قال بمراسيل الثقات ، وعند من قـال بالمسند ؛ لإسناد عمر بن محمد له ، وهو ممن تقبل زيادته .

وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله إما جهلاً وإما عناداً لأهل التوحيد ولم يضرهم ذلك شيئاً ، وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين ''[١].

٤- تعظـيم الكـواكب والـنجوم ، وهذا السبب أحد أسباب الشرك عند خواص المشـركين ، وهو سبب شرك قوم نبي الله إبراهيم ﷺ ، فقد كان لديهم تعظيم للكواكب والـنجوم إلى درجـة أن جعلوا لكل كوكب صنماً على هيئة معينة تناسب روحانية ذلك الكـوكب في زعمهـم ، وكانـوا يظنون أ ا أحياء ناطقة ، ولها روحانيات تتنـزل على عابديها ؛ لذلك شرعوا يتقربون لها بأنواع متنوعة من العبادات تناسبها في ظنهم ، وجعلوا لها بيوتاً وسدنة وحجاباً وحجاً وقرباناً .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في أسباب الشرك : '' والسبب الثاني: عبادة الكواكب ، فكانوا يصنعون للأصنام طلاسم للكواكب ، ويتحرون الوقت المناسب لصنعة ذلك الطّلسم ويصـنعونه من مادة تناسب ما يرونه من طبيعة ذلك الكوكب ، ويتكلمون عليها بالشرك والكفر ، فتأتي الشياطين فتكلمهم وتقضي بعض حوائجهم ، ويسمو ا روحانية الكواكب وهي الشيطان أو الشيطانة التي تضلهم ''[٢] .

ويقـول ابـن القـيم رحمه الله عن أصحاب هذا الشرك : '' وهم المشركون حقاً ، والأصـنام التي كانوا يعبدو ا كانت صوراً وتماثيل للكواكب ، وكانوا يتخذون لها هياكل وهي بيوت العبادات لكل كوكب منها هيكل فيه أصنام تناسبه ، فكانت عباد م للأصنام وتعظـيمهم لها تعظيماً منهم للكواكب التي وضعوا الأصنام عليها وعبادة لها ، وهذا أقوى السببين في الشرك الواقع في العالم ، وهو الشرك بالنجوم وتعظيمها واعتقاد أ ا أحياء ناطقة ولهـا روحانـيات تتـ ل على عابديها ومخاطبيها ، فصوروا لها الصور الأرضية ، ثم جعلوا عباد ا وتعظيمها ذريعة إلى عبادة تلك الكواكب واست ال روحانيا ا ، وكانت الشياطين

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (٣١٤/٢-٣١٥) .

(٢) الرد على المنطقيين (ص ٢٨٦) .

تتـنـزل عليهم وتخاطبهم وتكلمهم وتريهم من العجائب ما يدعوهم إلى بذل نفوسهم وأولادهم وأموالهم لتلك الأصنام والتقرب إليها .

وكـان مـبدأ هذا الشرك تعظيم الكواكب وظن السعود والنحوس وحصول الخير والشـر في العـالم مـنها وهذا شرك خواص المشركين وأرباب النظر منهم وهو شرك قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام "[1] .

وقـد أشار شيخ الإسلام والعلامة ابن القيم رحمهما الله في النصين السابقين إلى قضية مهمـة وهـي أنه لم يكن هؤلاء المشركون يعبدون الأصنام لذوا ا ، بل كانت تمثل لديهم الكواكب فالعبادة كانت موجهة للكواكب بالدرجة الأولى ، وتعظيم الأصنام والتقرب إليها كان تبعاً لتعظيم الكواكب والنجوم .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن هذا الأمر ينطبق على كل عباد الأصنام ، فالأصنام لم تعـبد لذا ا ، بل لأسباب اقتضت ذلك ، فمثلاً قوم نوح كانوا يعبدون الأصنام ليس لذا ا بل تبعاً لتعظيم الصالحين ، وكذلك مشركو العرب وغيرهم .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : " المقصود أن أصل الشرك في العالم كان من عبادة البشر الصالحين وعبادة تماثيلهم وهم المقصودون .

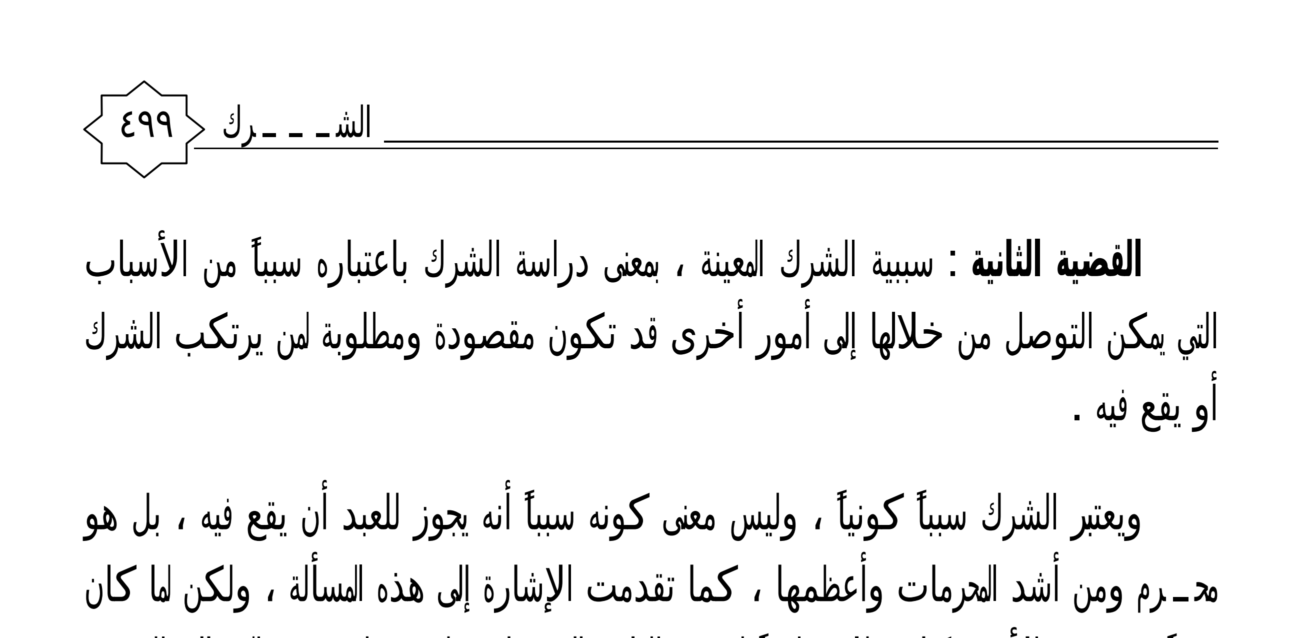
ومـن الشـرك ما كان أصله عبادة الكواكب إما الشمس وإما القمر و إما غيرهما ، وصورت الأصنام طلاسم لتلك الكواكب ، وشرك قوم إبراهيم والله أعلم كان من هذا أو كان بعضه من هذا .

ومـن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن ، وضعت الأصنام لأجلهم ، وإلا فنفس الأصنام الجمادية لم تعبد لذا ا ، بل لأسباب اقتضت ذلك "[2] .

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١٩٧/٢) .

(٢) تفسير سورة الإخلاص - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٦٠/١٧-٤٦١) .



القضية الثانية : سببية الشرك المعينة ، بمعنى دراسة الشرك باعتباره سبباً من الأسباب التي يمكن التوصل من خلالها إلى أمور أخرى قد تكون مقصودة ومطلوبة لمن يرتكب الشرك أو يقع فيه .

ويعتبر الشرك سبباً كونياً ، وليس معنى كونه سبباً أنه يجوز للعبد أن يقع فيه ، بل هو محـرم ومن أشد المحرمات وأعظمها ، كما تقدمت الإشارة إلى هذه المسألة ، ولكن لما كان سبباً في بعض الأمور كان ذلك داعياً لبعض الناس إلى فعله ، لتحصيل بعض المصالح التي قد تنـتج مـنه ، مع أن المفاسد الناتجة منه أعظم من تلك المصالح ، ولكن كثيراً من المشركين يهمل النظر في المفاسد المترتبة عليه ، ولا ينظر إلا إلى المصالح فقط .

وهـذه المصـالح قد تكون من قبل البشر ، فمثلاً إذا أشرك العبد بالله عز وجل ، قد يكـون ذلك سبباً في حصوله على بعض المال من المشركين ، وفي نصر م وإعانتهم ، كما يحصـل هذا لمن يدخل في النصرانية ، فإ م يعينونه وينفقون عليه وعلى أبنائه كما هو الحال في قارة أفريقيا من قبل المنصرين .

وقد يحصل على المال مما يقدم للأضرحة والقبور ، فيكون للسادن والمطوف ومن على شـاكلتهم نصيب فيها ، بل وصل الحال في هذه القضية أن أصبحت المزارات والقبور من مصـادر دخل بعض الدول ، فيعطى للسادن منها نصيب وأجر معلوم ، وكذا يصرف على تـرميم الضـريح والقبر شيء منها ، ويرجع الباقي إلى ميزانية الدولة ليصرف في أمور شتى نسأل الله السلامة .

لهـذا نجد مثل هذه الدول تشجع الشرك وتحض عليه ، طمعاً فيما تجنيه من ذلك من أموال طائلة ، وبالطبع هذه الأموال والمصالح والمنافع لا تقارن بالمفاسد الناتجة عنه .

وقـد تكون تلك المصالح والمنافع من قبل الشياطين ، وذلك لمزيد إضلال للناس عن الهـدى وعن الطريق القويم ، فمثلاً عباد الأصنام والقبور ونحوهم عندما يصرفون شيئاً من العبادة لغير الله عز وجل تقترن بم الشياطين ، وتعينهم على ما يريدون ، وتخاطبهم بأنواع

الخطاب ، وتخبرهم ببعض الأخبار ، وتجلب لهم بعض ما يريدونه ، وهم يظنون أن هذا من روح الميـت ، أو كرامة من كرامات الشيخ الذي استغاثوا به ، أو روحانية الكوكب الذي صوروا له هذا الصنم ، وفي الحقيقة هو شيطان أو شيطانه جاء ليضلهم عن سبيل الله تعالى ، ويزين لهم الشرك والكفر والفسوق والعصيان ، كما قال تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴾[1] .

قال ابن عباس: في كل صنم شيطان يتراءى للسدنة فيكلمهم[2] .

وقال أبي بن كعب[3]: مع كل صنم جنية[4] .

ولأجل ما يحصلون عليه من الشياطين من المصالح والمنافع وغيرها تجدهم يستميتون في الدفاع عن أصنامهم وأوثا م ، ويحاربون أهل التوحيد بكل وسيلة وطريق ، ويلقى من يدعوهم إلى التوحيد من الأذى والمحاربة والتضييق عليه الشيء الكثير ، كما حصل للأنبياء والرسل وهم الدعاة الأوائل إلى التوحيد ، وكما يحصل لمن سار على جهم ، واقتفى أثرهم كما حصل لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم والشيخ محمد بن عبدالوهاب[5] رحم الله الجميع ، وغيرهم ممن يدعو إلى التوحيد قال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ

(١) سورة النساء آية رقم (١١٧) .

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٢٠٣/٢) .

(٣) أبي بـن كعب بن قيس النجاري الأنصاري الخزرجي ، أبو المنذر ، سيد القراء ، من فضلاء الصحابة شهد بدراً والمشاهد كلها ، اختلف في تاريخ وفاته فقيل ١٩ ، وقيل ٣٢ ، وقيل غير ذلك . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (١/ ٢٧) ، الإصابة لابن حجر (٣١/١) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص٩٦) .

(٤) زاد المسير لابن الجوزي (٢٠٣/٢) . وللاستزادة انظر: معالم التـ يل للبغوي (١٥٨/٢) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٤٨/٥) ، الدر المنثور للسيوطي (٢٤٥/٢) .

(٥) الشيخ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي النجدي ، ولد سنة ١١١٥ هـ وأخذ العلم عن جماعة من أهل العلم ، ثم حمل راية الدعوة السلفية في الجزيرة العربية التي أثمرت الدولة السعودية الأولى ، له مؤلفات كثيرة ، توفي سنة ١٢٠٦ هـ . انظر: عنوان ا ـد لابن بشر (٨٩/١) ، الأعلام للزركلي (٢٥٧/٦) .

فِىٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[1] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : " ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بنى آدم ، وجعل القبور أوثاناً هو أول الشرك ، ولهـذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب ما يظن أنه من الميت ، وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انشق وخرج منه الميـت وكلمـه وعانقـه ، وهذا يرى عند قبور الأنبياء وغيرهم ، وإنما هو شيطان ، فإن الشـيطان يتصـور بصور الإنس ، ويدعي أحدهم أنه النبي فلان أو الشيخ فلان ، ويكون كاذباً في ذلك "[2] .

ويقـول أيضاً : " وكذلك الذين يدعون الكواكب وغيرها من الأوثان تتنـزل على أحدهم روح يقول: هي روحانية الكواكب ، ويظن بعضهم أنه من الملائكة ، وإنما هو من الجن والشياطين يغوون المشركين .

والشـياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان ، فتارة يخبرونه بـبعض الأمور الغائبة ليكاشـف بها ، وتـارة يؤذون من يريـد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك ..... وعند المشركين عباد الأوثان ومن ضاهاهم من النصارى ومبتدعة هذه الأمة في ذلـك من الحكايات ما يطول وصفه ، فإنه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به نبياً كـان أو غير نبي إلا وقد بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله ، كما أن الذين يدعونهم في مغيـبهم ويسـتغيثون بهم ، فيرون من يكون في صورتهم ، أو يظنون أنه في صورتهم ،

---

(١) سورة آل عمران آية رقم (١٨٦) .

(٢) قاعدة في التوسل والوسيلة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/١٦٨) .

ويقول: أنا فلان ويكلمهم ويقضي بعض حوائجهم ، فإ م يظنون أن الميت المستغاث به هو الذي كلمهم وقضى مطلوبم ، وإنما هو من الجن والشياطين ''[١] .

والمقصود أن الشرك قد يكون سبباً في بعض المنافع والمصالح الدنيوية ، أما في الآخرة فكما قـال الله تعـالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[٢] ، ولن تنفع المشرك تلك الأموال وتلك المنافع ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٣] .

---

(١) المصـدر السابق (١٧٣/١-١٧٤) ، وللاستزادة انظر: الصفدية (٢٩٢/٢) ، الجواب الصحيح (١١٤/٣) ، الرد على المنطقيين (ص ٢٨٤) ، قاعدة في التوسل والوسيلة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥٠/١) ، الفرقان بين أولـياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٣/١١) ، تفسير سورة الإخلاص - ضمن مجمـوع فـتاوى شـيخ الإسلام (٤٥٧/١٧) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٢٢/١٨) ، إيضاح الدلالة في عموم الرسالة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤١/١٩ ، ٤٩) .

(٢) سورة المائدة آية رقم (٧٢) .

(٣) سورة الشعراء آية رقم (٨٨-٨٩) .

المبحث الثاني

السـحر

السـ ـ ـحر

قبل الشروع في سببية السحر وما قرره شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الباب فإنه لا بد من بيان السحر تعريفه وأنواعه وحكمه ، ثم بعد ذلك أدخل في سببيته .

تعريف السحر :

السـحر في اللغـة : صـرف الشيء عن وجهه ، يقال: ما سحرك عن كذا أي: ما صرفك ، وسحره أيضا بمعنى خدعه[1] .

قال الأزهري[2]: '' وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره ، فكأن الساحر لما أرى الباطل في صورة الحق ، وخيل الشيء على غير حقيقته قد سحر الشيء عن وجهه ، أي: صرفه ''[3].

ومنه قول النبي ﷺ : ((**إن من البيان لسحراً**))[4] .

قـال أبـو عبيد[5]: '' كأن المعنى - والله أعلم - أنه يبلغ من بيانه أنه يمدح الإنسان

(١) انظر: المطلع على أبواب المقنع لمحمد بن أبي الفتح البعلي (ص ٣٨٥) .

(٢) أبـو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري ولد سنة ٢٨٢هـ و أخذ عن جماعة من أهل العلم ، كان رأساً في اللغة والفقه ثقة ثبتاً ديناً ، توفي سنة ٣٧٠ هـ . انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٣٤/٤) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣١٥/١٦) ، مرآة الجنان لليافعي (٣٩٥/٢) .

(٣) لسان العرب لابن منظور (٣٤٨/٤) .

(٤) رواه البخاري في الطب باب إن من البيان لسحرا (٢١٧٦/٥) ح(٥٤٣٤) عن ابن عمر رضي الله عنه بلفظه ، ومسلم في الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٥٩٤/٢) ح(٨٦٩) عن عمار بن ياسر رضي الله عنه بنحوه .

(٥) القاسم بن سلام البغدادي ، أبوعبيد ، ولد سنة ١٥٧ هـ وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، إمام مجتهد مشهور ثقـة فاضل مصنف ، توفي سنة ٢٢٤ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء (٤٩٠/١٠) ، البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٢٩١) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٤٥٠) .

فيصـ ـدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله ، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر ، فكأنه قد سحر السامعين بذلك''[١].

وقيل: هو كل ما لطف مأخذه ودق [٢] أو ما خفي ولطف سببه [٣].

أما في الاصطلاح فهو: عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له[٤] .

أنواع السحر :

تكلـ ـم العلمـ ـاء في أنواع السحر ، وذكروا في ذلك أنواعاً متعددة بعضها يدخل في مسمى السحر شرعاً ، وبعضها لا يمكن إدخاله في هذا إلا لغة ، وأبرز ما ذكروا من أنواعه ما يلي :

أولاً : السـ ـحر المـ ـبني على قوة الوهم وتصفية النفس والرقى ، وأصحاب هذا النوع يـ ـرون أن الـ ـنفس تؤثر في هذا العالم عن طريق التوجه إلى غرض واحد ومطلوب معين ، والإعـ ـراض عمـ ـا سـ ـواه ، قالوا: لأن النفس إذا اشتغلت بالأفعال الكثيرة تفرقت قواها وتوزعت على تلك الأفعال ، لتصل إلى كل من تلك الأفعال شعبة من تلك القوة ، بخلاف ما لو كان الاشتغال بفعل واحد فإن قوة النفس تتركز على هذا الشيء الواحد فقط ، فإذا

(١) غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سـ ـلام (٣٤/٢) . وانظر: مجمع بحار الأنوار لمحمد طاهر الصديقي الهندي (٤٤/٣)

(٢) انظر: مختار الصحاح للرازي (ص ٢٥٤) ، لسـ ـان العرب لابن منظور (٣٤٨/٤) ، أضـ ـواء البيان للشـ ـنقيطي (٤٨١/٤) .

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣٠/١) .

(٤) المغـ ـني لابن قدامة (٢٩٩/١٢) . وهناك تعريفات أخرى للسحر ليس هذا محل التفصيل فيها انظرها في : مقدمة ابـ ـن خلدون (ص ٤٩٦) ، كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي - طبعة دار صادر (٦٤٨/٢) ، كتاب السحر بين الحقيقة والخيال للدكتور أحمد الحمد (ص ١٣-١٦) .

فعلت النفس ذلك فإنه تشتد قو ا وتأثيرها ، وتستطيع بذلك أن تحدث أحوالاً غريبة في هذا العالم .

ويمثلون لتأثير هذا السحر فيما لو أراد شخص أن يتعدى تأثيره إلى غيره فيقولون: عليه أن يتخذ تمثالاً لذلك الغير(١) ، ويضعه عند حسه ، ويشتغل الحس به ، فيتبعه الخيال وتقبل النفس الناطقة عليه فتقوى تأثيرا ا النفسية والروحانية فيه .

ويشـ ـرحون طـ ـريقة اشتغال الحس به فيقولون: حس البصر مشغول بالنظر إلى ذلك التمثال ، وحس السمع يتلوا الرقى ، فإن كانت تلك الرقى معلومة المعنى فالأمر فيها ظاهر مـ ـن حيث التركيز اللفظي على المعين ، وإن كانت مجهولة المعنى فإن التأثير يكون أقوى ؛ لأن الإنسـ ـان إذا اعـ ـتقد أن هذه الكلمات تقرأ للاستعانة بشيء من الأمور الروحانية ولا يـ ـدرك كيفـ ـية تلك الاستعانة فإنه يحصل للنفس عند ذلك حالة شبيه الحيرة والدهشة ومع انقطـ ـاع عـ ـن المحسوسـ ـات والإقبال على الفعل يحصل وجد عظيم ، فيقوى تأثير النفس فيحصل الغرض المطلوب .

ويرجعون أسباب ذلك إلى أمور :

مـ ـنها أن الـ ـنفس مـ ـن جنس الأرواح الفلكية وناتجة منها ، فهي بالنسبة إليها بمثابة قطـ ـرات من ماء من تلك البحار ، وشموع من تلك الشموس ، فلا بد أن يكون لـ ـها تأثير وقوة .

---

(١) ورد في بعض روايات حديث سحر النبي ﷺ أنه لما استخرج السحر وجد في الطلعة تمثالاً من شمع ، تمثال رسول الله ﷺ وإذا فيه أبر مغروزة ، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة ، فـ ل جبريل بالمعوذتين فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، وكلما نزع إبرة وجد لها ألما ، ثم يجد بعدها راحة . انظر: فتح الباري (٢٤١/١٠) .

ومنها أن النفس بعد التصفية تنجذب إلى الروح الفلكي ، الذي هو أبوها الأصلي في زعمهم ، وهذا يعظم شـأ ا ويقـوي أثرهـا[١] .

وإنمـا أطلـت نسـبياً في هذا النوع من السحر لأبين كيف أنه في حقيقته يرجع إلى الاسـتعانة بالشـياطين ، من جهة التماثيل والرقى ا هولة ونحو ذلك ، فهو بذا صورة من تلاعب الشياطين ببني آدم ، خلافاً لما ظنه بعض الباحثين أنه من قبيل الخيالات والأوهام التي لا حقيقة لها[٢] .

ثانـياً : السحر المبني على الاستعانة بخواص الأدوية ، وفي هذا يقوم الساحر بتركيب بعـض المواد المعينة مع الاستعانة بالشياطين على ذلك فيحدث نتيجة لهذا ضرر للإنسان إما قتل أو مرض ، أو تفريق بينه وبين زوجه أو نحو هذه الأمور[٣] .

ولـيس مـن هذا السحر قتل الناس أو إضرارهم بالسموم ونحوها من المواد القاتلة أو الضـارة ؛ فكل إنسان إذا تناول سماً فإنه يتضرر أو يموت بدون حاجة إلى سحر أو ساحر لأن الله تعالى جعل في بعض المواد قوة وخاصية تضر با بدن الإنسان إذا تناولها ، وهذا مبني على مسألة إثبات الطبائع والأسباب والمسببات .

ثالـثاً : السـحر المبني على عقد العقد والنفث فيها ، وفي هذا يقوم الساحر - بعد تكيف نفسه بالخبث - بعقد العقد والنفث فيها مع الاستعانة بالشياطين ، فيؤثر في الأبدان والقلوب بإذن الله عز وجل .

يقـول ابن القيم رحمه الله: '' والنفث فعل الساحر فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة ، نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق ،

(١) انظر: المطالب العالية للرازي (١٤٤/٨) ، التفسير الكبير للرازي (٢٢٦/٣-٢٢٧) .
(٢) انظـر: كتاب السحر بين الحقيقة والخيال للدكتور أحمد الحمد (ص ٣٦) فقد جعل هذا القسم من السحر مما لا حقيقة له ، بينما في (ص ٢٠-٢١) جعله من إعانة الأرواح الشيطانية فتأمل !
(٣) انظر: كتاب السحر بين الحقيقة والخيال للدكتور أحمد الحمد (ص ٣٢-٣٣) .

فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك ، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور ، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي ''[١] .

رابعاً : السحر المبني على مقتضيات أحكام النجوم والاستعانة بالكواكب ، فأصحاب هـذا النوع يرون أن كل كوكب من الكواكب السيارة له اختصاص بأشياء معينة من هذا العـالم ، فلكل واحد منها طعم خاص ، ورائحة خاصة ، وشكل خاص ، ونوع معين من المعادن والنبات والحيوان ، فيطلب من الكوكب المعين شيئاً خاصاً يتناسب مع خاصيته ، ثم يجمـع بـين هـذا الطلب وبين الأشياء الأخرى الفعلية المناسبة لهذا الكوكب من الروائح والطعوم ونحوها ، فيجتمع حينئذ الفاعل مع المحل القابل فيحصل الأثر[٢]، كذا زعموا .

خامساً: السحر المبني على الاستعانة بالأرواح الفلكية ، فهؤلاء يرون أن لكل كوكب روحـاً معيـنة ، ويمكـن الاستعانة بروحانية هذا الكوكب بطرق مخصوصة ، فإذا حصل الاتصال بهذه الروحانية فـإنه يمكن من خلال ذلك القدرة على خوارق العادات[٣] .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله عن دعاة الكواكب : '' وكذلك أصحاب دعوات الكـواكب الذين يدعون كوكباً من الكواكب ، ويسجدون لـه ، ويناجونه ، ويدعونه ، ويصنعون له من الطعام واللباس والبخور والتبركات ما يناسبه ، كما ذكره صاحب (السر المكـتوم المشـرقي)[٤] ، وصاحب (الشعلة النورانية) البوني المغربي[٥] وغيرهما ، فإن هؤلاء

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٢٢١/٢)

(٢) انظر: المطالب العالية للرازي (١٤٣/٨) .

(٣) انظر: المصدر السابق (١٤٥/٨) .

(٤) هو الفخر الرازي وقد تقدمت ترجمته (ص٦٩) .

(٥) أحمد بن علي بن يوسف البوني ، أبو العباس ، متصوف مغربي له مصنفات كثيرة جلها في السحر والضلال منها : شمـس المعارف ، هلك سنة ٦٢٢ هـ . انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة (١٠٦٢/٢) ، هدية العارفين لإسماعيل باشا (٩٠/٥) ، الأعلام للزركلي (١٧٤/١) .

تنـ ـزل علـيهم أرواح تخاطـبهم ، وتخبرهم ببعض الأمور ، وتقضي لهم بعض الحوائج ، ويسـمون ذلـك روحانية الكواكب ، ومنهم من يظن أ ا ملائكة ، وإنما هي شـياطين تنـزل عليهم ، قـ ـال تعـ ـالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[١]،،[٢] .

سادسـاً : السـحر المبنى على العزائم والرقى ، وفيه الاستعانة بالأرواح الأرضية[٣] ، والمقصود بذلك الاستعانة بالجن والشياطين عن طريق عمل أمور معينة مخصوصة والتقرب ا إلى الشياطين ، ومن ثم تقوم الشياطين بعمل ما يطلبه الساحر منها سواء سرقة طعام معين أو إهلاك معين أو إمراضه أو طيران أو نحو هذه الأمور .

والـذي يظهر لي أن الأنواع السابقة كلها نوع واحد لكن صورها متعددة ، فكلها تقـوم على الاستعانة بالشياطين ، تارة عن طريق دعوة روحانية الكواكب ، أو عن طريق الكواكب بما يظنونه مناسباً لها ، وتارة عن طريق بعض الأدوية المصحوبة بإعانة الشياطين ، وتارة عن طريق الاستعانة بأسماء الشياطين كما يفعله أصحاب الطلّسمات والرقى ونحو هذه الأمـور، فإذا فعلوا ذلك تتراءى لهم الشياطين وتخاطبهم وتنفذ لهم بعض ما يطلبونه ، وهم يظـنون أن ذلك كله من قبل الكوكب أو النجم أو روحانيته أو سر ذلك الطلسم أو تلك الرقية أو نحو ذلك ، وفي حقيقة الأمر هي شياطين تضل بني آدم وتزين لهم الكفر والشرك ، وتعينهم على ذلك ، وتزيدهم ضلالاً وغياً .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأما السحر والكهانة فهو من إعانة الشياطين لبني آدم ، فـإن الكـاهن يخبره الجن ، وكذلك الساحر إنما يقتل ويمرض ويصعد في الهواء ونحو ذلك بإعانة الشياطين لـه ، فأمورهم خارجة عما اعتاده الإنس بإعانة الشياطين لهم ، قال

(١) سورة الزخرف آية رقم (٣٦) .

(٢) اتباع الرسول بصريح المعقول - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٥١/١٠) .

(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٢٧/٣) ، المطالب العالية للرزاي (١٤٤/٨) .

تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ ﴾[1] ، فـالجن والإنس قد استمتع بعضهم ببعض ، فاستخدم هـؤلاء هؤلاء ، وهؤلاء هؤلاء في أمور كثيرة ،كل منهم فعل للآخر ما هو غرضه ، ليعينه على غرضه ، والسحر والكهانة من هذا الباب ''[2] .

حكم السحر :

والسحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع .

أمـا الكـتاب ، فقد دلت النصوص الصريحة على تحريمه وذمه ، منها قوله تعالى عن السـحر: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

ومـنها النصـوص في تكفير الساحر فهي دالة على تحريم السحر بطريق أولى وسيأتي ذكرها في سبب السحر .

وأمـا السنة ، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: « **اجتنبوا السبع الموبقات** » قالوا: يا رسـول الله ، ومـا هن ؟ قال: « **الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا**

---

(١) سورة الأنعام آية رقم (١٢٨) .
(٢) النبوات لابن تيمية (٨٣٠/٢-٨٣١) ، وللاستزادة انظر: الصفدية لابن تيمية (١٧١/١-١٧٤) .
(٣) سور البقرة آية رقم (١٠٢) .

بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات))[1].

أما الإجماع فقد أجمع علماء الأمة على تحريم السحر .

قال النووي : '' عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع ''[2] .

السببية في السحر :

والسببية في السحر موضوع يدخل تحته مسألتان :

الأولى : سبب السحر ، والأخرى : سببية السحر .

أولاً : سبب السحر ، والمقصود بسبب السحر هو الأمور التي توصل العبد إلى السحر فالسحر لا يحصل هكذا يهجم على الإنسان هجوماً لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه ، بل لـه أسباب معينة يباشرها من يريد معرفة السحر ، ومن ثم يعرف السحر ويكون ساحراً .

والبحث في هذه القضايا يعتبر من الأمور التي ينهى العبد عن الخوض فيها ؛ لأ ا تدخل ضمن طرق السحر ووسائله ، ولكن هناك سبب رئيس في تلك الطرق والوسائل ، يعتبر قدراً مشتركاً بينها ، ألا وهو الشرك أو الكفر بالله عز وجل ، فلكي يكون العبد ساحراً فلا بد له من الكفر بالله عز وجل ، ولا يجتمع في قلب العبد إيمان أو إسلام مع فعل السحر أو تعاطيه ، وقد نص الله تعالى على هذا السـبب في القرآن العظيم قـال تعـالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتۡلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَـٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ

---

(١) رواه الـبخاري في الوصايا باب قول الله تعالى: ﴿إن الذِين يأكُلُونَ أموالَ اليَتامى ظُلْماً إنما يأكُلُونَ فِي بطُونِهم ناراً وسيصلَونَ سعِيراً ﴾ [النسـاء:١٠] (١٠١٧/٣) ح(٢٦١٥) ، ومسلم في الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٢/١) ح(٨٩) كلاهما من حديث أبي هريرة ﷺ واللفظ للبخاري .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٦/١٤) .

﴿كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[١] .

فقولـه :﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ فيه ترتيب للحكم على الوصف المناسب ، فقد رتب الكفر على تعليم السحر ، وهذا يدل على أن السحر وتعليمه سبب للكفر[٢] .

وقوله: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾ ، نص على أن متعلم السحر يكفر .

وقولـه :﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ ﴾ يدل على أن من استبدل الإيمان بالسحر ليس لـه في الآخرة نصيب ، ونفي النصيب بالكلية لا يكون إلا للكافر بالله عز وجل ، فيدل على كفر الساحر[٣] .

ويقـول جـل ذكـره : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴾[٤] ، ويقول تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[١] ، فنفـي الفـلاح يـدل علـى كفر الساحر ، لأنـه قد عرف باسـ ـ ـ ـتقراء

---

(١) سور البقرة آية رقم (١٠٢) .
(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي (٢٢٦/٢) .
(٣) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٤٧٩/٤) .
(٤) سورة يونس آية رقم (٧٧) .

القرآن أن الغالب فيه أن لفظة ﴿ لا يفلح ﴾ يراد بها الكافر[٢] .

وقال ابن عباس: السحر من الكفر [٣]، وبنحوه قال أبو العالية [٤].

وقال ابن جريج : '' لا يجترئ على السحر إلا كافر ''[٥] .

وقال الحسن البصري[٦] عن متعلم السحر : ليس له دين[٧] .

ومما تقدم يتبين لنا تلازم السحر والكفر ، ويدخل في الكفر أمور عديدة جداً يقوم بها الساحر ، فمن ذلك : الاستعانة بالشياطين عن طريق دعائها وكتابة أسمائها ، وفعل ما تحبه مـ ـن الأفعال الكفرية ككتابة الآيات القرآنية بالعذرة أو قراء ا مقلوبة أو نحو ذلك وتقديم الذبائح والقرابين لها بحيوانات معينة في أماكن يحددها الساحر مع الشيطان ، فإذا فعل العبد ذلك كفر بالله عز وجل ، وحينئذ تعينه الشياطين وتنفذ بعض ما يطلبه منها ، وكلما كان العبد أكفر كان سحره أشد وأقوى .

يقول ابن القيم رحمه الله مبيناً ارتباط السحر بالكفر وعبادة الشيطان : '' وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان وتقرب إليه ، إما بذبح باسمه ، أو بذبح يقصد به هو ، فيكون ذبحاً لغير الله ، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق ، والساحر وإن لم يسم هذا

---

(١) سورة طه آية رقم (٦٩) .

(٢) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٤/٤٧٩-٤٨٠) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/١٢٧) .

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/١٢٢) .

(٥) جامع البيان لابن جرير (١/٤٦٢) .

(٦) الحسـ ـن بـ ـن يسار البصري الأنصاري مولاهم ، أبو سعيد ، فقيه فاضل زاهد مشهور من التابعين ، توفي سنة ١١٠ هـ ـ . انظر: الحلية لأبي نعيم (٢/١٣٢) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/٥٦٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ١٦٠) .

(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/١٢٨) .

عبادة للشيطان فهو عبادة له ، وإن سماه بما سماه به ، فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه .

فمن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود لـه هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة كما أقبلها بالنعم أو هذا إكرام ، لم يخرج بذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله فليسمه بما شاء .

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به وتقرب إليه بما يحب فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة ، بل يسميه استخداماً ، وصدق هو استخدام من الشيطان لـه ، فيصير من خدم الشيطان وعابديه وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان لـه ليست خدمة عبادة ، فإن الشيطان لا يخضع لـه ويعبده كما يفعل هو به .

والمقصود أن هذا عبادة منه للشيطان ، وإنما سماه استخداماً ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[2] ، فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة ، ولبئس المولى ولبئس العشير ''[3] .

ويقول أيضاً :'' وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه ، وربما يعبده مـن دون الله تعالى حتى يقضي لـه حاجته ، وربما يسجد لـه ، وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب .

---

(١) سورة يس آية رقم (٦٠) .

(٢) سورة سبأ آية رقم (٤٠-٤١) .

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم (٢/٢٣٥-٢٣٦) .

ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ﷺ ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ ، ولهذا كان سحر عباد الأصنام أقوى من سـحر أهل الكتـاب وسـحر اليهود أقوى من سـحر المنتسبين إلى الإسلام ''[1] .

ثانياً : سببية السحر :

والمقصود من سببية السحر ما يكون السحر سبباً فيه ، والبحث في هذه القضية طويل جـداً ، فهو يشمل كل ما يمكن أن يؤدي إليه السحر من نتائج ، وما ينبثق عنه من آثار ، ومـا يترتب عليه من أحكام ونحو هذه الأمور ، ولكني سأقتصر هنا على الأصل الذي عليه مدار تلك النتائج والآثار والأحكام ، وهو ما يترجم له عند أهل العلم بمسألة حقيقة السحر وتأثيره ، وسيكون البحث في هذه القضية مشتملاً على مسألتين:

الأولى : قضية حقيقة السحر ، هل له حقيقة ؟ أم هو مجرد تخييلات ؟

الثانية: مدى تأثير السحر ، هل للسحر قدرة على قلب الأعيان ؟ أم لا ؟

أولاً: حقيقة السحر :

قبل الشروع في مسألة حقيقة السحر أود أن أوضح أن البحث في حقيقة السحر يعتبر ركناً أساسياً في قضية سببية السحر ، فعليه ينبني القول بكون السحر سبباً فعندما نقول: إن السـحر لـه حقيقة ، فإن هذا يعني إثبات تأثير السحر الحسي الحقيقي وليس الوهمي ، فيمرض مرضاً حقيقياً ، ويأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها ، ويبغض أحدهما إلى الآخر ويفـرق بـين الرجل وزوجه ، وقد يقتل المسحور ، فيكون السحر سبباً في حصول هذه الأمور .

---

(١) المصدر السابق (٢/٢٣٤) .

بخـلاف ما لو قيل: إنه مجرد تخييل ، فإن مجرد التخييل لا يكون سبباً في حصول هذه الأمـور ، فهـو لا يؤدي إلى المرض الحسي غالباً ، كما لا يؤدي إلى القتل ، والتفريق بين الزوجين ونحو هذه الأمور ، ومن هنا يظهر ارتباط سببية السحر مع القول بحقيقته .

ولقد بحث أهل العلم قضية حقيقة السحر ، ومذهب أهل السنة والجماعة ومن تبعهم أن للسـحر حقـيقة ، فهناك فعل معين يقوم به الساحر ، وهناك نتيجة حقيقية مؤثرة لهذا الفعل ، وتأثيرها على الإنسان من جنس تأثير الفعل المباشر ، كما لو ضرب الإنسان بسهم أو رمـح أو نحوها فإنه يتضرر بذلك ، فيجرح وقد يمرض وقد يموت ، وهكذا تأثير السحر علـى الإنسـان ، فيتضرر به وقد يمرض وقد يموت وقد يحصل غير ذلك كبغضه لزوجه أو زيادة حب لها أو فراق أو نحو ذلك .

ولهم على هذه المسألة أدلة عديدة من الكتاب والسنة ، منها :

١- قولـه تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

فقولـه : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ وقوله ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾ يدل على أن للسحر حقيقة من جهة أنه لو

(١) سور البقرة آية رقم (١٠٢) .

كان مجرد تخييل وخداع للبصر وتمويه لما كان كفراً ، لكنه لما كان أمراً حقيقياً وفيه استعانة بالشياطين من أجل ذلك كان كفراً ، وهذا استدلال بالحكم على الحقيقة .

والقائلـون أن السـحر مجرد تخييل ، وكذلك الذين يجعلونه قسمين: حقيقي وتخييلي يضطربون في حكم الساحر ، فمنهم من لا يكفره ، وهذا خلاف النص القرآني ، ومنهم من يكفـر بعض أنواعه ويستثني أنواعاً أخرى ، وهذا أيضاً مخالف للنص ، فالنص يشمل كل أنواع السحر ، والخطأ عند هؤلاء أتى من جهتين :

الأولى : ظنهم أن السحر يمكن أن يتأتى بدون استعانة بالشياطين ، وهذا غير صحيح كما تقدم بيانه .

الجهـة الثانـية: إدخالهم بعض ما ليس سحراً في السحر ، فسموا الشيء بغير اسمه ، واضـطربوا في حكمه ، ولهذا أخرجوا بعض أنواعه عن أن تكون كفراً ، مع أ م يجعلو ا سحراً .

والتحقـيق أن مسمى السحر الشرعي لا يدخل فيه إلا ما كان كفراً ، لتلازم السحر والكفـر كمـا تقدم ، وسيأتي ذكر بعض الأمور التي أدخلت في السحر ولا تدخل فيه في الحقيقة .

وقـوله: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ ﴾ يدل كذلك على أن للسحر حقيقة من جهة أنه سبب في حصول التفريق بين الرجل وزوجه ، ولو كان مجرد تخييل وخداع للبصر كما يقوله نفاة حقيقة السحر لم يكن سبباً في حصول الفرقة بين الرجل وزوجه .

وقولـه: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ يدل كذلك على حقيقة السحر ، وأن لـه تأثيراً حقيقياً من جهة الاستثناء ، فقد أثبت الله تعالى حصول الضرر من

السحر بإذن الله تعالى الكوني القدري ، وهذا يدل على أن لـه حقيقة لأن مجرد التخييل لا يحصل به ضرر حقيقي في الغالب .

٢- قـولـه تعـالى عـن سـحرة فرعون : ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ ﴾[(١)] ، ففـي هذه الآية يبين الله تعالى أن سحرة فرعون قاموا بسحر أعين الناس ، وهذا يدخل فيه احتمالان :

الأول : أن السحر توجه إلى أعين الناس فأثر فيها ، فأصبحت ترى الأشياء على غير حقيقتها نتيجة للسحر الذي وقع عليها ، وهذا من جنس المرض الذي قد يصيب العيون فلا ترى بعض الأشياء ، أو تراها على غير حقيقتها .

الثاني : أن السحر وقع على الحبال والعصي مثل أن يكون السحرة استعانوا بالشياطين فحركت تلك الحبال والعصي والناس لا يشاهدون من حركها ، فيظنو ا تحركت بأنفسها ، كما يحصل لو حرك إنسان حصير أو بساطاً بدون أن يرى ، فالرائي يرى الحصير أو البساط يتحرك ولا يرى من حركه .

وعلى كلا الاحتمالين فهناك سحر حقيقي حصل سواء قلنا على الرائي أو المرئي .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' والسحرة يفسدون السمع والبصر والعقل حتى يخيل للإنسـان الأشياء بخلاف ما هي عليه ، فيتغير حسه وعقله ، قال في قصة موسى ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ ﴾[(٢)] وهـذا يقتضي أن أعين الناس قد حصل فيها تغير ''[(٣)] .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (١١٦) .
(٢) سورة الأعراف آية رقم (١١٦) .
(٣) النبوات لابن تيمية (١٠٥٢/٢-١٠٥٣) .

ويقول في موضع آخر : '' فقد عرف أن السحر يغير الحس والعقل ، حتى يخيل إلى الإنسان الشيء بخلاف ما هو عليه ''[١] .

ويقول ابن القيم رحمه الله : '' فبين سبحانه أن أعينهم سحرت ، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي ، وهو الحبال والعصي مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها وهي الشياطين ، فظنوا أنها تحركت بأنفسها ، وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيراً أو بساطا ، فترى الحصير والبساط ينجر ، ولا ترى الجار له مع أنه هو الذي يجره ، فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين ، فقلبتها كتقلب الحية ، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها والشياطين هم الذين يقلبونها .

وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تتحرك وهي ساكنة في أنفسها .

ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا ، فتارة يتصرف في نفس الرائي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به ، وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها ''[٢] .

وقد خالف في تفسير سحر سحرة فرعون طائفتان :

الطائفة الأولى : جعلت سحر سحرة فرعون من قبيل التخيل والأخذ بالعيون[٣] ، وفيه يقوم مدعي السحر بعمل أمر يشغل به أذهان الناظرين ويأخذ عيونهم إلى غير الجهة التي يحتال فيها ، حتى إذا تم له ذلك عمل شيئاً آخر بسرعة شديدة ، فيبقى العمل الثاني خفياً ،

---

(١) النبوات لابن تيمية (١٠٩٥/٢-١٠٩٦) .

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (٢٢٧/٢-٢٢٨) .

(٣) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٤٨٥/٤) وهو من المنتصرين لهذا الرأي .

ويظهـر للـناس شيئاً غير ما انتظروه وتوقعوه ، فيتعجبون منه ، وكلما كان أخذه للعيون والخواطر وجذبه لها إلى سوى مقصوده أقوى كان أحذق في عمله [١].

وهـذا في الحقيقة ليس بسحر بالمعنى الشرعي ، فليس في هذا النوع تأثير على الناس وليسـت سـحراً لأعين الناس ، إنما هي عملية خداع لهم من جنس خداع البصر ، وهذا يحصـل بدون سحر ، فالبصر يرى العصا في الماء مكسورة وهو يعلم أ ا سليمة ، وراكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركاً ، ولا يمكن أن يقال: إن هذا من السحر إلا بالمعنى اللغوي ، وحتى لو ادعى صاحبه السحر ، فإنه يكون كاذباً في دعواه ، وقصده بذلك الاحتيال على الناس ، وأكل أموالهم بمثل هذه الدعوى ونحوها .

وسـحرة فرعون كانوا كبار السحرة وعلماءهم وعتا م ولم يكونوا مجرد مموهين ، يخدعـون الأبصار ، يدل على ذلك وصفهم بصيغة المبالغة (عليم) قال تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾[٣] ، وقال تعـالى: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾[٤] ، والآية الأخيرة اشتملت على صيغتين للمبالغة سحار وعليم ، فهل يمكن بعد هذا أن يقال: هم موهون مخادعون ولا حقيقة لسحرهم .

ولـو صدق هذا في حق سحرة فرعون مع كل هذه الأوصاف لم يبعد أن يقال: ليس في الدنيا سحر حقيقي أصلاً ، فإذا كان كبار السحرة بذه المثابة فما بالك بمن هو دو م .

---

(١) وقد شرح هذه النوع من السحر الرازي في التفسير الكبير (٢/٢٢٨) .
(٢) سورة الأعراف آية رقم (١١٢) .
(٣) سورة يونس آية رقم (٧٩) .
(٤) سورة الشعراء آية رقم (٣٧) .

أضـف إلى هذا أن ما فعلوه من السحر ليس بالأمر الهين ، بل هو سحر عظيم كما وصفه الله عز وجل في هذه الآية ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[١] ، فكيف يقال مع هذا : إنه تمويهات وأخذ للعيون .

الطائفة الثانية : جعلت سحر سحرة فرعون من قبيل الحيل ، وقالوا: إن سحرة فرعون جعلوا في تلك الحبال والعصي زئبقاً ، وهذا ما جعلها تتحرك وتضطرب بحيث يخيل للناظر أ ا تسعى باختيارها وإنما كانت حيلة [٢].

وهذا في الحقيقة ليس بسحر لأعين الناس ، بل هو صناعة من الصناعات المشتركة بين الـناس ، ولا يحتاج فيه إلى كبار السحرة وعلمائهم ، ولا يحتاج إلى إلقاء عصاه لتأكل ما يأفكون ، فيكفي في بطلانه إخراج ما فيها من الزئبق لكي تختفي حركتها وتبطل .

يقـول ابن القيم رحمه الله تعليقاً على هذا الرأي : " وأما ما يقوله المنكرون من أ م فعلـوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت ، فهذا باطل من وجوه كثيرة ، فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً بل حركة حقيقية ، ولم يكن ذلـك سحراً لأعين الناس ، ولا يسمى ذلك سحراً ، بل صناعة من الصناعات المشتركة ، وقد قـال تعـالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾[٣] ، ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون لم يكن هذا من السحر في شيء ، ومثل هذا لا يخفى .

وأيضا لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال ، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (١١٦) .

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣٨/٣) ويبدو أنه ينصر هذا الرأي في هذا الموضع .

(٣) سورة طه آية رقم (٦٦) .

وأيضـا فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة ، بل يكفي فيها حذاق الصـناع ، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة وخضوعه لهم ووعدهم بالتقريب والجزاء .

وأيضـا فإنـه لا يقال في ذلك: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾[1] ، فإن الصـناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها ، وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده "[2] .

٣- مـن الأدلة على حقيقة السحر قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾[3] والمقصـود مـن النفاثات في العقد هي الأنفس الخبيثة اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن فيها ، فينعقد السحر ، والنفث هو النفخ مع ريق ، وهو مرتبة أعلى من النفخ المجرد ودون التفل .

ووجـه الدلالـة مـن الآيـة أنه لولا أن للسحر تأثيراً حقيقياً ضاراً لما أمر الله تعالى بالاستعاذة منه[4].

٤- من الأدلة على حقيقة السحر ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر النبي ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ، ثم قال: **« أشـعرتِ أن الله أفـتاني فـيما فيه شفائي ، أتاني رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي ، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل ؟ قال: مطبوب[5] ، قال: ومن**

(١) سورة طه آية رقم (٧١) .
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (٢٢٨/٢) .
(٣) سورة الفلق آية رقم (٤) .
(٤) انظر: المغني لابن قدامة (٢٩٩/١٢) .
(٥) مطبوب : مسحور . انظر: فتح الباري لابن حجر (٢٣٩/١٠) .

طـبه ؟ قـال: لبيد بن الأعصم ، قال: في **ما ذا ؟ قال:** في **مشط ومشاقة**[(١)] **وجف طلعةٍ ذكـر**[(٢)] **، قال: فأين هو ؟ قال:** في **بئر ذروان** » فخرج إليها النبي ﷺ ، ثم رجع ، فقال لعائشة حين رجع: « **نخلها كأنه رءوس الشياطين** » فقلت: استخرجته ؟ فقال: « **لا أما أنا فقد شفاني الله وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً** » ثم دفنت البئر[(٣)].

وهـذا الحديث يدل على أن النبي ﷺ قد سحر ، ووجد أثر ذلك على حسه ، فكان يخـيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله ، وجاء تفسير هذا في رواية أخرى « أنه يخيل إليه أنه يـأتي أهله ولا يأتيهم »[(٤)] ، ثم شفاه الله منه ، وهذا كله يدل دلالة قاطعة على أن للسحر حقيقة وليس مجرد تخييل أو خداع للبصر ، وما ذكر فيه من التخييل هو أثر السحر ونتيجته وليس هو ذات السحر .

ونظـير هذا ما حصل لنبي الله موسى ﷺ حيث أثر سحر السحرة على حسه ، فرأى حبالهم وعصيهم تسعى ، وإن كانت في الحقيقة لم تتحرك كما أخبر الله تعالى عن ذلك في كتابه قال تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾[(٥)] .

وما أصيب به النبي ﷺ من السحر لا يقدح في نبوته ، فهو من جنس المرض ، والمرض يجـوز على الأنبياء فليسوا معصومين منه ، وهو من البلاء الذي يزيده الله تعالى به رفعة في درجاتـه ونـيل كرامته ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به من القتل

---

(١) المشاقة : ما يستخرج من الكتان ، وقيل هي المشاطة فقد جاء في رواية أخرى للبخاري: (مشاطة) وهي ما يخرج من الشعر إذا مشِط . انظر: المغني لابن قدامة (٣٠٠/١٢) ، فتح الباري لابن حجر (٢٣٢،٢٤٢/١٠) .

(٢) جف الطلعة: وعاؤها . انظر: المغني لابن قدامة (٣٠٠/١٢) ، فتح الباري لابن حجر (٢٤٠/١٠) .

(٣) رواه الـبخاري في بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده (١١٩٢/٣) ح(٣٠٩٥) واللفظ له ، ومسلم في السلام باب السحر (١٧١٩/٤) ح(٢١٨٩) .

(٤) تقدم تخريجه وهذا اللفظ للحميدي في مسنده (١٢٦/١) .

(٥) سورة طه آية رقم (٦٦) .

والضـرب والشـتم والحـبس ، وليس ببدع أن يبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر[(١)] .

وذهـب بعـض أهل السنة والجماعة إلى تقسيم السحر إلى نوعين: سحر حقيقي ، وسـحر تخييلي ، والتحقيق أن السحر بالمصطلح الشرعي لا ينطبق إلا على السحر الحقيقي لأن مجـرد التخييل ليس بسحر على الحقيقة وإن سماه بعض العلماء سحراً ، وأصحاب هذا القول أخذوا القول بالسحر التخييلي من النصوص الواردة في سحرة فرعون ، وأرادوا الجمع بين الأدلة في هذه القضية ، فجعلوا السحر نوعين: حقيقي وتخييلي ، لكن عند إرادة الجمع بـين الأدلـة فينبغـي أن يجمع بين الأدلة الصحيحة الصريحة في الدلالة ، والنصوص التي يستندون إليها ليست صريحة في الدلالة ، بل دلالتها على نقيض قولهم أكبر من دلالتها على قـولهم كما تقدم ، وعلى هذا فلا داعي إلى تقسيم السحر إلى قسمين: حقيقي وتخييلي ؛ لعدم ما يوجب ذلك والله أعلم .

وذهبت المعتزلة ومن تبعهم ، إلى أن السحر ليس لـه حقيقة ، فهو مجرد تخييل فقط ، ولهم في هذه القضية مجموعة من الشبه ، وقد سبقت الإجابة على أهمها عند الكلام على أدلة أهل السنة والجماعة ، وأما الشبه العقلية ، فقد تقدم الرد عليها في مبحث المعجزات[(٢)] .

يقـول ابـن القيم رحمه الله : '' وقد دل قوله ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾[(٣)] وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر وأن لـه حقيقة ، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة ، لا في مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد ، قالوا: وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك .

---

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (٢/٢٢٤) .

(٢) قالـوا: لو كان للسحر حقيقة لما كان هناك فرق بين السحر والمعجزة ، وقد تقدم التفريق بينهما (ص٢٨٢) . وانظر : الفصل لابن حزم (١٠٢/٥) ، التفسير الكبير للرازي (٢٣٠/٣) .

(٣) سورة الفلق آية رقم (٤) .

وهـذا خـلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف وما يعرفه عامة العقلاء ، والسحر الذي يؤثر مرضاً وثقلاً وحلاً وعقداً وحباً وبغضاً وتزيناً وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس ، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه ، وقوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾[١] دليل على أن هذا النفث يضر المسـحور في حال غيبته عنه ، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منـه ‘‘[٢] .

المسألة الثانية : مدى تأثير السحر :

وفي هـذه المسـألة دراسة للمدى الذي يمكن أن تصل إليه سببية السحر ، فهل هي مطلقـة تصل إلى درجة قلب الأعيان ؟ أم لها حدود معينة ؟ هذا ما سوف أناقشه في هذه المسألة .

ولقـد بحـث العلمـاء القائلون بحقيقة السحر في هذه القضية ولهم فيه تفصيل يمكن تلخيصه في وجهين :

الوجه الأول: أمور اتفق عليها أهل العلم ، وتشتمل على مسألتين :

المسألة الأولى : أمور لا يقدر عليها الساحر مطلقاً مهما فعل ، وهي معجزات الأنبياء كإحياء الموتى ، وفلق البحر ونحوها ، فهذه لا خلاف في أن تأثير السحر لا يمكن أن يبلغها فلا يمكن أن تحصل للساحر مطلقاً ، وقد حكى القرطبي على ذلك إجماع العلماء [٣].

---

(١) سورة الفلق آية رقم (٤) .
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (٢/٢٢٧) .
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/٣٣)

المسألة الثانية: أمور يقدر عليها الساحر ، فهو يستطيع أن يتصرف في الأعراض بفعل ما يحدث عنه الأمراض والقتل والتفريق بين الزوجين ونحو ذلك .

ودلـيل ذلـك الكتاب والسنة ، أما الكتاب فقوله تعـالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ ﴾[1]، فقـد نـص الله تعالى على أن من تأثير السحر التفريق بين الزوجين .

ومـن السنة حديث سحر النبي ﷺ المتقدم وفيه «**أما أنا فقد شفاني الله** » وهذا يدل على أن تأثير السحر في النبي ﷺ سبب له المرض ، وشفاه الله منه[2].

الـوجه الثاني: أمور اختلف فيها أهل العلم ، هل يمكن للساحر أن يصل إليها بسحره أو لا ؟ وتشتمل هذه على مجموعة منها :

١- قلب الأعيان : كأن يقلب الإنسان حيواناً ، والحيوان إنساناً .

٢- الطـيران في الهواء ، والمشي على الماء ، وركوب الكلب ، والوقوف على رأس قصبة ، والجري على الخيط الدقيق ونحوها .

وهـذه الأمور من الغلط أن تدخل كلها تحت حكم واحد ، فيقال: هي من مقدور السـاحر أو مـن غير مقدوره ، بل لابد من التفصيل فيها ؛ لأن بعضها يدخل في مقدور الساحر ، وبعضها لا يدخل ، ولهذا لا تعطى حكما واحداً .

وللتفصيل فيها يقال :

---

(١) سور البقرة آية رقم (١٠٢) .

(٢) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٥٠٦/٤) .

أولاً: قلب الأعيان من جنس إلى جنس آخر مختلف ، لا شك أن هذا ليس من مقدور الساحر بتاتاً ، فالساحر حدود قدرته التأثير في الأعراض كما تقدم ، ولا يدخل تحت قدرته قلب الأعيان مطلقاً ، ومن أجاز ذلك ليس له دليل صحيح صريح على هذه القضية .

وأقـوى ما يستدل به على هذه القضية ما جاء عن عائشة زوج النبي ﷺ أ ا قالت قدمت علي امرأة من أهل دومة الجندل ، جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته حداثة ذلك تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به ، قالت عائشة لعروة[1]: يا ابن أختي فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله فيشفيها ، كانت تبكي حتى إني لأرحمها ، وتقول: إني لأخاف أن أكون قد هلكت ، كان لي زوج فغاب عني ، فدخلت علي عجوز ، فشكوت ذلـك إليها ، فقالت: إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسـودين فركبت أحدهما وركبت الآخر ، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل ، فإذا برجلين معلقـين بأرجلـهما ، فقالا: ما جاء بك ؟ فقلت: أتعلم السحر ، فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفـري وارجعـي ، فأبيت وقلت: لا ، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت ففـزعت فلم أفعل فرجعت إليهما ، فقالا: أفعلت ؟ قلت: نعم ، فقالا: فهل رأيت شيئاً ؟ قلت: لم أر شيئاً ، فقالا لي: لم تفعلي ارجعي إلى بلادك ولا تكفري ، فأبيت ، فقالا: اذهبي إلى ذلـك التـنور فبولي فيه ، فذهبت ، فاقشعررت وخفت ، ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلـت ، فقالا: فما رأيت ؟ فقلت: لم أر شيئا ، فقالا: كذبت لم تفعلي ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنك على رأس أمرك ، فأبيت ، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت إليه فبلت فيه ، فرأيت فارساً متقنعا بحديد خرج مني حتى ذهب في السماء وغاب عني حتى ما أراه ، فجئتهما فقلت: قد فعلت ، فقالا: ما رأيت فقلت فارساً متقنعاً خرج مني فذهب في السـماء حـتى ما أراه فقالا: صدقت ذلك إيمانك خرج منك ، اذهبي ، فقلت: للمرأة

---

(١) عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي ، أبو عبدالله المدني ، تابعي ولد في أوائل خلافة عثمان ، وهو عالم ثقة وفقيه ثبت مشهور ، توفي سنة ٩٤ هـ . انظر: المنتظم لابن الجوزي (٣٣٣/٦) ، الكاشف للذهبي (٢٦٣/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٣٨٩) .

والله ما أعلم شيئاً ، وما قالا لي شيئاً ، فقالت: بلى لن تريدي شيئا إلا كان ، خذي هذا القمح فابذري ، فبذرت فقلت: أطلعي فأطلعت ، وقلت: أحقلي[١] أحقلت ، ثم قلت: أفركي[٢] فأفركت ، ثم قلت: أيبسي فأيبست ، ثم قلت: أطحني فأطحنت ، ثم قلت: أخبزي فأخبزت ، فلما رأيت أني لا أريد شيئا إلا كان سقط في يدي ، وندمت والله يا أم المؤمنين والله ما فعلت شيئا قط ولا أفعله أبداً[٣] .

والشاهد فيه قوله : (فقلت: أطلعي فأطلعت ، وقلت: أحقلي فأحقلت ، ثم قلت: أفركي فأفركت ، ثم قلت: أيبسي فأيبست ، ثم قلت: أطحني فأطحنت ، ثم قلت: أخبزي فأخبزت) وهو ليس صريحاً في الدلالة على المطلوب لاحتمال أن يكون هذا من تأثير السحر على الحواس ، فقد يرى الإنسان الشيء بخلاف ما هو عليه نتيجة للسحر ، ويحتمل في قضية الطحن والخبز خاصة أن تكون من فعل الشياطين ، وعلى هذا فلا يصح الاعتماد على هذا الدليل في القضية .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' الساحر غايته أن يتصرف في الأعراض بفعل ما يحدث عنه الأمراض والقتل ونحو ذلك مما يقدر عليه سائر الآدميين ، فإن الإنسان يمكنه أن يضرب غيره حتى يمرضه أو يقتله ، فالساحر والعائن وغيرهما ممن يتصرف بقوى الأنفس يفعل في المنفصل ما يفعله القادر في المتصل ، فهذا من أفعال العباد المعروفة المقدورة ، وأما قلب الأعيان إلى ما ليس في طبعها الانقلاب إليه كمصير الخشب حيواناً حساساً متحركاً بالإرادة يبلع عصياً وحبالاً ولا يتغير ، فليس هذا من جنس مقدور البشر لا معتاداً ولا نادراً ولا يحصل بقوى نفس أصلاً ، ولهذا لما رأى سحرة فرعون ذلك علموا أنه خارج عن

---

(١) أحقل الزرع إذا استجمع خروج نباته وقيل: هو إذا ظهر ورقه واخضر ، وقيل: هو إذا كثر ورقه ، وقد أحقل الزرع وقيل: إذا تشعب ورقه من قبل أن تغلظ سوقه . انظر: لسان العرب (١٦٠/١١) .

(٢) الفرك دلك الشيء حتى ينقشع قشره عن لبه . انظر لسان العرب (٤٧٣/١٠) .

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره جامع البيان (٤٦٠/١-٤٦١) ، وقال ابن كثير في تفسيره (١٢٦/١) : فهذا إسناد جيد إلى عائشة رضي الله عنها .

طريقة السـحر ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[1]''[2].

ثانياً : الطيران في الهواء والمشي على الماء ونحوها ، وهذه لا شك أ ا تدخل في مقدور السـاحر ، فكمـا تقرر سابقاً أن للساحر شياطين تعينه على مطلوبه ، فقد تحمله في الهواء وتسـافر بـه من بلد إلى بلد ، والناس لا يرون من يحمله فيظنونه يطير في الهواء ، وكذلك المشـي علـى الماء ، والوقوف على رأس قصبة ، والجري على الخيط المستدق ونحوها فإن الشـياطين هي التي تحمله في الحقيقة ، وقد تظهر تلك الشياطين للناس في صورة كلب أو حيوان آخر يركبه الساحر ، وليس هذا من المحال في شيء والله أعلم .

يقـول شـيخ الإسـلام رحمـه الله : ''ما يأتي به الساحر والكاهن وأهل الطبائع والصـناعات والحيل وكل من ليس من أتباع الأنبياء لا يكون إلا من مقدور الإنس والجن فمـا يقدر عليه الإنس من ذلك هو وأنواعه والحيل فيه كثير ، وما يقدر عليه الجن هو من جـنس مقدور الإنس وإنما يختلفون في الطريق ، فإن الساحر قد يقدر على أن يقتل إنساناً بالسحر أو يمرضه أو يفسد عقله أو حسه وحركته وكلامه بحيث لا يجامع أو لا يمشي أو لا يتكلم ونحو ذلك ، وهذا كله مما يقدر الإنس على مثله لكن بطرق أخرى ، والجن يطيرون في الهواء وعلى الماء ، ويحملون الأجسام الثقيلة كما قال العفريت لسليمان ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾[3] وهـذا الجنس يكون لمن هو دون الإنس والجن من الحيوان كالطـيور والحيتان ، والإنس يقدر على جنسه ، ولهذا لم يكن هذا الجنس آية لنبي لوجوده لغـير الأنبياء ، فكثير من الناس تحمله الجن ، بل شياطين الجن وتطير به في الهواء وتذهب به إلى مكان بعيد ، كما كان العفريت يحمل عرش بلقيس من اليمن إلى مكان بعيد .

---

(١) سورة الشعراء آية رقم (٤٦-٤٨) .

(٢) الصفدية لابن تيمية (١٣٧/١-١٣٨) .

(٣) سورة النمل آية رقم (٣٩) .

ونحن نعرف من هؤلاء عدداً كثيراً وليسوا صالحين ، بل فيهم كفار ومنافقون وفساق وجهـال لا يعرفون الشريعة ، والشياطين تحملهم وتطير بهم من مكان إلى مكان ، وتحملهم إلى عرفات فيشهدون عرفات من غير إحرام ولا تلبية ولا طواف بالبيت ، وهذا الفعل حرام والجهال يحسبون أنه من كرامات الصالحين ، فتفعله الجن بمن يحب ذلك مكراً به وخديعة ، أو خدمـة لمـن يسـتخدمهم من هؤلاء الجهال بالشريعة ، وإن كان لـه زهد وعبادة ، وكـذلك الجن كثيراً ما يأتون الناس بما يأخذونه من أموال الناس من طعام وشراب ونفقة ومـاء وغير ذلك ، وهو من جنس ما يسرقه الإنسي ويأتي به إلى الإنسي ، لكن الجن تأتي بالطعام والشراب في مكان العدم ''[1] .

---

(١) النبوات لابن تيمية (٥٢٣/١-٥٢٤) ، وللاستزادة انظر: المصدر السابق (٨٠٤/٢ ، ٩٩٥-٩٩٦) .

المبحث الثالث

الكهانة

الكهانـ ـ ـة

قـ ـبل الشروع في الكلام على السببية في الكهانة وما قرره شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الباب فإنني أبدأ أولاً بالكلام على الكهانة تعريفها وحكمها ومن ثم أدخل في المقصود منها في هذا البحث .

أولاً : تعريف الكهانة والكاهن :

الكِهانـ ـة : بفـ ـتح الكاف ويجوز كسرها : إدعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب(١) .

والكـ ـاهن: اسم يطلق على من يخبر ببعض الغائبات ، ويتكلم بكلام مسجوع ، وله قرين من الجن(٢) .

وقد أطلق هذا الاسم على عدة أصناف منها :

١- الذي يضرب بالحصى لمعرفة الغيب ، وهذا نوع من الكهانة(٣) .

٢- المنجم ، وهو الذي يخبر بواسطة النجم عن المغيبات في المستقبل(٤).

٣- القاضي بالغيب ، وهو الذي يحكم بين الناس بالغيب(٥)، وقـ ـد كانت العرب إذا

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (٢٢٧/١٠) .

(٢) انظر: النبوات لابن تيمية (١٦٦/١ ، ١٠٤٨/٢)

(٣) انظر: لسان العرب لابن منظور (٢١٥/١٠) ، القاموس المحيط للفيروزأبادي (٢٥٦/٣) مادة طرق ، فتح الباري لابن حجر (٢٢٧/١٠) ، مجمع بحار الأنوار للكجراتي (٤٣٩/٣) .

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر (٢٢٧/١٠) ، حواشي الشرواني (٦٢/٩) .

(٥) انظر: فتح الباري لابن حجر (٢٢٧/١٠) .

تنازعت في أمر تذهب إلى أحد الكهنة ليحكم بينهم[١].

٤- العراف ، فبعض العلماء يسمي الكاهن عرافاً ويسوي بينهما ، بينما هناك آخرون يفرقون بينهما ، ومما قيل في التفريق بينهما ما يلي :

أ- أن الكـاهن هو الذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الحيلة ، والعراف: الذي يخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك [٢] .

ب- أن الكاهن هو الذي يخبر بما يقع في المستقبل ، والعراف: هو الذي يخبر بما وقع كإخراج المخبآت وكتعيين السارق[٣] .

ج- أن الكـاهن هو الذي لـه رئي من الجن تأتيه بالأخبار ، والعراف: الذي يحدس ويتخرص[٤] .

د- أن الكاهن: من يتعاطى الخبر عن الكائنات في المستقبل ، ويدعي معرفة الأسرار ، بينما العراف: هو المنجم[٥] .

والتحقـيق أن العراف إن لم يدخل في مسمى الكاهن في اللغة ، فهو داخل في معناه شرعاً فكلاهما يدعي الغيب ، ويخبر عن بعض المغيبات ، ولكن الاختلاف في السبب الذي يسـتند إليه كلاً منهما ، فبينما يستند الكاهن على خبر الشياطين التي تسترق السمع كما سـيأتي ، يسـتند العراف في ذلك إلى أمور أخرى فيها استعانة بالشياطين على غير طريقة استراق السمع .

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦٢/١ ، ٦٨) ، المنتظم لابن الجوزي (٢١٢/٢) .

(٢) انظر: المفردات للراغب (ص ٧٢٨) مادة كهن ، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص ٥٠٩) .

(٣) انظر: الفواكه الدواني للنفراوي المالكي (٣٤٤/٢) .

(٤) انظر: المغنى لابن قدامة (٣٠٥/١٢) ، وحاشية ابن عابدين (٢٤٠/٤) ، وشرح فتح القدير للسيواسي (٩٩/٦) .

(٥) انظر: حاشية ابن عابدين (٢٤٢/٤) .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' والعراف قد قيل: إنه اسم عام للكاهن والمنجم والـرمال ونحوهم ممن يتكلم في تقدم المعرفة بهذه الطرق ، ولو قيل: إنه في اللغة اسم لبعض هـذه الأنواع ، فسائرها يدخل فيه بطريق العموم المعنوي ،كما قيل في اسم الخمر والميسر ونحوهما ''[(١)] .

٥- ومـا يطلـق عليه مسمى الكاهن الساحر ، فقد جاء في بعض روايات حديث أصحاب الأخدود تسمية الساحر كاهناً ، قال في الحديث : ((**كان ملك من الملوك وكان لذلك الملك كاهن يكهن له ، فقال: الكاهن انظروا** لي **غلاما فهماً ...**)) الحديث[(٢)] .

والتحقيق التفريق بينهما ، فالساحر عنده تصرف بقتل وإمراض وغير ذلك ، بخلاف الكاهن فإن عنده أخبار فقط .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الكاهن إنما عنده أخبار ، والساحر عنده تصرف بقتل وإمراض وغير ذلك ''[(٣)] .

٦- ومما يطلق عليه مسمى الكاهن: العالم من علماء أهل الكتاب ؛ لأن العالم عندهم يخـبر ببعض الغائبات ، ولكن مصدره الوحي الذي نزل على الأنبياء ، بخلاف الكاهن عند العرب فمصدره الجن الذين يسترقون السمع .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الكاهن عند العرب هو الذي يتكلم بكلام مسجوع ولـه قرين من الجن ، وهذا الاسم ليس بذم عند أهل الكتاب بل يسمون أكثر العلماء بهذا الاسم ويسمون هارون عليه السلام وأولاده الذين عندهم التوراة بهذا الاسم والقدر المشترك

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧٣/٣٥) .

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق ، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٢٢٩٩/٤) ح(٣٠٠٥) بلفظ الســاحر دون الكاهن ، ورواه الترمذي في التفسير ، سورة البروج (٤٠٧/٥) ح(٣٣٤٠) بلفظه ، كلاهما من حديث صهيب ﷺ .

(٣) النبوات لابن تيمية (١٠٤٥/٢) .

العلـم بالأمـور الغائبة والحكم با ، فعلماء أهل الكتاب يخبرون بالغيب ويحكمون به عن الوحي الذي أوحاه الله ، وكهان العرب كانت تفعل ذلك عن وحي الشياطين ، وتمتاز بأ ا تسجع الكلام ،،[١] .

حكم الكهانة :

والكهانة محرمة بالكتاب والسنة ؛ لما تشتمل عليه من دعوى علم الغيب مع الاستعانة بالشياطين على ذلك ، فقد نص الله عز وجل في كتابه على أنه لا يعلم الغيب إلا هو ، قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[٣] ، وقال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾[٤] .

وعلى هذا كل من ادعى الغيب فإنه يكون كافراً ؛ لتكذيبه للنصوص الشرعية السابقة الدالـة على استئثار الله تعالى بالغيب ، ولما يتضمنه زعمه من دعوى مشاركة لله تعالى في بعض صفاته التي يختص با وهي علم الغيب[٥] .

---

(١) النبوات لابن تيمية (١٠٤٨/٢) .
(٢) سورة الأنعام آية رقم (٥٩) .
(٣) سورة النمل آية رقم (٦٥) .
(٤) سورة الجن آية رقم (٢٦-٢٧) .
(٥) انظر: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ ابن باز رحمه الله (١٢٠/١) .

وقـد ورد في القرآن العظيم نص خاص ذم الله تعالى فيه الكهان ، وأخبر أ م يتلقون عن الشياطين ، وأ م كذابون قال تعالى: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴾(١) .

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: ((**ليس منا من تطّير ، أو تطير له ، أو تكهن أو تكهـن له ، أو سحر ، أو سحِر له ، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد** ﷺ))(٢).

ولا يجوز الذهاب إلى الكهنة والعرافين ، فقد جاء الوعيد الشديد على من ذهب إليهم فـإن صدقهم في قولهم فإنه يكفر بذلك ؛ لأنه تصديق لمدعي علم الغيب ، وتكذيب لله عز وجـل الذي نفى عنهم ذلك ، يقول ﷺ : ((**من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد** ﷺ))(٣) .

وإن أتـاهم وسألهم ولم يصدقهم لم تقبل لـه صلاة أربعين ليلة ، يقول ﷺ : ((**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**))(٤) .

وهناك حالة يجوز فيها سؤال الكهنة والعرافين وذلك إذا كان السؤال بقصد اختبارهم ومعـرفة حالهم ، وعند السائل ما يميز به بين الصدق والكذب ، كما فعل النبي ﷺ مع ابن

---

(١) سورة الشعراء آية رقم (٢٢١-٢٢٣) .

(٢) رواه البزار كما في كشف الأستار (٣/٣٩٩-٤٠٠) ح(٣٠٤٤) ، والطبراني في الكبير (١٨/١٦٢) من حديث عمران بن حصين ﷺ ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٣٣) : رواه البزار بإسناد جيد .

(٣) رواه أحمـد (٢/٤٢٩) واللفـظ لـ ـه ، وأبو داود في الطب باب في الكاهن (٤/٢٢٥-٢٢٦) ح(٣٩٠٤) ، والتـرمذي في الطهـارة باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض (١/٢٤٢-٢٤٣) ح(١٣٥) ، وابن ماجة في الطهارة وسـننها باب النهي عن إتيان الحائض (١/٢٠٩) ح(٦٢٩) ، والدارمي في الطهارة (١/٢٠٧) ح(١١٤١) كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ ، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٧٣٩) : صحيح .

(٤) رواه مسـلم في السـلام ، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٤/١٧٥١) ح(٢٢٣٠) عن بعض أزواج النبي ﷺ بلفظه .

صياد[١] حينما سأله عن بعض الأمور ، وكذا إذا سمع منهم لكنه لم يصدقهم ولم يكذبهم إلا ببينة ، فيكون خبرهم من جنس خبر الفاسق .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأما سؤال الجن وسؤال من يسألهم ، فهذا إن كان علـى وجه التصديق لهم في كل ما يخبرون به والتعظيم للمسئول فهو حرام ، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن معاوية بن الحكم السلمي[٢] قال: قلت: يا رسول الله ، أموراً كنا نصنعها في الجاهلية ، كنا نأتي الكهان ؟ قال: ((**فلا تأتوا الكهان**))[٣] .

وفي صحيح مسلم ... عن بعض أزواج النبي ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: ((**من أتى عرافاً فسأله عن شيء** لم **تقبل له صلاة أربعين يوماً**))[٤].

وأما إن كان يسأل المسئول ليمتحن حاله ويختبر باطن أمره وعنده ما يميز به صدقه من كذبـه فهذا جائز ، كما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ سـأل ابن صياد فقال: ((**ما يأتـيك ؟**)) فقال: يأتيني صادق وكاذب ، قال: ((**ما ترى** ؟)) قال: أرى عرشاً على الماء قال: ((**فإني قد خبأت لك خبيئاً**)) قال: الدخ الدخ ، قال: ((**اخسأ فلن تعدو قدرك**)) [٥]، فإنما أنت من إخوان الكهان

(١) عـبدالله بن صائد ، كان أبوه من اليهود ولا يدرى من أي قبيلة هو ، وقد ذكره ابن حجر ضمن الطبقة الرابعة وهي فيمن ذكر خطأ أنه من الصحابة ، وسيأتي تفصيل فيه (ص٥٤٢) . انظر: الإصابة لابن حجر (١٣٣/٣) .

(٢) معاويـة بن الحكم السلمي ، صحابي سكن المدينة ، ويعد في أهل الحجاز . انظر : الاستيعاب لابن عبدالبر (٣/ ٣٨٣) ، الإصابة لابن حجر (٤١١/٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٥٣٧) .

(٣) رواه مسلم في السلام ، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (١٧٤٨/٤) ح(٥٣٧) عن معاوية بن الحكم بلفظه .

(٤) تقدم تخريجه (ص ٥٣٦) .

(٥) روى البخاري بعضه في الجنائز باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١/ ٤٥٤) ح(١٢٨٩) مـن حـديث ابن عمر رضي الله عنه ، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد بعضه (٤/ ٢٢٤١) ح(٢٩٢٥)، وبعضه (٢٢٤٤/٤) ح(٢٩٣٠) ، كلاهما من حديث ابن عمر وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما .

وكذلك إذا كان يسمع ما يقولونه ويخبرون به عن الجن كما يسمع المسلمون ما يقول الكفار والفجار ليعرفوا ما عندهم فيعتبروا به ، وكما يسمع خبر الفاسق ويتبين ويتثبت فلا يجزم بصدقه ولا كذبه إلا ببينة ''[١] .

السببية في **الكهانة**

والمقصـود بذلك بيان ودراسة السبب في حصول الكهانة ، ويمكن أن نرجع الكهانة إلى ثلاثة أسباب :

الأول: اسـتراق الشـياطين للسمع ، وهذا السبب جاء ذكره في الكتاب والسنة ، فعـندما يقضي الله عز وجل الأمر تتكلم الملائكة بذا الأمر الذي قضي ، ويتكلم أهل كل سماء بذلك ، حتى يبلغ السماء الدنيا أو السحاب كما في بعض الروايات ، وحينئذ تسترق الشـياطين السـمع ، ويستمعون إلى كلام الملائكة في ذلك الأمر الذي قضي ، ويلقي كل شـيطان مـا سمعـه إلى الذي تحته مع الكذب فيه ، حتى تصل إلى أوليائهم من الكهان ، فيـزيدون فـيها من الكذب مقداراً كثيراً ، ويخبرون با الناس ، فيصدقهم الناس في كل ما يقولونه بسبب الكلمة الصادقة التي استرقتها الشياطين من الملائكة .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أ م بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله ﷺ : ((**مـاذا كنتم تقولون** في **الجاهلية إذا رمي** ب**مثل هذا ؟**)) قالوا: الله ورسوله أعلم كنا نقول: ولـد اللـيلة رجل عظيم ، ومات رجل عظيم ، فقال رسول الله ﷺ : ((**فإنا لا يرمى ا لموت أحد ، ولا** ل**حياته ، ولكن ربنا تبارك وتعا**لى **اسمه إذا قضى أمراً سبح** ح**ملة العرش ،** ثم **سـبح أهل السماء الذين يلونم ، ح**تى **يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ،** ثم **قال الـذين يلـون** ح**ملة العرش** ل**حملة العرش: ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونم ماذا قال ، قال:**

---

(١) إيضاح الدلالة في عموم الرسالة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩/٦٢-٦٣) .

فيسـتخبر بعـض أهل السماوات بعضاً ، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا ، فتخطف الجن السمع ، فيقذفون إلى أوليائهم ، ويرمون به ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يقْرفون[١] **فيه ويزيدون**))[٢] .

وعـن عائشـة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**إن الملائكـة تنـزل في العنان** - وهو السحاب - **فتذكر الأمر قضي في السماء ، فتسترق الشـياطين السـمع فتسـمعه ، فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**))[٣] .

وعـن عائشة رضي الله عنها قالت سأل رسول الله ﷺ ناس عن الكهان ؟ فقال: ((**لـيس بشيء**)) فقالوا: يا رسول الله ، إنهم يحدثونا أحياناً بشيء فيكون حقاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((**تلـك الكلمة من الحق يخطفها من الجني فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة**))[٤] .

وعـن أبي هريرة رضي الله عنه إن نبي الله ﷺ قال: ((**إذا قضى الله الأمر في السماء ضـربت الملائكـة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا** ﴿ فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ﴾ **للذي قال** ﴿ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾[٥] **فيسمعها مسـترق السـمع ، ومسـترق السمع هكذا بعضه فوق بعض** - ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه - **فيسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من**

---

(١) يقرفون : أي يخلطون فيه الكذب . انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٢٢٧/١٤) .
(٢) رواه مسلم في السلام ، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (١٧٥٠/٤) ح(٢٢٢٩) بلفظه .
(٣) رواه البخاري في بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة (١١٧٥/٣) ح(٣٠٣٨) بلفظه .
(٤) رواه الـبخاري في الطـب بـاب الكهانة (٢١٧٣/٥) ح(٥٤٢٩) واللفظ لـه ، ومسلم في السلام باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (١٧٥٠/٤) ح(٢٢٢٨) .
(٥) سورة سبأ آية رقم (٢٣) .

تحـته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء))[١] .

وقد كانت الكهانة شائعة عند العرب قبل البعثة النبوية ، فكانت الجن تسترق السمع وتلقـي الأخـبار إلى الكهان ويخبر با الكهان الناس مع الكذب فيها ، فلما بعث النبي ﷺ شـدد علـيهم ، فملئت السماء شهباً لرجمهم وصدهم ، فعندما يجلسون لاستراق السمع تضـربهم الشـهب وتحرقهم ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقي الكلمة التي استمع إليها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه الشهاب .

قال الله عز وجل عن الجن الذي يسترقون السمع : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾[٤] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦

---

(١) رواه الـبخاري في تفسير القرآن ، باب ﴿ حتى إِذَا فُزع عن قُلُوبهم قَالُوا ماذَا قَالَ ربكُم قَالُوا الْحق وهو الْعلِي الْكَبِير ﴾ (٤/١٨٠٤) ح(٤٥٢٢) بلفظه .

(٢) سورة الجن آية رقم (٨-٩) .

(٣) سورة الملك آية رقم (٥) .

(٤) سورة الحجر آية رقم (١٦-١٨) .

وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[1] .

وقد اختلف العلماء ، هل الكهانة انقطعت أو لا ؟ على قولين :

أحدهما: أ ا انقطعت ، واستدلوا بالآيات السابقة التي فيها ذكر حفظ السماء وحراستها بالشهب[2] .

الآخر : أ ا لم تنقطع واستراق السمع ما يزال مستمراً ، لكن الشياطين منعت منه في زمن البعثة ، وبعد زمن البعثة رجعت الشياطين إلى استراق السمع ، ولكنها تكثر في الأماكن التي يقل فيها العلم وتخبوا فيها أنوار التوحيد ، بخلاف بلاد العلم والتوحيد فإ ا تقل فيها أو تضمحل .

والـذي يظهر لي أن هذا هو القول الراجح ، فقد جاء في الحديث عن ابن عمر أن رسـول الله ﷺ مـر بابن صياد في نفر من أصحابه فيهم عمر بن الخطاب وهو يلعب مع الغلمان عند أُطُم بني مغالة[3] وهو غلام ، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده ثم قال: « **أتشهد أني رسول الله ؟** » ، فنظر إليه ابن صياد قال: أشهد أنك رسول الأميين ، ثم قـال ابـن صياد للنبي ﷺ : أتشهد أنت أني رسول الله ، فقال النبي ﷺ: « **آمنت بالله وبرسله** » ، ثم قال النبي ﷺ : « **ما يأتيك ؟** » قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب ، فقال النبي ﷺ: « **خلط عليك الأمر** » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « **إني خبأت لك خبيئاً** » وخبأ لـه ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾[4] ، فقال ابن صياد: هو الدخ فقال رسول الله

(١) سورة الصافات آية رقم (٦-١٠) .
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/١٠-١٠) .
(٣) أُطُم : بناء كالحصن . وبني مغالة : بطن من الأنصار . انظر: فتح الباري (٣/٢٦١) .
(٤) سورة الدخان آية رقم (١٠) .

ﷺ : ((**اخسـأ فلـن تعدو قدرك**)) ، قال عمر : يا رسول الله ، ائذن لي فأضرب عنقه ، فقـال رسـول الله ﷺ : ((**إن يك حقاً فلن تسلط عليه ، وإن لا يكنه فلا خير لك** في **قتله**))[١].

فـابن صياد كان كاهناً في زمن النبي ﷺ ، وقد أخبر عن نفسه أنه يأتيه من الشياطين الصـادق والكـاذب ، ولم يستطع أن يعرف شيئاً مما خبأه لـه رسول الله ﷺ سوى هذه الكلمـة الناقصة ((الدخ)) ، ولهذا قال لـه النبي ﷺ : ((**اخسأ فلن تعدو قدرك**)) يعني إنما أنت من إخوان الكهان .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله عن ابن صياد : '' وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال ، لكنه كان من جنس الكهان ، قال لـه النبي: ((**قد خبأت لك خبأ**)) قال: الدخ الدخ ، وقد كان خبأ له سـورة الـدخان ، فقال لـه النبي: ((**اخسأ فلن تعدو قدرك**)) يعنى: إنما أنت من إخوان الكهـان ، والكهـان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع ، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب ''[٢] .

ويقـول أيضاً : '' فالكهانة مثلا وهو الإخبار ببعض الغائبات عن الجن أمر معروف عـند الـناس ، وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان ، وإنما ذهب ذلك بنبوة محمد ﷺ وهـم يكثـرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة ، فهم كثيرون في أرض عباد الأصنام ،

---

(١) تقـدم تخريجه (ص ٥٣٧) ، وهذا اللفظ للترمذي في الفتن ، باب مـا جـاء في ذكر ابن صـائد (٤/٤٥٠) ح(٢٢٤٩) .

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٢٨٣) .

ويـوجدون كـثيراً عـند النصارى ، ويوجدون كثيراً في بلاد المسلمين حيث نقص العلم والإيمان بما جاء به الرسول ؛ لأن هؤلاء أعداء الأنبياء ''[١] .

ويقول أيضاً : '' وقبل زمان البعث وبعده كان الرمي خفيفاً لم تمتلئ به السماء كما ملئت حين نزول القرآن ''[٢] .

الـثاني مـن أسباب الكهانة : نفس الكاهن وطبيعته ، فالكهان أشخاص ذووا أنفس شـريرة تتعامل مع الجن والشياطين وتتآلف معها ، والأرواح إنما تأتلف مع ما يناسبها كما في الحـديث الصـحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت النبي ﷺ يقول: ((**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف**))[٣].

يقول الخطابي[٤] : '' الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور ومساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه ''[٥] .

---

(١) النـبوات لابـن تيمية (١٦٦/١-١٦٧) . وفي نفس المصدر (١٠١٩/٢-١٠٢٠) : '' والكهانة كانت ظاهرة كثيرة بأرض العرب ، فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين وبطلت أو قلت ، ثم إنها تظهر في المواضع التي يختفي فيها أثر التوحيد وقد كان حول المدينة بعد أن هاجر النبي ﷺ كهان يتحاكمون إليهم ، وكان أبو بردة بن نيار كاهناً ثم أسلم بعد ذلك وهو من أسلم '' .

(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية (٣٥٥/٥) ، وانظر: نفس المصدر (٦١/٦ ، ٦٧) .

(٣) رواه الـبخاري في أحاديث الأنبياء باب الأرواح جنود مجندة (١٢١٣/٣) ح(٣١٥٨) ، ومسلم في البر والصلة باب الأرواح جنود مجندة (٢٠٣١/٤) ح(٢٦٣٨) كلاهما بلفظه .

(٤) حمـد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ، أبو سليمان ، ولد سنة ٣١٩ هـ ، وأخذ عن جماعة من أهل العلم ، كان محدثاً فقيهاً أديباً لغوياً ، توفي سنة ٣٨٨ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٣/١٧) ، البداية والنهاية لابن كثير (٢٣٦/١١) ، شذرات الذهب لابن العماد (١٢٧/٣-١٢٨) .

(٥) فتح الباري لابن حجر (٢٢٧/١٠) وقد بحثت عن هذا النص في مظانه في معالم السنن فلم أجده ، وجاء في فتح الباري (٢٢٩/١٠) نفس هذا النص باختلاف يسير منسوباً للخطابي أيضاً ولفظه : '' هؤلاء الكهنة فيما علم بشهادة الامتحان قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطبائع نارية ، فهم يفزعون إلى الجن في أمورهم ويستفتونهم في الحوادث فيلقون إليهم الكلمات '' .

الـثالث من أسباب الكهانة : ما يقدمه الكاهن للجن مقابل الحصول على الأخبار ، وهـو مـن جنس ما يقدمه الساحر لهم ، فالجن لا يعينون الكاهن إلا بالشرك أو الظلم أو الفواحش أو نحوها ، فيطلبون منه مثلاً شيئاً من العبادة فيفعلها لهم ، ويقع بذلك في الشرك ثم يقومون بإخباره ببعض الأخبار في مقابل ذلك .

وليس كل ما يخبرونه به صحيحاً ؛ لأن فيهم من يصدق وفيهم من يكذب ، وإن كان الأخـير أكثر وأغلب ، كما في قصة ابن صياد لما قال له النبي ﷺ : « **ما يأتيك ؟** » قال: يأتيني صادق وكاذب[1] ، فهو قد عرف أن فيمن يخبره من الجن الصادق والكاذب ، وبعض الكهان لا يدرك هذه القضية فيظن أن كل ما يخبرونه به صدقاً ، فعندما يزيد عليها كثيراً من الكذب ، تكون أخباره كلها كاذبة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم في الإخبار بالأمـور الغائـبة ، كما يخبر الكهان فإن في الإنس من له غرض في هذا ؛ لما يحصل به من الرياسـة والمال وغير ذلك ، فإن كان القوم كفاراً كما كانت العرب لم تبال بأن يقال: إنه كاهن كما كان بعض العرب كهاناً ، وقدم النبي ﷺ المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلـبون التحاكم إلى الكهان .... وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن ، بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان ، فإنه لا يخدم الإنسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسي بأن يطيعه الإنسي في بعض ما يريده ، إما في شرك ، وإما في فاحشة وإما في أكل حرام ، وإما في قتل نفس بغير حق ، فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفـر والفسوق والعصيان ، ولهم لذة في الشر والفتن يحبون ذلك ، وإن لم يكن فيه منفعة لهم ''[2] .

(١) تقدم تخريجه (ص ٥٣٧) .

(٢) الفرقان بين الحق والباطل - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/٨٢-٨٣) .

المبحث الرابع

البـدع

البــدع

قبل الشروع في الكلام على السببية في البدع وما قرره شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الـباب فـإنني أبدأ أولاً بالكلام على البدعة تعريفها وحكمها وأقسامها ومن ثم أدخل في المقصود منها في هذا البحث .

أولاً : تعريف البدعة :

البدعة في اللغة : اسم من الابتداع ، كالرفعة من الارتفاع ، وأصل ماد ا بدع ، ولها في لغة العرب أصلان :

أحدهما: ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال ، فأبدعت الشيء قولاً أو فعلاً ، إذا ابتدأته لا عـن سابق مثال ، ومنـه قول الله عز وجل : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] ، أي مـبدِعهما ، وتقول العرب: ابتدع فلان الركِي[2] إذا استنبطه ، وفلان بِدع في هذا الأمر ، أي أول ، ومـنه قـوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[3] أي ما كنت أول من أرسل قد أرسل قبلي رسل كثير .

الأصل الآخر: الانقطاع والكلال ، ومنه قولهم : أُبدعت الراحلة إذا كلّت وعطِبت ، وأُبدِع بالرجل إذا كلّت ركابه ، أو عطبت وبقي منقطعاً[4] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم (١١٧) .

(٢) الركي : هي البئر . انظر: لسان العرب لابن منظور (٣٣٣/١٤) .

(٣) سورة الأحقاف آية رقم (٩) .

(٤) انظر فيما سبق: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢٠٩/١-٢١٠) ، لسان العرب لابن منظور (٦/٨) ، المصباح المـنير للفيومـي (ص ١٥) . وللاستزادة انظر: غريب الحديث لابن سلام (٩/١) ، المفردات للراغب (ص ١١٠) ، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١٠٦/١) ، مختار الصحاح للرازي (ص ٣٨) .

البدعة في الاصطلاح(١) :

تعددت تعريفات العلماء للبدعة في الاصطلاح ، وأبرز ما قيل في ذلك تعريفان :

الأول: ما قرره شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الباب ، حيث عرفها بأ ا : الدين الذي لم يأمر الله تعالى به ولا رسوله ﷺ .

شرح التعريف :

أما قولـه : الدين : فهذا يدخل تحته كل ما يتعبد به الله تعالى من الأقوال والأعمال والاعتقادات ، فهذه يصدق عليها مسمى الدين .

وقـد احتـرز بذا عما ليس بدين في ذاته كالمباحات والمعاصي والسيئات ، فهذه لا تـدخل تحت مسمى البدعة ، إذا لم يتخذها العبد ديناً يتدين به ، ويتقرب إلى الله تعـالى بفعله .

وقولـه : لم يأمر الله تعالى به ولا رسوله ﷺ : يدخل تحته كل ما لم يأمر الله تعالى به ولا رسـوله ﷺ ، سواء أمر إيجاب أو أمر استحباب ، ففعل الإنسان له مع اعتقاد أنه دين يدخله تحت دائرة البدعة .

وقـد احترز بذا عما أمر الله تعالى به أو رسوله ﷺ ، سواء أمر إيجاب أو استحباب فإن عمله وتدين الله تعالى به قربة وطاعة .

إذن البدعة مركبة من أمرين :

الأول: تعبد الإنسان با وتدينه بقولها أو عملها أو اعتقادها .

---

(١) للاستزادة في تعريف البدعة اصطلاحاً انظر: المفردات للراغب (ص ١١١) ، الصحاح للجوهري (١١٨٤/٣) ، مختار الصحاح للرازي (ص ٣٨) ، حقيقة البدعة وأحكامها لسعيد الغامدي (٢٥٢/١-٢٦٧) .

الثاني: أ ا غير مأمور با لا إيجاباً ولا استحباباً .

فأي أمر اجتمع فيه هذان الأصلان فإنه يكون بدعة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' البدعة: هي الدين الذي لم يأمر الله به ورسوله ﷺ ، فمن دان ديناً لم يأمر الله ورسوله ﷺ به فهو مبتدع بذلك ''[١] .

ويقول أيضاً : '' البدعة: ما لم يشرعه الله من الدين ، فكل من دان بشيء لم يشرعه الله فذاك بدعة ''[٢] .

التعـريف الـثاني: تعـريف الشاطبي[٣] في الاعتصام وهو أشهر من كتب عن البدع تعريفها وأنواعها وأحكامها بكتابة منهجية منظمة .

فقد ذكر لها تعريفين:

١- طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه .

٢- طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية[٤] .

شرح التعريفين:

قولـه : **طريقة** : الطريقة هي السبيل والسنة وهي ما رسم للسلوك عليها .

---

(١) الاستقامة لابن تيمية (٥/١) .

(٢) المصدر السابق (٤٢/١) .

(٣) إبراهيم بن موسى الغرناطي أبو إسحاق الشاطبي ، عالم أصولي محقق ، له مؤلفات عديدة توفي سنة ٧٩٠ هـ . انظر: الأعلام للزركلي (٧٥/١) .

(٤) الاعتصام للشاطبي (٣٧/١) .

وقـولـه : في **الـدين** : هذا قيد للبدعة ، وقيدت بذلك ؛ لأ ا اخترعت فيه وإليه أضافها صاحبها .

وهـذا القيد يحترز به عن الطريقة المخترعة في الدنيا ، فإ ا لا تسمى بدعة كإحداث الصنائع والبلدان التي لا عهد با فيما تقدم .

وقـوله : **مختـرعة** : معناه أ ا ابتدعت في الدين على غير مثال تقدمها من الشارع ، وبذا القيد يخرج ما لـه أصل في الشريعة فإنه لا يدخل تحت مسمى البدعة .

وقوله : **تضاهي الشرعية** : يعني تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك ، وذلك كنذر الصيام قائماً لا يقعد ، ضاحياً لا يستظل ، وكالتزام كيفيات وهيئات معينة في العبادة كالذكر بيئة الاجتماع على صوت واحد ، وكالتزام عبادة في أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة ونحو هذه الأمور .

وقـولـه **: يقصد بالسلوك عليها المبالغة** في **التعبد** لله **سبحانه** : هذا من تمام معنى الـبدعة ؛ لأنه المقصود من تشريعها ، فكأن المبتدع لم يتبين لـه أن ما وضعه الشارع في الدين من الحدود والقوانين كاف في حصول العبادة الشرعية ، فرأى من نفسه أنه لابد من وضع أمور أخرى لكي تحصل العبادة المقصودة .

وهذا القيد يخرج العادات المخترعة في الدين التي لا يقصد با العبادة ، وذلك كالمغارم الملزمة على الأموال على نسب مخصوصة وقدر مخصوص مما يشابه فرض الزكوات ولم يكن إليها ضرورة .

وإلى هنا ينتهي شرح التعريف الأول مما ذكره الشاطبي .

والتعـريف الثاني ينطبق عليه ما ينطبق على الأول وفيه اختلاف في آخره وهو قوله : **يقصد ا ما يقصد بالطريقة الشرعية** : ومعناه أن الشريعة جاءت لمصالح العباد في عاجلتهم وآجلـتهم وهي تشتمل على عبادات وعادات[1] ، وكل منهما تدخل فيه البدعة ، فهي إن تعلقـت بالعـبادات فإنمـا أتى بها المبتدع لكي يبالغ في التعبد لله عز وجل ، وإن تعلقت بالعادات فإنما أتى بها لتتم دنياه على تمام المصلحة فيها .

ومثال البدعة في العادات وضع المكوس في معاملات الناس وهذا الوضع إما أن يكون علـى قصـد حجر التصرفات وقتاً ما أو في حالة ما ؛ لنيل حطام الدنيا على هيئة الغاصب وسرقة السارق وقطع القاطع للطريق وما أشبه ذلك ، فهذا معصية وكبيرة من الكبائر .

وإما أن يكون قصد وضعه على الناس كالدين الموضوع ، والأمر المحتوم عليهم دائماً ، أو في أوقـات محدودة ، على كيفيات مضروبة ، بحيث تضاهي المشروع الدائم الذي يحمل علـيه العامة ، ويؤخذون به ، وتوجه على الممتنع منه العقوبة ، كما في أخذ زكاه المواشي والحرث وما أشبه ذلك ، فهذا بدعة بلا شك ؛ لأنه تشريع زائد ، وإلزام للمكلفين يضاهي إلـزامهم الـزكاة المفروضـة والديات المضروبة والغرامات المحكوم بها في أموال الغصاب والمتعبدين ، بل صار في حقهم كالعبادات المفروضة واللوازم المحتومة أو ما أشبه ذلك.

وبهذا تكون المكوس لـها حالتان :

الأولى: جهـة كـو ا معصـية محرمة على الفاعل أن يفعلها كسـائر أنواع الظلم والمعاصي .

---

(١) استعمل الشاطبي رحمه الله عبارة : عادات ، ومقصوده منها ما عقل معناه وعرفت مصلحته من أبواب الشريعة ، كالبيع والنكاح والشراء والطلاق والإجارات والجنايات . انظر: الاعتصام (٢/٧٩-٨٠) .

الثانـية : جهـة كونها بدعة من حيث أنها اختراع لتشريع يؤخذ به الناس إلى الموت كسائر التكاليف[1] .

ويظهـر مـن كلام الشاطبي رحمه الله أنه يريد أن يدخل تحت مسمى البدعة بعض التشريعات البشرية في أبواب العادات ، ويصدق هذا على بعض القوانين الوضعية في زماننا هـذا فهي طريقة في الدين مخترعة تضاهي الطريقة الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية .

أمـا شيخ الإسلام رحمه الله فمن خلال كلامه عن التشريعات الوضعية فلا يتبين أنه يجعلـها من قبيل البدع التي هي دون الكفر ، بل من قبيل الكفر على تفصيل ليس هذا محل ذكره[2] ، ويخص البدعة بما قصد للتعبد .

وإنمـا فصلت في هذا المقام لكي يتبين وجه الاختلاف بين التعريفات الثلاثة ، فالأول والـثاني يتفقان على اختصاص البدعة بقصد التعبد ، أما الثالث فإنه أعم منهما فيدخل تحته الأمور العادية من جهة كونها مضاهية للطريقة الشرعية كما تقدم إيضاحه .

---

(١) انظر فيما سبق : الاعتصام للشاطبي (٣٧/١-٤٢ ، ٨٠/٢-٨١) .

(٢) يقرر شيخ الإسلام رحمه الله مسألة الحكم بغير ما أنزل الله من جهة الطائفة الممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام المقاتلة عليها ، فإذا امتنعت أي طائفة عن شيء من الشريعة وقاتلت عليها فإنها تكفر ، ومن ذلك قضية الحكم بغير ما أنـزل الله فهـي كفر من حيث كونها امتناع عن شريعة من شرائع الإسلام ، ومن جنسها الامتناع عن دفع الزكاة والمقاتلة عليها كما حصل من المرتدين زمن الخليفة الصديق ﷺ . انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥١١/٢٨) .

حكم البدع :

والبدع محرمة دل على تحريمها نصوص الكتاب والسنة .

أما الكتاب : فجميع النصوص التي فيها أمر بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ، واتباع كتابه الكريم ، و ي عن اتباع ما ليس من ذلك ، والبدع جميعها كذلك ، فهي ما لم يشرعه الله في الدين ، أي: مالم يدخل في أمر الله ورسوله ﷺ ، وطاعة الله ورسوله ﷺ.

ومن النصوص في ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[1] ، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾[2] ، وقوله تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[3] ونظائر تلك الآيات كثيرة[4] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعليقاً على الآية الأولى : " فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله ، أو أوجبه بقوله أو فعله من غير أن يشرعه الله فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ، ومن اتبعه في ذلك فقد اتخذ شريكاً لله شرع له من الدين مالم يأذن به الله "[5].

وأمـا السـنة : فقد وردت أحاديث كثيرة تنهى عن البدع والابتداع وتذمهما فمن ذلك:

---

(١) سورة الشورى آية رقم (٢١) .

(٢) سورة الأنعام آية رقم (١٥٣) .

(٣) سورة الأعراف آية رقم (١-٣) .

(٤) انظر فيما سبق : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣١/٣٥-٣٦) .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٥٧٩/٢) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩٥/٤) .

١- حـديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ((**من أحدث** في **أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**)) وفي لفظ : ((**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**))[١].

٢- حـديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه وفيه: قال: كان رسول الله ﷺ يقول: ((**أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة**))[٢].

٣- حديث العرباض بن سارية[٣] رضي الله عنه وفيه قال رسول الله ﷺ : ((**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن كان عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، فتمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة**))[٤].

وقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله على العموم الوارد في الأحاديث وهو أن كل بدعة ضلالة ، وقرر بقاء هذا العموم على حاله .

---

(١) رواه البخاري في الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٩٥٩/٢) ح(٢٥٥٠) ، ومسلم في الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد المحدثات (١٣٤٣/٣) ح(١٧١٨) واللفظ له .

(٢) رواه مسلم في الجمعة ، باب تخفيف الخطبة (٥٩٢/٢) ح(٨٦٧) بلفظه .

(٣) عِرباض بن سارية السلمي ، أبو نجيح ، صحابي مشهور من أهل الصفة توفي بعد السبعين . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (١٦٦/٣) ، الإصابة لابن حجر (٤٦٦/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٣٨٨) .

(٤) رواه أحمـد (١٢٦/٤) بلفظه ، وأبو داود في السنة ، باب في لزوم السنة (١٣/٥-١٥) ح(٤٦٠٧) ، والترمذي في العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (٤٣/٥) ح(٢٦٧٦) ، وابن ماجة في المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١٥/١) ح(٤٢) . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وقال الحافظ أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم (٣٦/١) : هذ حديث جيد من صحيح حديث الشاميين .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله :'' إن المحافظة على عموم قول النبي ﷺ ((**كل بدعة ضلالة**)) متعين وأنه يجب العمل بعمومه ''[١] .

ويقول رحمه الله في موضع آخر: '' القول أن شر الأمور محدثاتها وأن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار والتحذير من الأمور المحدثات ، فهذا نص رسول الله ﷺ فلا يحل لأحد أن يدفع دلالته على ذم البدع ومن نازع في دلالته فهو مراغم ''[٢] .

ولكـن هناك من الناس من قسم البدعة إلى قسمين: حسنة وقبيحة ، واستدل لذلك بقـول عمر رضي الله عنه : نعمت البدعة[٣] ، وبأقوال وأفعال أحدثت بعد رسول الله ﷺ وليست بمكروهة ، أو هي حسنة للأدلة الدالة عليها من إجماع أو قياس كجمع المصحف ، وربمـا ضـم إلى تلك الأدلة ما عليه كثير من الناس من العادات فيجعل هذه أيضاً من أدلة حسن البدع .

وقد أجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه الأدلة بجوابين: مجمل ومفصل .

أمـا المجـمـل فقال رحمه الله : '' إما أن يقال ما ثبت حسنه فليس من البدع فيبقى العموم محفوظا لا خصوص فيه .

وإما أن يقال: ما ثبت حسنه فهو مخصوص من العموم ، والعام المخصوص دليل فيما عـدا صـورة التخصيص ، فمن اعتقد أن بعض البدع مخصوص من هذا العموم احتاج إلى دلـيل يصلح للتخصيص وإلا كان ذلك العموم اللفظي المعنوي موجِبا للنهي ، ثم المخصص هـو الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع نصاً واستنباطاً ، وأما عادة بعض البلاد أو

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٧٠/١٠) .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٥٨٣/٢) .

(٣) رواه مالك في الموطأ في الصلاة في رمضان ، باب ما جاء في قيام رمضان (١١٤/١) .

أكثرها ، وقول كثير من العلماء أو العباد أو أكثرهم ونحو ذلك ، فليس مما يصلح أن يكون معارضاً لكلام الرسول ﷺ حتى يعارض به ''[١] .

وأما المفصل فأكتفي منه بمسألتين :

الأولى قـول عمر رضي الله عنه عن صلاة التروايح : نعمت البدعة ، فهذه يرى شيخ الإسلام رحمه الله أ ا تسمية لغوية لا شرعية ؛ لأن البدعة في اللغة تعم كل ما فعل ابتداء من غـير مـثال سابق ، فإذا كان نص رسول الله ﷺ قد دل على استحباب فعل أو إيجابه بعد مـوته ، أو دل عليه مطلقاً ولم يعمل به ككتاب الصدقات الذي أخرجه أبو بكر رضي الله عنه ، فإذا عمل أحد ذلك العمل بعد موته صح أن يسمى بدعة في اللغة ؛ لأنه عمل مبتدأ .

والنبي ﷺ وأصحابه كانوا يصلون قيام رمضان على عهده جماعة وفرادى ، وقد قال لهـم في اللـيلة الثالـثة والرابعة لما اجتمعوا: ((**ما زال بكم الذي رأيت من صنيعكم حتى خشيت أن يكتب عليكم ، ولو كتب عليكم ما قمتم به ، فصلوا أيها الناس في بيوتكم فإن أفضل صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة**))[٢] .

فعلـل ﷺ عدم الخروج بخشية الافتراض فعلم بذلك أن المقتضي للخروج قائم ، وأنه لولا خوف الافتراض لخرج إليهم ، فلما كان في عهد عمر رضي الله عنه جمعهم على قارئ واحـد ، وأسرج المسجد فصارت هذه الهيئة ، وهي اجتماعهم في المسجد على إمام واحد مـع الإسراج عملاً لم يكونوا يعملونه من قبل فسمي بدعة ؛ لأنه في اللغة يسمى بذلك ، وإن لم يكن بدعة شرعية لأن السنة اقتضت أنه عمل صالح لولا خوف الافتراض ، وخوف الافتراض قد زال بموته ﷺ فانتفى المعارض .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٥٨٤/١) .

(٢) رواه البخاري في الأدب ،باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله (٢٢٦٦/٥) ح(٥٧٦٢) ، ومسلم في صلاة المسـافرين وقصرها ، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٥٣٩/١-٥٤٠) ح(٧٨١) كلهم من حديث زيد بن ثابت ﷺ واللفظ للبخاري .

المسألة الثانية : جمع المصحف ، فهذا عمل صالح كان المانع منه على عهد رسول الله ﷺ أن الوحـي كـان لا يـزال ينـزل ، فيغير الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، فلو جمع في مصـحف واحد لتعسر أو تعذر تغييره كل وقت ، فلما استقر القرآن بموته ﷺ ، واستقرت الشريعة بموته ﷺ أمن الناس من زيادة القرآن ونقصه ، وأمنوا من زيادة الإيجاب والتحريم ، والمقتضي للعمل قائم بسنته ﷺ فعمل المسلمون بمقتضى سنته ، وذلك العمل من سنته وإن كان قد يسمى في اللغة بدعة .

وهذا كنفي عمر رضي الله عنه ليهود خيبر ونصارى نجران ونحوهم من أرض العرب فـإن الـنبي ﷺ عهد بذلك في مرضه فقـال: ((**أخرجوا اليهود والنصـارى من جزيرة العرب**))[1] .

وإنما لم ينفذه أبو بكر رضي الله عنه لاشتغاله عنه بقتال أهل الردة ، وبشروعه في قتال فارس والروم ، ولقصر مدة خلافته رضي الله عنه .

وكذلك عمر لم يمكنه فعله في أول الأمر ؛ لاشتغاله بقتال فارس والروم ، فلما تمكن من ذلك فعل ما أمر به النبي ﷺ وإن كان هذا الفعل قد يسمى بدعة في اللغة[2].

---

(١) رواه البخاري في الجهاد ، باب جوائز الوفد . هل يستشفع إلى أهل الذمة ومعاملتهم (١١١١/٣) ح(٢٨٨٨) ، ومسـلم في الوصية ، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي به (١٢٥٧/٣-١٢٥٨) ح(١٦٣٧) كلاهما عن ابن عـباس رضي الله عنه بلفظ: اشتد الوجع برسول الله ﷺ وأوصى عند موته بثلاث: ((**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**)) الحديث . انظر: تلخيص الحبير لابن حجر (١٢٥/٤) .

ورواه مسـلم في الجهاد والسير ، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب (١٣٨٨/٣) ح(١٧٦٧) بلفظ : ((**لأخـرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب**)) الحديث ، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٨٤/١) ح(٢٣٤) بلفظه وكلاهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) انظر فيما سبق: اقتضاء الصراط المستقيم (٥٨٨/١-٥٩٣) .

السببية في البدع :

السببية في البدعة موضوع يمكن تناوله من ناحيتين :

الناحية الأولى : أسباب البدع .

الناحية الثانية : مسببات البدع .

أولاً : أسباب البدع :

أسـباب البدع كثيرة جداً ولا يمكن الإحاطة با في هذا البحث على وجه التفصيل ، ولكني سأذكر ما يتيسر منها ، وأراعي أن تكون من الأسباب الأسـاسية العامة ، مع بيان رأي شيخ الإسلام رحمه الله فيها .

وقـبل الشروع فيها لابد من معرفة أمر هام في هذا الأسباب وهو أ ا ليست مستقلة عن بعضها ، بل هي متلازمة يتبع بعضها بعضاً ويكمل أحدها الآخر .

أولاً: الجهـل ، وهـذا السبب من أبرز أسباب الابتداع ، فإن كثيراً من المبتدعة هم جهلة حقيقيون ولولا ذلك لما حصلت منهم تلك البدع ، فلو كان المبتدع عالماً علماً نافعاً أن فعل هذه البدعة يضر ضرراً راجحاً لم يفعلها ، فإن الإنسان إذا علم في أمر من الأمور أنه يضر فإنه لا يفعله اجتناباً لما يحصل منه من الضرر .

لكنه قد يفعل بعض الأمور الضارة لعدم علمه بكو ا تضر ضرراً راجحاً ، أو لظنه أ ا تنفع نفعاً راجحاً ، وكلاهما من الجهل ، لأن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل ، فمتى صدر خلافه ، فلا بد من غفلة القلب عنه ، أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه ، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بذا الاعتبار ، ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم : (كل من عصى الله فهو جاهل) وفسروا بذلك قوله

تعـــــالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ ﴾[1][2] .

قـال مجاهـد وغير واحد في تفسير هذه الآية: كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينـزع عن الذنب .

وكـان أبو العالية يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة .

وقـال قـتادة: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره[3].

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فأصل ما يوقع الناس في السيئات: الجهل وعدم العلم بكو ا تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أ ا تنفعهم نفعاً راجحاً ''[4] .

ويقول ابن القيم رحمه الله : '' فلو علم ما في الضار من المضرة ولوازمها حقيقة العلم لمـا آثره ، ولهذا من علم من طعام شهي لذيذ أنه مسموم فإنه لا يقدم عليه ، فضعف علمه بمـا في الضار من وجوه المضرة ، وضعف عزمه عن اجتنابه يوقعه في ارتكابه ، ولهذا كان الإيمان الحقيقي هو الذي يحمل صاحبه على فعل ما ينفعه وترك ما يضره ، فإذا لم يفعل هذا ولم يتـرك هذا لم يكن إيمانه على الحقيقة ، وإنما معه من الإيمان بحسب ذلك ، فإن المؤمن بالنار حقيقة الإيمان حتى كأنه يراها لا يسلك طريقها الموصلة إليها فضلا عن أن يسعى فيها

---

(١) سورة النساء آية رقم (١٧) .

(٢) انظـر فيما سبق : الحسنة والسيئة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٧/١٤ ، ٢٩١) ، اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٢٢٦/١) .

(٣) انظر: جامع البيان لابن جرير (٢٩٨/٤) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٩٨/١) .

(٤) الحسنة والسيئة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٠/١٤) .

بجهـده ، والمؤمن بالجنة حقيقة الإيمان لا تطاوعه نفسه أن يقعد عن طلبها ، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فيما يسعى فيه في الدنيا من المنافع أو التخلص منه من المضار ''[١] .

ثانـياً : إتـباع الهوى : وهو الميل مع النفس إلى ما تحبه و تهواه ، وهذا أحد أسباب المعاصـي والـبدع ، فإن العبد لا يفعل السيئة والبدعة إلا إذا كانت نفسه تطلبها و تهواها وتريدها .

وقد جاء في القرآن العظيم النهي عن اتباع الهوى في مواضع كثيرة جداً ، والنص على أنه سبب من أسباب الضلال قال تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾[٢] .

ففي هذه الآية نص الله سبحانه على النهي عن اتباع الهوى ، وعلل ذلك بأنه سبب في ضلال الناس عن سبيل الله عز وجل .

وقـال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٣] .

ففي هذه الآية بين جل ذكره أن عدم استجابة الكفار للرسول  هو بسبب إتباعهم لأهـوائهم ، وأنـه لا أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله عز وجل[٤] ، فهما طريقان لا

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١٩١/٢-١٩٢) .
(٢) سورة ص آية رقم (٢٦) .
(٣) سورة القصص آية رقم (٥٠) .
(٤) انظر : فتح القدير للشوكاني (١٧٨/٤) .

ثالث لهما إما إخلاص للحق وخلوص من الهوى ، وعندئذ لابد من الإيمان والتسليم ، وإما مماراة في الحق واتباع للهوى فهو التكذيب والشقاق ولا أضل ممن سلك هذا السبيل[(١)] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فكل من اتبع ذوقاً أو وجداً بغير هدى من الله ، سـواء كان ذلك عن حب أو بغض ، فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به ويتخذه ديناً ، وينهـى عمـا يبغضه ويذمه ويتخذ ذلك ديناً إلا بدى من الله ، وهو شريعة الله التي جعل علـيها رسوله ، ومن اتبع ما يهواه حباً وبغضا بغير الشريعة فقد اتبع هواه بغير هـدى من الله .

ولهـذا كـان السلف يعدون كل من خرج عن الشريعة في شئ من الدين من أهـل الأهواء ، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء ويذمو م بذلك ، ويـأمرون بأن لا يغتر بم ولو أظهروا ما أظهروه من العلم والكلام والحجاج أو العبادة والأحوال ''[(٢)]

وقـال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[(٣)].

وفي هذه الآية قرن جل ذكره بين سببين من أسباب الضلال:

الأول: الجهل وعبر عنه بالإغفال عن ذكر الله عز وجل .

والثاني: اتباع الهوى وعبر عنه باللفظ الصريح .

وهما متلازمان فالغفلة والشهوة أصل كل شر وفتنة .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٦٩٩/٥) .

(٢) الاستقامة لابن تيمية (٢٥٣/١-٢٥٤) .

(٣) سورة الكهف آية رقم (٢٨) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فالغفلة و الشهوة أصل الشر قال تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[(١)] ، والهوى وحده لا يستقل بفعـل السـيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعا أن ذلك يضره ضرراً راجحـاً انصرفت نفسه عنه بالطبع ، فإن الله تعالى جعل فى النفس حباً لما ينفعها وبغضا لما يضرها ، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً بل متى فعلته كان لضعف العقل ''[(٢)] .

ويقول ابن القيم رحمه الله : '' فالنفس وى ما يضرها ولا ينفعها لجهلها بمضرته لها تارة ، ولفساد قصدها تارة[(٣)] ، و موعهما تارة ، وقد ذم الله تعالى في كتابه من أجاب داعي الجهل والظلم فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[(٤)]، وقال: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[(٥)] ، فأصل كل خير هو العلم والعدل ، وأصل كل شر هو الجهل والظلم ''[(٦)] .

وأهل البدع لهم نصيب عظيم من عبادة الهوى فهم من أحق الناس وصفاً با ؛ لأ م ابتدعوا عبادات زعموا أ م يعبدون با الله عز وجل ، وهذه العبادات أملتها عليهم أهواؤهم فهم في الحقيقة يعبدون أهواءهم ، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ

---

(١) سورة الكهف آية رقم (٢٨) .

(٢) الحسنة والسيئة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٩/١٤) ، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨/ ٥٨) .

(٣) فساد القصد هو اتباع الهوى .

(٤) سورة القصص آية رقم (٥٠) .

(٥) سورة النجم آية رقم (٢٣) .

(٦) إغاثة اللهفان لابن القيم (١٩٠/٢-١٩١) .

عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وإتباع الهوى درجات : فمنهم المشركون والذين يعبدون من دون الله ما يستحسنون بلا علم ولا برهان كما قال: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[2] ، أي يتخذ إلهه الذي يعبده وهو ما يهواه من آلهة ، ولم يقل: إن هواه نفس إلهه ، فليس كل من يهوى شيئا يعبده ، فإن الهوى أقسام ، بل المراد أنه جعل المعبود الذي يعبده هو ما يهواه ، فكانت عبادته تابعة لهوى نفسه فى العبادة ، فإنه لم يعبد ما يجب أن يعبد ، ولا عبد العبادة التي أمر بها .

وهـذه حال أهل البدع ، فإ م عبدوا غير الله ، وابتدعوا عبادات زعموا أ م يعبدون الله با ، فهم إنما اتبعوا أهواءهم ، فإن أحدهم يتبع محبة نفسه وذوقها ووجدها وهواها من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فلو اتبع العلم والكتاب المنير لم يعبد إلا الله بما شاء ولا بالحوادث والبدع "[3] .

ثالثاً : من أسباب البدع وسوسة الشيطان وتزيينه ، وهذا السبب هو مكمل للأسباب السابقة ، فإن النفس لا تفعل البدع والمعاصي إذا علمت أن فيها مضرة لها فهي مجبولة على حب ما ينفعها وطلبه ، وبغض ما يضرها ودفعه ، وهنا يأتي دور وسوسة الشيطان وتزيينه ، فإنه يحسن البدع والمعاصي ، ويزينها في النفس ويظهر ما فيها من المحاسن حتى ترتكبها .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لا من مجرد النفس ، فإن الشيطان يزين لها السيئات و يأمرها با ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن التي هي

---

(١) سورة الجاثية آية رقم (٢٣) .
(٢) سورة الجاثية آية رقم (٢٣) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/٥٩٢) .

منافع لا مضار كما فعل ابليس بآدم و حواء فقال: ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾[1]، وقال: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾[2] .

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[5] .

وقوله: ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ هو بتوسيط تزيين الملائكة والأنبياء والمؤمنين للخير وتزيين شياطين الجن والإنس للشر قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ ﴾[6] "[7] .

رابعـاً : مـا تشـتمل عليه البدعة من مصلحة في نظر محدث البدعة ، فإن الناس لا يحدثـون شيئاً إلا لأ م يرونه مصلحة ، إذ لو اعتقدوه مفسدة لم يحدثوه ، فإنه لا يدعو إليه عقل ولا دين .

---

(١) سورة طه آية رقم (١٢٠-١٢١) .
(٢) سورة الأعراف آية رقم (٢٠) .
(٣) سورة الزخرف آية رقم (٣٦-٣٧) .
(٤) سورة فاطر آية رقم (٨) .
(٥) سورة الأنعام آية رقم (١٠٨) .
(٦) سورة الأنعام آية رقم (١٣٧) .
(٧) الحسنة والسيئة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/٢٨٩-٢٩٠) .

وهـذا أمر عام في أصحاب الأهواء والبدع ، بل حتى في أصحاب الديانات المنسوخة والشـرائع المبدلة ، فإ م لا يحدثون شيئاً إلا لما يرونه من المصلحة فيه ، وإن كان الواقع أن تلك المصلحة ليست مصلحة في الحقيقة ، أو تصحبها مفسدة أعظم منها .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بـدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك حسبوه منفعة أو مصلحة نافعاً وحقاً وصواباً ، ولم يكن كذلك ، بل كثير من الخارجين عن الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين وا وس يحسب كثير منهم أن ما هم عليه من الاعتقادات والمعاملات والعـبادات مصلحة لهم فى الدين والدنيا ومنفعة لهم ، فقد ﴿ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾[1]، وقد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً ''[2] .

وهذه القضية - أعني مسألة المصلحة في البدع - تدخلنا في بحث المصلحة عند الفقهاء والمقـام لا يحـتمل تفصيل ما ذكره الفقهاء في هذا الباب ، لكن أشير إلى ما يفرق به بين الـبدعة المذمومة والمصلحة المعتبرة شرعاً ، خصوصاً أن كلاهما يدعى فيه وجود المصلحة ومن هنا فنحتاج إلى ما نفرق به بينهما .

والضـابط في ذلك أن ينظر في السبب المحوج للعمل المحدث ، هل كان ذلك السبب موجوداً على عهد النبي ﷺ أو لا ؟

فـإن كان موجوداً على عهد النبي ﷺ ، فينظر في موانعه ، بمعنى هل له موانع منعت النبي ﷺ من فعله ؟ أو لا ؟

فـإن كان مقتضيه موجوداً على عهد النبي ﷺ ، وموانعه زائلة ، ومع ذلك لم يفعله رسـول الله ﷺ ، فهـذا لا يفعـل ، بل يكون فعله بدعة وضلالة ، مثال ذلك: الآذان في

(١) سورة الكهف آية (١٠٤) .
(٢) قاعدة في المعجزات والكرامات - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٤٤/١١) .

العـيدين ، فـإن مقتضيه موجود على عهد النبي ﷺ ، وموانعه زائلة ، ومع ذلك لم يفعله رسـول الله ﷺ ، فيدل ذلك على أن فعله بدعة ، ولا يقال: إنه ذكر لله تعالى ويدخل في عموم النصوص الدالة على ذكر الله تعالى ، كقوله: ﴿ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[1] ، وقوله ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2]، وغيرهـا مـن النصوص ؛ لأن رسول الله ﷺ تـركه مع وجود هذه المقتضيات وزوال الموانع ، فكان هذا الترك سنة ، والزيادة على هذه السنة من جنس الزيادة في أعداد الصلوات المفروضة أو عدد ركعا ا ، ولهذا لما أحدثه بعض الأمراء أنكره المسلمون ؛ لأنه بدعة وكل بدعة ضلالة[3].

وأما إن كان المقتضي موجود على عهد النبي ﷺ ، لكن كانت هناك موانع تمنع منه ، فهذا ليس ببدعة ولا ضلالة ، وإن جاز أن يسمى بدعة في اللغة ، مثال ذلك: المداومة على صـلاة التـراويح جماعة في المسجد ، وجمع القرآن ، وإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، وقد تقدم الكلام عليها آنفاً[4] .

وخلاصـته أن هذه الأمور كان لها مقتضيات على عهد الرسول ﷺ ، لكن وجد لها موانع ، وزالت تلك الموانع بعد وفاة الرسول ﷺ ، وبالتالي يجوز العمل ا .

وإن كـان حدث المقتضي للعمل بعد موته ﷺ ، فينظر فيه ، فإن كان بعض ذنوب العباد ، فهنا لا يجوز الإحداث ، مثال ذلك: تقديم الخطبة على الصلاة في العيدين ، فإنه لما فعلـه بعض الأمراء ، أنكره المسلمون ؛ لأنه بدعة ، واعتذر من أحدثه بأن الناس قد صاروا ينفضـون قـبل سماع الخطبة ، وكانوا على عهد رسول الله ﷺ لا ينفضون حتى يسمعوا ، فـيقال لـه : سبب هذا تفريطك ، فإن النبي ﷺ كان يخطبهم خطبة يقصد فيها نفعهم ،

(١) سورة الأحزاب آية رقم (٤١) .

(٢) سورة فصلت آية رقم (٣٣) .

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٢/٥٩٦) .

(٤) انظر (ص ٥٥٥) وما بعدها .

وتبليغهم وهدايتهم ، وأنت قصدت إقامة رياستك ، أو إن قصدت صلاح دينهم فلا تعلمهم ما ينفعهم ، فهذه المعصية منك لا تبيح لك إحداث معصية أخرى ، بل الطريق أن تتوب إلى الله تعـالى ، وتتبع سنة نبيه ﷺ ، ثم بعد ذلك يستقيم لك الأمر ، فإن لم يستقم فلا يسألك الله إلا عن عملك لا عن عملهم[١].

وإن كان حدث المقتضي للعمل بعد موته ﷺ من غير معصية الخلق ، فهاهنا قد يكون الفعل مصلحة ، وللفقهاء في ذلك قولان:

أحدهما: أن ذلك يفعل مالم ينه عنه ، وهذا قول القائلين بالمصالح المرسلة

الآخر : أن ذلك لا يفعل إن لم يؤمر به ، وهذا قول نفاة المصالح المرسلة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' القول الجامع أن الشريعة لا مل مصلحة قط ، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين ، وأتم النعمة ، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبى ﷺ ، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك ، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وإن كان الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له : إما أن الشرع دل عليه من حـيث لم يعلـم هذا الناظر ، أو أنه ليس بمصلحة وإن اعتقده مصلحة ؛ لأن المصلحة هي المـنفعة الحاصلة أو الغالبة ، وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع فى الدين والدنيا ويكون فـيه مـنفعة مرجوحة بالمضرة ، كما قال تعالى فى الخمر والميسر ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[٢]''[٣] .

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٢/٥٩٧) .

(٢) سورة البقرة آية رقم (٢١٩) .

(٣) قاعدة في المعجزات والكرامات - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٣٤٤-٣٤٥) .

خامسـاً من أسباب البدع: ما تشتمل عليه البدعة من إجمال واشتباه ، بحيث يندس الباطل خلف الحق ، ويستتر به ، ويتخذه غطاء له ، وبهذه الطريقة يروج الباطل على من لا بصيرة لـه ، بسبب وجود بعض الحق في ذلك الباطل .

وهـذا شأن كثير من البدع العلمية الاعتقادية ، فإنه لولا اشتمالها على شيء من الحق لما راجت لدى كثير من الخلق .

وقـد أشـار الإمام أحمد رحمه الله إلى هذه السبب في مقدمة كتابة الرد على الجهمية فقال: '' الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهـل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من تائه ضال قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عقال الفتنة ، فهم مختلفون في الكـتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله ، وفي الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين ''[(١)] .

فقوله يتكلمون بالمتشابه من الكلام يتضمن الألفاظ المجملة المتشابهة التي يستعملها أهل البدع ويعارضون بها الكتاب والسنة ، فإن لها معاني معلومة في الكتاب والسنة وكلام الناس ولكـن هم يقصدون معاني أخرى اصطلحوا عليها غير معروفة في لغة العرب ، ومن يستمع إلـيهم يظن أنهم يتكلمون بما يوافق الكتاب والسنة ، وبهذا يروج باطلهم على من لا يفهم حقيقة اصطلاحهم ، ويكون هذا الإجمال والتشابه سبباً في رواج تلك البدع ونفي كثير من الحق .

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد (ص ٨٥) .

وقـد وضح شيخ الإسلام رحمه الله أثر هذه الألفاظ في ترويج البدع ، وضرب على ذلـك العديد من الأمثلة ، يقول رحمه الله تعليقاً على كلام الإمام أحمد الآنف الذكر : '' وهذا الكلام المتشابه الذي يخدعون به جهال الناس هو الذي يتضمن الألفاظ المتشابهة المجملة الـتي يعارضـون بها نصوص الكتاب والسنة ، وتلك الألفاظ تكون موجودة مستعملة في الكتاب والسنة وكلام الناس لكن بمعان أخر غير المعاني التي قصدوها هم بها ، فيقصدون هم بها معاني أخر فيحصل الاشتباه والإجمال ، كلفظ العقل والعاقل والمعقول ، فإن لفظ العقل في لغة المسلمين إنما يدل على عرض ، إما مسمى مصدر عقل يعقل عقلا ، وإما قوة يكون بها العقل وهي الغريزة ، وهم يريدون بذلك جوهراً مجرداً قائماً بنفسه ، وكذلك لفظ المادة والصورة ... وغير ذلك من الألفاظ ''[(١)] .

فـإن قـيل فما هو الطريق الصحيح في التعامل مع هذه الألفاظ ؟ فإنا إن نفيت قد يدخل في النفي ما ورد في الكتاب والسنة ، وإن أثبتت قد يدخل في الإثبات المعاني المبتدعة التي اصطلح عليها أهل البدع ؟

والجـواب: أن يقال : عند مخاطبة أهل البدعة ومن يناظر بتلك الألفاظ البدعية ، فإن الكلام معهم يختلف باختلاف أحوالهم ، فلكل مقام مقال ، والمقامات أربعة :

أولاً : إذا كان الإنسان في مقام من يلزمه ويأمره ببدعة ، ويدعوه إليها ، فإنه يعتصم بالكـتاب والسنة ، ويقول: لا أجيبك إلا لكتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ ؛ لأنه لا يجب عليـنا إجابة دعوتك ؛ لأن الرسول ﷺ لم يثبت عنه أنه دعا الناس إلى ما تدعو إليه أنت ، فائتنا بكتاب الله عز وجل ، أو سنة نبيه محمد ﷺ حتى نجيبك إلى ما تدعو إليه .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٢٢/١) .

وهـذا ما فعله الإمام أحمد رحمة الله مع الجهمية عندما ناظرهم ، وكانوا قد استعانوا بـولاة الأمـر ولبسوا عليهم ، وأدخلوهم في بدعهم ، فكان من المناسب بيان عدم جواز إجابتهم إلى ما يدعون إليه ؛ لأنه لم يثبت عن الرسول ﷺ الدعوة إليه[1].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وإذا كانت هذه الألفاظ مجملة كما ذكر فالمخاطب لهـم ، إمـا أن يفصل ويقول: ما تريدون بذه الألفاظ ؟ فإن فسروها بالمعنى الذي يوافق القرآن قبلت ، وإن فسروها بخلاف ذلك ردت .

وإما أن يمتنع عن موافقتهم في التكلم بذه الألفاظ نفياً وإثباتاً ، فإن امتنع عن التكلم بـا معهم فقد ينسبونه إلى العجز والانقطاع ، وإن تكلم با معهم نسبوه إلى أنه أطلق تلك الألفـاظ الـتي تحتمل حقا وباطلاً ، وأوهموا الجهال باصطلاحهم أن إطلاق تلك الألفاظ يتـناول المعـاني الباطلة التي ينـزه الله عنها ، فحينئذ تختلف المصلحة ، فإن كانوا في مقام دعوة الناس إلى قولهم وإلزامهم به ، أمكن أن يقال لهم: لا يجب على أحد أن يجيب داعياً إلا إلى مـا دعا إليه رسول الله ﷺ ، فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه ، ولا لـه دعوة الناس إلى ذلك ، ولو قدر أن ذلك المعنى حق .

وهذه الطريق تكون أصلح إذا لبس ملبس منهم على ولاة الأمور وأدخلوه في بدعتهم كما فعلت الجهمية بمن لبسوا عليه من الخلفاء حتى أدخلوه في بدعتهم من القول بخلق القرآن وغير ذلك ، فكان من أحسن مناظر م أن يقال ائتونا بكتاب أو سنة حتى نجيبكم إلى ذلك وإلا فلسـنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسنة ''[2] .

ثانـياً : إذا كـان الإنسـان في مقام الدعوة لغيره وبيان الحق ، فهنا عليه أن يعتصم بالكـتاب والسنة ويدعو إلى ذلك ، وله أن يتكلم بالأقيسة العقلية والأمثال المضروبة ، فإن هـذه طـريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة ، فإن الله تعالى ضرب الأمثال في كتابه وبين

(١) انظر فيما سبق : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٣٤/١) .

(٢) المصدر السابق (٢٢٩/١) .

بالبراهين العقلية توحيده وصدق رسله وأمر المعاد وغير ذلك ، ولا حاجة له في هذا المقام أن يستعمل تلك الألفاظ المجملة والعبارات البدعية(١).

ثالـثاً : إذا كـان الإنسان في مقام الإجابة لمن عارضه بالعقل ممن يتقيد بالشريعة ، وادعى أن العقل يعارض النصوص ، فإنه قد يحتاج إلى حل شبهته وبيان بطلانها ، فإذا أخذ النافي يذكر ألفاظاً مجملة فهنا يستفصل السائل فيها ، ويقول لـه : ماذا تريد بهذه الألفاظ المجملـة ، فـإن أراد حقاً قبل منه ، وإن أراد بـاطلاً رد عليه ، مع التحفظ في استعمالها خاصـة في الكـلام في الله عز وجل وما يجب لـه من صفات الكمال ، فإن الواجب فيه الاقتصار على ما ورد في الكتاب والسنة والابتعاد عما سوى ذلك .

لكـن إن قـدر أن المعـارض أصر على تسمية المعاني الصحيحة التي ينفيها بألفاظ اصطلاحية محدثة ، فيقال له : هب أنه سمي بهذا الاسم ، فنفيك له: إما أن يكون بالشرع ، أو بالعقل .

أما الشرع فليس فيه ذكر هذه الاصطلاحات المجملة ، لا بنفي ولا إثبات ، ولم ينطق بذلك أحد من سلف الأمة ولا أئمتها ، بل كانوا ينكرون على أهل الكلام الذين يتكلمون بمثل هذا النوع في حق الله تعالى نفياً وإثباتاً .

وأمـا العقـل ، فالأمور العقلية المحضة لا عبرة فيها بالألفاظ ، فالمعنى إذا كان معلوماً إثباته بالعقل لم يجز نفيه لتعبير المعبر عنه بأي عبارة عبر بها ، وكذلك إذا كان معلوماً انتفاؤه بالعقـل لم يجز إثباته بأي عبارة عبر بها المعبر ، ويبين له بالعقل ثبوت المعنى الذي نفاه وسماه بألفاظه الاصطلاحية .

وقـد يقع في أثناء ذلك إطلاق هذه الألفاظ لأجل اصطلاح ذلك النافي ولغته ، وإن كان المطلق لها لا يستجيز إطلاقها في غير هذا المقام(١).

(١) انظر: المصدر السابق (٢٣٥/١-٢٣٦) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأما إذا كان الكلام مع من قد يتقيد بالشريعة فإنه يقال لـه: إطلاق هذه الألفاظ نفيا وإثباتا بدعة ، وفي كل منهما تلبيس وإيهام ، فلا بد من الاستفسار والاستفصال ، أو الامتناع عن إطلاق كلا الأمرين في النفي والإثبات ''[٢] .

رابعـاً : إذا كان الإنسان في مقام الإجابة لمن عارضه بالعقل ممن لا يتقيد بالشريعة ، كـأن يكون المناظر معارضاً للشرع بما يذكره ، أو لا يمكن أن يرد إلى الشريعة ؛ لأنه غير ملتزم بالإسلام ، أو كان ممن يزعم أن الشرع خاطب الجمهور فقط ، وأن المعقول الصريح يدل على باطن يخالف الشرع فهذا وأمثاله إن أمكن خطابهم بالعبارات الشرعية فهو أفضل وإلا فيخاطبون بألفاظهم ، أو بألفاظ يوافقون عليها تقوم مقام ألفاظهم ؛ لأن بيان ضلالهم بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك لأجل اللفظ[٣] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فهؤلاء إن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسناً ، وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم ، فبيان ضلالهم ، ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ ، كما لو جاء جيش كفار ، ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم ، فدفعهم بلبس ثيابهم خير من ترك الكفار يجولون في خلال الديار خوفاً من التشبه بهم في الثياب ''[٤] .

---

(١) انظر فيما سبق : المصدر السابق (١/٢٣٨-٢٤٠) .

(٢) المصدر السابق (١/٢٣٢) .

(٣) انظر : المصدر السابق (١/٢٣١) .

(٤) المصدر السابق (١/٢٣١) .

ثانياً : مسببات البدع :

والمقصـود منها الأمور التي تعتبر البدعة سبباً فيها ، وهي نتائج وآثار للبدع ، وهي كثيرة جداً ومن أبرزها ما يلي :

١- أن البدعة سبب في فساد الحال والاعتقاد ، فمن عمل عملاً من الأعمال المبتدعة فلابـد أن يتبع ذلك العمل اعتقاد في القلب ، ولولا وجود ذلك الاعتقاد لما انبعث القلب والبدن لفعل العمل المبتدع ؛ لأن الترجيح بدون مرجح ممتنع .

وهـذا الاعتقاد ضلال في الدين ، أو عمل دين لغير الله سبحانه وتعالى ، وقد علمنا يقيناً أن النبي ﷺ وأصحابه لم يذكروا فضلاً لهذا العمل ولم يعملوه ، وبالتالي لا يجوز التدين بـه أو عمله ؛ لأن التدين بالاعتقادات الفاسدة ، أو التدين لغير الله جل وعلا لا يجوز هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن الاعتقاد الباطل يتبعه أحوال في القلب من التعظيم والإجلال ؛ لأن الـنفس لو خلت عن الشعور بفضل الشيء امتنع مع ذلك أن تعظمه ، وهذه الأحوال باطلة ليست من دين الله تعالى .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' العمل المبتدع مستلزم: إما لاعتقاد هو ضلال في الدين ، أو عمل دين لغير الله سبحانه ، والتدين بالاعتقادات الفاسدة ، أو التدين لغير الله لا يجوز .

فهـذه الـبدع -وأمثالها - مستلزمة قطعاً ، أو ظاهراً لفعل مالا يجوز . فأقل أحوال المستلزم - إن لم يكن محرماً - أن يكون مكروهاً ، وهذا المعنى سار في سائر البدع المحدثة .

ثم هـذا الاعتقاد يتبعه أحوال في القلب: من التعظيم والإجلال ، وتلك الأحوال أيضا باطلة ليست من دين الله .

ولـو فـرض أن الرجل قد يقول: أنا لا أعتقد الفضل ، فلا يمكنه مع التعبد أن يزيل الحال الذي في قلبه من التعظيم والإجلال ، والتعظيم والإجلال لا ينشأ إلا بشعور من جنس الاعتقاد - ولو أنه وهم أو ظن - أن هذا أمر ضروري[1] ، فإن النفس لو خلت عن الشعور بفضـل الشـيء امتنعت مع ذلك أن تعظمه ، ولكن قد تقوم به خواطر متقابلة ، فهو من حيث اعتقاده أنه بدعة يقتضي منه ذلك عدم تعظيمه ، ومن حيث شعوره بما روي فيه ، أو بفعـل الـناس لـه ، أو بأن فلاناً وفلاناً فعلوه ، أو بما يظهر له فيه من المنفعة يقوم بقلبه عظمته .

فعلمت أن فعل هذه البدع يناقض الاعتقادات الواجبة ، وينازع الرسل ما جاءوا به عن الله ، وأ ا تورث القلب نفاقاً ولو كان نفاقاً خفيفاً ''[2].

والـنفاق إنما حصل من جهة ما قام في قلبه من المنازعة بين طاعة الرسول ﷺ التابعة لاعتقاده الصحيح ، وبين اتباع ما في نفسه من الحال التابع لتلك الظنون الكاذبة[3] .

٢- عـدم التوبة من البدعة ، فالبدعة سبب في عدم توبة صاحبها منها ، وهذا الأمر من أخطر آثار البدع ، وقد قرره أئمة الإسلام فقالوا: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها .

ويشرح شيخ الإسلام رحمه الله معنى هذه الجملة فيقول: '' ومعنى قولهم: إن البدعة لا يتاب منها : أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين لـه سوء عمله فرآه حسنا فهو لا يتوب ما دام يراه حسـناً ؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيئ ليتوب

(١) لتوضيح هذه العبارة أقول: إن التعظيم والإجلال ينشأ من شعور بضرورة الأمر ، وهذا الشعور من جنس الاعتقاد وقد يكون مجرد وهم أو ظن .
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٦٠٧/٢-٦٠٨) .
(٣) انظر: المصدر السابق (٦٠٨/٢) .

منه ، أو بأنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ؛ ليتوب ويفعله ، فما دام يرى فعله حسناً - وهو سيئ في نفس الأمر - فإنه لا يتوب .

ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق ، كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف من أهل البدع والضلال وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه ، فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[2] ، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] ، وقـال تعـالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[5]، وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة ''[6] .

ومـن خـلال هـذا النص يتبين لنا أن معنى عدم توبة المبتدع : ليس هو استحالتها وامتـناعها في ذا ا ، بل هي في نفسها جائزة ، وقد تحصل لمن أراد الله تعالى هدايته ، وقد

---

(١) سورة محمد آية رقم (١٧) .
(٢) سورة النساء آية رقم (٦٦-٦٨) .
(٣) سورة الحديد آية رقم (٢٨) .
(٤) سورة البقرة آية رقم (٢٥٧) .
(٥) سورة المائدة آية رقم (١٥-١٦) .
(٦) الـتحفة العـراقية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/٩-١٠) ، وللاستزادة انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٨٤/١١) .

حصـلت في الواقع ، فقد تاب بعض المبتدعين من بدعهم ، كما حصل ذلك من الخوارج الـذين ناظرهم ابن عباس رضي الله عنهما ، فإنه تاب نصفهم أو نحوه ، وكذلك المبتدعة الذين تابوا على يد عمر بن عبد العزيز[١] رضي الله عنه وغيره .

والمقصود بيان أن توبة المبتدع ليست مستحيلة في ذا ا ، بل هي جائزة وواقعة ، وقد حصلت من بعض المبتدعة ، ولهذا فالمراد من عدم توبة المبتدع أ ا لا تحصل منه غالباً ؛ لأنه يفعل البدعة ويرى نفسه قد فعل أمراً حسناً يثاب عليه ، فكيف يتوب من يرى أنه عمل عملاً مشروعاً ، وأول مراتب التوبة إدراكه لسوء العمل وقبحه شرعاً ، فإذا لم يدرك ذلك فكيف يمكن أن يتوب ؟ ولهذا كانت البدعة أحب إلى إبليس من المعصية كما قال بعض السلف ، قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ ﴾[٢] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' ومن قال: إنه لا يقبل توبة مبتدع مطلقاً فقد غلط غلطـاً منكـراً ، ومن قال: ما أذن الله لصاحب بدعة في توبة ، فمعناه ما دام مبتدعاً يراها حسـنة لا يتوب منها ، فأما إذا أراه الله أ ا قبيحة ، فإنه يتوب منها ، كما يرى الكافر أنه على ضلال ، وإلا فمعلوم أن كثيراً ممن كان على بدعة تبين له ضلالها ، وتاب الله عليه منها وهؤلاء لا يحصيهم إلا الله .

والخـوارج لما أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم ورجع منهم نصفهم أو نحوه وتابوا ، وتـاب منهم آخرون على يد عمر بن عبد العزيز وغيره ، ومنهم من سمع العلم فتاب وهذا كثير ''[٣] .

---

(١) أبـو حفـص عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم الأموي ، أمير المؤمنين ، يعد مع الخلفاء الراشدين ، وتولى الخلافـة سنة ٩٩ هـ دامت خلافته سـنتان ونصف ، وتوفي سنة ١٠١ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ١١٤) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٤١٥) ، شذرات الذهب لابن العماد (١/١١٩) .

(٢) سورة فاطر آية رقم (٨) .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٦٨٤-٦٨٥) .

٣- أن البدع تستعذبها القلوب وتستغني بها عن كثير من السنن ، فتكون سبباً في نقص عناية الناس بالفرائض والسنن ، وفتور الرغبة فيها ، فتجد كثيراً من العامة يحافظ على البدع مالا يحافظ على الصلوات الخمس والتراويح .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في تعداد أضرار البدع : '' ومنها : أن الخاصة والعامة تنقص بسببها عنايتهم بالفرائض والسنن ، ورغبتهم فيها ، فتجد الرجل يجتهد فيها ويخلص وينيب ويفعل فيها مالا يفعله في الفرائض والسنن ، حتى كأنه يفعل هذه البدعة عبادة ، ويفعل الفرائض والسنن عادة ووظيفة ، وهذا عكس الدين فيفوته بذلك ما في الفرائض والسنن من المغفرة والرحمة والرقة والطهارة والخشوع وإجابة الدعوة وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك من الفوائد ، وإن لم يفته هذا كله فلا بد أن يفوته كماله ''[١] .

ولإيضاح كلام شيخ الإسلام رحمه الله حول هذه المسألة أنقل كلاماً لأحد العلماء التائبين يصف فيها حاله قبل توبته ؛ لكي نستشعر من خلال كلامه مدى تأثير البدع على النفوس ، والاستعذاب والخضوع والخشوع الذي كان يعتري القلوب فيها نسأل الله السلامة .

يقول هذا التائب : '' فما زلت أذكر وأنا طالب في معهد طنطا الديني ، ذلك الشيخ الشيبة يقسم لنا - وعيناه مخضلتان بالدموع ، ونبرات صوته أصداء عميقة بعيدة الغور من الشجو الولهان ، والحنين الهائم ، والحرمان الجريح - يقسم لنا أن في ضريح عبد العال[٢]

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٦١١/٢) .

(٢) عبدالعال الفيشاوي من أتباع ومريدي البدوي ، يعتبر واضع الرسوم والطقوس للطريقة الأحمدية ، طريقة أحمد البدوي ، توفي سنة ٧٣٣ هـ وضريحه بجوار ضريح البدوي . انظر: السيد البدوي لمحمد فهمي عبداللطيف (ص ٩١ -٩٤) .

ا اور لضريح البدوي[١] شعرة من رأس الرسول ﷺ ! وأ ا معين خير ، وفيض بركة ويمن ومطـاف أمـال ، ومهوى رجاء !! وأذكر أنني حين سمعت حديثه ، يؤكده بقسم غليظ شعرت بقلبي وكأنما يود أن ينشق عنه الصدر ؛ ليهفو في صبابته الملهوفة إلى معبد الشـعرة يقبلها ، ويكنها في مهجته ، بل شـعرت كـأنما حملت الملائكة إليّ بشرى الخلود !! ....

فكـنت أهفـو إلى هيكل الشعرة ، خاشع الطرف ، ريان القلب بالولاء ، أصلي لها بـنجاوى الحـب العابد ، وألثم خشب هيكلها ، وحجره في شغف ثائر الأشواق ، عِربيد التلهف .

وتعـال معـي أذكرك بأنني كنت أطوف حول صنم السيد البدوي ، حتى إذا مُثلت الكوة الصغيرة ، في وثنه النحاسي البراق ، أنفذت منها يدي ، في رعشة التقديس حتى ألمس سـتر القبر ، ثم أخرجها رويداً رويداً في حرص وحذر بالغين ، وقد ضممت قبضتيهما على ، على ماذا ؟ كنت أوقن حينذاك أنني أضمهما على بركات سماوية تفيض من روح الله علـى القبر !! ثم أبسط يدي في جيبي ، ثم امسح بها وجهي ، رجاء أن أكون ميسر الرزق داني قطوف النجاح ، مشرق الوجه بنور الله ؟ ''[٢] .

وأقول لو كان خضوع المبتدعة وخشوعهم وتضرعهم في مناجاة الله تعالى في الصلاة أو الطـواف أو غيرهـا لكان صاحبها من أولياء الله المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحـزنون لكن الشيطان تلاعب بؤلاء فتجد عندهم من الخشوع والخضوع في البدع ما لا تجده في الواجبات والسنن ، نسأل الله السلامة .

---

(١) أحمـد بن علي بن محمد الحسيني ، أبو العباس البدوي ، صوفي مشهور في مصر ، توفي سنة ٦٧٥ هـ وفي طنطا ضريح له هناك يحج بعض الناس إليه ، ويقدمون له القرابين . انظر: شذرات الذهب لابن العماد (٣٤٥/٥) ، السيد البدوي لمحمد فهمي عبداللطيف (ص٣٢) ، الأعلام للزركلي (١٧٥/١) .

(٢) مقتطفات من كتاب: هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل (ص ٣-٤) ، وهو يحكي فيها عن نفسه .

٤- أن الـبدعة سبب في مصير المعروف منكرا والمنكر معروفاً وما يترتب على ذلك من جهالة أكثر الناس بدين المرسلين وانتشاء زرع الجاهلية[١] .

وأوضـح مثال على ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله حالة البلاد الإسلامية قبل دعوة الشـيخ محمـد بن عبدالوهاب رحمه الله ، فقد ذكر المؤرخون في ذلك ما تشيب له رؤوس الـولدان من انقلاب المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً ، ورجوع الناس إلى ما يشبه الجاهلية الأولى ، فمـن ذلـك الحج إلى القبور ، والاستغاثة بالأموات ، والتضرع إليهم ، وسؤالهم الحاجات ، والتقرب إليهم بأنواع القربات ، وطلب منهم ما لا يطلب إلا من الله وحده .

فلمـا قام الشيخ محمد رحمه الله بدعوته السلفية صار عند أغلب الناس كأنه قد أتى بدين جديد لا يعرفونه من قبل ، وعدوي وحورب ، حتى من بعض من ينتسب إلى العلم ، ولكن الله سبحانه تعالى أيده ونصره الله عليهم .

وما تزال بعض البلاد الإسلامية في وقتنا هذا غارقة في الشرك والوثنية ، وسوق البدع فيها قائمة على أشدها ، المعروف فيها منكر ، والمنكر فيها معروف ، نسأل الله سبحانه أن يظهر دينه ، وأن يعلي كلمته ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٦١١/٢) .

المبحث الخامس

الأسباب الوهمية

الأسباب الوهمية

المراد بالأسباب الوهمية هي ما اعتقد فيها بعض الناس أو أكثرهم أ ا أسباب وليست في حقيقة الأمر كذلك .

وعـند اسـتقراء الواقـع نجد أن هناك أموراً كثيرة جداً يعتقد فيها بعض الناس أ ا أسـباب ، وليسـت كـذلك ، مثل اعتقاد اليهود والنصارى أن دينهم سبب لنيل الجنة والثواب في الآخرة ، وكذلك اعتقاد كافة المشركين على تنوعهم أن ما هم عليه من الديانة الباطلة سبب في السعادة والفوز والفلاح ، وكذلك دعاء المشركين للأصنام وعباد م لها في الدنيا لاعتقادهم أ ا تقربم إلى الله زلفى ، وأ ا سبب لنجا م وقضاء حوائجهم الدنيوية ، ومثلهم عباد القبور الذين يدعو ا ويتقربون لها ؛ لاعتقادهم أ ا ذلك سبب في نجا م وقضاء حوائجهم ، وغير ذلك كثير مما يعلم بطلان سببيته بالضرورة من دين الإسلام .

ومن المتعذر إفراد كل هذه النماذج وغيرها بدراسة تفصيلية ؛ نظراً لطولها واتساعها ، ولهذا سوف أقتصر في هذا المبحث على دراسة بعض المسائل ، التي مازال بعض الناس يعتقد فيها أو في بعضها أ ا أسباب .

وقبل الشروع في تلك المسائل أشير إلى أنه لا يجوز اعتقاد أن شيئاً ما سبب إلا بعلم مستند على دليل صحيح ، وما عدا ذلك فإنه يكون جهلاً وكلاماً بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وقد ى الله جل وعلا عن الكلام بغير علم ، قـال تعـالى: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾[1].

ولا شك أن من جعل شيئاً من الأشياء سبباً بغير دليل فإنه يكون قد تكلم بغير علم ، ويدخل بذلك في المحذور الذي ت عنه هذه الآية .

---

(١) سورة الإسراء آية رقم (٣٦) .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله تعليقاً عليها : " وهذا ي عن التكلم بلا علم ، وهو عـام في جميع أنواع الأخبار ، وقد يتناول ما أُخبر به الإنسان ، وما قد يعتقده بغير الأخبار مـن الدلائل والآيات والعلامات ليس له أن يتكلم بلا علم ، فلا ينفي شيئا إلا بعلم ، ولا يثبته إلا بعلم "،[١] .

والدليل على السببية إما أن يكون شرعياً ، وإما أن يكون عقلياً :

والدليل الشرعي قد تقدم الكلام عليه فيما سبق عند الكلام على طرق القرآن والسنة في الدلالة على السببية[٢] .

أما الدليل العقلي فقد يكون اضطرارياً ، وقد يكون تجريبياً :

أما الاضطراري فهو الذي يضطر ويجزم الإنسان بسببيته ، وذلك كما لو رأينا إنساناً يضرب عنقه بالسيف فيموت ، فإننا نجزم ضرورة بأن سبب موته هو ضرب عنقه وكذلك لـو رأيـنا طفلاً يبكي بكاء شديداً ، ثم ألقمته أمه ثديها فسكت ، فإننا نجزم ضرورة بأن سكوته كان لأجل ارتضاعه اللبن ، وقس على هذه الأمثلة .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله في سياق ذكر بعض طرق معرفة السببية الطبيعية: " منها: الاضطرار ، فإن الناس لما عطشوا وجاعوا على عهد رسول الله ﷺ فأخذ غير مرة ماء قليلاً ، فوضع يده الكريمة فيه حتى فار الماء من بين أصابعه[٣] ، ووضع يده الكريمة في الطعام

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية (٤٥٨/٦) .

(٢) انظر مبحث ثبوت الأسباب (ص٩٣) .

(٣) رواه البخاري في الوضوء ، باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة (٧٤/١) ح(٧٤) ، ومسلم في الفضائل ، باب في معجزات النبي ﷺ (١٧٨٣/٤) ح(٢٢٧٩) من حديث أنس ﷺ .

وبرك فيه حتى كثر كثرة خارجة عن العادة[1] ، فإن العلم بهذا الاقتران المعين ، يوجب العلم بأن كثرة الماء والطعام كانت بسببه ﷺ علماً ضرورياً ، كما يعلم أن الرجل إذا ضرب بالسيف ضربة شديدة صرعته فمات ، أن الموت كان منها ، بل أوكد فإن العلم بأن كثرة الماء والطعام ليس له سبب معتاد في مثل ذلك أصلاً ، مع أن العلم بهذه المقارنة يوجب علماً ضروريا بذلك .

وكذلك لما دعا النبي ﷺ لأنس بن مالك أن يكثر الله ماله وولده[2] فكان نخله يحمل في السنة مرتين على خلاف عادة بلده[3] ، ورأى من ولده وولد ولده أكثر من مائة[4] ، فإن مثل هذا الحادث يعلم أنه كان بسبب ذلك الدعاء .

ومن رأى طفلا يبكي بكاء شديدا فألقمته أمه الثدي فسكن ؛ علم يقيناً أن سكوته كان لأجل اللبن .

والاحتمالات وإن تطرقت إلى النوع ، فإنها قد لا تتطرق إلى الشخص المعين . وكذلك الأدعية فإن المؤمن يدعو بدعاء فيرى المدعو بعينه مع عدم الأسباب المقتضية له''[5].

(١) رواه البخاري في الشركة ، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض (٨٧٩/٢) ح(٢٣٥١) من حديث أم سلمة رضي الله عنها ، ومسلم في الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٥٥/١) ح(٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في الصوم ، باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم (٦٩٩/٢) ح(١٨٨١) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه (١٩٢٩/٤) ح(٢٤٨١) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي في المناقب ، مناقب أنس رضي الله عنه (٦٤١/٥) ح(٣٨٣٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن ، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٣٤/٣) : صحيح .

(٤) تقدم تخريجه فهو نفس حديث دعاء النبي ﷺ لأنس بكثرة المال والولد .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٧١١/٢- ٧١٢) .

وأما الدليل التجريبي فهو ما جربه الناس وعلموه بتجاربهم ، وذلك كالعلم بتأثير أنواع من الأدوية في أمور معينة ، كمعرفتهم أن الدواء الفلاني سبب في الإسهال أو الاستفراغ أو في الشـفاء مـن أمراض معينة ونحو ذلك ، فإن هذا مستنده تجربة الناس له ، ومع تكرار التجـربـة وتتابع النتيجة المعينة يتولد لدى الناس الربط بين الدواء المعين والنتيجة الحاصلة عقبه .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : " ثم التجارب التي لا يحصي عددها إلا الله ، فتجد أكثر المؤمنين قد دعوا الله وسألوه أشياء أسبابا منتفية في حقهم ، فأحدث لهم تلك المطالب على الوجه الذي طلبوه على وجه يوجب العلم تارة ، والظن الغالب أخرى أن الدعاء كان هـو السبب في هذا، وتجد هذا ثابتا عند ذوي العقول والبصائر الذين يعرفون جنس الأدلة وشروطها واطرادها "[1] .

وفي هـذا الـنص نلاحـظ أن شيخ الإسلام رحمه الله يضرب المثـال على التجريبي بالـدعاء ، مـع أن الدعاء ثبت أنه سبب في حصول المطلوب بالنص الشرعي ، كما قال تعـالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[2]، لكـنه أراد أن يثبت أنه مع كون الـدعاء سـبباً في حصول المطلوب بطريق الشرع فهو مع ذلك سـبب بالعقل والتجربة الحسية .

وبعد أن انتهيت من هذه المقدمة اليسيرة على الأدلة التي تثبت بها الأسباب ، أدخل في المقصـود مـن هـذا المبحث وهي المسائل التي توهم فيها بعض الناس أنها أسباب وليست كـذلك ، وهي كثيرة جداً ، وسوف أقتصر هنا على بعض ما ورد نفي السببية عنه بالنص فمن ذلك :

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٧١٣/٢) .
(٢) سورة غافر آية رقم (٦٠) .

أولاً : الشفاعة الشركية ، وهي ما يعتقده المشركون ومن شابههم في أصنامهم ومعبوديهم أ ا أسباب ووسائط في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم عند الله عز وجل ، تشفع لهم ، وتقربم إلى الله تعالى زلفى ، من جنس الأسباب والوسائط التي تكون بين الملوك ورعاياهم .

فالشافع عند الملوك قد يكون له ملك ، وقد يكون شريكاً في الملك ، وقد يكون مظاهراً أو معاوناً للملوك في ملكهم ، فهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذ م ، والملك يقبل شفاعتهم تارة لحاجته إليهم ، وتارة لخوفه منهم ، وتارة لجزاء إحسا م إليه بل إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته ومملوكه لاحتياجه إليهم ، بل كل شفاعات العباد لبعضهم عند بعض من هذا الجنس ، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة ، ولكن الله عز وجل لا يرجو أحداً ، ولا يخافه ، ولا يحتاج إلى أحد فهو الغني بذاته [1]، ولهذا لا يشفع أحد عنده إلا بعد إذنه للشافع ، ورضاه عن المشفوع له ، قال تعالى :﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[2] ، وقـال تعـالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾[4].

وقـد تـبع المشـركين في هذا الاعتقاد عباد القبور والمشاهد ، فإ م يلجئون إليها ، ويسـتغيثون بـا ، ويسألو ا قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، ويصرفون لها من أنواع العبادات ما لا يجوز أن يصرف إلا إلى الله تعالى وحده ، كل ذلك لما يظنونه من أ ا تقربم

(١) انظر : الواسطة بين الحق والخلق - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٨/١-١٢٩) .
(٢) سورة النجم آية رقم (٢٦) .
(٣) سورة طه آية رقم (١٠٩) .
(٤) سورة سبأ آية رقم (٢٣) .

إلى الله عـز وجـل ، وتشفع لهم عنده ، وهو نفس اعتقاد المشركين الأوائل الذي تقدمت حكايته آنفاً .

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم ما يدعيه الكفار من الشفاعة الشركية ونفاها ، وحكم على معتقديها بالكفر والشرك والكذب وذلك في نصوص كثيرة ، منها:

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾(١) .

ففي هذه الآية أخبر الله عن المشركين أ م جعلوا الأصنام أسباباً تقربم إلى الله تعالى ، وأبطل دعواهم هذه ، وشهد عليهم بالكفر والكذب ، وأخبر أنه لا يهديهم .

ويقول تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢).

وفي هـذه الآيـة ذكر سبحانه أن عباد الأصنام كانوا يعبدو ا لاعتقادهم أ ا سبب وواسطة تشفع لهم عند الله ، ثم عقب على ذلك بأن نفاه نفياً جازماً ، وأخبر أنه لا وجود لـه ، فـالله سبحانه لا يعلم أن هناك من يشفع عنده مما تزعمون ! فهل تعلمون أنتم ما لا يعلمـه الله تعالى ، وتنبئونه بما لا يعلم لـه وجوداً في السماوات ولا في الأرض ؟! سبحانه وتعالى عما يشركون .

---

(١) سورة الزمر آية رقم (٣) .
(٢) سورة يونس آية رقم (١٨) .

ويقـول تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾(١) .

ففـي هذه الآية يخبر الله عز وجل عن المشركين أ م اتخذوا أصنامهم شفعاء ، ويرد علـيهم بأنه لا يملكون شيئاً من الأشياء مطلقاً ، فكيف بالشفاعة ، ثم إ م أيضاً لا يعقلون فكيف يشفع من لا يعقل ؟

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾(٢).

وفي هذه الآية يخبر الله تعالى عن يوم القيامة ، وأن المشركين لا يجدون في ذلك اليوم مـا كانـوا يزعمونه في الدنيا من الشفعاء والشركاء ، بل تتقطع بينهم الروابط والأسباب ويظهر زيف ما كانوا يعتقدونه ، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾(٣).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ويصورون تماثيلهم ، فيستشفعون با ، ويقولون: هؤلاء خواص الله ، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعباد م ؛ ليشفعوا لنا كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكو م أقرب إلى الملوك من غيرهم ، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك ، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره ، فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة .

---

(١) سورة الزمر آية رقم (٤٣) .
(٢) سورة الأنعام آية رقم (٩٤) .
(٣) سورة الروم آية رقم (١٣) .

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾[(١)]، وقال: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[(٢)]، وقال عن الملائكة : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[(٣)]، وقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ ﴾[(٤)]،،[(٥)] .

ويقول العلامة ابن القيم رحمه الله : '' فالشفاعة التي أبطلها الله شفاعة الشريك ، فإنه لا شريك له ، والتي أثبتها شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له ، ويقول: اشفع في فلان ، ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهـل التوحـيد الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه ، وهم الذين ارتضـى الله سبحانه ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[(٦)]، وقـال: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾[(٧)].

(١) سورة البقرة آية رقم (٢٥٥) .
(٢) سورة النجم آية رقم (٢٦) .
(٣) سورة الآنبياء آية رقم (٢٦-٢٨) .
(٤) سورة سبأ آية رقم (٢٢-٢٣) .
(٥) قاعدة في التوسل والوسيلة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥٠/١) .
(٦) سورة الأنبياء آية رقم (٢٨) .
(٧) سورة طه آية رقم (١٠٩) .

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له ، وإذنه للشافع فيه ''[١] .

ثانـياً : الـنذر ، فقد جاء عن النبي ﷺ النهي عن النذر ، وأنه ليس من الأسباب في حصول مطالب العبد ، ومع ذلك مازال كثير من الناس ينذرون ويظنون أنه سبب قوي في حصول مقاصدهم .

وأسـوأ مـنهم من ينذرون للقبور والمشاهد ويقربون لها القرابين ، ويظنون أن ذلك سبب في حصول مطلوبهم أو دفع مرهوبهم ، عن ابن عمر[٢] رضي الله عنهما قال: ى النبي ﷺ عن النذر ، قال: ((**إنه لا يرد شيئاً ، وإنما يستخرج به من البخيل**))[٣] .

وعـن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: ((**لا يأتي ابن آدم النذر بشيء** لم **يكن قد قدرته ، ولكن يلقيه القدر وقد قدرته له ، أستخرج به من البخيل**))[٤] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله تعليقاً على هذه الأحاديث : '' فقد أخبر النبي ﷺ أن النذر لا يأتي بخير ، وأنه ليس من الأسباب الجالبة لخير ، أو الدافعة لشر أصلا ، وإنما يوافق القدر موافقة ، كما توافقه سائر الأسباب ، فيخرج من البخيل حينئذ مالم يكن يخرجه قبل ذلك .

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (٣٤٠/١-٣٤١) .

(٢) عـبدالله بـن عمـر بن الخطاب القرشي العدوي ولد سنة ثلاث من البعثة ، ولم يشهد بدراً لصغر سنه، وأول مشاهده الخندق كان من علماء الصحابة وفضلائهم ومن المكثرين في رواية الحديث عن النبي ﷺ توفي سنة ٧٣ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٣٣٣/٢) ، ذيب الكمال للمزي (٣٣٢/١٥) ، الإصابة لابن حجر (٣٣٨/٢) .

(٣) رواه البخاري في القدر ، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر (٢٤٣٧/٦) ح(٦٢٣٤) واللفظ له ، ومسلم في القدر ، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً (١٢٦٠/٣) ح(١٦٣٩) .

(٤) رواه البخاري في القدر ، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر (٢٤٣٧/٦) ح(٦٢٣٥) واللفظ له ، ومسلم في القدر ، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً (١٢٦١/٣) ح(١٦٤٠) .

ومع هذا فأنت ترى الذين يحكون أنهم وقعوا في شدائد فنذروا نذوراً تكشف شدائدهم أكثر - أو قريباً - من الذين يزعمون أنهم دعوا عند القبور أو غيرها فقضيت حوائجهم ، بل من كثرة اغترار المضلين بذلك صارت النذور المحرمة في الشرع مآكل لكثير من السدنة والمجاورين العاكفين عند بعض المساجد أو غيرها ، ويأخذون من الأموال شيئاً كثيراً ، وأولئك الناذرون يقول أحدهم: مرضت فنذرت ، ويقول الآخر: خرج علي المحاربون فنذرت ، ويقول الآخر: ركبت البحر فنذرت ، ويقول الآخر: حبست فنذرت ، ويقول الآخر: أصابتني فاقة فنذرت .

وقد قام بنفوسهم أن هذه النذور هي السبب في حصول مطلوبهم ، ودفع مرهوبهم ، وقد أخبر الصادق المصدوق أن نذر طاعة الله - فضلاً عن معصيته - ليس سبباً لحصول الخير ، وإنما الخير الذي يحصل للناذر يوافقه موافقة ، كما يوافق سائر الأسباب ''[١] .

وشيخ الإسلام رحمه الله في هذا النص يعقد مقارنة بين الذين ينذرون لتحقيق مطالبهم وبين الذين يدعون بالأدعية المنهي عنها ، ويقرر أن نذر الطاعة ليس سبباً في حصول المطلوب كما نص عليه الحديث ، مع أنه قد يحصل له مطلوبه موافقة للقدر ، فإذا كان هذا في نذر الطاعة ، فكيف بنذر المعصية فإنه لا يكون سبباً مطلقاً من باب أولى ، كالذين ينذرون للقبور والمشاهد .

وكذلك القول في الذين يدعون أصحاب تلك القبور والمشاهد ، فدعاؤهم ليس سبباً في حصول مطلوبهم وإن تحقق لهم مطلوبهم ، فإن ذلك كان لموافقة القدر لا لدعائهم .

ثالثاً : العزل ، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه ليس من الأسباب في عدم وجود الحمل ، وأنه سواء عزل الإنسان عن زوجته أو لم يعزل فإن ذلك لا يؤثر في الحمل أو عدمه .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٧٠٧/٢-٧٠٨) .

عن أبي سعيد الخدري[١] رضي الله عنه قال: أصبنا سبياً ، فكنا نعزل ، فسألنا رسول الله ﷺ ، فقال: ((**أو إنكم لتفعلون**)) - قالها ثلاثاً - ((**ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة**))[٢] ، وقال ﷺ في رواية : ((**ما من كل الماء يكون الولد ، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء**))[٣] .

وعن جابر رضي الله عنه ، أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: إن لي جارية هي خادمنا وسانيتنا[٤] ، وأنا أطوف عليها ، وأنا أكره أن تحمل ، فقال: ((**اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها**)) فلبث الرجل ثم أتاه ، فقال: إن الجارية قد حبلت ، فقال: ((**قد أخبرتك أنه سيأتيها ما قدر لها**))[٥].

ففي هذه الأحاديث ما يدل على أن العزل ليس سبباً في منع الحمل ، بل قد يحصل حمل بوجود العزل كما حصل للرجل ، فقد عزل عن جاريته ومع ذلك حبلت ، فهو سبحانه إذا قدر الولد سبق من الماء ما يكون به الولد ، فليس من كل الماء يكون الولد كما في الحديث السابق .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فالعزل لا يمنع انعقاد الولد ، ولا تركه يوجب الولادة ، ولهذا لو عزل عن سريته وأتت بولد ألحق به ، فإن الماء سباق ، مع ما فيه من ترك

---

(١) سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري ، أبو سعيد الخدري ، له ولأبيه صحبة ، استصغر بأحد ، وشهد ما بعدها من المشاهد ، روى كثيراً من الأحاديث ، توفي سنة ٦٣ أو ٦٤ أو ٦٥ أو ٧٤ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٤٤/٢) ، الإصابة لابن حجر (٣٢/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢٣٢) .

(٢) رواه البخاري في النكاح ، باب العزل (١٩٩٨/٥) ح(٤٩١٢) ، ومسلم في النكاح ، باب حكم العزل (١٠٦٢/٢) ح(١٤٣٨) كلاهما بلفظه .

(٣) هذا اللفظ لمسلم من حديث أبي سعيد السابق .

(٤) سانيتنا : جاء في النهاية (٤١٥/٢) : '' كأنها كانت تسقي لهم نخلهم عوض البعير ''. وقد يقال: إنها تسمى سانية وإن كانت لا تسقي لهم مباشرة ، وإنما ترعى شأن البعير أثناء سقيه كما جاء في رواية عند أحمد (٣١٣/٣) ((تسنو على ناضح لي)) .

(٥) رواه مسلم في النكاح ، باب حكم العزل (١٠٦٤/٢) ح(١٤٣٩) بلفظه .

لهذه الجماع ، فأخبر النبي ﷺ بأن الولد المكتوب يكون عزلت أو لم تعزل ، كما قال: ((**ليس من كل الماء يكون الولد**)) فلا يكون ترك العزل سبباً للولادة ، ولا العزل سبباً لمنعها والقدر ماض بالأمرين ، فلا فائدة فيه ''[1] .

رابعاً : الدعاء بطول العمر ، فقد ورد عن النبي ﷺ أن هذا الدعاء لا يؤثر في الأعمار بتقديم ولا تأخير ، وإن كان الدعاء يؤثر في كثير من الأمور إلا أنه في العمر لا يؤثر ومع ذلك ما زال كثير من الناس يدعون لسادا م وكبرائهم بطول العمر ، وفي الحديث عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال قالت أم حبيبة[2] زوج النبي ﷺ: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ ، وبأبي أبي سفيان[3] ، وبأخي معاوية[4] ، قال: فقال النبي ﷺ : ((**قد سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة لن يعجل شيئاً قبل حله ، أو يؤخر شيئاً عن حله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب** في **النار أو عذاب** في **القبر كان خيراً وأفضل**))[5].

---

(١) الاستقامة لابن تيمية (١٥٥/١-١٥٦) .

(٢) رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية ، أم المؤمنين ، مشهورة بكنية أم حبيبة ، أسلمت قديماً ، وهاجرت الهجرتين ماتت سنة ٤٢ أو ٤٤ وقيل: ٤٩ وقيل: ٥٠ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٢٩٦/٤) ، الإصابة لابن حجر (٢٩٨/٤) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٧٤٧) .

(٣) صخر بن حرب بن أمية الأموي ، أبو سفيان ، صحابي مشهور ، أسلم عام الفتح ، وشهد حنيناً والطائف ، توفي سنة ٣٢ هـ وقيل بعدها . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (١٨٣/٢) ، الإصابة لابن حجر (١٧٢/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢٧٥) .

(٤) معاوية بن صخر بن حرب الأموي ، أو عبدالرحمن ، صحابي أول خلفاء بني أمية ، أسلم قبل الفتح ، وكتب الوحي ، مات سنة ٦٠ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٣٧٥/٣) ، الإصابة لابن حجر (٤١٢/٣) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٥٣٧) .

(٥) رواه مسلم في القدر ، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر (٢٠٥٠/٤) ح(٢٦٦٣) واللفظ له .

ولهذا كره بعض السلف الدعاء بطول العمر ، فقد دخل عبد الأعلى بن هلال[1] على الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال: أبقاك الله يا أمير المؤمنين ما دام البقاء خير لك ، قال: قد فرغ من ذلك يا أبا النضر ، ولكن قل أحياك الله حياة طيبة وتوفاك مع الأبرار[2] .

وقال رجل لسعيد بن عبدالعزيز الشامي[3]: أطال الله بقاءك ، فغضب وقال: بل عجل الله بي إلى رحمته .

وقد عد العلامة ابن القيم رحمه الله هذا الدعاء من الألفاظ المكروهة[4] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأما حديث أم حبيبة ففيه أن الدعاء يكون مشروعا نافعاً في بعض الأشياء دون بعض ، وكذلك هو ، ولهذا لا يحب الله المعتدين في الدعاء ، فالأعمار المقدرة لم يشرع الدعاء بتغييرها ، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة ، فإن الدعاء مشروع له نافع فيه ، وقد كتبت مسألة زيادة العمر بصلة الرحم في غير هذا الموضع[5] ،

---

(١) عبد الأعلى بن هلال السلمي من أهل الشام ، كنيته أبو النضر يروي عن العرباض بن سارية وأبي أمامة . انظر: التاريخ الكبير للبخاري (٦٨/٦) ، الثقات لابن حبان (١٢٨/٥) ، الإكمال لابن ماكولا (٣٤٥/٧) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٧٥/٧) ح(٣٥٠٩٦) ، وأبونعيم في الحلية (٣٢٤/٥) .

(٣) سعيد بن عبدالعزيز الشامي الإمام القدوة مفتي دمشق ، ولد سنة ٩٠ هـ وأخذ العلم عن خلق ، قال عنه الإمام أحمد ليس بالشام رجل أصح حديثاً منه ، وقال عنه ابن معين : حجة ، توفي سنة ١٦٧ هـ والحكاية في ترجمته . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٢/٨-٣٨) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢١٩/١-٢٢٠) .

(٤) انظر : زاد المعاد (٤٧٣/٢) ، وقد جوزها بعض الناس ، انظر مستندهم في ذلك في زاد المعاد (١٤٦/٥) .

(٥) يقول شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (٤٩١/١٤-٤٩٢) عن زيادة العمر بصلة الرحم : '' والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلاً فى صحف الملائكة ، فاذا و صل رحمه زاد فى ذلك المكتوب ، وإن عمل مايوجب النقص نقص من ذلك المكتوب '' .

ولا يلـزم من تأثير صلة الرحم ونحو ذلك [أن يزيد العمر][(١)] بتأثير الدعاء ، ولذلك كان يكره أحمد أن يدعى له بطول العمر ويقول: هذا فرغ منه ''[(٢)] .

ففـي هـذا النص يقرر شيخ الإسلام رحمه الله أن الدعاء لا ينفع في زيادة العمر أو نقصـانه ، وإن كانت صلة الرحم قد تؤثر في ذلك ، ولكن لا يلزم من تأثير صلة الرحم أن يؤثـر الـدعاء ؛ لأن كل مسبب لـه سببه الخاص به ، والدعاء - وإن كان سبباً في أمور كثيرة - إلا أنه ليس سبباً في زيادة العمر .

خامسـاً : الكسـوف وأنه نتيجة لموت أحد أو حياته ، فقد ظن بعض الصحابة أن سبب الكسوف موت ابن النبي ﷺ إبراهيم ، وقد دفع النبي ﷺ هذا التوهم ، وبين أن سبب الكسوف هو تخويف الله تعالى لعباده .

عن المغيرة بن شعبة قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم فقـال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم فقال رسول الله ﷺ ((**إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا**))[(٣)] .

وعـن أبي موسى[(٤)] رضي الله عنه قال: خسفت الشمس ، فقام النبي ﷺ فزعاً يخشى أن تكون الساعة ، فأتى المسجد فصلى بأطول قيام وركوع وسجود رأيته قط يفعله وقال:

---

(١) العـبارة في هذا الموضع مضطربة في الأصل ، وقد أصلحها د. محمد رشاد سالم فوضع النص الآتي بين معكوفتين [أن يزيد العمر ، كما قد يقال بزيادة العمر] وقد اقتصرت على بعض ما ذكره ، والجملة الأخرى لا حاجة لها فالمعنى تام بدو ا .

(٢) الاستقامة لابن تيمية (١٥٧/١) .

(٣) رواه الـبخاري في الكسـوف ، بـاب الصـلاة في كسوف الشمس (٣٥٤/١) ح(٩٩٦) بلفظه ، ومسلم في الكسوف ، باب ذكر الكسوف الصلاة جامعة (٦٣٠/٢) ح(٩١٥) .

(٤) عـبدالله بن قيس بن سليم ، أبو موسى الأشعري ، صحابي مشهور ، أسلم قديماً ، أمره عمر وعثمان رضي الله عـنهما ، وهو أحد الحكمين بصفين ، توفي سنة ٥٠ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٣٦٣/٢) ، الإصابة لابن حجر (٣٥١/٢) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٣١٨) .

((**هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف الله بها عباده ، فإذا رأيتم شيئا من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره**))[١] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث: " فبين النبي ﷺ أن الشمس والقمر لا يكون كسوفهما عن موت أحد من أهل الأرض ولا عن حياته ، ونفى أن يكون للموت والحياة أثر في كسوف الشمس والقمر ، وأخبر أنهما من آيات الله وأنه يخوف عباده .

فذكر أن من حكمة ذلك تخويف العباد ، كما يكون تخويفهم في سائر الآيات ، كالرياح الشديدة والزلازل والجدب والأمطار المتواترة ونحو ذلك من الأسباب التي قد تكون عذاباً ، كما عذب الله أمماً بالريح والصيحة والطوفان ، وقال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾[٢]، وقد قال: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[٣] ، وإخباره بأنه يخوف عباده بذلك يبين أنه قد يكون سبباً لعذاب ينزل ، كالرياح العاصفة الشديدة "[٤] .

ومن خلال هذا النص يتبين لنا أنه ليس معنى كون الكسوف لا أثر له في حياة أحد أو موته أنه لا تأثير له البتة ، بل له تأثير فقد يكون سبباً لعذاب ينزل من جنس الآيات التي يخوف الله تعالى بها عباده ، ولهذا شرع الدعاء والذكر والصلاة لدفع تلك الشرور .

---

(١) رواه البخاري في الكسوف ، باب الذكر في الكسوف (٣٦٠/١) ح(١٠١٠) ، ومسلم في الكسوف باب ذكر الكسوف الصلاة جامعة (٦٢٨/٢) ح(٩١٢) كلاهما بلفظه .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم (٤٠) .

(٣) سورة الإسراء آية رقم (٥٩) .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦٩/٣٥) .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله: " والتخويف إنما يكون بما هو سبب للشر المخوف ، كالزلـزلة والـريح العاصـف ، وإلا فمـا وجوده كعدمه لا يحصل به تخويف ، فعلم أن الكسوف سبب للشر ، ثم قد يكون عنه شر ، ثم القول فيه كالقول في سائر الأسباب ، هل هو سبب كما عليه جمهور الأمة ، أو هو مجرد اقتران عادة كما يقوله الجهمية .

وهو ﷺ أخبر عند أسباب الشر بما يدفعها من العبادات التي تقوي ما انعقد سببه من الخير ، وتدفع أو تضعف ما انعقد سببه من الشر "[1] .

سادساً : الرمي بالنجوم ، فقد كانوا يعتقدون في الجاهلية أن ذلك سبب لموت عظيم وولادة آخر ، وقد نفى النبي ﷺ هذا الاعتقاد ، وبين أن سبب ذلك هو رجم الشياطين التي تسترق السمع .

عن عبد الله بن عباس قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هـم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار . فقال لهم رسول الله ﷺ: ((**ماذا كنـتم تقولون** في **الجاهلية إذا رمي** بمثل **هذا ؟**)) قالوا: الله ورسوله أعلم ،كنا نقول: ولد اللـيلة رجل عظيم ، ومات رجل عظيم ، فقال رسول الله ﷺ : ((**فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهـل السـماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ، ثم قال الذين يلـون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال ، قال فيستخبر بعـض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا ، فتخطف الجن السمع فـيقذفون إلى أولـيائهم ، ويـرمون بـه ، فما جاؤا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يقْرِفُـون فيه ويزيدون**))[2] .

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٥/٤٤٥-٤٤٦)

(٢) رواه مسلم في السلام ، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٤/١٧٥٠) ح(٢٢٢٩) بلفظه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فنفى النبي ﷺ أن يكون الرمي بها لأجل أنه قد ولد عظيم أو مات عظيم ، بل لأجل الشياطين المسترقين السمع ''[١] .

سابعاً : الاستسقاء بالنجوم ، فقد كان أهل الجاهلية يعتقدون أن النجوم والأنواء سبب في حصول الأمطار ، وقد نفى النبي ﷺ هذه السببية وهذا الاعتقاد ، وبين أنه كفر بالله عز وجل .

عن زيد بن خالد الجهني[٢] رضي الله عنه أنه قال :صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: ((**هل تدرون ماذا قال ربكم** ؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: ((**أصبح من عبادي مؤمن وكافر ، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب ، وأما من قال: بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي ، ومؤمن بالكوكب**))[٣] .

والاستسقاء بالنجوم نوعان :

أحدهما : أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم ، وهذا كفر أكبر ظاهر ، إذ لا خالق إلا الله عز وجل ، وليس هو المذكور في هذا الحديث ، لو كان هو المراد لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا وكذا .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧٤/٣٥) .

(٢) زيد بن خالد الجهني المدني ، صحابي مشهور ، شهد الحديبية وكان يحمل لواء جهينة يوم الفتح ، مات بالكوفة سنة ٦٨ أو ٧٨ هـ . انظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٥٣٩/١) ، الإصابة لابن حجر (٥٤٧/١) ، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢٢٣) .

(٣) رواه البخاري في صفة الصلاة ، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٢٩٠/١) ح(٨١٠) واللفظ له ، ومسلم في الإيمان ، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٨٣/١-٨٤) ح(٧١) .

الآخر: أن يعتقد أن النجم سبب في نزول المطر ، فالمنـزل هو الله عز وجل ، والنوء سـبب في ذلك ، وهذا هو المقصود في هذا الحديث بدليل قوله: « **مطرنا بنوء كذا** » فأتى بباء السببية ليدل على أنهم نسبوا وجود المطر إلى ما اعتقدوه سبباً ، وهذا كفر أصغر .

وأهل الجاهلية الأولى لم يكونوا يعتقدون أن الأنواء هي التي تنـزل المطر ، بل كانوا يجعلونها سبباً ، ويعلمون أن الله تعالى هو المنـزل للمطر ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1][2].

ثامناً : دعاء الله تعالى عند القبور والمشاهد ونحوها من المواضع التي لم يشرع اتخاذها مساجد ، فإن كثيراً من الناس يظنون أن الدعاء في هذه المواطن والبقع سبب في استجابة الدعاء ، وتتداول بينهم بعض العبارات المشهورة في ذلك ، كقول بعضهم : قبر فلان الترياق المجرب ، وقول آخر : الدعاء عند قبر الشيخ فلان مجاب[3] ونحوها من العبارات التي تدل على أنهم يعتقدون في هذا المكان أو القبر أنه سبب في استجابة الله تعالى للدعاء .

وهذه المسألة وإن لم يرد فيها نص بنفي السببية ، لكن كذلك لم يرد فيها نص بالسببية ، فدليل كونها من الأسباب الوهمية عدم الدليل عليها .

وقد خص شيخ الإسلام رحمه الله هذه المسألة ببحوث مطولة في بعض كتبه منها: (اقتضاء الصراط المستقيم) ، ولهذا لا بد من ذكرها والتعريج على ما قرره شيخ الإسلام رحمه الله فيها بإيجاز .

وسيكون الكلام في مسألتين :

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم (٦٣) .
(٢) انظر فيما سبق: تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالله (ص ٤٥٤ ، ٤٥٨) .
(٣) انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٣٨٢/١) ، الرد على البكري لابن تيمية (٣٥١/٢) .

المسألة الأولى : الأماكن والبقع التي تتخذ مساجد وأعياد ، أقسامها وأحكامها .

المسألة الثانية : دعاء الله تعالى في تلك الأماكن والبقع حكمه وتأثيره .

أما **المسألة الأولى** : فقد قسم شيخ الإسلام رحمه الله الأعياد المكانية إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما لا خصوص له في الشريعة أصلاً ، وذلك ينطبق على كل بقعة في الأرض لم يرد فيها دليل على فضيلتها ، سواء كانت تلك البقعة : شجرة أو عين ماء أو قناة جارية أو جبلاً أو مغارة أو نحوها .

وسواء قصدها ليصلي ، أو ليدعو الله ، أو ليقرأ القرآن ، أو ليذكر الله سبحانه ، أو ليتنسك عندها ، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيص تلك البقعة به لا عيناً ولا نوعاً .

ومن هذه الأمكنة ما يظن أنه قبر نبي أو رجل صالح وليس كذلك .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أمثلة كثيرةً على هذه الأماكن منها : المشهد الذي في القاهرة يقال أن فيه رأس الحسين ، ومقابر كثيرة لأسماء رجال معروفين ، قد علم أنها ليست مقابرهم .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وما أشبه هذه الأمكنة بمسجد الضرار الذي أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم . فإن ذلك المسجد لما بني ضراراً وكفراً ، وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل - نهى الله نبيه ﷺ عن الصلاة فيه ، وأمر بهدمه .

وهـذه المشاهد الباطلة إنما وضعت مضاهاة لبيوت الله ، وتعظيماً لما لم يعظمه الله ، وعكـوفا على أشياء لا تنفع ولا تضر ، وصداً للخلق عن سبيل الله ، وهي عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله ﷺ ''[١] .

القسـم الثاني: أماكن لها خصوصية في الشريعة ، لكن ذلك لا يقتضي قصدها للعبادة فيها ، وذلك مثل قبور الأنبياء والصالحين ، فلا يجوز اتخاذها عيداً ، فقد جاء في الحديث عن أبي هريـرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**))[٢] .

وقبر النبي ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض ، وقد ي عن اتخاذه عيداً ، فقبر غيره من باب أولى .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والعيد إذا جعل اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد الاجـتماع فيه ، وانتيابه للعبادة عنده أو لغير العبادة ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة جعلها الله عيداً مثابة للناس يجتمعون فيها ، وينتابو ا للدعاء والذكر والنسك ، وكان للمشركين أمكنة ينتابو ا للاجتماع عندها ، فلما جاء الإسلام محا الله ذلك كله .

وهـذا الـنوع من الأمكنة يدخل فيه قبور الأنبياء والصالحين ، والقبور التي يجوز أن تكون قبوراً لهم - بتقدير كو ا قبوراً لهم - بل وسائر القبور أيضا داخلة في هذا ، فإن قبر المسلم له من الحرمة ما جاءت به السنة ، إذ هو بيت المسلم الميت ، فلا يترك عليه شيء من النجاسـات بالاتفاق ، ولا يوطأ ولا يداس ولا يتكأ عليه عندنا وعند جمهور العلماء ، ولا

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٦٥١/٢) .

(٢) رواه أحمد (٣٦٧/٢) ، وأبو داود في المناسك ، باب زيارة القبور (٥٣٤/٢) ح(٢٠٤٢) واللفظ له ، قال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٨٣/١) : صحيح .

يجـاور بمـا يؤذي الأموات من الأقوال والأفعال الخبيثة ، ويستحب عند إتيانه السلام على صاحبه ، والدعاء له ، وكلما كان الميت أفضل كان حقه أوكد ''[(١)] .

القسـم الثالث: أماكن تشرع فيها العبادة ، ولكن لا تتخذ عيداً ، وهي الأماكن التي أقـام فـيها الأنبـياء ، أو عبدوا الله تعالى فيها ، لكنهم لم يتحروا قصد الصلاة فيها ، ولم يتخذوها مساجد ، فهذه لا يشرع قصدها أو ملازمتها للتعبد ، لكن لو اتفق أن العبد مر بـا وحان وقت الصلاة ، فلا مانع أن يصلي فيها ، أما تحري قصدها والتعبد فيها فهو من الـبدع المذمـومة التي قد تفضي إلى تعلق القلوب با واتخاذها مساجد وأعياداً ، فتصير من جنس القبور ، ويفعل عندها ما يفعل في المشاهد والقبور[(٢)] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن تحري العبادة في هذه الأماكن : '' وتحري هذا ليس من سنة الخلفاء الراشدين ، بل هو مما ابتدع ، وقول الصحابي إذا خالفه نظيره ليس بحجة ، فكيف إذا انفرد به عن جماهير الصحابة .

وأيضـا: فإن تحري الصلاة فيها ذريعة إلى اتخاذها مساجد ، والتشبه بأهل الكتاب مما ينا عن التشبه بم فيه ، وذلك ذريعة إلى الشرك بالله ، والشارع قد حسم هذه المادة بالنهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبا ، وبالنهي عن اتخاذ القبور مساجد ، فإذا كان قـد ـى عن الصلاة المشروعة في هذا المكان وهذا الزمان سداً للذريعة ، فكيف يستحب قصد الصلاة والدعاء في مكان اتفق قيامهم فيه أو صلا م فيه من غير أن يكونوا قد قصدوه للصـلاة فيه والدعاء فيه ، ولو ساغ هذا لاستحب قصد جبل حراء والصلاة فيه ، وقصد جـبل ثـور والصلاة فيه ، وقصد الأماكن التي يقال إن الأنبياء قاموا فيها كالمقامين اللذين

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٦٦٠/٢) .

(٢) انظـرفيما سـبق من أقسام الأعياد المكانية : اقتضاء الصراط المستقيم (٦٤٢/٢، ٦٤٤، ٦٤٨، ٦٤٩ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٧٤٢ ، ٧٩٤-٧٩٥) .

بطريق جبل قاسيون بدمشق ، اللذين يقال: إ ما مقام إبراهيم وعيسى ، والمقام الذي يقال: إنه مغارة دم قابيل[١] ، وأمثال ذلك من البقاع التي بالحجاز والشام وغيرهما .

ثم ذا ـك يفضي إلى ما أفضت إليه مفاسد القبور ، فإنه يقال: إن هذا مقام نبي أو قبر نـبي أو ولي بخـبر لا يعرف قائله ، أو بمنام لا تعرف حقيقته ، ثم يترتب على ذلك اتخاذه مسجداً ، فيصير وثنا يعبد من دون الله تعالى ''[٢] .

المسألة الثانية : هي دعاء الله تعالى في تلك الأماكن والبقع حكمه وتأثيره[٣] :

لا شك أن دعاء الله تعالى عند القبور وغيرها من البقع التي لم يسن الدعاء فيها ينقسم إلى قسمين :

الأول: أن يحصل الدعاء في البقعة بحكم الاتفاق ، لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يدعو الله في طريقه ، ويتفق أن يمر بالقبور ، فهذا جائز لا بأس به .

الـثاني: أن يتحـرى الـدعاء عندها ، بحيث يستشعر أن الدعاء هناك في تلك البقعة مسـتجاب أكثـر من غيرها من البقاع والأماكن ، وهذا النوع منهي عنه وهو إلى التحريم أقرب[٤].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' والفرق بين البابين ظاهر ، فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب أو كنيسة ، أو كان يدعو في بقعة وهناك صليب هو عنه

---

(١) مغـارة الدم : مغارة موجودة في جبل قاسيون الواقع في شمال دمشق ، ويزعم أن قابيل قتل أخاه هابيل بها ، وأن أثر الدم لا زال باقياً هناك على الحجر الذي قُتِل به. انظر: معجم البلدان للحموي (٤٦٤/٢ ، ٢٩٥/٤) .

(٢) المصدر السابق (٧٤٨/٢-٧٤٩) .

(٣) ما تقدم كان كلاماً عن التعبد بصفة عامة ، وفي هذا القسم سيكون الكلام عن الدعاء بصفة خاصة .

(٤) انظر فيما سبق : اقتضاء الصراط المستقيم (٦٧٧/٢) .

ذاهل ، أو دخل كنيسة ليبيت فيها مبيتاً جائزاً ، ودعا الله في الليل ، أو بات في بيت بعض أصدقائه ودعا الله ، لم يكن بذا بأس .

ولو تحرى الدعاء عند صنم أو صليب أو كنيسة ، يرجو الإجابة بالدعاء في تلك البقعة لكان هذا من العظائم ، بل لو قصد بيتاً أو حانوتاً في السوق ، أو بعض عواميد الطرقات يدعو عندها يرجو الإجابة بالدعاء عندها ، لكان هذا من المنكرات المحرمة ، إذ ليس للدعاء عندها فضل "(1) .

ومن الأدلة على المنع من قصد القبور للدعاء عندها ما يلي :

أولاً: ـي النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد ، ففي الحديث قال ﷺ في مرضه الذي مات فيه: ((**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**))(2)، والعِلة التي لأجلها ـى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد إنما هي لئلا تتخذ ذريعة إلى الشرك ، بالعكوف عليها ، وتعلق القلوب با .

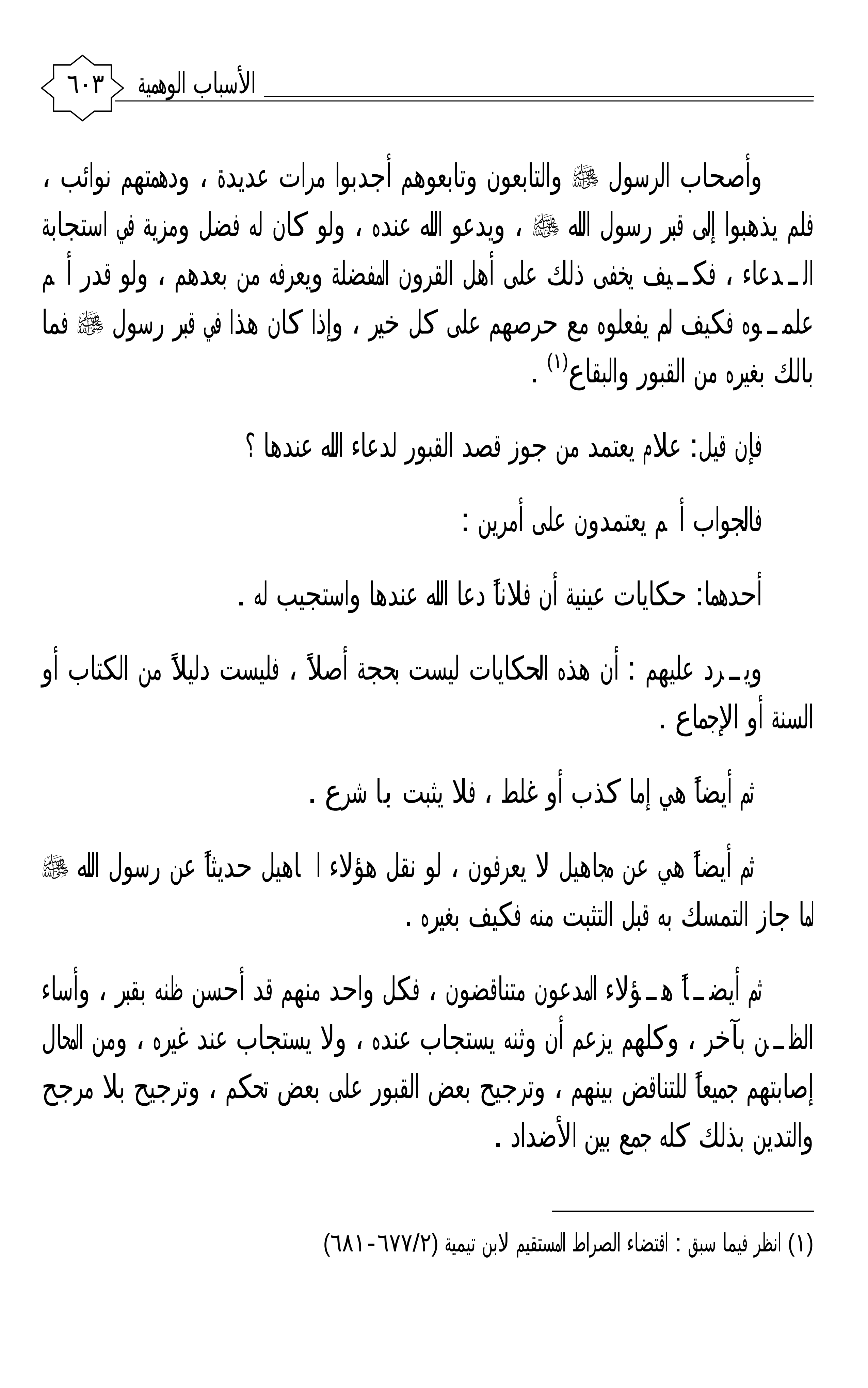
فمن يقصدها للدعاء يكون مضطراً ، فحاله في افتتانه بالقبور أعظم من حال من يؤدي الفرض عندها ويذهب ، والمفسدة التي لأجلها ي عن الصلاة في القبور متحققة فيمن يدعو في تلك البقاع ، أعظم من تحققها فيمن اعتاد الصلاة فقط ، ولهذا يكون النهي عن الدعاء عندها أولى .

ثانياً : أن قصد القبور ونحوها من البقاع ، ورجاء الإجابة فيها أكثر من غيرها ، أمر لم يشرعه الله تعالى ولا رسوله ﷺ ، ولا فعله أحد الصحابة ولا التابعين ولا أئمة المسلمين المتقدمين ، بل أكثره ينقل عن بعض المتأخرين بعد المائة الثانية .

---

(١) المصدر السابق (٦٧٧/٢) .

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٩٤) .



وأصحاب الرسول ﷺ والتابعون وتابعوهم أجدبوا مرات عديدة ، ودهمتهم نوائب ، فلم يذهبوا إلى قبر رسول الله ﷺ ، ويدعو الله عنده ، ولو كان له فضل ومزية في استجابة الـدعاء ، فكـيف يخفى ذلك على أهل القرون المفضلة ويعرفه من بعدهم ، ولو قدر أ م علمـوه فكيف لم يفعلوه مع حرصهم على كل خير ، وإذا كان هذا في قبر رسول ﷺ فما بالك بغيره من القبور والبقاع[1] .

فإن قيل: علام يعتمد من جوز قصد القبور لدعاء الله عندها ؟

فالجواب أ م يعتمدون على أمرين :

أحدهما: حكايات عينية أن فلاناً دعا الله عندها واستجيب له .

ويـرد عليهم : أن هذه الحكايات ليست بحجة أصلاً ، فليست دليلاً من الكتاب أو السنة أو الإجماع .

ثم أيضاً هي إما كذب أو غلط ، فلا يثبت با شرع .

ثم أيضاً هي عن مجاهيل لا يعرفون ، لو نقل هؤلاء ا اهيل حديثاً عن رسول الله ﷺ لما جاز التمسك به قبل التثبت منه فكيف بغيره .

ثم أيضـاً هـؤلاء المدعون متناقضون ، فكل واحد منهم قد أحسن ظنه بقبر ، وأساء الظـن بآخر ، وكلهم يزعم أن وثنه يستجاب عنده ، ولا يستجاب عند غيره ، ومن المحال إصابتهم جميعاً للتناقض بينهم ، وترجيح بعض القبور على بعض تحكم ، وترجيح بلا مرجح والتدين بذلك كله جمع بين الأضداد .

---

(١) انظر فيما سبق : اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٦٧٧/٢-٦٨١)

ويقال على طريق النقض : إن النصارى عندهم من الحكايات والقياسات من هذا النمط كثير ، بل حتى المشركون الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يدعون عند أوثانهم ويستجاب لهم أحياناً ، فهل هذا يدل على أن الله تعالى يرضى هذا الفعل ويحبه ، أو أن دعاءهم عند الأوثان سبب في استجابة الله تعالى لهذا الدعاء ، فيكون لتلك الأوثان مقام ومنزلة عند الله تعالى .

الأمر الآخر الذي يستدلون به : ما يعتقد من منفعته بالتجارب ، فيقولون: جربنا الدعاء في البقعة الفلانية ، أو عند القبر الفلاني فنفع وتحقق المطلوب .

ويرد عليهم :

أولاً : أن هذه عامتها كذب ، فإن هؤلاء الذين يتحرون الدعاء عند القبور إنما يستجاب لهم في النادر ، يدعو الرجل منهم ما شاء الله من دعوات ، فيستجاب له في واحدة ، ويدعو الخلق الكثير منهم ، فيستجاب للواحد بعد الواحد ، فأين هذا ممن يدعون الله في أوقات السحر وفي السجود وأدبار الصلوات ، فهؤلاء إن ابتهلوا إلى الله كما يبتهل عباد القبور إلى القبور لم تكد تسقط لهم دعوة إلا لمانع .

ثانياً : أنه يترتب على هذه الدعوة من المفاسد أعظم مما يرجى منها من المنافع ، فإن من يدعو عند القبور إذا استجيب لأحدهم فإنه يضعف توحيده ، ولا يجد من ذوق الإيمان وحلاوته ما كان يجده السابقون الأولون ، ولعله لا يبارك له في حاجته .

ثالثاً : أن يقال: من أين لنا الجزم أن الدعاء عند القبر ، أو في هذا المكان ، هو سبب في استجابة الله تعالى له ، فقد تكون موافقة للقدر كما هو شأن النذر ، فإن كثيراً من الناس يحكون أنهم وقعوا في شدائد فنذروا نذوراً لكشف شدائدهم ، فقضيت حوائجهم - وهم أكثر من الذين يزعمون أنهم دعوا الله عند القبور فاستجيب لهم - ومع ذلك فالنذر ليس سبباً في حصول المطلوب كما نص عليه رسول الله ﷺ ، فكيف يكون الدعاء عند القبور

سبباً ؟ فما هذه الأدعية غير المشروعة في حصول المطلوب بأكثر من هذه النذور في حصول المطلوب .

ثم أيضـاً قـد يكون سبب قضاء حاجة هذا الرجل واستجابة الله لدعائه : أنه كان مضـطراً ضـرورة لو دعا الله بها مشرك لاستجيب له ، لصدق توجهه إلى الله تعالى ، فالله تعـالى يجيب دعوة المضطر ولو كان مشركاً ، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[1] ، فمن أين لنا الجزم أن سبب استجابة دعاء هذا الرجل هو وجوده في تلك البقعة أو عند ذلك القبر .

رابعاً : أنه ليس مع من يدعي أن الدعاء عند القبور سبب في استجابة الله تعالى له إلا اقتـران الأمرين مع بعضهما - أي وجودهما جميعاً - ومجرد اقتران الشيء بالشيء في بعض الأحـيان ، لا يكفـي في إثبات علاقة سـببية بينهما ، خصوصاً مع انتقاضها في أحيان أخرى .

فالاقتران إن كان دليلاً على السببية ، فالانتقاض دليل على عدمها .

فإن قيل: إن التخلف كان لفقد شرط ، أو وجود مانع .

فـيقال: إن هـذا يكـون صحيحاً في حالة ما لو كان الاقتران هو الأصل الغالب ، فاستجيبت دعوات جميع الناس عند القبور وبقي قليل منهم لم يستجب له .

لكـن الواقـع عكس ذلك ، فلم يستجب لمن يدعو عند القبور إلا في القليل النادر ، وهذه الاستجابة كانت لوجود أسباب أخرى .

---

(١) سورة النمل آية رقم (٦٢) .

فالله تعالى يقضي الحاجات ، ويفرج الكربات بأنواع من الأسباب لا يحصيها إلا هو ، فإذا رأيناه قد فرج كربة عند هذا الدعاء المبتدع كان إحالة سبب هذا التفريج على ما علم من الأسـباب التي لا يحصيها إلا الله أولى من إحالته على ما لم يثبت كونه سبباً[(١)] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وبالجملة : فالعلم بأن هذا كان هو السبب ، أو بعـض السـبب ، أو شرط السبب في هذا الأمر الحادث قد يعلم كثيراً ، وقد يظن كثيراً ، [وقد يتوهم كثيراً][(٢)] وهماً ليس له مستند صحيح إلا ضعف العقل .

ويكفـيك أن كل ما يظن أنه سبب لحصول المطالب مما حرمته الشريعة من دعاء أو غيره لا بد فيه من أحد أمرين :

إما أن لا يكون سبباً صحيحاً ، كدعاء من لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغني عنك شيئاً وإما أن يكون ضرره أكثر من نفعه .

فأمـا ما كـان سـبباً صحيحاً منفعته أكثر من مضرتـه فلا ينهى عنـه الشـرع بحال ''[(٣)] .

وفي هذا النص يقرر الشيخ رحمه الله أن الأمور المحرمة قسمين :

الأول : أن لا تكـون أسـباباً في حقيقة الأمر ، وينطبق هذا على ما ذكرته في هذا المبحث من الأسباب الوهمية .

---

(١) انظر فيما سبق من الشبه والرد : اقتضاء الصراط المستقيم (٦٨٨/٢-٦٩٢ ، ٧٠٧-٧١٠) .

(٢) مـا بين المعكوفتين زيادة يحتاج إليها السياق وهي من طبعة أخرى لاقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٦٢) تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٧١٣/٢-٧١٤) .

الـثاني: أن تكـون أسباباً ، لكن مضر ا أكبر من نفعها ، وينطبق هذا على المباحث السابقة في هذا الفصل .

وخـتاماً لهذا المبحث أؤكد على القاعدة في هذا الباب وهي أن من ادعى في أمر من الأمور أنه سبب وجب عليه إقامة البرهان الصحيح عليه ، ولا اعتبار للحكايات والقصص التي قد تتداول في مثل هذا الباب .

وأؤكـد أيضاً على أن أمور العبادة خاصة مبناها على التوقيف ، فلا يعتقد أو يعمل بأمر منها على أنه سبب إلا بدليل شرعي واضح ، وإن ظن العبد أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه .

الباب الثالث

جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على الفرق الضالة في السببية

وفيه فصول:

الفصل الأول: السببية عند الفلاسفة وموقف ابن تيمية منهم.

الفصل الثاني: السببية عند الصوفية وموقف ابن تيمية منهم.

الفصل الثالث: السببية عند المعتزلة وموقف ابن تيمية منهم.

الفصل الرابع: السببية عند الأشاعرة وموقف ابن تيمية منهم.

الفصل الخامس: مقارنة بين آراء الطوائف في موضوع السببية.

الفصل الأول

السببية عند الفلاسفة

وموقف ابن تيمية منهم

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهبهم .

المبحث الثاني : بيان شبههم .

المبحث الثالث: رد شيخ الإسلام عليهم .

تمهيد

الفلاسفة جمع فيلسوف وهي كلمة يونانية أصلها (فيلا) و (سوفا) ، وفيلا هو المحب وسـوفا : الحكمة ، فالفيلسوف هو محب الحكمة ، والفلسفة هي محبة الحكمة .

والفيلسـوف اسم جنس لمن يحب الحكمة ويؤثرها ، وهم لا يختصون بأمة من الأمم بـل هـم موجـودون في سائر الأمم ، وإن كان المعروف عند الناس الذين اعتنوا بحكاية مقالا م أ م فلاسفة اليونان .

وقـد صار هذا الاسم في عرف كثير من الناس مختصاً بمن خرج عن ديانات الأنبياء ، ولم يذهب إلا إلى ما يقتضيه العقل في زعمه ، وأخص من ذلك: أنه في عرف المتأخرين اسم لأتـباع أرسطو[1] ، وهم المشاؤون خاصة ، وإنما سموا بذلك ؛ لأ م كانوا يعلمون الناس وهم يمشون ، كيما يرتاض البدن مع رياضة النفس .

وهم الذين هذب ابن سينا طريقتهم وبسطها وقررها ، وهي التي يعرفها بل لا يعرف المتأخرون سواها ،

وهـؤلاء في حقيقة أمرهم فرقة من فرق الفلاسفة ومقالتهم واحدة من مقالات القوم ويخالفون بقية الفلاسفة في مسائل كبار[2] .

---

(١) أرسـطوطاليس بن نيقوماخس الفيثاغوري ، لازم أفلاطون وأخذ الفلسفة عنه وهذب كلامه وحققه ، وهو أول مـن جمـع أشـتات المـنطق ورتبه ولذلك يسمى المعلم الأول ، مات وعمره ٦٧سنة . انظر: طبقات الأمم لصاعد الأندلسـي (ص ٧٦) ، تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٥٤) ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن القفطي (ص ٢١) .

(٢) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٥٨/٢-٥٩) ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي (ص ٢٠) ، إغاثة اللهفان لابن القيم (٣٦٩/٢-٣٧٧) .

والذي يهمني هنا صنفان :

الصنف الأول : أرسطو وأتباعه ، لشهرتهم وتداول الناس لآرائهم ومقالاتهم .

الصنف الثاني : الفلاسفة الإسلاميون ، وهؤلاء معنيون بهذه الدراسة بالدرجة الأولى ؛ لأنهم الممثلون للفلاسفة القدماء ، والحاملون لراياتهم ، والمنتصرون لهم ، فهم قد بسطوا آراء السـابقين ، وقرروها وشرحوها ، وأبرز هؤلاء الفارابي[1] وابن سينا وابن رشد[2] ومن نحا نحوهم .

وسـوف أتكلم عن مذاهب هؤلاء في السببية وما يحتوى من عناصر ، ثم أبين شبههم ورد شيخ الإسلام عليهم ، وسيكون الكلام عليهم في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : تقرير مذهبهم

المبحث الثاني : بيان شبههم

المبحث الثالث : رد شيخ الإسلام عليهم .

---

(١) محمد بن محمد بن طرخان ، أبونصر الفارابي ، فيلسوف أرسطي، ولد بفاراب سنة ٢٦٠ هـ عرف بالمعلم الثاني لشرحه مؤلفات أرسطو ، ويقال: إن الآلة الموسيقية المعروفة بالقانون من وضعه ، توفي سنة ٣٣٩ هـ. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١٥٣/٥) ، البداية والنهاية لابن كثير (٢٢٤/١١) ، الأعلام للزركلي (٢٠/٧) .

(٢) محمـد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي ، أبو الوليد بن رشد الحفيد فقيه وفيلسوف وطبيب ، ولد سـنة ٥٢٠ هـ صنف في الفقه والفلسفة ، عني بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية ، مات سنة ٥٩٥ هـ . انظر: عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (١٢٢/٣) ، شذرات الذهب لابن العماد (٣٢٠/٤) ، الأعلام للزركلي (٣١٨/٥) .

المبحث الأول

تقرير مذهب الفلاسفة

في السببية

تقرير مذهب الفلاسفة في السببية

يـتكون مـذهب الفلاسـفة في مسألة السببية من عدة عناصر ، تترابط فيما بينها وتتشابك لتشكل في مجموعها آراء الفلاسفة في السببية ، وسوف أستعرض فيما يلي أصناف الفلاسفة السابق ذكرها ، مع بيان أهم عناصر السببية عندها .

وسـوف أراعـي في أثناء ذلك الإشارة إلى معتقدا م في الله جل وعلا ، وهذا ليس بخارج عن قضية السببية ؛ لأن الأسباب في حقيقتها مستندة إلى الله تعالى ، فهو جل وعلا مسـبب الأسـباب ، ومن هنا تتبين أهمية معرفة رأي الفلاسفة في وجود الله وفي فعله جل وعـلا ، إذ من خلال ذلك يتبين كيفية معالجتهم لقضايا السببية ، والمسار الذي اتبعوه في ذلك .

أولاً : الفلاسفة المشاؤون :

وهـم أتباع أرسطو خاصة ، وتقدم سبب تسميتهم بذا الاسم ، ويتكون مذهبهم في السببية من عدة عناصر:

أولاً : اعتقادهم في الله جل وعلا :

يقر الفلاسفة المشاؤون بوجود الله تعالى ، لكن على نحو غير مؤثر في هذا العالم ، فهو لا يعلـم به ، ولا يتحكم فيه إطلاقاً ، والعالم قديم لم يخلق ، وهو في حركة دائمة ، يتحرك حركة محبة وشوق للتشبه بذا الإله ، ويطلق على هذا الإله اسم العِلة الأولى أو المحرك الذي لا يتحرك أو الجوهر الأول[١] .

وبالإضـافة إلى المحرك الأول الذي لا يتحرك ، وعليه تتوقف السموات والأرض يضع أرسطو سلسلة من المحركات أقل منه مرتبة يسميها العقول المفارقة للمادة أو الجواهر ا ـردة

---

(١) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم (ص ١٤٨ ، ١٨٠-١٨٢) .

وهي تشبه المحرك الأول من حيث البراءة من المادة ، وعدم الخضوع للكون والفساد ، وتقوم بتحريك الأفلاك بنفس الطريقة التي يحرك بها الجوهر الأول العالم ، وتتحرك أفلاك هذا العالم للتشبه بهذه العقول أو الجواهر المفارقة ، ويبلغ عدد هذه العقول خمسة وخمسين عقلاً بعدد الحركات التي تسند إلى الأفلاك(١) .

ويتضح من خلال هذه الإشارة الموجزة أنهم يقطعون أي صلة لله تعالى بهذا العالم ، لا من حيث الخلق والإيجاد ، ولا من حيث التأثير .

وهذا الأمر ذاته ينطبق على ما يزعمونه من العقول المفارقة ، والشيء الوحيد الذي أثبتوه هو حركة العالم للتشبه بالجوهر الأول ، وكذا حركة الأفلاك للتشبه بالعقول المفارقة وهذه إشارة منهم إلى نوع من السببية بين الله تعالى والعالم ، وكذا بين العقول المفارقة التي يثبتونها وبين الأفلاك .

وهذه العلاقة ليست من جهة الله تعالى ، ولا من جهة العقول المفارقة ، بل هي من جهة العالم والأفلاك ، فالعالم يتحرك للتشبه بالله تعالى عن ذلك ، وكذا تتحرك الأفلاك للتشبه بالجواهر المفارقة ، وهذه الحركة عندهم من باب السببية الغائية ، حيث أن الغاية والسبب في حركة العالم التشبه بالله تعالى ، وكذا الغاية والسبب في حركة الأفلاك التشبه بالجواهر المفارقة .

ثانياً : قولهم في الأسباب :

إذا تأملنا موقف أرسطو من الأسباب فإننا نجد أنه يوليها عناية كبيرة ، حيث يجعل حقيقة الفلسفة وجوهرها تفسير الأشياء بأسبابها وعللها ، وقد نقد من قبله من الفلاسفة

---

(١) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية لـ د. ماجد فخري (ص ١٣٣) .

وفلسفتهم ؛ لأ ا لم تقم على الأمر ، ولهذا نجده يذكر الأسباب في مباحث كثيرة ، بل إنه يدخلها في علم المنطق ، ويجعلها الحد الأوسط الذي تبنى عليها القياسات المنطقية(١) .

وتنقسم الأسباب عند أرسطو إلى أربعة :

١- السبب الذي على طريق الصورة .

٢- السبب الذي على طريق الهيولى(٢) ، وهو الذي يؤخذ من أجل الصورة ، بمعنى أن الصورة لا يمكن أن تكون إلا في هيولى .

٣- السبب الذي على طريق المحرك القريب والفاعل .

٤- السبب الذي على طريق الغاية(٣).

ويمكن توضيح مراده بالمثال الآتي: المنضدة التي يكتب عليها ، سببها الذي عن طريق الصـورة هي الصورة التي هي عليها ، وسببها الذي عن طريق الهيولى هو الخشب ، وسببها الذي عن طريق المحرك القريب أو الفاعل النجار ، وسببها الذي على طريق الغاية هو الكتابة عليها(٤).

ثالثاً : قولهم في الطبيعة :

بـناء على ما قرره أرسطو من قطع الصلة بين الله تعالى وبين العالم كما سبق ذكره، ومن خلال تقسيم الأسباب إلى أربعة أقسام ، يضع أرسطو رأيه في الطبيعة ، فيرى أ ا بذا ا مبدأ الشيء وعلة حركته وسكونه .

---

(١) انظر: تلخيص منطق أرسطو لابن رشد (٤٧١/٥) ، موسوعة الفلسفة لـ د. عبدالرحمن بدوي (١٠٠/١) .

(٢) الهـيولى عـند الحكماء شيء قابل للصور مطلقاً من غير تخصيص بصورة معينة ، ويسمى بالمادة . انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١٥٣٤/٣) طبعة دار صادر ، المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٥٣٦/٢) .

(٣) انظر فيما سبق : الطبيعة لأرسطو طاليس (١٠٠/١) ، تلخيص منطق أرسطو لابن رشد (٤٧١/٥) .

(٤) انظر :موسوعة الفلسفة لـ د. عبدالرحمن بدوي (١٠٠/١ ، ١٠٢) .

والطبـيعة عنده هي الحيوانات وأعضاؤها ، والنباتات ، والعناصر المحتوية على الحركة والسـكون ، أو النمو والذبول ، أو الاستحالة ، ولا يدخل فيها المصنوعات ؛ لأن مقياس الطبيعة عنده هو الحركة والسكون الذاتي ، وهذا لا ينطبق على المصنوعات .

الطبيعية في حقيقتها مكونة من شيئين :

أحدهما : سبب مادي ويطلق عليه اسم الهيولى وهي المادة التي يتكون منها الشيء .

والآخـر: سـبب صوري ، ويطلق عليه اسم الصورة وهو الشكل الذي يكون عليه الشيء .

يقول أرسطو: '' الطبيعة تقال على شيئين وهما : الصورة ، والهيولى''[١] .

وإذا كانت الطبيعة مجموع سببين ، فإ ا كما يقرر أرسطو تفعل لغاية وهدف ، وبذا يجتمع فيها الأسباب الأربعة ، الغائي من حيث الغاية من فعلها ، والفاعلي من حيث كو ا الفاعل ، والهيولى والصورة من حيث كو ا طبيعة مكونة منهما .

فإن قيل: لماذا تفعل الطبيعة لغاية ؟

فالجواب أ ا تفعل ذلك بسبب الضرورة ، ويفسر أرسطو الضرورة بمعنيين :

الأول : ما كان من قبل صورة الوجود ، وهو الضرورة الطبيعية ، مثل حركة الحجر إلى أسفل ، وصعود النار إلى أعلى .

الثاني : ما كان من قبل المادة أو الهيولى ، حيث أن ذلك من لوازمها الذاتية[٢] .

---

(١) الطبيعة لأرسطو طاليس (٩٣/١) ، وانظر: نفس المصدر (١٥١/١) .

(٢) انظر : تلخيص منطق أرسطو لابن رشد (٤٧٢/٥) ، تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم (ص ١٤٠) .

إذن فمذهب أرسطو في الطبيعة أ ا أحد الأسباب في هذا العالم ، وتصنع لغاية وهدف وفيها من المقومات الذاتية ما يجعلها تستغني عن إله مدبر متصرف فيها .

ونرى هنا أن مذهب أرسطو في وجود الله كان له أثر بارز على قوله في السببية ، بل لا نبالغ إذا قلنا إن انحرافه في مسألة وجود الله تعالى وفعله هما السببان الأساسيان في انحرافه في بـ ـاب السـ ـببية ، فعزل الله تعالى عن الفعل والتأثير ، يفرض بالضرورة وجود فاعل آخر غـ ـيره مؤثـ ـر في هذا العالم وقد اختار أرسطو أن يضع الطبيعة مكان الإله ، وينسب لها ما ينسب إلى الإله من الإحكام والإتقان والغاية والقصد في الفعل .

ويمثل مذهب أرسطو في هذا الباب إحدى صور مذهب الطبائعية ، لكنه يختلف عنهم بأنه يثبت وجود إله ، وإن كان لا تأثير له في الحقيقة .

ثانياً : الفلاسفة الإسلاميون :

المقصـ ـود بالفلاسفة الإسلاميين مجموعة الفلاسفة الذين جاءوا بعد الإسلام ، وهؤلاء أصناف متعددة ، ويتبعون مذاهب شتى ، لكني سأهتم في هذه الدراسة بمجموعة معينة من أشهرهم ، ومن هؤلاء: الفارابي وابن سينا وابن رشد ، وسوف أحاول خلال هذه الدراسة أن أبين آراءهم في السببية .

أولاً : الفارابي :

لكي نفهم رأي الفارابي في السببية والأسباب لا بد من أن نشير إلى عنصر مهم في هذا الموضـ ـوع ، وهو آراؤه في مسألة وجود الله وصفاته ، وكيفية وجود العالم ، لأن الله تعالى هـ ـو مسبب الأسباب ، وبالتالي فأي نظرة منحرفة في هذا الباب فلا بد أن تترك أثراً على موضوع السببية .

آراؤه في وجود الله تعالى وصفاته :

يرى الفارابي أن الله تعالى هو السبب الأول لجميع الكائنات ، وهو تام واجب الوجود مكـتف بذاته ، وأزلي ، غير معلول ، وغير مادي ، لا شريك له ، ولا ضد ، ولا هو قابل للتحديد .

ويتصـف فضلاً عن ذلك بالوحدانية والحكمة والحياة ، وهي جزء لا يتجزأ من تلك الذات .

وهو ليس بمادة ، ولا متصلاً بالمادة بوجه ، فهو بالضرورة عقل .

وهو لا يحتاج إلى واسطة يدرك بها ذاته ، بل هو دائم التفكير في ذاته ، فهو إذن فِكْر يفكر في ذاته ، أو بعبارة أخرى : عقل وعاقل ومعقول[١] .

وهو كامل ، وليس باستطاعة العقل الإنساني إدراكه إدراكاً تاماً ، لأن العقل الإنساني يتخلله النقص ، وتخالطه شوائب المادة[٢].

آراؤه في خلق الله تعالى وفعله وتأثيره :

يرى الفارابي أن الكائنات تصدر عن الله تعالى بطريق الفيض ، فبداعي غزارة وجوده وكمالـه يـولد جميع أصنـاف الموجودات بالضرورة ، وذلك بمعزل تـام عن اختياره أو رغبته .

---

(١) يشرح الفارابي هذا المعنى فيقول في آراء أهل المدينة الفاضلة (ص٤٦-٤٧): '' الذي هويته عقل ليس يحتاج في أن يكـون معقـولاً إلى ذات أخرى خارجة عنه تعقله ، بل هو بنفسه يعقل ذاته ، فيصير بما يعقل من ذاته عاقلاً وعقلاً بالفعل ؛ وبأن ذاته تعقله يصير معقولاً بالفعل '' .

(٢) انظر فيما سبق : آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي (ص ٣٧-٥١) ، تاريخ الفلسفة الإسلامية لـ د. ماجد فخري (ص ١٦٧-١٦٨) .

والكون الذي يصدر عنه لا يضيف شيئاً إلى كماله الأول ، بل هو نتيجة تلقائية للفيض المتحدر منه ، وليس من عائق داخلي أو خارجي يستطيع أن يعترض سبيل هذا التفتق المطرد أبداً .

وأول ما صدر عن الموجود الأول هو العقل الأول ، وهو قادر على شيئين :

١- إدراك موجده ، ومن هذا يتولد العقل الثاني .

٢- إدراك ذاته ، ومن هذا يتولد الفلك الأقصى أو السماء الأولى .

والعقل الثاني قادر على شيئين أيضاً :

١- إدراك موجده ، ومن هذا يتولد العقل الثالث .

٢- إدراك ذاته ، ومن هذا يتولد فلك الكواكب الثابتة .

ويستمر هذا الصدور على مراحل متتابعة فيتولد عنها العقل الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ، وما يقابلها من الكواكب السيارة أي زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر ، على التوالي وبالعقل العاشر تكتمل سلسلة العقول الكونية ، وبالقمر تكتمل سلسلة الأفلاك السماوية التي تخضع في حركتها الدائرية لتدبير العقول الكونية أبد الدهر[1] .

يقول الفارابي : " يفيض من الأول وجود الثاني ، فهذا الثاني هو أيضاً جوهر غير جسم متجسم أصلاً ، ولا هو في مادة ، فهو يعقل ذاته ، ويعقل الأول ، وليس ما يعقل من ذاته هو شيء غير ذاته ، فبما يعقل من الأول يلزم عنه وجود ثالث ، وبما هو متجوهر بذاته التي تخصه يلزم عنه وجود السماء الأولى ، والثالث أيضاً وجوده لا في مادة ، وهو بجوهره عقل ، وهو يعقل ذاته ويعقل الأول ، فبما يجوهر به من ذاته التي تخصه يلزم عنه وجود كرة

(١) انظر فيما سبق : تاريخ الفلسفة الإسلامية لـ د. ماجد فخري (ص١٦٨- ١٦٩) .

الكواكب الثابتة ، وبما يعقله من الأول يلزم عنه وجود رابع ، وهذا أيضاً لا في مادة ، فهو يعقـل ذاته ويعقل الأول ، فبما يتجوهر به من ذاته التي تخصه يلزم عنه وجود كرة زحل ، وبما يعقله من الأول يلزم عنه وجود خامس ، وهذا الخامس أيضاً وجوده لا في مادة ، فهو يعقل ذاته ويعقل الأول ، فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة المشتري ، وبما يعقله مـن الأول يلزم عنه وجود سادس ، وهذا أيضاً وجوده لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الأول ، فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة المريخ ، وبما يعقله من الأول يلزم عنه وجـود سابع ، هذا أيضاً وجوده لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الأول ، فبما يتجوهر بـه من ذاته يلزم عنه وجود كرة الشمس ، وبما يعقل من الأول يلزم عنه وجود ثامن وهو أيضاً وجود لا في مادة ، ويعقل ذاته ويعقل الأول ، فبما يتجوهر به من ذاته التي تخصه يلزم عنه وجود كرة الزهرة ، وبما يعقل من الأول يلزم عنه وجود تاسع ، وهذا أيضاً وجوده لا في مـادة ، فهـو يعقل ذاته ويعقل الأول ، فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة عطارد ، وبما يعقل من الأول يلزم عنه وجود عاشر ، وهذا أيضاً وجوده لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الأول ، فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة القمر وبما يعقل من الأول يلـزم عنه وجود حادي عشر ، وهذا الحادي عشر هو أيضاً وجود لا في مادة ، وهو يعقـل ذاته ويعقل الأول ، ولكن عنده ينتهي الوجود الذي لا يحتاج ما يوجد ذلك الوجود إلى مـــادة وموضـوع أصـلاً ، وهي الأشـياء المفارقة التي هي في جواهرهـا عقول ومعقولات ،،[(١)] .

ومـع فلـك القمـر تنتهـي الموجودات المطلقة التي لا تخضع للكون والفساد ، أما الموجـودات الـتي دون فلك القمر فهذه لا يمكن أن تكون كاملة ، ولا أن تصبح كاملة ، وهـي درجـات أدناها الهيولى التي لا صورة لها ، ثم فوقها العناصر الأربعة ، ثم الجماد ثم النبات ثم الحيوان ، ثم الحيوان الناطق الذي هو الإنسان [(٢)].

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي (ص ٦١-٦٢) .

(٢) انظر فيما سبق: تاريخ الفكر العربي لعمر فروخ (ص ٣٥٩) .

آراؤه في السببية :

١- يتكلم الفارابي عن وجود الأشياء وتنوعها ، ويرجع ذلك إلى تأثير الأجسام السماوية بصورة رئيسة ، ثم إلى اختلاطها وتكونها من عدة مركبات عن طريق العناصر ، فعندما تختلط العناصر تنشأ منها أنواع الأجسام المتضادة المركبة تركيباً أولياً ، وهذه المركبات تختلط بدورها مع بعضها ومع العناصر الأخرى ، فتتولد منها طبقة الأجسام ، وهي أشد تركيباً وتعقيداً من الأولى ، وتشتمل على أنواع من القوى الفاعلة والمنفعلة ، وتحت تأثير الأجسام الفلكية يستمر هذا النمط من اتحاد المركبات والعناصر في توليد ذوات أسمى وأشد تعقيداً في عالم ما تحت القمر ، حتى ينتهي الاختلاط الأخير بنشوء الإنسان[1] .

يقول الفارابي: '' فتختلط أولاً الاسطقسات[2] ، بعضها مع بعض ، فيحدث من ذلك أجسام كثيرة متضادة ، ثم تختلط هذه المتضادة بعضها مع بعض فقط ، وبعضها مع بعض ومع الاسطقسات ، فيكون ذلك اختلاطاً ثانياً بعد الأول ، فيحدث من ذلك أيضاً أجسام كثيرة متضادة الصور ، ويحدث في كل واحد من هذه أيضاً قوى يفعل بها بعضها في بعض ، وقوى تقبل بها فعل غيره من الأجسام فيها ، وقوى تتحرك بها من تلقاء نفسها بغير محرك من خارج ، ثم تفعل فيها أيضاً الأجسام السماوية ، ويفعل بعضها في بعض ، وتفعل فيها الاسطقسات ، وتفعل هي في الاسطقسات أيضاً ، فيحدث من اجتماع هذه الأفعال بجهات مختلفة اختلاطات أخر كثيرة تبعد بها عن الاسطقسات والمادة الأولى بعداً كثيراً ، ولا تزال تختلط اختلاطاً بعد اختلاط قبله ، فيكون الاختلاط الثاني أبداً أكثر تركيباً مما قبله ، إلى أن

(١) انظر: تاريخ الفلسفة الإسلامية لـ د. ماجد فخري (ص ١٦٩) .

(٢) الاسطقسات جمع اسطقس ، وهو لفظ يوناني يرادف العنصر ، والعناصر عند قدماء اليونان أربعة : الماء والأرض والهواء والنار ، وهي المقصودة في كلام الفارابي . انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي (ص٦٣) ، المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٧٨/١) .

تحـدث أجسـام لا يمكـن أن تخـتلط ، فيحدث من اختلاطها جسم آخر أبعد منها عن الاسطقسات ، فيقف الاختلاط .

فبعض الأجسام يحدث عن الاختلاط الأول ، وبعضها عن الثاني ، وبعضها عن الثالث وبعضها عن الاختلاط الآخِر ''[1] .

٢- يسمي الفارابي العقل الفعال[2] بعدة أسماء منها: واهب الصور ، والروح الأمين ، وروح القدس[3] ويسند إليه أموراً متعددة منها :

أ- أنه سبب تأثير جميع الأسباب الطبيعية .

يقـول الفارابي : '' علة الحرارة المطلقة هو واهب الصور ، فعلّة الإحراق وعلّة النار هو واهب الصور ، ولا يجوز أن يكون شخص منها بعلة لشخص ''[4] .

ب- أنه هو الذي يعتني بالإنسان ، ويسعى إلى تبليغه أقصى درجات الكمال[5] ، كما أنه هو الذي يحول ما كان بالقوة فيجعله بالفعل ، فمثلاً الإنسان هو مبصر بالقوة ، وبالعقل الفعال يصير مبصراً بالفعل ، ودور العقل الفعال بالنسبة له من جنس ضوء الشمس للإنسان فبدونه يكون الإنسان مبصراً بالقوة لا بالفعل ، لكن بضوء الشمس يبصر الإنسان بالفعل .

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي (ص ٧٧-٧٨) .

(٢) العقل الفعال أو العقول الفعالة هي : كل ماهية مجردة عن المادة أصلا . وهذا وصف يصدق على جميع العقول ، لكن العقل الذي يؤثر بالصفة التي ذكرها الفارابي هو العقل العاشر . انظر في تعريف العقل الفعال : الحدود لابن سينا (ص ١٢٥) ، والحدود للغزالي (ص ١٨٠) كلاهما ضمن رسائل منطقية في الحدود والرسوم للفلاسفة العرب . وانظر كلام الفارابي في آراء أهل المدينة الفاضلة (ص ١٠٣) .

(٣) السياسة المدنية للفارابي (ص ٣٢) .

(٤) التعليقات للفارابي (ص ٦٦) .

(٥) السياسة المدنية للفارابي (ص ٣٢) .

يقـول الفارابي : ’’ ومـ لة العقل الفعال من الإنسان مـ لة الشمس من البصر ، فكما أن الشـمس تعطـي البصر الضوء فيصير البصر بالضوء الذي استفاده من الشمس مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة ، وبذلك الضوء يبصر الشمس نفسها التي هي السبب في أن أبصـر بالفعل ، وبالضوء أيضاً تصير الألوان التي هي مرئيةً بالقوة مرئيةً بالفعل ، ويصير البصر الذي هو بالقوة بصراً بالفعل ، كذلك العقل الفعال يفيد الإنسان شيئاً يرسمه في قوته الناطقة ‘‘[1] .

٣- يـتابع الفـارابي أرسـطو في تقسيم الأسباب إلى أربعة أسباب ، الأسباب المادية والأسـباب الصـورية ، والأسباب الفاعلة ، والأسباب الغائية [2] ، وقد تقدم شرح هذه الأسباب فيما سبق[3] .

٤- تأثير الأسباب الطبيعية هل هو على الضرورة أم على الإمكان ؟

يرى الفارابي أن تأثير الأسباب الطبيعية على الإمكان الكثير لا على الضرورة ، ويعلل ذلـك بأنـه لا يـتوقف على أمر واحد وهو السبب الفاعل ، بل لا بد من المحل القابل ، واستلزام المحل القابل ينفى ضرورة التأثير عن السبب الفاعل .

يقـول الفارابي ’’ قد يظن بالأفعال والآثار الطبيعية أ ا ضرورية كالإحراق في النار ، والتـرطيب في المـاء ، والتبريد في الثلج ، وليس الأمر كذلك ، لكنها ممكنة على الأكثر ؛ لأجـل أن الفعل إنما يحصل باجتماع معنيين : أحدهما: يؤ الفاعل للتأثير ، والآخر : يؤ المنفعل للقبول ، فحيثما لم يجتمع هذان المعنيان لم يحصل فعل البتة

---

(١) السياسة المدنية للفارابي (ص ٣٥) .

(٢) لم أجد نصاً للفارابي ينص على هذا التقسيم بشكل مباشر ، لكن هذه الأقسام قد وجدت في كتبه بشكل متفرق انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة (ص ٦٤) ، التعليقات (ص٤٣) ، السياسة المدنية (ص ٣٦) ، كتاب الجمع بين رأي الحكيمين (ص ٦١) . والحكيمان هما أرسطو وأفلاطون .

(٣) انظر (ص٣٠ ، ٦١٥) .

كما أن النار وإن كانت محرقة فإ ا ما لم تجد قابلاً متهيئاً للاحتراق لم يحصل الاحتراق وكـذلك الأمـر في سائر ما أشبهها ، وكلما كان التهيؤ في الفاعل والقابل جميعاً أتم كان الفعـل أكمـل ، ولـولا ما يعرض من التمنع في المنفعل ، لكانت الأفعال والآثار الطبيعية ضرورية ''[١].

٥- يقسم الفارابي الأسباب إلى قسمين ، قريبة وبعيدة ، فالقريبة تنضبط على الأكثر ولكن البعيدة يمكن انضباطها وعدمه ، يقول : '' العلل والأسباب إما أن تكون قريبة ، وإما أن تكون بعيدة ، فالقريبة معلومة مدركة مضبوطة على أكثر الأمور ، وذلك مثل حمي الهواء مـن انبثاث ضوء الشمس فيه ، والبعيدة قد يتفق أن تصير معلومة مدركة مضبوطة ، وقد تكـون مجهولة ، فالمضبوطة المدركة منها كالقمر يمتلئ ضوءاً ويسامت بحراً ، فيمتد فيسقي الأرض فينبت الكلأ ، فيرتعها الحيوان فيسمن ، فيربح الإنسان عليها فيستغني ، وكذلك ما أشبهها .

لا يسـتنكر أن يحدث في العالم أمور لها أسباب بعيدة جداً فلا تضبط لبعدها ، فيظن بـتلك الأمور أ ا اتفاقية ، وأ ا من حيز الممكن ا هول ، مثل: أن تسامت الشمس بعض الأمـاكن الندية ، فترتفع عنها بخارات كثيرة ، فينعقد منها سحائب ، وتمطر عنها أمطاراً ، وتكرب ا أهوية ، فتتعفن ا أبدان فتعطب ، فيرثهم أقوام فيستغنون .

غير أن الذي يزعم أنه قد يوجد سبيل إلى معرفة وقت استغناء هؤلاء القوم ، ومقداره وجهته من غير اقتفاء السبيل الذي ذكرت ، مثل: فأل أو عيافة[٢] أو استخراج حساب أو مناسبة بين أجسام أو أعراض ، فهو مدع ما لا يذعن له عقل صحيح البتة ''[٣] .

(١) مقالة فيما يصح ومالا يصح من أحكام النجوم للفارابي - ضمن رسالتين فلسفيتين (ص ٥٢-٥٣) .

(٢) العـيافة: هي التفاؤل بأسماء الطير وأصوا ا وألوا ا كما يتفاءل بالعقاب على العقوبة ، والغراب على الغربة ونحو هذا . انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (٩٠٧/٢) طبعة دار صادر .

(٣) مقالة فيما يصح ومالا يصح من أحكام النجوم للفارابي - ضمن رسالتين فلسفيتين (ص ٥٧-٥٨) .

في ضوء ما سبق يمكن أن ندرك أن مذهب الفارابي في السببية ، يتضمن الأمور الآتية:

١- يجعـل الله تعـالى علة فاعلة وعلة غائية معاً ، فهو علة فاعلة من حيث أن تعقله سـبب لصـدور الموجودات عنه ، وهو علة غائية من حيث أن جميع الموجودات تؤمـه وتقتفيه [(١)].

٢- يسند جميع الموجودات إلى الله تعالى عن طريق الفيض ، من جنس فيض الشعاع عن الشمس ، فيكون فعله اضطراري وليس اختياري ، إذن فهو ينفي عن الله عز وجل أي تأثير اختياري .

٣- يسـند حـدوث الأشياء وتأثيرها إلى العناصر بما فيها من قوى إضافة إلى تأثير الأجسـام الفلكـية والعقل الفعال ، والأجسام الفلكية بدورها ناتجة عن العقول العشرة ، والعقول العشرة كل منها ناتج عما قبله ، وتنتهي السلسلة إلى الأول الذي فاض منه العقل الأول .

٤- يثبت تأثير الأسباب على الإمكان الأكثر ، لا على الضرورة .

٥- يقسـم الأسـباب إلى أسباب قريبة وبعيدة ، والقريبة غالباً ما تنضبط بخلاف البعيدة .

هذه مجمل آراء الفارابي في السببية وما يرتبط بها من مسائل .

ثانياً : ابن سينا :

عندما نتأمل آراء ابن سينا في مسألة السببية لا نرى أنه قد أضاف إلى فلسفة الفارابي شـيئاً جديـداً إلا بعض الزيادات التوضيحية ، وبعض الاختلاف اليسير ، ولذلك سوف

---

(١) انظر: آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي (ص ١٢٢) ، تاريخ الفلسفة العربية لجميل صليبا (ص ١٥٣) .

أسلك في تقرير آراء ابن سينا طريق الاختصار خاصة فيما يعتبر تكراراً لما قرره الفارابي قبله فإني قد ذكرته فيما سبق[١] .

آراؤه في وجود الله تعالى وصفاته :

يرى ابن سينا أن الله تعالى واجب الوجود ، هو المبدأ الأول الذي ليس له علة ، ومبرأ مـن كل إمكان ، وهو بسيط وتام الوجود وثابت لا يتغير وأزلي وأبدي ، لا حد له ، وهو أيضاً خير محض وحق محض ، وعقل وعاقل ومعقول ، وعشق وعاشق ومعشوق[٢] .

وأنـه متصـف بالعلم والقدرة والإرادة ونحوها من الصفات ، ويزعمون أن ذلك لا يسـتلزم الكثـرة والتركيب في ذاته ؛ لأن مفهوم ذلك كله عندهم شيء واحد هو نفس الذات[٣].

ومعنى هذا أن هذه الصفات لا حقيقة لها مطلقاً ، فالله تعالى عندهم لا يتصف بصفة ، ولا يفعل شيئاً عند التحقيق ؛ لأنه بسيط في زعمهم .

وينفـي ابـن سينا علم الله تعالى بالجزئيات ، ويستفيد في ذلك من مسألة الأسباب والمسببات ، فهو يرى أن الله تعالى يعلم الجزئيات على وجه كلي ، بمعنى أن الله تعالى يعلم الأسـباب في هذا العالم ، ويعلم ما تؤدي إليه ، وإذا علم ذلك فإنه يعلم جميع الموجودات باعتبار أ ا إما أسباب أو نتائج الأسباب ، ويمثل لهذه القضية بمسألة الكسوف ، فإن الإنسان

(١) إنمـا كـان كلام ابن سينا والفارابي واحداً ؛ لأن ابن سينا تتلمذ على كتب الفارابي من جهة ، ثم إن كليهما قد أخذا عن مصدر واحد ، فمصدرهما واحد وهو أرسطو وأفلوطين ، فقد أخذا من أرسطو قوله: إن للعالم إلهاً يحركه ، ولا يتحـرك معه ، وأخذا من أفلوطين قوله: إن العقل يصدر عن الواحد ، وإن الله تعالى يعقل ذاته ، ويعقل الأشياء على نحو كلي . انظر : تاريخ الفلسفة العربية لجميل صليبيا (ص ٢٣٦) .

(٢) انظـر : الشفاء لابن سـينا - الإلهيات (٣٥٥/٢ ، ٣٧٣) ، تاريخ الفلسفة العربية لجميل صليبيا (ص ٢٢٤-٢٢٧) .

(٣) انظر: النجاة لابن سينا (ص٢٨٦) ، ابن تيمية السلفي لمحمد خليل هراس (ص ٨٨) .

إذا علـم بجميع أسباب الكسوف فإنه يستطيع أن يعلم جميع أوقات وجودها ، فيكون عالماً بجزئيا ا لكن على وجه كلي ، وهكذا علم الله تعالى عند ابن سينا ، تعالى الله عن ذلك[1] .

آراؤه في خلق الله تعالى وفعله وتأثيره :

يـرى ابن سينا أن العالم صدر عن الله تعالى بطريق الفيض وليس عن طريق القصد أو الطبع ، بل هو فيض ضروري معقول ، ويشرح ابن سينا هذا الصدور في ضوء ثلاث مبادئ هي :

١- المـبدأ الأول: أن الوجـود ينقسم إلى ممكن وواجب ، والعالم بأسره ممكن بذاته واجب بغيره ، والله تعالى هو واجب الوجود بذاته .

٢- المبدأ الثاني: القول بأن الواحد من حيث هو واحد لا يصدر عنه إلا واحد ، فالله تعـالى واحـد من جميع الوجوه ، فإذا صدر عنه شيء وجب أن يكون هذا الشيء واحداً بالعدد .

٣- المبدأ الثالث: القول بأن التعقل إبداع ، فتعقل الله تعالى للوجود علة للوجود على ما يعقله ، فإذا عقل شيئاً وجد ذلك الشيء على الصورة التي عقله با .

وبـناء على هذه المبادئ فالله تعالى عقل محض ، يعقل ذاته ، ويصدر عنه لذاته معلول واحد هو عقل أيضاً ، والعقل الأول تصدر عنه ثلاثة أشياء هي العقل الثاني ، وجرم الفلك الأقصى ، وصورته وهي النفس ، وما يقال عن العقل الأول يقال كذلك عن بقية العقول ، وتحـت كل عقل ثلاثة أشياء ، وتستمر العملية تتوالى بذه الكيفية حتى العقل العاشر الذي هو العقل الفعال الذي يدبر عالمنا هذا أو كما يسمونه عالم الكون والفساد[2] .

---

(١) انظر : الشفاء لابن سينا - الإلهيات (٣٦١/٢) ، تاريخ الفلسفة العربية لـ د . جميل صليبيا (ص ٢٢٨) .
(٢) انظر : تاريخ الفلسفة العربية لـ د. جميل صليبيا (ص ٢٣٢-٢٣٤) .

وهـنا نلاحظ جهة الاختلاف بين الفارابي و ابن سينا ، فابن سينا يجعل الفيض ثلاثي فكـل عقل يصدر عنه العقل الذي يليه ، ونفس الفلك التي تقوم بإحداث وتغيير حركاته ، وجرم الفلك ، بخلاف الفارابي الذي يجعل الفيض ثنائي ، فكل عقل يصدر عقلاً وفلكاً[(١)] .

آراؤه في **السببية :**

يتكون مذهب ابن سينا في السببية من عدة عناصر أهمها ما يلي:

١- أقسـام الأسباب ، فابن سينا يتابع أرسطو في تقسيم الأسباب والعلل إلى أربعة أقسـام ، العلة المادية ، والعلة الصورية ، والعلة الفاعلة ، والعلة الغائية[(٢)] وقد تقدم الكلام عليها[(٣)] .

٢- يـرجع حـدوث الأشياء إلى الكواكب حركا ا وتخيلا ا (وتعقلا ا) ، فعندما تتحـرك الكواكب تكون حركتها سبباً لحدوث أشياء ، وعندما تتخيل يكون تخيلها سبباً لحدوث أشياء ، بل قد يتعدى تأثيرها إلى التأثير علينا ، فقد يصير تخيلها سبباً لإيقاع تخيلات في نفوسـنا فيبعثنا على فعل أشياء ، وقد يكون سبباً لأمور طبيعية ، مثل أن تتخيل حرارة الهواء ، فيحدث في الهواء حرارة نتيجة لهذا التخيل[(٤)] .

إذن الأفلاك في نظر ابن سينا سبب في حدوث الأشياء ، وسبب في حدوث صفا ا ، بل إ ا تؤثر علينا وعلى تصرفاتنا ، وهذا مذهب المنجمين .

---

(١) انظـر: آراء أهـل المدينة الفاضلة للفارابي - تعليق في الحاشية (ص ٦٢) ، موسوعة الفلسفة لـ د. عبدالرحمن بدوي (٥٠/١) .

(٢) انظر: الشفاء لابن سينا - الإلهيات (٢٥٧/٢-٢٦٣) ، عيون الحكمة لابن سينا (ص ١٨ ، ٥٢) .

(٣) انظر: عيون الحكمة لابن سينا (ص ٥١-٥٣) .

(٤) انظر: التعليقات لابن سينا (ص ١٢٩) .

٣- أن الأسباب كثيرة ومتنوعة ومتسلسلة ، ولا يمكن للإنسان أن يحيط بها ، وتنتهي إلى الفلـك ، فمثلاً موت الإنسان سببه احتراق مزاجه ، وسبب احتراق المزاج تناوله لشيء حار ، وسبب تناوله ذلك إرادته ، وسبب ارادته شيء آخر ، حتى تنتهي السلسلة إلى حركة الفلك .

يقول ابن سينا : " وأسباب حادث جزئي تتركب تركيباً منتظماً على ترتيب المعلولي والعلي حتى ينتهي إلى حركة الفلك ، ومنها إلى تقدير البارئ وإرادته"[(١)] .

ولكي يفهم قصده من الجملة للأخيرة فيراجع إلى ما ذكرته آنفا من صفات الله تعالى وفعله عند ابن سينا .

٤- يقرر ابن سينا جبرية العبد عن طريق الأسباب .

يقول ابن سينا : " ولا يجوز أن يكون الإنسان مبتدئاً فعلاً من الأفعال من غير استناد إلى الأسـباب الخارجة التي ليست باختيار ، وتستند تلك الأسباب الخارجة إلى الترتيب ، والترتيب يستند إلى التقدير ، والتقدير يستند إلى القضاء ، والقضاء ينبعث من الأمر ، فكل شيء بقدر "[(٢)] .

ثالثاً : ابن رشد :

عـندما ننظر في آراء ابن رشد الفلسفية لا نجدها تخرج في مجملها عما قرره أرسطو ، فهو مجرد ناقل وشارح لآرائه ، ومتابع له فيها ، ويتجلى هذا في كثير من آرائه .

والـذي يهمنا هنا هو رأيه في السببية ، ولا يمكن معرفة رأيه فيها دون التعرف على بعض آرائه الأخرى خاصة فيما يتعلق بالله تعالى وتأثيره في العالم ، ولهذا سأبدأ بتوضيح رأيه

---

(١) التعليقات لابن سينا (ص ١٣١) .

(٢) رسالة في القوى الإنسانية وإدراكاتها لابن سينا - ضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات (ص ٦٨) .

في هـذه المسألة ؛ لأ ا الأساس الذي بنى عليه مذهبه في السببية ، ثم بعد ذلك أنتقل إلى ما قرره في السببية .

أولاً : آراؤه في فعل الله وإرادته :

يرى ابن رشد أن وجود العالم عن الله تعالى تم عن طريق الفيض بدون اختيار من الله تعالى .

يقول ابن رشد : '' والفلاسفة ليس ينفون الإرادة عن الباري سبحانه ، ولا يثبتون له الإرادة البشرية ؛ لأن البشرية إنما هي لوجود نقص في المريد ، وانفعال عن المراد ، فإذا وجد المراد له تم النقص ، وارتفع ذلك الانفعال المسمى إرادة ، وإنما يثبتون له من معنى الإرادة أن الأفعال الصادرة عنه هي صادرة عن علم وحكمة ، فهو صادر بإرادة الفاعل ، لا ضرورياً طبيعياً ..... فلا يفهم من معنى الإرادة إلا صدور الفعل مقترناً بالعلم ''[(١)] .

ومـؤدى هذا أن العالم صدر عن الله بطريق الفيض لا بإرادته ، ولكنه استعمل لفظ الإرادة وفسـرها بـالعلم والحكمـة ، فالله تعالى عنده أوجد هذا العالم بإرادته بمعنى علمه وحكمته لا اختياره ، تعالى الله عن ذلك .

ثانياً : آراؤه في السببية :

يتكون مذهب ابن رشد في السببية من عدة عناصر أبرزها ما يلي:

١- أن الله تعـالى أحكم العالم وأتقن صنعه ، وربط الأسباب بالمسببات ، وفق نظام دقيق محكم الصنعة .

---

(١) افت التهافت لابن رشد (ص ٢٤٦-٢٤٧) .

يقول ابن رشد : " لا فاعل ههنا إلا الله ؛ إذ كان مخترع الأسباب ، وكونها أسباباً مؤثرة هو بإذنه وحفظه لوجودها "[1] .

وهو بهذا لا يقصد ما يقوله أهل السنة والجماعة في إثبات الأسباب ، بل هو يسير وفق منهج الفلاسفة المشائين في إثبات وجود الله تعالى وفعله ، فالعالم صدر عنه كصدور الشعاع عن الشمس .

وفي نفس الوقت هذا الشعاع يسير بإحكام وإتقان دقيقين ، مرتبطة أسبابه بمسبباته ، من غير تدخل من الشمس في ذلك ، فهكذا العالم مع الله ، تعالى الله عن ذلك .

هذا ما يقرره ابن رشد ، وهو يصر على مسألة إثبات الأسباب ، ويشنع على الأشاعرة في نفيهم لها ؛ لكي يتوصل من خلال ذلك إلى نفي أي تأثير إلهي مباشر في هذا العالم ؛ لأن العالم عنده وجد بطريق الفيض عن الله تعالى ، والأسباب والمسببات مربوطة ببعضها ، والله تعالى هو الذي أتقنها ورتب بعضها على بعض ، لكنه لا يتدخل فيها مطلقاً .

وهذا الرأي رد فعل مضاد تماماً للمذهب الأشعري الذي ينفي الأسباب مطلقاً ، ويقرر تدخلاً إلهياً مباشراً في كل أمر من الأمور ، وخلقاً إلهياً مستمراً في كل لحظة وحين ، وسيأتي تفصيل المذهب الأشعري في الفصل الخاص بذلك ، لكن المقصود هنا بيان أن ابن رشد عكس مذهب الأشاعرة تماماً في هذا الباب .

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد (ص ١٠٩) ، وانظر : نفس المصدر (ص ١٠١-١١٠) .

ولعـل هذا يفسر لنا سر اهتمامه بدليل العناية[1] ، إذ من خلاله يرد على الأشاعرة ، وفي نفـس الـوقت هو متسق مع مذهبه في السببية ، وفي نفس الوقت أيضاً يستفيد منه في نظريته حول الله تعالى وفعله وتأثيره .

٢- يثبت ابن رشد للأسباب تأثيراً في الإيجاد والخلق ، فالأسباب عنده تخلق وتوجد ، لكنها لا توجد الجواهر بل توجد الأعراض .

يقـول ابن رشد : ‘‘ إن الموجودات الحادثة : منها ما هي جواهر وأعيان ، ومنها ما هي حركات وسخونة وبرودة ، وبالجملة أعراض .

فأما الجواهر والأعيان فليس يكون اختراعها إلا عن الخالق سبحانه ، وما يقترن بها من الأسـباب فإنما يؤثر في أعراض تلك الأعيان لا في جواهرها ، مثال ذلك : أن المني إنما يفيد من المرأة أو دم الطمث حرارة فقط ، وأما خلقة الجنين ونفسه التي هي الحياة فإنما يعطيها الله تبارك وتعالى .

وكـذلك الفـلاح إنما يفعل في الأرض تخميراً أو إصلاحاً ، ويبذر فيها الحب ، وأما المعطي لخلقه السنبلة فهو الله تبارك وتعالى ، فإذا على هذا لا خالق إلا الله تعالى ، إذ كانت المخلوقات في الحقيقة هي الجواهر ’’[2] .

ولا ينبغي أن يخفى علينا مقصد ابن رشد بقوله أن الله تعالى هو الذي يخلق ، فقد تقدم بيان معنى الخلق عنده .

٣- يقسم ابن رشد الأسباب إلى قسمين :

---

(١) دلـيل يستدل به على وجود الله تعالى بوجود الإحكام والإتقان في العالم ، ومن الإحكام والإتقان ربط الأسباب بالمسببات . انظر: الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد (ص ١٠١-١٠٥) .

(٢) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد (ص ١٣٤) .

الأول : أسـباب خارجـية ، وهـي أسباب كان وجود الموجودات بسببها ، وهي الأجسام السماوية .

الثاني: أسباب ذاتية ، وهي أسباب موجودة في ذوات الموجودات تساهم في حفظها ، وتلك الأسباب هي النفوس ، والقوى الطبيعية .

يقول ابن رشد : '' الله تبارك وتعالى أوجد موجودات بأسباب سخرها من خارج ، وهـي الأجسـام السماوية ، وبأسباب أوجدها في ذوات تلك الموجودات ، وهي النفوس والقوى الطبيعية ، حتى انحفظ بذلك وجود الموجودات وتمت الحكمة ''[(١)] .

ومـن هـذا النص يتبين أن ابن رشد يجعل مصدر سببية الموجودات الأرضية القوى والنفوس ، وسبب الجميع هو الأجسام السماوية ، فسلسلة الأسباب الأرضية تمتد وتصل في النهاية إلى الأجسام السماوية ، وهنا يلتقى ابن رشد مع الفارابي و ابن سينا ، غير أن هذين الفيلسـوفين يفصـلان في المقصـود من الأجسام السماوية عندهم ، وهو العقل الفعال ، ويفصلان في تأثيره على نحو ما سبق شرحه .

أمـا ابـن رشـد فلا يفصل في هذه المسألة ، فهو يرجع جميع تأثيرات الأسباب إلى الأسباب الخارجية ، بدون تفصيل في حقيقتها ، لكنها ليست هي الله عنده قطعاً ، فهي: إما الفلك ، أو ما يطلق عليه مسمى واهب الصور ، الذي هو العقل الفعال عند أسلافه .

يقـول ابـن رشد : '' فكما قلنا لا ينبغي أن يشك في أن هذه الموجودات قد تفعل بعضها بعضاً ومن بعض ، وأ ا ليست مكتفية بأنفسها في هذا الفعل ، بل بفاعل من خارج فعله شرط في فعلها ، بل في وجودها فضلاً عن فعلها

وأما ما جوهر هذا الفاعل أو الفاعلات ؟

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد (ص ١١٠) .

ففيه اختلاف الحكماء من وجه ، ولم يختلفوا من وجه .

ذلـك أ م كلهم اتفقوا على أن الفاعل الأول برئ عن المادة ، وأن هذا الفاعل فعله شـرط في وجـود الموجـودات ، وفي وجـود أفعالها ، وأن هذا الفاعل يتناول فعله هذه الموجـودات بواسـطة معقـول له هو غير هذه الموجودات ، فبعضهم جعله الفلك فقط ، وبعضـهم جعـل مع الفلك موجوداً آخر بريئـاً من الهيولى وهو الذي يسـمونه واهب الصور ،،[(١)] .

وبذا تكتمل صورة السببية عند ابن رشد .

وختاماً أوجز مذهب الفلاسفة في الآتي :

أ- الله تعالى بسيط لا يوصف بالصفات فلا يفعل شيئاً ، لا يخلق شيئاً ، بل تصدر عنه الموجودات فيضاً هذا عند الإسلاميين .

ب- العـالم قـديم بالزمان ، فلم يكن في زمن ما عدماً ثم وجد ، وهو عند أرسطو يتحرك حركة للتشبه بالإله اشتياقاً له .

ج- ترتب العالم عند فيضانه عن الله بحسب نظرية العقول العشرة ، وهذا عند الفارابي و ابن سينا .

د- يثبـتون مـا في الموجودات من الأسباب ويرجعو ا إلى شيئين : النفوس والقوى الطبيعية .

هـ- جميع الأسـباب الأرضية لا ترجع إلى الله بل ترجع إلى العقل الفعال أو الفلك على خلاف بينهم في ذلك .

---

(١) افت التهافت لابن رشد (ص ٢٩٢-٢٩٣) .

المبحث الثاني

بيان شبه الفلاسفة

في السببية



بيان شبهة الفلاسفة

بعدما ذكرت مذاهب الفلاسفة في السببية وما يرتبط بها من مسائل ، أجد من الضرورة بيان شبههم التي يستندون عليها في تأسيس مفترياتهم السابقة خصوصاً أن شيخ الإسلام رحمه الله قد ناقشها في بعض مؤلفاته .

وعندما نبحث عن شبه الفلاسفة أو الحجج التي يستندون إليها في مذاهبهم السابقة فمن الطبيعي أن لا نجد عندهم نصوصاً من الكتاب والسنة وكلام السلف وأئمة الدين رضي الله عنهم ، فهذه الأمور لا يعترفون بأنها أدلة ، فليست مصدراً لتلقي العلم عندهم ؛ لأنهم يزعمون أنها ظواهر لا تفيد العلم واليقين ، فهي تصلح لخطاب العامة فقط ، ويعدون أنفسهم من الخاصة الذين لا يقنعهم إلا ما يطلقون عليه مسمى البرهان العقلي .

والفلاسفة المشاؤون وأتباعهم من الإسلاميين لهم شبه كثيرة ؛ نظراً لامتداد مذهبهم من اليونانين إلى الفلاسفة الإسلاميين ، وبالتالي وصل من شبههم إلى أهل الإسلام الكثير ، ولكني سأركز على مسائل الأصول عندهم ، إذ بهدمها ينهدم سائر ما بني عليها من الفروع ولهذا سيكون منهجي في ذكر شبههم الاقتصار على الشبه التي يستندون عليها في تأسيس أصولهم ، حتى إذا انتقضت تلك الشبه انتقضت أصولهم وما يتفرع عنها من مسائل .

وأهم المسائل التي تعتبر أصولاً لهم وعليها تأسس مذهبهم في السببية هي مسألة وجود الله تعالى وصفاته وفعله وتأثيره ، فهم يرون أن الله تعالى موجود وجوداً كلياً مطلقاً ، وهو بسيط أي لا يتصف بالصفات ، وهو معطل عن الفعل والتأثير ، ففعله وتأثيره هو بالإيجاب الذاتي ، والموجب بالذات هو الذي تكون ذاته مستلزمة لموجبه ومقتضاه ، فلا يجوز أن يتأخر عنه شيء من موجبه ومعلوله ، ولهذا قالوا بقدم العالم .

وقد أشكل لديهم ما يشاهدون بحسهم من وجود الموجودات ، وحدوث المحدثات ، ومن هنا احتاجوا إلى من ينسبون إليه التأثير والإيجاد ، فنسبوه إلى النفوس والقوى الطبيعية ، التي تستند في تأثيرها على الفلك تارة ، وعلى العقل الفعال تارة أخرى ، وذلك ليجدوا تفسيراً وسبباً ينسبون إليه هذه الموجودات .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فلما كان أصل قولهم :أن صانع العالم لا يمكنه تغيير العـالم ، ولا له قدرة ولا اختيار في تصريفه من حال إلى حال ، جعلوا يريدون أن ينسبوا جميع الحوادث إلى أمور طبيعية ؛ ليطرد قولهم ، ويسلم عن التناقض ''[(١)] .

إذن أصـل المشـكلة هو ما قرروه في باب الإيمان بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، فعن الانحراف في هذا الباب نشأ القول بقدم العالم وتولده عن الله ، تعالى الله عن ذلك .

والقـول بالسببية الطبيعية ، هو مخرج لهم لكي يجدوا ما ينسبون الحوادث إليه ؛ لأنه يمتـنع بداهـة حـدوث الحوادث بدون فاعل ، فاستغنوا بالقوى الطبيعية والأنفس ، وما اخترعوه من نفوس الأفلاك والعقول العشرة والعقل الفعال ونحوها من الخرافات عن فعل الله تعالى وتأثيره .

وفيما يلي أهم الشبه التي يعتمدون عليها في هذا المقام :

أولاً : شبههم في نفي الصفات عن الله تعالى :

هناك شبهتان لهم اعتمدوا عليهما في نفي الصفات عن الله تعالى:

الأولى: شبهة التركيب ، وخلاصة هذه الشبهة أن الله تعالى عن قولهم لو كان متصفاً بالصـفات لكـان مركباً من أجزاء متعددة ، وكل جزء يختلف عن الآخر ، ويختلف عن المجموع وهنا احتمالات:

١- أن يصـح لكل جزء من أجزائه أو بعضها وجود مستقل ، لكن المجموع لا يصح وجـوده بدون الأجزاء ، ففي هذه الحالـة لا يكون المجموع واجب الوجود ؛ لافتقاره إلى جزئه .

---

(١) الصفدية لابن تيمية (٩/١) .

٢- أن لا يصح للأجزاء مفارقة الجملة ، ولا للجملة مفارقة الأجزاء ، ففي هذه الحالة لا يكون أي واحد منها واجب الوجود ؛ لافتقار كل منهما للآخر .

وأيضاً : إن الأجزاء إما أن تكون أقدم من الكل ، أو معها ، ولا يمكن أن يكون الكل أقـدم مـن الأجزاء ، ففي هذه الحالة تكون العلة الموجبة للوجود توجب أولاً الأجزاء ، ثم توجب الكل ، وعلى هذا لا يكون شيء منها واجب الوجود .

يقـول ابـن سينا في تقريرها : " إن واجب الوجود لا يجوز أن يكون لذاته مبادئ تجتمع فيقوم منها واجب الوجود ، لا أجزاء الكمية ، ولا أجزاء الحد والقول ، سواء كانت كالمـادة والصورة ، أو كانت على وجه آخر ، بأن تكون أجزاء القول الشارح لمعنى اسمه ، فـيدل كل واحد منها على شيء هو في الوجود غير الآخر بذاته ، وذلك لأن كل ما هذا صفته فذات كل جزء منه ليس هو ذات الآخر ، ولا ذات ا تمع .

فإما أن يصح لكل واحد من جزأيه مثلاً وجود منفرد ، لكنه لا يصح للمجتمع وجود بدو ا ، فلا يكون ا تمع واجب الوجود ، أو يصح ذلك لبعضها ، لكنه لا يصح للمجتمع وجـود دونـه ، فما لم يصح له من ا تمع والأجزاء الأخرى وجود منفرد ، فليس واجب الوجود ولم يكن واجب الوجود إلا الذي يصح له .

وإن كـان لا يصـح لـتلك الأجزاء مفارقة الجملة في الوجود ، ولا للجملة مفارقة الأجزاء ، وتعلق وجود كل بالآخر ، وليس واحد أقدم بالذات ، فليس شيء منها بواجب الوجود .

فقـد أوضـحت هذا على أن الأجزاء بالذات أقدم من الكل ، فتكون العلة الموجبة للوجود توجب أولاً الأجزاء ، ثم الكل ، ولا يكون شيء منهما واجب الوجود .

ولـيس يمكننا أن نقول إن الكل أقدم بالذات من الأجزاء ، فهو إما متأخر وإما معاً ، وكيف كان فليس بواجب الوجود .

فقد اتضح من هذا أن واجب الوجود ليس بجسم ، ولا مادة جسم ، ولا صورة جسم ولا مادة معقولة لصورة معقولة ، ولا صورة معقولة في مادة معقولة ، ولا له قسمة ، لا في الكم ، ولا في المبادئ ، ولا في القول ، فهو واحد من هذه الجهات الثلاث[(١)] ''[(٢)] .

الشـبهة الثانية : شبهة التغير ، وخلاصتها أن واجب الوجود يستحيل أن يتغير ، لأن الـتغير عـبارة عن حدوث صفة فيه لم تكن ، وكل حادث فيفتقر إلى سبب ويستحيل أن يكون غيره ، لافتقار ذلك الغير إلى سبب آخر فيلزم التسلسل ، ويستحيل أن يكون ذاته ؛ لأن كل صفة يلزم من الذات يكون مع الذات ، لا يتأخر عنه [(٣)].

وهذه الشبهة استفادوا منها في نفي الفعل والإرادة عن الله تعالى ، إضافة إلى نفي علم الله تعالى بالجزئيات .

يقـول ابن سينا: '' فإنه لا يجوز أن يكون تارة يعقل عقلاً زمانياً منها أ ا موجودة غـير معدومة ، وتارة يعقل عقلاً زمانياً أ ا معدومة غير موجودة ، فيكون لكل واحد من الأمرين صورة عقلية على حدة ، ولا واحدة من الصورتين تبقى مع الثانية ، فيكون واجب الوجود متغير الذات ''[(٤)] .

ثانياً : شبههم في قولهم بالفيض :

القـول بنظـرية الفـيض تفسيراً لوجود الموجودات الكثيرة جاء نتيجة لأصلين عند الفلاسفة :

---

(١) الجهات الثلاث: المبادي والأجزاء الكمية وأجزاء الحد والقول .

(٢) الـنجاة لابن سينا (ص ٢٦٤-٢٦٥) ، وانظر: مقاصد الفلاسفة للغزالي (٦٢/١-٦٤) ، و افت التهافت لابن رشد (ص ١٨٠ ، ١٩٠) .

(٣) انظر: مقاصد الفلاسفة للغزالي (ص ٦٤) ، و افت الفلاسفة للغزالي (ص ١٦٤-١٦٥) .

(٤) الشفاء لابن سينا - الإلهيات (٣٥٩/٢) .

١- نفي صفة الإرادة عن الله عز وجل .

٢- نظرية أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد .

فتشكل من هذين الأمرين القول بالفيض ، ونظرية العقول عند الفلاسفة .

أمـا مسـألة نفي الإرادة عن الله عز وجل فقد تقدمت شبهتهم في ذلك وهي شبهة التركيب والتغير .

أما نظرية أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، فالأول صدر عنه العقل الأول ، والعقل الأول صدر عنه الثاني وهكذا بقية العقول العشرة وقد تقدم تفصيل هذا القول عند حكاية مذاهب الفلاسفة .

فإن الشبهة التي يستندون إليها في تقرير هذه النظرية تقوم على أن الواحد لا يمكن أن تصـدر عـنه الكثرة ؛ لأن ذلك يوجب في نظرهم تكثر الذات وانقسامها ، وهو ينافي ما قرروه من وحدتها وبساطتها .

يقـول ابن سينا : " تنبيه : مفهوم أن علة ما بحيث يجب عنها (أ) غير مفهوم أن علة مـا بحيث يجب عنها (ب) وإذا كان الواحد يجب عنه شيئان فمن حيثيتين مختلفتي المفهوم ، مختلفتي الحقيقة "[(١)] .

---

(١) الإشارات والتنبيهات لابن سينا (١١٩/٣-١٢٠) .

ويشرح الطوسي(١) هذا فيقول: '' يريد بيان أن الواحد الحقيقي لا يوجب من حيث هـو واحـد إلا شيئاً واحداً بالعدد ، وكأن هذا الحكم قريب من الوضوح ، ولذلك وسم الفصل بالتنبيه .

وإنما كثرت مدافعة الناس إياه ؛ لإغفالهم معنى الوحدة الحقيقية ، وتقريره: أن يقال: مفهـوم كون الشيء بحيث يجب عنه (أ) غير مفهوم كونه بحيث يجب عنه (ب) أي عليته لأحدهما غير عليته للآخر .

وتغاير المفهومين يدل على تغاير حقيقتيهما .

إذن المفروض ليس شيئاً واحداً ، بل هما شيئان ، أو شيء موصوف بصفتين متغايرتين وقد فرضناه واحد . وهذا خلف ''(٢) .

وبذا تتم حكاية أهم شبه الفلاسفة التي استندوا عليها في تقرير مذهبهم ، وأنتقل الآن إلى الرد على تلك الشبه وما قرره شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الباب .

---

(١) محمـد بن محمد بن الحسن ، أبو عبدالله ، النصير الطوسي الفيلسوف ولد سنة ٥٩٧ هـ ، وزر لأصحاب قلاع الألمـوت من الإسماعيلية ، ثم وزر لهولاكو ، وكان معه في واقعة بغداد ، هلك سنة ٦٧٢ هـ . انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٧/١٣) ، فوات الوفيات للكتبي (٢٤٦/٣) ، معجم الفلاسفة لجورج طرابيشي (ص ٣٨٤) .

(٢) شرح الإشارات والتنبيهات للطوسي (٥٢٧/٣) .

المبحث الثالث

رد شيخ الإسلام على الفلاسفة

رد شيخ الإسلام على شبه الفلاسفة

قـد تقدم فيما سبق بيان شبه الفلاسفة في موضوع السببية ، وسوف أناقش في هذا الفصل نقض شيخ الإسلام رحمه الله لهذه الشبه ، وقبل ذلك يمكننا إيجاز الشبه في ثلاث :

١- شبهة التركيب .

٢- شبهة التغير .

٣- شبهة القول بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد .

أولاً : شبهة التركيب :

وملخصـها : أن الله تعـالى لو كان متصفاً بالصفات لكان مركباً ، ولو كان مركباً لكان مفتقراً إلى جزئه ، وجزؤه غيره ، وواجب الوجود لا يصح أن يكون مفتقراً إلى غيره .

وقـد ناقش شيخ الإسلام رحمه الله هذه الشبهة في مواضع عديدة من كتبه ، ونقضها في ثلاث مقامات :

المقـام الأول: إبطال ما يدعونه من التركيب من الذات والصفات ، وقد أبطله ذلك رحمه الله من وجوه منها :

الأول: أن في اللغة العربية لا يسمى اتصاف الذات بالصفات تركيباً ، بل التركيب في اللغـة يطلـق على ما كان مفترقاً فركبه غيره كما قـال تعالى: ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[1].

---

(١) سورة الانفطار آية رقم (٨) .

ويقال: ركبت الباب في موضعه ونحو ذلك ، وكما تركب المصنوعات من: الأطعمة والثياب والأبنية ونحوها من أجزائها المفترقة .

أما في الاصطلاح : فيطلق التركيب على أمرين عند بعض العلماء :

أحدهما : ما له أبعاض مختلفة يمكن تفريق بعضه عن بعض كأعضاء الإنسان ، فإنه وإن خلق مجتمعاً لكنه يقبل التفريق .

الآخر: ما يقبل التفريق والانفصال وإن كان بسيطاً كالماء .

والله تعالى يتنزه عن ذلك كله .

فما ذكروه من التركيب من الذات والصفات لا يصح لغة ، فمثلاً التفاحة التي لها لون وطعم وريح ، لا يعرف في اللغة تسميتها مركبة من لونها وطعمها وريحها ، ولا تسمية تلك الأمور أجزاء لها .

وكذلك الإنسان ، لا يصح أن يقال: إن الإنسان مركب من الطول والعرض والعمق ولا أنه مركب من حياته ونطقه ، وتسمية ذلك تركيباً هو اصطلاح خاص بالفلاسفة ، لكن لا يصح لهم من خلاله نفي ما ثبت بأنواع الأدلة النقلية والعقلية لأجل هذا الاصطلاح(1).

الوجه الثاني: أننا لا نسلم مطلقاً أن الذات المتصفة بالصفات يطلق عليها اسم التركيب ، فيقال: مركبة من الذات والصفات ، وإذا سمى أحد ذلك تركيباً فهو غالط في عقله ؛ لأن هذا مبني على اعتقاده أنها تشتمل على حقيقتين :

١- ذات قائمة بنفسها مجردة عن الصفات مستغنية عنها .

---

(١) انظر فيما سبق: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٨٠/١ ، ٤١٩/٣ ، ١٤٥/٥) ، الصفدية لابن تيمية (١٠٥/١) ، الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٢٢٣) .

٢- صفات زائدة على الذات قائمة بتلك الذات .

وهـذا غلـط ، فإنه لا يوجد في الحقيقة ذات مجردة عن الصفات خارج الذهن ، بل الذهن هو الذي يقدر وجود ذات مجردة عن الصفات ويفرضها فرضاً تجريدياً محضاً .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فأما الذات المتصفة بصفات لازمة لها التي لها حقيقة تمتاز بها عن سائر الحقائق وتباين غيرها من الموجودات من غير أن يجوز عليها تفريق وتبعيض وتجـزئة وتقسـيم ، فهـذه لـو قدر أنها مخلوقة لم تكن مما يسمى مركباً في اللغة المعروفة والاصطلاح .

وإذا سمى مسم هذه مركباً كان: إما غالطا في عقله ؛ لاعتقاده اشتمالها على حقيقتين وجودها ، وحقيقتها المغايرة لوجودها ، أو على حقيقتين ذات قائمة بنفسها معقولة مستغنية عن صفاتها ، وصفات زائدة عليها قائمة بها ، أو على جواهر منفردة أو معقولة أو نحو ذلك من الأمور التي يثبتها طائفة من الناس ويسمونها تركيباً .

وجمهـور العقلاء يخالفونهم في إثبات ذلك فضلا عن تسميته تركيباً ، ولو سلم لهم ثبوت ما يدعونه ، لم تكن تسـميته مركباً من اللغة المعروفة ، بل هو وضع اصطلحوا عليه فإن الجسم الذي له صفات كالتفاحة التي لها لون وطعم وريح ، لا يعرف في اللغة المعروفة إطـلاق كونها مركبة من لونها وطعمها وريحها ، ولا تسمية ذلك أجزاء لها ، ولا يعرف في اللغـة أن يقـال: إن الإنسان مركب من الطول والعرض والعمق ، بل ولا أنه مركب من حـياته ونطقه إلى أمثال ذلك من الأمور التي يسميها من يسميها من أهل الفلسفة والكلام تركيباً : إما غلطا في المعقولات ، وإما اصطلاحا انفردوا به عن أهل اللغات''[1].

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٤٦/٥-١٤٧) .

الوجه الثالث : أن جميع ما يدعيه الفلاسفة من التركيب في الأجسام الحسية المشهودة باطـل ، فكيف يصدقون فيما يدعونه من التركيب في الأمور الغائبة التي لا تعلم حقيقتها ؟ وكيف يصدقون في دعوى التركيب في الأمور العقلية[١].

وإيضاح ذلك أن الفلاسفة يدعون أن الأجسام الحسية كالموجودات المشاهدة مركبة مـن جوهرين : أحدهما الهيولى ، والآخر: الصورة ، فمثلاً الخاتم هيولاه الفضة ، وصورته الشكل الذي يكون عليه .

ودعوى التركيب هذه باطلة ، فلا توجد هيولى في الحقيقة مجردة عن جميع الصور إلا في الذهن ، أما في الخارج فلا توجد هيولى إلا مع صورة[٢] ، فكيف يدعى تركيب الأجسام منهما مع أنه لا انفكاك لأحدهما عن الآخر إلا في الذهن .

ثم دعواهم أن الصور جواهر ليس صحيحاً على إطلاقه ، فقد تكون الصورة جوهراً ، وقـد تكون عرضاً ، فمثلاً صورة الأشياء التي يصنعها الإنسان الدرهم والدينار والكرسي والخاتم ونحوها من المصنوعات فهذه الصورة ليست جوهراً ، بل هي عرض من الأعراض ، وصفة من الصفات ، فليست جوهراً قائماً بنفسه كما يزعمون .

وصور الحيوان والإنسان والنبات والمعدن ، فهذا وإن كانت مخلوقةً من مادة ، لكنها جواهر قائمة بنفسها مستحيلة عن المادة التي خلقت منها[٣] .

المقام الثاني: أن الفلاسفة ليس لديهم دليل صحيح على نفي التركيب ، فهم يعتمدون في ذلك على مسألة الافتقار ، فيقولون: لو كان مركبا لكان مفتقراً إلى جزئه ، وجزؤه غيره وواجب الوجود لا يكون مفتقراً إلى غيره .

---

(١) انظر: الصفدية لابن تيمية (١١٩/١) .

(٢) انظر: تفسير سورة الإخلاص - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٢٨/١٧) ، الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٦٦) .

(٣) انظر فيما سبق : بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٤١٣-٤١٤) .

وهذه الجواب عنها من وجهين :

الأول: الطعن فيما يدعونه من الافتقار المزعوم في هذه الشبهة ، فلا نسلم لكم أن الافتقار ينافي وجوب الوجود مطلقاً ، ذلك أن لفظ الافتقار يراد به أمور منها ما ينافي وجوب الوجود ، ومنها ما لا ينافيه .

فالذي ينافي وجوب الوجود هو افتقار المعلول إلى علته ، والمصنوع إلى صانعه ، وهذا بلا شك منفي عن الله تعالى ، فالله تعالى غني عن العالمين ، وغير مفتقر إلى أحد من خلقه ، بل الكل فقير إليه جل وعلا .

والذي لا ينافي هو الافتقار بمعنى التلازم ، كافتقار المشروط إلى شرطه ، والموصوف إلى الصفة ، فهذا تلازم من الجانبين ، وهو غير ممتنع على الله تعالى ، فالله تعالى يمتنع أن يكون مفتقراً إلى ما هو خارج عن نفسه ، فأما ما كان صفة له لازمة لذاته ، فهذا داخل في مسمى اسمه ، فقول القائل: إنه مفتقر إلى صفته هو كقولك: مفتقر إلى نفسه .

وتبقى مشكلة إطلاق لفظ الافتقار على هذا التلازم بين الصفة والموصوف ، فإن هذه التسمية فيها تلبيس ؛ لأنها تشعر أنه مفتقر إلى ما هو منفصل عنه ، وهذا باطل فلم يفتقر إلى شيء خارج عنه[1] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " يقال: ما تعنى بقولك: إنه يكون مفتقراً إلى كل واحد من تلك الأجزاء ؟ أتعنى أنه يكون مفعولاً للجزء ، أو معلولاً لعلة فاعلة ؟ أو تعنى أنه يكون وجوده مشروطاً بوجود الجزء ، بحيث لا يوجد أحدهما إلا مع الآخر ؟

فإن ادعيت الأول كان التلازم باطلاً ، فإن من المعلوم أن الأجسام التي خلقها الله تعالى ليس شيء من أجزائها فاعلاً لها ، ولا علة فاعلة لها ، فإذا لم يكن شيء من المركبات

(١) انظر فيما سبق : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٨١/١-٢٨٢) .

المخلـوقة جـزؤه فاعلا له ، ولا علة فاعلة له ، كان دعوى أن ذلك قضية كلية من أفسد الكلام ، فإنه لا يعلم ثبو ا في شيء من الجزئيات المشهودة ، فضلا عن أن تكون كلية .

وإن قيل: نعنى بالافتقار أنه لا يوجد هذا إلا مع هذا .

قـيل: ولم قلـتم: إن مثل هذا ممتنع على الواجب بنفسه ؟ فإن الممتنع عليه أن يكون فـاعلا أو علـة فاعلة إذا قيل: بإمكان علة فاعلة لا تفعل بالاختيار ، فأما كونه لا يكون وجوده مستلزماً للوازم لا يكون موجودا إلا با فالواجب بنفسه لا ينافي ذلك ، سواء سميت صفات أو أجزاء أو ما سميت ''(١) .

الثاني: أن دعوى الافتقار لا تسلم في أجزاء المركبات الحقيقية ، فلا يصح أن يقال: إن المركب مفتقر إلى جزئه ؛ لأن كون الشيء لا يوجد إلا مع الشيء ليس معناه أنه يفتقر إليه بـل هذا نوع من التلازم بينهما ، وإنما تصح علاقة الافتقار إذا كان أحدهما يوجد الآخر ، فلا يوجد الآخر إلا به ، أما وجوده معه فليس في هذا افتقار أحدهما إلى الآخر .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' يقال: قولك: "إن المركب مفتقر إلى كل واحد من تلـك الأجـزاء ضرورة استحالة وجود المركب دون أجزائه " ليس فيه ما يدل على افتقار المركب إلى أجزائه ، فإن كونه يستحيل وجوده دون الأجزاء يقتضي أنه لا يوجد بدو ا ، بل لا يوجد إلا وهي موجودة ، وكون الشيء لا يوجد إلا مع الشيء لا يقتضي افتقاره إليه بـل إنما يكون مفتقراً إليه إذا كان لا يوجد إلا به ، ألا ترى أن المتضايفين لا يوجد أحدهما دون الآخـر ولا يقال: إن أحدهما مفتقر إلى الآخر كالبنوة والأبوة ، بل كلاهما معلول علة منفصـلة ، فمعلولا العِلة لا يوجد أحدهما دون الآخر ، وهما جميعا مفتقران إلى العِلة ليس

---

(١) درء تعـارض العقل والنقل لابن تيمية (٤/٢٢٠-٢٢١) ، وانظر : نفس المصدر (١٢٦/٨ ، ١٨/١٠) ، وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٥٠٨/١) .

أحـدهما مفتقراً إلى الأخر ، فإذا قدر أنه لا علة لهما لم يكن أحدهما مفتقرا إلى الآخر ، ولا إلى علة ''[١] .

المقام الثالث: أن الدليل يقتضي إثبات المعاني التي يسميها الفلاسفة تركيباً ، فلا يصح لهم نفيها لقيام الدليل عليها ، فكل ذات لابد أن تتصف بالصفات ، ولا يتصور وجود ذات بغـير صـفات ، وإثبات تلك المعاني التي توصف بها الذات أمر لابد منه لكل عاقل ، ولا خروج لأحد عن ذلك إلا بجحد جميع الموجودات مطلقاً .

والفلاسفة مع غلوهم في النفي يثبتون موجوداً واجب الوجود ، عاقل ومعقول وعقل لذة ولذيذ وملتذ ، عاشق ومعشوق وعشق ، له عناية ، ويقولون: إن ذلك كله شيء واحد ويفسرون عنايته بعلمه أو عقله ، ثم يقولون: وعلمه أو عقله هو ذاته .

ومعلـوم أن أقوالهم تلك تتضمن إثبات معان فدعوى التركيب لازمة لهم ، ومحاولتهم تفادي ذلك بدعوى أن تلك المعاني نفس الذات باطل ومتناقض من وجهين :

الأول: أن جعـل عين العلم عين القدرة ، ونفس القدرة هي نفس الإرادة والعناية ، ونفس الحياة هي نفس العلم والقدرة ، ونفس العلم نفس الفعل والإبداع ونحو ذلك معلوم الفسـاد بالضرورة ، فإن هذه حقائق متنوعة ، فإن جعلت هذه الحقيقة هي تلك كان بمنزلة مـن يقول: إن حقيقة السواد هي حقيقة الطعم ، وحقيقة الطعم هي حقيقة اللون ، وأمثال ذلك مما يجعل الحقائق المتنوعة حقيقة واحدة .

الثاني: أنه من المعلوم أن القائم بنفسه ليس هو القائم بغيره ، والجسم ليس هو العرض والموصـوف ليس هو الصفة ، والذات ليست هي النعوت ، فمن قال: إن العالم هو العلم ، والعلم هو العالم فضلاله بين .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤/٢٢٧-٢٢٨) .

وكذلك معلوم أن العلم ليس هو المعلوم ، فمن قال: إن العلم هو المعلوم ، والمعلوم هو العلم فضلاله بين أيضاً.

والتفـريق بين الصفة والموصوف مستقر في فطر العقول ، ولغات الأمم ، فمن جعل أحدهما هو الآخر فقد أتى من السفسطة بما لا يخفى على من يتصور ما يقول[١] .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وأما المقام الثالث فيقال: إثبات معان متعددة في الموجود الواجب وغيره أمر ضروري لا بد منه ، وأنتم مع فرط مبالغتكم في السلب تقولون أنـه: موجـود واجب ، وأنه معقول وعاقل وعقل ، ولذيذ وملتذ به ، وعاشق ومعشوق وعشق إلى أنواع أخر .

وأما أهل الملل فمتفقون على أنه حي عليم قدير ، ومن المعلوم أن من جعل كونه حياً هو كونه عالماً ، وكونه عالماً هو كونه قادراً فهو من أعظم الناس جهلاً وكذباً وسفسطة .

وكـذلك من جعل الحياة هي الحي ، والعلم هو العالم ، والقدرة هي القادر ، فيبين العقـل الصريح أن كل صفة ليست هي الأخرى ، ولا هي نفس الموصوف ، وكذلك من جعل العشق هو العاشق ، واللذيذ هو اللذة ، ونفس العقل الذي هو مصدر عقل يعقل عقلا هـو العقـل الـذي هو العاقل القائم بنفسه ، فمن جعل هذا هذا كان في المكابرة والجهل والسفسطة من جنس الأول .

فمـن جعـل المعـاني هي الذات القائمة بنفسـها ، أو كـل معنى هو المعنى الآخر كـان من أعظم الناس جهلاً وكذباً وسفسطة ''[٢] .

وبذا ينتهي رد شيخ الإسلام رحمه الله على شبهة التركيب التي يعتمد عليها الفلاسفة وأتباعهم في نفي الصفات .

---

(١) انظر فيما سبق : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٨٥/١-٢٨٦) .
(٢) الصفدية لابن تيمية (١٢٧/١) .

ثانياً : شبهة التغير :

وملخصها : أن الله تعالى لو قامت به الصفات لكـان متغيراً ، والتغير على الله محال ؛ لأنه عبارة عن حدوث صفة فيه لم تكن ، وكل حادث فيفتقر إلى سبب ، ويلزم التسلسل .

وقد ناقشها شيخ الإسلام رحمه الله من وجوه :

الأول: لا نسـلم أن الـتغير حدوث صفة في الله تعالى لم تكن ؛ لأن التغير في اللغة بخـلاف ذلـك ، فهو الاستحالة والفساد ، كاستحالة الصحيح إلى المريض ، والعادل إلى الظالم ، وانقلاب صفات الكمال إلى صفات النقص ، والله تعالى م ه عن هذا التغير .

الـثاني : قـد يـراد بالتغير أنه سبحانه يتصف بالصفات فيتصرف بقدرته ، ويخلق ويسـتوي ، ويفعل ما يشاء ، ويتكلم إذا شاء ، فهذا لا يسمى تغيراً في اللغة ، ولو قدر أنه قد يسمى بذلك فهو اصطلاح خاص ، ولا يصح أن يجعل الاصطلاح الخاص دليلاً على نفي ما علم ثبوته بالدليل الشرعي .

وهذا في الحقيقة منهج أهل الباطل في ترويج باطلهم ، فإ م يأتون إلى المعاني الشرعية ويطلقـون علـيها اصـطلاحات وألفاظ مجملة محتملة للحق والباطل لكي يتسنى لهم نفيها وتعطيلها .

لكن في حقيقة الأمر الألفاظ ا ملة والاصطلاحات الخاصة لا تؤثر في حقائق الأشياء فلـو اصـطلح قـوم على تسمية الخمر ماء ، فلا يكون اصطلاحهم سبباً في حل شربا ، والعكـس لو سمينا الماء خمراً ، فلا يكون هذا الاصطلاح مانعاً من شربه ، فحقائق الأشياء تبقى ثابتة ، والحكم الشرعي ملازم لها ولو سميت بأي اسم .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' لفظ التغير في كلام الناس المعروف هو يتضمن اسـتحالة الشيء ، كالإنسان إذا مرض يقال: غيره المرض ، ويقال في الشمس إذا اصفرت: تغـيرت ، والأطعمة إذا استحالت يقال لها: تغيرت ، قال تعالى: ﴿ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ

ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ [1] ، فـتغير الطعـم استحالته من الحلاوة إلى الحموضة ونحو ذلك .

ومـنه قول الفقهاء: إذا وقعت النجاسة في الماء الكثير لم ينجس إلا أن يتغير طعمه أو لونه أو ريحه ، وقولهم: إذا نجس الماء بالتغير زال بزوال التغير ، ولا يقولون إن الماء إذا جرى مـع بقاء صفائه أنه تغير ، ولا يقال عند الإطلاق للفاكهة والطعام إذا حول من مكان إلى مكان: أنه تغير ، ولا يقال للإنسان إذا مشى أو قام أو قعد: قد تغير ، اللهم إلا مع قرينة ، ولا يقولـون للشمس والكواكب إذا كانت ذاهبة من المشرق إلى المغرب: إنها متغيرة ، بل يقولون إذا اصفر لون الشمس: إنها تغيرت ، ويقال: وقت العصر ما لم يتغير لون الشمس ، ويقولـون: تغير الهواء إذا برد بعد السخونة ، ولا يكادون يسمون مجرد هبوبه تغيراً ، وإن سمى بذلك فهم يفرقون بين هذا وهذا ، ويقال: قد أمر أهل الذمة بلباس الغيار أي: اللباس الذي يخالف لونه لون لباس المسلمين ....

وتغـيير المنكر تبديل صفته حتى يزول المنكر بحسب الإمكان ، وإن لم يكن إلا بتغير الإنسـان في نفسه غضبا لله ، ولهذا لم يطلق على الصفة الملازمة للموصوف أنها مغايرة له ؛ لأنه لا يمكن أن يستحيل عنها ، ولا يزايل .

والغير والتغير من مادة واحدة ، فإذا تغير الشيء صار الثاني غير ما كان ، فما لم يزل على صفة واحدة لم يتغير ، ولا تكون صفاته مغايرة له .

والـناس إذا قيل لهم: التغير على الله ممتنع ، فهموا من ذلك الاستحالة والفساد ، مثل انقلاب صفات الكمال إلى صفات نقص ، أو تفرق الذات ونحو ذلك مما يجب تنـزيه الله عنه .

(١) سورة محمد آية رقم (١٥) .

وأما كونه سبحانه يتصرف بقدرته فيخلق ويستوى ويفعل ما يشاء بنفسه ويتكلم إذا شاء ونحو هذا ، فهذا لا يسمونه تغيراً .

ولكـن حجج النفاة مبناها على ألفاظ مجملة موهمة كما قال الإمام أحمد: يتكلمون بالمتشـابه من الكلام ، ويلبسون على جهال الناس بما يشبهون عليهم ، حتى يتوهم الجاهل أ م يعظمون الله ، وهم إنما يقودون قولهم إلى فرية على الله ''[١] .

الـثالث : أن مـن ينفون عن الله تعالى الصفات الاختيارية هم الذين يلزمهم القول بالتغير ، وأن الله حدثت فيه صفة لم تكن ، أما من أثبت اتصاف الله تعالى بصفات الكمال الذاتية والاختيارية أزلاً وأبداً فإنه لا يلزمه القول بالتغير .

وإيضـاح هذا أن الله تعالى موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال ، وكماله من لـوازم ذاتـ ـه ، فيمتنع أن يزول عنه شيء من صفات كماله ، ويمتنع أن يصير ناقصاً بعد كماله .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وهذا الأصل عليه قول السلف وأهل السنة : أنه لم يزل متكلما إذا شاء ، ولم يزل قادراً ، ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال ، ولا يزال كذلك فـلا يكـون متغيرا ، وهذا معنى قول من يقول: يا من يغير ولا يتغير ، فإنه يحيل صفات المخلوقات ؛ ويسلبها ما كانت متصفة به إذا شاء ، ويعطيها من صفة الكمال ما لم يكن لها وكمالـه من لوازم ذاته ، لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ

(١) درء تعـارض العقـل والنقل لابن تيمية (٧٢/٤-٧٥) ، وللاستزادة انظر: نفس المصدر (١١٢/١ ، ٢٠١/٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤٩/٦ ، ٢٨٤) .

هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[(١)]، وقـال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [(٢)].

ولكن هؤلاء النفاة هم الذين يلزمهم أن يكون قد تغير ، فإ م يقولون: كان في الأزل لا يمكنه أن يقول شيئا ولا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكان ذلك ممتنعاً عليه لا يتمكن منه ، ثم صار الفعل ممكناً يمكنه أن يفعل ''[(٣)] .

وفي هـذا النص نلاحظ أن شيخ الإسلام رحمه الله قلب الحجة عليهم من دليل على نفي الصفات إلى دليل على إثبا ا .

فقد قرر أن من نفى الصفات الاختيارية هو الذي يلزمه القول بالتغير الباطل ؛ لأن الله تعـالى موصوف بالكمال المطلق ، فمن زعم أن الفعل كان ممتنعاً عليه في الأزل ، ثم أصبح بعد ذلك جائزاً ، فإنه يلزمه القول بحصول تغير في ذات الله تعالى جعلها تتحول من الامتناع إلى الجواز .

لكـن من أثبت صفات الكمال لله ، وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، ولم يزل قادراً إذا شاء فهذا لا يلزمه القول بالتغير الباطل ؛ لأنه لم يدع حدوث صفة لم تكن فيه .

وبذا تمت مناقشة شبهة التغير وأنتقل بعد هذا إلى الشبهة الثالثة .

---

(١) سورة القصص آية رقم (٨٨) .
(٢) سورة الرحمن آية رقم (٢٦-٢٧) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦/٢٥٠-٢٥١) .

ثالثاً : شبهة القول بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد :

وملخصها : أنه لو صدر عن الواحد اثنان لكان جهة صدور (ألف) غير جهة صدور (بـاء) وهذا ينافي وحدة الذات وبساطتها ويقتضي تكثرها وتركيبها ، والتالي باطل فتعين بطلان المقدم .

وقـد نقض شيخ الإسلام رحمه الله هذه الشبهة في العديد من مؤلفاته[1] ومن وجوه كثيرة منها :

أولاً : أن قـولهم: إن الـواحد لا يصدر عنه إلا واحد هو قضية كلية ، إما أن يكون مصـدرها استقراء الآحاد ، فنظر الناظر في جميع الأفراد فوجد أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحـد ، أو بقياس بعض الجزئيات على بعض ، فخرج بنتيجة مؤداها أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد .

وفي الحقـيقة أن هـذا استقراء ناقص ، والقياس تمثيلي ، وكلاهما لا يفيد اليقين عند الفلاسفة ، فكيف يعتمدون عليهما في إثبات هذه القضية .

وادعـاء البداهة في هذه القضية غير مقبول ، ومكابرة للعقول ؛ لأن البداهة تكون في الأمور الفطرية ، ومن المعلوم أن هذه القضية ليست فطرية .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' إذا قال الفيلسوف: "إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحـد ، وهـو واحد فلا يصدر عنه إلا واحد" فإنه يحتاج أن يعلم أولاً قوله: الواحد لا

---

(١) للاستزادة في نقض الشيخ لهذه الشبهة انظر: درء التعارض لابن تيمية (١٢٧/٧ ، ٣٦٩ ، ٢٤٧/٨ ، ٢٦٥ ، ٩/ ٣٣٩) ، الصـفدية لابن تيمية (٢٧٩/١) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٤٠٠/١) ، الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٢١٤ ، ٣٧٠) ، التدمـرية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١٣/٣) ، أقوم ما قيل في القضاء والقدر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣٣/٨) ، الكيلانية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٤٤/١٢) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣٠/٤) .

يصدر عنه إلا واحد . فـإن هذه قضية كلية ، وكل قياس شمولي فلا بد فيه من قضية كلية وعلا ـه بأن كل واحد لا يصدر عنه إلا واحد إما أن يكون باستقراء الآحاد ، وإما بقياس بعضها إلى بعض ، وهذا اسـتقراء ناقص ، وهذا تمثيل ، وهما عنده لا يفيدان اليقين .

فإن قـال: أعلم بالبديهة أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد كان هذا مكابرة لعقله ، فإن العلوم الكلية المطابقة للأمور الخارجية ليست مغروزة في الفطرة ابتداء بدون العلم بأمور معيـنة مـنها ، لكن لكثرة العلم بالأمور المعينة الجزئية يجرد العقل الكليات ، فتبقى القضية العامـة ثابتة في العقل لا تحتاج إلى شواهد وأمثلة جزئية[1]، إلا أن يكون علم تلك القضية العقلية من تركيب قضايا أخر ، وقوله: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ليس من هذا ولا من هذا[2] ،،[3] .

ثانـياً : أنه عند تصور مفردات هذه القضية نجد أن الواقع بخلافها ، فإن الواحد الذي يـتكلمون عـنه في هذه القضية ليس له وجود بذا الاعتبار ، فهم يقررون أنه لا يعلم منه أمران ، فهو عندهم عاقل ومعقول وعقل ، وعاشق ومعشوق وعشق ، وكلها نفس الذات وعلمـه هـي إرادته ، وإرادته هي حياته ، وذلك كله هو وجوده ، وهذا عين السفسطة والعقل الصريح يعلم بطلان هذا الكلام .

وقد أدى بم هذا الأمر إلى جعل وجـود الله تعالى وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق[4] ، والوجود المطلق بشرط الإطلاق إنما يوجد في الذهن فقط ، ولا وجود له في الخارج .

---

(١) لتوضـيح مقصد الشيخ أقول: مثلا الحيوان هذا لفظ كلي لا يعلم بالفطرة ابتداء ، بل عندما وجد الأسد والجمل والفرس وغيرهم من الحيوانات المعينة ، أخذ المعنى الذي تشترك فيه هذه الكائنات وهو الحيوانية وجرد ، وجعل صفة عامة هي الحيوانية ، وهو لا يحتاج إلى دليل لوجود شواهده وجزئياته في الخارج .

(٢) أي ليس من القضايا التي لها شواهد وأمثلة جزئية ، ولا من القضايا المركبة من قضايا أخرى .

(٣) شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ٥٠) .

(٤) المطلق ضد المعين ، وهو ما دل على الماهية بلا قيد ، كالحيوان والإنسان ونحوهما ، ولا وجود للمطلق في خارج الذهن بل لا يوجد إلا معيناً ، فليس في خارج الذهن إنسان مطلق بل يوجد إنسان معين ، فلان وفلان .

=

وهذه القضية أوقعتهم في التناقض من جهة أخرى ، فهم يثبتون واجب الوجود عندما يقسـمون الوجود إلى قسمين: واجب وممكن ، وكل ممكن لا بد له من واجب ، وفي باب الصفات يصفونه بما يجعله عدما محضاً غير قابل للوجود ، فيجمعون بين النقيضين ، وتصير أقوالهم مستلزمة لوجوده وعدمه في آن واحد[1] .

ثالثاً : يقال لمن قال: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد : ما معنى الصدور ؟

أنـت لا تقصد به حدوثه عنه ، ولا فعله له بمشيئته وقدرته ، إنما تعني به لزومه له ، ووجوبه به ، وفي الواقع لا يتصور شيء من الموجودات صدر عنه لوحده شيء منفصل عنه غير ما تدعيه في محل النزاع .

ولـو أخذنا النار على سبيل المثال ، وهم قد ضربوا بها المثل على أن الواحد لا يصدر عـنه إلا واحد ، فالنار يصدر عنها الإحراق ، لكن هذا المثل لا يصح لهم ، ولا يدخل في قضـيتهم ؛ لأن الإحراق لم يصدر عن النار وحدها ، بل لا بد من المحل القابل للإحراق ، ولهذا بعض الأجسام كالياقوت ونحوه لا تحترق ، لأنها غير قابلة للاحتراق ، ثم إن الإحراق لـه موانع تمنعه ، فهو موقوف على ثبوت الشروط وانتفاء الموانع ، وبهذا لم يصر الإحراق صادراً عن النار بالمعنى الذي أرادوه وهو لزومه لذات النار وعدم انفكاكه عنها .

=والمطلـق بشرط الإطلاق هو المطلق بشرط كونها مطلقاً غير معين ، بمعنى أنه مطلق اشترط فيه لزوم الإطلاق وعدم التعـيين ، فهو بهذا أشد امتناعاً في الوجود من المطلق لا بشرط ، ويشترك مع المطلق بلا شرط في عدم الوجود خارج الذهن ،لكن المطلق بلا شرط يمكن وجوده معيناً ، بينما المطلق بشرط لا يمكن وجوده أصلاً . انظر فيما سبق: بغية المـرتاد لابن تيمية (ص ٤١٠) ،شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ٥١-٥٢) ، الحدود الأنيقة للأنصاري (ص ٧٨) ، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص ٦٦٣) .

(١) انظر فيما سبق : شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ٥٠-٥٢) .

وكـذلك ضربوا المثل بالشمس في شعاعها ، وهذا أيضاً لا يصح لهم ؛ لأنه إن كان مـرادهم ضـوء الشـمس القائم بـا فهذا صفتها وليس شيئاً منفصلاً عنها كما يدعون في قضيتهم .

وإن كـان مرادهم الشعاع الصادر من الشمس المنعكس على الأجسام ، فهذا ليس لازمـاً لـذات الشمس ، بل هو موقوف على وجود المحل القابل لانعكاس الضوء عليه ، ومتوقف أيضاً على زوال موانعه من السحب والغيوم الكثيفة [١].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فقولك في هذه القضية الكلية: للواحد لا يصدر عنه إلا واحـ ـد ، يقتضي الحكم على كل ما يتصور أنه واحد بأنه لا يصدر عنه إلا واحد ، فـإذا لم يتصـور هذا الصدور ، ولا يعلم صدق هذا السلب في صورة معينة من صور هذه القضية الكلية ، فمن أين تعلم هذه القضية الكلية ''[٢] .

رابعاً : أن هذا القياس وهذه القضية الكلية لا تفيدهم أصلاً ، لأنه ليس لها مقصود ولا مـراد إلا محل الـ اع ، فإن علموا ثبو ا في محل الـ اع بدون تلك القضية لم يحتاجوا إليها ، وإن لم يعلموا ثبو ا في ذلك المعين ، لم يعلموا صدق هذه القضية ، فلم تفدهم هذه القضية في كلا الحالين .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فهذا القياس لا يفيدهم شيئاً ؛ إذ مطلوبه علم معين بقضـية كلية ، وتلك القضية لا مرد لها أصلا إلا ما يدعونه في ذلك المعين ، فهم إن علموا ثـبوت الحكم لذلك المعين بدون تلك القضية لم يحتاجوا إليها ، وإن لم يعلموا ثبوت الحكم للمعين بدون تلك لم يعلم صدق القضية عليه ، فلا يفيد ''[٣] .

---

(١) انظر فيما سبق: شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ٥٢-٥٣) .
(٢) المصدر السابق (ص ٥٣) .
(٣) المصدر السابق (ص ٥٤) .

خامسـاً : أنه يمكن معارضة قياسهم وقضيتهم الكلية بنقيضها ، وهو أبين وأصح في القـياس من قضيتهم ، فلو قيل: ليس كل واحد لا يصدر عنه إلا واحد ، بمعنى أنه ليس في الوجود واحد يصدر عنه واحد ، لكان أصح في العقل والقياس من قولهم ؛ لأن كل صادر فهـو عـن اثـنين فصاعداً ، فلا حادث من المخلوقات إلا من أصلين كالولد بين أبوين ، والإحراق من النار والمحل والقابل وهكذا .

وكـذا لو قيل : الواحد الذي ذكروه لا يصدر عنه شيء أصلاً ، لكان أيضاً أصح في العقل والقياس من قولهم .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' إذا عورضوا بنقيض ما قالوه كـان أبين في القياس فيقال لهم: ليس في الوجود واحد يصدر عنه واحد ، بل كل صادر في الوجود فهو عن اثنين فصاعدا ، فلا حادث عن المخلوقات إلا عن أصلين ، كالولد بين أبوين والتسخين والتدبير والإحراق والإغراق وغير ذلك لا بد فيه من اثنين ، والشعاع المنبسط لا بد فيه من اثنين ، فـإذا لم يكـن في الوجود واحد لا يصدر عنه واحد كان قول القائل: ليس كل واحد لا يصدر عنه إلا واحد أصح في العقل والقياس من قولهم .

بـل لـو قال: الواحد الذي ذكروه لا يصدر عنه شيء أصلا ، لكان قوله أصح في العقل والقياس من قولهم .

وكـذلك إذا قيل: الواحد الذي ذكروه لا يصدر عنه شيء إلا مع غيره ، لكان قوله أصح من قولهم ، وذلك يقتضي أن يكون للرب شريك وولد ؛ إذ مقصودهم بالصدور هو لـزومه إيـاه ، وهذا هو التوليد العقلي ، وحقيقة قولهم: إن العقول والنفوس متولدة عنه ، وقولهم بالعِلة والمعلول هو القول بالتولد والمتولد عنه ''[(١)] .

(١) شرح الأصفهانية لابن تيمية (ص ٥٤) .

سادساً : أنهم يقولون : إن الواحد صدر عنه واحد ، وعن ذلك الواحد صدر عقل ونفس وفلك ، فيقال لهم : إن كان الصادر عنه واحداً من كل وجه ، فلا يصدر عن هذا الواحد إلا واحد أيضاً ، فيلزم أن يكون كل ما في العالم إنما هو واحد عن واحد ، وهذه مكابرة ، وإن كان في الصادر الأول كثرة ما بوجه من الوجوه فقد صدر عن الأول ما فيه كثرة ، ليس واحداً من كل وجه ، فقد صدر عن الواحد ما ليس بواحد(١) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' الواحد البسيط الذي فرضوه إذا قدر وجوده في الخارج امتنع صدور المختلفات عنه بوسط أو غير وسط ، سواء قيل: أن الصادر الأول عنه واحد له ثلاث جهات ، أو قيل غير ذلك ، فإن كل ما يقدرونه يستلزم صدور الأنواع المختلفة عن الواحد البسيط ، وإن شئت قلت: صدور الكثرة عن الوحدة ، فالجمع بين صدور الكثرة عنه ، وكونه واحدا بسيطا لا يصدر عنه إلا واحد جمع بين المتناقضين .

وإذا قيل: أن الكثرة حصلت في الصادر الأول كان القول فيها كالقول في الكثرة الصادرة عن المعلول الأول ، إن كانت أموراً وجودية لزم أن يصدر عن الواحد البسيط - الذي لا يصدر عنه إلا واحد - أكثر من واحد ، وإن كانت عدمية لزم أن يصدر عن الواحد البسيط الموصوف بالسلوب أمور موجودة مختلفة .

فقولهم: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد مع صدور هذه المختلفات عن المبدع يقتضي انتفاء ما ذكروه من الوحدة ، أو انتفاء كون المختلفات صدرت عنه بوسط أو بغير وسط ، ولو لم يكن إلا الفلك الثامن ذو الكواكب الكثيرة ، فإنه ليس فوقه من العلل المختلفة ما يوجب كثرة الكواكب التي فيه عندهم ، وكذلك العقل العاشر في كثرة ما تحته من الأركان وغيرها ''(٢) .

(١) انظر: تفسير سورة الإخلاص - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٨/١٧) .
(٢) الصفدية لابن تيمية (٢٧٩/١-٢٨٠) .

سـابعاً :قولهم: لو صدر عنه اثنان لكان مصدر هذا غير مصدر هذا ويلزم عنه تكثر الذات وتركيبها .

الجواب عنه من وجهين :

الأول: يقال: هذا مبني على شبهة التركيب وقد سبق الكلام عليها [١].

الـثاني: يقال: أن هذه الحجة تتناقض مع مذهب الفلاسفة ، فهم لا يصفون الله تعالى إلا بالسلب المحض فيقولون: ليس بفلك ولا كوكب ولا شمس ولا كذا ولا كذا ، أو بما لا يتضمن إلا السلب كالإضافة التي هي في معنى السلب .

وإذا كان ذلك كذلك فقولهم : لو صدر عنه اثنان ، لكان مصدر (ألف) غير مصدر (باء) لا يصح على مذهبهم ، لأن الفعل والصدور أمر إضافي عندهم ، والإضافة هي بمعنى السـلب المحض ، فلا يترتب عليها أمر ثبوتي ، فلا يلزم من ذلك تعدد جهات الصدور ، أو تغاير الحقيقة ؛ لأ ا لا توجب وصفاً ثبوتياً[٢] .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : '' الإضافات إليه مثل: كونه علة ومبدعاً وخالقاً وفاعلاً ونحو ذلك ، إما أن يوجب كون الفعل أمراً ثبوتياً يقوم به ، وإما أن لا يوجب ذلك فإن كان الفعل أمراً ثبوتياً قام به بطل نفيكم للصفات ، ولزم أنه موصوف بالأمور الثبوتية الـتي منها ربون ، وإن لم يكن ثبوتياً كان عدمياً ، فلم يكن في كثرة المفعولات إلا كثرة الأفعـال التي هي عدمية ، وكثرة العدميات لا توجب اتصافه بأمر ثبوتي ، وإذا كان كونه فاعلا عندكم ليس وصفا ثبوتياً ، فكونه قابلاً كذلك بطريق الأولى ، وحينئذ فلا يمتنع كون الشيء فاعلاً وقابلاً[٣] .

(١) انظر : الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٣٧٠) ، وانظر : (ص٦٤٣) وما بعدها في نقض شبهة التركيب .

(٢) انظر: المصدر السابق (ص ٢١٥-٢١٦) .

(٣) هم يمنعون كونه فاعلاً وقابلاً لئلا يكون فيه جهتان ، فذلك ينافي الوحدة عندهم .

ومعلـوم أن هذا التناقض لزمهم لكو م جعلوا الأمور الوجودية عدماً ، كما جعلوا نفس الفعل والتأثير ليس إلا إضافة عدمية ، ثم ادعوا ذلك في أكمل الفاعلين فعلاً ، وأحقهم بالوجود التام من سائر الموجودات ''[1].

وبـهذا ينتهي الكلام على رد شيخ الإسلام رحمه الله على شبه الفلاسفة وإبطاله له ، وأنتقل بعد هذا إلى الكلام عن الصوفية ومذهبهم في السببية .

(١) الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٢١٦) .

الفصل الثاني

السببية عند الصوفية

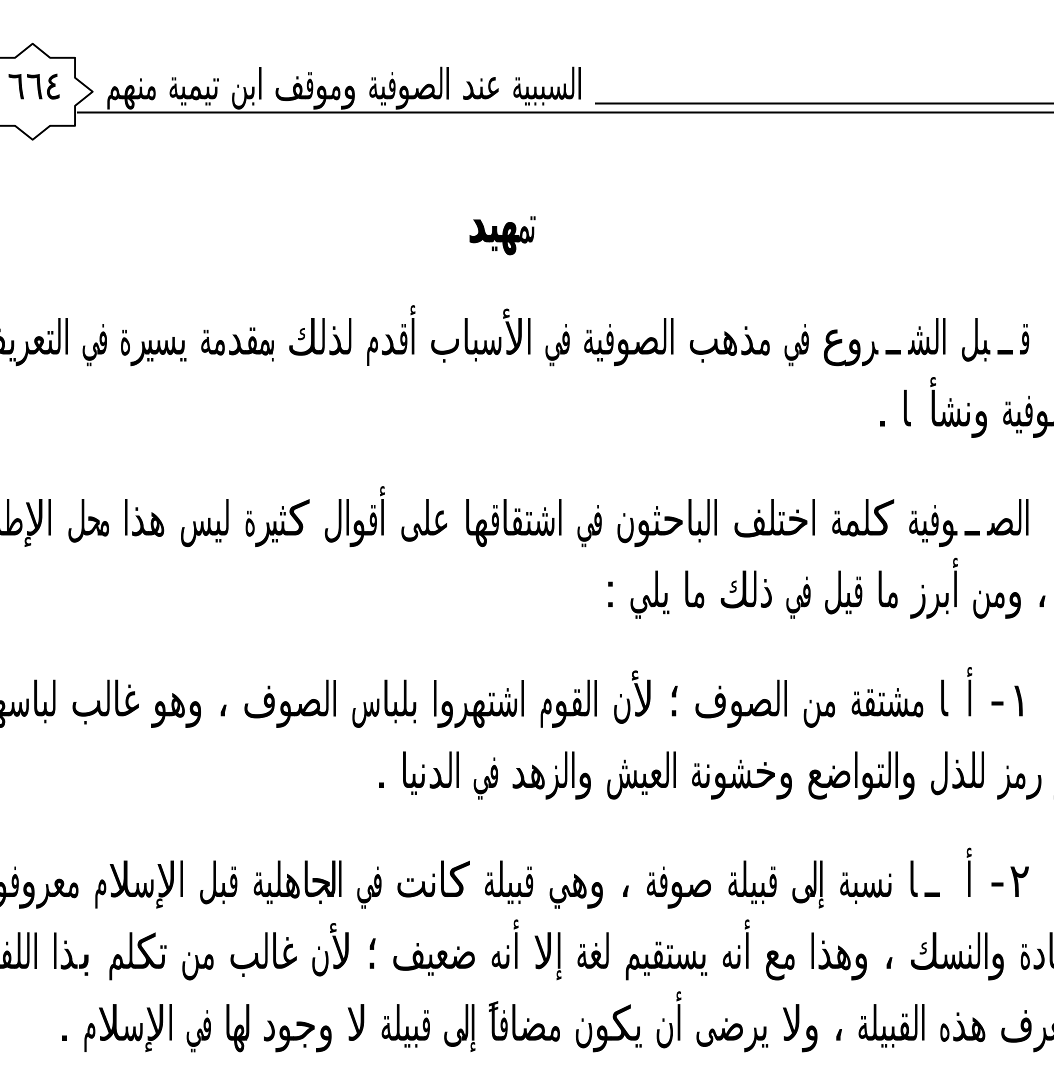
وموقف ابن تيمية منهم

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهبهم .

المبحث الثاني : بيان شبهتهم .

المبحث الثالث : رد شيخ الإسلام عليهم .



تمهيد

قـبل الشـروع في مذهب الصوفية في الأسباب أقدم لذلك بمقدمة يسيرة في التعريف بالصوفية ونشأ ا .

الصـوفية كلمة اختلف الباحثون في اشتقاقها على أقوال كثيرة ليس هذا محل الإطالة فيها ، ومن أبرز ما قيل في ذلك ما يلي :

١- أ ا مشتقة من الصوف ؛ لأن القوم اشتهروا بلباس الصوف ، وهو غالب لباسهم وهو رمز للذل والتواضع وخشونة العيش والزهد في الدنيا .

٢- أ ـا نسبة إلى قبيلة صوفة ، وهي قبيلة كانت في الجاهلية قبل الإسلام معروفون بالعبادة والنسك ، وهذا مع أنه يستقيم لغة إلا أنه ضعيف ؛ لأن غالب من تكلم بذا اللفظ لا يعرف هذه القبيلة ، ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة لا وجود لها في الإسلام .

٣- أ ـا نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا في مسجد رسول الله ﷺ ، وهذا القول لا يستقيم من جهة اللغة ، فالنسبة إلى الصفة صفّي ، وليس صوفي .

٤- أ ا نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى ، وهذا القول لا يستقيم لغة أيضاً ، لأنه في النسبة إلى الصف يقال: صفّي ، وليس صوفي .

٥- أ ـا نسـبة إلى الصفاء ، لصفاء أرواحهم ، وهذا القول أيضاً لا يستقيم لغة ، فالنسبة إلى الصفاء صفائي ، وليس صوفي .

٦- أنها نسبة إلى سوفيا وهي الحكمة ، وهذا القول يرجع الصوفية إلى الفلاسفة ، وهذا أيضاً لا يستقيم ، لأن أوائل الصوفية ليسوا من الفلاسفة كما سيأتي في نشأة الصوفية[1].

والذي يظهر لي أن النسبة إلى الصوف أصح ، وأنسب بحال الصوفية ، أما بقية الأقوال فلا تخلو من غلو ، إما مع الصوفية كحال من ينسبهم إلى الصفا أو أهل الصفة ، وإما ضدهم كحال من ينسبهم إلى الفلسفة ووحدة الوجود .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف هذا هو الصحيح ، وقد قيل: إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء ، وقيل: إلى صوفة بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل: إلى أهل الصفة ، وقيل: إلى الصفا ، وقيل: إلى الصفوة ، وقيل: إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى ، وهذه أقوال ضعيفة ، فإنه لو كان كذلك لقيل: صفى أو صفائى أو صفوى أو صفى ، ولم يقل: صوفى ''[2] .

وقد نشأت الصوفية في أوائل القرن الثاني في البصرة ، فقد كان فيها من يسلك طريق المبالغة في العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد ، حتى اشتهروا بذلك فقيل: عبادة بصرية ، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة ، وهي لباس الصوف ، فقيل: لأحدهم صوفي ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ، ولا هم أوجبوا ذلك ، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال .

---

(١) انظر فيما سبق من الأقوال : التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي (ص٢١) ، الرسالة القشيرية للقشيري (٢/ ٥٥٠) ، تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني (ص ٢٧) ، تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص ١٥٦) ، عوارف المعارف للسهروردي (ص ٥٩) ، التحفة العراقية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/٦-٧) ، مقدمة ابن خلدون (ص ٤٦٧) .

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/١٩٥) .

واشتهر هذا الاسم بعد القرون الثلاثة المفضلة ، وانتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة[١] ، ثم تطور التصوف وتشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف :

الأول: صوفية الحقائق ، وهم الصوفية الأوائل ومن على طريقهم ، وهؤلاء الصواب فيهم أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كلا الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب .

ومن المنتسبين إليهم ظالم لنفسه ، عاص لربه .

وهناك من ذم هذه الطائفة مطلقاً ، وقالوا: إنهم مبتدعون مخالفون للسنة ، وهناك من غلا فيهم وادعى أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ، والتحقيق ما قرره شيخ الإسلام رحمه الله وهو ما ذكرته آنفاً من التفصيل في أمرهم .

الثاني: صوفية الأرزاق ، وهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك[٢] ، وهؤلاء ليسوا من أهل الحقائق ؛ لأن أكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك ، ويشترط فيهم العدالة الشرعية ، والتأدب بآداب الشرع ، والزهد في فضول الدنيا .

الثالث: صوفية الرسوم ، وهم المقتصرون على النسبة ، فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ، وهؤلاء في الصوفية بمنزلة من اقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ، ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل بحقيقة أمره أنه منهم وليس منهم[٣] .

---

(١) كالحلاج وغيره .

(٢) الخوانك : جمع خانكاه ، وهي كلمة فارسية معناها بيت ، وقيل أصلها : خونقاه أي : الموضع الذي يأكل فيه الملك . والخوانك حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة ، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار للمقريزي (٤١٤/٢) .

(٣) انظر فيما سبق : رسالة الصوفية والفقراء لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥/١١ - ٧ ، ١٤ ، ١٦-٢٠) .

بعد هذه المقدمة اليسيرة في الصوفية أشرع في المقصود من هذا البحث ، وهو الكلام علـى مذهب الصوفية في الأسباب وأدلتهم والرد عليهم ، وسيكون الكلام في ذلك مقسماً إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: تقرير مذهب الصوفية في الأسباب

المبحث الثاني: بيان شبه الصوفية

المبحث الثالث : رد شيخ الإسلام رحمه الله عليهم

المبحث الأول

تقرير مذهب الصوفية في السببية

تقرير مذهب الصوفية في السببية

عـندما نـبحث في مذهب الصوفية في الأسباب ، فإننا نجد عندهم كثيراً من الأقوال المختلفة ، والآراء المتباينة ، والاتجاهات المتعددة في هذا الباب ، ومرد هذا إلى تعدد طوائفهم وتـنوع مشاربهم ، واختلاف المصادر التي تعتبر خلفية كلامية لهم ؛ ولهذا لن يكون الكلام علـيهم كـالكلام علـى فئة واحدة ذات رأي واحد كما يفعل بعض من كتب عنهم من المعاصـرين[١] ، بل سـأتناولهم باعتبارهم مجموعة طوائف ذات آراء متنوعة تجمعها دائرة التصوف[٢] .

الطائفة الأولى : من يوافق مذهب السلف في الأسباب ، والأخذ بها ، وعدم الاعتماد علـيها ، وهـذا ينطبق على قسم من أوائلهم ومتقدميهم ممن لم يخلط التصوف بشيء من الكلام والفلسفة .

ويقـول العلامـة ابن القيم رحمه الله : " وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها ، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد "[٣] .

الطائفـة الثانية : من يوافق مذهب الأشاعرة في الأسباب ، وهم مجموعة كبيرة من متأخـري الصوفية ، فلا يرون للأسباب فعلاً ولا تأثيراً بوجه ما ؛ لأنه لا فاعل في الحقيقة عـندهم إلا الله تعـالى وحده ، وكل ما سواه فليس له فعل أو تأثير ، وسيأتي التفصيل في مذهب الأشاعرة في الفصل الخاص بذلك .

---

(١) كما فعل الشيخ عبدالرحمن الوكيل في كتابه هذه هي الصوفية ، ومثله محمود القاسم في كتابه الكشف عن حقيقة الصوفية وغيرهم .

(٢) وهذا ما فعله علماء الفرق القدماء كالأشعري في المقالات (ص٢٨٨) ، فقد ذكرهم تحت مسمى النساك وذكر لهـم طوائـف عديدة ، وكذلك الملطي في التنبيه والرد (ص٩٣) وسماهم الروحانية ، وابن حزم في الفصل (٩٧/٥) ذكرهم تحت عنوان ذكر شنع لقوم لا تعرف فرقهم ، وتحت هذا العنوان ذكر الصوفية ، والفخر الرازي في اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٧٢) وسماهم الصوفية ، وكل هؤلاء جعلوا الصوفية أصنافاً متعددة .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (١٢١/٢) .

يقول أبو طالب المكي(١) : '' وعند أهل المعرفة أن لا فاعل حقيقة إلا الله عز وجل ؛ لأن حقيقة الفاعل هو الذي لا يستعين بغيره بآلة ولا سبب ''(٢) .

ويقول الهروي في بيان أحد معاني التلبيس : '' تلبيس الحق بالكون على أهل التفرقة ، وهـو تعلـيقه الكـوائن بالأسـباب والأماكن والأحايين ، وتعليقه المعارف بالوسائط ، والقضـايا بالحجج ، والأحكام بالعلل ، والانتقام بالجنايات ، والمثوبة بالطاعات ، فأخفى الرضى والسخط اللذين يوجبان الوصل والفصل ، ويظهران السعادة والشقاوة ''(٣) .

وهذا معناه أن ارتباط الأسباب بمسبباا تلبيس من الله تعالى على الناس ؛ لأنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله تعالى وحده ، ولهذا استشهد الهروي في هذا الباب بقوله تعالى: ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾(٤)(٥) .

ويشرح العلامة ابن القيم مراده بعدما انتقده فيقول: '' ووجه هذا التلبيس أنه سبحانه أضـاف الأفعال الصادرة عن محض قدرته ومشيئته إلى أسباب وأزمنة وأمكنة ، فلبس الحق سـبحانه على أهل التفرقة حيث علق الكوائن وهي الأفعال بالأسباب ، فنسبها أهل التفرقة إلى أسـبابها ، وعمـوا عن رؤية الحق سبحانه ، ففي الحقيقة لا فعل إلا لله ، وأهل التفرقة يجهلون ذلك ، ويقولون فعل فلان ، وفعل المـاء ، وفعل الهواء ، وفعلت النار .

---

(١) محمـد بن علي بن عطية الحارثي المكي ، أبو طالب ، أحد شيوخ الصوفية ، سكن مكة ونسب إليها ، كان من أتباع أبي الحسن بن سالم شيخ السالمية ، ونقلت عنه بعض العبارات البدعية ، توفي سنة ٣٨٦ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٣٦/١٦) ، شذرات الذهب لابن العماد (١٢٠/٣) ، الأعلام للزركلي (٢٧٤/٦) .

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١٣/٢) .

(٣) منازل السائرين للهروي (ص ٤٥) .

(٤) سورة الأنعام آية رقم (٩) .

(٥) انظر : منازل السائرين للهروي (ص ٤٥) .

وكذلك تعليقه سـبحانه المعارف بالوسائط وهي الأدلة السمعية والعقلية والفطرية ، وتعلـيقه المسـموعات والمبصرات والملموسات بآلا ا وحواسها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، وهو سبحانه الخالق لتلك الإدراكات مقارنة لهذه الحواس ، وعندها لا با ولا بقـوى مـودعة فيها ، وهو سبحانه قادر على خلق هذه المعارف بغير هذه الوسائط ، فحجـب أهـل التفرقة [فهذه][1] الوسائط عن إله قادر سبحانه حقيقة ، الذي لا فعل في الحقيقة إلا له ، فكأنه لبس على أهل التفرقة أي: أضلهم بشهودهم الأسباب ، وغيبتهم با عنـه ''[2] .

ويقول الهروي في مقام التفويض: '' والدرجة الثانية : معاينة الاضطرار فلا ترى عملاً منجياً ، ولا ذنباً مهلكاً ، ولا سبباً حاملاً ''[3] .

ويشـرح ابن القيم كلامة فيقول: '' أي يعاين فقره وفاقته وضرورته التامة إلى الله ، بحيث إنه يرى في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة وفاقة تامة إلى الله ، فنجاته إنما هي بالله لا بعمله .

وأمـا قـوله : ''ولا ذنباً مهلكاً '' ، فإن أراد به أن هلاكه بالله لا بسبب ذنوبه ، فباطل معاذ الله من ذلك ، وإن أراد به أن فضل الله وسعته ومغفرته ورحمته ومشاهدة شدة ضرورته وفاقته إليه يوجب له أن لا يرى ذنباً مهلكاً ، فإن افتقاره وفاقته وضرورته تمنعه من الهـلاك بذنـوبه بل تمنعه من اقتحام الذنوب المهلكة ، إذ صاحب هذا المقام لا يصر على ذنوب لمكه وهذا حاله ، فهذا حق ، وهو من مشاهد أهل المعرفة .

---

(١) كذا بالأصل ولعلها : بذه .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٤١٣/٣) .

(٣) منازل السائرين للهروي (ص ١٧) .

وقـوله: ''ولا سـبباً حاملاً '' أي: يشهد أن الحامل له هو الحق تعالى ، لا الأسباب التي يقوم بها ، فإنه وإياها محمولان بالله وحده ''[(١)] .

ومما يظهر من خلال تأمل كلام الهروي أنه يقصد المعنى الباطل الذي أشار إليه ابن القيم رحمه الله ، وهذا يأتي متسقاً مع مذهبه في أنه لا فاعل إلا الله ، وقد تقدم نص كلامه في ذلك لما تكلم عن التلبيس .

ويقول الغزالي[(٢)] في شرح المرتبة الثالثة من التوحيد عنده : '' وأما الثالث فهو الذي ينبى عليه التوكل ، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب ، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم ، فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك ، واليه رجاؤك ، وبه ثقتك ، وعليه اتكالك ، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر ''[(٣)] .

فإن قيل: ما هو رأي هذه الطائفة في مسألة العمل والأخذ بالأسباب ؟

فالجواب : أن يقال هذه الطائفة لها تفصيل دقيق في هذه القضية ، فلا يأمرون بالأخذ بالأسـباب مطلقاً ، ولا ينهون عن ذلك مطلقاً ؛ لأن العبد عندهم يمر بمنازل معينة في سيره

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١٤٧/٢-١٤٨) .

(٢) محمـد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، أبوحامد ، فيلسوف متصوف متكلم أشعري ، ولد سنة ٤٥٠ هـ رحـل إلى عـدة بلدان ، وصنف مصنفات كثيرة ، توفي سنة ٥٠٥ هـ . انظر: المنتظم لابن الجوزي (١٢٥/١٧) ، البداية والنهاية لابن كثير (١٧٣/١٢) ، الأعلام للزركلي (٢٢/٧) .

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٢٦٣/٤) .

إلى الحق جل شأنه ، وكل مـ لة لها أحكامها ؛ ولهم في ذلك تفاصيل مطولة سوف أشير إلي بعضها بصورة مجملة .

ولـ نأخذ على سبيل المثال التوكل على الله تعالى ، وهو أحد منازل السائرين ، ويعده الهـ روي من أصعب منازل العامة ، وأوهى السبل عند الخاصة[(١)] ، وهو عندهم على ثلاث درجات :

الدرجـة الأولى : مرحلة التوكل مع الأخذ بالأسباب ، لكن الأخذ بـا ليس لكو ا أسباباً تفضي إلى المراد منها ، بل لأجل شغل النفس بالأسباب ، ونفع النفس والناس بالعمل والاكتساب ، وستر الحال والمقام والابتعاد عن الدعوى فيهما .

يقـول الهروي في التوكل : '' الدرجة الأولى: التوكل مع الطلب ، ومعاطاة السبب على نية شغل النفس ، ونفع الخلق ، وترك الدعوى ''[(٢)] .

ويشرح ابن القيم هذا فيقول : '' إن صاحب هذه الدرجة يتوكل على الله ، ولا يترك الأسباب بل يتعطاها على نية شغل النفس بالسبب مخافة أن تفرغ فتشتغل بالهوى والحظوظ فإن لم يشغل نفسه بما ينفعها شغلته بما يضره ، لا سيما إذا كان الفراغ مع حدة الشباب ، وملك الجدة ، وميل النفس إلى الهوى ، وتوالي الغفلات كما قيل:

إن الشباب والفراغ والجدة　　　مفسدة للمرء أي مفسدة[(٣)]

---

(١) انظر: منازل السائرين (ص ١٧) ، وقد عقب عليه ابن القيم في ذلك ، وبين أن التوكل من أجل السبل وأفضلها وأعظمها قدراً . انظر: مدارج السالكين (١٣٢/٢) .

(٢) منازل السائرين للهروي (ص ١٧) .

(٣) هـذا بيت من قصيدة لأبي العتاهية تسمى الأرجوزة ذات الأمثال يقال إن فيها أربعة آلاف مثل ، ولم أجدها في ديوانه والبيت في الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٤٠/٤) .

ويكون أيضا قيامه بالسبب على نية نفع النفس ، ونفع الناس بذلك ، فيحصل له نفع نفسه ونفع غيره .

وأما تضمن ذلك لترك الدعوى: فإنه إذا اشتغل بالسبب تخلص من إشارة الخلق إليه الموجبة لحسن ظنه بنفسه ، الموجب لدعواه ، فالسبب ستر لحاله ومقامه وحجاب مسبل عليه ''[1] .

وقد عقب عليه ابن القيم هنا وقرر أن الأسباب فيها فوائد أجل من هذه الثلاث ، يقول رحمه الله : '' فيقال: إذا كانت الأسباب مأموراً بها ، ففيها فائدة أجل من هذه الثلاث ، وهي المقصودة بالقصد الأول ، وهذه مقصودة قصد الوسائل ، وهي القيام بالعبودية والأمر الذي خلق له العبد ، وأرسلت به الرسل ، وأنزلت لأجله الكتب ، وبه قامت السموات والأرض ، وله وجدت الجنة والنار ، فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية ، وحق الله على عبده الذي توجهت به نحوه المطالب ، وترتب عليه الثواب والعقاب ''[2] .

الدرجة الثانية : ترك وإهمال بعض الأسباب مع التوكل على الله تعالى ، لتصحيح التوكل بامتحان النفس ، بمعنى أنه يترك بعض الأسباب لكي يقوى توكله على الله تعالى ، ولا يبقى في قلبه انصراف إلى غيره .

يقول الهروي في التوكل : '' والدرجة الثانية: التوكل مع إسقاط الطلب ، وغض العين عن السبب ، اجتهادا في تصحيح التوكل ، وقمع تشرف النفس ، وتفرغا إلى حفظ الواجبات ''[3].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١٣٥/٢-١٣٦) .
(٢) المصدر السابق (١٣٦/٢) .
(٣) منازل السائرين للهروي (ص ١٧) .

يقول ابن القيم في شرح كلامه : '' قوله : مع إسقاط الطلب : أي من الخلق لا من الحق ، فلا يطلب من أحد شيئاً .....

وقوله : ''وغض العين عن السبب ، اجتهادا في تصحيح التوكل '' : معناه أنه يعرض عن الاشتغال بالسبب ؛ لتصحيح التوكل بامتحان النفس ؛ لأن المتعاطي للسبب قد يظن أنه حصل التوكل ، ولم يحصله لثقته بمعلومه ، فإذا أعرض عن السبب صح له التوكل .

وهـذا الـذي أشار إليه مذهب قوم من العباد والسالكين ، وكثير منهم كان يدخل الـبادية بـلا زاد ، ويرى حمل الزاد قدحاً في التوكل ، ولهم في ذلك حكايات مشهورة ، وهؤلاء في خفارة صدقهم ، وإلا فدرجتهم ناقصة عن العارفين ''[(١)] .

الدرجة الثالثة : ترك بعض الأسباب القلبية ، كترك التوكل مثلاً ، وقد يستغرب هذا الأمر ، لكن له عندهم توضيح ، ومرادهم به أن العبد متى قطع الأسباب والطلب ، وتعدى تلك الدرجتين ، فتوكله فوق توكل من قبله ، فيحتاج إلى أن يعرف حقيقة التوكل ، لكي يتخلص من علته .

ومعـرفة حقيقة التوكل تكون بأن يعلم أن ملك الله تعالى للأشياء ملك عزة وامتناع وقهـر تمـنع أن يشاركه فيه مشارك ، والمتوكل يرى أن له شيئاً قد وكل الحق فيه ، وهذا مخالف لحقيقة الأمر ؛ لأنه ليس لأحد مع الله شيئاً .

فمـن جعـل الله تعالى وكيلاً يقال له : بماذا وكلت ربك ؟ أفيما له وحده ؟ أو لك وحدك ؟ أو بينكما ؟

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١٣٦/٢ ، ١٣٨-١٣٩) .

وكلاهما ممتنعة ، أما الأول ، فكيف توكله فيما ليس لك منه شيء البتة ؟ أما الثاني والثالث فواضح امتناعهما[(١)] .

وهذا معناه أن العبد يصل إلى مرحلة لا يتوكل فيها على الله تعالى ؛ لأنه شهد ملك الله تعالى للأشياء ملكية تمنع أن يشاركه فيها مشارك ، فكيف يفوض العبد ربه فيما هو ملك لربه ، وليس للعبد منه شيء .

يقول الهروي في التوكل : '' الدرجة الثالثة: التوكل مع معرفة التوكل ، النازعة إلى الخلاص من علة التوكل ، وهي أن يعلم أن ملكة الحق تعالى للأشياء هي ملكة عزة ، لا يشاركه فيها مشارك ، فيكون شركته إليه ، فإن من ضرورة العبودية : أن يعلم العبد أن الحق سبحانه هو مالك الأشياء وحده ''[(٢)] .

وللغزالي رأي آخر وتقسيم وتفصيل مختلف في العمل والأخذ بالأسباب ، فهو يقسمها باعتبار إفضائها إلى المطلوب ومنافاتها للتوكل إلى ثلاثة أقسام :

الأول: أسباب مقطوع بها ، وهي التي ارتبطت بمسبباتها - بمشيئة الله تعالى وتقديره - ارتباطاً مطرداً لا يتخلف كما لو كان الطعام موضوعاً بين يديك وأنت جائع محتاج ، فلا مانع أن تمد يدك إليه لتأكله ، وهذا لا ينافي التوكل ، لكن عليك أن تعلم أن الله تعالى خلق هذا الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة ، وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك وعلى قلبك أن يكون اعتماده على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام .

الثاني: أسباب غالبة ، وهي التي ليست متيقنة ، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل بدونها ، واحتمال حصولها بدونها بعيد ، وهذا كالذي يفارق الأمصار ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً ، ويكون سفره من غير اصطحاب زاد .

---

(١) انظر فيما سبق : مدارج السالكين لابن القيم (١٤١/٢-١٤٢) .

(٢) منازل السائرين (ص ١٧) .

فهذه ليست شرطاً في التوكل ، ولا يزول التوكل بفعلها بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد ، وترك هذه الأسباب جائز ، وهو من أعلى مقامات المتوكلين وكان يفعله بعض الصوفية القدماء ، ولجوازه شرطان :

أحدهما: أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعاً وما يقاربه ، بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى .

الآخر: أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش ، وما يتفق من الأشياء الخسيسة .

الثالث: أسباب يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، وذلك كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه ، كما يحصل من غالب الناس في الحيل الدقيقة المباحة لاكتساب المال المباح ، وهذا عند الغزالي ينافي التوكل ، ويخرج العبد عن جميع درجاته .

ويقسم الناس الذين يأخذون بالأسباب إلى أقسام :

الأول : خاصة الخاصة ، وهو مقام كبار الصوفية الذين يتجولون في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويتهم على الصبر أسبوعاً وما فوقه ، أو تيسير حشيش لهم أو قوت ، أو تثبيتهم على الرضا بالموت إن لم يتيسر لهم شيء من ذلك .

الثاني : الخاصة ، وهو أقل من الأول كالذي يقعد في بيته ، أو في مسجد ، ولكنه في القرى والأمصار ، فهذا متوكل تارك للكسب والأسباب ، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، وهو بقعوده في الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، وهذا لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الله تعالى الذي يسخر الأسباب ، فيسخر سكان ذلك البلد لإيصال رزقه إليه .

الثالث: العامة ، وهو من يخرج ويكتسب اكتساباً مباحاً ، وهذا لا يخرج عن التوكل بشرط أن لا يكن منه طمأنينة إلى نفسه وكفايته وقوته وجاهه وبضاعته ؛ لأن الله تعالى قد يهلك ذلك كله في لحظة ، بل يكون نظره إلى الله عز وجل الكفيل الحق بحفظ ذلك كله ، وتيسير أسبابه له .

فإن قيل أيهما أفضل أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب ؟

يجـيب الغزالي عن هذا بالتفصيل ، فيقرر أنه إذا كان بقعوده يتفرغ للعبادة والذكر ، وكسب الرزق يشوش عليه ، ونفسه لا تستشرف إلى الناس بانتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئاً ، فيكون قوي القلب في الصبر والاتكال ، فهذا القعود له أولى .

وإن كان يضطرب قلبه في البيت ، ويستشرف قلبه إلى سؤال الناس ، فهذا الكسب له أولى[1] .

الطائفة الثالثة : من يوافق الملاحدة والزنادقة في الأسباب ، فيلغي التكاليف الشرعية مـن الأوامر والنواهي - وهي الأسباب الشرعية - عمن بلغ مرتبة في العبادة والتصوف ، بزعم أنه بلغ اليقين ، وشهد الإرادة ، فلا حاجة له إلى العبادة .

وهـذه الطائفـة ظهرت قديماً ، وكتب عنها علماء الفرق والمقالات ، ولكنها نمت وازدهرت قبل وفي زمن شيخ الإسلام رحمه الله .

---

(١) انظر فيما سبق : إحياء علوم الدين للغزالي (٢٨٢/٤-٢٨٥) .

يقـول أبو الحسن الأشعري[1] : '' وفي النساك قوم يزعمون أن العبادة تبلغ بهم إلى منـزلة تزول عنهم العبادات ، وتكون الأشـياء المحظورة على غيرهم من الزنـا وغيره مباحات لهم ''[2] .

ويقول الملطي[3] : '' ومنهم صنف من الروحانية زعموا أنه ينبغي للعباد أن يدخلوا في مضمار الميدان حتى يبلغوا إلى غاية السـبقة من تضمير أنفسهم[4] ، وحملها على المكروه ، فإذا بلغت تلك الغاية أعطى نفسه كل ما تشتهي وتتمنى ، وإن أكل الطيبات كأكل الأراذلة مـن الأطعمة ، وكان الصبر والخبيص عنده بمنزلة ، وكان العسل والخل عنده بمنزلة ، فإذا كان كذلك فقد بلغ غاية السبقة وسقط عنه تضمير الميدان واتبع نفسه ما اشتهت ''[5] .

وأصـل مـذهب هؤلاء أنهم ظنوا أن غاية العبد توحيد الربوبية والفناء فيه ، ولذلك قرروا أن من شهد الربوبية ، ورأى شمول الحكم الكوني وإحاطته بها ، وعدم خروج ذرة من هذا العالم عنه ، فإنه يزول عنه استقباح شيء من الأفعال ، ويشهدها كلها طاعات للأقدار والمشـيئة ، ولسـانه يقول في مثل هذه الحالة: إن كنت عصيت الأمر فقد أطعت الإرادة للرحمن ، ومن هنا يقولون بسقوط التكاليف عنهم لأنهم شهدوا الإرادة .

يقول شيخ الإسـلام رحمه الله : '' ومنهم صنف يدعون التحقيق والمعرفة فيزعمون أن الأمر والنهي لازم لمن شهد لنفسه فعلاً وأثبت له صنعاً ، أما من شهد أن أفعاله مخلوقة ،

---

(١) أبـو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري من أهل البصرة ولد بها سنة ٢٦٠ هـ وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم تاب وصار كلابياً ثم رجع إلى مذهب السلف ، وهو مؤسس مذهب الأشاعرة توفي سنة ٣٢٤ هـ . انظر: الفهرست للنديم (ص ٢٣١) ، طبقات الشافعية لابن السبكي (٢٤٥/٢) ، الأعلام للزركلي (٢٦٣/٤) .

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري (ص ٢٨٩) ، وقد نقل هذا النص أيضاً شـيخ الإسلام رحمه الله في منهاج السنة (٦٢٣/٢) .

(٣) محمـد بـن أحمـد بن عبدالرحمن الملطي ، أبو الحسين الشـافعي العسقلاني ، عالم وفقيه شافعي ، توفي سنة ٣٧٧ هـ . انظر: طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي (١١٢/٢) ، الأعلام للزركلي (٣١١/٥) .

(٤) تضمير أنفسهم : حملها على الهزال والضعف . التنبيه والرد للملطي (ص ٩٤) .

(٥) التنبيه والرد للملطي (ص ٩٤-٩٥) .

أو أنه مجبور على ذلك ، وأن الله هو المتصرف فيه ، كما تحرك سائر المتحركات ، فإنه يرتفع عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد .

وقد يقولون: من شهد الإرادة سقط عنة التكليف ، ويزعم أحدهم أن الخضر سقط عنه التكليف لشهوده الإرادة ، فهؤلاء لا يفرقون بين العامة والخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية ، فشهدوا أن الله خالق أفعال العباد ، وأنه يدبر جميع الكائنات ، وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علماً وبين من يراه شهوداً ، فلا يسقطون التكليف عمن يؤمن بذلك ويعلمه فقط ، ولكن عمن يشهده ، فلا يرى لنفسه فعلاً أصلاً ، وهؤلاء لا يجعلون الجبر وإثبات القدر مانعاً من التكليف على هذا الوجه .

وقد وقع في هذا طوائف من المنتسبين إلى التحقيق والمعرفة والتوحيد ''[١] .

ويقول في موضع آخر عن هذه الطائفة : '' هؤلاء كثيرون في الناس ، وفيهم من يدعي أنه من الخاصة العارفين أهل التوحيد الذين فنوا في توحيد الربوبية ، ويقول: إن العارف إذا فني في شهود توحيد الربوبية لم يستحسن حسنة ولم يستقبح سيئة ، ويقول بعضهم: من شهد الإرادة سقط عنه الأمر ، ويقول بعضهم: الخضر إنما سقط عنه التكليف ؛ لأنه شهد الإرادة ، وهذا الضرب كثير في متأخري الشيوخ والنساك والصوفية والفقراء ، بل وفي الفقهاء والأمراء والعامة ''[٢] .

ولم أقف على مصنف لأحد هؤلاء ، لكن وقع في كلام الهروي شيء من هذا ، فإنه يقول في باب التوبة في المنازل في لطائف التوبة : '' واللطيفة الثالثة : أن مشاهدة الحِكَم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحِكم ''[٣] .

---

(١) العبودية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/١٦٥-١٦٦)

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/٧٦) .

(٣) منازل السائرين (ص ٧) .

وقد عقب عليه ابن القيم فقال:'' فهذا الكلام الأخير ظاهره يبطل استحسان الحسن واستقباح القبيح ، والشرائع كلها مبناها على استحسان هذا واستقباح هذا ، بل مشاهدة الحكم تزيد البصير استحساناً للحسن واستقباحاً للقبيح ، وكلما ازدادت معرفته بالله وأسمائه وصفاته وأمره قوي استحسانه واستقباحه ، فإنه يوافق في ذلك ربه ورسله ، ومقتضى الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وقد كان شيخ الإسلام[١] في ذلك موافقا للأمر ، وغضبه لله ولحدوده ومحارمه ومقاماته في ذلك شهيرة عند الخاصة والعامة ، وكلامه المتقدم بين في رسوخ قدمه في استقباح ما قبحه الله واستحسان ما حسنه الله وهو كالمحكم فيه ، وهذا متشابه فيرد إلى محكم كلامه ''[٢] .

وختاماً أوجز مذهب الصوفية في الآتي :

أولاً : ليست الصوفية على مذهب واحد في مسألة الأسباب ، ففيهم من يوافق السلف ، وفيهم من يوافق المتكلمين ، وفيهم من يوافق الملاحدة الزنادقة .

ثانياً : من يوافق المتكلمين منهم ، يرون أن لا فاعل إلا الله تعالى وحده ، والأسباب لا تأثير لها في الحقيقة .

وفي جانب العمل والأخذ بالأسباب ، يقررون الأخذ بالأسباب للمبتدئين في سلوك الطريق ، وترك وإهمال بعضها للمتوسطين والمتقدمين في السلوك ، على تفصيل دقيق سبقت الإشارة إليه .

ثالثاً : من يوافق الملاحدة الزنادقة ، فهؤلاء يقررون ترك الأسباب الشرعية وسقوط التكاليف في مراحل معينة ، فيصل عندهم العبد إلى مرحلة تسقط فيها الأوامر والنواهي .

---

(١) المقصود بشيخ الإسلام هنا الهروي وليس ابن تيمية .

(٢) شفاء العليل لابن القيم (ص ٣١-٣٢) . ثم نقل ابن القيم رحمه الله في نفس الموضع شرح أبي العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي لكلام الهروي السابق بما يناسب مذهب السلف .

هذا موجز لموقف الصوفية من الأسباب ، ولكن ما هي شبهتهم التي يعتمدون عليها في أقوالهم تلك ؟

هذا ما سوف أناقشه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى .

المبحث الثاني

بيان شبه الصوفية

في السببية

بيان شبه الصوفية في السببية

قبل الشروع في بيان شبه الصوفية التي يستندون عليها في تقرير مذهبهم في السببية أود أن أوضـح مسألة مهمة مرتبطة بهذا الباب ، وهي أن الصوفية في الأصل لا يعتمدون على النصـوص الشـرعية مـن الكتاب والسنة والإجماع ، وهي الأدلة المعتبرة عند أهل السنة والجماعة ، بل لهم مصادر أخرى يتلقون العلم عنها .

وأبرز هذه المصادر الكشف ، أو ما يسمى عندهم بعلم المكاشفة .

ويعرفه الغزالي ويشرحه فيقول: " عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك ، حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه ، وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله ، وبحِكَمِه في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب ، وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعنى قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[2]، ومعنى لقـاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى القرب منه والـ ول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبيين ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدري في جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله إذ

(١) سورة الإسراء آية رقم (١٤) .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم (٦٤) .

للناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى:

فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة ، وأن الذي أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء .

وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها .

وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته .

وبعضهم يدعي أمورا عظيمة في المعرفة بالله عز وجل .

وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم .

فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه ''[1] .

ومن خلال هذا النص الطويل الذي أوردته يتبين أن علم المكاشفة عند الصوفية هو الذي يوضح حقيقة الأشياء كما هي عليه في نفس الأمر ، فيوضح جميع الغيبيات حتى تصل عندهم إلى مرحلة المشاهدة العيانية التي لا شك فيها .

وعلم المكاشفة ليس طريقه النظر في الأدلة الشرعية أو العقلية ، بل طريقة الوصول إليه مجاهدة النفس وتصفيتها و تهذيبها بالعبادة ، وهو يتنافى تماما مع علم الكلام ، بل يعتبر علم الكلام من الحجب التي تصد عنه .

يقول الغزالي : '' وجميع ما أشرنا إليه في علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام بل يكاد أن يكون الكلام حجاباً عليه ، ومانعاً عنه وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣١/١) .

الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1] ،،[2] .

ولهم فيه فروع كثيرة وتفصيلات دقيقة ليس هذا محل ذكرها والإفاضة فيها ، فقد ألفت في ذلك بحوث متخصصة[3] ، والمقصود من هذا أن الصوفية لم يأخذوا عن المصادر الشرعية في مسائلهم وتفصيلا ا ، بل أخذوها عن طريق الكشف ، ولهذا لا نجد لهم نصوصاً شرعية يستندون إليها في تقرير مذهبهم ، فالعلم عندهم يأتي عن طريق الكشف وليس عن طريق النصوص ، لكن تبقى بعض مسائل من مذهبهم في السببية وجدوا فيها أدلة ظنوا أ ا توافق مذهبهم فذكروها وهذا ما سوف أعتني بذكره في هذا المبحث .

وبعـد هذه المقدمة اليسيرة حول مصادر الصوفية في العلم أشرع في المقصود من هذا المبحث ، وهو بيان ما وقفت عليه من شبه لهم في مسألة السببية .

أما الطائفة الثانية[4] فمذهبهم في حقيقة الأمر هو نفس مذهب الأشاعرة ، وهو أنه لا فاعل حقيقي إلا الله تعالى ، لكن أدلتهم تختلف عن أدلة الأشاعرة ، فبينما يستدل الأشاعرة بطائفة من الأدلة العقلية ، نجد أن الصوفية لا يستدلون بتلك الأدلة ؛ بل يعتمدون على الكشف ، ويعتبرون أن من أعلى منازل السائرين مشاهدة أن الله تعالى هو الفاعل الحقيقي لكن بطريق الكشف .

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم (٦٩) .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣٤/١) .

(٣) ومن ذلك رسالة ماجستير بعنوان المصادر العامة للتلقي عند الصوفية لصادق سليم صادق .

(٤) لم أذكر الطائفة الأولى لأ ا توافق مذهب السلف .

ومن يعتمد على الأدلة فهذا يعد من العوام عندهـم ، ولا يمتاز المتكلم عن العـامي إلا بصنعـة تلفيق الكلام على حـد تعبـير الغزالي[١] ، فهـاهنـا طريقـان في إدراك أن لا فاعل إلا الله تعالى:

أحدهما: طريق الاعتقاد والتصديق ، وهو طريق العوام والمتكلمين الذين يعتمدون على الأدلة .

والآخر: طريق الكشف بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين ، وهو طريق الصوفية .

وكلا الطريقين من مراتب التوحيد ، لكن الطريق الثاني أعلى من الأول .

يقول الغزالي: '' فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه ، أو منكر له ، كتوحيد المنافقين .

والثانـية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كمـا صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام .

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار ''[٢] .

ويشرح الغزالي المرتبة الثالثة فيقول: '' والثالث: موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً ، إذا انكشف له الحق كما هو عليه . ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ''[٣] .

أما الطائفة الثالثة وهي التي تلغي الأسباب الشرعية من الأوامر والنواهي ، فقد وقفت لها في هذا الباب على شبهتين :

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢٦٢/٤) .
(٢) المصدر السابق (٢٦٢/٤) .
(٣) المصدر السابق (٢٦٢/٤) .

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[(١)] ، فيقولون : اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة ، أو حتى يحصل لك اليقين ، وحتى يحصل لك الحال ، فإن حصل لك مرادك سقطت عنك التكاليف .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' ومن هؤلاء من يحتج بقوله ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[(٢)] ، ويقول معناها: اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة فإذا حصل ذلك سقطت العبادة ، وربما قال بعضهم: اعمل حتى يحصل لك حال ، فإذا حصل لك حال تصوفى سقطت عنك العبادة ، وهؤلاء فيهم من إذا ظن حصول مطلوبه من المعرفة والحال استحل ترك الفرائض وارتكاب المحارم ''[(٣)] .

الثانية : قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، ويستدلون بها من جهتين :

الأولى: يقولون إن الخضر كان مشاهداً للحقيقة الكونية ، وهي الإرادة الربانية والمشيئة الإلهية العامة ، فلذلك سقط عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والنهي الشرعيين .

الثانية: يقولون إن في الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية كما ساغ للخضر الخروج عن شريعة موسى عليهما السلام ، وأنه قد يكون للولي مكاشفة ومخاطبة يستغني بها عن متابعة الرسول ﷺ في عموم أحواله أو في بعضها[(٤)] .

هـذا مجمل ما وقفت عليه من شبه للصوفيه في مذهبهم في السببية ، أما مناقشة شيخ الإسلام رحمه الله لهذه الشبه فهذا ما سوف أذكره في الفصل القادم إن شاء الله تعالى .

---

(١) سورة الحجر آية رقم (٩٩) .
(٢) سورة الحجر آية رقم (٩٩) .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٤١٧) .
(٤) انظر فيما سبق : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٤٢٠ ، ٤٢٢) .

المبحث الثالث

رد شيخ الإسلام على الصوفية

رد شيخ الإسلام على الصوفية

لقد ناقش شيخ الإسلام رحمه الله شبه الصوفية التي استندوا إليها في تقرير مذهبهم في السـببية وفندها في مواضع متعددة من كتبه ، ويمكننا أن نلخص تناوله لهم في مسألتين :

المسألة الأولى : نقده لشبه الطائفة الثانية .

المسألة الثانية : نقده لشبه الطائفة الثالثة .

أمـا **المسألة الأولى**: وهي نقد شبه الطائفة الثانية ، فقد ناقش شيخ الإسلام رحمه الله هـذه الطائفة ، ونقد الأساس الذي بنت عليها مذهبها في السببية ، ويتمثل هذا الأساس بما يسمى بالكشف ، فهم يعتبرونه أحد أهم مصادر التلقي عندهم ، ويعتمدون عليه في تقرير قضية السببية ، وأنه لا فاعل إلا الله كما سبق إيضاح ذلك ، ولهذا نقد شيخ الإسلام رحمه الله هذا المصدر وبين ما فيه من حق وباطل من عدة أوجه من أبرزها :

الـوجه الأول : تكلم فيه شيخ الإسلام رحمه الله عن أثر الزهد والتقوى والعبادة في حصول العلم ، وبين أن للناس في هذه المسألة ثلاثة أقوال :

الأول: قول من ينفي أثرها في حصول العلم ، وهؤلاء يجعلون طريق العلم هي الأدلة النقلية والعقلية فقط .

الثاني: قول من يقصر طريق العلم على العبادة والرياضة والزهد وتصفية القلب ، وهم الصوفية .

الثالث : القول الوسط ، وهو أن طريق العلم يشتمل على كلا الأمرين: الأدلة النقلية والعقلـية ، وكذلك العبادة والزهد والتقوى ، والعبد محتاج إلى كلا الطريقين ، فهو محتاج إلى الدليل فيما لا يعلم إلا بالدليل كتفاصيل ما أمر الله به ورسوله ﷺ ، ومحتاج إلى التقوى والعبادة فهي من أعظم أسباب نيل العلم ، بل هي شرط في حصول كثير من العلم النافع .

وقد دلت نصوص القرآن الكريم على اعتبار كلا الطريقين .

أما الطريق الأول ففيه آيات كثيرة جدا ، بل كل آية تأمرنا باتباع الوحي والكتاب الم ل ، والنظر في الآيات الشرعية والكونية فهي دالة عليه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾[(١)] ، وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٢)] ، وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[(٣)] ، وقوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[(٥)] .

وأما الطريق الثاني فقد وردت فيه أيضاً نصوص شرعية كثيرة ، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ﴾[(٦)] ، فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطا مستقيماً .

وقال تعالى: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[(٧)]، وقـال تعالى:

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (٣) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (٣١) .
(٣) سورة الأنعام آية رقم (١٥٥) .
(٤) سورة ص آية رقم (٢٩) .
(٥) سورة المؤمنون آية رقم (٦٨) .
(٦) سورة النساء آية رقم (٦٦-٦٨) .
(٧) سورة المائدة آية رقم (١٦) .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾(١)، وقال: ﴿ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدًى ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٤).

وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى كقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾ (٥)، وغيرها من الآيات(٦) .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : " والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام: طرفان ووسط .

فقوم يزعمون أن مجرد الزهد وتصفية القلب ورياضة النفس توجب حصول العلم بلا سبب آخر .

وقوم يقولون : لا أثر لذلك بل الموجب للعلم العلم بالأدلة الشرعية أو العقلية .

وأما الوسط فهو أن ذلك من أعظم الأسباب معاونة على نيل العلم ، بل هو شرط في حصول كثير من العلم ، وليس هو وحده كافياً ، بل لابد من أمر آخر ، إما العلم بالدليل فيما لا يعلم إلا به ، وإما التصور الصحيح لطرفي القضية في العلوم الضرورية .

وأما العلم النافع الذي تحصل به النجاة من النار ويسعد به العباد فلا يحصل إلا باتباع الكتب التي جاءت با الرسل ، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ

---

(١) سورة محمد آية رقم (١٧) .
(٢) سورة الكهف آية رقم (١٣) .
(٣) سورة البقرة آية رقم (٢) .
(٤) سورة الجاثية آية رقم (٢٠) .
(٥) سورة الصف آية رقم (٥) .
(٦) انظر: رسالة في علم الباطن والظاهر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤٥/١٣-٢٤٦) .

﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ ﴾ [(١)] الخ ، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[(٢)].

فمن ظن أن الهدى والإيمان يحصل بمجرد طريق العلم مع عدم العمل به ، أو بمجرد العمل والزهد بدون العلم فقد ضل ، وأضل منهما من سلك في العلم والمعرفة طريق أهل الفلسفة والكلام بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ولا العمل بموجب العلم ، أو سلك في العمل والزهد طريق أهل الفلسفة والتصوف بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ولا اعتبار العمل بالعلم ، فأعرض هؤلاء عن العلم والشرع ، وأعرض أولئك عن العمل والشرع ، فضل كل منهما من هذين الوجهين وتباينوا تبايناً عظيماً حتى أشبه هؤلاء اليهود المغضوب عليهم ، وأشبه هؤلاء النصارى الضالين ''[(٣)] .

ومـن خـلال هذا النص يتبين لنا نقد شيخ الإسلام رحمه الله للصوفية والمتكلمين ، حـيث أن الفرقتين كلتاهما قد أخذت وآمنت بطرف من الحق ونفت بعض الحق الذي عند الطائفة الأخرى ، ومن هنا وقعت في الغلط من جهة النفي لما عند الطائفة الثانية من الحق .

ثم هاهنا مسألة أشار إليها شيخ الإسلام رحمه الله في نصه هذا وهي مسألة تلازم العلم والعمـل ، فكمـا لا يصـلح علم بلا عمل ، فكذلك لا يصلح عمل بلا علم ، والصوفية بمنهجهم في التلقي عن طريق الكشف من خلال العبادة والزهد وعدم اعتبار ذلك بالكتاب

---

(١) سورة طه الآيات رقم (١٢٣-١٢٧) .
(٢) سورة الزخرف آية رقم (٣٦) .
(٣) رسالة في علم الباطن والظاهر - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤٦/١٣-٢٤٧) .

والسنة يلتزمون جانب العمل بدون العلم وهذا ما أوقعهم في الانحراف والضلال ، ومشابهة النصارى الضالين من هذا الوجه .

الوجه الثاني : أن غاية منهج الصوفية في التلقي عن الكشف معرفة الله تعالى معرفة مطلقة ، وحصول عبادة وتأله مطلق ، لأن معرفة الله تعالى المفصلة لا تمكن بغير طريق الكتاب والسنة .

ويتبين هذا عند معرفة طريقة حصول الكشف ، فهم يسلكون في تحصيله طريق الذكر الذي يشتغلون به: الله الله ، أو هو هو ، وهو لا يوصلهم إلا إلى مجرد إثبات إلهية مطلقة ، ولهذا كان غاية العارف عندهم توحيد الربوبية الذي كان يعرفه المشركون ويقرون به ، وقد يصل بهم الأمر إلى وحدة الوجود عندما يقتصر بعضهم في الذكر على: لا هو إلا هو ، أو لا موجود إلا هو .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وكذلك أصحاب الرياضة والتجرد: فإن صفوتهم الذين يشتغلون بذكر بسيط مثل: لا اله إلا الله ، إن لم يغلوا فيقتصروا على مجرد الله الله ، ويعتقدون أن ذلك أفضل وأكمل . كما فعله كثير منهم ، وربما اقتصر بعضهم على هو هو أو على قوله: لا هو إلا هو ؛ لأن هذا الذكر المبتدع الذي هو لا يفيد بنفسه إلا أنه مطلقاً ليس فيه بنفسه ذكر لله إلا بقصد المتكلم .

فقد ينضم إلى ذلك اعتقاد صاحبه أنه لا وجود إلا هو ، كما يصرح به بعضهم ، ويقول: لا هو إلا هو ، أو لا موجود إلا هو ، وهذا عند الاتحادية أجود من قول: لا اله إلا الله ؛ لأنه مصرح بحقيقة مذهبهم الفرعوني القرمطي ، حتى يقول بعضهم: لا اله إلا الله ذكر العابدين ، والله الله ذكر العارفين ، وهو ذكر المحققين ، ويجعل ذكره يا من لا هو إلا هو ، وإذا قال: الله الله إنما يفيد مجرد ثبوته ، فقد ينضم إلى ذلك نفى غيره ، لا نفى إلهية غيره ، فيقع صاحبه في وحدة الوجود ، وربما انتفى شهود القلب للسوى إذا كان في مقام الفناء فهذا قريب ، أما اعتقاد أن وجود الكائنات هي هو فهذا هو الضلال .

ويضمون إلى ذلك نوعا من التصفية مثل ترك الشهوات البدنية من الطعام والشراب والرياسة والخلوة ، وغير ذلك من أنواع الزهادة المطلقة والعبادة المطلقة ، فيصلون أيضا إلى تأله مطلق ، ومعرفة مطلقة بثبوت الرب ووجوده '' [(١)] .

الوجه الثالث : أن ما يحصله الصوفية عن طريق هذا المنهج غير دائم ولا ثابت ، بمعنى أنه يزول متى زالت أسبابه ، كما قيل: حال أعطاكه الجوع يذهب بالشبع ، وحال جاء عن طريق الخلوة يذهب بالاجتماع .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن معارفهم : '' ثم قد تتوارى هذه المعرفة والعلم بملابسة الأمور الطبيعية من الطعام والاجتماع بالناس ، فإن سببها إنما هو ذلك التجرد ، فإذا زال زال ؛ ولهذا قيل: كل حال أعطاكه الجوع ، فإنه يذهب بالشبع ''[(٢)] .

الوجه الرابع : أنه يحصل للصوفية غالباً باتباعهم هذا المنهج في التلقي سيطرة التوهم والخيالات عليهم ، وقد تكون تلك الخيالات حقيقة ، وقد تكون باطلة ، كتوهم إلهية البشر أو الصعود إلى السماء ، أو نحو ذلك مما يذكره الصوفية ويقررونه .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن الصوفية : '' والغالب عليهم عالم التوهم ، فتارة يتوهمون ماله حقيقة ، وتارة يتوهمون مالا حقيقة له ، كتوهم إلهية البشر ... وتوهم المنتظر وتوهم الغوث المقيم بمكة أنه بواسطته يدبر أمر السماء والأرض ؛ ولهذا يقول التلمساني[(٣)]: ثبت عندنا بطريق الكشف ما يناقض صريح العقل .

ولهذا [أصيب] صاحب الخلوة بثلاث توهمات:

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٣/٢-٦٤) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٤/٢) .

(٣) أبو الربيع سليمان بن علي بن عبدالله العابدي الكرمي التلمساني الأديب الشاعر ، أحد زنادقة الصوفية ، وقيل له مره: أنت نصيري ؟ فقال: النصيري بعض مني ، وشعره في الذروة من البلاغة لا من حيث الاتحاد ، توفي سنة ٦٩٠ هـ . انظر ترجمته في : البداية والنهاية لابن كثير (٣١٥/١٣) ، شذرات الذهب لابن العماد (٤١٢/٥) .

أحدها: أن يعتقد في نفسه أنه أكمل الناس استعداداً .

والثاني: [أن] يتوهم [في] شيخه أنه أكمل من على وجه الأرض .

والثالث: أنه يتوهم أنه يصل إلى مطلوبه بدون سبب ، وأكثر اعتماده على القوة الوهمية فقد تعمل الأوهام أعمالا لكنها باطلة "(١).

وبذا ينتهي ما وقفت عليه من نقد شيخ الإسلام رحمه الله لمنهج الصوفية في التلقي وهو نقد دقيق بين فيه الشيخ ما يشتمل عليه طريق الصوفية من حق وباطل من غير إفراط أو تفريط .

ويعتبر هذا النقد إبطالاً لكثير من معتقدات الصوفية التي تقوم على الكشف المجرد ، ومن تلك المعتقدات اعتقادهم في السببية وأنه لا فاعل إلا الله تعالى وحده ، فهم يعتمدون في هذا على الكشف ، وبإبطاله يبطل ما يقوم عليه .

المسألة الثانية : نقد شيخ الإسلام رحمه الله لشبه الطائفة الثالثة :

لقد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن الطائفة الثالثة من الصوفية وهي التي تسقط التكاليف الشرعية في بعض الحالات عن بعض الناس ، وذكر شبههم ونقدها ، ومما ذكره في هذا المجال ما يلي :

أولاً : أن المسلمين مجمعون على أن التكاليف الشرعية لا تزول عن أحد ما دام عقله حاضراً ، وأنه لم يقل أحد من العلماء بزوال التكليف عن أحد ما دام عقله حاضراً ولو بلغ ما بلغ من العلم والعبادة والصلاح والتقوى .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن قولهم بسقوط التكاليف : " وهذا خطأ بإجماع المسلمين - أهل التفسير وغيرهم - فإن المسلمين متفقون على أن وجوب العبادات -

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٨/٢) .

كالصلوات الخمس ونحوها ، وتحريم المحرمات كالفواحش والمظالم - لا يزال واجباً على كل أحد ما دام عقله حاضراً ، ولو بلغ ما بلغ ، وأن الصلوات لا تسقط عن أحد قط إلا عن الحائض والنفساء ، أو من زال عقله ، مع أن من زال عقله بالنوم فإنه يقضيها بالسنة المستفيضة المتلقاة بالقبول ، واتفاق العلماء ، وأما من زال عقله بالإغماء ونحوه مما يعذر فيه ففيه نزاع مشهور: منهم من يوجب قضاءها مطلقا كأحمد ، ومنهم من لا يوجبه كالشافعي ومنهم من يوجب قضاء ما قل ، وهو مادون اليوم والليلة أو صلوات اليوم والليلة كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك ، والمجنون لا يقضي عند عامتهم ، وفيه نزاع شاذ .

فالمقصود من هذا أن الصلوات الخمس لا تسقط عن أحد له عقل ، سواء كان كبيراً أو صالحاً أو عالماً ''[1] .

ويقول أيضاً : '' وقول هؤلاء كفر صريح ، وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر ، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الأمر والنهي لازم لكل عبد ما دام عقله حاضراً إلى أن يموت ، لا يسقط عنه الأمر والنهي ، لا بشهوده القدر ، ولا بغير ذلك ، فمن لم يعرف ذلك عرفه ، وبين له ، فإن أصر على اعتقاد سقوط الأمر والنهي فإنه يقتل ''[2] .

ثانياً : نقض شيخ الإسلام رحمه الله تمسكهم بالآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[3]، فقد بين رحمه الله أن اليقين هنا هو الموت وما بعده وهو نظير قول الكفار كما في آية أخرى : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾[4] وهو قول السلف في هذه الآية .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/٢٧٠-٢٧١) .
(٢) العبودية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/١٦٦-١٦٧) .
(٣) سورة الحجر آية رقم (٩٩) .
(٤) سورة المدثر آية رقم (٤٦-٤٧) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " فأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[١]، فهي عليهم لا لهم ، قال الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعمل المؤمنين أجلا دون الموت[٢] ، وقرأ قوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[٣]، وذلك أن اليقين هنا الموت وما بعده باتفاق علماء المسلمين ، وهؤلاء من المستيقنين وذلك مثل قوله: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾[٤] إلى قوله ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾[٥]، فهذا قالوه وهم في جهنم ، وأخبروا أ م كانوا على ما هم عليه من ترك الصلاة والزكاة والتكذيب بالآخرة والخوض مع الخائضين حتى أتاهم اليقين ، ومعلوم أ م مع هذا الحال لم يكونوا مؤمنين بذلك في الدنيا ، ولم يكونوا مع الذين قال الله فيهم: ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾[٦]، وإنما أراد بذلك أنه أتاهم ما يوعدون وهو اليقين .

ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما توفي عثمان بن مظعون[٧] وشهدت له بعض النسوة بالجنة فقال لهم النبي ﷺ : « **وما يدريك ؟ إني والله - وأنا رسول الله - ما أدرى ما يفعل** بي » ، وقال: « **أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه** »[٨] أي:

---

(١) سورة الحجر آية رقم (٩٩) .

(٢) رواه عبدالله بن المبارك في الزهد (ص٧) .

(٣) سورة الحجر آية رقم (٩٩) .

(٤) سورة المدثر آية رقم (٤٢-٤٣) .

(٥) سورة المدثر آية رقم (٤٥-٤٧) .

(٦) سورة البقرة آية رقم (٤) .

(٧) عثمان بن مظعون بن حبيب القرشي الجمحي ، أسلم قديماً ، وهاجر الهجرتين ، وتوفي في السنة الثانية بعد شهوده بدراً ، وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين . انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٠٠/٣) ، الاستيعاب لابن عبدالبر (٨٥/٣) ، الإصابة لابن حجر (٤٥٧/٢) .

(٨) رواه البخاري في التعبير ، باب رؤيا النساء (٢٥٧٠/٦) ح(٦٦٠١) بنحوه .

أتـاه ما وعده وهو اليقين .

ويقين: على وزن فعيل ، سواء كان فعيل بمعنى مفعول ، أي الموت كالحبيب والنصيح والذبيح ، أو كان مصدراً وضع موضع المفعول ، كقولـه: ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾[(١)]، وقوله: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾[(٢)]، وقوله: ضرب الأمير ، وغفر الله لك ، قيل: وقولهم قدرة عظيمة وأمثال ذلك ، فإنه كثير فعلى التقديرين المعنى لا يختلف بل اليقين هو ما وعد به العباد من أمـر الآخرة وقولـه: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[(٣)]، كقولك: يأتيك ما توعد ''[(٤)] .

ثالثاً : نقض شيخ الإسلام رحمه الله تمسكهم بقصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، وقرر أن استدلالهم بذه القصة لا يصح على كلا الوجهين .

أما الوجه الأول : وهو دعواهم أن الخضر كان مشاهداً للحقيقة الكونية ، ولذا جاز له مخالفة الشريعة ، فقد نقده رحمه الله بعدة طرق منها :

أولاً : أن هذا القول باطل ، فهو من أعظم النفاق والكفر ، وحقيقته معارضة الشرع بالقدر ، والاحتجاج بالقدر على الشرع ، وهو من جنس قول المشركين الذين أكذبم الله تعـالى في دعواهم ، وأخبر أنـه ليس عندهم إلا الظنون الكاذبـة قـال تعـالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ

(١) سورة لقمان آية رقم (١١) .
(٢) سورة النحل آية رقم (١) .
(٣) سورة الحجر آية رقم (٩٩) .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٤١٨-٤١٩) .

فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[1] .

ثانياً : أن حقيقة هذا القول احتجاج بالقدر على المعاصي ، والاحتجاج بالقدر على المعاصي باطل لأمور منها:

١- أن المحتج بالقدر " لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة إذا احتج بها في ظلمه إياه ، أو ترك ما يجب عليه من حقوقه ، بل يطلب منه ما له عليه ، ويعاقبه على عدوانه عليه "[2] .

٢- أن الاحتجاج بالقدر " من جنس شبه السوفسطائية[3] التي تعرض في العلوم ، فكما أنك تعلم فسادها بالضرورة - وإن كانت تعرض كثيرا لكثير من الناس ، حتى قد يشك في وجود نفسه ، وغير ذلك من المعارف الضرورية - فكذلك هذا يعرض في الأعمال حتى يظن أنها شبهة في إسقاط الصدق والعدل الواجب وغير ذلك ، وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك ، ولكن تعلم القلوب بالضرورة أن هذه شبهة باطلة ، ولهذا لا يقبلها أحد من أحد عند التحقيق ، ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله ، فإذا كان معه علم بأن ما فعله هو المصلحة ، وهو المأمور به ، وهو الذي ينبغي فعله ، لم يحتج بالقدر ، وكذلك إذا كان معه علم بأن الذي لم يفعله ليس عليه أن يفعله ، أو ليس بمصلحة ، أو ليس هو مأمورا به ، لم يحتج بالقدر ، بل إذا كان متبعا لهواه بغير علم احتج بالقدر "[4] .

٣- أنه يلزم على جواز الاحتجاج بالقدر والإرادة العامة لوازم فاسدة ، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم ، ومن هذه اللوازم ما يلي:

(١) سورة الأنعام آية رقم (١٤٨) .
(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/٥٥) .
(٣) جماعة من فلاسفة اليونان زعيمهم بروتاجوراس ، ومذهبهم يقوم على أنه ليس هناك وجود خارجي مستقل عما في أذهاننا ، فما يظهر للشخص أنه الحقيقة يكون هو الحقيقة له ، ومن هنا فمن الممكن أن تختلف الأشياء باختلاف الناظرين إليها . انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (٣/١٧٣) ، تاريخ الفلسفة اليونانية لـ د. ماجد فخري (ص ٥٤) ، ربيع الفكر اليوناني لعبدالرحمن بدوي (ص ١٧٢) . وقد تقدم تعريف السفسطة : (ص ٣٢٢) .
(٤)منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/٥٥) .

أ- أن لا ينكر أحـد على أحد ظلمه له ، وشتمه إياه ، وأخذ ماله ، وإفساد نسائه ، وضربه عنقه ، وإهلاكه الحرث والنسل .

ب- أن لا يعاقَب أحد على ذنبه ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة .

ج- أن احتجاج إبليس وسائر الكفرة على كفرهم صحيح .

د- أن إبليس وفرعون وسائر الكفرة الذين أهلكهم الله بذنوبم معذورون [1].

ثالـثاً : أنـه لو كان ما يدعونه هو السـر في قصة الخضر لبين الخضر ذلك لموسى عليهما السلام ، ولقال له: إني كنت مشـاهداً للإرادة والقدر ، ولكن الأمر ليس كذلك ، ولهذا ذكر الخضر أسباباً شرعية تبيح له ما فعله .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله مجيباً عن احتجاج الصوفية بالقدر : '' وهو من عظيم الجهل والضلال ، بل من عظيم النفاق والكفر ، فإن مضمون هذا الكلام أن من آمن بالقدر وشهد أن الله رب كل شيء ، لم يكن عليه أمر ولا ي ، وهذا كفر بجميع كتب الله ورسله وما جاءوا به من الأمر والنهي ، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾[2]، قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[3]، ونظير هذا في سورة النحل ، وفى سورة يس: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[4]، وكذلك في سورة الزخرف ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ

---

(١) انظر فيما سبق : شرح دعوة ذي النون - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٦٣/٨-٢٦٥) .
(٢) سورة الأنعام آية رقم (١٤٨) .
(٣) سورة الأنعام آية رقم (١٤٨) .
(٤) سورة يس آية رقم (٤٧) .

شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ ۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾[1].....

وأيضاً : فإن موسى عليه السلام كان مؤمنا بالقدر ، وعالما به ، بل أتباعه من بنى إسرائيل كانوا أيضا مؤمنين بالقدر ، فهل يظن من له أدنى عقل أن موسى طلب أن يتعلم من الخضر الإيمان بالقدر ، وأن ذلك يدفع الملام ، مع أن موسى أعلم بالقدر من الخضر بل عموم أصحاب موسى يعلمون ذلك .

وأيضاً: فلو كان هذا هو السر في قصة الخضر بين ذلك لموسى وقال: إني كنت شاهداً للإرادة والقدر ، وليس الأمر كذلك ، بل بين له أسبابا شرعية تبيح له ما فعل ''[2] .

وأما الوجه الثاني من استدلالهم بقصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، وهو قولهم إن في الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية كما ساغ للخضر الخروج عن شريعة موسى عليهما السلام ، وأنه قد يكون للولي مكاشفة ومخاطبة يستغني بها عن متابعة الرسول ﷺ في عموم أحواله أو في بعضها ، فهذه الشبهة قد نقضها شيخ الإسلام رحمه الله من عدة أوجه منها :

أولاً : أكد رحمه الله على عموم رسالة النبي محمد ﷺ للثقلين الجن والإنس ، وأن الأنبياء فضلاً عن غيرهم لو كانوا أحياء لوجب عليهم متابعة النبي ﷺ ، فكيف يقال: إنه يسوغ الخروج عن شريعة النبي ﷺ .

بخلاف رسالة موسى عليه السلام ، فهي إلى بني إسرائيل خاصة ، ومن هنا فالخضر غير مأمور باتباعها .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن رسالة محمد

---

(١) سورة الزخرف آية رقم (٢٠) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٤٢٠-٤٢٢) .

ابـن عبد الله ﷺ لجميع الناس ، عربهم وعجمهم وملوكهم وزهادهم وعلمائهم وعامتهم ، وأنـها باقـية دائمـة إلى يوم القيامة ، بل عامة الثقلين الجن والإنس ، وأنه ليس لأحد من الخلائـق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين ، وما سنه لهم من فعـل المأمورات ، وترك المحظورات ، بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياء لوجب عليهم متابعته ومطاوعته ''[١] .

ويقـول أيضاً : '' ومما يبين الغلط الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة : أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا إلى الخضر ، ولا أوجب الله على الخضـر متابعته وطاعته ، بل قد ثبت في الصحيحين أن الخضر قال لـه: ((**يا موسى ، إني علـى علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه**))[٢] ، وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة ''[٣] .

ويقول أيضاً: '' فدعوة محمد ﷺ شاملة لجميع العباد ، ليس لأحد الخروج عن متابعته وطاعـته ، ولا اسـتغناء عن رسالته كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته مسـتغنيا عنه بما علمه الله ، وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد ﷺ : إني على علـم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، ومن سوغ هذا أو اعتقد أن أحداً من الخلق الزهاد والعـباد أو غيرهـم لـه الخـروج عن دعوة محمد ﷺ ومتابعتـه ، فهو كافر باتفاق المسـلمين ''[٤] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٢٢/١١-٤٢٣) .

(٢) رواه الـبخاري في العلم ، باب ما يستحب للعالم إذا سئل : أي الناس أعلم ؟ فليكل العلم إلى الله (٥٧/١) ح(١٢٢) ، ومسـلم في الفضـائل باب من فضائل الخضر عليه السلام (١٨٤٩/٤) ح(٢٣٨٠) كلاهما عن ابن عباس بنحوه .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٢٥/١١) .

(٤) المصدر السابق (٤٢٥/١١-٤٢٦) .

ثانياً : أن الخضر في حقيقة الأمر لم يخرج عن شريعة موسى عليهما السلام ، ولما بين الخضـر لموسى الأسباب التي لأجلها فعل ما فعل وافقه موسى ولم ينكر عليه ، ولو كان ما فعله الخضر غير جائز لما وافقه موسى عليهما السلام .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة ، ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل وافقه موسى ولم يختلفا حينئذ ، ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى لما وافقه "[1] .

ثالثاً : أن كل أفعال الخضر لم تخرج عن الشريعة الإسلامية ، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله ما فعله الخضر بالتفصيل ، وبين أن تلك الأفعال جائزة في الشريعة ، وذكر لها أمثلة متعددة ، فمن ذلك :

١- قضـية خرق السفينة مثلها مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص ، وكان أحدهما يعلـم طيب نفسه بالتصرف في ماله ، إما بإذن لفظي أو غيره ، فيتصرف ، فهذا مباح في الشريعة ، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف .

فالخضـر كان يعلم أن أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك خرقها ، فخرقها لئلا يأخذها ذلك الملك ، وخرقها خير من انتزاعها منهم .

ولهـا نظائر حدثت في زمن النبي ﷺ ، مثل حديث الشاة التي أصابها الموت فذبحتها امـرأة بـدون أذن أهلها ، فسألوا النبي ﷺ عنها فأذن لهم في أكلها ، ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح ؛ لأنه كان مأذوناً فيه عرفاً ، والإذن العرفي كالإذن اللفظي .

٢- قتل الغلام كان من باب دفع الصائل على أبويه ، فقتله لعلمه بأنه كان يفتنهما

(١) المصدر السابق (٤٢٦/١١) .

عن دينهما ، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين ، بل يجوز قتلهم لدفع الصول عن الأموال ، وثبت عن ابن عباس لما سأل عن قتل الصبيان قال: (إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتله ، وإلا فلا تقتلهم)[(١)].

٣- بناء الجدار ، وهذا فيه أنه ترك أخذ الجعل على بناء الجدار مع جوعهم ، وقد بين الخضر أن أهله فيهم من الشيم وصلاح الولد ما يستحقون به التبرع[(٢)] .

والمقصود أنه ليس في قصة الخضر ما يسوغ مخالفة شريعة الرسول ﷺ ، فكل ما فعله جائز في الشرع .

وبـهـذا يتم نقض شيخ الإسلام رحمه الله لشبه الطائفة الثالثة من الصوفية ، وبه ينتهي الكلام على شبه الصوفية ، وانتقل بعد هذا إلى فرقة أخرى هي المعتزلة .

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير ، باب النساء الغازيات يرضخ لهن ، والنهي عن قتل صبيان أهل الحرب (١٤٤٦/٣) ح(١٨١٢) بنحوه .

(٢) انظر فيما سبق: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٢٦/١١-٤٢٨) .

الفصل الثالث

السببية عند المعتزلة وموقف ابن تيمية منهم

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهبهم .

المبحث الثاني : بيان شبهتهم .

المبحث الثالث : رد شيخ الإسلام عليهم .

تمهيد

المعتـزلة فرقة كلامية خرجت في أوائل القرن الثاني ، وسلكت منهجاً عقلياً في بحث العقائد الإسلامية(١).

وكانـت بداية خروج هذه الفرقة في البصرة ، فقد اختلف الناس في مسألة مرتكب الكـبيرة ما حكمه في الدنيا والآخرة ، وكثر فيها الجدل والنقاش بين الناس ، فدخل رجل علـى الحسن البصري فقال: يا إمام الدين ، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج . وجماعة يرجئون أصـحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا ؟

فتفكـر الحسـن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء(٢): أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ، ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافـر ، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل ، فسمى هو وأصحابه معتزلة(٣).

---

(١) انظر: دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبدالحميد (ص ١٠٣) ، المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق (ص ١٣-١٤) .

(٢) أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال ، رأس المعتزلة ، ولد سنة ٨٠ هـ ، ونشأ بالبصرة ، ومن المعتزلة طائفة تنسب إلـيه تسمى ((الواصلية)) وهو الذي نشر مذهب الاعتزال في الآفاق ، توفي سنة ١٣١ هـ . انظر : الفهرست للنديم (ص ٢٠٢) ، المنتظم لابن الجوزي (٢٩٢/٧) ، الأعلام للزركلي (١٠٨/٨) .

(٣) الملل والنحل للشهرستاني (٤٨/١) .

هذه بداية نشأة المعتزلة ، وأشهر ما قيل في سبب تسميتها بذا الاسم ، وهناك أقوال أخرى ليس هذا محل الإفاضة في ذكرها[١].

والمعتـزلة فرقة وتضم في داخلها فرقاً عديدة ، وصل تعدادها عند بعض علماء الفرق إلى عشـرين فـرقة أو أكثر[٢] ، يجمعهم القول بالأصول الخمسة ، وفيما بينهم اختلافات كثيرة في غيرها .

أصولهم الخمسة :

الأول : التوحيد ، ويتضمن إثبات الأسماء ونفي الصفات عن الله تعالى ، فيقولون: هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته ، لا بعلم ولا قدرة ولاحياة .

ويتضمن أيضاً القول بخلق القرآن ، ونفي رؤية الله تعالى في الآخرة .

الـثاني: العدل ، ويتضمن نفي خلق الله تعالى لأفعال العباد ، وأنه يجب على الله تعالى رعاية مصالح العباد ، والقول بالحسن والقبح الذاتي للأفعال .

الـثالث : الوعد والوعيد ، ويتضمن نفي الشفاعة عن أهل الكبائر ، وأن المؤمن إذا خـرج مـن الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض ، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، وإن كان عذابه أخف من الكفار[٣].

---

(١) انظـر: التنبيه والرد للملطي (ص ٣٦) ، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبدالحميد (ص ١٠٤) ، المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق (ص ١٣-٢١) .

(٢) انظر : الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١١٤) .

(٣) انظر فيما سبق: المختصر في أصول الدين للقاضي عبدالجبار المعتزلي - ضمن رسائل العدل والتوحيد (١٩٨/١ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٦٢) ، الملل والنحل للشهرستاني (٤٤/١-٤٥) .

الرابع: الم لة بين الم لتين ، ويتضمن أن مرتكب الكبيرة في الدنيا فاسق ، لا مؤمن ولا كافر بل في م لة بين الم لتين(١).

الخامس : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويتضمن وجوب الخروج على السلطان الجائـر بحسب الإمكان والقدرة ، ووجوب قتال من يخالفهم في الاعتقاد ، ولا فرق عندهم بين قتال الفاسق وقتال الكافر(٢)(٣).

هذه هي الأصول الخمسة عند المعتزلة التي يوالون من قال با ، ويتبرؤون ممن خالفها بل يكفرونه(٤)، ولا يستحق أحد اسم الاعتزال عندهم حتى يجمع القول با(٥).

بعد التعريف الموجز بالمعتزلة أشرع في المقصود من البحث وهو رأي المعتزلة في السببية والرد عليهم ، وسيكون الكلام عنهم في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : السببية عند المعتزلة .

المبحث الثاني: شبه المعتزلة .

المبحث الثالث: رد شيخ الإسلام عليهم .

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (ص ٦٩٥) ، الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١١٥) .

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (٤٦٦/١) .

(٣) للاسـتزادة في أصـول المعتزلة انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ، والمعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق ، آراء المعتزلة الأصولية دراسة وتقويم لـ د. علي الضويحي (ص ٧٩ – ١٣٥) .

(٤) انظـر: الكيلانية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٨٠/١٢) ، الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢٦/١٣) .

(٥) انظر: الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد للخياط (ص ١٨٨) .

المبحث الأول

تقرير مذهب المعتزلة

في السببية

مذهب المعتزلة في السببية

يتجلـى رأي المعتـزلة في قضـايا السببية والأسباب في مجموعة من المسائل ، يندرج معظمهـا في باب العدل لدى المعتزلة ، وهو أحد الأصول الخمسة التي يقوم عليها مذهب الاعتزال .

وتلك المسائل تشكل بمجموعها مذهب المعتزلة في السببية ، ويمكن إيجازها في الآتي :

١- مسألة خلق الأفعال .

٢- مسألة السببية الطبيعية .

٣- مسألة الحسن والقبح في الأفعال .

أولاً : مسألة خلق الأفعال:

قبل الشروع في بيان مذهب المعتزلة في خلق الأفعال أشير قبل ذلك إلى وجه ارتباط هذه المسألة بالسببية .

العلاقة في مذهب أهل السنة والجماعة بين العبد وبين فعله المباشر علاقة سببية ، بمعنى أن العبد سبب في خلق الله تعالى للفعل ، فالله تعالى هو الخالق وحده ، والعبد سبب في ذلك الخلق فتوجد علاقة سببية بين العبد والفعل المباشر .

أما في الفعل المتولد وهو الخارج عن محل القدرة ، فالعبد سبب في الفعل لكن بالاشتراك مع أسباب أخرى ، فهو سبب ضمن جملة من الأسباب يحصل الفعل نتيجة عنها[١] .

(١) انظر تفصيل مذهب أهل السنة والجماعة (ص٢٢٠) .

أما المعتزلة فالأمر عندهم على غير هذا النحو ، فهم وإن كانوا يقسمون الأفعال إلى قسمين الأفعال المباشرة ، والأفعال المتولدة إلا أ م لا يقولون بالسببية فيهما ، بل لهم تفصيل آخر مختلف .

فالأفعال المباشرة كالأفعال العادية من قيام وقعود ومشي ونحوها مما يقوم في محل القدرة فهذه ينفون فيها السببية بالمعنى المعلوم لدى أهل السنة والجماعة[١] ، ويثبتون نوعاً آخر من السببية يتضمن جعل العبد خالقاً لفعله مستقلاً بإحداثه .

يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي[٢] : '' فإن قال قائل : أتقولون في أفعال العباد إن الله عز وجل لم يخلقها ؟ قيل له : نعم ، بل هي من جهتهم واقعة حادثة ''[٣].

ويضع عنواناً في موضع آخر فيقول : '' فصل في خلق الأفعال ، والغرض به الكلام في أن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم ، وأ م المحدثون لها ''[٤].

أما في الأفعال المتولدة وهي ما كان الفعل فيها خارجاً عن محل القدرة كحصول الشبع بعد الأكل ، ووصول السهم بعد الرمي ونحوها فهذه قد اختلفوا فيها على أقوال:

---

(١) العبد عند أهل السنة والجماعة سبب في وجود الأفعال ، والله تعالى خالق لها .

(٢) أبو الحسين عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار الهمداني الأستراباذي شيخ المعتزلة في وقته ،كان في أول أمره أشعرياً ثم ناظر المعتزلة وتتلمذ على جماعة منهم فصار معتزلياً ، ولي قضاء الري ، له مصنفات كثيرة ، مات سنة ٤١٥ هـ . انظر: طبقات المعتزلة لابن المرتضى (ص١١٢) ، لسان الميزان لابن حجر (٣٨٦/٣) ، الأعلام للزركلي (٢٧٣/٣).

(٣) المختصر في أصول الدين للقاضي عبد الجبار - ضمن رسائل العدل والتوحيد (٢٣٨/١) .

(٤) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٣٢٣) .

الأول: أ م جعلوها أفعالاً لا محدث لها ، وقد قال بذا ثمامة بن أشرس[١] من المعتزلة ، وزعم أ ا تضاف إلى الإنسان على ا از لا الحقيقة[٢].

يقول القاضي عبدالجبار : '' فأما ثمامة بن أشرس فإنه جعل هذه الحودات ما عدا الإرادة حدثاً لا محدث له ''[٣].

الثاني: أن الفاعل هو الله تعالى بما جعله من طبائع في الكائنات ، بمعنى أن الله سبحانه طبع الحجر طبعاً إذا دفعه دافع أن يذهب ، والمتولدات من هذا الباب ، وهذا قول النظام[٤] ومعمر[٥] فكأ م يجعلو ا من باب السببية الطبيعية[٦].

يقول القاضي عبدالجبار في حكاية هذا القول وأصحابه : '' وفيهم من قال: إن هذه الحوادث التي تحدث في الجمادات فإ ـا تحصل فيها بطبع المحل وهو النظام ، وإليـه ذهب معمر ''[٧].

---

(١) ثمامة بن أشرس ، أبو معن النميري ، أحد رؤوس المعتزلة البصريين ، اتصل بالرشيد ثم بالمأمون ، له مقالات انفرد با عن المعتزلة ، وإليه تنسب فرقة الثمامية من المعتزلة ، مات سنة ٢١٣ هـ . انظر: تاريخ بغداد للخطيب (١٤٥/٧) المنتظم لابن الجوزي (٢٥٤/١٠) ، الملل والنحل للشهرستاني (٧٠/١) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠٣/١٠) .

(٢) انظر : مقالات الإسلاميين للأشعري (٤٠٧/٢) .

(٣) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (ص ٣٨٨) .

(٤) إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري ، أبو إسحاق النظام ، من رؤوس المعتزلة متهم بالزندقة، تبحر في علوم الفلسفة واطلـع على أكثر ما كتبه رجالها ، انفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت (النظامية) ، مات سنة ٢٣١ هـ . انظر: الفهرست للنديم (ص ٢٠٥) ، الملل والنحل للشهرستاني (٥٣/١) ، لسان الميزان لابن حجر (٦٧/١) .

(٥) معمـر بـن عمرو وقيل: بن عباد السلمي مولاهم العطار المعتزلي ، أبوالمعتمر ، أحد شيوخ المعتزلة ، له مقالات انفرد با عن المعتزلة ، وإليه تنسب فرقة المُعمرية ، مات سنة ٢١٥ هـ . انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٦٥/١) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٤٦/١٠) ، لسان الميزان لابن حجر (٧١/٧) .

(٦) مقالات الإسلاميين للأشعري (٤٠٤/٢) .

(٧) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (ص ٣٨٧) .

الثالث: أن الفاعل للمتولدات هو الله عز وجل ، والإنسان لا يفعل إلا في نفسه فقط وإلى هذا ذهب صالح قبة[(١)(٢)].

الرابع: أن جميع أفعال العباد المباشرة والمتولدة من طبع الإنسان ، وليس للعبد فعل اختياري إلا الإرادة الموجودة في قلبه فقط ، وهذا قول الجاحظ[(٣)].

يقول القاضي عبدالجبار عن المتولدات : '' ففي الناس من علقها بالطبع على ما قاله أبو عثمان الجاحظ في أفعال الجوارح والمعرفة ، ولم يجعل الواقع عند الاختيار سوى الإرادة دون الحركات وما شاكلها ''[(٤)].

---

(١) صالح قبة بن صبيح بن عمرو ، أحد شيوخ المعتزلة ، ذكره القاضي عبدالجبار في طبقات المعتزلة في الطبقة السابعة مـن شيوخ المعتزلة ، كما نقل ذلك عنه ابن المرتضى ، وقال: إن له كتبا كثيرة ، وقد خالف المعتزلة في مجموعة من المسائل منها المسألة المذكورة ، ولم أقف له على ترجمة مفصلة ، لكن جاء في سبب تسميته بصالح قبة أنه قيل له: ما تنكر أن تكون في هذا الوقت بمكة جالساً في قبة قد ضربت عليك ، وأنت لا تعلم ذلك لأن الله سبحانه لم يخلق فيك العلم به ، وأنت صحيح سليم ، قال: لا أنكر ؛ فلقب بقبة . وقد عده الشهرستاني في الملل والنحل (١٣٨/١) ضمن رجـال الخوارج. انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (٤٠٦/٢) ، طبقات المعتزلة لأحمد بن يحيى بن المرتضى (ص ٧٣ ، ١٦٤) .

وقـد غلط محقق كتاب المحيط بالتكليف (ص٤٣٩) في ترجمة هذا الرجل ، فجعله ابن قبة الشيعي ، وغلط مرة أخرى في اسم الشيعي أيضاً فجعله أبو جعفر بن محمد بن قبة ، بينما هو أبو جعفر محمد بن قبة ، وتابعه على هذا الخطأ محقق كـتاب المنـية والأمل (ص ٦٢) ، والصواب أ ـما شخصان ، الأول اسمه صالح قبة وهو معتزلي ، والثاني يقال له أبو جعفر محمد بن قبة وهو من الشيعة الإمامية كما ذكره الشهرستاني في الملل والنحل (١٩٠/١) وله ترجمة في الفهرست للنديم (ص ٢٢٥) ضمن متكلمي الشيعة .

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (٤٠٦/٢)

(٣) عمـرو بن بحر الجاحظ ، أبو عثمان البصري المعتزلي ، كان رأساً في الكلام والاعتزال ، انفرد عن المعتزلة بآراء خاصـة إلـيه تنسب فرقة الجاحظية ، مات سنة ٢٥٠ هـ . انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٦٠/١) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٢٦/١١) ، شذرات الذهب لابن العماد (١٢١/٢) .

(٤) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (ص ٣٨٧) . وانظر: الفصل لابن حزم (٣٢/٣) .

الخامس : التفصيل في المتولدات ، فما تولد عن فعل العبد مما يعلم كيفيته فهو فعله ، مثل الألم الحادث عن الضرب ، وذهاب الحجر عند دفعه ، وتصاعده عند رمية الرامي به صعداً ، وكالصوت الحادث عن اصطكاك الشيئين .

وما تولد عن فعل الإنسان ولا يعلم كيفيته فهو من فعل الله عز وجل كاللذة والألوان والطعوم والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والجبن والشجاعة والجوع والشبع والعلم الحادث في غيره عند فعله ونحوها وهذا قول أبي الهذيل العلاف(١) المعتزلي(٢).

السادس : تفصيل آخر في المتولدات ، فما تولد عن فعل العبد مما يمكنه تركه والامتناع عنه متى أراد فهو فعله ، وما سوى ذلك مما لا يقدر على الامتناع منه متى أراد فليس بفعله(٣).

وهذه القول فيه ربط للمتولدات بالإرادة ، فمتى سيطرت الإرادة على المتولد فهو فعل العبد ، ومتى خرج عن سيطرة إرادة العبد فهو ليس من فعله .

والمتولدات في الحقيقة كلها خارجة عن محل قدرة العبد فلا يسيطر عليها ، وعلى هذا التقدير فهذا التفصيل لا فائدة له ولا يترتب عليه شيء .

---

(١) محمد بن هذيل بن عبيد الله البصري ، شيخ المعتزلة ، ورأس البدعة ، انفرد عن المعتزلة بآراء خاصة ، وإليه تنسب فرقة الهذيلية ، كان يقول بفناء حركات أهل النار ، مات سنة ٢٢٦ أو ٢٣٥ هـ . انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٤٩/١) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٤٢/١٠) ، شذرات الذهب لابن العماد (٨٥/٢) .

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (٤٠٢/٢-٤٠٣)

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٠٨/٢) .

السابع: أ ا من فعل العبد كالأفعال المباشرة تماماً ، فيكون العبد خالقاً لها أيضاً ، وهذا قول أكثر المعتزلة ، وقد بوب على ذلك القاضي عبدالجبار فقال: '' باب في أن المتولد كالمباشر في أنه فعل العبد ''[1].

ونخلص من هذا بنتيجة هي أن المعتزلة ليسوا متفقين على قول واحد في مسألة المتولدات وفاعلها ، لكن أكثرهم يجعلو ا كالأفعال المباشرة فيكون العبد عندهم خالقاً لها .

ثانياً : مسألة السببية الطبيعية :

من قضايا السببية عند المعتزلة مسألة السببية الطبيعية ، وهي ما تتصف به الأجسام من صفات وطبائع ، كالإحراق للنار ، والتبريد للثلج ونحوها .

والمعتزلة في هذا الباب يثبتون ما في الأجسام من قوى وطبائع ، فيقرون بأن الأكل يشبع والماء يروي ، والسيف يقتل ، والنار تحرق ونحوها .

يقول الخياط[2] في رده على ابن الراوندي[3] : '' وأما ما حكيته عن إبراهيم[4] أنه

---

(١) المحيط بالتكليف للقاضي عبدالجبار (ص ٣٨٠) .

(٢) أبـو الحسـين ، عبدالرحيم بن محمد بن عثمان الخياط ، شيخ المعتزلة البغداديين ، وإليه تنسب فرقة الخياطية من المعتـزلة كـان رئيساً يتقدم على سائر المتكلمين في زمانه ، توفي سنة ٣٠٠ هـ تقريباً . انظر: المنية والأمل للقاضي عبدالجـبار (ص ٧٢) ، الأنساب للسمعاني (٤٢٧/٢) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢٠/١٤) ، لسان الميزان لابن حجر (٨/٤) .

(٣) أحمـد بن يحيى بن إسحاق ، أبو الحسين الراوندي ، ملحد كان يلازم الرافضة والزنادقة ، له مصنفات كفرية ، مات سنة ٣٠٠ أو ٣٠١ هـ . انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٩٤/١) ، البداية والنهاية لابن كثير (٣٤٧/١٠) شذرات الذهب لابن العماد (٢٣٥/٢) .

(٤) إبراهيم هو النظام .

كان يحيل القول بأن الله يقدر أن يخترع البرد مسخناً ، والحر مبرداً ، فهذا شيء أهل التوحيد كلهم يوافقونه عليه ''[١] .

فمن خلال هذا النص يتبين لنا أن المعتزلة يقرون بما في الأجسام من صفات وطبائع وتأثيرات ، فالبارد يؤثر في حصول البرودة ، والحار يؤثر في حصول الحرارة ، ولا يمكن أن ينقلب الأمر ، فيؤثر البارد وينتج الحار ، أو يؤثر الحار فينتج البارد ، وهذا يدل على أ م يثبتون ما في الأجسام من صفات وطبائع وتأثيرات .

وقد خالف صالح قبة المعتزلي أصحابه في هذه المسألة ، وتبنى رأياً أقرب ما يكون إلى رأي نفاة الأسباب ، فقد قرر أنه يجوز أن يحرق الله إنساناً بالنار ولا يألم ، بل يخلق فيه اللذة ويجوز أن تجتمع النار والحطب أوقاتاً كثيرة ولا يخلق الله احتراقاً ، ويجوز أن توضع الجبال على الإنسان ولا يجد ثقلها ، ويجوز أن يخلق الله سكون الحجر الصغير عند دفع الدافع له ولا يخلق إذهابه ، ولو دفعه أهل الأرض كلهم جميعاً ، ويجوز أن يضع الله الإدراك مع العمى والعلم مع الموت ، وأن توضع الجبال على الإنسان فلا يجد ثقلها[٢] .

وإنما قال هذا القول لأنه لا يثبت أي طبيعة أو صفة موجودة في الجسم ، فالله تعالى يخلق الآثار والنتائج عند ملاقاة الأسباب ، ومن الجائز أن لا يخلق الله الآثار عند ملاقاة الأسباب ، ومن أجل ذلك قال بتلك المقالات ، والتزم هذه اللوازم ، وهذا عين مذهب الأشاعرة نفاة الأسباب ، كما سيأتي شرحه في الفصل الخاص بذلك .

والجدير بالذكر هنا أن المعتزلة في باب الطبيعيات يقرون بإثبا ا ، وفي باب التولد فأكثرهم يجعلون الفعل والتأثير للعبد وحده وينفون تأثير بقية الأسباب ، بل ولا يجعلون لها أي مشاركة في الفعل ، وهذا تناقض منهم في باب السببية الطبيعية .

---

(١) الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد للخياط (ص ٩١) .

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (٤٠٦/٢) .

ثالثاً : مسألة الحسن والقبح :

من مسائل السببية عند المعتزلة مسألة اتصاف الأفعال بالحسن والقبح ، والكلام في هذا الباب كالكلام في صفات الجمادات ، فكما أن الجمادات تتصف بالصفات والطبائع ، فالإحراق من صفة النار وطبيعتها ، والتبريد من صفة الثلج وطبيعته ، فكذلك الأفعال تتصف بالصفات من الحسن والقبح ، ومن أجل هذا أدرجت مسألة الحسن والقبح في باب السببية عند المعتزلة .

وقد قسمت المعتزلة الأفعال باعتبار إدراك الحسن والقبح فيها عقلاً إلى قسمين(١):

الأول: أفعال لا يعلم حسنها وقبحها ، لا ضرورة ولا نظراً على وجه التفصيل إلا بعد مجيء الشرع ، كحسن صلاة المغرب ثلاث ركعات والفجر ركعتين ونحوها من تفاصيل الشريعة ، فهذه لا يترتب على مخالفتها شيء قبل مجيء الشرع ؛ لأنه لا يدرك حسنها وقبحها بالعقل تفصيلاً .

يقول القاضي عبدالجبار : '' فقد ذكرنا أن وجوب المصلحة وقبح المفسدة متقرران في العقل ؛ إلا أنا لما لم يمكننا أن نعلم عقلاً أن هذا الفعل مصلحة ، وذلك مفسدة ، بعث الله تعالى إلينا الرسل ؛ ليعرفونا ذلك من حال هذه الأفعال ، فيكونوا قد جاءوا بتقرير ما قد ركبه الله تعالى في عقولنا ، وتفصيل ما تقرر فيها ''(٢).

وفي هذا النص مسألة أخرى مهمة مرتبطة بصفات الأفعال ، وهي أثر الشرع على هذه الأفعال ، هل هو الذي أكسبها الحسن والقبح أم هو مجرد كاشف عن صفا ا ؟

---

(١) قـد أشـار القاضـي عبدالجبار إلى هذا التقسيم في المحيط بالتكليف (ص ٢٥٤) فقال: '' بل الفرق بيننا وبين المخالفين لأ م جعلوه موجباً ومنعنا من ذلك ، وهم قصروا القبيح على النهي ، ونحن قسمنا الحال في المقبحات فقلنا : إن فيها ما يعرف بالعقل ، وفيها ما يعرف بالنهي '' .
(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (ص ٥٦٥) .

وقد ذهبت المعتزلة إلى نفي أي تأثير للشرع على هذه الأفعال ، فالشرع مجرد كاشف عن صفات هذه الأفعال ، وحسنها وقبحها متقرر أصلاً في العقل ، ولكن العقل لا يمكنه معرفة التفاصيل ، فمن أجل ذلك جاءت الرسـل لتعريف الناس بتفاصيل ما هو مركب في عقول الناس .

يقول القاضي عبدالجبار :" واعلم أن النهي الوارد عن الله عز وجل يكشف عن قبح القبيح ، لا أنه يوجب قبحه ، وكذلك الأمر يكشف عن حسنه ، لا أنه يوجبه "[(١)].

القسم الثاني: أفعال يعلم حسنها وقبحها بالعقل قبل مجيء الشرع كحسن الصدق والعدل والتوحيد ، وقبح الكذب والظلم والكفر ، وقد جعلوا العلم بذلك من جملة الضروريات التي لو لم تعلم بالعقل لكانت غير معلومة أبداً .

يقول القاضي عبدالجبار: " فصل في بيان القبائح وطريق معرفتها ، واعلم أن الطريق إلى معرفة أحكام هذه الأفعال من وجوب وقبح وغيرهما هو كالطريق إلى معرفة غير ذلك ، ولا يخلو : إما أن يكون ضرورياً أو مكتسباً ، والأصل فيه أن أحكام هذه الأفعال لا بد من أن تكون معلومة عن طريق الجملة ضرورة ، وهو الموضع الذي يقول: إن العلم بأصول المقبحات والواجبات والمحسنات ضروري ، وهو من جملة كمال العقل ، ولو لم يكن ذلك معلوماً بالعقل لصار غير معلوم أبداً ؛ لأن النظر والاستدلال لا يتأتى إلا ممن هو كامل العقل ولا يكون كذلك إلا وهو عالم ضرورة بهذه الأشياء ليتوجه عليه التكليف ، وإذا ادعينا العلم الضروري بقبح هذه القبائح فهو في الأفعال التي تتعلق بنا "[(٢)].

واختلفوا في تعليل الحسن والقبح في هذه الأفعال ، هل هو لذات الفعل ؟ أو لغيره ؟

---

(١) المحيط بالتكليف للقاضي عبدالجبار (ص ٢٥٤) .

(٢) المصدر السابق (ص ٢٣٤) .

فذهب قدماؤهم إلى أن الحسن والقبح ثابت لذات الفعل ، بمعنى أن الصدق حسن لذاته مطلقاً ، والكذب قبيح لذاته مطلقاً ، فالفعل يحسن ويقبح بصفته وعينه ، على أي وجه وقع فلا يؤثر ذلك عليه ، فالحسن حسن ، والقبيح قبيح ، وإلى هذا ذهب أبو القاسم البلخي(١) المعتزلي(٢).

وذهب آخرون إلى التفصيل : فالقبيح ربما قبح لأمر يرجع إليه ولصفة تخصه نحو الظلم والكذب وغيرهما ، وربما قبح لغيره وهو كونه داعياً إلى قبيح آخر ، فيقال: قَبح لأنه منع به واجب ، أو دعا إلى فعل قبيح .

والحسن ربما رجع إلى ذاته وصفة تخصه كالعدل والصدق ، وربما حسن لغيره وهو كونه داعياً إلى حسن آخر ، فيحسن لأنه تم به واجب ، أو دعا إلى فعل واجب(٣).

ومن هذا يتبين أ م متفقون على إثبات الحسن والقبح للأفعال قبل الشرع ، ومختلفون في تعليل ذلك .

وقد رتب أهل الاعتزال على هذه القضية قضية أخرى ، وهي المدح والثواب على الأفعال الحسنة ، والذم والعقاب على الأفعال القبيحة ، فقد قرروا أن من فعل فعلاً قبيحاً عقلياً فإنه مذموم مستحق للعقاب قبل مجيء الشرع ، والحجة لازمة له قبل بعثة الرسل ، والرسل هم لتنبيه الناس عن الغفلة ودفعهم للنظر في أدلة العقل ، ولإقامة الحجة بالشريعة التي لا يدرك علمها إلا بالرسل ، أما ما أدرك حسنه وقبحه بالعقل فقد قامت على الناس الحجة فيه بالعقل .

---

(١) عبدالله بن أحمد بن محمود أبو القاسم البلخي الكعبي المعتزلي ، كان من رؤوس المعتزلة ، وانفرد بآراء خاصة تابعه عليها فرقة تنسب إليه تسمى الكعبية ، مات سنة ٣١٩ أو ٣٢٧ هـ . انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٤٥/٣) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٥٥/١٥) ، شذرات الذهب لابن العماد (٢٨١/٢) .

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (ص ٣١٠) .

(٣) انظر فيما سبق : المحيط بالتكليف للقاضي عبدالجبار (ص ٢٣٨، ٢٤٠) .

يقول الزمخشري[1] : '' الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل ؛ لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله ، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون ، واستيجابهم العذاب لاغفالهم النظر فيما معهم ، وكفرهم لذلك ، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف ، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان ''[2].

ويعلل بعثة الرسل بأنها '' من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقاد الغفلة ؛ لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل ''[3].

ويقول في موضع آخر : '' فإن قلت : فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة ؟ قلت: أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل فلا ، وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته ، فنعم ؛ لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان ''[4].

وفي هذا النص جعل الحجة نوعين :

الأول: الحجة بالشريعة التي لا تعلم إلا بخبر الرسل ، وهي على هذا التقدير لا تقوم إلا بوجود النذير .

الثاني : الحجة بمعرفة الله تعالى وتوحيده التي تعلم من أدلة العقل ، وهي على هذا التقدير قائمة على الناس في كل زمان حتى قبل وجود الرسل .

---

(١) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي النحوي اللغوي المعتزلي ، كان من دعاة الاعتزال ، وله مصنفات في النحو واللغة والتفسير ، مات سنة ٥٣٨ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥١/٢٠) ، البداية والنهاية لابن كثير (٢١٩/١٢) ، شذرات الذهب لابن العماد (١١٨/٤) .

(٢) الكشاف للزمخشري (٣٥٤/٢) .

(٣) المصدر السابق (٣٥٤/٢) .

(٤) المصدر السابق (٢١٩/٣) .

وجعل الحجة بذه المثابة يترتب عليه أ م يثابون ويعاقبون على أعمالهم قبل مجيء الرسل ؛ لأن الحجة قائمة عليهم بأدلة العقل ، وهذا موطن الانحراف عند المعتزلة ، وهو الربط بين الحسن وحصول الثواب ، والقبح وحصول العقاب قبل قيام الحجة الرسالية على الناس .

وبختام هذه المسألة ينتهي الكلام في مذهب المعتزلة في السببية ، وأوجزه في الآتي:

١- يخالفون السـلف فينفون السببية بين العبد وفعله ، ويقررون أنه الخالق لأفعاله المحدث لها .

٢- يخالفون السلف في المتولد ، ويضطربون فيه ، فأكثرهم يلحقها بالأفعال المباشرة فيجعلون العبد خالقاً لها ، ومنهم من يجعلها حوادث لا محدث لها ، ومنهم من يجعلها من قبل الطبائع ، ولهم أقوال أخرى سبق تفصيلها .

٣- يوافقون مذهب السلف تقريباً في الأسباب الطبيعية ، فيثبتو ا ، ويثبتون ما في الأجسام من قوى وطبائع .

٤- يوافقون السلف في إثبات صفات الأفعال إجمالاً [(١)]، ويخالفو م في قولهم: إن الشرع مجردكاشف عن صفات الفعل وليس موجبا لها ، ويخالفو م في ترتيب الثواب والعقاب على الفعل قبل مجيء الشرع ، وقيام الحجة على الناس بالعقل قبل الشرع .

أما الشبه التي يستندون عليها في تقرير مذهبهم فهذا ما سيكون مجال الدراسة في المبحث القادم .

---

(١) انظر تفصيل مذهب أهل السنة والجماعة (ص٣٠٩) .

المبحث الثاني

بيان شبه المعتزلة

في السببية

بيان شبه المعتزلة في السببية

تكلمت فيما سبق عن مذهب المعتزلة في السببية ، وبينت أنه يتكون من مسائل ثلاث:

١- مسألة خلق العباد لأفعالهم .

٢- مسألة السببية الطبيعية .

٣- مسألة الحسن والقبح في الأفعال .

وسوف أناقش في هذا المبحث الشبه التي يستندون عليها في تقرير مذهبهم في مسألتين من هذه المسائل الثلاث ؛ لأن مسألة السببية الطبيعية يكادون[1] يتفقون فيها مع مذهب السلف ، فيكون الكلام في مسألة خلق العباد للأفعال ، ومسألة التحسين والتقبيح العقليين .

أولاً : مسألة خلق العبد لأفعاله :

ذكرت المعتزلة في تقرير خلق العبد لأفعاله وأنه ليس سبباً فيها بل خالقاً لها ، مجموعة كبيرة من الشبه العقلية والنقلية ، وسوف أبدأ بذكر العقلية ؛ لأ ا هي الأصل عندهم ، وعليها معولهم ، وأما النقلية فيذكرو ا استئناساً وتأييداً للأدلة العقلية .

ومما ذكروه من الشبه العقلية ما يلي :

١- لو كان الله خالقاً لأفعال العباد ، لكان المحسن والمسيء من جهة متساوي مع حسن الوجه وقبيحه من جهة أخرى في الحمد والذم ، ولاستوى المحسن والمسيء ، وارتفع

---

(١) عبرت بقولي: يكادون ؛ لأن للمعتزلة تفاصيل في السببية الطبيعية لا أجزم بموافقتها التامة لمذهب السلف .

المدح والذم والثواب والعقاب ، وقبحت بعثة الأنبياء ، وانقطعت حجتهم ، وقبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتالي باطل ، فتعين بطلان المقدم[(١)].

٢- لو كان الله تعالى خالقاً لأفعال العباد ، وفي أفعال العباد ظلم وجور لكان الله تعالى ظالماً جائراً ، لكن التالي باطل ، فتعين بطلان المقدم[(٢)].

٣- لو كانت أفعال العباد خلقاً لله لما وجب وقوعها بحسب قصدنا ودواعينا ، ولما وجب انتفاؤها بحسب كراهتنا وصارفنا مع سلامة الأحوال في الفعل وعدمه ، لكنها واقعة بحسب قصدنا ودواعينا ، فيدل هذا على انتفاء خلق الله تعالى لها[(٣)].

ومما ذكروا من الأدلة النقلية على غير طريق الاحتجاج بما يلي :

١- قوله تعالى :﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[(٤)]، حيث تدل على أن خلق الله ليس متفاوت ، والباطل متفاوت ، إذن هو ليس من خلق الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾[(٥)]، حيث تدل على أن صنع الله تعالى متقن محكم ، والكفر والمعاصي ليس محكماً ولا متقناً ، فليس من خلق الله تعالى .

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (ص ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥) .
(٢) انظر: المصدر السابق (ص ٣٤٥) .
(٣) انظر: المصدر السابق (ص ٣٣٦) .
(٤) سورة الملك آية رقم (٣) .
(٥) سورة النمل آية رقم (٨٨) .

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[١] حيث تدل على أن خلْق الله تعالى حسن ، والظلم ليس بحسن ، فهو ليس من خلْق الله تعالى .

٢- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[٥]، ففي هذه الآيات بين سبحانه أن ما يلحق العبد إنما هو من جهة نفسه دون جهة الله تعالى .[٦].

٣- قولـه تعالى: ﴿ وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا ﴾[٧]، وقولـه تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ ﴾[٩]: قالوا: فنبه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على أن هناك خالقاً سواه[١٠].

وينبني على هذه الشبه أيضاً قولهم في مسألة التولد ، فهي فرع عن قولهم بخلق الإنسان لأفعاله .

---

(١) سورة السجدة آية رقم (٧) .
(٢) سورة النساء آية رقم (٧٩) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (١٦٥) .
(٤) سورة البقرة آية رقم (١٠٩) .
(٥) سورة آل عمران آية رقم (٧٨) .
(٦) انظر فيما سبق : المحيط بالتكليف للقاضي عبدالجبار (ص ٣٧٩) .
(٧) سورة العنكبوت آية رقم (١٧) .
(٨) سورة المؤمنون آية رقم (١٤) .
(٩) سورة المائدة آية رقم (١١٠)
(١٠) انظر: المختصر في أصول الدين للقاضي عبدالجبار - ضمن رسائل العدل والتوحيد (٢٤٤/١) .

ثانياً : مسألة الحسن والقبح في الأفعال :

تستند المعتزلة في تقرير مذهبها في مسألة تحسين العقل وتقبيحه على مجموعة من الشبه العقلية أبرزها ما يلي :

١- أنا لو فرضنا إنساناً دهرياً ينكر الإله والنبوة ، وفرضنا أنه كان ماراً في صحراء خالية عن الناس ، فاتفق أنه عبر على إنسان أعمى فقير ، ورآه في نوع من أنواع البلاء ، مشرفاً على الهلاك ، فإنه قد يرق قلبه عليه ، ويحمله عقله على مساعدته والإحسان إليه ، فهاهنا رغبته في الإحسان إليه ليست لطلب الجزاء ، فإن ذلك الرجل فقير ، وليست لأجل الطمع في الثناء ؛ لأن ذلك الرجل أعمى ولا يعرفه ، ولم يحضر هناك إنسان آخر حتى يروي تلك الواقعة ، فإذا انتفت تلك الأمور تبين أن الداعي له إلى الإحسان لذلك الأعمى ما تقرر في عقله من حسن الإحسان وقبح ضده[(١)].

يقول القاضي عبدالجبار: " نفرض الكلام في رجل قاسي القلب ، جافي الفؤاد ، لا يبالي بهلاك الثقلين ، ولا يحفل بالمدح والذم ، ملحد زنديق ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولا يقر بالثواب والعقاب ، ومعلوم أنه والحال هذه يستحسن بكمال عقله إرشاد الضال ، وأن يقول للأعمى والحال ما ذكرناه : يمنة أو يسرة ، ولا وجه لذلك إلا حسنه وكونه إحساناً "[(٢)].

٢- أنه إذا خير إنسان بين الصدق والكذب ، وكان النفع في أحدهما كالنفع في الآخر فإنه يختار الصدق على الكذب ، وذلك لما تقرر في عقله من حسن الصدق ، وقبح الكذب[(٣)].

---

(١) انظر: المطالب العالية للرازي (٣/٣٤٢-٣٤٣) .
(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (ص ٣٠٨) .
(٣) انظر: المطالب العالية للرازي (٣/٣٤٣) .

يقول القاضي عبدالجبار :'' أحدنا لو خير بين الصدق والكذب وكان النفع في أحدهما كالنفع في الآخر ، وقيل له: إن كذبت أعطيناك درهما ، وإن صدقت أعطيناك درهماً وهو عالم بقبح الكذب مستغن عنه ، عالم باستغنائه عنه ، فإنه قط لا يختار الكذب على الصدق لا ذلك إلا لعلمه بقبحه وبغناه عنه ''[(١)].

٣- أن الأفعال منقسمة إلى حسنة وقبيحة ، فلولا أن فيها من الصفات ما جعل بعضها حسناً والآخر قبيحاً لكانت متساوية ، ولكان ترجيح الشارع بعضها على بعض ترجيحاً بدون مرجح ، وهذا باطل[(٢)].

٤- لو لم يثبت الحسن والقبح إلا بالشرع لحسن من الله تعالى كل شيء ، فحينئذ لا يمكن الاعتماد على وعد الله تعالى ولا وعيده ، فلعله يعد بعض العباد بالثواب ولا يفعل ، ولعله يعد بعضهم بالعقاب ولا يفعل ، ولعله يدخل الأنبياء والملائكة في أطباق النيران أبد الآبدين ، ولعله يدخل الفراعنة في أعالي درجات الجنان أبد الآبدين ، ولعله يظهر المعجزات على أيدي الكذابين ، ولعله يبعث الأنبياء والمرسلين ويأمرهم بدعوة الخلق إلى شتم الله تعالى والملائكة والكفر به ، ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الفواحش والزنا والسرقة ونحو هذه الأمور .

والتزام جواز ذلك خروج عن مقتضى العقل ، والاعتراف بقبحه اعتراف بالتحسين والتقبيح العقليين[(٣)].

---

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار (ص ٣٠٣) .

(٢) انظر: المطالب العالية للرازي (٣/٣٤٤)

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/٣٤٤-٣٤٥)

٥- أن الحسن والقبح في الأفعال لو لم يكونا معلومين قبل مجيء الشرع ، لكان الشرع قد خاطبنا بما لا نفهمه ولا نعقله ، وهذا باطل ، فوجب أن يكون الحسن والقبح مقرراً قبل الشرع[١].

وبذا تنتهي شبه المعتزلة في مسألة السببية ، وأنتقل بعدها إلى رد شيخ الإسلام رحمه الله عليهم .

(١) انظر: المصدر السابق (٣٤٥/٢)

المبحث الثالث

رد شيخ الإسلام على المعتزلة

رد شيخ الإسلام على شبه المعتزلة

لقد ناقش شيخ الإسلام رحمه الله شبه المعتزلة في مسائل السببية ، ونقضها في مواضع متعددة من كتبه ، وسوف أحاول فيما يلي تلخيص ما ذكره حول شبههم .

أولاً : شبههم في مسألة خلق الأفعال:

أولاً : أدلة العقل :

١- دليلهم العقلي الأول : وملخصه دعوى التلازم بين خلق الله تعالى لأفعال العباد وبين استواء المحسن والمسيء من جهة وحسن الوجه وقبيحه من جهة أخرى ، بجامع أن كلاً من خلق الله تعالى ، فيكونون متساوين من هذه الجهة ، وهذا يؤدي إلى ارتفاع المدح والذم والثواب والعقاب وقبح بعثة الأنبياء .

وهذا اللازم يرد على من لا يثبت للعبد مشيئة واختياراً وفعلاً من الجبرية ، بينما لا يرد على مذهب أهل السنة والجماعة ائياً ؛ لأ م يثبتون للعبد مشيئة واختياراً وفعلاً يقوم بالعبد ، وبموجبه يكون ثوابه وعقابه ، وبالتالي فلا يلزمهم هذا اللازم قطعاً .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' اعلم أن العبد فاعل على الحقيقة ، وله مشيئة ثابتة ، وله إرادة جازمة وقوة صالحة ، وقد نطق القرآن بإثبـات مشـيئة العباد في غير ما آية كقولـــه: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1]، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾[2]، ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾[3]، ونطق بإثبات فعله في عامة

(١) سورة التكوير آية رقم (٢٨-٢٩) .
(٢) سورة المزمل آية رقم (١٩) .
(٣) سورة المدثر آية رقم (٥٥-٥٦) .

آيات القرآن: يعملون ، يفعلون ، يؤمنون ، يكفرون ، يتفكرون يحافظون ، يتقون ، وكما أنا فارقنا مجوس الأمة بإثبات أنه تعالى خالق ، فارقنا الجبرية بإثبات أن العبد كاسب فاعل صانع عامل .

والجبر المعقول الذي أنكره سلف الأمة و علماء السنة هو أن يكون الفعل صادراً على الشيء من غير إرادة ولا مشيئة ولا اختيار ، مثل حركة الأشجار بهبوب الرياح ... ومثله في الأناسي حركة المحموم و المفلوج و المرتعش ، فإن كل عاقل يجد تفرقة بديهية بين قيام الإنسان وقعوده وصلاته وجهاده وزناه وسرقته ، وبين انتعاش المفلوج وانتفاض المحموم ، و نعلم أن الأول قادر على الفعل مريد له مختار ، وأن الثاني غير قادر عليه ولا مريد له ، ولا مختار ''[١].

٢- دليلهم العقلي الثاني: وملخصه دعوى التلازم بين خلق الله تعالى لأفعال العباد وبين اشتقاق اسم لله تعالى مما يخلقه في عباده ، فيكون خالق الظلم ظالماً .

وهذا اللازم إنما يلزم الذين لا يثبتون للعبد فعلاً يقوم به ، والفاعل عندهم هو الله تعالى وحده ، وأهل السنة والجماعة لا يقولون بذلك ، بل يثبتون للعبد مشيئة واختياراً وفعلاً يقوم به ، والفعل إذا قام بمحل عاد حكمه إليه ، ولم يعد إلى غيره ، واشتق له منه اسم ولم يشتق لغيره ، فلذلك ما يقوم بالعبد من الأفعال يعود حكمها عليه ، ولا يعود على الله تعالى منه اسم ولا حكم ، ولو كان يشتق لله تعالى اسم مما يخلقه في غيره لعاد عليه اسم وحكم من خلقه الألوان والطعوم والروائح والحركات الموجودة في المخلوقات وهذا باطل ضرورة .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وهنا أربع مسائل: مسألتان عقليتان ، ومسألتان سمعيتان لغويتان:

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/٣٩٣-٣٩٤) .

الأولى: أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها إلى ذلك المحل ، فكان هو الموصوف بها ، فالعلم والقدرة والكلام والحركة والسكون إذا قام بمحل كان ذلك المحل هو العالم القادر المتكلم أو المتحرك أو الساكن .

الثانية: أن حكمها لا يعود على غير ذلك المحل ، فلا يكون عالماً بعلم يقوم بغيره ، ولا قادراً بقدرة تقوم بغيره ، ولا متكلماً بكلام يقوم بغيره ، ولا متحركاً بحركة تقوم بغيره ، وهاتان عقليتان .

الثالثة: أنه يشتق لذلك المحل من تلك الصفة اسم إذا كانت تلك الصفة مما يشتق لمحلها منها اسم ، كما إذا قام العلم أو القدرة أو الكلام أو الحركة بمحل قيل: عالم أو قادر أو متكلم أو متحرك ، بخلاف أصناف الروائح التي لا يشتق لمحلها منها اسم .

الرابعة: أنه لا يشتق الاسم لمحل لم يقم به تلك الصفة ، فلا يقال لمحل لم يقم به العلم أو القدرة أو الإرادة أو كلام أو الحركة: إنه عالم أو قادر أو مريد أو متكلم أو متحرك ‘‘[(١)].

وكلام شيخ الإسلام رحمه الله ينطبق على كل أدلة المعتزلة التي جهة الاستدلال فيها نسبة الأفعال إلى العباد بما في ذلك بعض النصوص الشرعية التي أوردوها والتي سوف يأتي ذكرها بعد قليل ، فلا تدل على خلق العباد لأفعالهم ، بل تدل على أنهم الفاعلون لها حقيقة .

وما ذكروه من اللوازم لا يرد مطلقاً فأفعال العباد وإن كان الله تعالى خالقها ، إلا أنها لا تضاف إلى الله تعالى إنما تضاف إلى المحل الذي قامت به ، ولا يعود لله تعالى منها اسم ولا حكم ، إنما يعود الاسم والحكم على المحل الذي قامت به .

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية (ص ٦٢-٦٣) .

٣- دليلهم العقلي الثالث: وملخصه ارتباط الفعل بمشيئة الإنسان وإرادته ، فيفعل متى أراد ، ويترك متى أراد ، يدل على أنه خالقه .

وهذا في حقيقة الأمر يدل على أن للعبد مشيئة وإرادة يفعل بها ، ولا يدل على أنه خالق لفعله ، لأن هذه المشيئة والإرادة والقدرة غير مستقلة بالتأثير في الفعل ، بل هي جزء من أجزاء السبب التام الذي يجب به الفعل ، وهناك أجزاء أخرى للفعل لا صنع للعبد فيها البتة ، فلا بد من خلق الله تعالى لها .

وأسهل الأفعال مثلاً رفع العين لرؤية الشيء ، فإن فتح العين فعل العبد إلا أنه لا يستقل بالإدراك ، فإن تمام الإدراك موقوف على خلق المدرك ، وكونه قابلاً للرؤية ، وخلق آلة الإدراك وسلامتها ، وصرف الموانع عنها ، فما تتوقف عليه الرؤية أضعاف أضعاف ما يقدر عليه من تقليب حدقته نحو المرئي[(١)] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' العبد إذا كان قادراً على الطاعة والمعصية فلو لم يحدث سبب يوجب وقوع أحدهما دون الآخر للزم الترجيح بلا مرجح ، وذلك السبب إن كان من العبد فالقول فيه كالقول في الفعل ، فلا بد أن يكون السبب الحادث الموجب للترجيح من غير العبد ، والسـبب الذي به وقعت الطاعة نعمة من الله خص بها عبده المؤمن ''[(٢)] .

وفي هذا النص يبين شيخ الإسلام رحمه الله أن الأفعال وإن كانت بمشيئة العباد وقدرتهم وإرادتهم إلا أن الله تعالى هو خالقها ؛ لأن حصول الطاعة والمعصية بحاجة إلى مرجح من غير العبد ، المرجح الذي حصلت الطاعة نعمة من الله تعالى خص بها عباده المؤمنين .

---

(١) انظر فيما سبق : منهاج السنة لابن تيمية (٢٣٥/٣) ، شفاء العليل لابن القيم (ص ٢٩٥) .
(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٦٥/٩) .

أما ما ذكروه من الأدلة النقلية فيجاب عن استدلالهم با بما يلي :

١- قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[٣]ونحوها من الآيات .

فهذه ليس فيها ما ينفي خلق الله تعالى لما ذكروه من أفعال العباد وما فيها من الكفر والظلم والمعاصي ، بل تدل على أن خلق الله تعالى ليس فيه نقص ولا عيب ، بل هو متقن على أحسن الوجوه وأكملها .

ولا ينقض هذا وجود الشرور ، ذلك أن تلك الشرور لوازم للمخلوقات ، وتعتبر مغمورة وقليلة بجانب ما تشتمل عليه تلك المخلوقات من الخيرات ، بل إن من كمال المخلوقات وجود تلك الشرور فيها ؛ نظراً لما تشتمل عليه تلك الشرور من الحكم العظيمة الباهرة ، ولو قدر عدم تلك الشرور لفات بسبب ذلك كثير من المصالح والحكم ، وحصل النقص والعيب المنفي في هذه الآيات[٤].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم ، أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ما صنع ، وهو أرحم الراحمين ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والخير كله بيديه ، والشر ليس إليه ، بل لا يفعل إلا خيراً ، وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات ، أو من أعمالهم المذمومة ، فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة "[٥].

---

(١) سورة الملك آية رقم (٣) .

(٢) سورة النمل آية رقم (٨٨) .

(٣) سورة السجدة آية رقم (٧) .

(٤) انظر : منهاج السنة النبوية لابن تيمية (١٤٢/٣) ، شفاء العليل لابن القيم (ص ٣٧١ ، ٤٣٣ ، ٤٩٧) .

(٥) الحسنة والسيئة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠٠/١٤) .

٢- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [(١)]، وقوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ [(٢)]، وقوله تعالى: ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[(٤)] فهذه الآيات يجاب عنه بطريقين:

أحدهما مجمل ، والآخر مفصل .

أما الطريق ا مل فيقال: معظم استدلالهم بذه الآيات مبني على أساس أن الأفعال فيها أضيفت إلى العباد ، وهذه الإضافة من إضافة المخلوق إلى خالقه ، وهذا باطل ، فهذه الإضافة ليست كما قالوا ، بل هي من إضافة المُسبب إلى سببه ، وبرهان ذلك أن الله تعالى أضاف المصائب إلى العباد كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾[(٥)]، والمصائب بالاتفاق ليست خلقاً للعباد ، بل هي بسبب ذنوبم .

وأما الطريق المفصل فيجاب فيه عن استدلالهم بكل آية بخصوصها .

١- أما قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾[(٦)] فهذه الآية لا حجـة

---

(١) سورة النساء آية رقم (٧٩) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٦٥) .
(٣) سورة البقرة آية رقم (١٠٩) .
(٤) سورة آل عمران آية رقم (٧٨) .
(٥) سورة آل عمران آية رقم (١٦٥) .
(٦) سورة النساء آية رقم (٧٩) .

للمعتزلة فيها البتة ، ذلك أن الله تعالى قد قال في أول الآية: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[١] فأضاف الحسنة إلى الله تعالى ، والمعتزلة لا تقول بذلك .

ثم إن المراد بالحسنة والسيئة في الآية ليس الأعمال ، بل النعم والمصائب ويدل عليه إجماع السلف رحمهم الله تعالى على تفسيرها بذلك ، وسياق الآية حيث يقول تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ ﴾ ولم يقل: ما أصبت .

ثم إن الله تعالى قد قال في الآية التي قبل هذه الآية مباشرة ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[٢] فأضاف الجميع إلى الله تبارك وتعالى إضافة خلق وإيجاد ، والمعتزلة لا تقول بذلك[٣].

فبطل تمسك المعتزلة بهذه الآية ولله الحمد .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعليقاً على هذه الآية : " فإن كثيراً من الناس يظن أن المراد بالحسنات والسيئات فى هذه الآية الطاعات والمعاصي ، ثم المثبتة للقدر يحتجون بقوله ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ فيعارضهم قوله: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[٤]، ونفاة القدر يحتجون بهذه الثانية مع غلطهم في ذلك ، فإن مذهبهم أن العبد يخلق جميع أعماله ، ويعارضهم قوله ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ، وإنما غلط

(١) سورة النساء آية رقم (٧٩) .
(٢) سورة النساء آية رقم (٧٨) .
(٣) انظر فيما سبق : شفاء العليل لابن القيم (ص ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤) .
(٤) سورة النساء آية رقم (٧٩) .

كلا الفريقين لما تقدم من ظنهم أن الحسنات والسيئات هي الطاعات والمعاصي ، وإنما الحسنات والسيئات في هذه الآية: النعم والمصائب ''[١].

٢- أما قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾[٢]، فهذه الآية ليس فيها ما ينفي خلق الله تعالى لأفعال عباده ، والضمير المنفصل - هو - لا يعود على الأعمال حتى يقال: أضيفت الأعمال إلى الإنسان ، بل يعود على المصائب ، يوضح ذلك أول الآية حيث يقول تعـــالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾[٣]، والمصائب بالاتفاق ليست من خلق العباد ، فبطل تمسك المعتزلة بذه الآية .

٣- وأما قوله تعالى: ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[٤] فهذه الآية لا تدل على خلق العباد لأفعالهم ، بل ليس فيها إلا إضافة الحسد إلى النفوس .

وقد سبق في الجواب ا مل بيان أن مثل هذه الإضافة ليست من إضافة المخلوق إلى خالقه بل من إضافة المُسبب إلى سببه ، والله تعالى خالق السبب والمُسبب ، لكن خلقه له لا يوجب إضافته إليه ؛ لأنه لا يضاف إلى الله تعالى من الصفات إلا ما قام به ، والحسد إنما قام بالمخلوقات ، فلذا يضاف إليهم .

٤- أما قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[٥]، فهذه الآية لا تدل على خلق العباد لأفعالهم ، إنما فيها نفى الله تعالى أن يكون كذب اليهود وتحريفهم لكتبهم منـزلاً من عنده جل وعلا كما حاول اليهود أن يوهموا الناس بذلك ، وهذا حق .

---

(١) شرح معنى قول علي لا يرجون عبد إلا ربه - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦١/٨-١٦٢) .
(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٦٥) .
(٣) سورة آل عمران آية رقم (١٦٥) .
(٤) سورة البقرة آية رقم (١٠٩) .
(٥) سورة آل عمران آية رقم (٧٨) .

وكون الله تعالى خالقاً لأفعال العباد لا يستلزم أن يكون كلام العباد كلاماً له جل وعلا ، لأن الكلام صفة تنسب إلى من قامت به ، والتحريف ولي اللسان بالكلام قام باليهود ولم يقم بالله عز وجل ولذا أثبته الله تعالى لهم ، ونفاه عن نفسه .

٥- أما قوله تعالى: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾[٣]، فهذه الآيات ليس فيها ما يدل على أن العباد يخلقون أفعالهم ، ويخرجو ا من حيز العدم إلى الوجود ، بل غاية ما تدل عليه في هذا الباب تسمية بعض الأفعال خلقاً .

وهذا تعبير عربي معروف ، فقد جاء عن العرب تسمية الكذب خلقاً ، يقولون: هذه قصيدة مخلوقة ، أي منحولة إلى غير صاحبها ويقولون : حدثنا فلان بأحاديث الخلق ، وهي الخرافات من الأحاديث المفتعلة[٤]، وعلى هذا الاستعمال جـاء قوله تعالى ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾[٥]، أي: تفترون وتكذبون .

(١) سورة العنكبوت آية رقم (١٧) .
(٢) سورة المؤمنون آية رقم (١٤) .
(٣) سورة المائدة آية رقم (١١٠)
(٤) انظر: لسان العرب لابن منظور (١٠/٨٨) .
(٥) سورة العنكبوت آية رقم (١٧) .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: '' يقال: خلق هذا الحديث ، واختلقه إذا افتراه ، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾[١]، وقال عن قوم هود: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[٢]''[٣].

وجاء عن العرب تسمية التقدير خلقاً ، يقول الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري[٤]

أي أنت إذا قدرت أمراً قطعته وأمضيته ، وغيرك يقدر ما لا يقطعه ، لأنه ليس بماضي العزم[٥]، وعلى هذا الاستعمال جاء قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[٦] أي: أحسن المقدرين المصورين[٧].

وجاء عن العرب تسمية التصوير والتشكيل خلقاً ، ومنه الحديث الصحيح : « **إن أصحاب الصور يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم** »[٨]، وعلى هذا

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم (١٧) .
(٢) سورة الشعراء آية رقم (١٣٧-١٣٨) .
(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢/٢٥٠) ، وانظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦/٣٢٩) .
(٤) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى انظر شرح ديوانه (ص ٨٨) .
(٥) انظر: لسان العرب لابن منظور (١٠/٨٧) .
(٦) سورة المؤمنون آية رقم (١٤) .
(٧) انظر: شفاء العليل لابن القيم (ص ١٣١) .
(٨) رواه البخاري في النكاح ، باب هل يرجع إذا رأى منكراً في الدعوة (٥/١٩٨٦) ح(٤٨٨٦) ، ومسلم في اللباس والزينة ، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا كلب (٣/١٦٦٩) ح(٢١٠٧) كلاهما عن عائشة رضي الله واللفظ للبخاري .

الاســتعمال جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾[١] أي: تصور وتشكل[٢].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله مخبراً عن المسيح عليه الصلاة والسلام : ” أنه خلق من الطين كهيئة الطير ، والمراد به تصويره بصورة الطير ، وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس ، فإنه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير وغير الطير من الحيوانات ، ولكن هذا التصوير محرم بخلاف تصوير المسيح فإن الله أذن له فيه “[٣].

من خلال هذا النص يتبين لنا أن شيخ الإسلام رحمه الله يفسر الخلق في هذه الآية بالتصوير ، وليس بالإيجاد من العدم .

ثم إن في تكملة الآية ما يناقض مذهب المعتزلة ، فإن الله تعالى قـال في تكملة الآية : ﴿ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى ﴾[٤] فعلق التصوير وكو ا طيراً حقيقياً على إذن الله تعالى ، والمعتزلة لا تعلق أفعال العباد على إذن الله تعالى .

وبذا تنتهي مناقشة شبههم في دعوى خلق العباد لأفعالهم وأنتقل بعد ذلك إلى مسألة تحسين العقل وتقبيحه .

---

(١) سورة المائدة آية رقم (١١٠)
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٠١/٢) .
(٣) الجواب الصحيح لابن تيمية (٤٦/٤) .
(٤) سورة المائدة آية رقم (١١٠) .

ثانياً : شبههم في مسألة تحسين العقل وتقبيحه :

عند تأمل مذهب المعتزلة في مسائل تحسين العقل وتقبيحه نجد أن له جانبين :

الأول : جانب موافق لمذهب السلف ، وهو الذي قرروا فيه إمكانية إدراك الحسن والقبح بالعقل ، فمن اعتقاد السلف رحمهم الله القول بتحسين العقل وتقبيحه على تفصيل دقيق سبق ذكره[١] .

الثاني : جانب مخالف لمذهب السلف ويتكون من شقين :

أحدهما: يتضمن نفي أي دور للشرع في التحسين والتقبيح ، وقصر أثره على الكشف فقط ، فالشـرع عندهم مجرد كاشف عن صفات في الأفعال قد تقرر حسـنها وقبحها عقلاً .

الشق الآخر: يتضمن ترتيب الثواب والعقاب على الحسن والقبح العقليين قبل مجي الشرع .

وعند تأمل أدلة المعتزلة نجدها تنصب على الجانب الأول ، وهذا يجعلنا لا نقف عندها لأن هذا الجانب متفق عليه فليس بين السلف والمعتزلة خلاف فيه ، والخلاف فيه هو مع نفاة التحسين والتقبيح العقليين من الأشاعرة ومن وافقهم ، وليس مع السلف رحمهم الله تعالى .

وأما جانب نفي أثر الشرع على الأفعال ، وجانب ترتيب الثواب والعقاب على الأفعال عقلاً قبل مجيء الشرع فإ م لا يقيمون عليهما أدلة ، بل يجعلو ما من لوازم الجانب الأول .

---

(١) انظر : (ص ٣٠٩) .

والصواب أنه لا تلازم بين الأمرين ، فالعقل يدرك الحسن والقبح في بعض الأفعال ، ولا يلزم من ذلك أن لا أثر للشرع في زيادة حسن الحسن وقبح القبيح ، كما أنه لا يلزم من ذلك الثواب والعقاب على الأفعال ؛ لأ ما مشروطان بقيام الحجة الرسالية .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعليقاً على قول المعتزلة في ترتيب الثواب والعقاب على الحسن والقبح العقليين : '' وهذا خلاف النص ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1]، وقال تعالى ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[4].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((**ما أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين و منذرين**))[5]، والنصوص الدالة على أن الله لا يعذب إلا بعد الرسالة كثيرة ترد على من قال من أهل التحسين والتقبيح أن الخلق يعذبون في الأرض بدون رسول أرسل إليهم ''[6].

---

(١) سورة الإسراء آية رقم (١٥) .
(٢) سورة النساء آية رقم (١٦٥) .
(٣) سورة القصص آية رقم (٥٩) .
(٤) سورة الملك آية رقم (٨-١٠) .
(٥) رواه الـبخاري في التوحـيد ، باب قول النبي ﷺ لا شخص أغير من الله (٦/٢٦٩٨) ح(٦٩٨٠) ، ومسلم في اللعان ، (٢/١١٣٦) ح(١٤٩٩) كلاهما من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ بنحوه .
(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٨/٤٣٥) .

ويقول أيضاً : '' والمعتزلة تنكر الحكمة الناشئة من نفس الأمر ، ولهذا لم يجوزوا النسـخ قبل التمكن ، وقـد وافقهم على ذلك طائفـة من أصحاب أحمـد وغيرهم كأبي الحسن التميمي[1] ، و بنوه على أصلهم وهو أن الأمر عندهم كاشف عن حسن الفعل الثابت في نفسه لا مثبت لحسن الفعل ، وأن الأمر لا يكون إلا بحسن ، وغلطوا في المقدمتين فإن الأمر وإن كان كاشفاً عن حسن الفعل ، فالفعل بالأمر يصير له حسن آخر غير الحسن الأول .

وإذا كان مقصود الآمر الامتحان للطاعة فقد يأمر بما ليس بحسن في نفسه ، وينسخه قبل التمكن إذا حصل المقصود من طاعة المأمور ، و عزمه و انقياده ، وهذا موجود في أمر الله ، وأمر الناس بعضهم بعضاً ''[2] .

وبذا تنتهي مناقشة شبه المعتزلة في مسألة السببية وأنتقل بعدها إلى مذهب الأشاعرة .

---

(١) أبو الحسن عبدالعزيز بن الحارث بن أسد التميمي الحنبلي ، فقيه من علماء الحنابلة ، ولد عام ٣١٧ هـ ، صنف في الأصـول والفـروع والفرائض ، وتوفي سنة ٣٧١ هـ . انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١٣٩/٢) ، البداية والنهاية لابن كثير (٢٩٨/١٢) ، الدر المنضد للعليمي (١٧٧/١) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤٦/١٤) .

الفصل الرابع

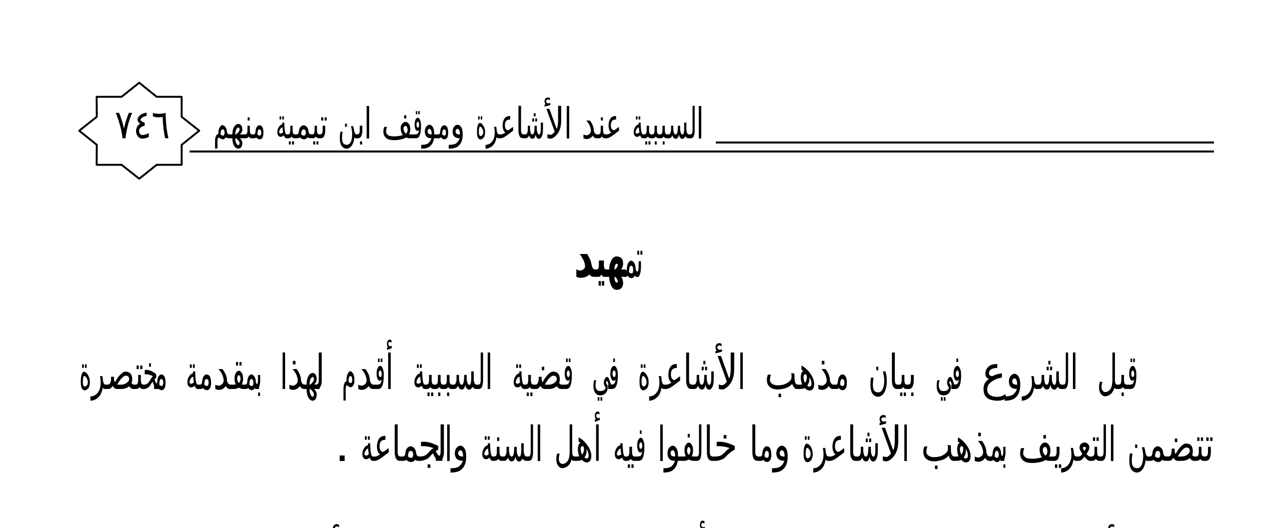
السببية عند الأشاعرة وموقف ابن تيمية منهم

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تقرير مذهبهم .

المبحث الثاني : بيان شبهتهم .

المبحث الثالث : رد شيخ الإسلام عليهم .



تمهيد

قبل الشروع في بيان مذهب الأشاعرة في قضية السببية أقدم لهذا بمقدمة مختصرة تتضمن التعريف بمذهب الأشاعرة وما خالفوا فيه أهل السنة والجماعة .

الأشاعرة فرقة كلامية ينتسبون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، وقد خالفوا مذهب أهل السنة والجماعة في مسائل عديدة منها :

١- التوحيد ، فهم يقصدون به إثبات أن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له .

وأخص خصائص ألوهيته عندهم الانفراد بالخلق والاختراع ، الذي هو من توحيد الربوبية ، وقد اهتموا به واعتنوا بإقامة البراهين عليه ، أما توحيد الإلهية ، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة والكفر بالطاغوت فلا يهتمون به ، ولا يكاد يذكر في كتبهم .

ويضمنون التوحيد إثبات بعض الصفات ونفي باقي الصفات ، فيثبتون من الصفات لله تعالى سبع صفات فقط ، وهي العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام .

وينفون الصفات الخبرية التي وردت بها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة كالوجه واليد والعين والاستواء والنزول والمحبة والرضى والبغض ونحوها ، ويؤولون نصوصها .

وبعض الصفات التي أثبتوها كان إثباتهم لها على وجه مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة كتفسيرهم للكلام بالكلام النفسي ، وقولهم في الرؤية بأنها دون مقابلة فراراً من إثبات العلو لله عز وجل .

وفي باب أفعال الله تعالى ينفون عنها السببية فليس لأفعاله سبب مطلقاً ، ويجوزون عليه تعالى كل فعل ، فيجوزون أن يثيب الله الكفار ، ويعاقب المؤمنين ، والظلم المنفي عنه عندهم هو الأمور الممتنعة فقط ، فكل ما جاز فعله فهو عدل وحق وصواب .

٢- باب الإيمان والتكليف وأفعال العباد ، فالإيمان هو التصديق فقط أو التصديق وقول اللسان على قولين عندهم ، والأعمال لا تدخل فيه مطلقاً .

في باب التكليف يجوزون التكليف بما لا يدخل تحت قدرة العبد ، وجميع الأعمال عندهم لا تدخل تحت قدرة العبد .

والله تعالى خالق العباد وأفعالهم ، والعباد لهم قدرة غير مؤثرة في الفعل .

والأفعال لا تتصف بحسن ولا قبح قبل الشرع ، والقبيح ما ي عنه شرعاً وما سواه فحسن .

٣- باب السببية والطبائع : حيث ينفون السببية عن كل شيء فلا يؤثر شيء في شيء مطلقاً ، والمؤثر الوحيد في هذا الكون هو الله تعالى وحده ، فالماء لا يروي ، والخبز لا يشبع والنار لا تحرق ، فليس في أي مخلوق طبيعة أو صفة مؤثرة في بقية المخلوقات[1] .

هذه بعض المسائل التي خالفوا فيها مذهب السلف ، وسيأتي لاحقاً تفصيل لبعض هذه المسائل ، لكن المقصود هنا التعريف الموجز بمذهب الأشاعرة .

---

(١) انظر فيما سبق : دعوة التوحيد لـ د. محمد خليل هراس (ص ٢٧٣-٢٧٤) ، موقف ابن تيمية من الأشاعرة لـ د. عبدالرحمن المحمود (٩٤٦/٣ ، ١٠٢٩) ، ومن كتب الأشاعرة انظر: اللمع للأشعري (ص١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٤) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص ٧٤ ، ٨٤ ، ١٠٢) ، اية الإقدام للشهرستاني (ص ٩٠) ، المسائل الخمسون في أصول الدين للفخر الرازي (٥٣ ، ٥٤ ، ٦٢) .

المبحث الأول

تقرير مذهب الأشاعرة

في السببية

تقرير مذهب الأشاعرة في السببية

بعـد التعريف بمذهب الأشاعرة في العقيدة إجمالاً أشرع في المقصود من البحث وهو تقرير مذهبهم في قضايا السببية .

يتكون مذهب الأشاعرة في مسائل السببية من مجموعة من القضايا أبرزها ما يلي :

أولاً : مسألة السببية الطبيعية :

يعتـبر مذهب الأشاعرة في هذه المسألة مشهوراً ، فقد صرح كبار مفكري الأشاعرة وقـدمائهم كالباقلاني[1] والغزالي وغيرهما بأن الأسباب لا تؤثر في مسبباتها ، وأن ما يشاهد في الواقـع من ترتيب الأسباب بعضها على بعض إنما يرجع إلى مجرد الاقتران والعادة فقط ، فالـنار ليس فيها طبع الإحراق ، والسيف ليس فيه قوة قطع ، والماء ليس فيه طبيعة إرواء ، والطعام ليس فيه ميزة الإشباع .

فـيجوز عندهم أن نقطع عنق فلان بالسيف ولا يموت ، وأن نجمع بين القطن والنار ولا يحتـرق القطـن ، لأنه لا تأثير للسيف وقطع العنق في الموت، ولا تأثير للنار في إحراق القطـن ، بل الله تعالى هو الذي يخلق الموت عند جز العنق بالسيف ، ويخلق الإحراق عند ملاقاة النار للقطن ، وهكذا كل شيء ، فليس لأي شيء أي طبيعة أو ميزة خلقه الله تعالى عليها .

يقـول الـباقلاني: '' فأمـا ما يهذون به كثيراً من أنهم يعلمون حساً واضطراراً أن الإحراق والإسكار الحادثين واقعان عن حرارة النار وشدة الشراب ، فإنه جهل عظيم وذلك أن الذي نشاهده ونحسه إنما هو تغير حال الجسم عند تناول الشراب ومجاورة النار ، وكونه

---

(١) محمـد بـن الطيب بن محمد بن جعفر ، القاضي أبوبكر المعروف بابن الباقلاني ، ولد سنة ٣٣٨ هـ بالبصرة ، سكن بغداد ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، صنف مصنفات كثيرة ، توفي ببغداد سنة ٤٠٣ هـ . انظر: المنتظم لابن الجوزي (٩٦/١٥) ، تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص ١١٧) ، الأعلام للزركلي (١٧٦/٦) .

سـكران ومحترقاً ومتغيراً عما كان عليه فقط ، فأمـا العلم بأن هذه الحالة الحادثة المتجددة من فعل من هي ؟ فإنه غير مشاهد ، بل مدرك بدقيق الفحص والبحث .

فمـن قائل: إنه من قديم مخترع قادر ، وهو الحق الذي نذهب إليه ، ومن قائل يقول: إنـه من فعل الإنسان الذي جاور النار وتناول الشراب ، ومتولد عن فعله الذي هو سبب الإحراق والإسكار ، ومن قائل يقول: إنه فعل الطبع في الجسم ، ولا أدري أهو نفس الجسم المطـبوع ؟ أم معـنى فيه ؟ ومن قائل يقول: إن الطبع عرض من الأعراض ، فكيف يدرك حقيقة ما قد اختلف فيه هذا الضرب من الاختلاف بالمشاهدة ودرك الحواس ''[1] .

ويقـول الغـزالي : '' الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً ، وما يعتقد مسبباً ليس ضـرورياً عندنا ، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا مـن ضـرورة عـدم أحـدهما عدم الآخر ، مثل الري والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتـراق ولقـاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ، وإسهال البطن واستعمال المسهل ، وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطـب والنجوم والصناعات والحرف ، وأن اقترا ا لما سبق من تقدير الله سـبحانه يخلقها على التسـاوق ، لا لكونه ضرورياً ''[2] .

وقـد كان لقولهم هذا أبعاد متعددة ، وتأثر به مذهبهم في مسائل كثيرة ، ومن أبرز تلك المسائل مسألتان :

المسـألة الأولى : مذهـبهم في كيفية إفادة النظر العلم ، فقد ترتب على هذه المسألة العلاقة بين العلم والنظر ، فعندهم لا توجد علاقة سببية بين العلم والنظر ، فالعالم إذا نظر في الدليل ، وحصل له علم بمدلول ذلك الدليل ، فليس سبب علمه هو نظره في الدليل .

---

(١) التمهيد للباقلاني (ص ٦٢) .

(٢) افت الفلاسفة للغزالي (ص ١٩٥) .

يقول أبو المعالي الجويني:'' ولا يولد النظر العلم ولا يوجبه إيجاب العِلة معلولها ''[١] .

ويقـول الفخـر الرازي : '' حصـول العلم عقيب النظر الصحيح بالعـادة عنـد الأشعري ''[٢] .

يعني أن الله قد أجرى العادة أن يقارن النظر الصحيح حصول العلم ، بدون أن يكون للنظر والناظر أثر بوجه من الوجوه .

ويقـول الإيجي[٣] في كيفية إفادة النظر العلم :'' مذهب الشيخ[٤] : أنه بالعادة ، بناء علـى أن جميع الممكنات مستندة إلى الله سبحانه ابتداء ، وأنه تعالى قادر مختار ، ولا علاقة بـين الحوادث إلا بإجراء العادة بخلق بعضها عقيب بعض ، كالإحراق عقيب مماسة النار ، والري بعد شرب الماء ''[٥] .

المسـألة الثانـية: آراؤهم الطبية ، فقد تعدى تأثير رأيهم في هذه المسألة إلى الطب ، فعلـى كلامهم ليس لجميع الأعشاب و الأدوية أي تأثير في شفاء المرضى ، والشفاء الذي يحصـل للمريض عقب تناولـه للدواء ، ليس بسبب الدواء ، بل جرت عادة الله تعالى أن يخلـق الشفاء عقب تناول الدواء ، فلا يوجد أي ارتباط سببي بين الدواء والشفاء[٦] ، وقد تقدم في كلام الغزالي ما فيه إشارة إلى هذا الأمر .

---

(١) الإرشاد للجويني (ص ٢٧) .

(٢) المحصل للفخر الرازي (ص ١٣٦) .

(٣) عبدالـرحمن بـن أحمد بن عبدالغفار ، أبو الفضل الإيجي الأشعري ، من أهل إيج بفارس ، كان إماما في المعقول قائمـاً بالأصول والمعاني والبيان والعربية مشاركاً في سائر الفنون ، مات سنة ٧٥٦ هـ . انظر: الدرر الكامنة لابن حجر (٣٢٢/٢) ، البدر الطالع للشوكاني (٣٢٦/١) ، الأعلام للزركلي (٢٩٥/٣) .

(٤) يقصد أبا الحسن الأشعري .

(٥) المواقف للإيجي (ص ٢٧) .

(٦) انظر: في فلسفة الطب لـ د. أحمد محمود صبحي و د. محمود فهمي زيدان (ص ٩١) .

ثانياً : قدرة العباد وتأثيرها :

من مسائل السببية عند الأشاعرة مسألة قدرة العبد وتأثيرها ، فقد نص الأشاعرة على نفـي تـأثير العبد في الفعل ، فالعبد لا أثر له مطلقاً في فعله ، وهذا هو القول المعروف عن الأشعري والذي استقر عليه المذهب عند المتأخرين .

يقول ابن القيم رحمه الله : '' والذي استقر عليه قول الأشعري: أن القدرة الحادثة لا تؤثـر في مقدورها ، ولم يقع بها المقدور ، ولا صفة من صفاته ، بل المقدور بجميع صفاته واقع بالقدرة القديمة ، ولا تأثير للقدرة الحادثة فيه ، وتابعه على ذلك عامة أصحابه ''[١] .

يقول الشهرستاني نقلاً عن الأشعري : '' قال: والعبد قادر على أفعاله إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقة ضرورية بين حركات الرعدة والرعشة ، وبين حركات الاختيار والإرادة ، والتفرقة راجعة إلى أن الحركات الاختيارية حاصلة تحت القدرة، متوقفة على اختيار القادر .
فعن هذا قال: المكتسب هو المقدور بالقدرة الحاصلة ، والحاصل تحت القدرة الحادثة .

ثم على أصل أبي الحسين[٢]: لا تأثير للقدرة الحادثة في الإحداث ، لأن جهة الحدوث قضية واحدة ، لا تختلف بالنسبة للجوهر والعرض ، فلو أثرت في قضية الحدوث لأثرت في حـدوث كل محدث ، حتى تصلح لإحداث الألوان والطعوم والروائح ، وتصلح لإحداث الجواهر والأجسام ، فيؤدي إلى تجويز وقوع السماء على الأرض بالقدرة الحادثة غير أن الله تعـالى أجرى سنته بأن يحدث عقيب القدرة الحادثة ، أو تحتها ، أو معها الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له ، ويسمى هذا الفعل كسباً ، فيكون خلقاً من الله تعالى: إبداعاً وإحداثاً وكسباً من العبد: حصولاً تحت قدرته ''[٣] .

---

(١) شفاء العليل لابن القيم (ص ٢٥٥) .
(٢) كذا في الأصل أبي الحسين ، والذي يظهر لي أنه خطأ مطبعي ، والصواب : أبي الحسن ، والمقصود به أبو الحسن الأشعري ؛ لأن هذا مذهب الأشعري ، وسياق الكلام كان في حكاية كلام الأشعري .
(٣) الملل والنحل للشهرستاني (٩٧/١) .

ومعنى هذا الكلام أن قدرة العبد لا أثر لها البتة في حصول الفعل ، ولو كان لها شيء مـن الـتأثير لوجب أن يكون لهـا تأثير في إحداث الألوان والجواهر والأجسام ونحوها ، والأخير باطل .

وتعـرض الأشـعري في هذا النص إلى تساؤل في السببية يطرح نفسه ، كيف نفسر حصـول الفعل عقب قدرة العبد إذا لم يكن بينهما أي ارتباط ؟ وأجاب عن هذا بأن سنة الله تعالى جرت بحصول الفعل بعد القدرة أو تحتها أو معها .

ولا شك أن هذا هروب من إثبات السببية لجأ إليه الأشعري هنا ، وسوف يكون هذا الجـواب أو نظـيره هو التفسير المعتمد الذي يلجأ إليه كبار محققي الأشاعرة في تفسيرهم لاقتران جميع الأسباب بمسببا ا .

ويقـول الإيجي وهـو من متأخري الأشاعرة : '' المقصد الأول: في أن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها ''[١].

ويقول اللقاني[٢] في نظمه المسمى جوهرة التوحيد ، وهو نظم في مذهب الأشاعرة:

وعندنا للعبد كسب كُلفا   ولم يكن مؤثراً فلتعرفا[٣].

---

(١) المواقف للإيجي (ص ٣١١) .

(٢) إبراهيم بن حسن بن علي المالكي اللقاني عالم من متأخري الأشاعرة ، له مؤلفات عديدة ، توفي سنة ١٠٤١ هـ انظر: مقدمة تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للبيجوري (ص ٣-٤) .

(٣) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للبيجوري (ص ١٠٤) .

وخالـف الأشـعري في ذلك ثلاثة : الباقلاني وأبو إسحاق الإسفراييني[١] وأبو المعالي الجويني ومن تبعهم .

أمـا الباقلاني فقد أثبت للقدرة الحادثة تأثير لا في وجود الفعل ، بل في صفته ، من حيث كونه طاعة ، ومعصية .

يقـول الباقلاني: '' ويجب أن يعلم: أن العبد له كسب وليس مجبوراً ، بل مكتسب لأفعالـه من طاعة ومعصية ؛ لأنه تعالى قـال: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾[٢] يعـني: من ثواب طاعـة ﴿ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[٣] يعني: من عقـاب معصية '' [٤] .

ويقـول أيضـاً : '' الإنسـان يحس من نفسه تفرقة ضرورية بين حركتي الضرورية والاختيارية ، كحركة المرتعش ، وحركة المختار .

والتفـرقة لم ترجع إلى نفس الحركتين من حيث الحركة ؛ لأ هما حركتان متماثلتان ، بـل إلى زائـد على كو هما حركة ، وهو كون إحداهما مقدورة مرادة ، وكون الثانية غير مقدورة ، ولا مرادة ، ثم لم يخل الأمر من أحد حالين:

[١-] إمـا أن يقال: تعلقت القدرة بأحدهما تعلق العلم من غير تأثير أصلاً ، فيؤدي ذلـك إلى نفـي التفـرقة ، فإن نفي التأثير كنفي التعلق ، فيما يرجع إلى ذات الحركتين ، والإنسـان لا يجـد التفـرقة فيهما وبينهما إلا في أمر زائد على وجودهما ، وأحـوال وجودهما .

---

(١) إبـراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفراييني الشافعي ، الأستاذ أبو إسحاق ، فقيه أصولي متكلم ، صنف مصنفات كثيرة ، توفي سنة ٤١٨ هـ . انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص ٢٤٣) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ٣٥٣) ، البداية والنهاية لابن كثير (٢٤/١٢) .

(٢) سورة البقرة آية رقم (٢٨٦) .

(٣) سورة البقرة آية رقم (٢٨٦) .

(٤) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني (ص ٧٠) .

[٢-] وإما أن يقال تعلقت القدرة بإحداهما تعلق تأثير، لم يخل الحال من أحد أمرين:

[أ-] إما أن يرجع التأثير إلى الوجود والحدوث .

[ب-] وإما أن يرجع إلى صفة من صفات الوجود .

والأول باطـل بما ذكرناه أنه لو أثر في الوجود لأثر في كل موجود ، فتعين أنه يرجع التأثير إلى صفة أخرى ، وهي حال زائدة على الوجود ''[١] .

أما أبو إسحاق الإسفرايني فإنه ذهب إلى أن ذات الفعل تقع بالقدرتين[٢] .

وقد شرح عبدالقاهر البغدادي[٣] هذا الرأي فقال: '' وقد ضرب أصحابنا للاكتساب مثلاً في الحجر الكبير ، قد يعجز عن حمله رجل ، ويقدر آخر على حمله منفرداً ، إذا اجتمعا جميعاً على حمله ، كان حصول الحمل بأقواهما ، ولا خرج أضعفهما بذلك عن كونه حاملاً كـذلك العبد لا يقدر على الانفراد بفعله ، ولو أراد الله الانفراد بإحداث ما كسب العبد قـدر علـيه ، ووجـد مقدوره ، فوجوده بالحقيقة بقدرة الله تعالى ، ولا يخرج مع ذلك المكتسب من كونه فاعلاً ، وإن وجد الفعل بقدرة الله تعالى ''[٤].

أمـا أبـو المعالي الجويني فله في هذه المسألة رأيان ، ففي الإرشاد يتبنى رأي الأشعري ويدافع عنه ، بل ويهاجم رأي الباقلاني والإسفرايني .

---

(١) اية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني (ص ٧٣) .

(٢) انظر : المحصل للرازي (ص ٤٥٥) ، المواقف للإيجي (ص ٣١٢) .

(٣) عبدالقاهـر بن طاهر بن محمد بن عبدالله ، أبو منصور البغدادي التميمي ، الأشعري مذهباً ، صاحب التصانيف الـبديعة وأحد أعلام الشافعية توفي سنة ٤٢٩هـ. انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص ٢٥٣) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٧٢/١٧) ، طبقات الشافعية لابن السبكي (٢٣٨/٣) .

(٤) أصول الإيمان للبغدادي (ص ١١٠) .

يقول بعد ذكر قول الأول منهما : '' وهذه الطريقة غير مرضية ، ولا جريان لها على قواعد أهل الحق ، وفي المصير إليها افتتاح وجوه من الفساد يجب تنكبها .

منها: أن العبد يستحيل أن ينفرد بمقدور دون الرب تعالى ، فإن فرضنا للقدرة الحادثة أثـراً وحكمنا بثبوته للعبد ، فقد خرمنا وجوب كون الرب قادراً على كل شيء مقدور، ويسـتحيل المصير إلى أن الحالة المفروضة تقع بالقدرة القديمة والحادثة ، فإن ذلك مستحيل، ولو ساغ فرضه لساغ تقدير خلق بين خالقين .

على أن صاحب هذه الطريقة يحيل معتقده على ادعاء حالة مجهولة ، لا يمكنه الإفصاح به مع قطعنا بأن الحركة الكسبية مماثلة للضرورية ، وتقدير أحوال مجهولة حيد عن السداد ، وتطريق لدواعي الفساد إلى أصول الاعتقاد .

فالوجه القطع بأن القدرة الحادثة لا تؤثر في مقدورها أصلاً ''[١] .

ولعل هذا القول هو القديم من أقواله ، فإن المشهور عنه ما سطره في العقيدة النظامية فقد اشتهر به ، ونقله عنه أكثر من جاء بعده من أئمة الأشاعرة كالشهرستاني[٢] والرازي[٣] والإيجي[٤] وغيرهم .

ويتميز هذا القول بأنه وافق فيه أهل السنة والجماعة ، ونقد فيه أقوال أصحابه .

يقـول أبـو المعالي: '' قدرة العبد مخلوقة لله تبارك وتعالى باتفاق العالمين بالصانع ، والفعـل المقدور بالقدرة الحادثة واقع بها قطعاً ، ولكنه مضاف إلى الله تبارك وتعالى تقديراً وخلقاً ، فإن وقع بفعل الله تبارك وتعالى وهو القدرة ، وليست القدرة فعلاً للعبد ، وإنما هي

---

(١) الإرشاد للجويني (ص ١٨٨-١٨٩) .

(٢) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٩٨/١-٩٩) ، ناية الإقدام للشهرستاني (ص ٧٨) .

(٣) انظر : المحصل للرازي (ص ٤٥٥) .

(٤) انظر: المواقف للإيجي (ص ٣١٢) .

صـفته وهي ملك الله تبارك وتعالى وخلق له ، وإذا كان موقع الفعل خلقاً لله ، فالواقع به مضاف خلقه الرب خلقاً -تبارك وتعالى - وتقديراً .

وقـد ملّك الله العبد اختياراً يصرف به القدرة ، وإذا وقع بالقدرة شيئاً آل الواقع إلى حكم الله من حيث أنه وقع بفعل الله تعالى .

ولـو اهتدت لهذا الفرقة الضالة لما كان بيننا وبينهم خلاف ، ولكنهم ادعوا: استبداداً بالاختراع ، وانفراداً بالخلق والابتداع ، فضلوا وأضلوا .

ونـبين تميـزنا عـنهم بتفريع المذهبين ، فإنا لما أضفنا فعل العبد إلى تقدير الإله قلنا: أحدث الله - تبارك وتعالى - القدر في العبد على أقدار أحاط به علمه ، وهيأ أسباب الفعل وسلب الله العلم بالتفاصيل ، وأراد من العبد أن يفعل فأحدث فيه دواعي مستحِثة ، وخيرة وإرادة ، وعِلم أن الأفعال ستقع على قدر معلوم ، فوقعت بالقدرة التي اخترعها للعبد ، على ما عِلم وأراد ، وللعباد اختيارهم واتصافهم بالاقتدار .

والقدرة خلق الله ابتداء ، ومقدورها مضاف إليه ، مشيئة وعلماً وقضاءً وخلقاً وبقاءً من حيث أنه نتيجة ما انفرد بخلقه ، وهو القدرة ولو لم يرد وقوع مقدوره لما أقدره عليه ، ولما هيأ أسباب وقوعه ''[١] .

وقـد لخص الرازي مذهب الجويني فقال: '' وزعم إمام الحرمين أن الله تعالى يوجد للعبد القدرة والإرادة ، ثم هما يوجبان وجود المقدور ''[٢] .

وقد رأينا في هذه المسألة كيف أدى إنكار تأثير الأسباب إلى هذا الـ اع الطويل ، وإلى هذا الاضطراب والتذبذب في الآراء ، والخوض فيما لا يعقل من الكلام .

---

(١) العقيدة النظامية لأبي المعالي الجويني (ص ٤٦-٤٨) .

(٢) المحصل للرازي (ص ٤٥٥) .

والجدير بالذكر أن هذا الجدل مستمر حتى وقتنا الحاضر بين أنصار المذهب الأشعري في هذه المسألة وبين غيرهم[1].

ثالثاً : صفات الأفعال :

مـن مسائل السببية عند الأشاعرة مسألة صفات الأفعال ، والذي استقر عليه رأي الأشاعرة التفصيل في هذه المسألة ، فهناك ما يدرك بالعقل ، وهناك ما لا يدرك إلا بالشرع فقط ، أما ما يدرك بالعقل فهو نوعان :

١- ما يلائم الطبع أو ينافره ، كحسن إنقاذ الغرقى ، وقبح اتهام الأبرياء .

٢- صفات الكمال ، وصفات النقص ، كحسن العلم ، وقبح الجهل .

وأمـا ما لا يدرك إلا بالشرع فهو كون الفعل موجباً للمدح ، أو الذم ، وما يترتب عليهما من الثواب ، أو العقاب .

يقول الإيجي : " القبيح عندنا ما نهي عنه شرعاً ، والحسن بخلافه ، ولا حكم للعقل في حسـن الأشياء وقبحها ، وليس ذلك عائد إلى أمر حقيقي في الفعل يكشف عنه الشرع بـل الشرع هو المثبت له والمبين ، ولو عكس القضية فحسن ما قبحه ، وقبح ما حسنه لم يكن ممتنعاً وانقلب الأمر ...

ولا بد أولاً من تحرير محل النزاع فنقول: الحسن والقبح يقال لمعان ثلاثة:

الأول: صـفة الكمـال والنقص ، يقال: العلم حسن ، والجهل قبيح ، ولا نزاع أن مدركه العقل .

---

(١) من الجدل الذي حصل في هذا العصر ما دار بين الكوثري وبين شيخ الإسلام في الدول العثمانية مصطفى صبري وكلاهمـا ماتريدي المذهب ، لكن الأول تبنى رأي إمام الحرمين ، والآخر مـال إلى رأي الأشاعرة ، وجرت بينهما مناقشات وردود . انظر موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين (٣/٣٩٠) .

الثاني: ملاءمة الغرض ومنافرته ، وقد يعبر عنهما بالمصلحة والمفسدة ، وذلك أيضا عقلي ويختلف بالاعتبار ، فإن قتل زيد مصلحة لأعدائه ، ومفسدة لأوليائه .

الثالث: تعلق المدح والثواب ، أو الذم والعقاب ، وهذا هو محل النزاع فهو عندنا شرعي ''[1].

وفرق بعضهم بين أفعال الله ، وأفعال البشر ، فأفعال الله تعالى ليس فيها حسن ولا قبيح ، بينما أفعال البشر تحتمل كلا الأمرين ، وممن تبنى هذا الرأي ونصره أبو المعالي الجويني والفخر الرازي .

يقول الجويني : '' لولا أنه شاع في ألفاظ عصبة الحق أنه خالق الخير والشر ، لكان سر التوحيد يوجب أن يقال: ليس في أفعال الله تبارك وتعالى خير ولا شر ''[2] .

ويقول الرازي :'' المختار عندنا أن تحسين العقل وتقبيحه بالنسبة إلى العباد معتبر ، أما بالنسبة إلى الله فهو باطل ''[3] .

ومقصودهم بأفعال الله تعالى مفعولاته ، فهم لا يفرقون بين الفعل والمفعول ، وأما جعلهم أفعال الله ليس فيها حسن ولا قبح ، فهذا مبني على مسألة نفي الحكمة والتعليل في أفعال الله ، فإذا كان الله تعالى لا يفعل لأجل حكمة معينة ، فبالتالي لا يتصور في فعله حسن ولا قبيح ، بل ما ثم إلا مشيئة ترجح أمر على آخر دون مرجح هذا من ناحية .

---

(١) المواقف للإيجي (ص ٣٢٣-٣٢٤) ، وانظر: تنقيح الفصول - ضمن شرح تنقيح الفصول كلاهما للقرافي (ص ٨٨) .

(٢) العقيدة النظامية لأبي المعالي الجويني (ص ٣٥ –٣٦) .

(٣) المطالب العالية للفخر الرازي (٢٨٩/٣) .

ومـن ناحـية أخـرى فالضابط في حسن أفعال العباد وقبحها عندهم هو الشرع ، فالحسـن مـا حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه لو جاء الشرع بمدح الكفر ، والإثابة عليه لكان حسناً ولو ذم التوحيد والإيمان ، وعاقب عليه لكان قبيحاً .

وقـد تـرتب على هذه المسألة التخلص من مشكلة الشر ودخوله في القضاء الإلهي ، وتكلف إيجاد تعليلات له ، فقد فرغوا جميع الأعمال من محتواها الخيري والشري ، فلا فرق بين الإيمان والكفر ، ولا بين الطاعة والمعصية ، بل الجميع من جنس واحد إلا أن الشرع أمر بالإيمان والطاعة فصار حسناً ، و ى عن الكفر المعصية فصار قبيحاً ، وبذلك استراحوا من مشكلة الشر وما فيها من إشكاليات .

رابعاً : السببية في **أفعال الله :**

من مسائل السببية عند الأشاعرة قضية السببية في أفعال الله تعالى ، وعندما نتكلم عن أفعـال الله تعالى عند الأشاعرة ، فالمقصود بذلك مفعولات الله تعالى ، فإ م لا يفرقون بين الفعل والمفعول ، بل كلا الأمرين عندهم واحد فما ثم إلا مفعولات الله تعالى ، والسببية في مفعولات الله تعالى معناها: هل لمفعولات الله جل وعلا أسباب أم لا ؟

مـذهب الأشـاعرة أن مفعولات الله تعالى ليس لها أسباب ، بمعنى أن الله تعالى خلق المخلوقات ، وأوجد الموجودات لا لعلة أو حكمة أو بسبب ، بل خلقاً مباشراً لمحض المشيئة التي ترجح مثلاً على مثل دون مرجح .

فـلا يـوجد عندهم خلق بالأسباب ، بمعنى أن الله تعالى لم يفعل شيئاً بشيء ، فلم ينـزل المطر بالرياح والسحاب ، ولم يوجد النبات بالماء والتراب ، وصرف المفسدات ونحو

ذلـك ، بل هذه الأشياء خلقت خلقاً مباشراً من الله تعالى دون تدخل من تلك الأسباب ، بل باقتران غير مؤثر مع تلك الأسباب[(١)] .

يقـول الشهرستاني : '' مذهب أهل الحق أن الله تعالى خلق العالم بما فيه من الجواهر والأعـراض وأصناف الخلق والأنواع لا لعلة حاملة له على الفعل ، سواء قدرت تلك العِلة نافعـة له أو غير نافعة ، إذ ليس يقبل النفع والضر ، أو قدرت تلك العِلة نافعة للخلق ؛ إذ ليس يبعثه على الفعل باعث ، فلا غرض له في أفعاله ، ولا حامل ، بل علة كل شيء صنعه ولا علة لصنعِه ''[(٢)].

ويقول الإيجي : '' المقصد الثامن في أن أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض ، وإليه ذهب الأشاعرة ''[(٣)].

وقـد ترتب على مذهب الأشاعرة في هذه القضية مسألة : أنه لا يجب على الله تعالى شـيء مطلقـاً ، بل يجوز على الله تجاه العباد كل شيء ، فيجوز أن يعذب الله المؤمنين ، ويثيب الكافرين .

يقول الأشعري : '' فإن قال قائل: هل لله تعالى أن يؤلم الأطفال في الآخرة ؟

قيل له : لله تعالى ذلك ، وهو عادل إن فعله . وكذلك كل ما يفعله على جرم متناه بعقـاب لا يتناهـى ، وتسخير الحيوان بعضهم لبعض ، والإنعام على بعضهم دون بعض ، وخلقـه إياهم مع علمه بأنهم يكفرون ، كل ذلك عدل منه ، ولا يقبح من الله لو ابتدأهم بالعـذاب الألـيم وأدامه ، ولا يقبح منه أن يعذب المؤمنين ، ويدخل الكافرين الجنان إنما

(١) انظر فيما سبق : نظرية الخلق المستمر (ص٧٦٧) من هذا البحث ، المحصل للرازي (ص ٤٨٣) .

(٢) نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ٣٩٧) .

(٣) المواقف للإيجي (ص ٣٣١) ، وللاستزادة انظر: التمهيد للباقلاني (ص ٥١-٥٢) ، المحصل للرازي (ص ٤٨٣) .

نقـول: إنه لا يفعل ذلك ؛ لأنه أخبرنا أنه يعاقب الكافرين ، وهو لا يجوز عليه الكذب في خبره ''[١] .

ويقول الغزالي : '' ندعي أن الله تعالى إذا كلف العباد فأطاعوه لم يجب عليه الثواب ، بـل إن شاء أثابهم ، وإن شاء عاقبهم ، وإن شاء أعدمهم ولم يحشرهم ، ولا يبالي لو غفر لجميع الكافرين ، وعاقب جميع المؤمنين ، ولا يسـتحيل ذلك في نفسه ، ولا يناقض صفة من صفات الإلهية ''[٢] .

وكلامهم هذا مبني على أصلين : أحدهما : نفي الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى ، والآخـر: نفي الحسن والقبح عن الأفعال ، فالحسن ما لم ينه عنه ، وما سواه هو القبيح ، وهذه نتيجة منطقية لهذين الأصلين .

والجدير بالذكر أن آراءهم في الحكمة والتعليل تعكر عليهم في مسألتين:

إحـداهما : إثبات علم الله تعالى عن طريق الإحكام ، فهم يقررون أن الإحكام دال على العلم ، فأفعال الله محكمة متقنة ، وكل من كان فعله كذلك فهو عالم [٣]، لكن الفعل المحكم لا يتأتى حصوله ممن لا قصد له ، ولا حكمه ، ولا غاية [٤].

الأخرى: إثبات النبوات بالمعجزات ؛ لأنهم يجوزون على الله تعالى كل شيء ، فيجوز علـى أصـلهم هذا أن يؤيد الله الكذابين بالمعجزات ، ويحرم النبيين منها ، بناء على أن الله تعالى لا يجب عليه شيء كما تقدم .

---

(١) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع لأبي الحسن الأشعري (ص ١٤٩) .
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص ١١٦) .
(٣) انظر: المحصل للرازي (ص ٣٨٥) .
(٤) انظر : قراءة في علم الكلام الغائية عند الأشاعرة لنوران الجزيري (ص ٣٤٠) .

خامساً: المعجزات :

تعتبر آراء الأشاعرة في نفي السببية والطبائع ، مقدمة ضرورية لآرائهم في المعجزات فهم يقررون أن الله تعالى يخلق كل شيء مباشرة ، ويخلق العالم في كل لحظة وحين ، وأنه لا يؤثر شيء في شيء مطلقاً ، وليس شيء سبباً لشيء مطلقاً ، ومعجزات الأنبياء من الأمور التي تنطبق عليها هذه القواعد ، فمثلاً معجزة نبي الله إبراهيم ﷺ هي عدم الاحتراق بالنار عندما ألقي فيها لأن الله تعالى عندهم لم يخلق الإحراق عند ملاقاة جسم النبي إبراهيم ﷺ للنار ، والنار لا تحرق بطبعها ، ومعجزة نبي الله موسى ﷺ في قلب العصا حية ؛ لأن الله عز وجل عندما قلبها حية لم يخلق أعراض العصا ففنيت ، وخلق أعراض الحية فتحولت العصا إلى حية ، وبهذا يردون على منكري خرق العادات من الفلاسفة وغيرهم[1] .

يقول الغزالي : '' إذا ثبت أن الفاعل يخلق الاحتراق بإرادته عند ملاقاة القطنة للنار أمكن في العقل أن لا يخلق مع وجود الملاقاة ''[2] .

وعندهم أن كل شيء ممكن يجوز أن يقع ، ويجوز أن لا يقع ، لكن استمرار العادة بعدم وقوعها هو الذي يرسخ في الأذهان عدم وقوعه .

يقول الغزالي: '' فإنه إذا أنكرت لزوم المسببات عن أسبابها ، وأضيفت إلى إرادة مخترعها ولم يكن للإرادة منهج مخصوص متعين ، بل أمكن تفننه ، وتنوعه ، فليجوز كل واحد منا أن يكون بين يديه سباع ضارية ونيران مشتعلة ، وجبال راسية ، وأعداء مستعدة بالأسلحة ، وهو لا يراها ؛ لأن الله تعالى ليس يخلق الرؤية له .

ومن وضع كتاباً في بيته فليجوز أن يكون قد انقلب عند رجوعه إلى بيته غلاماً أمرداً عاقلاً متصرفاً ، أو انقلب حيواناً ، لو ترك غلاماً في بيته فليجوز انقلابه كلباً ، أو ترك

---

(١) انظر في المعجزات : تهافت الفلاسفة للغزالي (ص١٩٦ - ٢٠٠) .

(٢) تهافت الفلاسفة للغزالي (ص ١٩٨) .

رماداً فليجوز انقلابه مسكاً ، وانقلاب الحجر ذهباً ، والذهب حجراً ، وإذا سئل عن شيء من هذا فينبغي أن يقول: لا أدري ما في البيت الآن وإنما القدر الذي أعلمه أني تركت في البيت كتاباً ، ولعله الآن فرس ، وقد لطخ بيت الكتب ببوله وروثه ، وإني تركت في البيت جرة من ماء ، ولعلها انقلبت شجرة تفاح ، فإن الله قادر على كل شيء ، وليس من ضرورة الفرس أن يخلق من النطفة ، ولا من ضرورة الشجرة أن تخلق من البذر ، بل ليس من ضرورته أن يخلق من شيء ، فلعله خلق أشياء لم يكن لها وجود من قبل ، بل إذا نظر إلى إنسان لم يره إلا الآن ، وقيل له: هل هذا مولود ؟ فليتردد وليقل: يحتمل أن يكون بعض الفواكه في السوق قد انقلب إنساناً ، وهو ذلك الإنسان ، فإن الله قادر على كل شيء ممكن ، وهذا ممكن فلا بد من التردد فيه "[1] .

هذه التشنيعات أوردت عليهم ، فالتزموا جواز وقوعها ، وقالوا: إن استمرار العادة بعدم وقوعها هو الذي يرسخ في الأذهان عدم وقوعها ، وإذا كانت تلك الأمور كلها جائزة الوقوع فمعجزات الأنبياء أكثر إمكاناً من تلك ، وبذا الطريق يتوصلون إلى إثبات حصول المعجزات .

وبذا يتم تقرير مذهب الأشاعرة في مسائل السببية وأوجزه في الآتي:

١- ينفون السببية الطبيعية فلا يؤثر مخلوق في آخر مطلقاً ، وما يحصل من احتراق الأشياء مثلا عقب التعرض للنار مجرد اقتران بين الأمرين فقط .

٢- ينفون تأثير العباد في الأفعال ، فقدرة العبد غير مؤثرة في الفعل .

٣- ينفون صفات الأفعال ، فهي لا تتصف بحسن ولا قبح ، بل القبيح ما نهي عنه وما سواه حسن .

---

(١) تهافت الفلاسفة للغزالي (ص ١٩٨-١٩٩) .

٤- أفعال الله غير مرتبطة بالأسباب ، فلا يخلق الله تعالى بالأسباب ، ولا يفعل لعلة أو حكمة .

٥- المعجـزات لا تحـتاج إلى خـرق لنظام الكون ؛ لأن نظام الكون لا يجري وفق أسباب ومسببات ، بل وفق خلق الله تعالى المباشر في كل لحظة وحين ، فلم يخلق الاحتراق عقب تعرض إبراهيم عليه السلام للنار ، ولذلك لم يحترق ، وهكذا بقية المعجزات .

هـذه أهـم مسائل السببية عند الأشاعرة ، وأنتقل بعد هذا إلى الشبهة التي يعتمدون عليها في تقرير مذهبهم .

المبحث الثاني

بيان شبه الأشاعرة

في السببية



بيان شبهة الأشاعرة في السببية

تبين من العرض السابق لمذهب الأشاعرة أن مذهبهم في السببية مكون من مجموعة عناصر هذه العناصر تدور في فلك مسألة مركزية ، تعتبر الشبهة الرئيسة والأساس والمنطلق الذي انطلق منه الأشاعرة في تقرير مذهبهم في السببية ، وهي ما يمكن أن يسمى بنظرية الخلق المستمر ، وهي نظرية مفصلة متكاملة توضح كيفية خلق المخلوقات وتركيب الأجسام ، وخلاصتها :

أن الأجسام مؤلفة ومحدودة ، فهي إذن تنقسم ، وهذا الانقسام لا بد أن يتناهى ، والأجسام تصير بانقسامها أجزاء صغيرة جداً لا تنقسم لدقتها ، وتلك الأجزاء التي لا تتجزأ هي الجواهر الفردة ، وباجتماعها يتألف الجسم ذو الكم أو الطويل العريض العميق

والعالم كله مكون من جواهر فردة متشابهة متماثلة مجانسة لا اختلاف فيها بوجه من الوجوه ، ولا تحمل أي صفة ذاتية تميز بعضها عن بعض .

وفيما بين الجواهر الفردة يوجد الخلاء ، وهو بعد لا شيء فيه أصلا ، تتحرك فيه الجواهر حركة مستمرة اجتماعاً وافتراقاً دون حصول تداخل بينها .

والزمن مؤلف من أزمنة كثيرة يطلقون عليها مسمى الآنات ، والآن هو أدق جزء من أجزاء الزمن بحيث لا يقبل القسمة لقصر مدته .

وتحمل الجواهر الفردة معاني زائدة عليها لا تنفك عنها تسمى الأعراض ، والأعراض لا تبقى زمانين - أي آنين - فالله عز وجل يخلق الجوهر ، ويخلق فيه أي عرض شاء معاً دفعة واحدة وعندما يخلق ذلك العرض يفنى ويتلاشى ، فيخلق الله عز وجل عرضاً آخر من نوعه ، فيفنى ذلك العرض ويتلاشى ، فيخلق الله عرضاً ثالثاً ، وهكذا دائماً ، طالما الله تعالى يريد بقاء نوع ذلك العرض ، فإن أراد تعالى أن يخلق عرضاً من نوع آخر خلق ، وإن كف عن خلق الأعراض عدم ذلك الجوهر .

فالأعراض بحاجة إلى الخلق في كل لحظة من لحظات الزمن ، وهذا يتم بواسطة القدرة الإلهـية ، وهو الذي يجعلنا نرى المخلوقات على ما هي عليه ، لأن الله تعالى يخلقها في كل لحظة وحين ، ولو كف الله تعالى عن خلق الأعراض لفني هذا العالم بأجمعه[١] .

هذا ملخص موجز لنظرية الخلق المستمر عند الأشاعرة ، ومن خلاله نستطيع أن نضع أيدينا على أصل الانحراف عندهم ، ويتضح لنا تفسير كثير من آرائهم واعتقادا م .

وقبل الربط بين هذه النظرية وبين مذهب الأشاعرة في السببية هناك تساؤل يطرح عن سـبب تقرير المتكلمين لهذه النظرية بذه التفاصيل الدقيقة ، ما الفائدة التي تعود عليهم من الكـلام على الجزء الذي لا يتجزأ ؟ أو العرض الذي لا يبقى زمانين أو الخلاء ونحوها من المسائل الدقيقة التي تعتريها كثير من الإشكاليات ، وقد يظن الناظر فيها من أول وهلة أنه لا حاجة لها بوجه من الوجوه عندهم .

وللإجابة عن هذا التساؤل ينبغي أن نفهم قبل ذلك قضية مهمة ، وهي أن المتكلمين لم يتعـبوا في إثبات أمر يراد إثباته ، أو في نفي أمر يراد نفيه لأجل مجرد منافسة الفلاسفة ، أوالتشويش عليهم والتشكيك في أقوالهم فقط ، بل لهم أهداف أخرى أكبر من تلك بكثير فإن ما يراد إثباته من تلك المسائل يمهد الطريق لآرائهم واعتقادا م ، وما يراد نفيه من تلك المسـائل فيه ما يعكر عليهم ما يعتقدونه ، ويصححونه من الآراء والمذاهب ، وقد لا يكون هذا بطريق مباشر ،كما هو حال مسألتنا هذه ، بل قد يكون ذلك التمهيد ، أو التعكير بعد مقدمات كثيرة ، ولو بعد مائة مقدمة ، ولذلك يحرص أولئك المتكلمون على حسم المسائل من أصلها[٢] .

وسـبب تقريـر المتكلمين لنظرية الخلق المستمر ، أ ا محاولة منهم للرد على ملاحدة الفلاسفة المنكرين لوجود الله تعالى أو القائلين بقدم العالم ، وذلك من خلال إثبات حدوث

(١) انظر فيما سبق: دلالة الحائرين لموسى بن ميمون (١/١٩٦-٢٠٢) .
(٢) دلالة الحائرين لموسى بن ميمون (١/١٨٢) .

العالم بهذه الطريقة ، وإذا ثبت أن العالم حادث ، فالحادث يحتاج إلى محدث ، وهو الله جل وعلا ، وبهذا يتم الرد على الملاحدة [(١)].

لكـن انبثق عن هذه النظرية مجموعة من الآراء والمفاهيم التي ساهمت وحددت كثيراً مـن معـالم مذهب الأشاعرة في قضية السببية وفي غيرها[(٢)] ، ولكن ما يهمني هنا في المقام الأول الآراء التي تخص السببية التي عرضتها سابقاً وهي :

١- طـبائع الأشياء : مسألة طبائع الأشياء من المسائل التي يظهر فيها بوضوح كبير تأثـرها بنظـرية الخلق المستمر ، فهذا النفي لتأثير الأسباب انبثق من نظرية الخلق المستمر السـابق ذكـرها ، فقد أكدت هذه النظرية على نزع أي خصائص أو صفات للأشياء ، فالأجسـام متماثلة ، وهي مكونة من الجواهر المفردة المتماثلة ، وبالتالي لا تحمل أي طبيعة تميـزها عن غيرها ، فالحجر والطعام والشراب والسيف ونحوها كلها متماثلة ، والله تعالى يخلـق عقب كل منها ما نتوهم نحن أنه من أثرها ، فيخلق مثلاً عقب تناول الطعام الشبع ، وعقب الشرب الري ، وعقب الضرب بالسيف القطع ، وهكذا في كل الأشياء .

---

(١) انظر: متن القصيدتين النونية والميمية لابن القيم (ص ٤٧-٤٨) .

(٢) من القضايا التي تأثرت بهذه النظرية مسألة المعاد عند الأشاعرة ، فليسوا موافقين لأهل السنة والجماعة في تفاصيل هذا الباب كما قد يظن بعض الناس ، بل لهم آراء أخرى مبنية على مذهبهم في الجواهر الفردة وما تحمله من أعراض ، فـالكلام عـن البعث والإعادة معناه الكلام عن إعادة تلك الجواهر الفردة ، يقول شيخ الإسلام في تفسير سـورة الإخلاص (ص ٧١): '' والمقصود هنا أن هؤلاء لما كان أصلهم في ابتداء الخلق هو القول بإثبات الجوهر الفرد - كان أصلهم في المعاد مبنياً عليه ''ولذا لهم بحوث وتفصيلات حول هذه المسألة من أهمها :

١- هل تفنى الجواهر ، ثم تعاد ، أو تفرق ثم تجمع ، فالأشاعرة نصروا الأول ، وتوقف بعضهم .

٢- نصر الأشاعرة إعادة الجواهر والأعراض .

٣- نصر الأشاعرة إعادة نفس الجواهر ، وبعضهم يرى أنه تعاد مثلها وليس نفسها .

انظـر فيما سبق : الإرشاد للجويني (ص ٣١٣) ، تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية (ص ٧١) ، النبوات لابن تيمية (ص ٨٢-٨٣) طـبعة دار القلم ، المواقف للإيجي (ص ٣٧٣) ، التصور الذري في الفكر الفلسفي لـ د. منى أبوزيد (ص٣٢١-٣٣٩) .

٢- قدرة العباد : بحسب نظرية الأشاعرة في الخلق المستمر ، فالعباد ليس لهم تأثير في الفعل مطلقاً ، فالإنسان إذا حرك قلماً ، فما الإنسان حركه ، لأن هذا التحرك الذي حدث في القلم هو عرض خلقه الله فيه ، وكذا حركة اليد المحركة للقلم إنما هي عرض خلقه الله في اليد المتحركة ، وقد أجرى الله العادة أن تقارن حركة اليد لحركة القلم ، بدون أن يكون لليد أثر بوجه من الوجوه ، بل عند تحريك القلم ، فقد خلق الله أربعة أعراض ، ليس منها عرض سبباً للآخر ، بل هي متقارنة في الوجود ، العرض الأول: إرادتي أن أحرك القلم ، العرض الثاني: قدرتي على تحريكه ، العرض الثالث: حركة اليد ، العرض الرابع: تحرك القلم والله عز وجل وحده هو الذي خلق كل هذه الأعراض ، فلا تأثير لإرادة العبد ، أو قدرته في الفعل بوجه من الوجوه .

وهذه الأعراض كلها لا تبقى زمانين ، فالله تعالى يخلق في القلم تحركاً بعد تحرك هكذا دائماً طالما كان القلم متحركاً ، فإذا سكن ، فإن السكون عرض ، والله يخلق فيه السكون بعد السكون هكذا دائما طالما كان ساكناً ، وينطبق هذا الأمر على جميع المخلوقات وأفعالها[(١)] .

٣- صفات الأفعال : بناء على ما قرره الأشاعرة في نظرية الحدوث السابق ذكرها من أن جميع المخلوقات تتكون من الجواهر والأعراض ، وأن تلك الجواهر متماثلة ، مجانسة لا تحمل أي صفة ذاتية تميز بعضها عن بعض ، وتلك الجواهر تحمل الأعراض التي لا تدوم زمانين بل تفنى مباشرة بعد حدوثها ، والله تعالى هو الذي يحدثها ، والأفعال ما هي إلا أعراض ، والعرض عندهم لا يحمل العرض ، فبالتالي لا يتصور وصف الأفعال بحسن أو قبح لذا فقد قرر الأشاعرة نزع جميع خصائص الأفعال ، وصفاتها ، فنفوا الحسن والقبح عن جميع الأفعال ، فلا حسن إلا ما حسنه الشرع ، ولا قبيح إلا ما قبحه الشرع .

---

(١) انظر فيما سبق : دلالة الحائرين لموسى بن ميمون (٢٠٣/١-٢٠٤) ، المواقف للإيجي (ص٩٩ ، ١٠١ ، ١٦٤ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٢٥١) .

وقد أشار الآمدي إلى هذا المعنى حيث يقول عن حسن الأفعال وقبحها: '' ويلزم من ذلك قيام العرض بالعرض ، وهو محال ''[(١)].

لكـن الذي استقر عليه قولهم هو التفصيل كما سبق ذكره ، على أن الشرع لو قلب الحسن إلى قبيح والعكس لجاز ذلك ؛ لأن أصل المذهب أن الأفعال أعراض والعرض لا يقوم بالعرض ، وليس الحسن والقبح الذي أثبتوه بأمر حقيقي عائد إلى الفعل كما نص على ذلك الإيجي فيما تقدم .

٤- أفعال الله : فالله تعالى يخلق كل شيء بصفة مباشرة ، عن طريق إيجاد الجواهر بما تحمله من الأعراض التي تفنى في لحظة حدوثها ، ولا تبقى زمانين ، فعن طريق استمرار خلق الله تعالى لها في كل لحظة توجد الموجودات ، وتبقى المخلوقات بالصفة التي نشاهدها عليها فإن لم يخلقها الله عز وجل اضمحلت وفنيت ، وإن خلقها الله بقيت واستمرت .

٥- المعجـزات : قـد قرر الأشاعرة في كيفية حدوث الحوادث نظرية الخلق المستمر السـابق ذكـرها[(٢)] ، التي تتضمن أن الله تعالى يخلق العالم في كل لحظة وحين ، ومن هذا المدخل جاء تقريرهم لطريقة وكيفية حصول المعجزة ، فالله تعالى يخلق كل شيء مباشرة ، عـن طريق خلق الأعراض المحمولة على الجواهر ، وهذا الأعراض تفنى وتتلاشى ، ولا تبقى زمـانين ، فهي بحاجة إلى إعادة الخلق مرة تلو أخرى مادام الله تعالى يريد تلك الأعراض ، ومعجزات الأنبياء من الأشياء التي تنطبق عليها هذه الأمور

ومن الجدير بالذكر أن للأشاعرة شبهاً أخرى في بعض قضايا السببية التي ذكرت آنفاً وتدور تلك الشبه حول قضيتين :

---

(١) انظر : إحكام الأحكام للآمدي (٨٤/١) .

(٢) انظر : (ص٧٦٧) من هذا البحث .

القضية الأولى : قضية الحكمة والسببية في أفعال الله تعالى ولهم فيها من الشبه الرئيسة اثنتان :

الأولى: أن كـل من فعل فعلاً لغرض ؛ كان بحيث إذا فعل ذلك الفعل ، كان كاملاً عند حصول الغاية ، وناقصاً عند عدمها .

وكل من كان كذلك كان كاملاً بالغير لا بالذات . وهو على الله محال(١) .

الشبهة الثانية: أن أفعاله لو كانت معللة بعلة ، فتلك العِلة إما أن تكون قديمة أو محدثة فـإن كانت قديمة لزم منه قدم المخلوقات ، وهو محال ، وإن كانت حادثة فإحداثها معلل بغرض آخر وذلك يفضي إلى التسلسل وهو محال(٢).

القضية الثانية : قضية نفي التحسين والتقبيح العقليين ولهم فيها من الشبه ما يلي :

١- شبهة قيام العرض بالعرض المتقدمة .

٢- أن العبـد مجبور في أفعاله ، وإذا كان كذلك لم يحكم العقل فيها بحسن ولا قبح اتفاقاً .

بـيانه أن العـبد إن لم يتمكن من الترك فذاك هو الجبر ، وإن تمكن ولم يتوقف على مـرجح بـل صدر عنه تارة ولم يصدر عنه أخرى من غير سبب ، كان ذلك اتفاقياً، وإن توقـف على مرجح لم يكن ذلك من العبد وإلا تسلسل ، ووجب الفعل عنده ، وإلا جاز معـه الفعل والترك فاحتاج إلى مرجح آخر وتسلسل فيكون اضطرارياً ، وعلى التقادير فلا اختيار للعبد فيكون مجبوراً (٣).

---

(١) المسائل الخمسون في أصول الدين للفخر الرازي (ص ٦٢) .

(٢) المصدر السابق (ص ٦٢) .

(٣) المواقف للإيجي (ص ٣٢٤) . وقد شرح الرازي هذه الشبهة بالتفصيل فقال في المطالب العالية (١٣/٩-١٤) : '' إن المعتـزلي إما أن يقول : إن حصول الفعل عقيب مجموع القدرة والداعي واجب ، أو يقول: إنه غير واجب . فإن =

٣- لو كان قبح الكذب ذاتيا لما تخلف عنه ؛ لأن ما بالذات لا يزول ، واللازم باطل فإنه قد يحسن إذا كان فيه عصمة دم نبي ، بل يجب ، ويذم تاركه قطعاً ، وكذا إذا كان فيه إنجاء متوعد بالقتل(١) .

القضية الثالثة : قضية الكسب ، وهذا يستدلون عليها بطريقين :

الأول : أدلـة خلـق الله تعالى لأفعال العباد ، وهي أدلة صحيحة لكن لا تدل على إثبات الكسب الذي ذكروه .

الآخـر : إبطال أدلة المعتزلة على خلق العباد لأفعالهم ، ومعلوم أن بطلان أدلة المعتزلة علـى هذه القضية لا يعني صحة قول الأشاعرة في الكسب ، لأن التقابل في هذه القضيتين ليس من باب النقيضين ، بل من باب الضدين الذين قد يرتفعان ، ولهذا لا يصح سلوك هذه الطريق في الاستدلال على إثبات الكسب .

=قال: إنه واجب ، فقد بطل الاعتزال بالكلية ؛ لأن تلك الدواعي لا يمكن أن يستند كل واحد منها إلى داعية أخرى لامتـناع التسلسـل والدور ، بل لا بد من انتهائها إلى داعية تحصل بفعل الله تعالى ، وإذا كان كذلك فنقول: عند حصـول القدرة والداعية ، لما كان الفعل واجباً ، وعند فقدا ا أحدهما لما كان الفعل ممتنعاً : فحينئذ يلزم الجبر ، ولم يحصل للعبد استقلال لا بالفعل ولا بالترك شيء .

وأمـا إن قال المعتزلي: إن حصول الفعل عند حصول القدرة مع الداعي: غير واجب ، فنقول: فعلى هذا التقدير: عند حصول مجموع القدرة مع الداعي ، يمكن أن يحصل الفعل تارة ، وأن لا يحصل أخرى ؛ لأن كل ما كان ممكناً لم يلزم من فرض وقوعه محال ، فليفرض أن القدرة مع الداعي كان حاصلاً واستمر ، ثم تارة حصل الفعل ، وأخرى لم يحصل فهـذا الحصول ما كان من العبد البتة ، بل كان لمحض الاتفاق من غير سبب ؛ لأن مجموع القدرة والداعي لما حصل بـتمامه عند عدم الفعل تارة ، وعند حصوله أخرى ، ولم يتجدد أمر من الأمور عند حدوث الفعل حتى يقال: الفعل إنمـا حدث في ذلك الوقت لأجله ، فعلى هذا التقدير يكون حدوث الفعل في ذلك الوقت محض الاتفاق ، ولم يكن ذلـك وسـعه ولا في اختياره وهذا أيضا محض الجبر ؛ لأنه لا سبيل له البتة إلى إيقاع الفعل ، بل إن اتفق وقوعه مع ذلـك القدر من القدرة والداعي ، فقد وقع ، وإن لم يتفق وقوعه لم يقع ، ولم يكن البتة رجحان أحد الطرفين على الآخر بأمر من جهة العبد البتة ''. وانظر: المباحث المشرقية للرازي (٥٤٦/٢) .

(١) المواقف للإيجي (ص ٣٢٥) .

أمـا مسألة المعجزات فلم أقف لهم على دليل فيها سوى مذهبهم في الأسباب ونظرية الخلق المستمر التي ذكر ا سابقاً .

وبهـذا يـتلخص لنا أن أهم أدلة الأشاعرة في باب السببية تقوم على نظرية حدوث الأجسـام والخلق المستمر ، أضف إلى ذلك شبههم في مسألة الحكمة والسببية في أفعال الله تعالى ، أضف إلى ذلك أيضاً شبههم في مسائل التحسين والتقبيح العقليين ، وهذه الشبه هي التي سيتم مناقشتها وبيان رد شيخ الإسلام رحمه الله عليها في المبحث القادم .

المبحث الثالث

رد شيخ الإسلام على الأشاعرة

رد شيخ الإسلام على الأشاعرة

لقـد تتبع شيخ الإسلام رحمه الله شبه الأشاعرة وفندها وذلك في العديد من كتبه ، ومن أبرز ما كتبه في ذلك (نقض التأسيس) ، فهذا الكتاب يقوم على النقد المفصل الدقيق لشـبه الأشاعرة في باب الصفات ، وكذلك كتاب (درء تعارض العقل والنقل) ، ففيه نقد الشبهة الرئيسة التي يعتمد عليها الأشاعرة في بناء مذهبهم في السببية وفي غيرها وهي شبهة الجواهر الفردة وتماثل الأجسام التي يعتمدون عليها في إثبات وجود الله تعالى وخلق العالم ، وبها يردون على الفلاسفة الملاحدة .

وسـوف أستعرض في هذا المبحث بعض أوجه نقض شيخ الإسلام رحمه الله لشبهة الجواهر الفردة وحدوث الأجسام ، إضافة إلى نقضه لشبههم الأخرى .

أولاً : نقض شيخ الإسلام رحمه الله لشبهة الجواهر الفردة حدوث الأجسام :

قد تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه الشبهة ونقضها من وجوه عديدة في مواضع متفرقة من كتبه ، ومن أبرز ما ذكره ما يلي :

١- أن هـذه الطريقة مبتدعة لا يصح الاعتماد عليها في إثبات وجود الله تعالى ، ولا يصـح أن تجعل الأصل في معرفة الدين ؛ لأن المعلوم من حال الرسول ﷺ وأصحابه ، وما جـاءوا بـه من الإيمان والقرآن أنه لم يدع الناس بهذه الطريق أبداً ، ولا تكلم بها أحد من الصـحابة ولا الـتابعين لهم بإحسان ، فكيف تكون هي أصل الإيمان والذي جاء بالإيمان وأفضل الناس إيماناً لم يتكلموا بها بتاتاً[1] .

(١) انظـر : شـرح حديث النزول لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥٤٣/٥) ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٠٨/١) .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : " نعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الرسول ﷺ والصـحابة والتابعين وأئمة المسلمين لم يبنوا شيئا من أمر الدين على ثبوت الجوهر الفرد ، ولا انـتفائه ، ولـيس المـراد بذلك أنهم لم ينطقوا بهذا اللفظ ، فإنه قد تجدد بعدهم ألفاظ اصطلاحية يعبر بها عما دل عليه كلامهم في الجملة ، وذلك بمنزلة تنوع اللغات ، وتركيب الألفـاظ المفردات ، وإنما المقصود أن المعنى الذي يقصده المثبتة والنفاة بلفظ الجوهر الفرد لم يـبن عليها أحد من سلف الأمة وأئمتها مسألة واحدة من مسائل الدين ، ولا ربطوا بذلك حكماً علمياً ولا عملياً .

فدعـوى المدعـي انبناء أصل الإيمان بالله واليوم الآخر على ذلك ، يضاهي دعوى المدعـي أنما بينوه من الإيمان بالله واليوم الآخر ليس هو على ما بينوه ، بل إما أنهم ما كانوا يعلمـون الحق أو يجوزوا الكذب في هذا الباب لمصلحة الجمهور ، كما يقول نحو ذلك من يقوله من المنافقين من المتفلسفة والقرامطة ونحوهم من الباطنية[1] ، فإنهم إذا أثبتوا من أصول الـدين ما يعلم بالاضطرار أنه ليس من أصول الدين ، لزم قطعا تغيير الدين وتبديله ، وبهذا زاد أهل هذا الفن في الدين ونقصوا منه علماً وعملاً .

وإذا كـان كذلك لم يكن الخوض في هذه المسألة مما يبنى الدين عليه ، بل مسألة من مسائل الأمور الطبيعية كالقول في غيرها من أحكام الأجسام الكلية "[2] .

وفي هذا النص ينقد شيخ الإسلام رحمه الله ربط المذهب الأشعري لمسألة الجوهر الفرد بمسـألة الإيمان بالله ، من حيث جعله لمسألة طبيعية مختلف فيها أصلاً ينبني عليه الدين ، وفي هذا مخالفة ضرورية لما جاء به الرسول ﷺ من الدين ، ويلزم عن ذلك لوازم فاسدة:

---

(١) نسـبة إلى الباطن ، وهم قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض ، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام ، ومحصل أقوالهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث ، ولكنهم لا يظهرون هذا ، وسموا بذلك لأنهم يزعمون أن لظواهـر النصوص الشرعية بواطن تخالف ظواهرها وهم فرق كثيرة ، ولهم أسماء متعددة ، وضررهم على الإسلام أعظـم من ضرر كثير من المشركين . انظر: الفرق بين الفرق (ص ٢٨٢) ، التبصير في الدين للأسفراييني (ص ١٤٠-١٤٧) ، تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص ٩٩) ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي (ص ٧٩) .

(٢) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢٨٣/١) .

منها: الطعن في الرسول ﷺ وأصحابه وسلف الأمة حيث لم يعلموا الدين ، أو علموه ولم يبلغوه للأمة كما تزعم بعض الفرق الغالية .

ومنها : تغيير الدين وتبديله ، عندما تزاد فيه مسائل وتجعل أصلاً له يبنى عليها .

والصـواب أن تجعل هذه المسألة ونظائرها من المسائل الطبيعية بعيدة عن الدين ، ولا يبنى عليها أي أمر من أمور الدين ويقتصر في الدين على ما ورد في الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة والأئمة .

٢- أن هـذه الطـريقة طويلة ، كثيرة المقدمات ، ينقطع السالكون فيها كثيراً قبل الوصـول ومقـدما ا في الغالـب إما مشتبهة يقع الـ اع فيها ، وإما خفية لا يدركها إلا الأذكياء[1] ، فكيف تجعل أصل الدين ودليلاً على وجود الله تعالى .

وقـد اضطرب فيها كبار المعتزلة والأشاعرة أنفسهم ، وشكوا فيها ، ونفوها في آخر عمرهم '' كإمام المتأخرين من المعتزلة أبي الحسين البصري[2] ، وإمام المتأخرين من الأشعرية أبي المعـالي الجويني ، وإمام المتأخرين من الفلاسفة والمتكلمين أبي عبدالله الرازي ، فإنه في كـتابه بعد أن بين توقف المعاد على ثبوته ، وذكر ذلك غير مرة في أثناء مناظرته للفلاسفة قال في المسألة لما أورد حجج نفاة الجوهر الفرد فقال: وأما المعارضات التي ذكروها ، فاعلم أنـا نمـيل إلى التوقف في هذه المسألة ؛ بسبب تعارض الأدلة ، فإن إمام الحرمين صرح في كتاب التلخيص في أصول الفقه أن هذه المسألة من محارات العقول ، وأبو الحسين البصري هو أحذق المعتزلة توقف فيها ، فنحن أيضا نختار التوقف .

فأي ضلال في الدين وخذلان له أعظم من مثل هذا ''[3] .

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٢/٢) .

(٢) محمـد بـن علـي بن الطيب البصري المعتزلي ، أبو الحسين المتكلم ، شيخ المعتزلة ، كان من أذكياء زمانه ، له مصـنفات عديدة ، مات سنة ٤٣٦ هـ . انظر: تاريخ بغداد للخطيب (١٠٠/٣) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ٥٨٧) ، شذرات الذهب لابن العماد (٢٥٩/٣) .

(٣) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢٨٤/١) ، وللاستزادة انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٨٥/١) .

٣- أن ناية هذه الطريق وحاصلها بعد التعب الكثير خير قليل ، وهذا شأ ا ، وشأن الطـرق القياسية ، فهي تدل على إثبات واجب وجود غير معين ، بمعنى أ ا تدل في ايتها على وجود محدِث ، وهذا المحدث ليس معيناً ، بل هو وصف كلي يقبل الشركة ، فحاصل هذا الدليل وصفية مطلقة كلية .

بخلاف طريق القرآن فإ ا فطرية قريبة موصلة إلى عين المطلوب ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾[1] فهذا استفهام انكار ، بمعنى أؤجدوا من غـير مبدع ؟ أم أوجدوا أنفسهم ، وهم يعلمون أ م لم يكونوا من غير مكون ، ويعلمون أ م لم يكونوا أنفسهم ، وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة ، لا يحتاج أن يستدل عليه : بأن كل كائن محدث ، فهذه القضية الكلية وإن كانت صادقة ، لكن العلم بالقضية الجزئية أوضح منها ومتقدم عليها ، كما نعلم بأن العشرة ضعف الخمسة ، وعلمنا هذا ليس موقوفاً على الكلية أن كل عدد له نصفان ، فهو ضعف نصفيه[2] .

٤- أن ايـة هـذه الطريق الإقرار بوجود محدِث فقط ، بينما اية الطريق القرآني عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، التي هي كمال النفوس وصلاحها وغايتها و ايتها[3] .

٥- أن كـثيراً من مقدمات هذا الدليل باطلة ، وسوف أستعرض فيما يلي بعض ما فيها من الباطل ، فمن ذلك :

أ- قولهم إن الأجسام تنقسم حتى تصل إلى مرحلة لا تقبل فيها القسمة وهي الجواهر الفردة التي لا تتجزأ ، فالتحقيق: " أن الأجسام إذا تصغرت أجزاؤها فإ ا تستحيل ، كما هو موجود في أجزاء الماء إذا تصغر فإنه يستحيل هواء أو تراباً ، فلا يبقى موجود ممتنع عن

---

(١) سورة الطور آية رقم (٣٥) .

(٢) انظر فيما سبق : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٢ ، ٢٢) .

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢/٢) .

القسمة كما يقوله المثبتون له ، فإن هـذا باطل بما ذكره النفاة من أنه لا بد أن يتميز جانب له عن جانب .

ولا يكون قابلاً للقسمة إلى غير نهاية ، فإن هذا أبطل من الأول ، بل يقبل القسمة إلى حد ، ثم يستحيل إذا كان صغيراً .

ولـيس استحالة الأجسام في صغرها محدوداً بحد واحد ، بل قد يستحيل الصغير وله قـدر يقبل نوعاً من القسمة ، وغيره لا يستحيل حتى يكون أصغر منه ، وبالجملة فليس في شيء منها قبول القسمة إلى غير نهاية ، بل هذا إنما يكون في المقدرات الذهنية ، فأما وجود مالا يتناهى بين حدين متناهيين فمكابرة ، وسواء كان بالفعل أو بالقوة .

ووجـود موجود لا يتميز جانب له عن جانب مكابرة ، بل الأجسام تسـتحيل مع قبول الانقسام ، فلا يقبل شيء منها انقساماً لا يتناهى كما أنها إذا كثرت وعظمت تنتهي إلى حد تقف عنده ولا تذهب إلى أبعاد لا تتناهى ''[١] .

وفي هذا النص يبين شيخ الإسلام رحمه الله القول الصواب في مسألة تكون الأجسام ، وأنهـا تتكون من أجزاء صغيرة ، لكنها عند قسمتها تستحيل إلى أشياء أخرى ، ولا تستمر في القسمة إلى ما لا نهاية ، كما أنها لا تقف عند الجوهر الفرد .

كما نقد شيخ الإسلام رحمه الله الفريقين : القائلين بالجوهر الفرد ، ونفاته من القائلين بـأن الأجسـام تنقسم إلى ما لا نهاية ، وبين أن قول الفريق الثاني لا يقل فساداً عن قول أصحاب الجوهر الفرد ، وذكر بعض ما اعترض به على الفريقين .

فقـد اعترض على أصحاب الجوهر بامتناع وجود موجود لا يتميز جانب منه عن جانب وإثبات موجود بهذه الصفة مكابرة .

---

(١) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢٨٥/١) . وللاستزادة انظر: الصفدية (١١٨/١)

كمـا اعترض على القائلين بأن الأجسام تنقسم إلى ما لا اية : بأنه لا يمكن وجود موجود لا يتناهى بين حدين متناهيين ، والقول بذا مكابرة أيضاً .

ب- ومن ذلك قولهم بتماثل الأجسام باعتبار أ ا مكونة من الجواهر الفردة ، فقد قرر شـيخ الإسـلام رحمه الله أنه ليس في " اللغة التي نزل با القرآن تطلق لفظ المثل على كل جسـم ، ولا أن اللغـة التي نزل با القرآن تقول: إن السماء مثل الأرض والشمس والقمر والكواكب مثل الجبال ، والجبال مثل البحار ، والبحار مثل التراب ، والتراب مثل الهواء ، والهواء مثل الماء ، والماء مثل النار ، والنار مثل الشمس ، والشمس مثل الإنسان ، والإنسان مثل الفرس ، والفرس مثل الحمار ، والفرس والحمار مثل السفرجل والرمان ، والرمان مثل الذهب والفضة ، والذهب والفضة مثل الخبز واللحم .

ولا في اللغـة التي نزل با القرآن أن كل شيئين اشتركا في المقدارية بحيث يكون كل مـنهما له قدر من الأقدار كالطول والعرض والعمق أنه مثل الآخر ، ولا أنه إذا كان كل مـنهما بحيث يشار إليه الإشارة الحسية يكون مثل الآخر ، بل ولا فيها إن كل شيئين كانا مـركبين من الجواهر الفردة ، أو من المادة والصورة كان أحدهما مثل الآخر ، بل اللغة التي نـزل بـا القرآن تبين أن الإنسانين مع اشتراكهما في أن [كلا] منهما جسم حساس نام متحـرك بالإرادة ناطق ضحاك بادئ البشرة ، قد لا يكون أحدهما مثل الآخر كما قـال تعـالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾(١) "(٢) .

وفي هذا النص يبطل شيخ الإسلام رحمه الله زعمهم بتماثل الأجسام حتى على تقدير القول بكو ا مكونة من الجواهر الفردة كما تقوله الأشاعرة ، أو من الهيولى والصورة كما تقـوله الفلاسـفة ، فعلى التقديرين لا يقال إ ا متماثلة ، والله تعالى نفى التماثل بين البشر

(١) سورة محمد آية رقم (٣٨) .

(٢) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٥١٧/١) .

بعضهم مع بعض كما في الآية المذكورة ، فكيف تجعل جميع الأجسام متماثلة ، وتطلق عليها هذه القضية الكلية .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' ولا ريب أن قولهم بتماثل الأجسام قول باطل سواء فسروا الجسم بما يشار إليه ، أو بالقائم بنفسه ، أو بالموجود ، أو بالمركب من الهيولى والصورة ونحو ذلك ، فأما إذا فسروه بالمركب من الجواهر المفردة وعلى أنها متماثلة ، فهذا ينبني على صحة ذلك ، وعلى إثبات الجوهر الفرد ، وعلى أنه متماثل ، وجمهور العقلاء يخالفونهم في ذلك ''[١] .

ج- ومن ذلك قولهم: إن الجواهر الفردة متماثلة ، فقد اعترض عليه بأنه موقوف على ثبوت الجوهر الفرد أولاً ، وعلى تقدير ذلك فهو ليس مما يدرك بالحس فكيف يزعم تماثله ، بل يقال كما قيل في الأجسام من جهة عدم التماثل[٢] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' وهذا أمر يشهد له الحس ، فإن أجزاء الماء وإن تفرقت وتصاغرت ليست في الحقيقة مثل أجزاء التراب ، ولا أجزاء الذهب وإن تصاغرت مثل أجزاء الفضة ، وإن كانت هذه الأجزاء الصغار ليست هي الجواهر المنفردة ، بل تلك أصغر منها .

فإما أن يستدل بما شهد في المحسوسات على مالم يعلم منها ، وبقياس غائبها عن الإدراك على شاهدها ، فهذا من أوضح القياس وأثبته ، وهو قياس الأجزاء المتساوية في الحقيقة بعضها على بعض في حكم تلك الحقيقة ، فإن تفاوتها بالصغر والكبر لا يوجب

---

(١) المصدر السابق (٥١٨/١) . وللاستزادة انظر: نفس المصدر (٥٢٢/١) .
(٢) انظر : المصدر السابق (٢٣٤/٢) .

اخـتلاف حقيقتها وصفتها ، وإما أن [لا][(١)] يقال: إن ذلك الجزء الذي لا ينقسم لا يعلم حكمه .

أمـا أن يقال: إن الأمور المختلفة في الحقيقة يجب أن تكون أجزاؤها المساوية لها في الحقيقة متماثلة في الحقيقة ، فهذا مما يعلم ببديهة العقل بطلانه ''[(٢)] .

د- ومـن ذلك قولهم : إن الجواهر الفردة في حركة مستمرة اجتماع وافتراق ، فهذا القـول '' مبني على مسألة الجوهر الفرد ، ومن قال: إن الأجسام ليست مركبة من الجواهر الفردة وهم أكثر الطوائف ، لم يقل بأن الجسم لا يخلو من الاجتماع والافتراق ، بل الجسم البسيط عنده واحد ، سواء قبل الافتراق أو لم يقبله ، وكذلك إذا قدر أن فيه حقائق مختلفة متلازمة لم يلزم من ذلك أن يقبل الاجتماع والافتراق ''[(٣)] .

هـ - ومن ذلك قولهم: إن العرض لا يبقى زمانين ، فهذا القول على إطلاقه باطل ؛ لأن من الأعراض ما يبقى كالألوان وبعض الصفات كالطول والقصر ونحوها ، ومنها ما لا يبقى كالحركات والأصوات ، فجعل البابين باباً واحداً مكابرة ومخالفة للحس .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : '' قول القائل: إن العرض الذي هو السواد والبياض والطول والقصر ونحو ذلك لا يبقى زمانين ، قول محدث فى الإسلام لم يقله أحد من السلف والأئمـة ، وهـو قول مخالف لما عليه جماهير العقلاء من جميع الطوائف ، بل من الناس من يقول: أنه معلوم الفساد بالاضطرار كما قد بسط فى موضع آخر ''[(٤)] .

---

(١) كذا في الأصل ، ولعل الصواب حذف ما بين المعكوفتين .
(٢) المصدر السابق (٢٤٧/٢) .
(٣) المصدر السابق (٥٩٩/١) .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣١٨/١٢-٣١٩) .

ويقـول في موضع آخر: '' و كذلك الذين قالوا بأن العرض لا يبقى زمانين خالفوا الحـس وما يعلمه العقلاء بضرورة عقولهم ، فإن كل أحد يعلم أن لون جسده الذي كان لحظة هو هذا اللون ، وكذلك لون السماء والجبال والخشب والورق وغير ذلك ''[(١)] .

و- ومـن ذلـك تقريرهم أن الخلق يكون باجتماع الجواهر ، فهذا أمر باطل عقلاً وشـرعاً وحسـاً كما يشاهد في خلق الإنسان وتكوينه ، فليست اجتماعاً للجواهر كما يزعمون ، بل هو إحداث للأعيان .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : '' فإن كون الإنسان مخلوقا محدثا كائنا بعد أن لم يكن أمر معلوم بالضرورة لجميع الناس ، وكل أحد يعلم أنه حدث فى بطن أمه بعد أن لم يكن ، وأن عيـنه حدثت ، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾[(٢)] ، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[(٣)] ''[(٤)] .

ثانياً : نقض شيخ الإسلام لشبههم في قضية الحكمة والسببية في أفعال الله تعالى:

وللأشاعرة في هذه القضية شبهتان :

الأولى : وموجزها : أن من فعل فعلاً لغرض كان كاملاً عند حصول الغاية ، وناقصاً عند عدمها .

---

(١) مجمـوع فتاوى شيخ الإسلام (٢٧٥/١٦) ، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨٤/٩) ، بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٤٢١) ، بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٣٨٧/٢) .

(٢) سورة مريم آية رقم (٩) .

(٣) سورة مريم آية رقم (٦٧) .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٧٠/١٦) ، وللاستزادة انظر: تفسير سورة الإخلاص - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسـلام (٢٤٤/١٧ ، ٣٢٢- ٣٢٣) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (١٣٨/٢) ، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٩١/٢ ، ٢٣٢/٧) .

وقد نقضها شيخ الإسلام رحمه الله من وجوه :

الأول : '' أن هـذا مـنقوض بنفس مـا يفعله من المفعولات ، فما كان جواباً فى المفعولات كان جواباً عن هذا ، ونحن لا نعقل فى الشاهد فاعلا إلا مستكملاً بفعله .

الـثانى: أ م قالوا: كماله أن يكون لا يزال قادرا على الفعل بحكمة ، فلو قدر كونه غير قادر على ذلك لكان ناقصاً .

الثالث: قول القائل: أنه مستكمل بغيره باطل ، فإن ذلك إنما حصل بقدرته ومشيئته لا شـريك لـه في ذلك ، فلم يكن فى ذلك محتاجاً إلى غيره ، وإذا قيل: كمل بفعله الذي لا يحتاج فيه إلى غيره ، كان كما لو قيل: كمل بصفاته ، أو كمل بذاته .

الـرابع: قول القائل: كان قبل ذلك ناقصاً ، إن أراد به عدم ما تجدد ، فلا نسلم أن عدمـه قبل الوقت الذي اقتضت الحكمة وجوده فيه يكون نقصاً ، وإن أراد بكونه ناقصاً معنى غير ذلك فهو ممنوع ، بل يقال: عدم الشيء فى الوقت الذي لم تقتض الحكمة وجوده فـيه من الكمال ، كما أن وجوده فى وقت اقتضاء الحكمة وجوده فيه كمال ، فليس عدم كل شيء نقصاً ، بل عدم ما يصلح وجوده هو النقص ، كما أن وجود مالا يصلح وجوده نقص .

فتبين أن وجود هذه الأمور حين اقتضت الحكمة عدمها هو النقص ، لا أن عدمها هو الـنقص ، ولهـذا كان الرب تعالى موصوفاً بالصفات الثبوتية المتضمنة لكماله ، وموصوفاً بالصفات السلبية المستلزمة لكماله أيضا ، فكان عدم ما ينفى عنه هو من الكمال ، كما أن وجـود ما يستحق ثبوته من الكمال ، وإذا عقل مثل هذا فى الصفات فكذلك فى الأفعال ونحوها وليس كل زيادة يقدرها الذهن من الكمال ، بل كثير من الزيادات تكون نقصاً فى كمـال المـزيد كما يعقل مثل ذلك فى كثير من الموجودات ، والإنسان قد يكون وجود أشياء في حقه فى وقت نقصاً وعيباً ، وفى وقت آخر كمالاً ومدحاً فى حقه ، كما يكون فى وقت مضرة له ، وفي وقت منفعة له .

الخـامس: أنا إذا قدرنا من يقدر على إحداث الحوداث لحكمة ، ومن لا يقدر على ذلك كان معلوماً ببديهة العقل أن القادر على ذلك أكمل ''[١] .

الشبهة الثانية : وموجزها : أن أفعاله لو كانت معللة بعلة ، فتلك العِلة إما أن تكون قديمـة أو محدثة ، فإن كانت قديمة لزم منه قدم المخلوقات ، وهو محال ، وإن كانت حادثة فهي بحاجة إلى علة ، وذلك يفضي إلى التسلسل وهو محال .

وقد نقضها شيخ الإسلام من وجهين :

أحـدهما : يقال لهم : '' القول فى حدوث هذه الحكمة كالقول فى حدوث سائر ما أحدثـه من المفعولات - ونحن نخاطب من يسلم لنا أنه أحدث المحدثات بعد أن لم تكن - فإذا قلنا: إنه أحدثها بحكمة حادثة لم يكن له أن يقول هذا يستلزم التسلسل ، بل نقول له: القول فى حدوث الحكمة كالقول فى حدوث المفعول المستعقب للحكمة ، فما كان جوابك هذا كان جوابنا عن هذا ''[٢] .

الآخر : أن غاية ما يستلزم هذا الدليل القول بالتسلسل ؟ لكن أي نوعي التسلسل هو اللازم ؟ التسلسل الممتنع كالتسلسل في العلل الفاعلة المؤثرة ؟ أو التسلسل الجائز كالتسلسل في الآثار والشروط ؟

لا شـك أن الممتـنع ليس هو المقصود ، فنحن لا نتكلم عن فاعلين ، بل نتكلم عن التسلسل في الآثار والشروط ، وهذا جائز ولم يقم دليل على امتناعه ، وهو من التسلسل في المستقبل .

---

(١) أقوم ما قيل في المشيئة والحكمة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤٦/٨-١٤٧) .

(٢) أقوم ما قيل في المشيئة والحكمة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥١/٨) . وقد عقب شيخ الإسلام رحمه الله في نفس المصدر على هذا الوجه ، وبين أن هذه الحجة جدلية إلزامية لا تشفي الغليل ، وليست هي المعتبرة في الرد علـى هـذه الشـبهة ، بل المعتبر هو الوجه الثاني ، ولو قدر أن القول بالحكمة يستلزم التسلسل في الآثار في الماضي والمستقبل ، فذلك جائز ، وهو ما عليه السلف والأئمة .

يقـول شـيخ الإسلام رحمه الله : " يقال هذا التسلسل في الحوادث المستقبلة لا في الحـوادث الماضية ، فإنه إذا فعل فعلاً لحكمة كانت الحكمة حاصلة بعد الفعل ، فإذا كانت تلـك الحكمـة يطلب منها حكمة أخرى بعدها كان تسلسلاً في المستقبل ، وتلك الحكمة الحاصـلة محـبوبة له ، وسبب لحكمة ثانية ، فهو لا يزال سبحانه يحدث من الحكم ما يحبه ويجعلـه سبباً لما يحبه ... والتسلسل في المستقبل جائز عند جماهير المسلمين وغيرهم من أهل الملل ، وغير أهل الملل ، فإن نعيم الجنة وعذاب النار دائمان مع تجدد الحوادث فيهما "[1] .

ثالـثاً : نقـض شـيخ الإسلام لشبههم في **قضية نفي الحسن والقبح العقليين عن الأفعال:**

وللأشاعرة في هذه القضية ثلاث شبه:

الأولى : وموجزها : لو اتصفت الأفعال بالصفات لكان في ذلك قيام العرض بالعرض وهو محال .

وقـد نقضها شيخ الإسلام من جهة أن قيام العرض بالعرض ليس بلازم أصلاً لقضية الحسـن والقـبح ؛ لأن الأعراض توصف بالصفات فيقال: علم ضروري ، وعلم كسبي ، وإرادة جازمـة ، وحركة سريعة ، وحركة بطيئة ، وحركة مستديرة ، وحركة مستقيمة ، ومزاج معتدل ، ومزاج منحرف ، وحمرة قانية ، وخضرة ناصعة ، ولون مشرق ، وصوت شج ، وحس رخيم ورفيع ، وهي وصفا ا قائمة بالعين الموصوفة ، فلم يقم عرض بعرض .

يقـول شيخ الإسلام رحمه الله : " فإن إثبات هذا لا يحتاج إلى قيام العرض بالعرض كمـا توصف الأعراض بالصفات ، وجميع ذلك قائم بالعين الموصوفة ، فنقول: هذا سواد شـديد ، وهذه حركة سريعة وبطيئة ، وهم يسلمون أن كون الفعل صفة كمال ، أو صفة

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (١٤٦/١-١٤٧) .

نقـص ، أو ملائماً للفاعل ، أو منافراً له قـد يعلم بالعقل ، وهذه صفـات للفعل وهي قائمـة بالموصوف ''[١] .

الشـبهة الثانية : وموجزها أن العبد مجبور ، وا بور لا يتصور في أفعاله حسن ولا قبح .

وقد نقضها شيخ الإسلام رحمه الله بتفصيلها وبيان ما فيها من الألفاظ ا ملة ، فكلمة جبر فيها اشتراك وإجمال ، فقد يراد با ما يفعل بدون إرادة ا بور ، بل مع كراهته ، كما يكـره الأب ابنـته على النكاح ، وكما يكره ولي الأمر المدين على وفاء دينه ، فهذا معناه إجبار الشخص على خلاف مراده ، وهو نظير الإكراه ، وفيه حمل الإنسان غيره على فعل يكـرهه ويبغضه ، فيفعله خوفاً من وعيده ، أو يفعل به الشيء بغير فعل منه ، وهو الإلجاء كما لو حمل إنسان نظيره فألقاه على غيره فأضر به .

وهذا المعنى منتف في حق الله تعالى ، فالله تعالى لا يكره أحداً ، وهو أعظم من أن يجبر أحـداً علـى فعل لا يريده ؛ لأن الإكراه والجبر بذا المعنى لا يكون إلا من العاجز الذي لا يسـتطيع أن يجعل غيره يفعل الفعل بإرادته ، فيجبر عليه إجباراً ، والله تعالى على كل شيء قدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فليس بحاجة إلى أن يجبر العباد على أمر لا يريدونه .

وقـد يراد بالجبر خلق الإرادة ، بمعنى أن الله تعالى خلق العبد مريداً للشيء فاعلاً له ، سواء اختاره محبة وطوعاً كما هو شأن الأفعال التي يفعلها العبد مع محبته لها ، أو اختاره مع بغضـه لـه وكراهته كما هو شأن الأفعال التي يفعلها العبد بإرادته مع كراهته لها ، كما

---

(١) الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٤٢١-٤٢٢) .

يشرب المريض الدواء المر بإرادته مع كراهته له ، فهو على التقديرين فعله بإرادته واختياره ، وهذا المعنى حق ، ولكن لا ينبغي أن يسمى جبراً ، لئلا يلتبس بالمعنى الباطل(١) .

ونأتي الآن إلى مراد الأشاعرة بالجبر في هذه الشبهة ، فقد فسر الرازي وغيره الجبر في هذه الشبهة بأنه عند حصول القدرة والداعي فيجب الفعل ، والداعي لا يمكن أن يكون من العـبد لأنه يلزم من ذلك التسلسل ، فلا بد أن يكون من الله تعالى ، ووجوب الفعل معناه الجبر(٢) .

والجواب أن يقال: عند حصول القدرة والداعي يجب الفعل ، وهذا يدل على أن الله تعـالى خالق أفعال العباد ، وهذا أمر يقر به أهل السنة والجماعة ، ولهذا يتوجه هذا الدليل على المعتزلة الذين يدعون أن العباد يخلقون أفعالهم(٣) .

ولا يلـزم مـن ذلـك الجبر الباطل ؛ لوجود الإرادة عند العبد ، وهذه الإرادة وإن اسـتندت إلى الله تعالى إلا أ ا تقتضي الاختيار المنافي للجبر ، فتسمية ذلك جبراً تناقض في اللفظ والمعنى .

أما في اللفظ فكيف يقال عن العبد : إنه مجبر وهو مريد ، فبين اللفظين من التباين ما هو ظاهر لكل ناظر .

وأمـا في المعنى فيقال: كيف يكون مريداً مختاراً وهو في الحقيقة مكره مجبور مقسور على أفعاله ، فبين المعنيين من التنافي ما بينهما .

---

(١) انظر فيمـا سبق: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢٥٥/١-٢٥٦) ، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/ ٣٦ ، ٢٤٥-٢٤٨) ، أقـوم مـا قيل في المشيئة والحكمة - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣٢/٨) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٦٢/٨-٤٦٥) .

(٢) انظر التعليق في الحاشية (ص٧٧٢) .

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٥١/٣) .

فإن قيل: المراد بذلك أن الله تعالى جعل العبد مريداً بدون إرادة منه متقدمة اختار أن يكون مريداً بها .

فالجواب: من وجهين :

أحدهما: أن هذا المعنى حق ولا تضره التسمية الباطلة بالقسر والجبر .

الآخر: أن هذا لا يناقض كون العبد مريداً مختاراً ؛ لأن من جعل مريداً مختاراً ، فقد ثبتت له الإرادة والاختيار ، والشيء لا يناقض ذاته ولا لازمه ، فلا يجوز أن يقال: كيف يكون المختار قد جعل مختاراً ، والمريد مريداً[(١)] .

ونأتي الآن إلى الجزء المقصود وهو الاستدلال بالجبر على نفي الحسن والقبح فنقول: كون الله تعالى خالقاً لأفعال العباد ، وكون العبد مريداً مختاراً لا ينافي كون الفعل في نفسه منقسماً إلى حسن وقبيح ، ملائم ومنافر.

بل الذي يتنافى مع الحسن والقبح هو الجبر بمعنى الإكراه والإلجاء نظراً لعدم إرادة العبد واختياره ، أما إذا ثبتت له الإرادة والاختيار ، فيثبت له الحسن والقبح .

والأشاعرة لم يقيموا الدليل على بطلان الحسن والقبح عندما يكون العبد مريداً مختاراً وإن سموه مجبراً ، فالتسمية اللفظية لا تغير شيئاً من الحقيقة الخارجية ، ولا ينبغي أن تبنى عليها الأحكام الشرعية أو العقلية .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " ومن المعلوم أن هذا المعنى الذي سموه جبراً لا ينافي أن يكون الفعل نافعاً وضاراً ومصلحة ومفسدة ، وجالباً للذة وجالباً للألم ، فعلم أنه لا ينافي

---

(١) انظر فيما سبق: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٨١/٨) .

حسن الفعل وقبحه ، كما لا ينافي ذلك سواء كان ذلك الحسن معلوماً بالعقل ، أو معلوما بالشرع ، أو كان الشرع مثبتاً له لا كاشفاً عنه ''[١] .

الشـبهة الثالثة : وموجزها : لو كان قبح الكذب ذاتيا لما تخلف عنه ؛ لأن ما بالذات لا يزول .

وقد نقضها شيخ الإسلام من وجهين :

أحدهما : أنه ليس معنى كون الفعل حسناً أو قبيحاً أن ذلك لازم له لا يتخلف عنه ، بـل هذا الصفات من الأمور العارضة للأفعال بحسب ملاءمتها ومنافر ا ، وتتنوع بحسب تنوع أفعاله ، بمعنى قد يكون الفعل حسناً في وقت ، وقبيحا في وقت بحسب ما يترتب عليه مـن المصلحة والمفسدة من جنس الدواء المعين ، فإنه يكون حسناً نافعاً في حالات ، وضاراً في حالات أخرى .

يقـول شـيخ الإسـلام رحمه الله : '' وتحقيق الأمر أن الأحكام للأفعال ليست من الصفات اللازمة ، بل هي من العارضة للأفعال بحسب ملاءمتها ومنافر ا ، فالحسن والقبح بمعـنى كـون الشـيء محبوباً ومكروهاً ونافعاً وضاراً وملائماً ومنافراً ، وهذه صفة ثبوتية للموصوف ، لكنها تتنوع بتنوع أحواله فليست لازمة له .

ومن قال: إن الأفعال ليس فيها صفات تقتضي الحسن والقبح ، فهو بم لة قوله: ليس في الأجسـام صفات تقتضي التسخين والتبريد والإشباع والإرواء ، فسلب صفات الأعيان المقتضية للآثار ، كسلب صفات الأفعال المقتضية للآثار ''[٢] .

---

(١) درء تعـارض العقل والنقل لابن تيمية (٧٢/١) . ولابن القيم وجوه في الرد مفصلة على هذه الشبهة انظرها في مفتاح دار السعادة (٢٤/٢-٢٦) .
(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (١٧٨/٣) .

الوجه الآخر : أنه لا يمتنع اجتماع حسن وقبح في فعل واحد باعتبارين مختلفين من جهتين متباينتين فما ذكروه من مسألة الكذب أنه يحسن إذا كان فيه عصمة دم نبي ، فهو قبيح من جهة نفسه وذاته ، وحسن من جهة تضمنه عصمة الدم ، وهذا أمر معقول في كثير من الأفعال ، قد يكون قبيحاً من جهة ، وحسناً من جهة أخرى .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : " فنحن نعقل ونجد أن الفعل الواحد من الشخص أو من غيره يجلب له منفعة ومضرة معا ، كالرجل يكون له عدوان يقتل أحدهما صاحبه ، فيسر من حيث عدم عدو ، ويساء من حيث غلب عدو ، ويكون له صديقان يعزل أحدهما صاحبه ، فيساء من حيث انعزال الصديق ، ويسر من حيث تولى صديق ، وأكثر أمور الدنيا من هذا ، فإن المصلحة المحضة نادرة ، فأكثر الحوادث فيها ما يسوء ويسر ، فيشتمل الفعل على ما ينفع ويحب ويراد ويطلب ، وعلى ما يضر ويبغض ويكره ويدفع "[١] .

وقد وقفت لوجوه أخرى من الرد على هذه الشبه ذكرها العلامة ابن القيم رحمه الله أذكر منها وجهين :

١- أنه يجوز اقتضاء الذات الواحدة لأمرين متنافيين بحسب شرطين متنافيين[٢] ، فمثلا السكر الذي يتناوله الإنسان يقتضي الصحة بشرط سلامة البدن من المرض المنافي له ، ويقتضي المرض عندما يكون الجسم مريضاً مرضاً يتضرر بتناول السكر ، فهذه ذات واحدة اقتضت أمرين متنافيين بحسب شرطين متنافيين .

٢- أن صفة الفعل قد تتخلف عنه لفوات شرط أو قيام مانع ، فمثال الكذب الذي ذكروه وأنه يحسن إذا كان فيه عصمة دم نبي ، إنما لم يقبح لتخلف شرطه أو وجود مانع يقتضي مصلحة ترجحه على الصدق ، وهي عصمة دم النبي ، لكن هذا لا يعني أن ذات الكذب غير قبيحة ، بل هي قبيحة ، وهذا من جنس تناول الميتة عند الضرورة ، فإن هذا

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٧/١٩-٢٩٨) .

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٣٦/٢) .

الفعل حسن لتضمنه مصلحة حفظ النفس ، وإن كان تناول الميتة قبيح بالنظر إلى ذات الفعل لكن تخلف عنها القبح لوجود تلك المصلحة[١] .

وبـهـذا ينتهـي نقض شيخ الإسلام رحمه الله لشبه الأشاعرة ، وأنتقل بعده إلى أوجه الاتفاق والخلاف بين الطوائف في السببية .

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٣٧/٢) .

الفصل الخامس

مقارنة بين آراء الطوائف

في موضوع السببية

وفيه مبحثان :

المبحث الأول: أوجه الاتفاق بين الطوائف في السببية .

المبحث الثاني: أوجه الاختلاف بين الطوائف في السببية .

تمهيد

تقدم فيما سبق بيان أقوال الفرق والطوائف في السببية وبعض ما يرتبط با من مسائل وسوف أستعرض في هذا الفصل المسائل المتفق عليها والمختلف فيها بين تلك الطوائف ، وسيكون الكلام في هذه القضايا مندرجاً في مبحثين :

الأول: أوجه الاتفاق بين الطوائف في السببية .

الثاني: أوجه الاختلاف بين الطوائف في السببية .

وسوف أسلك في هذا المقام سبيل الإيجاز والاختصار ؛ لأن أقوال الفرق والطوائف سبق بيا ا في الفصول السابقة ، والمقصود من هذا الفصل المقارنة وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف وليس إعادة ما سبق .

وينبغي التنبه هنا إلى أن المقارنة في هذا الباب مختصة بباب السببية ، ولا تشمل جميع ما تحتويه هذه المذاهب من مسائل ، ولذلك لا ينبغي أن يرتب على هذه المقارنة حكم عام على الفرقة من حيث البعد والقرب من مذهب أهل السنة والجماعة إلا مقيداً بباب السببية ، وسوف أشير إلى هذه المسألة في ختام هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

المبحث الأول

أوجه الاتفاق بين الطوائف

في السببية

أوجه الاتفاق بين الطوائف في السببية

عندما نتكلم عن أوجه الاتفاق بين الطوائف في السببية فإن هذا لا يعني بالضرورة اتفاق جميع الفرق على مسألة المعينة باعتبار واحد ، بل المقصود من ذلك حصول الاتفاق على قضية معينة ولو من طائفتين مع مخالفة بقية الطوائف .

وسوف أستعرض هنا الفرق والطوائف والمقالات التي اتفقت فيها مع غيرها .

أولاً : الفلاسفة :

يتفقون مع أهل السنة والجماعة وبعض الطوائف الأخرى في المسائل الآتية :

١- يثبتون السببية الغائية ، وهي التي لأجلها يكون الشيء ، ويتفق معهم في ذلك أهل السنة والجماعة ، ويطلقون عليها مسمى الحكمة والغاية ، وتتفق معهم أيضاً المعتزلة .

٢- يثبتون السببية الطبيعية ، وهي الطبائع الموجودة في الجمادات ، ويتفقون في ذلك مع السلف والمعتزلة ، لكن لهم تفصيل في هذه القضية يخالف مذهب السلف سيأتي ذكره في أوجه الاختلاف .

٣- يشترط الفارابي وهو من الفلاسفة لفعل الأسباب الطبيعية وجود السبب الفاعل والمحل القابل ، وهذا موافق لمذهب السلف ، ولكن عند السلف زيادة على ما قرره ، وهي مسألة زوال الموانع .

هذا ما وقفت عليه من أوجه الاتفاق بين الفلاسفة من جهة وأهل السنة والجماعة وبقية الطوائف من جهة أخرى .

ثانياً : الصوفية :

تقدم فيما سبق بيان أن الصوفية اسم يشمل مجموعة من الطوائف وليست طائفة واحدة ، والجميع يدخل تحت مسمى الصوفية ، وتعدد طوائف الصوفية يجعل منهم خليطاً متناقضاً يحمل آراءً متعددة في مسألة الأسباب ، ففي نفس المسألة نجد لكل طائفة قولها الذي توافق فيه بعض الطوائف الأخرى ، وفيما يلي بيان ذلك :

١- طوائف من قدماء الصوفية خاصة يوافقون مذهب السلف في باب الأسباب كما تقدم ذكر ذلك فيما سبق .

٢- طوائف أخرى من الصوفية منهم الغزالي والهروي ومن تابعهم يوافقون الأشاعرة جزئياً في باب الأسباب ، فلا فاعل عندهم على الحقيقة إلا الله .

٣- طائفة ثالثة من الصوفية يوافقون الملاحدة والزنادقة في نفي الأسباب الشرعية جملة وتفصيلاً عند وصول العبد إلى المرتبة النهائية في العبادة ، فإنه حينئذ تسقط عنه التكاليف الشرعية ؛ بزعم أنه قد بلغ اليقين ، وقد تقدم تفصيل قولهم فيما سبق .

هذا ما وقفت عليه من أوجه اتفاق بين الصوفية من جهة ، وأهل السنة والجماعة وبقية الطوائف من جهة أخرى .

ثالثاً : المعتزلة :

يتفقون مع أهل السنة والجماعة وبعض الطوائف الأخرى في المسائل الآتية :

١- مسألة السببية الطبيعية ، وهي ما تتصف به الأجسام من طبائع كالإحراق في النار فهذا يتفقون فيه مع السلف والفلاسفة ، وإن كان مأخذ مذهب الفلاسفة مخالفاً كما سبق وسيأتي .

٢- صالح قبة من المعتزلة يوافق الأشاعرة في نفي الأسباب الطبيعية .

٣- مسألة الحسن والقبح في الأفعال يثبتو ا ويتفقون مع السلف في ذلك ، وإن كان شطر قولهم الآخر في نفس المسألة مخالفاً لمذهب السلف كما تقدم وسيأتي .

هذا ما وقفت عليه من أوجه اتفاق في مسألة السببية بين المعتزلة من جهة ، وأهل السنة والجماعة وبقية الطوائف من جهة أخرى .

رابعاً: الأشاعرة :

لم أجد مسائل في قضية السببية يتفقون فيها مع السلف ومع بعض الطوائف الأخرى إلا ما ورد عن أبي المعالي الجويني من مقاربة لمذهب السلف في خلق أفعال العباد وهو أحد قوليه في هذه المسألة .

وكذلك ما ورد عن صالح قبة من المعتزلة وموافقته للأشاعرة في نفي السببية الطبيعية .

وبذا ينتهي البحث في مسائل الاتفاق بين الطوائف في مسألة السببية ، وأنتقل بعد هذا إلى البحث في أوجه الاختلاف بين الطوائف فيها .

المبحث الثاني

أوجه الاختلاف بين الطوائف

في السببية

أوجه الاختلاف بين الطوائف في السببية

تقدم فيما سبق بيان أوجه الاتفاق بين الطوائف في مسألة السببية ، وسوف أستعرض في هذا الفصل ما يقابل ما سبق وهي أوجه الاختلاف بين الطوائف في هذه المسألة .

أولاً : الفلاسفة :

يختلفون مع أهل السنة والجماعة وبعض الطوائف الأخرى في المسائل الآتية :

١- في أصل مسبب الأسباب وهو الله سبحانه وتعالى ، فهم إما ملاحدة ينفون وجوده ائياً ، أو يثبتون وجود إله غير مؤثر كما فعل أرسطو ، أو يثبتونه وينفون صفاته بما يجعله كالمعدوم كما فعل الفلاسفة الإسلاميون .

وهم يخالفون في هذا كل طوائف المسلمين من أهل السنة والجماعة والأشاعرة والمعتزلة .

٢- يثبتون العقل الفعال ، ويزعمون أنه جميع الأسباب تستند إليه ، ويخالفون بذلك كل طوائف المسلمين سواء أهل السنة والجماعة أو الأشاعرة أو المعتزلة .

٣- السببية الطبيعية ، فهم وإن كانوا يثبتو ا ويتفقون مع السلف والمعتزلة في ذلك إلا أن جعلها فاعلة بذا ا بدون إذن الله تعالى ومشيئته مخالف لمذهب السلف أشد المخالفة ، ومخالف أيضاً لمذهب المعتزلة ، فلم يقل أحد من المسلمين إن الأسباب فاعلة بذا ا من غير إذن الله تعالى ومشيئته .

ثانياً : الصوفية :

تتميز الصوفية بأ ا وافقت كل الطوائف الأخرى وخالفتهم في نفس الوقت ، لأ ا تنقسم إلى عدة طوائف ، وكل طائفة منها توافق طائفة أخرى في أمور ، وتخالفها في أمور أخرى .

وفيما يلي طوائف الصوفية ومدى مخالفتهم لمذهب السلف:

١- هناك طائفة من الصوفية يوافقون الأشاعرة فينفون الأسباب ، ويقررون أنه لا فاعل إلا الله ، وهذا مخالف لمذهب السلف ، بل وحتى الفلاسفة والمعتزلة تخالفهم في ذلك .

٢- وهناك طائفة أخرى من الصوفية يخالفون مذهب السلف في نفي بعض الأسباب الشرعية عندما يصل العبد إلى مرحلة معينة من العبادة فيسقطون عنه التوكل مثلاً بزعم أنه من مقامات العامة .

٣ـ وهناك طائفة ثالثة من غلاة الصوفية يخالفون مذهب السلف والأشاعرة والمعتزلة في دعوى إسقاط التكاليف عن بعض الناس عندما يصل إلى مرحلة متقدمة في العبادة ، وسبق أن هذا كفر وضلال .

ثالثاً : المعتزلة :

يختلفون مع أهل السنة والجماعة وبعض الطوائف الأخرى في المسائل الآتية :

١- ينفون السببية الحاصلة بين العبد وبين فعله ، ويقررون أن العبد هو الموجد الخالق لأفعاله ، وهذا مخالف لمذهب السـلف الذين يجعلون العلاقة بين قدرة العبد وبين الفعل سببية .

٢- ينفون تأثير الأسباب في مسألة التولد ، فأكثرهم يلحقو ا بالأفعال المباشرة ، وهذا مخالف لمذهب السلف الذين يجعلون المتولدات من باب الأفعال المشتركة بين العبد وبين بقية الأسباب ، فالعبد ليس فاعلاً لوحده فيها بل هو مع الأسباب الأخرى .

٣- يرتبون الثواب والعقاب على مسألة الحسن والقبح في الأفعال ، وهم يتفقون مع السلف إجمالاً في إثبات الحسن والقبح في الأفعال ، لكن يختلفون في ترتيب الثواب والعقاب على ذلك .

وتخالفهم في ذلك الأشاعرة أيضاً ، حيث ينفون صفات الأفعال ائياً ، ولا يرتبون أي جزاء على الأفعال مطلقاً ، بل الجزاء بإرادة الله تعالى وحده ، وليس للأفعال أي أثر فيها .

رابعاً : الأشاعرة :

يختلفون مع أهل السنة والجماعة وبعض الطوائف الأخرى في المسائل الآتية :

١- ينفون السببية الطبيعية ، فلا يؤثر شيء في شيء ، فلا تؤثر النار في الإحراق ، ولا الثلج في التبريد ، ويخالفون في ذلك مذهب السلف والفلاسفة والمعتزلة .

٢- ينفون تأثير العباد في أفعالهم ، فقدرة العبد غير مؤثرة في الفعل ، ويخالفون في ذلك مذهب السلف من جهة أن السلف يثبتون السببية بين قدرة العبد وبين الفعل .

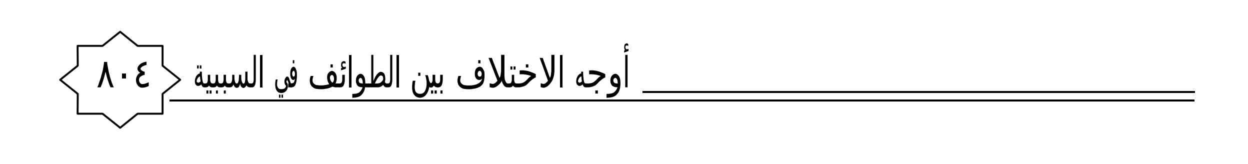
ويخالفون المعتزلة من جهة أن المعتزلة يجعلون قدرة العبد خالقة للفعل .

٣- ينفون صفات الأفعال من الحسن والقبح ، ويخالفون السلف في ذلك ، حيث أن السلف يثبتون ما تتصف به الأفعال من صفات وحسن وقبح .

ويخالفون المعتزلة كذلك من جهة أن المعتزلة يثبتون صفات الأفعال ويرتبون عليها الثواب والعقاب .

٤- ينفون أن يفعل الله تعالى بسبب أو لحكمة ، ويخالفون السلف في ذلك ، حيث أن من مذهب السلف إثبات السببية والحكمة في أفعال الله ، فالله تعالى يخلق بالأسباب ، ويفعل لحكمة يحبها ويريدها .

وتخالفهم المعتزلة كذلك من جهة إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى ، لكنهم يجعلو ا حكمة مخلوقة ويضطربون أشد الاضطراب في تكلف إيجاد تعليلات لأفعال الله تعالى .



وبذا تنتهي المقارنة بين آراء الطوائف في السببية ومن خلال ذلك يتبين لنا أن أبعد الطوائف عن مذهب أهل السنة والجماعة هو مذهب الفلاسفة باعتبارهم ينفون مسبب الأسباب ، ويثبتون أسباب ما أنزل الله بها من سلطان كالعقل الفعال والعقول العشرة .

ويليهم في المرتبة الثانية الأشاعرة فهم وإن كانوا أقرب الطوائف إلى مذهب السلف بصفة عامة إلا أنهم في باب السببية يقفون مع السلف على طرفي نقيض ، وقد تقدم شرح مذهبهم فيما سبق .

ويليهم في المرتبة الثالثة المعتزلة ، فهم وإن كانوا أبعد عن مذهب السلف مقارنة بالأشاعرة إلا أنهم أقرب إلى السلف من الأشاعرة في باب السببية خاصة كما تقدم شرح مذهبهم فيما سبق .

وتبقى الصوفية تأخذ من كل فرقة سهماً ، ففرقة منهم مع السلف تماماً ، وفرقة منهم مع الأشاعرة ، وفرقة منهم مع الزنادقة الملاحدة ؛ ولهذا لا تعطى حكماً كلياً في القرب أو البعد بل يفصل فيها بحسب طوائفها .

الخاتمــة

الخاتمـــة

وخـتاماً أحمد الله تعالى الذي بنعمته تتم الصالحات ، وأشكره على ما وفقني إليه من إتمام هذا البحث الذي توصلت من خلاله إلى النتائج الآتية :

أولاً : سـيرة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تضم في ثناياها الإيمان والعلم والعمل والابـتلاء والصـبر والنصر ، وشخصيته تتمثل فيها العبادة والزهد والسماحة والإحسان والتواضـع والصبر والشكر والعفو والشجاعة والثبات والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ثانياً : دور شيخ الإسلام رحمه الله في بيان مذهب أهل السنة والجماعة كبير ويشتمل علـى عنايته ببيان مذهب السلف عموماً وتقعيد القواعد في ذلك ، وعنايته بالمسائل العلمية الدقـيقة الخفـية وتحريـر مذهب السلف فيها ، وكذا عنايته بالرد التفصيلي الدقيق على المخالفين لطريق السلف ودحضه لشبههم عقلاً ونقلاً.

ثالثاً : أن السبب في اللغة يتعدد معناه بحسب سياق الكلام ، وفي الاصطلاح هو كل شيء توصل به إلى المطلوب .

وتنقسم الأسباب إلى قسمين : أسباب قدرية ، وأسباب شرعية .

والسبب يختلف تعريفه باختلاف الفنون والعلوم ، فالسبب عند الأصوليين يختلف عن السـبب عـند الفقهـاء ، يختلف عن السبب عند أهل العروض ، يختلف عن السبب عند الفلاسفة .

أمـا العِلـة فهـي في اللغة المرض ، وفي الاصطلاح مختلف فيها بين أصحاب العلوم المخـتلفة ، فلـها تعـريف عند المحدثين ، وتعريف عند الفقهاء والأصوليين ، وآخر عند الفلاسفة .

والفـرق بين العِلة والسبب يختلف أيضاً باختلاف العلوم والفنون وأصحابها ، فلكل أصحاب فن قولهم الخاص بهم ، وقد يشترك بعضهم مع بعض في تلك الأقوال .

رابعاً: الأدلة على ثبوت الأسباب: الكتاب والسنة وإجماع السلف والحس والعقل .

خامساً : الأخذ بالأسباب أمر مطلوب شرعاً ، قد جاء الأمر به في الكتاب والسنة .

سادساً: لا يجوز للعبد أن يعتمد على الأسباب بحيث لا يلتفت إلى مسببها وخالقها .

سـابعاً: الأسباب لا تستقل بالمطلوب مطلقاً ، بل لابد لها من شريك معاون ، وضد معوق ، والذي يستقل بالمطلوب هو مشيئة الله تعالى وحده .

ثامـناً: أن جمـيع ما يخلق الله ويقدره يكون بالأسـباب سواء كانت مألوفة أو غير مألوفة .

تاسعاً : أن الله تعالى حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً .

عاشراً : أن العبد له قدرة وإرادة ، وتأثيرهما من جنس تأثير الأسباب .

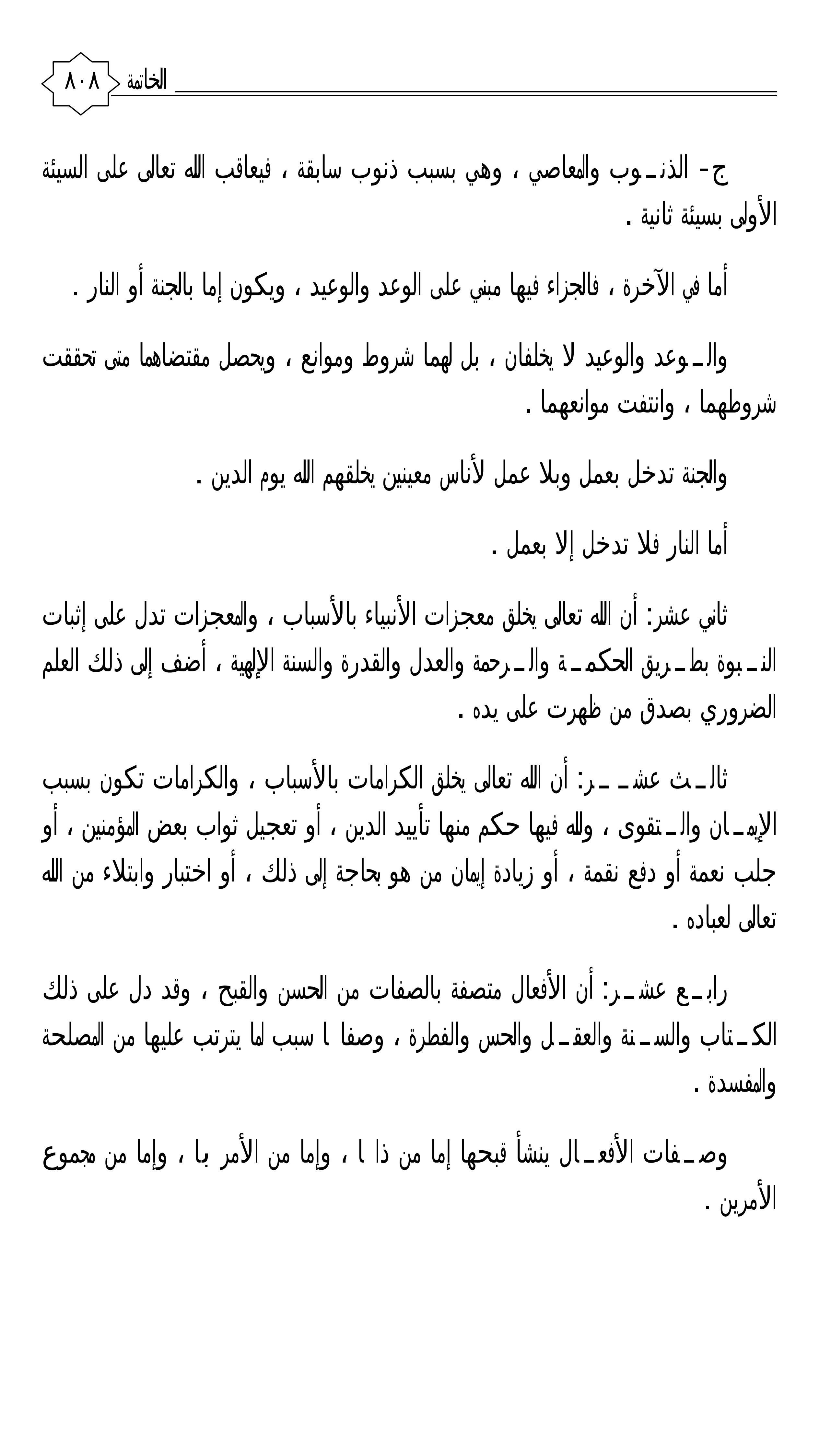
أمـا المتولدات وهي أفعال العبد الخارجة عن محل قدرته كقطع السكين للعنق ، فهذه تكون بقدرة العبد وبالأسباب الأخرى ، فالعبد مشارك في الفعل وغير منفرد .

حادي عشر : أن الجزاء على الأعمال يشمل الدنيا والآخرة .

أما الدنيا فالجزاء فيها ثلاث أنواع :

أ- النعم ، ولا تنحصر أسبابها ؛ فهي من فضل الله تعالى ورحمته ، تحصل بعمل العبد وبدون عمله .

ب- المصائب وهي بسبب ذنوب العباد ، ولهم فيها أجر عند الإيمان والصبر .



ج- الذنوب والمعاصي ، وهي بسبب ذنوب سابقة ، فيعاقب الله تعالى على السيئة الأولى بسيئة ثانية .

أما في الآخرة ، فالجزاء فيها مبني على الوعد والوعيد ، ويكون إما بالجنة أو النار .

والوعد والوعيد لا يخلفان ، بل لهما شروط وموانع ، ويحصل مقتضاهما متى تحققت شروطهما ، وانتفت موانعهما .

والجنة تدخل بعمل وبلا عمل لأناس معينين يخلقهم الله يوم الدين .

أما النار فلا تدخل إلا بعمل .

ثاني عشر: أن الله تعالى يخلق معجزات الأنبياء بالأسباب ، والمعجزات تدل على إثبات النبوة بطريق الحكمة والرحمة والعدل والقدرة والسنة الإلهية ، أضف إلى ذلك العلم الضروري بصدق من ظهرت على يده .

ثالث عشر: أن الله تعالى يخلق الكرامات بالأسباب ، والكرامات تكون بسبب الإيمان والتقوى ، ولله فيها حكم منها تأييد الدين ، أو تعجيل ثواب بعض المؤمنين ، أو جلب نعمة أو دفع نقمة ، أو زيادة إيمان من هو بحاجة إلى ذلك ، أو اختبار وابتلاء من الله تعالى لعباده .

رابع عشر: أن الأفعال متصفة بالصفات من الحسن والقبح ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والعقل والحس والفطرة ، وصفا ا سبب لما يترتب عليها من المصلحة والمفسدة .

وصفات الأفعال ينشأ قبحها إما من ذا ا ، وإما من الأمر با ، وإما من مجموع الأمرين .

والحسن والقبح العقليان سببان في المدح والذم ، وفي الثواب والعقاب ، لكن الثواب والعقاب مشروطان بقيام الحجة الرسالية .

ويمكـن أن يكـون الفعل الواحد سبباً لأمرين متنافيين ، فيجتمع فيه حسن من جهة وقبح من جهة أخرى .

خامس عشر: أن الأجسام فيها صفات وقوى تقتضي آثاراً معينة كالتسخين والتبريد والإشـباع والإرواء ، والأدلة على ذلك كثيرة في الكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة ، وتأثير هذه الصفات موقوف على وجود الشريك المعاون ، وانتفاء الضد المخالف .

سادس عشر : أن الأسباب تنقسم باعتبار الأمر والنهي إلى قسمين : أسباب مأمور بها وأسباب منهي عنها .

ومن أهم الأسباب المأمور بها عبودية الله تعالى والصبر .

والعبودية حقيقتها عبودية القلب ، ويشترط فيها الإخلاص والمتابعة ، ومن لم يعبد الله تعالى فلا بد أن يعبد غيره ، ولا سعادة للمرء ولا لذة إلا في عبادة الله تعالى وحده .

والصبر له أقسام وأحكام ، وهو نصف الدين وهو سبب لنيل الإمامة فيه ، وسبب في النصر على الأعداء والوقاية من كيدهم ، بل هو سبب يستعان به على نيل كل مطلوب في الدنيا والآخرة .

ومن أهم الأسباب المحرمة ما يلي :

١- الشرك ، وله أقسام وأحكام ، وسببه الغلو في الصالحين ، والعكوف على القبور ، والتصوير ، وتعظيم الكواكب والنجوم ، ويؤدي إلى بعض المنافع الدنيوية المحرمة .

٢- السحر وهو أنواع ، وله حقيقة ، وسببه إعانة الشياطين ، ويؤدي إلى بعض المنافع الدنيوية المحرمة .

٣- الكهانـة ، ولها حقيقة ، وسببها يرجع للشياطين ، ونفس الكاهن الخبيثة ، وما يقدمـه الكاهن من عبادة للجن ليخبروه ببعض الأخبار ، وتؤدي إلى بعض المنافع الدنيوية المحرمة .

٤- البدع ، وهي الدين الذي لم يأمر به الله ولا رسوله ﷺ ، وسببها يرجع إلى الجهل واتباع الهوى ، ووسوسة الشيطان ، وما يظن بها المبتدع من مصلحة ، وما تشتمل عليه من إيهام واشتباه ، وتؤدي إلى فساد الحال والاعتقاد ، وعدم التوبة غالباً ، ويستغنى بها عن كثير من السنن ، وتقلب المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً .

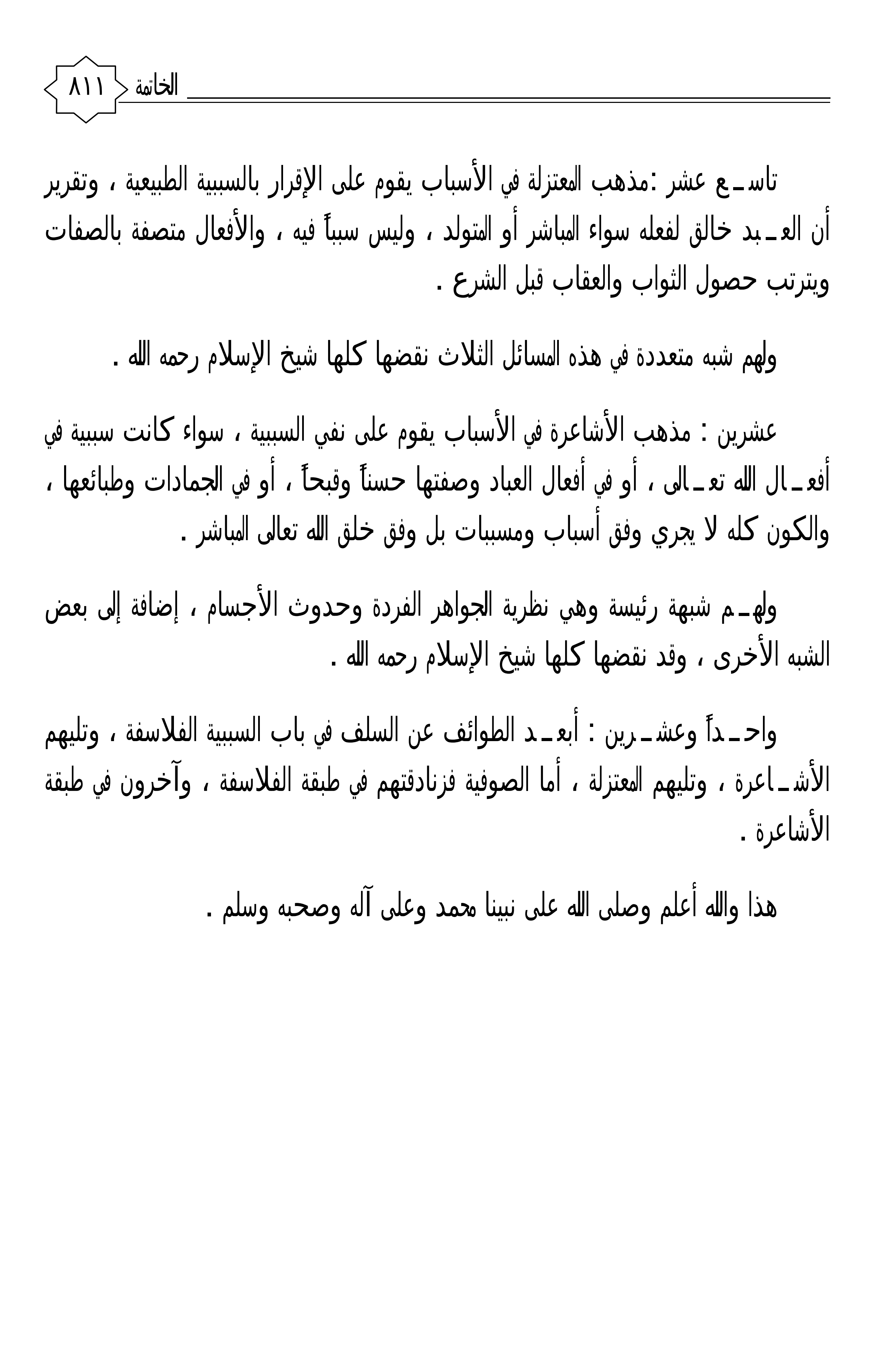
٥- الأسـباب الوهمية ، وهي كثيرة منها: الشفاعة الشركية والنذر والعزل والدعاء بطـول العمـر ، والاستسقاء بالأنواء ، واعتقاد أن الكسوف نتيجة لموت أحد أو حياته ، واعتقاد أن الرمي بالنجوم سبب لموت أو ولادة ، واعتقاد أن بعض المواضع سبب في إجابة الدعاء بغير مستند شرعي .

سـابع عشـر: مذهب الفلاسفة في الأسباب يقوم على نفي وجود الله تعالى أو نفي صـفاته ، والأسباب الأرضية ترجع إلى العقل الفعال أو الفلك ، ويرتكز قولهم على شبهة التركيب والتغير وبعض الشبه الأخرى ، وقد أبطلها كلها شيخ الإسلام رحمه الله .

ثامن عشر : مذهب الصوفية المنحرفين في الأسباب يقوم على أنه لا فاعل حقيقي إلا الله ، ولا تأثير للأسباب في الحقيقة ، ويمكن إهمال بعض الأسباب الشرعية وتركها ويختلف هذا باختلاف الأحوال والمقامات .

وغلاتهم زنادقة يقررون سقوط التكاليف الشرعية في مرحلة معينة من العبادة .

أمـا شـبهتهم فتسـتند على الكشف ، وبعضهم يذكر بعض الآيات القرآنية ، وقد ناقشهم شيخ الإسلام رحمه الله وأبطل كشفهم ، وبين تحريفهم للنصوص الشرعية .



تاسع عشر :مذهب المعتزلة في الأسباب يقوم على الإقرار بالسببية الطبيعية ، وتقرير أن العبد خالق لفعله سواء المباشر أو المتولد ، وليس سبباً فيه ، والأفعال متصفة بالصفات ويترتب حصول الثواب والعقاب قبل الشرع .

ولهم شبه متعددة في هذه المسائل الثلاث نقضها كلها شيخ الإسلام رحمه الله .

عشرين : مذهب الأشاعرة في الأسباب يقوم على نفي السببية ، سواء كانت سببية في أفعال الله تعالى ، أو في أفعال العباد وصفتها حسناً وقبحاً ، أو في الجمادات وطبائعها ، والكون كله لا يجري وفق أسباب ومسببات بل وفق خلق الله تعالى المباشر .

ولهم شبهة رئيسة وهي نظرية الجواهر الفردة وحدوث الأجسام ، إضافة إلى بعض الشبه الأخرى ، وقد نقضها كلها شيخ الإسلام رحمه الله .

واحداً وعشرين : أبعد الطوائف عن السلف في باب السببية الفلاسفة ، وتليهم الأشاعرة ، وتليهم المعتزلة ، أما الصوفية فزنادقتهم في طبقة الفلاسفة ، وآخرون في طبقة الأشاعرة .

هذا والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

طرف الآيـ ـ ـ ـة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾	آل عمران	١١٨	٤٤٣ ,
﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾	آل عمران	١١٩	٤٤٣ ,
﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ ﴾	آل عمران	١٢٠	٤٤٣ ,٤٤٢ ,٤٢٥ ,
﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾	آل عمران	١٢٢	٤٦٥ ,
﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾	آل عمران	١٢٥	٤٤٢ ,٤٢٥ ,
﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾	آل عمران	١٢٦	٢١٩ ,١٣٤ ,
﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	آل عمران	١٤٠	٢٣٩ ,
﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾	آل عمران	١٤١	٢٤٠-٢٣٩ ,
﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾	آل عمران	١٤٣	٢١١ ,
﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَٰخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾	آل عمران	١٤٥	٢٠٤ ,
﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾	آل عمران	١٤٦	٤٢٤ ,
﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَٰخِرَةَ ۚ ﴾	آل عمران	١٥٢	٢٠٤ ,
﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ﴾	آل عمران	١٥٤	٢٤٠ ,
﴿ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ ﴾	آل عمران	١٥٦	٢٧٤ ,
﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾	آل عمران	١٥٩	١٤٣ ,

طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾	آل عمران	١٦٠	, ١٣٤, ١٣٦, ١٤٣, ٢١٩
﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾	آل عمران	١٦٥	, ١٨٦, ٢٣٨, ٧٢٦, ٧٣٦, ٧٣٨
﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	آل عمران	١٦٦	, ٢٣٨
﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾	آل عمران	١٧٣	, ١٤٠, ١٤٢
﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾	آل عمران	١٧٤	, ١٤٢
﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾	آل عمران	١٧٥	, ٤٦٥
﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾	آل عمران	١٨٦	, ٤٣٦, ٤٤٣, ٥٠٠-٥٠١
﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾	آل عمران	١٩٠	, ٩٩
﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾	آل عمران	١٩٤	, ٢٤٨
﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾	النساء	١٧	, ٣١٧, ٥٥٨
﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ﴾	النساء	٢٥	, ١٩٤, ٢٠٠
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾	النساء	٤٣	, ٣٣٤

طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾	النساء	٤٨	٤٥١ ,
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾	النساء	٥٩	٤٨٢ ,١١٧ ,٧٨ ,
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾	النساء	٦٥	٧٩-٧٨,
﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾	النساء	٦٦	٥٧٤ ,٢٣٥ ,٢٣٤ , , ٦٩١
﴿ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾	النساء	٦٧	٦٩١ ,٥٧٤ ,٢٣٤ ,
﴿ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾	النساء	٦٨	٥٧٤ ,٢٣٥ ,٢٣٤ , , ٦٩١
﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ ﴾	النساء	٧٨	٧٣٧ ,
﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾	النساء	٧٩	٢٣٨ ,١٨٦ ,٥٤ , , ٧٣٧ ,٧٣٦ ,٧٢٦
﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾	النساء	٨٠	٤٨٥ ,
﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ ﴾	النساء	٨٤	٤١٨ ,
﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾	النساء	٩٣	١٦٥ ,
﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ ﴾	النساء	٩٥	٢٠٨ ,
﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾	النساء	٩٦	٢٠٨ ,
﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾	النساء	١١٣	١٧٤ ,

طرف الآيـ ـ ـ ـة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	المائدة	٢٠	٢٣٢ ,
﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	المائدة	٣٢	١٧٥ ,
﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾	المائدة	٣٨	٩٧ ,
﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾	المائدة	٤٩	٢٣٧ ,
﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾	المائدة	٧٢	٥٠٢ ,٢٥٢ ,
﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾	المائدة	٧٧	٤٩٢ ,
﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾	المائدة	٨٥	٩٥ ,
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾	المائدة	٩٠	٣٣٤ ,
﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾	المائدة	٩١	٣٣٤ ,
﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	المائدة	٩٧	١٧٥ ,
﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾	المائدة	٩٨	١٨٧-١٨٦ ,
﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾	المائدة	١٠٠	٣٣٠ ,

طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾	الأنعام	١٣٧	٥٦٣ ,
﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾	الأنعام	١٤٦	٢٣٨ ,
﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾	الأنعام	١٤٨	٦٠٠-٧٠٠, ٧٠١ ,
﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾	الأنعام	١٥٣	٣٩١, ٥٥٢ ,
﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ ﴾	الأنعام	١٥٥	٦٩١ ,
﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ ﴾	الأنعام	١٦٢	٤٦٦ ,
﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ ﴾	الأعراف	١-٢	٥٥٢ ,
﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾	الأعراف	٣	٧٨, ٥٥٢, ٦٩١ ,
﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾	الأعراف	٢٣	١٨٦ ,
﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾	الأعراف	٢٨	٣١٩, ٣٢٩, ٣٣٠ ,
﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾	الأعراف	٣٣	٣٠٤ ,
﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾	الأعراف	٤٣	٢٣٢, ٢٣٣, ٢٥٨ ,
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾	الأعراف	٥٧	٩٣, ١٧٢, ٣٦١-٣٦٢, ٣٦٣, ٣٧٨ ,
﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾	الأعراف	٥٩	٣٨٦ ,
﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾	الأعراف	٦٩	٤١٤ ,
﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	الأعراف	٨٠	٣١٣ ,

طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾	الأعراف	١١٢	, ٥٢٠
﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾	الأعراف	١١٦	, ٥١٨, ٥٢١
﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾	الأعراف	١٢٠	, ٥٦٣
﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ ﴾	الأعراف	١٣٧	, ٤٤٢
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾	الأعراف	١٥٢	, ٢٧٩
﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾	الأعراف	١٥٧	, ٣١٨
﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾	الأعراف	١٦٥	, ٢٣٧-٢٣٨
﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	الأعراف	١٦٧	, ١٨٦
﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾	الأعراف	١٧٢	, ١٢٦
﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾	الأعراف	١٨٠	, ١٦٢, ٣٤٩, ٤٦٢
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾	الأعراف	١٩٤	, ٤٧٣
﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾	الأنفال	١٠	, ٢٧٤
﴿ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾	الأنفال	٢٩	, ٩٨, ٢٣٦
﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾	الأنفال	٣٨	, ٤٦٣
﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ ﴾	الأنفال	٣٩	, ٤٨٢

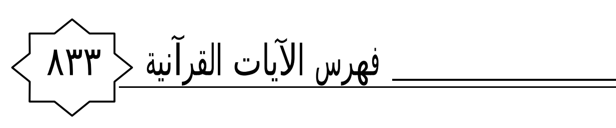
طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾	الأنفال	٤٦	٤٢٤ ,
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	الأنفال	٦٤	١٤٢ ,
﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾	التوبة	١٤	١٧٣ ,٩٣ ,
﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ ﴾	التوبة	٢٤	٤١٠ ,٣٨٩-٣٨٨ ,
﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	التوبة	٣١	٤٨١ ,٤٨٠ ,٤٧٥ ,
﴿ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾	التوبة	٤٢	١٩٤ ,
﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ ﴾	التوبة	٤٦	٢٠٤ ,
﴿ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ ﴾	التوبة	٥٢	٩٤ ,
﴿ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾	التوبة	٧٥	٢٤٢ ,٢١١ ,
﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾	التوبة	٧٦	٢٤٢ ,٢١١ ,
﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾	التوبة	٧٧	٢٤٢ ,
﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ ﴾	التوبة	٨٨	٤١٥ ,
﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ ﴾	التوبة	١٢٠	٤٣٨ ,٢٢٢-٢٢١,
﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾	التوبة	١٢١	٢٢٢ ,

رقم الصفحة	الآية	السورة	طرف الآيـــــة
٣١٦ ,	١	هود	﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾
٣١٦ ,	٢	هود	﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾
٣١٦ ,	٣	هود	﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٍ فَضۡلَهُۥ ۖ ﴾
٤٤٤ ,٤٢٩ ,	٩	هود	﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾
٤٤٤ ,٤٢٩ ,	١٠	هود	﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾
٤٤٤ ,٤٢٩ ,٤٢٧ ,	١١	هود	﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ ﴾
٢٧٤ ,	١٣	هود	﴿ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٍ مِّثۡلِهِۦ ﴾
٢٨٢ ,	١٤	هود	﴿ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ ﴾
٤٧٧ ,٤٠٣ ,٢٠٧ ,	١٥	هود	﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴾
٢٠٧- ٢٠٨ ,٤٠٣ , ٤٧٧	١٦	هود	﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾
١٩٧ ,	٢٠	هود	﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾
٣٤٥ ,٣١٦ ,	٥٠	هود	﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴾
٣١٦ ,	٥١	هود	﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ ۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾
٣١٦ ,	٥٢	هود	﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ ﴾

طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾	النحل	١	,١١٦, ٦٩٩
﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾	النحل	١٨	٢٣٢ ,
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾	النحل	٢٤	٢٢٧ ,
﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾	النحل	٢٥	٢٢٧ ,
﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾	النحل	٣٢	٩٥ ,
﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾	النحل	٣٦	٣٨٦ ,
﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴾	النحل	٤٨	٣٦٤ ,
﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾	النحل	٤٩	٣٦٤ ,
﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾	النحل	٥٣	,٢٣١, ٤١٤
﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾	النحل	٦٥	١٧٢ ,
﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ ﴾	النحل	٧٥	١٩٩ ,
﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾	النحل	٧٨	١٠٧ ,
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ ﴾	النحل	٩٠	١١٦ ,
﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾	النحل	١١٩	٣١٧ ,
﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾	النحل	١٢٦	٤٣٦ ,

طرف الآيـ ـ ـ ـة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾	الإسراء	٩٧	٢٥٩ ,
﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾	الإسراء	٩٨	٢٥٩ ,
﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾	الإسراء	١٠٢	٤٥٦ ,
﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾	الإسراء	١١٠	٤٦٢ ,
﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾	الكهف	١٣	٦٩٢ ,٢٣٦ ,
﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾	الكهف	٢٨	٥٦١ ,٥٦٠ ,
﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾	الكهف	٧٩	٢٠٤ ,١٨٦ ,
﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾	الكهف	٨٢	١٨٦ ,
﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾	الكهف	٨٤	٢١ ,
﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾	الكهف	٨٥	٢٠ ,١٨ ,
﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾	الكهف	١٠١	١٩٧ ,
﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾	الكهف	١٠٤	٥٦٤ ,
﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾	الكهف	١١٠	٣٩٢ ,
﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾	مريم	٩	٧٨٤ ,
﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾	مريم	٤١	٣١٤ ,
﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾	مريم	٤٢	٣١٤ ,

طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾	مريم	٦٥	٤١٨ ,
﴿ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴾	مريم	٦٧	٧٨٤ ,
﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴾	مريم	٨١	١٤٧ ,
﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾	مريم	٨٢	١٤٧ ,
﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾	مريم	٩٣	٣٩٧ ,
﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾	طه	٥	١٦٤ ,
﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾	طه	٨	٤٦٢ ,
﴿ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾	طه	٣٢	٤٥١ ,
﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴾	طه	٣٧	٣١٣ ,
﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾	طه	٣٨	٣١٣ ,
﴿ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ ﴾	طه	٣٩	٣١٣ ,
﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ ﴾	طه	٦٦	٥٢٣ ,٥٢١ ,
﴿ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴾	طه	٦٩	٥١٢ ,
﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ ﴾	طه	٧١	٥٢٢ ,
﴿ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴾	طه	٩٣	١١٥ ,
﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴾	طه	١٠٩	٥٨٧ ,٥٨٤ ,
﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾	طه	١٢٠	٥٦٣ ,
﴿ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ﴾	طه	١٢١	٥٦٣ ,
﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾	طه	١٢٣	٦٩٢ ,٩٢ ,٧٩ ,
﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾	طه	١٢٤	٦٩٣ ,٩٢ ,٧٩ ,

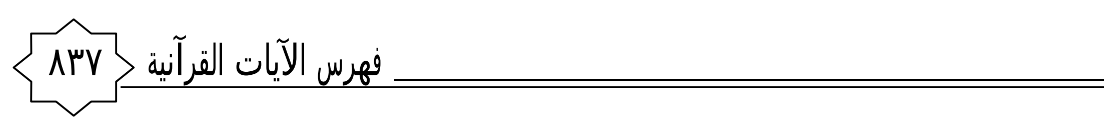


طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾	طه	١٢٥	٦٩٣, ٩٢, ٧٩ ,
﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾	طه	١٢٦	٦٩٣, ٩٢, ٧٩ ,
﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ ﴾	طه	١٢٧	٦٩٣ ,
﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾	طه	١٣٠	٤٢٧-٤٢٦ ,
﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾	طه	١٣٤	٣٤٦-٣٤٥ ,
﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾	الأنبياء	١٩	٣٨٦ ,
﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾	الأنبياء	٢٠	٣٨٦ ,
﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾	الأنبياء	٢٢	٤١٧ ,
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾	الأنبياء	٢٥	٣٨٦ ,
﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾	الأنبياء	٢٦	٥٨٧ ,
﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾	الأنبياء	٢٧	٥٨٧ ,
﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾	الأنبياء	٢٨	٥٨٧ ,١٥٨ ,
﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾	الأنبياء	٣٠	١٠٩ ,
﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾	الأنبياء	٦٩	٣٧٤ ,٣٦٣ ,٣٦١ ,
﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾	الأنبياء	٧٨	٢٥٤ ,
﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾	الأنبياء	٨٧	٦٧ ,
﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾	الحج	٥	٣٦٢ ,

طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ ﴾	الحج	٥	٣٦٣ ,
﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾	الحج	١٥	١٦ ,
﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴾	الحج	١٨	٣٦٩ ,٣٦٤ ,
﴿ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾	الحج	٢٩	٤٦٦ ,
﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾	الحج	٣١	١٤٧ ,١٤٦ ,
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا ﴾	الحج	٧٣	٤٧٣ ,
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴾	الحج	٧٧	٤١٥ ,
﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾	المؤمنون	١٢	٣٧٧ ,
﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴾	المؤمنون	١٣	٣٧٧ ,
﴿ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾	المؤمنون	١٤	,٧٣٩ ,٧٢٦ ,٣٧٧ , ٧٤٠
﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾	المؤمنون	١٥	٣٧٧ ,
﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾	المؤمنون	١٦	٣٧٧ ,
﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾	المؤمنون	٦٨	٦٩١ ,
﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾	المؤمنون	٨٤	٤٦٤ ,
﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ ﴾	المؤمنون	٨٥	٤٦٤ ,

طرف الآيـــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾	المؤمنون	٨٩	٤٦٤ ,
﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾	المؤمنون	١٠٩	٤٤٥ ,
﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾	المؤمنون	١١٠	٤٤٥ ,
﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾	المؤمنون	١١١	٤٤٥ ,
﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾	المؤمنون	١١٥	١٧٦ ,
﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾	النور	٢	٩٧ ,
﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾	النور	٢١	٤٠٩ ,٢٣٣ ,
﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾	النور	٣٠	٤٠٩ ,
﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾	النور	٣١	٤٦٦ ,
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾	النور	٤١	٣٦٨ ,٣٦٥ ,
﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾	النور	٥٢	٤١٥ ,
﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾	النور	٦٣	١١٥ ,
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾	الفرقان	٥٨	٤٠٥ ,١٦٣ ,١٣٨ ,
﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾	الفرقان	٦٣	٣٩٧ ,٣٨٧ ,
﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾	الفرقان	٧٤	٤٤٦ ,
﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾	الفرقان	٧٥	٤٤٦ ,
﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾	الفرقان	٧٦	٤٤٦ ,

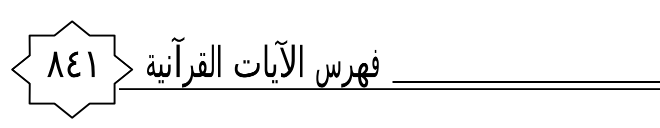
طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	الشعراء	١٠	٣٤٤ ,
﴿ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾	الشعراء	١١	٣٤٤ ,
﴿ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾	الشعراء	٢٣	٤٥٦ ,
﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾	الشعراء	٢٩	٢٨١ ,
﴿ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴾	الشعراء	٣٠	٢٨٢ ,
﴿ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾	الشعراء	٣١	٢٨٢ ,
﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴾	الشعراء	٣٢	٢٨٢ ,
﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾	الشعراء	٣٣	٢٨٢ ,
﴿ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴾	الشعراء	٣٧	٥٢٠ ,
﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾	الشعراء	٤٦	٥٢٩ ,
﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾	الشعراء	٤٧	٥٢٩ ,
﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾	الشعراء	٤٨	٥٢٩ ,
﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴾	الشعراء	٨٨	٥٠٢ ,
﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾	الشعراء	٨٩	٥٠٢ ,
﴿ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴾	الشعراء	٩٦	٤٦٥ ,
﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾	الشعراء	٩٧	٤٦٥ ,٤٥٢ ,
﴿ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾	الشعراء	٩٨	٤٦٥ ,٤٥٢ ,
﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾	الشعراء	١٣٧	٧٤٠ ,
﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾	الشعراء	١٣٨	٧٤٠ ,
﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾	الشعراء	٢٢١	٥٣٦ ,
﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴾	الشعراء	٢٢٢	٥٣٦ ,
﴿ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴾	الشعراء	٢٢٣	٥٣٦ ,
﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾	النمل	٦	١٧٤ ,
﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾	النمل	١٤	٤٥٦ ,

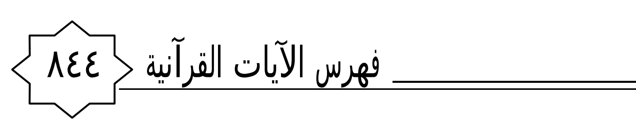


طرف الآيـ ـ ـ ـة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾	القصص	٨٨	٦٥٣-٦٥٤ ,
﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾	العنكبوت	١٧	٧٢٦, ٧٣٩, ٧٤٠ ,
﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾	العنكبوت	٢٢	٢٦٨ ,
﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾	العنكبوت	٢٩	٣١٣ ,
﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾	العنكبوت	٤٠	٢٣٨, ٥٩٤ ,
﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾	العنكبوت	٤٥	٤٠٨ ,
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾	العنكبوت	٦٣	٥٩٧ ,
﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾	العنكبوت	٦٤	٦٨٤ ,
﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾	العنكبوت	٦٥	٤٧٢ ,
﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾	العنكبوت	٦٩	٢٣٤-٢٣٥, ٦٨٦ ,
﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	الروم	٦	٢٤٨ ,
﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾	الروم	١٠	٢٤٢ ,
﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾	الروم	١٣	٥٨٦ ,
﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾	الروم	١٩	٢٧٤ ,

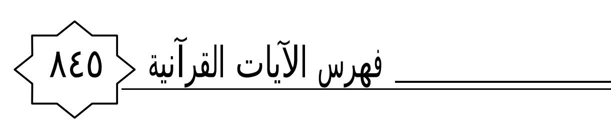
طرف الآيـــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾	الروم	٢٦	٣٦٤, ٣٩٧ ,
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾	الروم	٣٠	٢٤٤ ,
﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾	الروم	٣٣	٣٩٦ ,
﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾	لقمان	١٠	٣٦٣ ,
﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾	لقمان	١١	١١٦, ٦٩٩ ,
﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ ﴾	لقمان	٢٠	٢٣٢, ٤١٤ ,
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾	لقمان	٣١	٤٢٧ ,
﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ ﴾	السجدة	٧	١٧٩, ١٨٤, ٣٤٩, ٧٢٦, ٧٣٥ ,
﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾	السجدة	١٧	٢٥٩ ,
﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾	السجدة	١٨	٢٧٦, ٣٣٠ ,
﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾	السجدة	١٩	٢٥٨-٢٥٩ ,
﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾	السجدة	٢٤	٧٨, ٤٢٧, ٤٤٠, ٤٤١ ,
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾	الأحزاب	٣	١٤٢ ,
﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾	الأحزاب	٣٨	١١٦ ,
﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ ﴾	الأحزاب	٣٩	٤٨٧ ,
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾	الأحزاب	٤١	٤١٤, ٥٦٥ ,

طرف الآيـ ـ ـ ـة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾	الأحزاب	٤٢	٤١٤ ,
﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾	الأحزاب	٦٢	٢٧٦ ,
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾	الأحزاب	٧٠	٢٣٥ ,
﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾	الأحزاب	٧١	٢٣٥ ,
﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾	سبأ	١٩	٤٢٥-٤٢٦ ,
﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ ﴾	سبأ	٢٢	١٥٣, ٤٧٣, ٤٧٤, ٥٨٧ ,
﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ ﴾	سبأ	٢٣	١٥٣-١٥٤, ٤٧٣, ٥٣٩, ٥٨٤, ٥٨٧ ,
﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾	سبأ	٤٠	٥١٤ ,
﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾	سبأ	٤١	٥١٤ ,
﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ ﴾	فاطر	٢	١٤٦ ,
﴿ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾	فاطر	٣	١٥٢ ,
﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ ﴾	فاطر	٨	٥٦٣, ٥٧٥ ,
﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾	فاطر	٩	٣٧٨ ,
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾	فاطر	٢٩	١٢٢ ,
﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾	فاطر	٣٠	١٢٢ ,
﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلاً فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾	يس	٨	١٩٧ ,





طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾	فصلت	٥٣	١٧٩ ,
﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾	الشورى	١٠	١٣٨ ,
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾	الشورى	١١	١٦٢ ,
﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾	الشورى	٢٠	٤٧٨ ,٤٠١ ,٢٠٨ ,
﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾	الشورى	٢١	٥٥٢ ,٣٩١ ,
﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ ﴾	الشورى	٢٤	٢٧٨ ,
﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾	الشورى	٣٠	٢٣٩ ,
﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾	الشورى	٣٢	٤٢٦ ,
﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾	الشورى	٣٣	٤٢٦ ,
﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾	الشورى	٥٢	٩٨ ,
﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ ﴾	الزخرف	٢٠	٧٠٢-٧٠١ ,
﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾	الزخرف	٣٦	٦٩٣ ,٥٦٣ ,٥٠٩ ,
﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾	الزخرف	٣٧	٥٦٣ ,
﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا ﴾	الزخرف	٥٩	٣٨٦ ,
﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾	الزخرف	٦٨	٣٩٨-٣٩٧ ,
﴿ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾	الدخان	١٠	٥٤١ ,
﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾	الدخان	٣٨	١٧٦ ,
﴿ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾	الدخان	٣٩	١٧٦ ,



رقم الصفحة	الآية	السورة	طرف الآيـــــة
٩٣ ,	٥	الجاثية	﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾
٢٣٢-٢٣١ ,	١٣	الجاثية	﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾
٦٩٢ ,	٢٠	الجاثية	﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾
٣٣١-٣٣٠ ,	٢١	الجاثية	﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ ﴾
٥٦٢-٥٦١ ,	٢٣	الجاثية	﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾
٥٤٦ ,	٩	الأحقاف	﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾
٢٦٠-٢٥٩ ,	٢٠	الأحقاف	﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾
٣٦٢ ,	٢٥	الأحقاف	﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾
٦٥٢-٦٥١ ,	١٥	محمد	﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾
٦٩٢ ,٥٧٤ ,٢٣٦ ,	١٧	محمد	﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾
٧٨١ ,	٣٨	محمد	﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾
٤٥٩ ,	٣٨	محمد	﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ ﴾
٢٣٦ ,	١	الفتح	﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾
٢٣٦ ,	٢	الفتح	﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ ﴾
٢٣٦ ,	٣	الفتح	﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾
١٩٨ ,	٢٠	الفتح	﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾
١٩٨ ,	٢١	الفتح	﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا ﴾

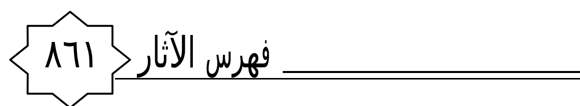
طرف الآيـــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾	النجم	١٠	, ٣٨٧, ٣٩٨
﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾	النجم	١٨	, ٣٠٠
﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾	النجم	٢٣	, ٥٦١
﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾	النجم	٢٦	, ٥٨٤, ٥٨٧
﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾	القمر	٥	, ١٧٤
﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾	الرحمن	٢٦	, ٦٥٤
﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾	الرحمن	٢٧	, ١٦٤, ٦٥٤
﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾	الحديد	١	, ٣٦٥
﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾	الحديد	٤	, ١٦٦, ١٦٩
﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ ﴾	الحديد	٢٢	, ١٧٥
﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾	الحديد	٢٣	, ١٧٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ ﴾	الحديد	٢٨	, ٢٣٥-٢٣٦, ٥٧٤
﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾	ا ادلة	٤	, ١٩٤
﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾	ا ادلة	٢٢	, ٤١٠-٤١١
﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾	الحشر	١	, ٣٦٥
﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾	الحشر	٧	, ٩٩, ١٧٥

طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾	القلم	٣٦	٣٣٠ ,٢٧٦ ,
﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾	القلم	٤٨	٤٣٥ ,٤٢٤ ,
﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾	الحاقة	١١	٣٦٢ ,
﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾	الحاقة	٢٤	٢٥٨ ,٩٥ ,
﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾	الحاقة	٤٤	٢٧٨ ,٢٧٧ ,
﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾	الحاقة	٤٥	٢٧٨ ,٢٧٧ ,
﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾	الحاقة	٤٦	٢٧٨ ,٢٧٧ ,
﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾	نوح	١	٣١٦ ,
﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾	نوح	٢	٣١٦ ,
﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾	نوح	٣	٣١٦ ,
﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾	نوح	٤	٣١٦ ,
﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾	نوح	٢٣	٤٩٦ ,٤٩١ ,
﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ ﴾	نوح	٢٤	٤٩٦ ,
﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾	الجن	٨	٥٤٠ ,
﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾	الجن	٩	٥٤٠ ,
﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾	الجن	١٠	١٨٦ ,
﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾	الجن	١٦	٢٩٦ ,١٢٣ ,
﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾	الجن	١٧	٢٩٦ ,١٢٣ ,

طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ ﴾	الجن	١٩	, ٣٨٧, ٣٩٨
﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾	الجن	٢٣	, ١٢٣
﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾	الجن	٢٦	, ٥٣٥
﴿ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾	الجن	٢٧	, ٥٣٥
﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً ﴾	المزمل	٨	, ١٣٨, ١٤١
﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلاً ﴾	المزمل	٩	, ١٣٨, ١٤١
﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾	المزمل	١٩	, ٧٣١
﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴾	المدثر	٤٢	, ٦٩٨
﴿ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾	المدثر	٤٣	, ٦٩٨
﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴾	المدثر	٤٥	, ٦٩٨
﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾	المدثر	٤٦	, ٦٩٧, ٦٩٨
﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾	المدثر	٤٧	, ٦٩٧, ٦٩٨
﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾	المدثر	٥٥	, ١٥٤, ٧٣١
﴿ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾	المدثر	٥٦	, ١٥٤, ٧٣١
﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴾	القيامة	١٤	, ٤٧٠
﴿ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾	القيامة	١٥	, ٤٧٠
﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾	القيامة	٣٦	, ١٧٦
﴿ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴾	الإنسان	٦	, ٣٨٧, ٣٩٧
﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾	الإنسان	٧	, ٤٦٦
﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴾	الإنسان	١٢	, ٩٦, ٤٤٦
﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾	الإنسان	٢٩	, ١٥٤
﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾	الإنسان	٣٠	, ١٥٤

طرف الآيـــــة	السورة	الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ﴾	العصر	٢	, ٣٨٤, ٤٢٢, ٤٢٦, ٤٤٠
﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾	العصر	٣	, ٣٨٤, ٤٢٣, ٤٢٦, ٤٢٧, ٤٤٠
﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾	الكوثر	٢	, ٤٦٦
﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾	الكافرون	١	, ٤١٩
﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾	الكافرون	٢	, ٤١٩
﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾	الفلق	٢	, ١٨٦
﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلۡعُقَدِ ﴾	الفلق	٤	, ٥٢٢, ٥٢٤, ٥٢٥

فهرس الأحاديث النبوية



فهرس الآثار

فهرس الأعلام

الكنى والألقاب والأنساب إلى القبائل والبلاد والآباء والأجداد ونحو ذلك

فهرس الفرق والطوائف



فهرس الأبيات الشعرية

البيت	القائل	الصفحة
ونذيـمهم وبهم عرفنا فضله وبضـدها تتبين الأشيـاء	المتنبي	٦
الشيب كره وكره أن نفارقه فاعجب لشيء على البغضاء محبوب	نسب إلى مسلم بن الوليد وإلى أبي العتاهية	٣٥٢
ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظْهر حسنه الضِد	نسب إلى المنبجي	٦
فصبرت عارِفةً لذلك حرةً ترسو إذا نفس الجبان تطّلّع	عنترة	٤٢١
وعندنا للعبد كسب كُلفا ولم يكن مؤثراً فلتعرفا	اللقاني	٧٥٣
ويقبح من سواك الفعل عندي وتفعله فيحسن منك ذاك	نسب إلى المتنبي وإلى أبي نواس	٣٣٢
يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل	المتنبي	٣٦٠
نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول	كعب بن زهير	٢٥٠
لئن كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم	الأعشى ميمون بن قيس .	٢٠
ومن هاب أسباب المنايا يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم	زهير بن أبي سلمى	٢١
ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري	زهير بن أبي سلمى	٧٤٠

فهرس الكلمات الغريبة والاصطلاحية

فهرس المواضع والأماكن

فهرس المصادر والمراجع

١- أبـو العتاهـية أشعاره وأخباره لابن عبدالبر / تحقيق د. فيصل شكري / د . ت / مكتبة دار الملاح / دمشق .

٢- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد العشرة للبوصيري / تحقيق دار ، المشكاة إشراف ياسر بن إبراهيم ، تقديم د. أحمد معبد / الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م / دار الوطن / الرياض .

٣- الآحـاد والمـثاني لابن أبي عاصم / تحقيق: د. باسم الجوابرة / الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م / دار الراية / الرياض .

٤- إحكام الأحكام للآمدي / تعليق الشيخ عبدالرزاق عفيفي / الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / المكتب الإسلامي / بيروت .

٥- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي / د . ت / دار الكتب العلمية/ بيروت .

٦- أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي / د . ت / مكتبة المتنبي / القاهرة .

٧- آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي / تحقيق: د. ألبير نصري نادر / الطبعة الخامسة د . ت / دار المشرق / بيروت .

٨- آراء المعتـزلة الأصـولية دراسة وتقويم لـ د. علي الضويحي / الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م / مكتبة الرشد للنشر والتوزيع / الرياض .

٩- الإرشـاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين أبو المعالي الجويني / تحقيق: أسعد تميم / الطبعة الأول ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / مؤسسة الكتب الثقافية / بيروت .

١٠- إرشاد الفحول للشوكاني / د . ت / دار المعرفة / بيروت .

١١- أساس البلاغة للزمخشري / تحقيق : عبدالرحيم محمود / ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م / دار المعرفة / بيروت .

١٢- أسـرار الشـريعة لعـبدالغني النابلسي / دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا / الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

١٣- أسماء مؤلفات شيخ الإسلام لأبي عبدالله بن رشيق - نشر ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية .

١٤- الأسماء والصفات للبيهقي / تحقيق محمد زاهد الكوثري / د . ت / دار الكتب العلمية / بيروت .

١٥- الإشارات والتنبيهات لابن سينا / تحقيق: سليمان دنيا / د . ت / دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه / القاهرة .

١٦- الأشباه والنظائر في الفروع للسيوطي / د . ت / شركة نور الثقافة الإسلامية / جاكرتا .

١٧- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني / د.ت / الناشر دار الكتاب العربي / بيروت.

١٨- أصول الإيمان لعبدالقاهر البغدادي / شرح ومراجعة: إبراهيم محمد رمضان / الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م / دار ومكتبة الهلال / بيروت .

١٩- أصول الفقه وابن تيمية لـ د. صالح بن عبدالعزيز آل منصور / الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / بدون ناشر أو طابع .

٢٠- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م / الناشر مكتبة ابن تيمية .

٢١- إطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي للحافظ ابن حجر العسقلاني / تحقيق د. زهير بن ناصر الناصر / الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م / دار ابن كثير ودار الكلم الطيب / دمشق.

٢٢- الأعلام لخير الدين الزركلي / الطبعة الثامنة ١٩٨٩ م / دار العلم للملايين / بيروت .

٢٣- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية / تصحيح وتحقيق وتعليق محمد عفيفي / الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / المكتب الإسلامي / بيروت / مكتبة الخاني / الرياض .

٢٤- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني / تحقيق: علي مهنا وسمير جابر / الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٥- الإقناع في تخريج العروض وتخريج القوافي للصاحب بن عباد / تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين / طبع سنة ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م / مطبعة المعارف / بغداد .

٢٦- أقوم ما قيل في القضاء والقدر لابن تيمية - ضمن مجموع الفتاوى ج ٨ .

٢٧- الإكمال لابن ماكولا / تحقيق: نايف عباس / د . ت / الفاروق الحديثة للطباعة والنشر / القاهرة .

٢٨- أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٠ .

٢٩- الأنســاب للسـمعاني / تقديم وتعليق: عبدالله عمر البارودي / الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م / دار الجنان / بيروت .

٣٠- الإنصـاف فـيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للقاضي أبي بكر الباقلاني / تحقيق: عمـاد الدين حيدر / الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م / عالم الكتب / بيروت .

٣١- إيضاح الدلالة في عموم الرسالة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٩ .

٣٢- الإيمان الأوسط لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٧ .

٣٣- الإيمان الكبير لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٧ .

٣٤- الإيمـان لابن أبي شيبة / حققه وقدم له وعلق عليه وخرجه محمد ناصر الدين الألباني / الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٣٥- الإيمان للعدني / دراسة وتحقيق:حمد بن حمدي الجابري الحربي / الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م / الدار السلفية / الكويت .

٣٦- ابـن تيمية السلفي لمحمد خليل هراس / الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٣٧- اتباع الرسول بصريح المعقول لابن تيمية - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٠ .

٣٨- الاحتجاج بالقدر لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٨ .

٣٩- الاسـتقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية / تحقيق د. محمد رشاد سالم / الطبعة الثانية د . ت / نشر وتوزيع مؤسسة قرطبة / القاهرة .

٤٠- الاسـتيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبدالبر / بهامش كتاب الإصابة لابن حجر / د . ت / الناشر دار الكتاب العربي / بيروت .

٤١- الاعتصـام للشاطبي / قدم له : السيد محمد رشيد رضا / طبع سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / دار المعرفة / بيروت .

٤٢- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي / قدم له وخرج أحاديثه وعلق حواشيه أحمد عصام الكاتب / الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / دار الآفاق الجديدة / بيروت .

٤٣- اعـتقادات فـرق المسلمين والمشركين للفخر الرازي / تحقيق: علي سامي النشار / طبع سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٤٤- الاقتصـاد في الاعتقاد للغزالي / الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٤٥- اقتضـاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية / تحقيق : محمد حامد الفقي / الطبعة الثانية ١٣٦٩ هـ / مطبعة السنة المحمدية / القاهرة .

٤٦- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية / تحقيق وتعليق: د. ناصر العقل / الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ / بدون طابع أو ناشر[١] .

٤٧- الانتصـار والرد على ابن الراوندي الملحد لأبي الحسين الخياط المعتزلي / تقديم ومراجعة: محمد حجازي / د . ت / نشر مكتبة الثقافة الدينية / القاهرة .

٤٨- البحر المحيط للزركشي / تحقيق عبدالقادر عبدالله العاني / الطبعة الثانية ١٤١٣هـ -١٩٩٢م / دار الصفوة / الغردقة (مصر) .

٤٩- البدء والتأريخ للمقدسي / د . ت / الناشر مكتبة الثقافة الدينية / القاهرة .

٥٠- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية / الناشر دار الكتاب العربي / بيروت / د.ت .

٥١- البداية والنهاية لابن كثير الدمشقى/ د.ت / الناشر مكتبة المعارف/ بيروت .

٥٢- البدر الطالع للشوكاني / د . ت / الناشر: مكتبة ابن تيمية / القاهرة .

٥٣- البرهان في أصول الفقه لأبي المعالي الجويني / تحقيق: د. عبدالعظيم محمود الديب / الطبعة الثالثة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م / دار الوفاء / القاهرة .

٥٤- الـبرهان في معـرفة عقائد أهل الأديان للسكسكي الحنبلي / تحقيق: د. بسام علي العموش / الطبعة الأولى / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م / مكتبة المنار / الأردن - الزرقاء .

٥٥- بغـية المـرتاد لابن تيمية / تحقيق ودراسة د. موسى الدويش / الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م / مكتبة العلوم والحكم / المدينة المنورة .

٥٦- بيان الدليل على بطلان التحليل لابن تيمية / تحقيق: د. فيحان المطيري / الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م / مكتبة لينة للنشر والتوزيع / مصر - دمنهور .

(١) هذه هي الطبعة المعتمدة عند الإحالة إلى هذا المصدر ، وحيث رجعت إلى الطبعة الأخرى فإنني أشير إلى ذلك.

٥٧- بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية / تصحيح وتكميل وتعليق: محمد بن عبدالرحمن بن قاسم / د . ت / بدون طابع أو ناشر .

٥٨- بغية الطلب في تاريخ حلب لكمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة / تحقيق: د. سهيل زكار / الطبعة الأولى ١٩٨٨ م / دار الفكر / بيروت .

٥٩- تاج العروس للزبيدي / د.ت / دار الفكر / بيروت .

٦٠- تاريخ الفكر العربي لعمر فروخ / الطبعة الرابعة ١٩٨٣ م / دار العلم للملايين / بيروت .

٦١- تاريخ الفلسفة الإسلامية لـ د. ماجد فخري / ترجمة: د. كمال اليازجي / طبع سنة ١٩٧٤ م / الدار المتحدة للنشر / بيروت .

٦٢- تـاريخ الفلسـفة العربية لـ د. جميل صليبيا / طبع سـنة ١٩٨١ م / دار الكتاب اللبناني / بيروت .

٦٣- تـاريخ الفلسفة اليونانية لـ د. ماجد فخري / الطبعة الأولى ١٩٩١ م / دار العلم للملايين / بيروت .

٦٤- تاريخ الفلسفة اليونانية لـ د. محمد عبدالرحمن مرحبا / الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م / مؤسسة عز الدين / بيروت .

٦٥- تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم / د . ت / دار القلم / بيروت .

٦٦- التاريخ الكبير للبخاري / د . ت / الناشر دار الفكر .

٦٧- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي/ د . ت / الناشر دار الكتاب العربي/ بيروت .

٦٨- تاريخ مختصر الدول لابن العبري / تحقيق انطوان صالحاني اليسوعي / الطبعة الثالثة ١٩٩٢م / دار المشرق / بيروت .

٦٩- التبصـرة للشيرازي / تحقيق: د. محمد حسن هيتو / الطبعة الأول ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / دار الفكر / دمشق .

٧٠- التبصـير في الـدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين للإسفرايني / تحقيق كمال يوسف الحوت/ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م / عالم الكتب / بيروت .

٧١- تبيين كذب المفتري لابن عساكر / تقديم وتعليق محمد زاهد الكوثري / طبع سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م / الناشر دار الكتاب العربي / بيروت .

٧٢- التحفة العراقية في الأعمال القلبية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج١٠

٧٣- تحفـة المريد شرح جوهرة التوحيد للبيجوري / الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٧٤- تحقـيق ما للهند من مقولة للبيروني / الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / عالم الكتب / بيروت .

٧٥- تـدريب الـراوي في شـرح تقريب النواوي للسيوطي / تحقيق وتعليق: د. عزت علي عطية وموسى محمد علي / د . ت / مطبعة حسان / القاهرة .

٧٦- التدمرية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٣ .

٧٧- التدمرية لابن تيمية / تحقيق : محمد بن عودة السعوي / الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / شركة العبيكان / الرياض .

٧٨- تذكرة الحفاظ للذهبي / تصحيح عبدالرحمن بن يحيى المعلمي / د . ت /طبع دار الفكر العربي / بيروت .

٧٩- التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار لأحمد بن إبراهيم الواسطي المعروف بابن شيخ الحزاميين - رسـالة موجوده ضمن العقود الدرية لابن عبدالهادي ، ونشرت ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية .

٨٠- التـرغيب والترهيب للمنذري / تحقيق مصطفى محمد عمارة / د . ت / دار الكتب العلمية / بيروت .

٨١- تسع رسائل في التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب ضمن مجموعة التوحيد .

٨٢- تسـع رسائل في الحكمة والطبيعيات لابن سينا / الطبعة الثانية د . ت / دار العرب للبستاني / القاهرة .

٨٣- التسـعينية لابن تيمية / تحقيق: د. محمد العجلان / الطبعة الأول ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م / مكتبة المعارف / الرياض .

٨٤- التصور الذري في الفكر الفلسفي لـ د. منى أبوزيد / الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع / بيروت .

٨٥- التعـرف لمـذهب أهل التصوف للكلاباذي / طبع سنة ١٤٠٠ هـ / دار الكتب العلمية / بيروت .

٨٦- التعريفات للجرجاني / طبع سنة ١٩٨٥م / مكتبة لبنان / بيروت .

٨٧- التعلـيقات لابن سينا / تحقيق: د. عبدالرحمن بدوي / طبع سنة ١٤٠٤ هـ / مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي / طهران .

٨٨- التعليقات للفارابي / تحقيق: د. جعفر آل ياسين / الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨ م / دار المناهل / بيروت .

٨٩- تغلـيق التعلـيق لابن حجر العسقلاني / تحقيق: سعيد عبدالرحمن القزقي / الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ / المكتب الإسلامي / بيروت - دار عمار / عمان .

٩٠- تفسـير القرآن العظيم لابن كثير / صحح بإشراف الشيخ خليل الميس / الطبعة الثانية د.ت / دار القلم / بيروت .

٩١- التفسير الكبير للفخر الرازي / الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م / دار الفكر / بيروت .

٩٢- تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٧ .

٩٣- تفسـير سـورة الإخلاص لابن تيمية / تحقيق: د. عبدالعلي عبدالحميد حامد / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / الدار السلفية / بومباي .

٩٤- تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني / تحقيق محمد عوامة / الطبعة الثالثة ١٤١١هـ - ١٩٩١م / دار القلم / دمشق .

٩٥- التقرير والتحبير لابن أمير الحاج / الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / دار الكتب العلمية / بيروت / مصورة عن الطبعة الأولى التي في عام ١٣١٦ هـ / لمطبعة الأميرية / القاهرة .

٩٦- التكملة والذيل والصلة للزبيدي / تحقيق: مصطفى حجازي ، ومراجعة: د. محمد مهدي علام / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية / القاهرة .

٩٧- تلبيس إبليس لابن الجوزي / الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ/دار القلم / بيروت .

٩٨- تلخـيص الحـبير لابن حجر العسقلاني / تحقيق السيد عبدالله هاشم / دون طابع أو ناشر او تاريخ .

٩٩- تلخيص المستدرك للذهبي - ضمن المستدرك/ د . ت / دار المعرفة / بيروت .

١٠٠- تلخـيص كـتاب البرهان لابن رشد / تحقيق: د. محمود قاسم / طبع سنة ١٩٨٢ م / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة .

١٠١- تلخيص منطق أرسطو لابن رشد / تحقيق: د. جيرار جيهامي / الطبعة الأولى ١٩٩٢ م / دار الفكر اللبناني / بيروت .

١٠٢- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للقاضي أبي بكر الباقلاني / تحقيق: عماد الدين حيدر / الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / مؤسسـة الكتب الثقافية / بيروت .

١٠٣- التمهـيد في أصـول الفقـه لأبي الخطاب الكلوذاني الحنبلي / دراسة وتحقيق: د. مفيد محمد أبوعمشة / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م / دار المدني / جدة .

١٠٤- التمهـيد لمـا في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبدالبر القرطبي / تحقيق: سعيد أحمد أعراب ومجموعة غيره / من ١٣٨٧ - ١٩٦٧ م إلى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م / دون طابع أو ناشر .

١٠٥- التنبـيه والرد على أهل الأهواء والبدع للملطي / تحقيق محمد زاهد الكوثري / د.ت / بدون مطبعة أو ناشر .

١٠٦- تنقيح الفصول للقرافي - ضمن شرح تنقيح الفصول للقرافي .

١٠٧- تهافـت الـتهافت لابن رشد / تحقيق: د. محمد العريبي / الطبعة الأولى ١٩٩٣ م / دار الفكر اللبناني / بيروت .

١٠٨- تهافـت الفلاسفة لأبي حامد الغزالي / تحقيق : د. ماجد فخري / الطبعة الثالثة د . ت / دار المشرق / بيروت .

١٠٩- تهـذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني / الطبعة الرابعة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م / دار الفكر / بيروت .

١١٠- تهـذيب الكمـال للمزي / تحقيق: د. بشار عواد معروف /الطبعة السادسة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م / مؤسسة الرسالة / بيروت .

١١١- تهذيب اللغة للأزهري / تحقيق: أحمد عبدالعليم البردوني - مراجعة: علي محمد البجاوي / د . ت / الدار المصرية للتأليف والترجمة .

١١٢- التوحيد وإخلاص العمل والوجه لله عز وجل لابن تيمية / تحقيق: محمد السيد الجليند / الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م / مطبعة التقدم / القاهرة .

١١٣- توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم لأحمد بن إبراهيم بن عيسى / تحقيق: زهير الشاويش / الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / المكتب الإسلامي / بيروت .

١١٤- التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي / تحقيق: د. محمد رضوان الدية / الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م / دار الفكر / دمشق .

١١٥- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب / الطبعة السادسة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / المكتب الإسلامي / بيروت .

١١٦- الثقات لابن حبان / تحت مراقبة: د. محمد عبدالمعيد خان / الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م / مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية / حيد أباد / الهند .

١١٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري / ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م / دار الفكر / بيروت .

١١٨- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي / تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر / د . ت / دار الكتب العلمية / بيروت .

١١٩- جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر / الطبعة الأولى د.ت / إدارة طباعة المنيرية / تصوير دار الكتب العلمية / بيروت .

١٢٠- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / طبع سنة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

١٢١- الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون لمحمد عزيز شمس وعلي بن محمد العمران / الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ / دار عالم الفوائد / مكة المكرمة .

١٢٢- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام لابن قيم الجوزية / الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

١٢٣- الجمع بين رأي الحكيمين للفارابي / تحقيق: د. علي بوملحم / الطبعة الأولى ١٩٩٦ م / دار ومكتبة الهلال / بيروت .

١٢٤- جمهرة أنساب العرب لابن حزم / تحقيق عبدالسلام هارون / الطبعة الخامسة / د.ت / دار المعارف / القاهرة .

١٢٥- جمهـرة اللغة لابن دريد / تحقيق: د. رمزي منير بعلبكي / الطبعة الأولى ١٩٧٨ م / دار العلم للملايين / بيروت .

١٢٦- جواب أهل العلم والإيمان لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٧ .

١٢٧- الجـواب الصـحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية / تحقيق: د. علي بن حسن بن ناصر ود. عبدالعزيز العسكر ، ود. حمدان الحمدان / النشرة الأولى ١٤١٤ هـ / دار العاصمة / الرياض .

١٢٨- الجـواب الكافي لابن قيم الجوزية / تحقيق أبي حذيفة عبيدالله بن عالية / الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م / دار الكتاب العربي / بيروت .

١٢٩- حـادي الأرواح لابـن قيم الجوزية / تحقيق محمود حسن ربيع / الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م / الناشر مكتبة ومطبعة النهضة / مكة المكرمة .

١٣٠- حاشـية ابن عابدين المسمى حاشية رد المحتار على الدر المختار / الطبعة الثانية ١٩٨٦ م / دار الفكر / بيروت .

١٣١- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة للأنصاري / تحقيق: د. مازن المبارك / الطبعة الأولى ١٤١١ هـ / دار الفكر المعاصر / بيروت .

١٣٢- الحدود لابن سينا - ضمن رسائل منطقية في الحدود والرسوم للفلاسفة العرب .

١٣٣- الحدود للغزالي - ضمن رسائل منطقية في الحدود والرسوم للفلاسفة العرب .

١٣٤- الحسنة والسيئة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٤ .

١٣٥- الحـق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين للشيخ عبدالرحمن بن سعدي / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / دار ابن القيم / الدمام .

١٣٦- حقائـق الإسـلام وأسراره لعبدالغني النابلسي / دراسة وتحقيق: عبدالقادر أحمد عطا / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / دار التراث العربي للطباعة والنشر / القاهرة .

١٣٧- حقـيقة البدعة وأحكامها لسعيد الغامدي / الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م / الناشر مكتبة الرشد / الرياض .

١٣٨- الحقيقة والمجاز لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢٠ .

١٣٩- الحكمـة والتعليل في أفعال الله تعالى لـ د. محمد ربيع هادي المدخلي / الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م / مكتبة لينة / دمنهور / مصر .

١٤٠- الحلية لأبي نعيم الأصبهاني / دار الفكر / د . ت / دار الكتب العلمية / بيروت.

١٤١- حواشي الشرواني لعبدالرحمن الشرواني / د . ت / دار الفكر / بيروت .

١٤٢- دائرة المعارف الإسلامية الشيعية لحسن الأمين / الطبعة الرابعة ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م / دار التعارف للمطبوعات / بيروت .

١٤٣- الداعـي إلى الإسـلام لابـن الأنباري / تحقيق ودراسة سيد حسين باغجوان / الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م / دار البشائر الإسلامية / بيروت .

١٤٤- الدر المنثور للسيوطي / د . ت / مطبعة الأنوار المحمدية / القاهرة .

١٤٥- الـدر المنضـد في ذكـر أصـحاب الإمام أحمد ير الدين عبدالرحمن العليمي / تحقيق: د؟ عبدالرحمن العثيمين / الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م / مطبعة المدني / القاهرة .

١٤٦- درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية / تحقيق د. محمد رشاد سالم / توزيع مكتبة ابن تيمية / القاهرة / د.ت .

١٤٧- دراسـات في الفـرق والعقائـد الإسلامية لعرفان عبدالحميد / الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / مؤسسة الرسالة / بيروت .

١٤٨- الـدرر السنية في الأجوبة النجدية / جمع: عبد الرحمن بن قاسم / الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م / بدون طابع أو ناشر .

١٤٩- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني / د . ت / دار إحياء التراث العربي/ بيروت .

١٥٠- دعوة التوحيد لـ د. محمد خليل هراس / د . ت / الناشر مكتبة الصحابة / طنطا .

١٥١- دلائـل النبوة للبيهقي / تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي / الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م / دار الكتب العلمية / بيروت .

١٥٢- دلالة الحائرين لموسى بن ميمون القرطبي / عارضه بأصوله العربية والعبرانية د. حسين آتاي / د . ت / الناشر مكتبة الثقافة الدينية / القاهرة .

١٥٣- ديـوان أبي الطـيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري / تحقيق وضبط مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي / بدون طبعة / د . ت / دار المعرفة / بيروت .

١٥٤- ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ / تحقيق: أحمد عبدا يد غزالي / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / دار الكتاب العربي / بيروت .

١٥٥- ديوان عنترة / طبع سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م / دار بيروت للطباعة والنشر / بيروت .

١٥٦- ديـوان كعب بن زهير / قرأه وقدم له : د. محمد يوسف نجم / الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م / دار صادر / بيروت .

١٥٧- الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب / د . ت / دار المعرفة / بيروت .

١٥٨- الرد الأقوم على ما في فصوص الحكم لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢.

١٥٩- الرد على البكري لابن تيمية / الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / الدار العلمية / دلهي .

١٦٠- الـرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد / تحقيق وتعليق: د. عبدالرحمن عميرة / الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م / دار اللواء / الرياض .

١٦١- الرد على المنطقيين لابن تيمية / تحقيق عبد الصمد شرف الدين الكتبي / الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م / مطبعة معارف ، إدارة ترجمان السنة / لاهور .

١٦٢- رسائل العدل والتوحيد / تحقيق د. محمد عمارة / الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م / دار الشروق / القاهرة - بيروت .

١٦٣- رسـائل منطقـية في الحدود والرسوم للفلاسفة العرب / جمع وتحقيق: د. عبدالأمير الأعسم / الطبعة الأولى ١٩٩٣ م -١٤١٣ هـ / دار المناهل / بيروت .

١٦٤- الرسالة الأكملية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج٦ .

١٦٥- رسالة الصوفية والفقراء لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١١ .

١٦٦- الرسـالة القشيرية للقشيري / تحقيق د. عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف / د . ت / دار الكتب الحديثة / القاهرة.

١٦٧- رسالة شيخ الإسلام إلى نصر المنبجي - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢ .

١٦٨- رسـ ـالة في أنـواع التوحـيد وأنواع الشرك للشيخ عبد الرحمن بن حسن - ضمن مجموعة التوحيد .

١٦٩- رسالة في القوى الإنسانية وإدراكا ا لابن سينا - ضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات .

١٧٠- رسالة في تحقيق التوكل لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل ج ١ .

١٧١- رسالة في تفسير قوله ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل ج١ .

١٧٢- رسالة في تكسير الأحجار للغياني - نشرت ضمن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية .

١٧٣- رسالة في دخول الجنة لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل ج ١ .

١٧٤- رسالة في قنوت الأشياء لله تعالى لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل ج ١ .

١٧٥- رسالة في معنى كون الرب عادلاً لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل ج ١.

١٧٦- رسالتان فلسفيتان للفارابي / تحقيق: د. جعفر آل ياسين / الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / دار المناهل / بيروت .

١٧٧- رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢٠ .

١٧٨- الروح لابن قيم الجوزية / تحقيق: د. بسام علي سلامة / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / نشر دار ابن تيمية للنشر والتوزيع / الرياض .

١٧٩- روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية / تحقيق د. السيد الجميلي / الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م / دار الكتاب العربي / بيروت .

١٨٠- روضة الناظر وجنة المناظر لموفق الدين ابن قدامة المقدسي / قدم له وحققه وعلق عليه د. عبدالكريم النملة / الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م / مكتبة الرشد / الرياض .

١٨١- زاد المسير لابن الجوزي / الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / المكتب الإسلامي / بيروت .

١٨٢- زاد المعاد لابن قيم الجوزية / حققه شعيب الأرناؤوط و عبدالقادر الأرناؤوط / الطبعة الثامنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م / مؤسسة الرسالة / بيروت / مكتبة المنار الإسلامية / الكويت .

١٨٣- الزهد لابن المبارك / تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي / د . ت / دار الكتب العلمية / بيروت .

١٨٤- الزهد للإمام أحمد بن حنبل الشيباني / تصحيح عبدالرحمن بن قاسم / ١٣٩٨هـ -١٩٧٨ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

١٨٥- الزهد لهناد بن السري / تحقيق: عبدالرحمن الفريوائي / الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦ هـ / دار الخلفاء للكتاب الإسلامي / الكويت .

١٨٦- سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني / الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م / مكتبة المعارف / الرياض .

١٨٧- السـنة لابن أبي عاصم / بتحقيق الألباني المسمى : ظلال الجنة في تخريج السنة / الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م / المكتب الإسلامي / بيروت .

١٨٨- السنة لعبدالله بن أحمد / تحقيق ودراسة د. محمد بن سعيد القحطاني / الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م / دار ابن القيم / الدمام .

١٨٩- سنن أبي داود / تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد / الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩ م / دار الحديث / حمص .

١٩٠- سنن ابن ماجة / تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي / د . ت / المكتبة الإسلامية / استنبول (تركيا) .

١٩١- سـنن الدارمـي / تحقيق السيد عبدالله هاشم / د . ت / الناشر حديث أكاديمي / فيصل آباد (باكستان) .

١٩٢- السنن الكبرى للبيهقي / د . ت / دار المعرفة / بيروت .

١٩٣- السنن الكبرى للنسائي / تحقيق: د. عبدالغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن / الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

١٩٤- سـنن النسائي / الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م / شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي / القاهرة .

١٩٥- السياسة الشرعية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢٨ .

١٩٦- السياسـة المدنية للفارابي / تحقيق وتعليق: د. فوزي متري نجار / الطبعة الثانية ١٩٩٣ م / دار المشرق / بيروت .

١٩٧- السـيد البدوي ودولة الدراويش في مصر لمحمد فهمي عبداللطيف / د . ت / الناشر سمير أبو داود المركز العربي للصحافة / القاهرة .

١٩٨- سـير أعـلام النبلاء للذهبي / شعيب الأرنؤوط ومجموعة معه / الطبعة السابعة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م / مؤسسة الرسالة بيروت .

١٩٩- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي/ طبع سنة ١٩٨٨م - ١٤٠٩هـ / دار الفكر / بيروت .

٢٠٠- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار المعتزلي/ تحقيق د. عبدالكريم عثمان / الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م / الناشر مكتبة وهبة / القاهرة .

٢٠١- شـرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي / تحقيق: د. أحمد سعد الحمدان / د . ت / الناشر دار طيبة للنشر والتوزيع / الرياض .

٢٠٢- شرح الإرشاد لأبي بكر بن ميمون / تحقيق: د. أحمد حجاي السقا / طبع سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / مطبعة دار التضامن / القاهرة .

٢٠٣- شرح الإشارات والتنبيهات للنصير الطوسي / تحقيق: د. سليمان دنيا / طبع سنة ١٩٥٨ / دار المعارف / القاهرة .

٢٠٤- شـرح التسهيل لابن مالك / تحقيق: د. عبدالرحمن السيد ود. محمد بدوي المختون / الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م / هجر للطباعة والنشر / القاهرة .

٢٠٥- شرح السنة للبغوي / تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرناؤط / الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٢٠٦- شـرح العقـيدة الأصفهانية لابن تيمية / قدم له حسنين محمد مخلوف / د . ت / دار الكتب الإسلامية / القاهرة .

٢٠٧- شرح العقيدة الطحاوية لأبن أبي العز الحنفي / تخريج: محمد ناصر الدين الألباني / الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٢٠٨- شـرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة لابن تيمية / تحقيق: د. صالح بن محمد الحسن / الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م / النشر مكتبة الحرمين / الرياض .

٢٠٩- شـرح القصـيدة النونية لمحمد خليل هراس / د . ت / دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر / القاهرة .

٢١٠- شرح الكوكب المنير لابن النجار الحنبلي / تحقيق د. محمد الزحيلي ود. نزيه حماد / طبع سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م / الناشر مكتبة العبيكان / الرياض .

٢١١- شـرح المـنهاج لشمس الدين محمود الأصفهاني / تحقيق: د. عبدالكريم النملة / الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ / الناشر مكتبة الرشد / الرياض .

٢١٢- شـرح تنقـيح الفصول للقرافي / تحقيق طه عبدالرؤوف سعد / الطبعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م / المكتبة الأزهرية للتراث / القاهرة .

٢١٣- شرح حديث إني حرمت الظلم على نفسي لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٨ .

٢١٤- شرح حديث النزول لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٥ .

٢١٥- شرح دعوة ذي النون لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٠

٢١٦- شرح ديوان الأعشى / قام بشرحه: إبراهيم جزيني / الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ -١٩٦٨ م / دار الكاتب العربي / بيروت .

٢١٧- شـرح ديوان زهير بن أبي سلمى / شرح وتحقيق د. أحمد طلعت / الطبعة الأولى ١٩٦٨ م / إصدار دار كرم / دمشق

٢١٨- شرح ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد / تحقيق وتعليق : د. سامي الدهان / الطبعة الثالثة / د . ت / دار المعارف / القاهرة .

٢١٩- شرح صحيح مسلم للنووي / د . ت / مكتبة ابن تيمية / القاهرة .

٢٢٠- شرح فتح القدير لمحمد بن عبدالواحد السيواسي / الطبعة الثانية د . ت / دار الفكر / بيروت .

٢٢١- شرح كلمات لعبد القادر في فتوح الغيب لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٠ .

٢٢٢- شرح مختصر الروضة للطوفي / تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي / الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م / مؤسسة الرسالة / بيروت .

٢٢٣- شـرح معـاني الآثار للطحاوي / تحقيق: محمد زهري النجار / الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٢٤- شعب الإيمان للبيهقي / تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول / الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ / دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٢٥- شـفاء العلـيل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيم الجوزية / تحرير: الحساني حسن عبدالله / د . ت / الناشر مكتبة دار التراث / القاهرة .

٢٢٦- الشـفاء لابن سينا ج٢/ تحقيق: محمد يوسف موسى وسليمان دنيا وسعيد زايد ، مراجعة د. إبراهيم مدكور / طبع سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م / الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية / القاهرة .

٢٢٧- شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة للقشيري - ضمن طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج٢

٢٢٨- الصـحاح للجوهـري / تحقيق: أحمد عبدالغفور عطا / الطبعة الرابعة ١٩٩٠ م / دار العلم للملايين / بيروت .

٢٢٩- صـحيح ابـن خزيمة / تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي / د . ت / المكتب الإسـلامي / بيروت .

٢٣٠- صحيح البخاري / تحقيق د. مصطفى ديب البغا / الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / دار ابن كثير و اليمامة / دمشق – بيروت .

٢٣١- صحيح سنن أبي داود للألباني / تعليق زهير الشاويش / الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٢٣٢- صحيح سنن الترمذي للألباني / تعليق زهير الشاويش / الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٢٣٣- صـحيح مسـلم / تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي / د . ت / مطبعة دار إحياء الكتب العربية / القاهرة .

٢٣٤- الصـفدية لابـن تيمية / تحقيق د. محمد رشاد سالم / الطبعة الثانية عام ١٤٠٦هـ / الناشر مكتبة ابن تيمية / القاهرة .

٢٣٥- الصـناعات الكيميائية لـ د. أحمد مدحت إسلام / طبع سنة ١٤١٨ هـ -١٩٩٧ م / دار الفكر العربي / القاهرة .

٢٣٦- الصـواعق المرسـلة لابـن قيم الجوزية / تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله / النشرة الأولى ١٤٠٨هـ / دار العاصمة / الرياض .

٢٣٧- الضعفاء والمتروكون لابن الجوزي / تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٣٨- ضعيف سنن أبي داود للألباني / تعليق: زهير الشاويش / الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٢٣٩- ضعيف سنن ابن ماجة للألباني / تعليق زهير الشاويش / الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٢٤٠- ضعيف سنن الترمذي للألباني / تعليق زهير الشاويش / الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٢٤١- طبقات الأمم لصاعد الأندلسي / تحقيق: حياة بوعلوان / الطبعة الأولى ١٩٨٥ م / دار الطليعة للطباعة والنشر / بيروت .

٢٤٢- طبقات الحفاظ للسيوطي / الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٤٣- طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين بن أبي يعلى / د . ت / دار المعرفة / بيروت .

٢٤٤- طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي / الطبعة الثانية د.ت / دار المعرفة / بيروت.

٢٤٥- طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة / تحقيق: د. الحافظ عبدالعليم خان / الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / عالم الكتب / بيروت .

٢٤٦- الطـبقات الكبرى لابن سعد / دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا / الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٤٧- طبقات المحدثين بأصبهان لأبي الشيخ الأصبهاني / تحقيق: د. عبدالغفار البنداري وسيد كسروي حسن / الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٤٨- طبقات المعتزلة أحمد بن يحيى بن المرتضى /تحقيق: سوسنة ديفلد - فلزر / الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م / دار المنتظر / بيروت .

٢٤٩- طـبقات المفسـرين للداودي / تحقيق: علي محمد عمر / الطبعة الأولى ١٣٩٢ - ١٩٧٢ م / الناشر: مكتبة وهبة / القاهرة .

٢٥٠- الطبـيعة لارسطو طاليس / ترجمة حنين بن إسحاق مع شروح : ابن السمح وابن عدي ومتى ابـن يونس وأبي الفرج بن الطيب / تحقيق: عبدالرحمن بدوي / طبع سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة .

٢٥١- طـريق الهجـرتين لابن قيم الجوزية / تحقيق محب الدين الخطيب / الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ / المطبعة السلفية / القاهرة .

٢٥٢- طـريق الوصـول إلى العلـم المأمول جمع الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي / د . ت / منشورات المؤسسة السعيدية / الرياض .

٢٥٣- العبودية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٠ .

٢٥٤- العبودية لابن تيمية / تقديم عبدالرحمن الباني / الطبعة الخامسة ١٣٩٩ هـ / المكتب الإسلامي / بيروت .

٢٥٥- عـدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية / تصحيح ومراجعة نعيم زرزور / الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٥٦- العدة في أصول الفقه للقاضي أبي يعلى الفراء الحنبلي / تحقيق: د. أحمد بن علي سير المباركي / الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م / دون طابع أو ناشر .

٢٥٧- العقـود الدريـة لابـن عبدالهادي / تقديم علي صبيح المدني / د . ت / المؤسسة السعودية / القاهرة .

٢٥٨- العقـيدة النظامـية في الأركان الإسلامية لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني / تحقيق محمد زاهد الكوثري / طبع سنة ١٤١٢ هـ -١٩٩٢ م / الناشـر المكتبـة الأزهرية للتراث / القاهرة .

٢٥٩- العقيدة الواسطية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٣ .

٢٦٠- العلل لابن أبي حاتم الرازي / طبع سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م / دار المعرفة / بيروت.

٢٦١- العلل للدارقطني / تحقيق: د. محفوظ عبدالرحمن السلفي / الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / دار طيبة / الرياض .

٢٦٢- عوارف المعارف لعبدالقاهر السهروردي / الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / الناشر دار الكتاب العربي / بيروت .

٢٦٣- العواصـم والقواصـم لابن الوزير / تحقيق: شعيب الأرنؤوط / الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م / مؤسسة الرسالة / بيروت .

٢٦٤- العين للخليل بن أحمد الفراهيدي / تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي / الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت .

٢٦٥- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة / الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / دار الثقافة / بيروت .

٢٦٦- عـيون الحكمـة لابن سينا / تحقيق: د. عبدالرحمن بدوي / الطبعة الثانية ١٩٨٠ م / الناشر وكالة المطبوعات / الكويت - دار القلم / بيروت .

٢٦٧- غـريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام / تحقيق محمد عبدالمعيد خان / طبعة سنة ١٣٩٦ هـ ـ - ١٩٧٦م / بدار الكتاب العربي / بيروت / طبعة مصورة عن الطبعة الأولى التي في سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م / بمطبعة دائرة المعارف العثمانية / بحيدر آباد .

٢٦٨- الفائق للزمخشري / تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم /الطبعة الثانية د . ت / دار المعرفة / بيروت .

٢٦٩- فـتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني / تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن بـاز ومحـب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبدالباقي / الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ / دار المطبعة السلفية / القاهرة .

٢٧٠- فـتح القديـر للشوكاني / طبع سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / دار الفكر الطباعة والنشر / بيروت .

٢٧١- الفـتن لنعـيم بن حماد المروزي / تحقيق سمير بن أمين الزهيري / الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م / مكتبة التوحيد / القاهرة .

٢٧٢- الفتوى الحموية الكبرى لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٥ .

٢٧٣- الفرق بين الفرق لعبدالقاهر البغدادي / تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد / د.ت / دار المعرفة / بيروت .

٢٧٤- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١١ .

٢٧٥- الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٣ .

٢٧٦- فسـيولوجيا النبات تأليف روبرت م. ديفلين وفرانسيس هـ . ويذام / ترجمة د. محمد شراقي ود. علـي سـعد الدين ود. عبدالهادي خضر ود. نادية كامل / مرجعة : محمد فوزي / الطبعة الثانية ١٩٩٨ م / الدار العربية للنشر والتوزيع / القاهرة .

٢٧٧- الفصـل في الملـل والأهواء والنحل لابن حزم / تحقيق د. محمد إبراهيم نصر / د. عبدالرحمن عميرة / طبع سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م / دار الجيل / بيروت .

٢٧٨- فضائل الصحابة للإمام أحمد / تحقيق: وصي الله بن محمد عباس / الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م / دار ابن الجوزي / الدمام .

٢٧٩- فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد لفضل الله الجيلاني / الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ / دار المطبعة السلفية / القاهرة .

٢٨٠- الفهرست للنديم / تحقيق رضا تجدد / الطبعة الثالثة ١٩٨٨م / دار المسيرة / طهران .

٢٨١- فوات الوفيات للكتبي / تحقيق: إحسان عباس / د . ت / دار صادر / بيروت .

٢٨٢- الفواكه الدواني للنفراوي المالكي / طبع سنة ١٤١٥ هـ / دار الفكر/ بيروت .

٢٨٣- في ظلال القرآن لسيد قطب / الطبعة السابعة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م / دار الشروق / بيروت .

٢٨٤- في فلسفة الطب لـ د. أحمد محمود صبحي و د. محمود فهمي زيدان / تقديم د. محمود مرسي عبدالله / طبع سنة ١٩٩٣ م / دار النهضة العربية / بيروت .

٢٨٥- قاعدة في أن جنس المأمور به أعظم من جنس الترك المنهي عنه - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢٠ .

٢٨٦- قاعدة في التوسل والوسيلة لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١ .

٢٨٧- قاعدة في القرآن وكلام الله لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٢ .

٢٨٨- قاعدة في المحبة لابن تيمية - ضمن جامع الرسائل ج ١ .

٢٨٩- قاعدة في المعجزات والكرمات لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١١.

٢٩٠- قاعدة في توحيد الإلهية وإخلاص العمل والوجه لله لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١ .

٢٩١- القاموس المحيط للفيروزأبادي / طبع سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م / دار الفكر / بيروت.

٢٩٢- قراءة في علم الكلام الغائية عند الأشاعرة لنوران الجزيري / ١٩٩٢ م / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة .

٢٩٣- قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي لـ د. محمد السيد الجليند / الطبعة الثانية ١٩٨١ م / مطبعة الحلبي / القاهرة .

٢٩٤- قنعة الأريب في تفسير الغريب لموفق الدين ابن قدامة المقدسي / تحقيق: د. علي حسين البواب / د . ت / دار أمية للنشر والتوزيع /الرياض .

٢٩٥- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لمحمد الصالح العثمين / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / دار ابن القيم ومكتبة ابن الجوزي / الدمام .

٢٩٦- القواعد النورانية الفقهية لابن تيمية / تحقيق: محمد حامد الفقي / الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م / مكتبة المعارف / الرياض .

٢٩٧- القواعد في الفقه الإسلامي لابن رجب الحنبلي / د . ت / الناشر : دار المعرفة / بيروت .

٢٩٨- القواعد والفوائد الأصولية لابن اللحام / تحقيق: محمد حامد الفقي / الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٩٩- قوت القلوب لأبي طالب المكي / د.ت / دار الفكر / بيروت.

٣٠٠- القـول السديد شرح كتاب التوحيد لابن سعدي / طبع عام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / طبع ونشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد / الرياض .

٣٠١- القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين / تحقيق: د. سليمان أبا الخيل ود. خالد المشيقح / الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / دار العاصمة / الرياض .

٣٠٢- الكاشـف للـذهبي / تحقيق : عزت علي وموسى محمد علي / الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م / دار الكتب الحديثة / القاهرة .

٣٠٣- الكافية الشافية لابن قيم الجوزية / د.ت / الناشر مكتبة ابن تيمية/ القاهرة .

٣٠٤- الكامل في التاريخ لابن الأثير / تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي / الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٣٠٥- الكامـل في ضعفاء الرجال لابن عدي / تحقيق: د. سهيل زكار ويحيى مختار غزاوي / الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ -١٩٨٨ م / دار الفكر / بيروت .

٣٠٦- كـتاب السـحر بين الحقيقة والخيال لـ د.أحمد الحمد / الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ / مكتبة التراث / مكة .

٣٠٧- كـتاب الصلاة وحكم تاركها لابن قيم الجوزية / تحقيق: تيسير زعيتر / الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٣٠٨- كـتاب العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد / تحقيق: د. طلعت قوج ود. إسماعيل جراح / طبع سنة ١٩٨٧ هـ / المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر / استانبول - تركيا .

٣٠٩- كرامات أولياء الله عز وجل للالكائي / تحقيق: د. أحمد سعد الحمدان / الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م / دار طيبة للنشر والتوزيع / الرياض .

٣١٠- كشـاف اصـطلاحات الفنون للتهانوي / تحقيق: د. لطفي عبدالبديع ، ترجمة: د. عبدالنعيم محمد حسنين / طبع سنة ١٩٧٢ هـ / الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب(١).

٣١١- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي / د . ت / دار صادر / بيروت .

٣١٢- الكشاف للزمخشري / د . ت / دار المعرفة / بيروت .

٣١٣- كشـف الأسـتار عن زوائد البزار للهيثمي / تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي / الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م / مؤسسة الرسالة / بيروت .

٣١٤- كشف الظنون لحاجي خليفة / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٣١٥- الكشف عن حقيقة الصوفية لمحمود عبدالرؤوف القاسم / الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م / توزيع دار الصحابة للطباعة والنشر / بيروت .

٣١٦- الكشـف عن مناهج الأدلة لابن رشد / طبع سنة ١٩٨٧ م / مكتبة التربية للطباعة والنشر / بيروت .

٣١٧- الكلـيات للكفوي / تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري / الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م / مؤسسة الرسالة / بيروت .

٣١٨- الكيلانية لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٢ .

٣١٩- لسان العرب لابن منظور / الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م / دار صادر / بيروت .

٣٢٠- لسان الميزان لابن حجر العسقلاني / الطبعة الثانية مصورة عن الطبعة الأولى سنة ١٣٢٩هـ / دائرة المعارف النظامية / حيدر آباد (الهند) .

(١) هذه هي الطبعة المعتمدة عند الإحالة إلى هذا المصدر ، وحيث رجعت إلى الطبعة الأخرى فإنني أشير إلى ذلك.

٣٢١- اللمـع في الـرد علـى أهل الزيغ والبدع لأبي الحسن الأشعري / تحقيق: عبدالعزيز عز الدين السيروان / الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م / دار لبنان للطباعة والنشر / بيروت .

٣٢٢- المـباحث المشرقية للفخر الرازي / تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي / الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م / دار الكتاب العربي / بيروت .

٣٢٣- المـجروحين لابن حبان / تحقيق : محمود إبراهيم زايد / الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ / الناشر دار الوعي / حلب .

٣٢٤- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي/ طبع سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م / دار الريان / القاهرة .

٣٢٥- مجمع بحار الأنوار لمحمد طاهر الصديقي الهندي / الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م / دار الكتاب الإسلامي / القاهرة .

٣٢٦- مجمل اللغة لابن فارس / دراسة وتحقيق: زهير عبدالمحسن سلطان / الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / مؤسسة الرسالة / بيروت .

٣٢٧- مجمـوع فـتاوى شـيخ الإسلام أحمد بن تيمية / جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي / طبع سنة ١٤٠٤هـ / مكتبة النهضة الحديثة / مكة المكرمة .

٣٢٨- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ ابن باز / جمع وترتيب د. محمد الشويعر / الطبعة الثانية ١٤١١هـ - ١٩٩٠ م / المطابع الأهلية للأوفست / الرياض .

٣٢٩- مجمـوعة التوحـيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب ولبعض أبنائه وغيرهم من العلماء / د . ت / مكتبة الرياض الحديثة / الرياض .

٣٣٠- محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني / تحقيق: د. عمر الطباع / الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م / شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم / بيروت .

٣٣١- محصـل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين للفخر الرازي / تقديم وتحقيق: د. حسين آتاي / الطبعة الأولى ١٩٩١ م – ١٤١١ هـ / مكتبة دار التراث / القاهرة .

٣٣٢- المحصول في علم أصول الفقه للفخر الرازي / تحقيق: د. طه جابر فياض العلواني / الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م / مؤسسة الرسالة / بيروت .

٣٣٣- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لابن سيده / تحقيق: مصطفى السقا ود. حسين نصار / الطبعة الأولى ١٣٧٧ هـ - ١٩٨٥ م / معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .#

٣٣٤- المحيط بالتكليف للقاضي عبدالجبار المعتزلي / تحقيق عمر السيد عزمي / د . ت / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر / الدار المصرية للتأليف والترجمة / القاهرة .

٣٣٥- مختار الصحاح للرازي / طبع سنه ١٩٨٩م / مكتبة لبنان / بيروت .

٣٣٦- مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية للبعلي / تحقيق: محمد الفقي / الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / دار ابن القيم / الدمام .

٣٣٧- مختصر تاريخ دمشق لابن منظور / تحقيق د. نسيب نشاوي / طبع سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / دار الفكر / دمشق .

٣٣٨- المختصر في أصول الدين للقاضي عبد الجبار - ضمن رسائل العدل والتوحيد ج ١

٣٣٩- مدارج السالكين لابن قيم الجوزية / الطبعة الأولى د . ت / دار الكتب العلمية / بيروت .

٣٤٠- المدخل لابن بدران / تحقيق: د. عبدالله عبدالمحسن التركي / الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ / مؤسسة الرسالة / بيروت .

٣٤١- مذكرة أصول الفقه للشنقيطي / د . ت / الناشر المكتبة السلفية / المدينة المنورة .

٣٤٢- مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي / الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م / دار الكتاب الإسلامي / القاهرة .

٣٤٣- المسائل الخمسون في أصول الدين للفخر الرازي / تحقيق: د. أحمد حجازي السقا / الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م / دار الجيل / بيروت و المكتب الثقافي / القاهرة .

٣٤٤- المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين لـ د.محمد العروسي عبدالقادر / الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م / دار حافظ / جدة .

٣٤٥- المستدرك على الصحيحين للحاكم / د . ت / دار المعرفة / بيروت .

٣٤٦- المستصفى لأبي حامد الغزالي / تحقيق: إبراهيم محمد رمضان / د . ت / دار الأرقم ابن أبي الأرقم / بيروت .

٣٤٧- مسند أبي داود الطيالسي / د.ت / دار المعرفة / بيروت.

٣٤٨- مسند أبي يعلى الموصلي / تحقيق إرشاد الحق الأثري / الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م / دار القبلة / جدة / مؤسسة علوم القرآن / دمشق .

٣٤٩- المســند المستخرج على صحيح الإمام مسلم لأبي نعيم الأصبهاني / تحقيق: محمد حسن محمد الشافعي / الطبعة الأولى ١٩٩٦ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٣٥٠- المسند للإمام أحمد / الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / المكتب الإسلامي / بيروت - مصورة عن الطبعة الأولى / المطبعة الميمنية .

٣٥١- المسند للحميدي / تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي / د . ت / عالم الكتب/ بيروت .

٣٥٢- المسودة في أصول الفقه لآل تيمية / تقديم محمد محي الدين عبدالحميد / د . ت /مطبعة المدني / القاهرة .

٣٥٣- مشكاة المصابيح للخطيب للتبريزي / تحقيق محمد ناصر الألباني / د . ت / المكتب الإسلامي / بيروت .

٣٥٤- المصادر العامة للتلقي عند الصوفية لصادق سليم صادق / الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م / الناشر مكتبة الرشد / الرياض .

٣٥٥- المصباح المنير للفيومي / طبع سنة ١٩٩٠م / مكتبة لبنان / بيروت .

٣٥٦- المصنف لابن أبي شيبة / تحقيق كمال يوسف الحوت / الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م / دار التاج / بيروت .

٣٥٧- المصنف لعبدالرزاق الصنعاني / تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي / الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٣٥٨- المطالب العالية من العلم الإلهي للفخر الرازي / تحقيق د. أحمد حجازي السقا / الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م / دار الكتاب العربي / بيروت .

٣٥٩- المطلــع علــى أبواب المقنع للبعلي / تحقيق: محمد بشير الأدلبي / ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م / المكتب الإسلامي / بيروت .

٣٦٠- المعــارف الغيبية في شرح النادرات العينية لعبدالغني النابلسي - مقتطفات من الكتاب نشرت ضــمن قصيدة النادرات العينية للجيلي وشرح النابلسي / تحقيق يوسف زيدان / الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م / دار الجيل / بيروت .

٣٦١- معالم أصول الدين للرازي / تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد / طبع سنة ١٤٠٤ هـ -١٩٨٤ م / دار الكتاب العربي / بيروت .

٣٦٢- معالم التنـزيل للبغوي / طبع سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م / دار الفكر / بيروت .

٣٦٣- المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق / النشرة الأولى ١٤٠٩ هـ / دار العاصمة / الرياض .

٣٦٤- المعـتمد لأبي الحسين البصري المعتزلي / قدم له وضبطه: خليل الميس / الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٣٦٥- معجم أكاديميا للمصطلحات العلمية والتقنية / معجم ترجمه جماعة برئاسة د. محمد دبس / طبع أكاديـمياء / بيروت .

٣٦٦- معجـم البلدان لياقوت الحموي / تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي / الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٣٦٧- معجـم الفلاسفة لجورج طرابيشي / الطبعة الأولى ١٩٨٧ م / دار الطليعة للطباعة والنشر / بيروت .

٣٦٨- المعجـم الفلسفي لجميل صليبا / طبع سنة ١٩٨٢م / دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة / بيروت .

٣٦٩- المعجـم الفلسـفي مع اللغة العربية بمصر / طبع سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م / الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية / القاهرة .

٣٧٠- المعجم الكبير للطبراني / تحقيق حمدي عبدا يد السلفي / الطبعة الثانية د . ت / دون طابع أو ناشر .

٣٧١- المعجم المختص بالمحدثين للذهبي / تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة / الطبعة الأولى / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م / نشر مكتبة الصديق / الطائف .

٣٧٢- معنى قول علي لا يرجون عبد إلا ربه - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٨ .

٣٧٣- معيار العلم في فن المنطق للغزالي / د . ت / دار الأندلس / بيروت .

٣٧٤- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام / د . ت / دار إحياء الكتب العربية / القاهرة .

٣٧٥- المغـني لابـن قدامة المقدسي / تحقيق: د. عبدالله التركي ود. عبدالفتاح الحلو / الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / هجر للطباعة النشر / القاهرة .

٣٧٦- مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية / د.ت / مكتبة الرياض الحديثة / الرياض .

٣٧٧- المفردات للراغب الأصفهاني / تحقيق: صفوان عدنان داوودي / الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م / دار القلم / دمشق / الدار الشامية / بيروت .

٣٧٨- مقاصـد الفلاسفة للغزالي / الطبعة الثانية ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م / المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر/ القاهرة .

٣٧٩- مقـالات الإسـلاميين لأبي الحسن الأشعري / تحقيق هلموت رتير / الطبعة الثالثة د.ت / دار إحياء التراث العربي / بيروت .

٣٨٠- مقالة فيما يصح ومالا يصح من أحكام النجوم للفارابي - ضمن رسالتان فلسفيتان .

٣٨١- مقدمة ابن خلدون / الطبعة السادسة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / دار القلم / بيروت .

٣٨٢- المقصد الأرشد لابن مفلح / تحقيق د. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين / الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م / مكتبة الرشد / الرياض .

٣٨٣- المقصـد العلـي في زوائد أبي يعلى الموصلي للهيثمي / تحقيق: سيد كسروي حسن / الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٣٨٤- مكان رأس الحسين لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢٧ .

٣٨٥- الملل والنحل للشهرستاني / تحقيق محمد سيد كيلاني / طبع سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م / دار المعرفة / بيروت .

٣٨٦- مـنازل السائرين إلى الحق عز شأنه للهروي / الطبعة الثانية ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / القاهرة .

٣٨٧- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي /تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا و مراجعة نعيم زرزور / الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٣٨٨- المنجد في اللغة والأعلام / الطبعة الثلاثون ١٩٨٨ م / نشر دار المشرق / بيروت .

٣٨٩- منسك شيخ الإسلام رحمه الله - ضمن مجموع الفتاوى ج ٢٦ .

٣٩٠- مـنهاج السـنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لشيخ الإسلام ابن تيمية / تحقيق محمد رشاد سالم / الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م / دون طابع أو ناشر .

٣٩١- المنـية والأمل للقاضي عبد الجبار / جمع أحمد بن يحيى المرتضى / تحقيق: د. عصام الدين محمد علي / طبع سنة ١٩٨٥ م / دار المعرفة الجامعية / الاسكندرية .

٣٩٢- مـوارد الظمـآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي / تحقيق محمد عبدالرزاق حمزة / د . ت / دار الكتب العلمية / بيروت .

٣٩٣- المـواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار للمقريزي / د . ت / الناشر مكتبة الثقافة الدينية / القاهرة .

٣٩٤- المواقف في علم الكلام للقاضي عضـد الدين الإيجي / د. ت / عالم الكتب / بيروت .

٣٩٥- موسـوعة الفلسـفة لـ د. عبدالرحمن بدوي / الطبعة الأولى ١٩٨٤ م / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت .

٣٩٦- المـوطأ للإمـام مالك / تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / د . ت / دار إحياء الكتب العربية / القاهرة .

٣٩٧- موقف ابن تيمية من الأشاعرة لـ د. عبدالرحمن بن صالح المحمود / الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م / الناشر مكتبة الرشد للنشر والتوزيع / الرياض .

٣٩٨- موقـف العقل والعلم والعالم من رب العالمين لمصطفى صبري / الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / دار إحياء التراث / بيروت .

٣٩٩- ميـزان الاعتدال للذهبي / تحقيق علي محمد البجاوي وفتحية علي البجاوي/ د.ت / طبع دار الفكر العربي .

٤٠٠- ميزان الذهب في صناعة شعر العرب / للسيد أحمد الهاشمي / طبع سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م / بدون طابع أو ناشر .

٤٠١- النبوات لابن تيمية / تحقيق: د. عبدالعزيز الطويان / الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م / مكتبة أضواء السلف / الرياض[١] .

٤٠٢- النبوات لابن تيمية / د . ت / دار القلم / بيروت .

٤٠٣- الـنجاة لابـن سـينا / تحقيق: د. ماجد فخري / الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / منشورات دار الآفاق الجديدة / بيروت .

---

(١) هذه هي الطبعة المعتمدة عند الإحالة إلى هذا المصدر ، وحيث رجعت إلى الطبعة الأخرى فإنني أشير إلى ذلك.

٤٠٤- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي / د . ت / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر / القاهرة .

٤٠٥- نزهة الخاطر العاطر شرح روضة الناظر لابن بدران / د . ت / دار الكتب العلمية / بيروت .

٤٠٦- نشر البنود شرح مراقي السعود لعبدالله بن إبراهيم الشنقيطي / الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٤٠٧- نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني / حرره وصححه: ألفرد جيوم / د . ت / مكتبة الثقافة الدينية .

٤٠٨- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير / تحقيق محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي / د . ت / الناشر دار أنصار السنة / لاهور (باكستان).

٤٠٩- هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٤١٠- هذه هي الصوفية لعبدالرحمن الوكيل / الطبعة الثالثة ١٩٧٩ م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٤١١- الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن قيم الجوزية / تحقيق: بشير محمد عيون / د . ت / نشر مكتبة دار البيان / دمشق .

٤١٢- الواسطة بين الحق والخلق لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١

٤١٣- الوافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي / تحقيق: د. فخر الدين قباوة / الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م / دار الفكر / دمشق .

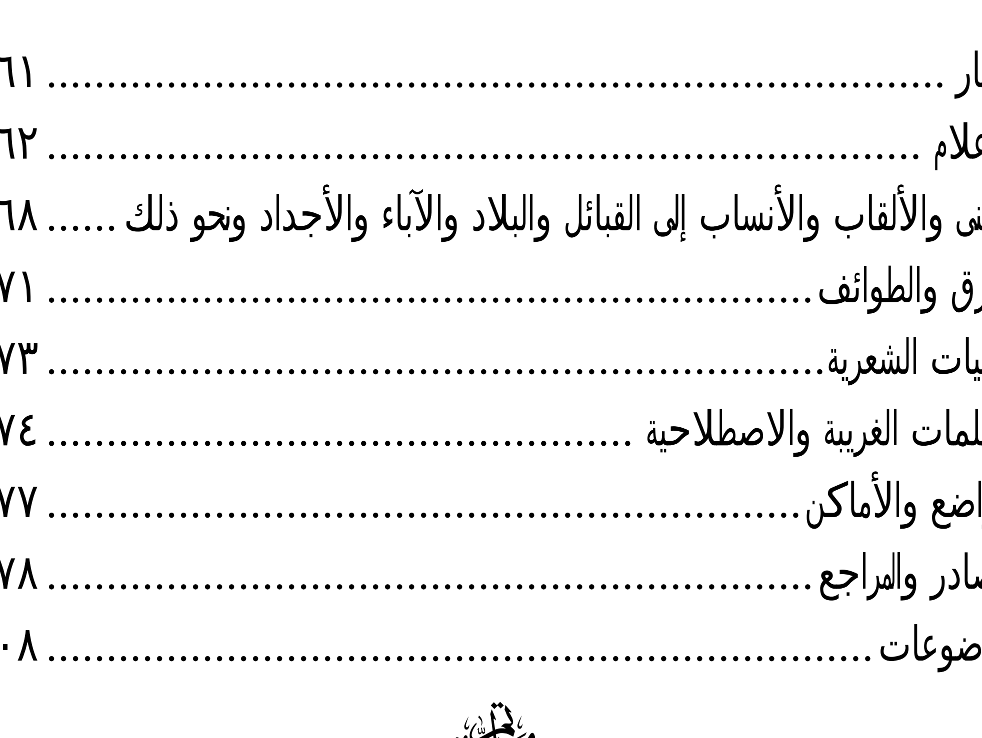
٤١٤- الورقات لإمام الحرمين الجويني / تحقيق: د. عبداللطيف محمد العبد / د . ت / بدون طابع أو ناشر .

٤١٥- الوصية الكبرى لابن تيمية - ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٣ .

٤١٦- وفيات الأعيان لابن خلكان / تحقيق: د إحسان عباس / د . ت / دار الثقافة / بيروت .



فهرس الموضوعات


تم بحمد الله